# المنتقى المقصور

## على مآثر الخليفة المنصور

لأحمد بن القاضي

دراسة وتحقيق

محمد رزوق

الجزء الأول




ص. ب : 239 - الرباط.
الهاتف: 265.24

# المنتقى المقصور
## على
# مآثر الخليفة المنصور

لأحمد بن القاضي

---

دراسة وتحقيق
**محمد رزوق**
كلية الآداب والعلوم الإنسانية (1)
الدار البيضاء

## الجزء الأول



بسم الله الرحمن الرحيم

رقم الايداع القانوني

1986 / 228

نوقش هذا العمل يوم 8 فبراير 1980 بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط أمام لجنة مكونة من السادة الأساتذة :

الدكتور محمد حجي مشرفا ومقررا

الدكتور محمد بنشريفة رئيسا

الأستاذ محمد المنوني عضوا

ونال صاحبه دبلوم الدراسات العليا في التاريخ بميزة حسن .

# شكر وتقدير

أتقدم بكامل الشكر إلى أستاذي: الدكتور محمد حجي الذي أشرف على هذا العمل منذ كان فكرة إلى أن أصبح حقيقة، وإلى الأستاذ: محمد المنوني على توجيهاته وإرشاداته، وإلى الدكتور: محمد بنشريفة على ملاحظاته القيمة حول العمل المنجز، وإلى الأستاذ: محمد إبراهيم الكتاني الذي أمدنا بما احتجنا إليه من وثائق، وإلى صديقي الأستاذ أحمد الشرقاوي إقبال الذي استفدت من خبرته في ميدان اللغة والأدب، وإلى سائر الأصدقاء الذين لم يبخلوا علي بما لديهم من معلومات أو وثائق.

# توطئة

لماذا **المنتقى** ؟

تتجاوز الاجابة عن هذا السؤال **المنتقى** لنطرح سؤالا أعم ، وهو : لماذا التراث ؟

ويؤدي بنا هذا إلى سؤال آخر أوضح ، وهو : ما هو موقفنا من التراث ؟

نلاحظ بصفة عامة أن هناك ثلاثة مواقف من التراث :

**الموقف الأول** : موقف مجدد ينظر إلى التراث بعين الاعجاب والنقد معا ، ويعيد النظر في مفاهيم الماضي على ضوء حاجات الحاضر وهمومه .

**الموقف الثاني** :موقف محافظ يدافع عن كل ما في التراث لمجرد أنه من التراث ، ويهرب من أرض الحاضر إلى سماء الماضي.

**الموقف الثالث** :موقف استقصائي موضوعي لا ينطلق من موقف إيديولوجي معين ، بل يجعل كل همه أن ينشر هذا التراث علميا وأن يكشف عن الجوانب التي لا تزال مجهولة منه .

* * *

بالنسبة للموقف الأول : يرتكز على نقطتين أساسيتين :

1 ــ التراث كعنصر هام من عناصر شخصية الأمة الضرورية لاستمرارها . ذلك أن لكل أمة استمرار في التاريخ لا يتحقق إلا باعتزاز الجيل الحاضر بالتركة التي خلفتها الأجيال السالفة من هذه الأمة ، والالتزام بها باعتبارها من عناصر تكوين شخصية الأمة ، إن لم نقل أهم هذه العناصر على الاطلاق . إن هذه التركة هي التي تربطنا بالسلف ، وعن طريقها نعرف كيف كانوا

يفكرون وينفعلون ، وكيف كانوا يحيون ويتصرفون . فإذا عرفنا عنهم ذلك نزعت بنا نوازع الانتماء والهوية إلى الأخذ عنهم والاقتداء بهم ، فاعتنقنا دينهم ، وتكلمنا لغتهم ، واستمتعنا بأدبهم ، وتمثلنا بمواقفهم ، واتخذنا قراراتنا في ضوء قراراتهم ، وهكذا نصبح وإياهم أمة واحدة مستمرة في التاريخ منذ أن كتب لهم تاريخ .

2 ــ إن تراثنا حافل بالعناصر الصالحة للتطوير لأنها لا تتنافى مع الحقائق العلمية الحديثة وإن بدت في ظاهرها أو في تفسيراتها السابقة بعيدة عن العقلية المعاصرة ، وعلينا أن نقرأه بروح جديدة قوامها الانصاف . ولا يتأتى ذلك إلا إذا وضعناه في إطار من النقد والتمحيص بما يتلاءم والعقلية المعاصرة ، وبالتالي لا يجب أن ننجرف وراء السلبيات الموجودة في التراث لمجرد أنه تراث .

وهكذا يخلص أصحاب هذا الاتجاه إلى نتيجتين أساسيتين :

ــ أن نشارك في الحضارة مشاركة المنتج لنستحق الانتساب لتاريخنا المجيد .

ــ أن تحمل مشاركتنا طابعنا القومي .

* * *

أما بالنسبة للموقف الثاني فإنه يدافع عن التراث لمجرد أنه تراث ، وبالتالي فهو يرفض الموقف التوفيقي السابق ، فالتراث يجب أن يبقى كما هو ، ويؤخذ كما هو لأنه تراث !

فالاختلاف ، إذن ، هنا حاد إذ لم يختلف المثقفون العرب على شيء قدرما اختلفوا في موقفهم من هذا التراث الذي تركه أسلافنا . والسبب الأكبر في هذا الاختلاف يعود إلى أننا انتهينا بنظمنا التعليمية إلى ازدواجية غير محمودة فصلت في التعليم بين التراث والعلوم العصرية ، فجعلت للتراث معاهد خاصة تعزف عن الأخذ بالجديد ، وجعلت للجديد معاهد خاصة تنظر من عل إلى القديم . وهكذا تخرج مثقفون من معاهد التراث وهم يرون الخلاص في العودة إلى هذا التراث وترك ما استحدثته الحضارة من علم ، وتخرج مثقفون من معاهد العلم الحديث فرأوا بأعينهم وسمعوا بآذانهم كيف أصبح الانسان بالعلم قاب قوسين من السيطرة على الطبيعة ، وكيف أصبح العلم هو المصدر الوحيد في عالمنا المعاصر للقوة والتفوق ، وقد جهل هؤلاء ما في التراث من كنوز وما له من قيمة بالنسبة إلى استمرارية شخصية الأمة . وهكذا كان جهل كل من الفريقين بما عند الآخر سببا للخلاف بينهما حول قضية التراث والمعاصرة .

فلو أن كلا من الفريقين حاول أن يتعرف على ما في يد الآخر لكان من الممكن لهما أن يصلا معا إلى فهم مشترك للكيفية التي يتم بها بناء المستقبل . ولكن أصحاب التراث قعد بهم

الشك في نوايا الغربيين عن محاولة الأخذ والتلقي ، لأنهم عرفوا الغرب من خلال ما يقوله طائفة من المستشرقين الطاعنين في الاسلام والمنتقصين للمجتمع الاسلامي ، وهؤلاء المستشرقون كانوا يسعون بدون شك إلى إحدى غايتين : غاية التبشير بالمسيحية ، وغاية الاستعمار .

ومن هنا جاءت كتاباتهم مسمومة حاقدة ، فكان التراثيون الذين عرفوا الغرب من خلال هؤلاء معذورين في إساءة الظن بكل ما هو غربي . وفي نفس الوقت نجد المعاصرين قد وقف بهم الجهل بالتراث وذخائره دون التقرب منه ، وكما تكون العادة دائما حاولوا عند المواجهة والمناظرة أن يهونوا من شأن التراث إما بالطعن في قيمته من حيث هو منطلق ممكن للاحياء ، وإما بالسخرية من حملة التراث الذين يقيمون في متحف هم سدنته وهم رواده وزائروه . ولقد أعانهم على هذا الانتقاص والطعن والسخرية أن المستعمر في كل بلاد العرب والمسلمين كان يكيد للتراث لأنه يعرف أن التراث هو أهم مقومات الأمة ، وأنها لن تكف عن المقاومة ما دام في يدها تراث .

★ ★ ★

الموقف الثالث : ويرى أن الاهتمام بالتراث لا يعني آهات الاعجاب والتصفيق والتنويه الجزافي والاطناب في المدح والتغزل بآثار الأجداد ، وإنما يعني ، أولا وقبل كل شيء ، صيانة ذلك التراث من الضياع بتخصيص اعتمادات ومؤسسات وأجهزة كافية لذلك ، ويعني إعادة دراسة ذلك التراث على ضوء العلم الحديث ، وتقييمه تقييما نقديا بإبراز إيجابياته وسلبياته .

★ ★ ★

ومهما يكن من اختلاف في هذه المواقف ، فإننا نجدها تلتقي كلها في نقطة واحدة أساسية وهي الاهتمام به ونشره ، على أن هذا الاهتمام لا يعني أننا سنجد فيه العلاج لمشاكلنا الوقتية ، فأجدادنا لم يعيشوا في نفس الاطار ولا في نفس العالم ، ولم يشاهدوا الخطوات الكبيرة التي سارت بها الحضارة في عصرنا ، دافعة بعجلة التطور إلى الاسراع في الدوران . فمشاكلنا جديدة تحتاج إلى حلول جديدة ، وهذا يرجع إلى مسؤولية جيلنا الذي عليه أن يتحملها كاملة فيبحث لنفسه عن الحلول الملائمة .

لكن التراث يبقى له مع ذلك دور روحي ومعنوي ، إنه يربطنا بوطن ، ويكون أساسا من أسس شخصيتنا القومية ، ومنفذا إلى التيارات الحقيقية التي كانت تسري في بواطن الحياة الاجتماعية ببلادنا والتي قد نجد معها نقط التقاء . وهو بالاضافة إلى ذلك ، مستودع قيم وتجارب

منها ما تجاوزه الزمان ، ومنها ما زال محتفظا بجدته وحيويته ، دالا على عبقرية شعب وحصافته .
ومن هذا الصنف الأخير المنتقى ، فقد ألف في عصر ما زلنا إلى اليوم نستلهم منها ما هو ضروري لتحقيق مطامحنا في التحرر ، فما زلنا إلى اليوم نتذكر معركة وادي المخازن ، بل ونحتفل بها سنويا ، وما زلنا إلى اليوم نعتز بكوننا وصلنا إلى السودان ونشرنا الاسلام هناك قبل أن يصل إليه الغزو المسيحي ، وما زلنا إلى اليوم نؤكد استقلاليتنا بكوننا البلد العربي الوحيد الذي نجا من السيطرة العثمانية ، بل ما زلنا إلى اليوم نتذكر محاولة المنصور استرجاع الأندلس ، وبكون المغرب آنذاك بدأت تظهر فيه بوادر نهضة لا تقل عما ظهر آنذاك بأوروبا ، فقد كان المنصور عالما مفكرا ، مطلعا على الأوضاع الدولية ويعرف خبايا السياسة الأوروبية .

من هذا المنطلق ، إذن ، كان عملنا في المنتقى ، والذي أنصب أساسا على تحقيقه وتوضيح غوامضه ، ودراسة جوانب معينة منه ، وذلك في إطار نقدي تحليلي يعتمد الادوات المتوفرة .

* * *



# الدراسة

# الفصل الأول

## شخصية ابن القاضي

ازدهرت الحياة الاجتماعية والفكرية والاقتصادية في عهد المنصور ازدهارا كبيرا لم تبلغه في أي عصر من عصور الدولة السعدية ، وذلك لما وفره لها من وسائل النمو والبقاء .

وهكذا نلاحظ في المجال الاجتماعي أن المنصور استطاع أن يضمن للمغرب آنذاك الاستقرار الاقتصادي ، والأمن الاجتماعي ، وإن ظهرت بين الفينة والأخرى عناصر تشوش على السلطة وأدت بالتالي إلى حدوث خلل في الأمن واضطراب في الاقتصاد .

وفي المجال الاقتصادي : اتخذ عدة إجراءات كان لها الأثر الفعال في تنشيط الحركة التجارية الداخلية خاصة وأن موارد الدولة ازدادت بشكل ملموس نتيجة الظروف المستحدثة .

وفي المجال الفكري : فإننا لا نبالغ إذ قلنا أن المغرب كان يحتل في عهد المنصور مركز الصدارة في العالم العربي ، وهذا شيء يشهد به المغاربة والمشارقة على السواء ، إذ كان المغرب قبلة المفكرين العرب ، نظرا للجو الفكري الملائم جدا لنشاطهم ، ونظرا كذلك للتشجيعات التي كانوا يحظون بها من طرف المنصور ماديا ومعنويا .

وقد توج كل ذلك في المجال السياسي : صمود المغرب أمام جميع التيارات الخارجية التي كانت تتربص به الدوائر خاصة من جانب الأتراك والاسبان ، إذ فرض المغرب نفسه كدولة تتمتع بالاحترام الدولي اللازم لجميع المعاملات الدولية .

وكل هذه التطورات سجل ابن القاضي جانبا مهما منها في **المنتقى** ، ولا يخفى ما للرجل من قيمة كشاهد للأحداث ، وكناقل لما كان يجري في الشرق العربي الخاضع آنذاك للأتراك العثمانيين .

وهكذا نجد في **المنتقى** صورا رائعة لهذه التطورات الاجتماعية والفكرية والاقتصادية ، وذلك بتفصيل ما كان معمما عن أعمال المنصور في هذا المجال ، وبإزاحة الستار عن كثير من الشخصيات التي إما كنا نجهلها تماما أو معلوماتنا عنها كانت غامضة وغير دقيقة ، بل وخصص لنفسه بابا استعرض فيه لقاءاته ونتائجها مع شخصيات مغربية ومشرقية .

وسوف تكون دراستنا **للمنتقى** مستوحاة من المعطيات السالفة الذكر ، إذ قسمنا الدراسة إلى ثلاثة فصول تتفق وطبيعة الكتاب .

وهذه الفصول هي :

**الفصل الأول :شخصية ابن القاضي .**

**الفصل الثاني : المنتقى المقصور ، على مآثر الخليفة المنصور .**

**الفصل الثالث : جوانب من الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية في عهد المنصور من خلال المنتقى .**

* * * * *

تعتبر شخصية ابن القاضي من الشخصيات البارزة التي شغلت حيزا مهما من الخريطة الفكرية في عهد المنصور ، هذا رغم وجود شخصيات لعبت دورها الكبير في المجالين السياسي والفكري من أمثال :

عبد العزيز الفشتالي ـــ المؤرخ الرسمي ـــ ومحمد بن علي الفشتالي ـــ السفير ـــ واحمد بابا السوداني ، إلى غير ذلك من الشخصيات .

لكن ابن القاضي وسط هذا الجو الفكري الزاهر برز بمميزات لابد من تسجيلها له :

ـــ تكوينه القوي داخل المغرب وخارجه .

ـــ براعته في ميدان الرياضيات .

ـــ غزارة تآليفه بالنسبة لمعاصريه ، ومحافظته عليها ، إذ ان جل مؤلفاته معروفة لدينا ونتوفر على نسخ منها .

ـــ طريقته في التدريس : إذ كانت له طريقة مفيدة في التدريس ، يقتصر فيها على المهم من المسائل ، ولا يتوغل في التفصيلات المتشعبة العقيمة ، معتنيا باللب والجوهر ، خصوصا في الفقه الذي تكثر فيه عادة الأقوال والاحتمالات فكان يقرأ مختصر الشيخ خليل ويختمه كل أربعة أشهر ، بينما لا ينتهي منه غيره إلا بعد سنوات .

ولا شك أن هناك عواملا لعبت دورها في تواجد هذه الشخصية ، منها : أسرته نفسها التي أمدته بالجاه والمال والكتب ، واتصالاته العديدة بالشخصيات العلمية داخل المغرب وخارجه ، وما حظي به من اهتمام متزايد نتيجة تدخل المنصور لافتدائه من أسره ، وتشجيعه له لتأليف عدد من الكتب للخزانة العلمية . وهي عوامل استقيناها أساسا مما كتبه الرجل عن نفسه ، ومن المصادر التي ترجمت له .

وبناء على ذلك يرتسم أمامنا ، إذن ، منهاج البحث على الشكل الآتي :

**أولا** :مصادر ترجمته .
**ثانيا** :أسرتـــــه .
**ثالثا** :تكوينـــــه .
**رابعا** :أســـــره .
**خامسا** :مؤلفاتـــــه .
**سادسا** :تفاعله مع بيئته .

## أولا : مصادر ترجمته .

لأجل الكشف عن هذه الشخصية وتجاوز المعلومات العامة التي نعرفها عنها كان لابد من الرجوع إلى المصادر التي ترجمت لها ، ونستطيع أن نصنفها إلى ثلاثة أصناف :

أولا : ما كتبه الرجل عن نفسه .
ثانيا : ما كتبه عنه معاصـروه .
ثالثا : ما كتبه عنه المتأخرون .

★ ★ ★

## أولا : ما كتبه الرجل عن نفسه

تعتبر كتابات ابن القاضي أهم مصدر لترجمته على الاطلاق ، خاصة منها ما ورد في **المنتقى** ، وليس في نيتنا الآن أن نقوم بفحص ما تزخر به من معلومات قيمة حول هذا الموضوع ، فهذا عمل سنقوم به في نقطة تالية (1) ، ولكن لاثارة الانتباه إلى أن الرجل كتب عن نفسه جل ما نريد أن نعرف باستثناء نقط قليلة ظلت غامضة (2) ، حاولنا إبراز رأينا فيها انطلاقا من مصادره هو نفسها ومصادر أخرى اهتمت بنفس الموضوع ، على أن هذا لا يعني أننا نؤمن إيمانا مطلقا بما يكتب الرجل ، فالبرغم من أن ترجمة ابن القاضي لحياته ليس من شأنها إلا أن تساعد الباحث مساعدة عظمى في هذا الموضوع ، فإن هذه الترجمة نفسها تفرض علينا أن نتساءل : إلى أي مدى يمكننا الاعتماد على شهادة صاحب**المنتقى**على نفسه ؟ إن المشكلة صعبة

---

(1) أنظر النقطة المتعلقة بمؤلفاته .
(2) خاصة بالنسبة للفترة الأخيرة من حياته .

حقا ، ولكن الذي قد يساعدنا على تذليل هذه الصعوبة ، كلا أو بعضا ، هو الاستعانة ، كلما أمكن ، بشهادة معاصريه ، والاطلاع على الظروف والملابسات التي قد تكون دفعت المؤلف إلى كتابة ترجمة حياته ، أو عملت على توجيهه بشكل من الأشكال .

**ثانيا : ما كتبه عنه معاصروه .**

رغم أنه قليل إلا أنه مهم جدا ، خاصة بالنسبة للجوانب التي غفل ابن القاضي عن ذكرها ، ونخص بالذكر أربعة مصادر أساسية :

- **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا** لعبد العزيز الفشتالي .
- **روضة الآس** للمقري .
- **نيل الابتهاج** لأحمد بابا السوداني .
- **فهرس** إمام الدين الخليلي .

**ثالثا : ما كتبه عنه المتأخرون .**

ونقصد بذلك ما كتب عنه انطلاقا من وفاته إلى وقتنا هذا ، وهي كتابات تتفاوت في قيمتها ودرجة دقتها انطلاقا من الوثائق المعتمدة ، وإن كنا نطمئن ، إلى حد ما ، إلى المصادر التي كتبت قريبا من عصر المؤلف فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة للمصادر المتأخرة جدا عن عصر المؤلف ، بل يجب النظر إليها دائما بعين الحيطة والحذر .

وقد حاولنا في بداية الأمر أن نقف عند كل ترجمة ونبين أهميتها وأخطاءها ونقصها ، ولكن وجدنا أن العملية طويلة ومملة وتؤدي إلى التكرار ، خاصة وأن نفس القضايا تكرر في كثير من الأحيان . فآثرنا أن ندرج ذلك في شكل ملاحظات عامة تساعد القارىء على أخذ فكرة عامة عن نوعية هذه الكتابات .

**الملاحظات العامة :**

1 — من حيث النوعية نذكر أن جل الكتابات مختصرة لا تتعدى ذكر تاريخ الولادة ، والشيوخ الذين أخذ عنهم ، وأسره ، وبعض مؤلفاته ، وذلك في شكل عرض عام مجمل يكرر فيه اللاحق قول السابق مما يجعل الاستفادة منها ضئيلة إن لم تكن منعدمة .

2 — هناك كتابات تحمل أخطاء في جوانب معينة ، نذكر على سبيل المثال :

ـــ نسبة بعض المؤلفات لابن القاضي في حين أنها ليست له ، وقد أفضنا القول في هذه النقطة عند تعرضنا لمؤلفاته .

ـــ إلحاق بعض الشيوخ ضمن الذين درس عليهم في حين أنه هو نفسه يؤكد أنه لم يأخذ عنهم ولم يلقهم ، نذكر ـــ على سبيل المثال ـــ ما أورده الأستاذ محمد الأحمدي ابو النور في مقدمة تحقيقه **لدرة الحجال** [3] حين جعل بدر الدين القرافي أحد الشيوخ الذين أخذ عنهم مع أن ابن القاضي ينص صراحة في المخطوط الذي يحققه الأستاذ أنه لم يلقه ولم يأخذ عنه [4] . وقد سار أيضا على نهجه الأستاذ عبد الهادي التازي في الترجمة التي عقدها لأبن القاضي [5]...

ـــ هناك بعض الكتابات التي ترد فيها قضية عزله من القضاء بعد وفاة المنصور ، ونعتقد أن الأمر لا يتعلق بعزل بقدرما يتعلق برغبة شخصية للتدريس ، خاصة وأن حال المغرب صار إلى ما هو معروف بعد وفاة المنصور ، نضيف إلى ذلك عاملين آخرين :

أ ـــ ان القضية لم تذرها المصادر المعاصرة أو القريبة من عصر المؤلف .

ب ـــ ان العزل يتطلب تبريرا تاريخيا ، خاصة ونحن نعلم علاقة ابن القاضي بالمنصور ، وبالأسرة المالكة بصفة عامة ، فَلِمَ ، إذن ، سيقع العزل ؟ هل لأنه أساء استعمال سلطاته

---

(3) المقدمة ، 1 : 18 .

(4) ذكر ابن القاضي في **درة الحجال** ، 2 : 250 رقم 730 ، ما يأتي : « أدركته (بدر الدين القرافي) بمصر سنة ست وثمانين وتسعمائة ، إلا أنني لم ألقه ، ولم آخذ عنه ، لم يرد الله ذلك » .
وقد أضاف الأستاذ المحقق أيضا شيوخا آخرين لابن القاضي ، نذكر منهم على الخصوص :
أحمد بن جيدة الوهراني المتوفى سنة 1009 هـ ، ويبدو أنه اعتمد في ذلك على محمد مخلوف في **الشجرة** (صٌ 294) حيث يقول : « ...أخذ عن علماء فاس والشرق ، منهم عبد الرحمان التاجوري ، وعنه جماعة ، منهم : ابن العافية ... » . فكيف استطاع الاستاذ المحقق أن يؤكد على أن المقصود بابن أبي العافية هو أحمد بن القاضي المؤرخ ، وهو الاسم الذي يحمله أكثر من واحد في أسرة ابن القاضي ، ولماذا لم يؤرخ له ابن القاضي ضمن التراجم التي عقدها لعلماء فاس إذا كان شيخه بالفعل ، ونحن نعلم مسبقا مدى اعتناء مؤرخنا بشيوخه وتدوين أخبارهم ، في حين أرخ لأحمد بن جيدة الوهراني المتوفى سنة 951 هـ ؟
وأضاف إلى شيوخه أيضا سعيد بن أحمد المقري التلمساني المتوفى سنة 1012 هـ (المقدمة ص 16) ، ويبدو هنا أيضا أن المحقق اعتمد على **الشجرة** (ص 295) في ترجمة الشيخ المذكور . وصاحب **الشجرة** لا يذكر مصدره في ذلك ، وبرجوعنا إلى الترجمة التي عقدها ابن القاضي للشيخ المذكور في كل من **الدرة** (3 : 300) ، **والجذوة** (2 : 519) ، نلاحظ أنه لم يشر إلى أنه أخذ عنه ، كما لم يشر تلميذه أحمد المقري في **روضة الآس** إلى ذلك .
كما جعل الأستاذ المحقق ضمن شيوخه محمد بن أبي بكر الدلائي ويبدو في ذلك أيضا أنه اعتمد على **الشجرة** (ص 301) ، فانقلب بذلك التلميذ إلى أستاذ ، فالشيخ المذكور هو الذي درس على ابن القاضي ، ونحيله ـــ مثلا ـــ على سليمان الحوات في **البدور الضاوية** (ص 67) ، وعلى الأستاذ حجي ، **الزاوية الدلائية** ص 76 ـــ 77 ...

(5) **جامع القرويين** ، 2 : 517 .

كقاضي فاحتك بالمجتمع السلاوي آنذاك ؟ هذا ما لم تشر إليه المصادر التي أرخت له ، بل على العكس من ذلك تثني عليه وتبرز الأهمية التي كانت تحظى به مدينة سلا في نفسه [6] .

ولنطرح سؤالا أخيرا ، وهو : هل عزل لأنه احتك بالأسرة المالكة بعد وفاة المنصور وتولية ابنه زيدان فانحاز إلى هذا الجانب أوذاك ؟ هذا ، أيضا ، ما لم تشر إليه المصادر ، بل تؤكد جلها ، إن لم نقل كلها ، على أنه عزف عن السياسة وانقطع كلية للتدريس .

3 ــ هناك تساؤلات تطرحها بعض الدراسات ، نخص بالذكر منها تساؤلات الأستاذ عبد القادر زمامة حول رحلة ابن القاضي وبعض شيوخه ، فمما ذكرُهُ الأستاذ في هذا الموضوع : « ...ويلفت نظرنا في قائمة شيوخ ابن القاضي في هذه الرحلة الطويلة علمان اثنان :

الأول : الشيخ شجاع فلقة ...قاضي مدن بلاد الترك ...

والثاني : محمود بن عبد الله الرومي خطيب جامع مدن من بلاد الترك ...

يقول عن الأول : لقيته بها : سنة 989 هـ (درة ، 3 : 319 رقم 1423) .

ويقول عن الثاني : لقيته بها سنة 988 هـ (درة ، 2 : 325 ، رقم 876) .

والظاهر من كلام ابن القاضي : لقيته بها : إن الضمير يعود على بلاد الترك ...فإذا لم يكن حصل خطأ في كتابة هذه العبارة ...فإننا يمكن أن نتساءل ...هل زار المؤرخ في رحلته هذه بلاد الترك ...؟ وبطبيعة الحال ، فإننا نجد جوابا عن هذا السؤال في المصادر المخطوطة والمطبوعة التي بأيدينا الآن ... » [7] .

ونجيب الأستاذ زمامة بأن ابن القاضي زار ــ قطعا ــ بلاد الترك ، والتقى بها مع من ذكرهما ، ونحيله على كتابه الرئيسي **المنتقى** ، حيث يصرح قائلا : « ...ودخلت مدنا من بلاد الترك في رمضان عام ثمانية وثمانين ، واجتمعت بقاضيها سجاع فلقة ، رجل فقيه ، حنفي أديب ...

وممن لقيته بها خطيبها أبو الثناء محمد بن عبد الله الرومي ، أديب لغوي ...أنشدني بلسانه ...وممن لقيته بها محمد بن علي شلبي الرومي ، فقيه نحوي ...فعل معي خيرا كثيرا ،

---

(6) ذكر ابن القاضي ــ مثلا ــ في **درة الحجال** ، 3 : 183 ، وهو بصدد الحديث عن أم المنصور مسعودة الوزكيتية ما يأتي « ...وكنت كاتبتها ــ رحمة الله عليها ــ من مدينة سلا أستنجدها لاصلاح دار الشراط ، إذ هو محل مخوف ، فوالله الذي لا إلاه إلا هو ما مضى للكتاب مقدار وصوله إلا وأمرت ــ عاملها الله بلطفه وإحسانه ــ بإنشائها هنالك فجاءت بغاية الرفق بالمسلمين ... »
وقد نقل النص المذكور تلميذه أحمد المقري في **روضة الآس** ، ص 67 .

(7) مقال بمجلة **البحث العلمي** بعنوان « أبو العباس ابن القاضي مؤرخ فاس » ، ص 204 ــ 205 . عدد مثنى : 14 و 15 ، السنة السادسة ، يناير/دجنبر ــ 1969 .

أعارني جملة من الكتب مدة إقامتي بها ، ويوم وداعي له ، زودني بزاد طيب ، وأوصى علي صاحب السفينة ، ولم يزل الرئيس يلاحظني حتى بلغنا طرابلس الغرب في ربيع النبوي عام ثمانية وثمانين ... » [8].

وقد تساءل الاستاذ ثانية (نفس المقال ص 210)، فقال : « ... وقد اطلعت على ترجمة لابن القاضي كتبها السوداني بقلمه ولا أدري أين أودعها في كتبه المتعددة ... واحتفظ بهذه الترجمة المؤرخ الأديب الاستاذ محمد بن محمد بن العربي الزعري المباركي الذي كان حيا سنة 1249 هـ. وكتبها بخطه على آخر ورقة من كتابه **مختصر جذوة الاقتباس** ... » . وقد عثرنا على هذه الترجمة في النسخة المخطوطة من نيل الابتهاج بالمكتبة الملكية بالرباط، عدد 1896، وهي بخط المؤلف، كتبت بمراكش سنة 1005 هـ، غير مرقمة.

★ ★ ★

وبعد هذه الملاحظات العامة ننقل القارىء إلى استعراض المصادر والمراجع التي ترجمت لابن القاضي ليقف بنفسه على حقيقة هذه الملاحظات[9] .

**أ ــ باللغة العربية .**

★ ــ ابن ابراهيم عباس المراكشي .
ــ **الاعلام ، بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام** ، 2 :295 ــ 299 ، رقم 221 .

★ ــ ابن أبي محلي أحمد.
ــ **أصليت الخريت ، في قطع بلعوم العفريت النفريت** ، ورقة 59 ظ .

---

(8) أنظر **المنتقى**، ص 751.

(9) نثير انتباه القاريء إلى الملاحظات الآتية :
أ ــ المصادر والمراجع مرتبة حسب الحروف الأبجدية المغربية .
ب ــ لم نذكر تاريخ الطبعة ولا مكانها ، واكتفينا بما سيرد في لائحة المصادر والمراجع .
ج ــ بالنسبة للمصادر المخطوطة لم نذكر رقمها ولا مكانها ، مكتفين كذلك بما سيرد في لائحة المصادر والمراجع .
د ــ في سائر مراحل الدراسة والتحقيق سوف نرمز إلى مكتبتي الرباط بالرمزين الآتيين : (م.ع) بالنسبة للمكتبة العامة ، و (م.م) بالنسبة للمكتبة الملكية .

★ ــ ابن زيدان عبد الرحمان .

ــ **اتحاف أعلام الناس ، بجمال أخبار حاضرة مكناس** : 1 :326ــ328 .

★ ــ ابن منصور عبد الوهاب .

ــ مقدمة تحقيق **جذوة الاقتباس ، في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس** ، ص 5 ــ 7 .

ــ مقدمة تحقيق **جني زهرة الآس ، في بناء مدينة فاس** ، ص : د .

ــ مقدمة تحقيق **روضة الآس ، العاطرة الأنفاس ، في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس** ، ص : م .

★ ــ ابن عجيبة أحمد .

ــ ازهار البستان ، في طبقات الأعيان ، ص 234 .

★ ــ ابن العربي الصديق.

ــ **فهرس مخطوطات مكتبة ابن يوسف بمراكش** ، ص 25 .

★ ــ ابن سودة عبد السلام .

ــ **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** ، 1 : 44 رقم 75 ، 162 رقم 603 ، 259 رقم 1028 ، 268 رقم 1088 ، 278 رقم 1134 ، 2 : 298 رقم 1209 ، 385 رقم 1688 .

★ ــ ابو النور محمد الأحمدي .

ــ مقدمة تحقيق **درة الحجال** ، 1 : 3 ــ 28 .

★ ــ الأخضر محمد .

ــ **الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية** ، ص ، 57 ، 84 (ضمن ترجمة عبد الرحمان بن القاضي) .

★ ــ الادريسي ادريس بن الماحي .

ــ **قائمة المطبوعات المغربية** ، ص 51 .

★ ــ الازهري محمد .

ــ **اليواقيت الثمينة ، في أعيان مذهب عالم المدينة** ، 1 : 24 .

★ ــ الالغي ابراهيم .

**تاريخ الشعر والشعراء بفاس** ، ص 66 .

★ ــ الافراني محمد .

ــ **نزهة الحادي ، في أخبار ملوك القرن الحادي** ، 73 ، 77 ، 79 ، 96 ، 126 ، 169 .

★ ــ **صفوة من انتشر ، من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر** ، ص 77، .

— بنعبد الله عبد العزيز .
— **الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية** ، 2 : 86—87 .
— « الفكر الصوفي والانتحالية بالمغرب » مقال بمجلة **البينة** المغربية ، السنة الأولى ، العدد الرابع ، غشت 1962 ، ص 51 .

★ — البستاني فؤاد .
— **دائرة المعارف** ، 3 : 444 .

★ ★ ★

★ — التازي عبد الهادي .
— **جامع القرويين** ، 2 : 517 .

★ — التواتي عبد الكريم .
— **التاريخ المفترى عليه** ، ص : 49 ، 50 ، 51 ، 52 ، 86 ، 133 ، 137 .

★ ★ ★

— حجي محمد .
— **الحركة الفكرية في عهد السعديين** ، 2 : 368 ، 448 .
— **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي** ، 86—93 .
— « المنتقى المقصور ، على مآثر الخليفة المنصور » مقال بمجلة **دعوة الحق** ، السنة 10 نوفمبر 1966 ، العدد الأول، : ص : 100 وما بعدها .
— مقدمة تحقيق كتاب **لقط الفرائد ، من لفاظة حقق الفوائد** ، ص 5 — 7 .
— المؤسسات الدينية بالمغرب في القرنين السادس عشر والسابع عشر مقال بمجلة **المناهل** ، العدد 18 ، السنة السابعة ، يوليوز 1980 ، ص :125 .
— « عبد السلام بن سودة مؤلف أكبر موسوعة تراجم في العصر العلوي » ، مقال بمجلة **دعوة الحق** ، السنة 22 / يونيو — يوليوز 1981 العدد 4 ، ص 30 .

★ — حركات ابراهيم .
— **المغرب عبر التاريخ** ، الجزء الثاني ، مواضع متفرقة .

★ — الحضيكي محمد .
— **طبقات** ، 1 : 57 — 58 .

★ ــ الحفناوي محمد .
ــ **تعريف الخلف ، برجال السلف** ، القسم الأول ، ص 198 ــ 199 .
★ ــ الحوات سليمان .
ــ **البدور الضاوية ، في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية** ، ص 67 .
ــ **الروضة المقصودة ، والحلل الممدودة ، في مآثر بني سودة** ، ص 13 .

★ ★ ★

★ ــ داود محمد .
**تاريخ تطوان** ، 1 : 129 ــ 132 .

★ ★ ★

★ ــ الزجالي محمد بن قاسم (ت 1072 هـ / 1662 م) .
ــ **كناشة** ، ميكر فيلم م.ع بالرباط عدد 67 ، (عن مخطوطة الأستاذ محمد الفاسي) ، غير مرقم .
★ ــ الزركلي خير الدين .
**الاعلام** ، 1 : 225 .
★ ــ زمامة عبد القادر .
ــ « أبو العباس بن القاضي » ، مقال بمجلة **البحث العلمي** ، عدد مثنى ، 14 ــ 15 ، السنة السادسة ، يناير/دجنبر 1969 ، ص 201 ــ 213 .
ــ أبو العباس بن القاضي ، مقال بمجلة **اللقاء** ، العدد 18 أكتوبر 1969 ، ص 66 ــ 68 ، وهو ملخص للمقال السابق.
ــ « أبو العباس بن القاضي مؤرخ دولة المنصور الذهبي » مقال **بمجلة كلية الآداب بفاس** ،العددان الثاني والثالث ، لسنتي 1979 ــ 1980 ، ص : 7 ــ 22 ــ .
ــ **أبو الوليد ابن الأحمر** ، مواضع متفرقة .

★ ★ ★

★ ــ طربين أحمد .
ــ **التاريخ والمؤرخون العرب في العصر الحديث** ، ص 185 ــ 187 .

★ ـــ **الكتاب الذهبي لجامع القرويين** ، ص 122 .

★ ـــ الكتاني محمد .

ـــ **سلوة الانفاس ، ومحادثة الاكياس ، بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس** ،
3 : 133 ـــ 135 .

★ ـــ الكتاني محمد ابراهيم .

ـــ « جولة في المخطوطات العربية باسبانيا » ، مقال بمجلة **دعوة الحق** ، العددان 9 ـــ 10 ، يوليوز 1966 ، ص 82 ـــ 87 .

ـــ « جولة في المخطوطات العربية باسبانيا » ، مقال بمجلة **البحث العلمي** ، العدد العاشر ، السنة الرابعة ، يناير/أبريل 1967 ، ص : 30 ـــ 32 (نفس المقال السابق) .

★ ـــ الكتاني محمد بن علي .

ـــ دور العمل الفاسي في تطور الفقه واستمراره ، مجلة **كلية الشريعة** بفاس ، العدد 6 ، شوال 1400 ـــ غشت 1980 ، ص 69 .

★ ـــ الكتاني عبد الحي .

ـــ **فهرس الفهارس والاثبات ، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات** ، 1 : 177 .

★ ـــ كحالة رضا .

ـــ **معجم المؤلفين** ، 2 : 147 ـــ 148 .

★ ـــ كريم عبد الكريم .

ـــ **المغرب في عهد الدولة السعدية** ، مواضع متفرقة .

★ ـــ كنون عبد الله .

**النبوغ المغربي ، في الادب العربي** ، ص 253 ـــ 254 .

★ ★ ★

★ ـــ لطفي عبد البديع .

**فهرس المخطوطات المصورة** ، 2 : 224 ـــ 225 .

★ ـــ ـــ ليفي ـــ بروفنسال ، أ .

**مؤرخو الشرفا** ، ص 83 ـــ 88 ، 174 ـــ 176 ، (الترجمة العربية) .

★ ★ ★

**مجلة الرسالة المصرية** 11 مارس 1935، العدد 88.

* ـ محفوظ محمد (التونسي).

ـ « نظرات في **كتاب درة الحجال ، في أسماء الرجال** » ، جريدة الصباح (التونسية) .

الحلقة الأولى : 25 مارس 1971 ، السنة 21 ، العدد 6677.

الحلقة الثانية : 1 أبريل 1971 ، السنة 21 ، العدد 6683.

الحلقة الثالثة : 8 أبريل 1971 ، السنة 21 ، العدد 6689.

الحلقة الرابعة : 15 أبريل 1971، السنة 21 ، العدد 6695.

ـ مقدمة تحقيق **برنامج الوادي آشي** ،ص 17 ـ 18 .

* ـ مخلوف محمد .

ـ **شجرة النور الزكية ، في طبقات المالكية** ، ص 297 ، رقم 1150 .

* ـ مزين محمد .

ـ **فاس وباديتها من 1549 إلى 1637** ، مواضع متفرقة .

* ـ المكلاتي محمد .

ـ **تكميل وفيات الفشتالي** ، البيت 24 .

* ـ المكناسي أحمد .

ـ **أهم مصادر التاريخ والترجمة في المغرب** ، ص 58 ـ 59 .

ـ **فهرس المؤلفين والعناوين للكتب الموجودة بالمكتبة العامة للحماية بتطوان** ، ص 426 .

* ـ المنوني محمد .

ـ **محاضرات حول مصادر التاريخ المغربي** ، ألقيت على طلبة السلك الثالث بكلية الآداب بالرباط ، مطبوعة على الآلة المكررة ، المحاضرة الثانية عشرة ، ص : 2 ، 3 ، 5 .

ـ « الوراقة المغربية » مقال بمجلة **البحث العلمي** ، العدد 18 ، السنة الثامنة ، أكتوبر 1971 ، ص : 17 ، 19 .

* ـ المقري أحمد التلمساني .

ـ **روضة الآس ، العاطرة الانفاس ، في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس** ، ص : 239 ـ 299 ، وهي أهم ترجمة على الاطلاق ، لكونه كان تلميذه .

* ـ المهماه مصطفى عبد السلام .

ـ **المرأة المغربية والتصوف في القرن الحادي عشر الهجري** ، ص 90 .

★ ـــ ميارة محمد .

ـــ **الدر الثمين ، والمورد المعين ، في شرح المرشد المعين ، على الضروري من علوم الدين** ، مواضع متفرقة .

★ ★ ★

★ ـــ الناصري أحمد .

ـــ **الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى** ، 5 : 6 ، 8 ، 14 ، 17 ، 19 ، 20 ، 29 ، 25 ، 58 ، 69 ، 86 ، 118 ، 119 ، 146 ، 190 .

★ ـــ نجمى عبد الله .

ـــ « العكاكزة » مقال بمجلة **كلية الآداب** بالرباط ، العددان الخامس والسادس لسنة 1979 ، ص : 91 ـــ 92 .

★ ـــ النميشي أحمد .

ـــ **تاريخ الشعر والشعراء بفاس** ، ص 66 .

★ ★ ★

★ ـــ علوش ، ي ، س .

ـــ مقدمة تحقيق **درة الحجال** ، بالفرنسية .

★ ـــ علوش ، ي ، س ، وعبد الله الرجراجي .

ـــ **فهرس المخطوطات العربية بالرباط** ، 2 : 125 .

★ ـــ العلوي القاسمي هاشم بن المهدي .

ـــ مقدمة تحقيق **التقاط الدرر ، ومستفاد المواعظ والعبر** ، للقادري ، مواضع متفرقة .

★ ـــ عنان محمد عبد الله .

ـــ **فهارس الخزانة الملكية** ، المجلد الأول ، فهرس قسم التاريخ وكتب الرحلات ، ص : 126 ، 127 ، 128 ، 166 ، 167 ، 303 ، 304 .

★ ★ ★

★ ـــ الفاطمي محمد الصقلي .

ـــ مقدمة تحقيق**جذوة الاقتباس** ، الطبعة الفاسية .

★ ــ الفاسي محمد .
ــ « الخزانة السلطانية وبعض نفائسها » مقال بمجلة **البحث العلمي** ، العددان الرابع والخامس ، السنة الثانية ، يناير/غشت 1965 ، ص : 76 .

★ ــ الفاسي محمد العربي .
ــ **مرآة المحاسن ، من أخبار الشيخ أبي المحاسن** ،الفصل السابع .

★ ــ الفاسي عبد الرحمان .
ــ **ابتهاج القلوب ، بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب** (عند ذكره للفقهاء الذين حضروا مجالس الشيخ أبي المحاسن) .

★ ــ الفاسي عبد الله .
ــ **الاعلام بمن غبر ، من أهل القرن الحادي عشر** ،
ص 364 ــ 368 .

★ ــ الفضيلي ادريس .
ــ **الدرر البهية ، والجواهر النبوية ، في الفروع الحسنية والحسينية** ، 2 : 352 .

★ ــ الفشتالي عبد العزيز .
ــ **مناهل الصفا ، في أخبار الملوك الشرفا** ، طبعة تطوان ، ص 153 ــ 155 .
**مناهل الصفا ، في مآثر موالينا الشرفا** ، طبعة الرباط ، ص 230 ــ 231 .

★ ــ **فهرس دار الكتب المصرية** ، 5 : 318 .

★ ــ **فهرس الخزانة التيمورية** ، 3 : 188 ، 2 : 51 رقم 171 مصطلح حديث .

★ ــ **فهرس المخطوطات العربية بمكتبة الأكاديمية الملكية التاريخية بمدريد** (عند تعرضها لفهرسة ابن القاضي **رائد الفلاح**) .

★ ★ ★

★ ــ القادري محمد .
ــ **الاكليل والتاج ، في تذييل كفاية** ، ص 9 ظ .
ــ **التقاط الدرر ، ومستفاد المواعظ والعبر ، من أخبار أعيان المائة الحادية عشر والثانية عشر** ، القسم الأول ، ص 57 ــ 58 .
ــ **نشر المثاني ، لأهل القرن الحادي عشر والثاني** ، طبعة فاس ، 1 : 128 .
ــ **نشر المثاني ، لأهل القرن الحادي عشر والثاني** ، طبعة الرباط ، 1 : 213 ــ 216 .

★ ــ السائح حسن .

ــ **مقدمة تحقيق كتاب تاج المفرق ، في تحلية علماء المشرق** للبلوي ، 1 : 75 ، 77 .

★ ــ السائح محمد .

ــ **المنتخبات العبقرية ، لطلبة المدارس الثانوية** ، ص 28 .

★ ــ سركيس يوسف .

ــ **معجم المطبوعات العربية والمعربة** ، ص 28 .

★ ــ السوداني أحمد بابا .

ــ **كفاية المحتاج ، لمعرفة من ليس في الديباج** (ذكره في القسم المتعلق بترجمته هو) .

ــ **نيل الابتهاج ، بتطريز الديباج** ، مخطوط م .م عدد 1896 ، غير مرقم .

★ ★ ★

★ ــ شحاتة ابراهيم حسن .

ــ **وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب** ، 57 ، 64 ، 116 ، 149 ، 214 ، 233 ، 270 .

ب ــ باللغات الأجنبية .


* — **Allouche, I. S .**

Introduction à l'Ouvrage d'Ibn AL Kadi

Durrat Al-Higal

** ** ** **

* — **Basset, R .**

Recherches Bibliographiques sur les Sources de la Salwat El-Anfas, P. 21 .

* — **Benchekroun, M .**

La vie Intellectuelle Marocaine Sous les Mérinides et les Wattassides, P : 250, 244, 310, 332, 364 .

* — **Ben Cheneb, M .**

Ibn Al Kadi, in Encyclopédie de l'Islam, 2 : 414-415, 1 ére édition .

Etude sur les personnages mentionnés dans l'Idjaza du Cheikh Abdel-Quadir El Fassi, étude 307, pp. 489-490.

* — **Ben Cheneb, M. et L. Provençal.**

Essai de Répertoire Chronologique des Editions de Fes, Revue Africaine, 1922, n°81, p. 17.

* — **'Boigues, p.**

Ensayo Bio-Bibligrafico Sobre Historiadores y Geografos Arabigo-Espanoles, P. 417.

* — **Brockelman, C .**

Suppléments. 2 : 678-679.

** ** ** **

* — **Deverdun, C .**

Marrakech, des origines à 1912, I : 433.

« Ibn Al Kadi » In Encyclopédie de l'Islam, 3 : 837-838, (nouvelle edition)

** ** ** **

* — **Hajji. M .**

L'activité Intellectuelle au Maroc à l'Epoque Saadide, 2 : 421-422.

* — **Huart, C.**

Littérature arabe, p. 383.

** ** ** **

— **Lakhder, M.** *

La vie littéraire au Maroc sous la Dynastie Alawide, p. 38.

* — Le Tourneaux, R.

Fes avant le Protectorat, Etude Economique et Sociale d'une ville de l'Occident Musulman, p. 28, 475.

* — **Lévi - Provençal, E .**

Les Historiens des chorfa, p. 100./

Les Manuscrits Arabes de Rabat, (Bibliothéque Générale du Protectorat Français au Maroc), p. 127, 268.

« Un nouveau texte d'Histoire Mérinide : le Musnad d'Ibn Marzuk » , in Hespéris, 1925, 1 trimestre, p. 10-12.

** ** ** **

* — **Pérés, H. et Sempéré, A .**

Répertoire Analphabétique des auteurs publiés à Fes de 1126 H = 1714 à 1337 H = 1919 , P.4

Imprimerie Latypo-litho et Jules Garponel réunies, Alger .

**ثانيا : أسرته**

ينتمي أحمد بن القاضي إلى أسرة ابن أبي العافية ، الزناتية المكناسية ، نسبة إلى مكناسة القبيلة البربرية لا إلى مدينة مكناس ، ويقول في هذا الصدد ــ أثناء ترجمة ابن عمه قاسم ــ : « ...فمنهم ابن عمنا قاسم بن قاسم بن محمد بن محمد بن قاسم بن علي بن العافية ، الشهير بابن القاضي المكناسي ، نسبة إلى قبيلة مكناسة .

وأما مكناسة الزيتون فبشرذمة من أجدادنا سميت مكناسة ، من باب تسمية المحل بالحال ، لأنها لما أن نزله طائفة منا ، وهم من مكناسة ، سميت مكناسة ... »[10] . فهو

---

(10) أنظر **المنتقى** 790 .

وقد قامت بأدوار مهمة أيام الفتح الاسلامي والقرون الخمسة التي تليه . وقد انقسمت هذه القبيلة إلى عمارتين ظلت إحداهما مقيمة بمواطنها الأصلية قرب تازة ولا تزال بها إلى اليوم ، وانتقلت الأخرى إلى هضبة واقعة بغرب السايس وجنوب جبل زرهون فبنت بها قرى عديدة قريبة من بعضها سميت بمكناسة الزيتون وهي أصل مكناسة الحالية ، والمرابطون هم الذين جمعوا أشتات هذه القرى ومصروها وحصنوها وأنشأوا بها (تكرارت)أي مقر الحكومة بلغتهم ، ولما دخلها المهدي بن تومرت سنة 514 هـ صحبة تلميذه عبد المومن في طريق رجوعه من المشرق ونهى بها عن بعض المنكرات ثار إليه غوغاؤها وأشبعوه ضربا ، ثم افتتحها الموحدون سنة 545 هـ بعدما حاصرها عبد المومن بنفسه حصارا طويلا ، وعاملوا أهلها بشدة . ولكنها لم تلبث أن انتعشت وأصبحت مركزا تجاريا وفلاحيا مهما ، وبنى مسجدها الجامع وجلب إليها الماء من الخارج ، ثم تحضرت في عهد بني مرين ، ومن أشهر من اعتنى بها السلطان أبو يوسف بن عبد الحق الذي بنى بها قصبة ومسجدا، والسلطان أبو الحسن المريني الذي شيد بها أسواقا وحمامات وفنادق وسقايات وابنه أبو عنان الذي بنى مدرسة العطارين.

وقد عرفت مكناس عصرها الذهبي في عهد السلطان مولاي اسماعيل الذي اتخذها عاصمة ملكه وشيد بها القصور والمساجد والقلاع والمخازن وأدارها بأسوار يبلغ طولها 40 كلم، ويقال أنه حاول أن يضاهي بها مدينة فيرساي قرب باريس لما سمع بضخامتها وفخامتها وأناقتها، ولكن مكناس أخذت تفقد أهميتها السياسية بعده بسبب اتخاذ ابنائه وحفدته الملوك من بعده فاس أو مراكش عاصمة للمملكة. بيد أنها لم تفقد قط أهميتها الحربية والاقتصادية إذ هي الآن من أهم حواضر المغرب وأكثرها حركة وأكبرها سكانا. وقد انتشرت القبيلة خارج المغرب الأقصى، إذ توجد قبيلة منها تحمل نفس الاسم قرب مدينة عمي موسى بعمالة وهران، كما توجد أوزاعها وقبائلها الفرعية بسائر أقطار المغرب العربي، ودخلت منها فرق إلى الأندلس نبه منها بعض البيوت كبيت بني وانسوس رهط الوزير سليمان بن وانسوس.

هذا وقد ذكر القادري في **النشر**، 1 : 213، إنه رآى في بعض المقيدات نسبة ابن القاضي هكذا : الجالوتي.

أنظر :

ابن خلدون، **العبر**، 6 : 134.

ابن حزم، **جمهرة**، 2 : 495 — 499

ابن غازي، مقدمة **الروض الهتون**.

ابن زيدان، مقدمة الجزء الأول من **الأتحاف**.

ابن منصور، **قبائل المغرب**، 1 : 312

ينحدر من موسى بن العافية المكناسي ، الذي حارب الأدارسة في مستهل القرن الرابع الهجري ، وأمعن في قتلهم وتشريدهم حتى كاد يفنيهم ، ويقول علي بن أبي زرع الفاسي في هذا الصدد : « ...واستولى ابن أبي العافية على جميع بلاد المغرب ، وبايعته القبائل والأشياخ ، فأجلى جميع الأدارسة عن بلادهم وأخرجهم من ديارهم ، وملك مدينة أصيلا ومدينة شالة وغيرهما من بلادهم وساروا بأجمعهم إلى قلعة حجر النسر مقهورين مغلوبين ، فانحصروا بها ، وهي حصن منيع بناه محمد بن ابراهيم بن محمد بن القاسم بن ادريس — رضي الله عنه — طلع في عنان السماء ، فنزل عليهم ابن أبي العافية واشتد عليهم الحصار ، وأراد استئصالهم وقطع دابرهم ، فعذله على ذلك رؤساء المغرب وأكابر أهل دولته ، وقالوا له : أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتقتلهم أجمعين ، هذا شيء لا نوافقك عليه ولا نتركك له ، فاستحيا لذلك وارتحل إلى مدينة فاس وخلف عليهم قائده أبا الفتح التسولي في ألف فارس يمنعهم من التصرف ، وذلك في سنة سبع عشرة وثلاثمائة ... »[11] .

وقد أثار هذا العمل ابن القاضي حيث يقول :« ...ونسبتنا نحن إلى هذا الرجل أعني موسى بن أبي العافية ، والله أعلم ، لكن فعله الذي كان منه لأهل البيت لا أرضاه ، لأني يشهد الله علي وملائكته أني عبد أهل البيت ومن محبيهم — أماتني الله على حبهم في عافية آمين يا رب العالمين — » [12] . كما سبق أن أثار ابن السكاك حيث قال : « ...وكان موسى بن أبي العافية المكناسي ملك أكثر المغرب ، فضيق على الأدارسة ، وعزم على استيصالهم وإجلائهم إلى قلعة النسر ، فسلط الله عليه قواد الشماعين ، فلم يزل شريدا في الصحراء وأطراف البلاد إلى أن قتل ببعض بلاد ملوية ، وبقي لأولاده ملك بأجر سيف إلى أن قتل واستأصل الله شافتهم على يد الملك اللمتوني . فالحمد لله مهلك المجتري على حرمة أحفاد حبيبه — ﷺ القاطع لدابر ذريته . تعريف شريف : إني لمن هذا القبيل المكناسي غير أني سمعت بفعل هذا الملعون منهم في آل البيت رأيت هذا نقصا عظيما عاد على هذا القبيل بحيث وددت أن أكون من سواه من القبائل كائنا من كان ، ثم إني غلبت الرجاء وقلت لعلي من عرب حصين الواردين عليهم الداخلين عليهم في حلف أوجب انتسابا حتى غلبت النسبة المكناسية على الجميع ، وأكد عندي هذا التغليب صحة الخبر بأن أكثر المنتسبين إليه اليوم إنما هم حصين كما تقدم ... » [13] .

وقد ظلت هذه الاثارة سارية المفعول بعد وفاة ابن القاضي ، وهكذا فقد ذكر أحمد الحلبي

---

(11) روض القرطاس، 83 — 84.
(12) جذوة الاقتباس، 1 : 343
(13) نصح ملوك الاسلام، الطبعة الحجرية.

في **كتابه الدر النفيس ، والنور الأنيس ، في مناقب مولانا ادريس بن ادريس**[14] : (إن موسى بن أبي العافية المذكور استأصل شافة ذريته يوسف بن تاشفين اللمتوني وقطع نسله من المغرب ، ولم يبق أحد منهم) ، وقد اعتمد في تصريحه هذا على نص ابن السكاك السابق ، وعلى نص ابن أبي زرع الذي يقول : « ...فلم يزل ابن أبي العافية شريدا في الصحراء وأطراف البلاد التي بقيت بيده ، وذلك من مدينة كرسيف إلى مدينة نكور إلى أن قتل ببعض بلاد ملوية ، وذلك في سنة واحد وأربعين وثلاثمائة ، وقيل قتل سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ؛ قاله البرنسي . فولي بعده ولده عبد الله بن ابراهيم بن موسى بن أبي العافية إلى أن توفي في سنة ستين وثلاثمائة ، فولي بعده ولده محمد ، وعليه انقرضت أيام بني أبي العافية المكناسيين سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ، وذكر بعض المؤرخين لأيامهم أنه لما توفي محمد بن عبد الله بن ابراهيم بن موسى بن أبي العافية ولي بعده القاسم بن محمد المحارب للمتونة ، فكانت بينه وبينهم حروب كثيرة إلى أن غلب عليه يوسف بن تاشفين فقتله واستأصل بلاده حتى قطع شافة ذرية موسى بن أبي العافية من المغرب ، وكانت أيامهم فيه من سنة خمس وثلاثمائة إلى سنة خمس وأربعين وأربعمائة ، فذلك مائة وأربعون سنة من أول دولة عبد الرحمان الناصر لدين الله إلى قيام لمتونة »[15] . وواضح أن قول الحلبي فيه كثير من المبالغة وهي مبالغة مقصودة[16] ، إذ يظهر أن المقصود هو قتل عدد كبير من آل ابن أبي العافية لا استئصالهم ، إذ يصعب القضاء على جميع النسل بعد نحو قرن ونصف ، خصوصا وأن آل ابن أبي العافية كانت لهم مجالات واسعة للانتشار في المغربين الأقصى والأوسط ، زيادة على بلاد الأندلس التي كانت تربطهم بعرشها روابط متينة .

---

(14) طبع على الحجر بفاس عام 1300 هـ /1314 هـ ومخطوطاته متعددة منها مخطوطات م.ع : 493، 649 د، 45 د. وم. م : 866، 1062.
وقد توفي الحلبي سنة 1120 هـ/1708.
أنظر ترجمته عند القادري، **نشر**، 2 : 130، **السلوة**، 2 : 164، **الاعلام** للمراكشي، 2 : 332 ــ 352، عدد 250، م. راغب ابطباخ، **تاريخ حلب**، 4 : 429، عبد العزيز بنعبد الله، **الموسوعة المغربية**، 3 : 104، René BASSET, Recherches, p. 28.

(15) أنظر **روض القرطاس**، 86.
**ملاحظة** : قوله : قاله البرنسي :
ذكر ماسينيون في كتابه **السنوات الأولى من القرن السادس عشر**، ص 224 رقم 239، أن هناك نسخة مخطوطة من كتاب أحمد البرنسي موجودة بالخزانة الوطنية بباريس، قسم المخطوطات العربية رقم 1892. وأشار إلى أن BASSET ذكر أن المخطوط هو عبارة عن نسخة ناقصة لما نقله صاحب **روض القرطاس**.
كما ذكره الأستاذ عبد السلام بن سودة في **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، 1 : 134 رقم 473، بما يأتي : « **تاريخ البرنسي** في دولة الأدارسة، ينقل عنه صاحب **القرطاس** ولعله محمد بن حمادة ».

(16) سندرس هذه النقطة عندما نعقد مقارنة بين ابن القاضي وابن السكاك في نقطة تالية.

وقد ذهب الحلبي بعيدا حينما قال في نفس الكتاب : « ...وما قيل من أن أولاد ابن القاضي منهم (أي من ذرية موسى بن أبي العافية) لا يصح ، ولم يثبت ، فهو دعوى كاذبة ، والذي صح عندي عن بعض الأخيار أنهم من برابرة تازة ... » . وهذا قول مرفوض أساسا لأن ابن القاضي أكد بنفسه في النص السابق أنه ينتمي إلى موسى بن أبي العافية. ولم ينته الأمر عند الحلبي بل ظل الأمر مستنكرا من طرف الشرفاء إلى وقتنا هذا ، ولننظر إلى أحد شرفاء جبل العلم وهو يستعرض أعمال موسى بن أبي العافية في فقرة عنونها بعنوان يحمل أكثر من دلالة ، وهو : موسى بن أبي العافية عدو الأدارسة : « من هو هذا الطاغية العتيد ؟ واللدود الحسود الذي لقي جزاء فعله بموته شريدا طريدا عن ملك المغرب بوادي ملوية ، بعد انتقامه من أهل البيت الكرام ، لم يمكث بعد محنتهم على ولاية المغرب إلا 11 سنة كلها حرب عليه حتى قتل بعد رجوعه من الصحراء بوادي ملوية شريدا طريدا حقيرا ذليلا بعد العز والسلطان ، هذا هو موسى بن أبي العافية بن أبي تاسل بن أبي الضحاك الجدولي المكناسي التسولي ، وفي سنة 313 هـ تم استيلاؤه على فاس وأخذ البيعة لنفسه ، فبايعته القبائل والأشياخ ، ولم يكن مستقلا بنفسه بل كان داعيا عميلا لاسياده مصالة ولي نعمته وعبيد الله الشيعي أمير القيروان وحاضرته المهدية التونسية ، وسماها المهدية لادعائه أنه المهدي الفاطمي المنتظر ، وكان هدفه توحيد المغرب مع افريقيا لان المغرب في عصر الأدارسة لم يكن تابعا لأحد من الشرق والغرب بل كان مستقلا بنفوذه إلى عهد يحيى بن ادريس المتقدم ، فبعث عبيد الله الشيعي قائده مصالة بن حبوس المكناسي في تحقيق مراده ، وبعد سقوط يحيى جمع الأمر لابن عمه وتركه في يد موسى بن أبي العافية ، وبعد أن تمكن من النفوذ شرع في تصفية الادارسة من المغرب فجعل يطاردهم ويقتلهم ويخرجهم من ديارهم في جميع نواحي المغرب وخصوصا مدينة فاس وشالة وأصيلا والبصرة ، ولما اشتد الخناق عليهم والجيش يطاردهم من ورائهم ويقتلهم لجأوا بأجمعهم إلى قلعة حجر النسر...ثم نزل عليهم وحاصرهم بها كي يستأصلهم من المغرب ، وبعد أن اشتد الحصار عليهم وضاق بهم الأمر الى أن يئسوا من الحياة، وقد كان ذلك على مرآى ومسمع من بني أخوالهم البرابرة ، فرقوا لهم وأشفقوا عليهم ، وكان إلى بعضهم الكلمة والرأي في سياسة المغرب مع ابن أبي العافية ، فعذلوه على سوء فعله ، وقبح نيته معهم ، وقالوا له : أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتقتلهم أجمعين ؟ فهذا أمر لا نوافقك عليه ولا نتركك له ، فخاف وارتحل عنهم إلى مدينة فاس ... »[17]. ويقول في آخر هذه الفقرة :...« وبذلك انتهى أمر طاغية أهل البيت الادريسي بعد أن مر عليهم معه ما يقرب من 20 سنة ، ذاقوا فيها أعظم بلاء من القتل والتعذيب ، والنفي والتشريد ، والجوع

---

(17) الطاهر بن عبد السلام اللهيوي الوهاب العلمي الحسني، **حصن السلام بين يدي أولاد مولاي عبد السلام**، ص 281.

والتقييد ، وكانت نيته في التصفية النهائية تهدف إلى الابادة الكلية ، لولا العقلاء من وجوه رجاله ، الذين تداركوا الأمر فوقفوا في وجهه ، ومنعوه من تنفيذ مراده ، في أهل البيت النبوي الشريف ، وإليهم يرجع الفضل في بقاء هذه الذرية الطاهرة المباركة في المغرب إلى اليوم ، والحمد لله على فضله وإحسانه »[18] .

غير أنه إن كان الأمر بالنسبة للاستاذ الطاهر بن عبد السلام العلمي واضحا فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة لابن القاضي ولابن السكاك مما يستدعينا إلقاء الضوء على موقفيهما وحقيقة دفاعهما عن الاشراف .

## بين ابن السكاك وابن القاضي :

يمكننا أن نقارن بين الرجلين من خلال النصين اللذين تعرضنا لهما سابقا، خاصة وأنه تأكد لنا أن ابن القاضي يعرف الرجل جيدا كما يعرف كتابه ، إذ قال في ترجمته : « محمد بن أبي غالب بن أحمد بن علي بن أحمد بن علي المكناسي ثم العياضي القاضي الامام المفسر المعروف بابن السكاك ، قاضي الجماعة بفاس ، من تصانيفه نصح ملوك الاسلام ، بالتعريف لما يجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام . توفي بفاس سنة ثماني عشر وثمانمائة »[19] .

ولنركز منذ البداية على نقطة أساسية وهي ان استنكار الرجلين لعمل موسى بن أبي العافية وفي فترة معينة بالضبط لم تكن تحركه نفس الدوافع، فالظروف والملابسات التي ألف فيها ابن السكاك كتابه ليست هي نفس ظروف ابن القاضي رغم التقائها معا في نفس الهدف .
ولنبدأ بابن السكاك لنجد أن الكتاب يدخل في إطار التجربة الطويلة والمعقدة التي خاضها المرينيون مع سائر أشراف المغرب في عصرهم ، وهي تجربة انتهت في المدى القريب بوصول الأدارسة إلى الحكم لمدة قصيرة سنة 1465/869 [20] ثم آلت في المدى البعيد إلى استقرار الحكم في أشراف الجنوب بفضل معطيات داخلية وخارجية في كلتا الحالتين .

---

(18) نفس المصدر، ص 283.
(19) انظر **الجذوة**، 1 : 238، **لقط**، 239، درة، 2 : 284 عدد 800.
وانظر تحليلا لكتاب ابن السكاك عند :
—Mohamed BENCHEKROUN, la vie intellectuelle, PP. 368-372.
ملاحظة :
هناك من النصح : **المختصر والأوسط والكبير**، أما **المختصر** فمخطوطاته متعددة وقد طبع على الحجر بفاس، وتوجد نسخة من **الأوسط** بالمكتبة الملكية بالرباط عدد 1256 ك، ويعد **الكبير** — حاليا — مفقودا.

نعم ، كان « الشرفاء معظمين بفاس أكثر من غيرها من البلدان » على حد تعبير ابن السكاك نفسه ، لكن حدث وضع طارىء أدى بهم إلى فقد كثير من امتيازاتهم ، والكتاب كان لاثارة الانتباه إلى هذا الوضع الطارىء ، وهذا بطلب من الشرفاء أنفسهم ، وهكذا يقول في المقدمة : « ...وبعد فإن بعض آل البيت الكريم ممن قطع باتصال نسبه إلى سيدي ولد آدم ﷺ أمرني ، وامتثال أمره لوسيلته واجب ، أن أملي في نصح ملوك المسلمين مختصرا يعم نفعا بفضل الله ، وتشمل فائدته ببركة رسول الله ﷺ » .

فالنص ، إذن ، واضح ويطرح قضايا معينة منذ البداية .

1 ــ قوله : « فإن بعض آل البيت الكريم ممن قطع باتصال نسبه إلى سيدي ولد آدم ﷺ » يدل على أنه يوجد (ممن لم يقطع باتصال نسبه إلى الرسول ﷺ ) وبالتالي أصبح من الضروري التمييز بين الطائفتين ، خاصة وأن تكاثر المدعين للشرف طرح مسألة الشك بالنسبة للسلطة والعامة معا .

2 ــ الحاح الشرفاء : (أمرني ، وامتثال أمره لوسيلته واجب ، أن أملي في نصح ملوك المسلمين مختصرا ...) ، وتأكيد ابن السكاك على أنه سيقوم بهذا العمل بالفعل يدل على أن الأمر لم يعد يحتمل بالنسبة للشرفاء .

3 ــ إن اختيار الشرفاء لابن السكاك لم يكن عفويا بل لخصائص معينة تميزه عن غيره ، فقد اشتهر بالزهد والورع وألف في الذكر والتصوف ، فهو اختيار ، إذن ، يحمل دلالات عميقة .

وبالفعل ، فإن الأشراف ، بصفة عامة ، إلى غاية عصر أبي سعيد المريني ، كان لهم وزن كبير على الصعيدين الرسمي والشعبي ، بحيث أصبحوا « منظمين » تنظيما داخليا اقليميا يشرف عليه المزوار بفاس كما يشرف عليه رؤساء مقربون معترف بهم في الشمال والجنوب . كان هذا التنظيم يقوم أساسا على الامتيازات المادية والاعفاءات الجبائية . إلا أنه لم يكن يخلو أيضا من

---

(20) نشرت أخيرا دراسة نقدية هامة حول مختلف المصادر المتعلقة بهذه الحركة، أنظر :

— Mercedes Garcia-Arenal : The revolution of fas in 869/1465 and of Sultan Abd-al-Haqq al Marrini, in bulletin of the school of Oriental and African Studies, Vol.XLI, part 1, 1978, PP. 43-66.

أسس معنوية . وأكثر المجموعات استفادة من هذه الامتيازات المعنوية مجموعة أدارسة فاس والجوطيين العمرانيين منهم خاصة حسب ما وصلنا . ذلك أن الأدارسة قد أصبح لهم شبه استقلال مدني قضائي معترف به هو أيضا منذ منتصف القرن الرابع عشر فيما يبدو : فمن حق النقيب ومن واجبه أن يحمي الأدارسة حتى « لا يدخل فيهم من ليس منهم أو يخرج عنهم »وله أيضا وقبل كل شيء أن « ينظر في أمورهم وكافة شؤونهم » وأن « يفصل بينهم في الخصومات »[21] .وهكذا فإن مجموعات الأشراف الموزعة التي لم تكن تتمتع في نهاية القرن الثالث عشر إلا بوجود غامض على الصعيد العاطفي قد أصبحت تكون في منتصف القرن التالي فئة اجتماعية أو « عصبية — دينية — اجتماعية » توحد بينها المصالح والمكتسبات المادية والمعنوية وتدين للحكم المريني المتوثب المتطلع بسائر امتيازاتها المادية وببعض امتيازاتها المعنوية أيضا ، ومعلوم أن هذه الفئة لم تكن لتستفيد من الحكم دون أن يستفيد الحكم بدوره منها ، فيجعلها تزكية بحكم ظروفها المادية والاجتماعية كما يجعلها مؤهلة لتزكي استمراريته ومشروعيته .

لكن مع نهاية النصف الثاني للقرن الرابع عشر ، وبداية القرن الخامس عشر ظهرت علامات تنذر بتغييرات لغير صالحها ، ويبدو أن السلطان أبا سعيد الثالث (800 — 1398/823 — 1420) قد شمر على ساعد الجد منذ مطلع عهده للاضطلاع بمهمة تعديل سياسة أجداده إزاء الأشراف ، فبدأ بإزالة مراسيم الاحتفال بعيد المولد النبوي على الصعيد الرسمي كما يفهم من سياق ما أورده الوزان في معرض حديثه عن الأمداح النبوية [22] ، والراجح أيضا أنه ضيق على هذه الفئة كلها من الناحية المادية ولم يراع امتيازاتها كما كان يفعل أغلبية ملوك المرينيين ، والغالب أيضا أنه أصبح يتذرع لسلوكه بذريعة الشك في الشرف ونسب الشرفاء جميعا وبدون استثناء . وكيفما كان الأمر ، فمن الجائز جدا أن يكون أبو سعيد قد تبنى نظرية « ضعف الشرف » ليبرر سياسة لم يكن له في الواقع عنها من محيد : فالدولة المرينية لم تعد تفكر في الخلافة ولا في الزعامة الاسلامية بجد منذ وفاة أبي عنان ، فما الداعي إذن للتشبث ببعض جوانب سياسة هذا السلطان ؟ والبلاد نفسها أصبحت مقسمة إلى جنوب خارج عن السلطة المركزية وشمال تهدد شواطئه الأطماع البرتغالية بينما تقتسم أراضيه الداخلية أهواء الزعماء والثوار . فالحد من النفقات أصبح يفرض نفسه نظرا للحصار الاقتصادي القائم على الشواطىء وضعف المداخيل بحكم ضعف السلطة وكثرة المستفدين . وأي خطر يتمثل في الاحتفاظ لبيت المال بما

---

(21) الجزنائي، **زهرة الآس**، 30، ابن السكاك، **نصح**، ص 18 — 19. ويمكن المقارنة بين صلاحيات مزوار الادارسة بفاس كما أوردها الجزنائي وبين صلاحيات نقيب الطالبيين ونقيب العباسيين كما وصفها في القرن الخامس / الحادي عشر في **أحكامه السلطانية**، فسوف يلاحظ أن أوجه الشبه كثيرة جدا.
انظر الماوردي : كتاب **الأحكام السلطانية**، ص 82 — 86.

(22) Léon l'Africain, Description, 1 : 216.

كان موقوفا حتى الآن أو قبل الآن على فئة أثبتت التجربة عدم خطورتها وقلة فعاليتها وأخذ كبرائها بمبدأ الحياد والهدنة ؟

وهكذا نخلص ،إذن ، في النهاية إلى أن ابن السكاك في كتابه هذا يحذر وينبه السلطان بصفة غير مباشرة — إلى أن جميع التجارب التي تحاول تهميش هذه الفئة وتجريدها من امتيازاتها يكون مآلها الفشل ، وسرد أمثلة عديدة لذلك ، أبرزها مثال موسى بن أبي العافية مع الأدارسة ، وهو بالتالي يتخذ نقد الماضي ستارا لنقد الحاضر .

أما ابن القاضي وإن كان يلتقي مع ابن السكاك في استنكاره لعمل موسى بن أبي العافية من أجل تأدية نفس الغرض ، فإن الظروف والملابسات التي أحاطت بكتابة كلا النصين تختلف تماما ، فما قلناه بالنسبة لابن السكاك لا يمكن أن ينطبق إلا جزئيا بالنسبة لابن القاضي[23] ، فابن القاضي كتب نصه والاشراف بالفعل في السلطة ، ولا ينازعهم في ذلك أحد ، بل كانوا يتطلعون إلى بسط زعامتهم على العالم الاسلامي عن طريق الخلافة ، وابن السكاك كان ينتمي إلى نفس القبيلة التي ينتمي إليها المرينيون (قبيلة زناتة) ، وهو بالتالي كان يرى نفسه في صف واحد معهم ، فهو يقدم « النصح » إليهم لأجل العمل معا على حماية الأشراف ، في حين أن ابن القاضي لم يكن يرى نفسه إلا مجرد « خديم » للأشراف فهو لا يقدم نصحا ، ولكن يكتفي فقط بإظهار الطاعة والاخلاص لهم .

وعلى كل فالنص يدعونا لتقديم الملاحظتين التاليتين :

1 — إن ابن القاضي لم يتبرأ من قبيلته كما فعل ابن السكاك ، بل حاول التخلص من هذه القضية بسهولة عندما استخدم لفظة : « والله أعلم » ، وهي توحي بما توحي به .

2 — أدمج المؤلف هذا النص في كتابه **جذوة الاقتباس ، في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس** ،وفي تقديرنا فإن هذا الادماج لم يكن تلقائيا ولا عفويا ، وذلك بناء على معطيات تاريخية محددة تمكننا من إعطاء نظرة تركيبية عن هذه النقطة . وهكذا نستطيع أن نطرح

(23) من الجزئيات التي يتطابق فيها عصر ابن السكاك مع عصر ابن القاضي مناقشة مسألة الشرف، وهكذا فقد نوقشت في عصر المنصور صحة نسبة بعض الأسر القادرية بفاس والوافدة عليها من غرناطة، وكان القاضي علي بن عمران يخالف رأي الشيخ الامام القصار والقاضي الحميدي بحيث كان يطعن في أدلة نسبهم إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني.
أنظر :
ع. الرحمان الفاسي ، **ابتهاج القلوب** ، مخطوط م.م عدد 2627 ، ورقة 276 .
م . القادري ، **التقاط الدرر** ، القسم الأول ، ص 38 رقم 75 .

التساؤلات الآتية :

لماذا تخصيص مدينة فاس في هذا الوقت بالضبط بكتاب ، واهداؤه للمنصور ؟

ــ لماذا إدماج نص مثل هذا داخله ؟

ــ هل حدث ما استوجب ذلك ؟ أم انه من قبيل الاعتزاز بالموطن كما فعل غيره ، خاصة ونحن نعرف أن ابن القاضي لم يكن أول ولا آخر من ألف في مدينة فاس ؟ بالنسبة للشق الثاني من التساؤل الأخير فإننا نستبعده ، لاننا نعتقد أن الأمر لا يتعلق بنزوة شخصية بقدرما يتعلق بشروط موضوعية جعلت الرجل يتجرد للدفاع عن مدينة فاس ، وهو من خلال ذلك ــ بالطبع ــ يدافع عن نفسه ، ونوضح ذلك في التحليل التالي :

لقد ظلت فاس منذ أواخر العصر المريني ، بل وقبله بقليل ، تعرف نوعا من التدهور إلى أن وصلت إلى حد معين في عهد المنصور ، وابن القاضي (الفاسي الدار) لم تكن ــ بطبيعة الحال ــ تروق له هذه الوضعية ، ولكنه كان ــ أيضا ــ يدرك عدة حقائق كان لابد له من تقديم أوراقه للتخفيف من حدتها ، ويمكن تقسيم هذه الحقائق إلى صنفين : صنف شخصي يتعلق به هو ، وصنف عام يتعلق بالمدينة ككل .

ــ الصنف الشخصي : ويرتكز على نقطتين :

1 ــ كان ابن القاضي يدرك جيدا أنه ينتمي إلى قبيلة زناتة ، أي نفس قبيلة الدولة المرينية ، العدوة اللدودة للدولة السعدية .

2 ــ كان يعلم ــ أيضا ــ مدى التأثير الذي تركه عمل موسى بن أبي العافية في نفوس الأشراف والعامة إلى غاية عصر المنصور . أما الصنف العام ــ وهو المهم ــ فهو يرتكز على جملة معطيات تحدد في مجموعها العلاقة التي كانت سائدة بين المنصور ومدينة فاس ، وهي علاقة تظل رهينة ظروف تاريخية معينة ، حتى أن الأفراني يذكر أن المنصور لم يزر فاس إلا مرتين(24) .

وعلى كل فابن القاضي يريد أن يدافع عن فاس من واجهتين : واجهة سياسية وواجهة علمية .

1 ــ **الواجهة السياسية** : حاول المؤلف جهده لابراز إخلاص المدينة للمنصور ، ومحاولة إزالة الضباب الكثيف الذي خيم على علاقة السعديين بها ، وذلك من خلال سلسلة التراجم

---

(24) النزهة ، 120 .

التي عقدها لعلمائها وصلحائها .

فلا ننسى أن المدينة حاربتهم طويلا قبل استسلامها ، وانهم فقدوا عددا من الجنود في المعارك التي خاضوها ضدها ، كما لا ننسى أن محمد الشيخ — المؤسس الحقيقي للدولة — فتح فاس مرتين ، وأنه قتل أشهر علمائها (الزقاق ، حرزوز ، الونشريسي) . وقد اعتبرهم ابن عسكر « شهداء »[25] .

وهكذا فقد كان السعديون دائما ينتهجون تجاه فاس سياسة الحذر ، واهتمام السعديين بالعمران العسكري بالمدينة أكثره من غيره يدخل في نطاق هذه السياسة ، إذ أن المؤسسات العسكرية كثيرة بالمقارنة إلى ما شيدته الدولة من مؤسسات اجتماعية واقتصادية ، كما نلاحظ في هذا المجال أيضا أن ما قاله الشعراء المعاصرون في شأن تضخيم المنجزات السعدية بفاس يجب دائما أخذه بعين الحيطة والحذر ، فما بناه السعديون من قناطر وسدود وغير ذلك قليل جدا إذا ما قورن بما أنشأته الدولة المرينية . وقد حاول الفاسيون أن يقوموا بنوع من التجاوز للسلطة عندما عوضوا ذلك النقص بما شيدوه من مؤسسات للتأكيد على أن الفاسيين يستطيعون الكثير حتى بدون مساعدة السلطة المركزية .

إننا لا نقصد بهذا أن المنصور أهمل فاسا تماما أو كان ينقص من قيمتها ، بل على العكس من ذلك كان يدرك بالفعل قيمتها وخطورتها ، فقد كان يعلم جيدا دور جامع القرويين وقوة مركزه فأبدى مزيدا من الاهتمام به لا سيما وهو يعلم تصرف أبيه تجاه أحد علمائه (الونشريسي قتل أمام أبواب القرويين) ، ولكن هذا أيضا يدخل في إطار السياسة السالفة الذكر ، فقد كان يرمي إلى تأطير المدينة بمجموعة من العلماء والشيوخ التي من الممكن أن تكون سندا له .

وقد كان ابن القاضي أحد هؤلاء العلماء فحاول أن يبرز إخلاص العلماء له ومن خلالهم إخلاص عامة فاس واعتزازهم بأسرته الشريفة ، ولكنه حاول في نفس الوقت أن يثبت أن المدينة مدينة علم ، وأن المغرب كان يتقرر مصيره من خلال هذه المدينة عندما كانت عاصمة لبني مرين ، وإنما وجدت بهذا الشكل نتيجة ظروف طارئة ، وذلك ما سنحاول أن نوضحه من خلال الواجهة الثانية وهي الواجهة العلمية .

**2 — الواجهة العلمية :**

نلاحظ في المنتقى أن ابن القاضي يعرض عن مدينة فاس في مناسبات كثيرة ، وعندما يذكرها فإنه يردفها بعبارة : « عمرها الله » . ورغم أنه يبدو لأول وهلة أن الدعاء عادي ولا يحتاج

---

(25) أنظر الدوحة ، 52 ، 55 .

إلى تأويل ، فإننا نعتقد مع ذلك أنه مقصود ويحمل دلالات عميقة ، خاصة إذا ما قارناه بالدعاء الذي يردفه بالنسبة لمدينة مراكش عندما يقول :« حرسها الله » .

فقد كانت فاس بالفعل في حاجة إلى من « يعمرها » خاصة إذ علمنا أن بلاط أحمد المنصور بمراكش وذهبه الوهاج كانا يستهويان الأفئدة ، فغدت العاصمة السعدية بذلك مقصد العلماء والادباء يشدون إليها الرحال من المغرب والمشرق ، مما أثر سلبيا على المدينة الفاسية ، وتجلت هذه السلبية بالخصوص في قلة عدد المدرسين بفاس بالنسبة لما كانوا عليه في المرحلة السابقة ، ذلك أن طائفة من العلماء هجروا مدينتهم نهائيا للتدريس في مساجد مراكش أو للعمل في مقاصير قصر البديع ، وطائفة أخرى ألفوا الرحلة إلى الجنوب ملتقى العلماء ومفرق الأرزاق والوظائف. ونورد هنا نصا لعالم بارز كان له وزنه في الوسط العلمي آنذاك ، وقد أبدى رأيه بمناسبة استعراض رأي عالم آخر لا يقل قيمة عنه ، وهو : محمد بن ابراهيم بن أحمد الآبلي المتوفى سنة 757 هـ بفاس[26] ، وهكذا ينقل أحمد بابا عن المقري الجد قول الآبلي : « إنما أفسد العلم كثرة التواليف ، وإنما أذهبه بنيان المدارس ، وكان ينتصف له من المؤلفين والبانين وإنه لكما قال ، غير أن في شرح ذلك طولا ، وذلك أن التأليف نسخ الرحلة التي هي أصل جمع العلم ، فكان الرجل ينفق فيها مالا كثيرا ، وقد لا يحصل له من العلم إلا النزر اليسير ، لأن عنايته على قدر مشقته في طلبه ، ثم صار يشتري أكبر ديوان بأبخس ثمن ، فلا يقع منه أكثر من موقع ما عرض عنه ، فلم يزل الأمر كذلك حتى نسي الأول بالآخر ، وأفضى الأمر إلى ما يسخر منه الساخر ، وأما البناء فلأنه يجذب الطلبة لما فيه من مرتب الجرايات ، فيقبل بها على ما يعينه أهل الرياسة للاجراء والاقراء منهم أو ممن يرضى لنفسه الدخول في حكمهم ، ويصرفونها عن أهل العلم حقيقة الذين لا يدعون إلى ذلك ، وإن دعوا لم يجيبوا ، وإن أجابوا لم يوفوا لهم بما يطلبون من غيرهم » [27] ، ثم يخلص المؤرخ السوداني إلى ابداء رأيه قائلا : « قُلت : ولعمري لقد صدق في ذلك وبر ، فلقد أدى ذلك لذهاب العلم بهذه المدن الغربية التي هي من بلاد العلم من قديم الزمان كفاس وغيرها ، حتى صار يتعاطى الاقراء على كراسيها من لا يعرف الرسالة أصلا فضلا عن غيرها ، بل من لم يفتح كتابا للقراءة قط ، فصار ذلك ضحكة ، وسبب ذلك أنها صارت بالتوارث والرئاسات — أعاذنا الله — حتى خلت هذه الساعة عمن يعتمد عليه في علمه مصداق قوله ما ورد في ذلك »[28] فالنص خطير ، إذن ، ويبرز إلى أي حد وصلت

---

(26) ويكفي أن نذكر أيضا من بين تلامذته : ابن خلدون والمقري الجد . أنظر ترجمته عن أ. بن القاضي ، **لقط** ، 208 ، **جذوة** ، 1 : 231 رقم 202 ، **درة** ، 2 : 265 رقم 765 ، أ. المقري ، **نفح** ، 5 : 244 — 248 .

(27) أنظر **نيل الابتهاج** ، ص : 246 ، أ . المقري ، **نفح** ، 5 : 275 — 276 .

(28) أنظر **نيل الابتهاج** ، ص : 246 — 247 .

الحالة الفكرية بمدينة فاس ، وأحمد بابا يثير انتباهنا ليس فقط إلى الفراغ الذي كانت تعيش فيه مدينة فاس نتيجة ما حل بها ، بل إلى انعدام القدرة العلمية لكثير من علمائها ، ولكننا لا نميل إلى تأييد رأيه فيما ذهب إليه من أن السبب هو : (التوارث والرئاسات) باعتباره عاملا وحيدا ، بل نميل إلى الاعتقاد بأن هناك عاملا آخر على الاقل لعب دوره في هذه الفترة ألا وهو هجرة العلماء وبشكل كبير إلى مراكش ومنها إلى مختلف المدن المغربية كما قلنا ذلك سابقا .

نلخص من كل هذا في الأخير إلى أن نص الاستنكار كتب قصدا في الجذوة ، وأن هذه الأخيرة كتبت لظروف معينة ، فهي تذكير للسلطان بأنها المدينة التي نشأ فيها ودرس على علمائها ، وبأنها مدينة العلماء والصلحاء ، وأن مكانتها يجب أن تعود لها وذلك بإزالة عوامل الظروف الطارئة التي تسببت في وضعيتها .

هذا ، إذن ، ما أردنا أن نقوله عن انتساب أسرة ابن القاضي إلى موسى بن أبي العافية وأثر ذلك على الصعيدين الشخصي والرسمي ، غير أن الصورة لن تكتمل عن هذه الأسرة إلا إذا استعرضنا الجذور المجتمعية لها ، لوضعها في إطار النسق المجتمعي الذي كان المغرب يعرفه آنذاك .

* * *

## الجذور المجتمعية لأسرة ابن القاضي :

إن الأصل الارستقراطي للاسرة واضح جدا ، وذلك منذ استقرارها بمدينة مكناس ، يقول ابن غازي في هذا الصدد — أثناء استعراضه لشيوخ مدينة مكناس — : « ومنهم شيخ شيوخنا الفقيه الخير الناصح : أبو عبد الله محمد بن العافية المعروف بالأحول ، كان عيبة نصح لشيخنا القوري ، انتفع به كثيرا ، وله موضوع في المسائل الواقعة في المدونة في غير مواضعها ، وقد كان أبوه : أبو العباس أحمد قاضيا بالمدينة المذكورة ، فلما عرضت عليه الخطة بعد أبيه زهد فيها وهو أخو أبي العز ويحيى المذكورين فوق هذا »(29) ، ويقول ابن القاضي في هذا الصدد أيضا : « ...وخطة القضاء كان في أسلافنا منذ القديم إلى دولة الوطاسيين من بني مرين ، وأما في دولة سادتنا الشرفاء فإن أول من ولي ذلك في دولتهم السعيدة من بني العافية في أيام مولانا — أبقى الله وجوده وأدام سعوده بمحمد وآله — »(30) ، وهكذا فقد تسلسل القضاء في هذه الأسرة لمدة

(29) الروض المتون، ص 25.
(30) أنظر المنتقى، 710.

طويلة حتى التصقت بها تسمية (ابن القاضي) ، والقاضي المقصود هنا هو القاضي أبو العز ، وفيه يقول كتاب **بيوتات فاس الكبرى** : « ...ومنهم بيت بني أبي العافية المكناسيين من البربر ، وقد شهروا لهذا العهد ببني القاضي لكون جدهم أبي العز ابن أبي العافية كان قاضيا بمكناسة ، وفيهم عدة فقهاء »[31] . وترتبط شخصية أبي العز هذا بحدث آخر مهم بالنسبة للأسرة وهو انتقالها من مكناس إلى فاس ، فيذكر إبن عيشون الشراط في هذا الصدد أن آمنة بنت القاضي السالف الذكر كانت تهيم بخدمة الشيخ الشهير أبي الحسن علي بن أحمد الدوار الصنهاجي[32] وتأبى إلا أن تلازمه ، وقد حاول أهلها بكل الوسائل لكفها عن ذلك ، لكن دون جدوى ، ثم زاد المؤرخ ابن عيشون الشراط قائلا : « ...وما جاء بأولاد ابن القاضي كلهم من مدينة مكناس إلا من أجلها ... »[33]. وعملية الانتقال هاته سيكون لها تأثير كبير في شخصية مؤرخنا ، وسنتناول ذلك عندما نتناول الجانب الصوفي من هذه الشخصية .

وعلى كل ، فقد انتقلت الاسرة إلى فاس وسكنت بحي « سبع لويات »[34] ، وهو اختيار يحمل أكثر من معنى، ويؤكد ما قلناه عن الاصل الارستقراطي للاسرة ، ذلك أن التوزيع التسكاني بفاس كان مرتبطا بوجود تفاوت اجتماعي بين السكان ، فالفئة الغنية والعلماء والموظفون وكل العناصر المقربة إلى الجهاز الحاكم كانت تتمتع بنوع من الحصانة ، وكانت تنزع باستمرار إلى سكنى الأحياء الأقل إزدحاما وكثافة مثل حي« سبع لويات » حول القرويين ، وكذلك « الدوح » الذي كان يسكنه الموظفون مثل القضاة ، فهؤلاء هم الذين كانوا يكونون الفئة الارستقراطية بالمدينة في ذلك العصر ، وأما العناصر الأخرى فظلت في المناطق الحرفية القريبة منها .

وقد استمدت هذه الأسرة ارستقراطيتها من عناصر عدة أهمها : الجاه والمال والمنصب ، وهذا ما يستنتج من المصادر التي أرخت لها ، فيذكر سليمان الحوات في هذا الصدد في ترجمة مؤرخنا أحمد بن القاضي ـــ : « هو من بيت عريق في الحضارة ، بل ليس في بطون زناتة في المغرب : فاس ومكناس وغيرهما ، مثل أولاد ابن القاضي من بني موسى بن أبي العافية في تقدم

---

(31) أنظر **بيوتات فاس الكبرى** ، ص 69 رقم 77 .
أما أبو العز هذا فهو أحمد بن علي بن عبد الرحمان ، تلميذ ابن غازي ، وجد مؤرخنا أحمد بن القاضي ، وتوفي بمدينة فاس سنة 955 هـ .
أنظر ترجمته عند أ. بن القاضي ، **درة** ، 1 : 106 ، رقم 147 ،
**جذوة** 1 : 158 رقم 147، **لقط**، 301.

(32) أنظر ترجمته عند م. بن عسكر ، **دوحة** ، 81 رقم 66 .

(33) أنظر **الروض المعطار** ،ورقة 25 .

(34) أنظر عبد الله الفاسي ، الاعلام بمن غبر ، ص 366 .

الرياسة وتعدد الأئمة الاعلام ، وتنوع الخطط وآتمكن في العروة إلى قرب هذا العهد ... »[35]، وقال في مصدر آخر : « هو من أولاد ابن القاضي الزناتيين المكناسيين ، وبيتهم بيت كبير في العلم والحسب ... »[36] ، وقال ابن أبي محلي في نفس الموضوع :« وأولاد ابن القاضي هؤلاء بيتهم بحضرة فاس مشهور ، بيت علم »[37] ، وعلينا أن نؤكد هنا أن عناصر الأرستقراطية التي ذكرناها بالنسبة لهذه الأسرة لم تكن هامشية بالنسبة لمؤرخنا ، بل هي التي ستتحكم في مسار حياته .

وقد رآى النور صاحب **المنتقى** وسط هذه الأسرة في جمادى الأولى سنة ستين وتسعمائة [38] بعد أربع سنوات فقط مرت على انهيار دولة بني وطاس، وما صاحب هذا الانهيار من أحداث ذهب ضحيتها عدد من علماء فاس، وانتهت بالقضاء على انتفاضة أبي حسون الوطاسي، واستيلاء محمد الشيخ على فاس [39] .

غير أنه بالرغم من توتر الأوضاع الداخلية بمدينة فاس وركود الحركة العلمية بها ، نتيجة الصراع الدامي بين السعديين والوطاسيين ، فإن المدينة — مع ذلك — ظلت تحتفظ بنوع من الحيوية العلمية التي تمكنها من استقطاب عدد من الطلاب المغاربة والجزائريين والتونسيين والأندلسيين ، فوجدوا في مدارسها وأحباسها وخزائنها العلمية — وكانت لا تزال ماثلة منذ العصر المريني — ما أعانهم على التحصيل وتوسيع أفق الدراسة والمعرفة .

وقد كان ابن القاضي من بين هؤلاء الذين استقطبوا وانكبوا على التحصيل لتكوين أنفسهم ، فكيف إذن تم هذا التكوين ؟

---

(35) أنظر **الروضة المقصودة** ، 13 .

(36) أنظر **البدور الضاوية** ، ص 67 .

(37) أنظر **الاصليت** ، ورقة 59 ظ .

(38) أنظر **المنتقى**، 790.

ملاحظة :

يؤكد ابن القاضي في كل مصادره على أنه ولد سنة 960 هـ ، كما يؤكد ذلك معاصروه أو الذين أتوا بعده ، لكن نلاحظ انفراد النسخة المطبوعة من **اللقط** بسنة 962 هـ (ص : 305) ، ونعتقد أن هذا تحريف واضح من الناسخ ، وأن هذه الترجمة وضعت في غير مكانها ، وقد أحسن صنعا أستاذنا الدكتور محمد حجي عندما وضع الترجمة بين قوسين ، كما أكد في الهامش أن هذه الترجمة لا توجد في مخطوطتي م.ع بالرباط وفاس ، فالصواب هنا إذن مع نسختي م.و.ع .

(39) كما صادفت هذه السنة أيضا (سنة 956 هـ ) ميلاد السلطان أحمد المنصور بفاس بعد دخول والده إليها .

أنظر أ. بن القاضي ، **لقط** ، 301 .

**ثالثا : تكوينه .**

مر تكوين ابن القاضي عبر مراحل فصلها تفصيلا دقيقا في **المنتقى** (40) ، إذ خصص لذلك بابا خاصا ، وهو الباب 24 الذي سماه : ذكر فقهاء العصر ، وقبل استعراض مراحل هذا التكوين علينا أن نسجل ملاحظات أساسية تساعدنا على وضع إطار عام لهذا المبحث :

**الملاحظة الأولى** : وهي تتعلق بهذا الباب نفسه ، لماذا أدمجه في صلب الكتاب ولم يتركه إلى الأخير كما فعل معاصره أحمد بابا في **كفاية المحتاج** أو كما فعل السيوطي قبله في **حسن المحاضرة** ؟ ولماذا كل هذا التدقيق في وصف الشيوخ الذين أخذ عنهم سواء بالشرق العربي أو المغرب العربي إلى الدرجة التي يثبت فيها أحيانا إجازات هؤلاء الشيوخ ، ونستطيع أن نلاحظ في هذا الصدد أيضا أن **فهرسه** ــ والذي كان من المنتظر أن يتوسع فيه في هذا الموضوع ــ لم يذكر فيه إلا 11 شيخا ، 6 من المشرق العربي و 5 من المغرب ، في حين تعدد هؤلاء وتشعبوا بشكل ملحوظ في **المنتقى** . فلماذا إذن كل هذا ، خاصة وأن الكتاب ــ كما يذكر هو نفسه ــ ليس إلا مجرد اعتراف بالجميل للمنصور ؟

لعل السبب في ذلك ــ فيما يبدو ــ يرجع إلى أن ابن القاضي أراد أن يقدم « بطاقة تعريف » علمية للمنصور ، وذلك لكي يحتل المكان الذي كان يتمناه بين علماء القصر ، خاصة وأنه يعلم مستوياتهم وطموحاتهم . إننا لا نقصد بهذا أن مكانة ابن القاضي قبل المنتقى كانت هامشية ، أو أنه أراد أن يثير انتباه السلطان لمكانته العلمية ، بل نستطيع أن نجزم ــ ومنذ البداية ــ أن مكانته داخل القصر ــ كما يتجلى ذلك من خلال سلسلة الأحداث التي جرت له مع المنصور ــ كانت مكانة مهمة ، وإنه لهذا السبب أوفده للشرق لنشر مآثر الدولة السعدية (41) ولاستكمال تكوينه العلمي، ولكنه كان فقط يريد أن يثبت للمنصور أنه وإن لم

---

(40) لا يعني ذلك أننا سوف نكتفي **بالمنتقى** لاستعراض مراحل تكوينه ، بل سنعمد إلى سائر كتبه وإلى من كتبوا عنه من تلامذته أو من غيرهم ، وذلك لأخذ صورة متكاملة وواضحة عن هذا التكوين ، مع التدقيق في نوعية العلاقة التي كانت تربطه بهؤلاء الشيوخ .

(41) كان المنصور حريصا إلى حد كبير على نشر مآثر الدولة السعدية وذلك في إطار السياسة العامة التي كان ينتهجها ، ونذكر في هذا الصدد أن تكليف مؤرخه الفشتالي بتأليف **المناهل** يدخل في هذا الاطار ، وذلك عندما توصل بكتاب **البحر الزخار ، والعيلم التيار** للقاضي : مصطفى بن حسن بن سنان بن أحمد الحسيني الهاشمي الجناني (ت 999 هـ/1590) قاضي حلب ، ووجد فيه أخطاء ومغالطات كثيرة ، كما يتجلى ذلك من رسالة بعثها المنصور إلى هذا القاضي : « ...ولما وقف بنا رائد التأمل على ما فيه من أخبار هذه الدولة الكريمة التي اجتلبتم منها حصاة من ثبير ، ونفحة من عبير ، وأجلنا النظر في النبذة التي ألممتم بها إلمام طيف الخيال ، وأطلعتم من سوادها على الصفحات البيض نقطة خال ، عثرنا لكم في ذلك ــ أكرمكم الله ــ على غلط واضح وضوح النهار ، وألفينا طرف التعريف قد كبا بقلمكم لفيه في ذلك المضمار ، إذ سلك شعبا وقد سلكت الدولة واديا ، وجرى على غير سمتها فلم يجد هاديا ،

يذهب إلى الشرق ، وإن لم يحمل إجازات جديدة معينة ، فإن تكوينه مع ذلك كامل أو قريب من الكمال وأنه يستطيع أن يفيد إلى حد كبير ، وأن هذه الافادة لا تقف عند حد الافادة العلمية ، بل يمكن أن تستغل خبرته وتجاربه لتسيير مرفق مهم من مرافق الدولة ألا وهو القضاء .

نعم ، لقد كان قبل إتمام **المنتقى** قاضيا على القصر ، لكنه بعد إتمامه « سيرقى » إلى قضاء مدينة سلا .

= فكم من خبر قد زحزح عن محله ، ونسب إلى غير أهله ، وآخر مجهول الأصل والمبنى ، زائد اللفظ والمعنى ، وعلمنا لذلك أن هذه الدولة الكريمة قد غابت عنكم رأسا حقائقها ، واشتبهت على علمكم طرائقها ، وعذركم في ذلك واضح لتنائي الديار ، وبعد الآفاق والأقطار ، وشط الوصول وشحط المزار ، وإلا فانتاؤكم للجانب النبوي الكريم ، والمحتد العلوي الصميم ، يأبى الرضى بتلك الصبابة المصبوبة في حق هذه الدولة الكريمة التي هي نور الفلق ، وتاج المفرق ، ولما أنفنا أن يبقى ذلك الخيال ، والغلط المبت الحبال ، فيكون في تأليفكم وصمة ، وفي جانب الدولة العلية ثلمة ، توجهت إشارتنا الامامية المشرفة إلى أحد كتابنا ، وعميد أبادينا ، وفرسان الانشاء بعلي بابنا وكريم نادينا ، والحلبة المثقفة بتربيتنا وأدبنا ، بتلخيص موضوع يكون لاخبار هذه الدولة الكريمة إن شاء الله الشامل المستوعب ، والموجز المسهب ، يعتمد الفضلاء أمثالكم المعنيون بهذا الشأن عليه ، ويتخذون إن شاء الله قبلة يصلون إليه ، وقد رجي بحول الله عن قريب تمامه ، وأوشك زهرة أن تفتح أكامه ، ويفوح بمسك الختام ختامه ، وعرفناكم لتمسكوا إن شاء الله عن نشر ما لفقتموه في تاريخكم هذا من تلك الشذور ، وتصرفوا عنان القلم عن بثها إلى أحد من الخاصة والجمهور ، حتى تاتيكم إن شاء الله من قبلنا مرتبة في أسلاكها ، باهية بالطلوع في ابراجها السامية الذوائب وأفلاكها ، بحول الله وقوته » .
أنظر : **رسائل سعدية،** ص 239 — 240.

أما تاريخ الجنابي نفسه فقد ذكر عنه حاجي خليفة في **كشف الظنون** ، 1 : 224 : « وهو كتاب كبير في مجلدين جمعه من كتب كثيرة ، ورتب على مقدمة واثنين وثمانين بابا ، كل باب في دولة ، وهو اجمع ما جمع في دول الملوك . قيل : اسمه العيلم الزاخر ، والصحيح ما ذكرناه . وله مختصره وترجمته التركية » . وقال عنه جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية ، المجلد الثاني ، 319 — 320 : « **كتاب الحافل الوسيط والعيلم الزاخر المحيط في أحوال الأوائل والأواخر** : ويعرف بتاريخ الجنابي . يشتمل على تاريخ 23 دولة إسلامية في مجلدين إلى سنة 997 ، منه نسخة في إكسفورد وبطرسبورج وكوبرلي وبني جامع ونور عثمانية. وله مختصر لابن المنلا (100,3) في برنين . وترجمه المؤلف إلى التركية . منه نسخة في فيينا . وقد طبعت منه قطعة في فيينا سنة 1680 تتعلق بتيمورلنك مع ترجمتها إلى التركية والفارسية واللاتينية » .
وتوجد بالخزانة الملكية بالرباط نسخة مخطوطة منه تحت عدد 1507 في مجلد من تاريخ عام مبتور الأول، به 541 ص بخط شرقي نسخي (وهو منسوب خطأ في النسبة المذكورة إلى ابن حجر الهيثمي).
ويتناول — ضمن مجموعة من الدول الاسلامية — تاريخ الغرب الاسلامي من الفتح حتى أواخر القرن 10 هـ ، حيث ينتهي آخر الباب 30 الذي يحمل عنوان : « ذكر أحوال شرفاء فاس وسوس ومراكش وغيرها » .
ومن وصف الكتاب ومقارنة فقرات منه بالترجمة الفرنسية **(Fagnan Extraits inédits, Alger, 1924)**
يتبين أن مخطوط المغرب هو المجلد الأول من تاريخ الجنابي وأهم محتوياته هي المعلومات التي يقدمها عن الوطاسيين والسعديين ، ويستند في أخبار الدولة الأولى إلى مغربي من سكان حي الطالعة بفاس : يسميه الشيخ أحمد بن عبد الرحمان الفاسي الطالعي .

**الملاحظة الثانية :**

إن ابن القاضي حين يستعرض شيوخه أو الطلبة الذين درس معهم فإنه غالبا ما يعطي رأيه بصراحة في الشيخ أو الطالب الذي درس معه ، وسنعرض فيما بعد لنماذج من هذه الوضعية ، ونكتفي الآن بطرح تساؤلات علنا نلامس حقيقة هذه الصراحة الغير المعتادة ، فنقول بهذا الصدد : كيف وجد ابن القاضي الجرأة على أن يصدع برأيه في شخصيات علمية كان لها وزنها آنذاك ، سواء لدى السلطة أو لدى العامة ؟ هل لأنه كان يجد نفسه في مركز قوة ، أم إن ما كان يصفها به من أوصاف كانت معروفة بالفعل لدى أوساط العامة والسلطة على السواء وأنه اكتفى هو فقط بتسجيلها ؟[42] هل هناك دوافع خاصة كانت تحركه سواء من جانب السلطة أو من جانب شخصيات علمية أخرى ؟ لماذا لم تشمل هذه الصراحة كل الشيوخ الذين درس عليهم أو الطلبة الذين درس معهم ؟ هل فعلا سلك هذا السبيل لأنه لم تكن لهم أوصاف استثنائية تميزهم عن غيرهم ؟ لماذا أعرض عن ذكر بعض الشخصيات [43] ونخص بالذكر منها شخصية أحمد بابا السوداني ، وهي شخصية لم تكن هامشية ، بل كان لها وزنها وسط الجو العلمي السائد آنذاك ، وزاد الأمر غموضا أن الرجل يعرف ابن القاضي جيدا فهو يقول : « أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي العافية الشهير بابن القاضي ، من ذرية العلماء ، المكناسي الأصل ، الفاسي الدار ، صاحبنا الحاج الرحالة ، ذو الاخلاق المرضية ، والأحوال المليحة ،

---

(42) قال — مثلا — في ترجمة أحمد اللمطي ، درة ، 1 : 93 :
« به عرف اللمطي ، ناظر أحباس القرويين ، ولم يكن من أهل العلم ، وإنما كان عارفا بأحوال الدفاتر فقط .
توفي سنة 928 هـ » .
فإبن القاضي يؤكد إذن أن الرجل كان يتقن وظيفته فقط ، ولا نرى فائدة في التشكك فيما قاله ، خاصة إذا علمنا أن ناظر أحباس القرويين لم يكن من المفروض فيه أن يكون ذا مستوى علمي رفيع .
وقد قال في ترجمة أحمد بن محمد الطرون ، درة ، 1 : 167 : « الفاسي الدار ، القصري النجار ، الاموي . كان قاضيا بفاس ، ولم يكن من أهل العلم ، وإنما ولي القضاء لأنهم كانوا يولون القضاء من يكون مليا وإن لم يكن ذا علم ، لينكف بماله عن أموال الناس وعن الرشا » .
وهنا أيضا يقر وضعية لم يكن ابن القاضي أول ولا آخر من انتبه إليها وأقرها مما يجعلنا نتقبل ملاحظته باطمئنان . ويقول أيضا في ترجمة أبي عبد الله الشامي ، **درة** ، 2 : 237 : « شيخ من العامة ، له سند صحيح . أخذ عن أبي زيد : عبد الرحمان سقين ، إلا أنه ليس من أهل العلم » .
وهو هنا يؤكد بالنسبة لهذا الشيخ أنه من (العامة) وأن إيجابيته الوحيدة هي (السند الصحيح) ، ولولا ذلك لما ذكره نظرا لأنه (ليس من أهل العلم) . وهكذا ، فيما أنه من العامة فلا ننتظر أن تكون منافسة بين الرجلين ، أو أن يكون مدفوعا من السلطة ضد هذا الرجل ، خاصة وأن المصادر التي بين أيدينا لا تشير لأي دور سياسي أو علمي لهذا الرجل ، فهو إذن اكتفى بتسجيل وضعية قائمة .

(43) لا نقصد هنا **المنتقى** بالضبط ، بل نقصد سائر كتب التراجم التي ألفها .

الفقيه الفرضي الحيسوبي ، المحصل المؤلف ، التقيت معه بمراكش أواخر عام أربعة وألف واختبرت منه الأخلاق الحسنة والآداب السنية ، وحضرت إقراءه لفرائض الحوفي ، وكان قد انفرد بمعرفتها ، بحيث لا يعرف له نظير في ذلك شرقا وغربا ، وكان يطير فيها طيران الباز في جو السماء ويتصرف فيها تصرف الحوت في البحر ، إلى المشاركة في الفقه والتاريخ والحديث ومعرفة الحساب وغيره مع الكرم الوافر والتواضع ولين الجانب ، مطبوعا على ذلك . أخذ عن الشيخ فرضي زمانه سيدي : يعقوب اليدري ، قرأ عليه الحوفية عدة مراة حتى اتقنها ، وقرأ على أحمد المنجور وغيرهما . ثم رحل إلى المشرق ، فأسره العدو ، وبقي عندهم نحو سنة في عذاب وامتحان (44) — آجره الله تعالى عليه — ثم فكه الله على يد مولانا أبي العباس المنصور — أدام الله نصره — ثم رحل وحج وأقرأ الفرائض في مكة وجاور ، ثم رجع (45) . وله تواليف منها تعليق على **الحوفية** كمل به الجداول التي فاتت الشيخ ابن غازي ، **وجذوة الاقتباس ، فيمن حل من الاعيان مدينة فاس** ، وذيل على **تاريخ ابن خلكان في وفيات الأعيان** ، وذيل على **وفيات ابن الخطيب القسنطيني** ، وله نظم حسن مليح منها قوله :

**فمن السحت عندنا ما روينا ثمن السحت ثم مهر البغي**
**ثمن الجاه والرشا والكهانة وذو وصف ما فاز منه بشي**

مولده على ما أخبرني به سنة ستين وتسعمائة — أحله الله تعالى — وقد استجارني وقرأ علي شيئا من البخاري وشيئا من تواليفي فأجزته — نفعه الله تعالى بنيته الصالحة وأدام عافيته — » (46) ، كما ذكره في **كفاية المحتاج** واعتمد عليه في كثير من الأحيان في جمع أخباره فهو كثيرا ما يستعمل عبارة : « كذا أخبرني به صاحبنا الفقيه أحمد بن القاضي » . في حين نجد أن مؤرخنا لم يترجم له في أي مصدر من مصادره ، بل اكتفى بالاشارة إليه إشارة عابرة عند تعرضه لوفاة عبد الله بن محمود أقيت : « وتوفي الفقيه الحافظ أبو محمد عبد الله بن محمود التنبكتي بمراكش . ولما توفي رآه صاحبنا الفقيه أبو العباس سيدي أحمد بن أحمد الملقب بابا السوداني ابن أخيه في النوم ، فقال له : ما فعل الله بك ؟ وكان معه في النوم أبو زيد المذكور أولا ، فقالا له نحن في خير والحمد لله تعالى بمنه . وقال له : ما حال عمي عمر

(44) واضح هنا أن أحمد بابا أخطأ حينما جعل أسره في المرة الأولى من ذهابه إلى الشرق ، في حين أنه أسر في المرة الثانية كما هو معروف .

(45) وهذا أيضا خطأ آخر لأحمد بابا فابن القاضي في المرة الثانية لم يصل إلى المشرق بل ظل مأسورا كما هو معروف بجزيرة مالطا إلى أن افتدي .

(46) **نيل الابتهاج** ، مخطوط م.م بالرباط عدد 1896 ، غير مرقم .

ابن الحاج أحمد ؟ فقال له : هو في خير فرش له وحده . كاتبني بهذه الحكاية الفقيه المذكور » [47] .

وهكذا ففيما يتعلق بنص أحمد بابا نلاحظ أن الرجل يقر بعلم ابن القاضي على الأقل في علم واحد إلى الدرجة التي تجعله يأخذ هذا العلم وهو علم الفرائض ، كما يقر بأخلاقه الفاضلة ، وهو حكم يصدر عن رجل لم يعرف التملق ولا المحاباة [48] ، وقد رأينا كيف ينتقد علماء فاس وغيرها في عصره ، فكأنه يستثني الرجل إذن ويقر له بالعلم والأخلاق . ولكنه أيضا — وهذه ملاحظة ثانية — لا يذكر من بين مؤلفاته **المنتقى** مع أنه سابق على التي ذكرها ، فكأنه هنا لا يتفق مع ابن القاضي في اطرائه ومدحه المبالغ فيه للمنصور وفضل لهذا السبب السكوت عنه ، ولكن مع ذلك لم يكن عمل ابن القاضي هذا — في رأي أحمد بابا — ليزيله من قائمة القلة القليلة التي وصفها بالفضل والصلاح ، وذلك لأنه بدون شك كان يعلم الظروف التي كتب فيها مؤرخنا هذا الكتاب .

أما **الملاحظة الثالثة** فتتعلق بكون أحمد بابا يذكر أن ابن القاضي استجازه في الحديث ، وقد سبق للمؤرخ السوداني أن حضر دروس ابن القاضي في الفرائض ، فهذا إذن من قبيل (التدبيج الغير المعلن) ، وهذه عملية تحمل أكثر من معنى أهمها اقتناع الرجلين بالآخر أخلاقيا وعلميا ، وهذا يؤدي بنا إلى نتيجة مهمة أيضا وهي استبعاد أي احتمال لاحتكاك وقع بين الرجلين كسبب وحيد ورئيسي لاغفال ابن القاضي ترجمة أحمد بابا ، فلابد إذن من البحث عن احتمالات هذا الاغفال في مجالات أخرى .

هناك احتمالات :

**الاحتمال الأول** : وهو يلغي مسؤولية عدم ترجمة أحمد بابا عن ابن القاضي . ذلك أنه لم يكن قد اتصل به بعد . فأحمد بابا اقتيد إلى المغرب عام 1002 هـ وظل تحت الاقامة الاجبارية إلى غاية 1004 هـ ، ولم يتصل به ابن القاضي إلا في أواخر هذه السنة الأخيرة ، في حين كان مؤرخنا آنذاك قد انتهى من تأليف أهم كتبه[49] ، وهكذا إذا استعملنا العامل الزمني فسنجد

---

(47) أنظر **لقط الفرائد** ، ص 329 — 330 .

(48) نذكر بالمناسبة أن أحمد بابا كان من بين الذين رفضوا بيعة المنصور ، أو على الأقل كان من الذين يعلم المنصور أنهم سوف لا ينقادون له ، لذلك حمله قائده محمود بن زرقون إليه .
أنظر مزيدا من الايضاح عند :
شوقي عطا الله الجمل ، « أحمد بابا التمبكتي السوداني في ضوء بعض مخطوطاته بدار الوثائق بالرباط » ، مقال بمجلة **المناهل** ، العدد 6 ، السنة الثالثة ، يوليوز 1976 ، ص 153 وما بعدها .

(49) انتهى من تأليف **المنتقى** سنة 998 ه ، وألف **درة الحجال** حوالي 999 هـ ليكون كتكملة **للمنتقى** ،

تبريرا واضحا لعدم ذكره ولا نحتاج بالتالي إلى البحث عن الجواب في إطار تساؤلات أخرى[50] .

**الاحتمال الثاني :**

من المعلوم لدينا أن كثيرا من الكتاب في مختلف العصور كانوا يقومون (بتنقيح) كتبهم ، فيلحقون ويشطبون ، ويصل أحيانا البعض منهم إلى تأليف (كبير) و (أوسط) و (صغير أو مختصر) ، فإذا لم يقم ابن القاضي بهذا التنقيح فإن الاحتمال الأول يبقى ساري المفعول ، وبالتالي فإننا لن نناقشه . أما إذا ثبت أن ابن القاضي قام فعلا بهذا التنقيح ، فإن الأمر إذ ذاك يتطلب تحليلا ، خاصة إذا علمنا أن ابن القاضي امتد به العمر إلى غاية 1025 هـ ، أي إلى ما بعد ذهاب أحمد بابا إلى السودان سنة 1014 هـ ، وبعد انتهاء جميع الحساسيات التي يمكن أن تؤثر على تسجيل هذه الشخصية ضمن إطار الشخصيات المترجمة .

فما هي ، إذن ، هذه الحساسيات التي من الممكن أن تؤثر على ابن القاضي في عدم تسجيله لهذه الشخصية ؟

لم تكن علاقة أحمد بابا ودية تماما على الأقل من الجانب السياسي[51] نتيجة ما حل

---

= وألف **درة السلوك** وشرحها **الدر الحلوك** حوالي 1000 هـ ، وألف **الجذوة** حوالي 1004 هـ ، وانتهى في وفياته في **لقط الفرائد** إلى سنة 1009 هـ في حين أن أحمد بابا لم يتوف إلا سنة 1036 هـ . أما **فهرسه رائد الفلاح** الذي ألفه سنة 1010 هـ فإن الاهمال كان عاما فيه بحيث لم يتعرض فيه إلا لأحد عشر شيخا ، 5 مغاربة و 6 مشارقة .

(50) هذا على اعتبار أن شخصية أحمد بابا لم تكن مشهورة بالسودان بالقدر الذي كانت مشهورة به بمراكش ، وبالتالي لم ير ابن القاضي آنذاك فائدة في تسجيلها .

(51) أنظر م . الأفراني ، **نزهة الحادي** ، 97 — 98 ، م . القادري ، **نشر** ، 1 : 274 — 275 .
أما من حيث الجانب العلمي فإن علاقة الرجلين كانت ودية تماما ، فقد حاول المنصور أن يخلق الجو العلمي الملائم للرجل ، واستفاد فعلا أحمد بابا من هذا الجو ، فلا ننسى أن أهم كتبه ألفت بمراكش ، ولا ننسى أيضا أن شهرته القوية اكتسبها وهو بمراكش ، ولننظر كيف يحدثنا عما وصله في هذا الميدان : في كتابه **كفاية المحتاج** : « ...وافتيت فيها بحيث لا تتوجه الفتوى إلا إلي وعينت لها مرارا ...واشتهر إسمي في البلاد من سوس الأقصى إلى بجاية والجزائر وغيرها ، وقد قال بعض طلبة الجزائر وقد قدم علينا من مراكش : نسمع في بلادنا إلا باسمك فقط وانك وانك ... » .
وقد اعترف أحمد بابا بالفعل للمنصور بجميله وذلك بتسهيل مهمته كعالم ، وهكذا يقول في مقدمة **نيل الابتهاج** (مخطوط م.م بالرباط عدد 1896) : « ...فما زالت نفسي تحدثني منذ قديم الزمان ، وفي برهة من الأوان ، باستدراك بعض من فاته ومن جاء بعده من الأعيان ، فقيدت فيه بحسب المنة والامكان ، وذلك حيث كنت ببلدنا البعيدة عن نيل المقصد من ذلك لبعدها من مدن العلم والاوطان ، فقصرني الحال مع قلة الكتب هناك وعدم مساعدة الزمان ، حتى تفضل إلى من له الفضل واحسن إلي من له الطول سبحانه بوصولي إلى منبع العلم في الديار الغربية ، حضرة الامامة العلية ، المولوية الهاشمية ، الاحمدية المنصورية ... فرأيت فيها أسباب السعادة متيسرة ، وأزمة الأماني فيها مبذولة غير متعسرة ،

بالرجل من نكبات ، بل وفرض الاقامة الاجبارية عليه بمراكش لمدة سنتين ، خاصة وأن انتقاده للمنصور كان مباشرا ويعرفه الجميع ، فيكون من الطبيعي إذن أن لا يضيف ابن القاضي ترجمته إلى التراجم التي ضمتها كتبه ، تجنبا لاغضاب المنصور ، وهي الكتب التي أهديت لهذا الأخير .

ويبدو أنه كان هناك تعاطف كبير مع أحمد بابا سواء من لدن العامة أو الخاصة داخل المغرب وخارجه(52) ، مما يضعه — تلقائيا — في مكان بارز لدى هذه الأوساط كعالم (لا تاخذه في قول الحق لومة لائم) ، ويخرجه ضمنيا من طائفة « علماء الدولة » أو المستفيدين من أموالها ، ويكون بالتالي لصوته صدى أكثر من باقي العلماء ، وهذا ما كان يدركه المنصور بالفعل(53) .

---

= ونشدت الضالة فوجدتها أقرب إلي من ظلي ، وظفرت بما يكمل مرادي ونلت أملي ، فبادرت حينئذ إلى كتب ذلك الذيل ، مستنيرا بالطول والنيل ، وقلت لنفسي ياسعد جدي ، قد ظفرت بمقصدي ، وذلك لأمرين : أحدهما : ان المال ما شرع فيه من الخير سنة مأثورة . والثاني وهو المقصد السني : إني رأيت حضرة من تسمو الآمال لسدة بابه ، وتسعى لخدمة ركابه ، مالك المغربين بالأسل والنصال ، ما بين قطر الجنوب إلى الشمال ، عالم الملوك وملك العلماء ، فخر السلاطين : أبو العباس مولانا أحمد المنصور بن أمراء المؤمنين ، الحسني — أيده الله تعالى — ، معمورة بالعلم مأهولة بذويه ، وسوق المعارف نافقة عند متعاطيه ، وذلك لهمته العلية ، وطويته الحسنة السرية ، فأردت أن أخدم خزانته على الطم والرم ، من كتب العلم ، بهديته ، وإن كنت في صنيعي كجالب تمر إلى هجر ، أو قارض شعر لدى آل مضر ... » .

(52) يقول محمد بن يعقوب الايسي (توفي قبل 1010 هـ/1601) في **فهرسه** في ترجمة أحمد بابا (وقد نقل هذا الأخير هذه الترجمة في **كفاية المحتاج**) : « ...ثم امتحن في طائفة من أهل بيته بثقافهم في بلادهم في محرم اثنين وألف على يد زرقون لما استولى على بلادهم ، وجاء بهم أسرى في القيود ، فوصلوا مراكش أول رمضان من العام ، واستقروا مع عيالهم في حكم الثقاف إلى أن انصرم أمد المحنة فسرحوا يوم الأحد الحادي والعشرين من رمضان أربعة وألف ، ففرحت قلوب المؤمنين ، جعلها الله لهم كفارة ذنوبهم » .
ويقول أحمد البوسعيدي الذي ألف كتابه **بذل المناصحة** سنة 1047 هـ/1637 : « سمعته يقول أنا أقل عشيرتي كتبا ، نهبت لي ستة عشر مائة مجلد . وكان القبض عليهم أواخر المحرم عام اثنين وألف ، ووصلوا مراكش في رمضان من العام بعده ، واستقروا مع عيالهم في حكم الثقاف إلى وقت انصراف المحنة عنهم ، فسرحوا في يوم الأحد الحادي والعشرين من رمضان عام أربعة وألف فخرجت لذلك قلوب المؤمنين » .

أنظر م . الافراني ، **نزهة** ، ص 97 .
واستمر هذا التعاطف إلى ما بعد وفاة أحمد بابا بوقت طويل .
أنظر مثلا كيف يتعاطف معه م . القادري في **نشر المثاني** ، 1 : 275 — 276 .
بل واستمر إلى وقتنا هذا .
أنظر — مثلا — العباس بن ابراهيم ، **الاعلام** ، 2 : 305 — 307 .

(53) يتجلى ذلك بالخصوص في عبارة واردة أثناء حواره المشهور مع أحمد بابا ، وهو بصدد الحديث عن تبرير الاتيان به من السودان إلى المغرب : « ...أردنا كي تجتمع الكلمة وانتم في بلادكم من أعيانها ، فإن أذعنتم أذعن غيركم ... » ، انظر م . الافراني ، **نزهة** ، 97 .
وقد ظل له هذا النفوذ العلمي بالمغرب ، فمن الطبيعي أن يتخوف منه .

على أننا نكرر في الأخير أن هذا الاحتمال يظل في إطار الافتراضات السابقة ، وإلا فإن الأمر يظل دائما في إطار الاحتمال الأول .

**الملاحظة الرابعة :**

يوضح ابن القاضي أثناء استعراضه لشيوخه أو الطلبة الذين درس معهم نوعية الثقافة السائدة آنذاك في أوساط معينة ، فمثلا كثيرا ما يستعمل عبارة : (ولا خلطة له بالأدب أصلا) أو (لا يقدر على تلفيق بيت واحد) ، إلى غير ذلك من الأوصاف . وهي إشارة لها خطورتها وتدل بالفعل على شيوع فكر جامد يحاول الابتعاد عن الاجتهاد والابتكار ، وعن كل الميادين التي من شأنها أن تجعل الانسان يعرض طاقته الفكرية للنقد والتمحيص ، والاكتفاء بحفظ المتون اللغوية والدينية واستعراضها أمام الشيوخ . فالطالب يجد أمامه علما جاهزا وهو لا يحتاج ـــ في نظره ـــ إلى أي اجتهاد (لانه ما ترك الأول للآخر شيء) ، ووظيفته إذن تقتصر على الحفظ والتبليغ فيما بعد لكي يصير « عالما » . وهذه وضعية سبق لابن خلدون أن سجلها :« ...وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلوا من حسن التعليم ، من لدن انقراض قرطبة والقيروان ولم يتصل سند التعليم فيهم ، فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم ، إذ أيسر طرقها إنما هو بالمحاورة والمناظرة ، فهو الذي يقرب شأنها . وطالب العلم منهم ـــ تجده بعد ذهاب الكثير من عمره في ملازمة المجالس العلمية ـــ ساكتا لا ينطق ، ولا يفاوض . وعنايته بالحفظ أكثر من الحاجة ، فلا جرم لا يحصل على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم . ومن ير منهم أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة ، إن فاوض أو ناظر أو علم . وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع تمهيده ،وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم ، لشدة عنايتهم به ، وظنهم أنه المقصود من الملكة »[54] .

إننا لا نقصد بهذا أن الفكر المغربي بصفة عامة كان طابعه الجمود في عصر المنصور ، فهذا ما تضحده المصادر التاريخية آنذاك ، ولكن نقصد بهذا فقط أنه كانت هناك أوساط معينة لها نظرة خاصة لمفهوم « العلم » وظلت متشبثة به ولا ترى ضرورة لتنقيحه والاجتهاد فيه . أما العصر بصفة عامة فقد عرف ازدهارا في مختلف الفنون الادبية بشهادة المعاصرين آنذاك خاصة منهم المشارقة ، وكان الجمود فقط ساريا في العلوم البحتة رغم محاولات المنصور لتطوير هذه العلوم[55] ، فقد ظهرت فعلا شخصيات تهتم بهذه العلوم انطلاقا من ابن القاضي نفسه

---

(54) المقدمة، ص 773 ـــ 774.

(55) نذكر من بين هذه المحاولات تكليف المنصور لسفيره لدى الملكة إليزابيث الأولى عام 1008 هـ/ 1600 للقيام بمهمة ثقافية ، إذ كلف عبد الواحد عنون ـــ السفير ـــ بالاتصال بالعالم الانجليزي (إدوارد وريغت) وهو رياضي مهندس اشتهر بتآليفه العلمية وبحوثه التطبيقية في ميدان الملاحة ، ليحصل منه على كرات

والحسن المسفيوي والمنصور ، ولكن كانت دائما تسير في إطار القديم مما فوت على المغرب فرصة اللحاق بركب النهضة الأوروبية .

**الملاحظة الخامسة :**

من خلال ذلك أيضا يتبين لنا مدى مساهمة العلماء في تسيير دواليب الدولة ، ومدى رعاية المنصور لهم وحرصه على الاستفادة منهم أو إفادتهم ، وذلك بما يقدمه لهم من مساعدات مادية ومعنوية (56) . ونثير هذه المسألة لنؤكد على أن الملاحظة التي سبق أن لاحظها ابن خلدون حول تهميش فئة العلماء في عصر الانحطاط ، وبأن السلطان لا يستشيرهم إلا مجاملة لهم ، هذه الملاحظة اختفت عمليا في عصر المنصور . فالعلماء أصبحوا قادة جيوش (57) ، وكتابا للدولة وقضاة ، وسفراء . هذا بالاضافة إلى دورهم العلمي والاجتماعي المنصب أساسا على تأطير العامة .

غير أنه مع ذلك يثار هنا تساؤل مهم لا تخفى نتائجه حول حقيقة العلاقة التي كانت سائدة بين المنصور والعلماء . هل سكوت العلماء كان نتيجة قمع مسلط عليهم من فوق بحيث خنق فيهم حرية التعبير ، خاصة ونحن نعلم أن هناك قضايا عديدة طرحت في عصره كان من الممكن أن تكون مثار مناقشة أم أن الظروف كانت عادية وكانت تسير بموافقة العلماء ؟

من حق الدارس أن يتسائل ، فمن المعلوم أنه خلال عصور التاريخ المغربي — سواء قبل عصر المنصور أو بعده — كان العلماء دائما رأس حربة موجهة للحكم المركزي ، فقد كانوا يستشارون في كل كبيرة وصغيرة ، فهم ممثلو العامة ، والسلطة تنصت إلى العامة فقط عن طريق العلماء (58) لأن العامة في نظرها — من « الرعاع والأوباش وسفلة القوم » كما يقول ابن

---

= فلكية ، وساعات ، ومزاول ، واسطرلابات ، وآلات مغناطيسية ، وأخرى لقياس ارتفاع الأجرام السماوية ولتحديد اتجاه القوافل في الصحراء ...وقد طلب من (وريفت) أن يطلع السفير على كل ما لديه من رسوم وآلات ، وأن يصنع له ما يطلب من آلات النحاس والفضة ، على أن يترك موضع الكتابة والأرقام فارغا لينقش بالعربية في المغرب أو في انجلترا .

أنظر: H. de Castries, Sources inéd.,1ére série anglaise, 2 :168-170.

(56) أنظر — مثلا— المنتقى ، ص

(57) نذكر على سبيل المثال علي بن منصور بن المرابط الشيظمي ، فقد ذكر ابن القاضي عنه في **الدرة** ، 3 : 258 ، ما يأتي :

« الفقيه ، الأديب ، المتفنن المشارك ، أبو الحسن . أحد قواد المخدوم ...له نظم رائق ، ونثر فائق ، وله تآليف حسنة منها جمع المشكلات التي أوردها المخدوم على **الكشاف** وفوائد حديثية للمخدوم أيضا وغير ذلك . وله قصائد في مدح المخدم ... » .

(58) كان من بين العلماء من كان يدرك بالفعل ثقل هذه المسؤولية فيؤدي واجبه كمعبر أمين عن طموح العامة متجاوزا بذلك جميع أساليب الاستلاب الممارسة من طرف السلطة ، لكن كانت هناك أيضا طائفة تشترك معها في تخذير العامة ، وتوجيههم الوجهة الملائمة لها .

الأثير . وقد لاحظنا أنه في كثير من الأحيان كان يقع احتكاك بين العلماء والسلطة بمناسبة قضية معينة [59] . أما بالنسبة للمنصور فنلاحظ أن علاقته بالعلماء كانت حسنة إلى حد كبير[60] والأسباب واضحة جدا :

ـــ نشير أولا إلى أن المنصور نفسه كان « عالما » فهو نفسه كان يعطي دروسا لتلامذته ، ويحضر مجالسه عدد من العلماء ، فهو واحد منهم إذن ، وهو بالتالي لا يقل قدرة علمية عنهم ، فهو يحظى بنفس الحصانة التي يحظى بها العلماء بالاضافة إلى حصانة الملك .

ـــ كما أنه لم تحدث في عصره أحداث سياسية واقتصادية عنيفة تستدعي احتكاكا بين السلطة والعلماء ، فسياسيا نلاحظ أنه كان مؤيدا من طرف العلماء :

ـــ كان مؤيدا عند فتح السودان (لجمع كلمة المسلمين) .

ـــ داخليا كان مؤيدا أيضا عندما قضى على الثورات التي وقعت في عهده ، بحيث لم تذكر المصادر التاريخية أن أحدا من العلماء المشهورين آنذاك أيد هذه الثورة أو تلك ، ويرجع هذا ـــ بالطبع ـــ إلى قوته وحنكته السياسية .

ـــ واقتصاديا : حاول المنصور توفير جميع الضروريات الاقتصادية لرفاهية شعبه ومن ضمنهم العلماء الذين كانوا يحظون برعاية خاصة [61] .

**الملاحظة السادسة :**

أثناء استعراضه لشيوخه من الشرق العربي يسجل لنا صورا واضحة لنوعية العلاقة السائدة بين الأتراك والبلدان الخاضعة آنذاك لهم :« ...ولأهل المشرق ، لا سيما الترك ، ازدراء بالناس لا يرون العرب شيئا ، فمن ذلك ما اتفق لي ذات يوم بباب جامع السلطان حسن بالرميلة من مصر مع بعض الشيب من الترك لما اردت دخول المسجد المذكور ، فوافيتهم بالباب ولم أعظم قدرهم كما هي عادة أهل مصر معهم ازدراء بهم . فلما رأوا جفوتي ، وعدم مبالاتي ، ونخوتي ، قام إلي أحدهم وقال لي : يا كلب ، إلى أين تريد ؟ المسجد معد لأمثالك ؟ اذهب من هنا فما هذا محلك ! فلم ألتفت إلى قوله لغربتي وعدم ناصري هناك ... »[62] . وهو رأي وإن كان لا يخلو

(59) نشير ـــ مثلا ـــ إلى رسالة الامام ابن عباد إلى السلطان المريني عبد العزيز الأول وذلك بمناسبة استنكار « مظالم الرتب » التي أحدثت بطرف المسافرين ، وأعمال السلب والنهب التي تصاحب ذلك ، مخطوط م.م عدد 255 .
ويكفي أن نذكر بعد عصر المنصور ، الشيخ اليوسي ورسائله إلى السلطان مولاي اسماعيل .
(60) نستثني من هذا ما قيل عن علاقته بأحمد بابا ، وهي علاقة طبعتها ظروف سياسية معينة.
(61) أنظر الفصل الثالث من الدراسة .
(62) أنظر **المنتقى**، ص 359.

من جانب من الصحة فإنه مع ذلك تحركة عوامل معينة من أهمها طموح السعديين إلى خلافة العالم الاسلامي عوض الأتراك ، وهذا ما عبر عنه بكل وضوح محمد التمجروتي ـــ سفير المنصور لدى الأتراك ـــ إذ قال : « ...والعثمانيون من جملة المماليك والموالي ، الذين دافع الله بهم عن المسلمين ، وجعلهم حصنا وسورا للاسلام ، وإن كان أكثرهم وأكثر اتباعهم ممن يصدق عليهم قوله ﷺ : (إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) . وإن كانوا حملوا الامارة وقلدوا الأمر في الحقيقة نيابة ، وأمانة يؤدونها إلى من هو أحق بها ، وأهلها هم موالينا وساداتنا الشرفا ملوك بلادنا المغرب ، الذين شرفت بهم الامامة والخلافة ، وكل مسلم لا يقول عكس هذا ولا خلافه ... »[63] .

وقد سار ابن القاضي أيضا في نفس الخط عندما نقل الأصداء التي تركتها معركة وادي المخازن في الشرق العربي ، وكيف كان العرب يتوقون إلى دولة عربية إسلامية بالمغرب ، وهكذا يقول : « ...ولقد حضرت مجالس ذكر فيها (أي المنصور) ، من مصر ، والاسكندرية ، والصعيد ، وجدة ، ومكة ، والمدينة ـــ على ساكنها الصلاة والسلام ـــ لما طنت في آفاق العالم حصاته ، وتعبت عن حمل حسناته بغزوته حفظة القول وحصاته ، فكادت قلوب الناس أن تنفطر إليه شوقا وودا ، أن يكونوا تحت رايته ، ومن الذين دخلوا في سلك بيعته . وكثير من أهل المشرق الذين عليهم الحل والربط حلف لي بالايمان المغلظة التي لا يمكن نقضها أنه لو رآى جارية من جواري مولانا اقبلت بالدعاء لطاعته والانقياد إليه لكان أول مطيع لها هو وأهله في لحظة ، ولأتاها بجيش عظيم كسبعة آلاف فارس أو ما يقرب من ذلك لشدة وطئته على عرب مصر والصعيد وبعض عرب افريقية ، وما هذا إلا لمحبتهم فيه ، واشتياقهم لطلعته السنية ، وإمامته العلوية . وحدثني بعض من أثق به أنه جلس ذات يوم بجرجة من بلاد الصعيد قاعدة امارة بني عمر مع أميرها يونس بن عمر ، وتفاوضا في غزوة مولانا وما له من العدل والمآثر الحسنة ، والسير المستحسنة ، فتأوه لذلك وتاقت نفسه للدخول في سلك بيعته . وأعلمه يونس المذكور أن خبر الغزوة دخل عليه وهو مسجون برودس ، وأعلمه والحاضرين أن أمرها عظم على الترك جدا ، غيرة منهم أن يكون مثلها على يد أمير عربي ، فامتلأوا منها غيظا ، وامتلأ العرب منها سرورا .

ومما شاهدته من مبرة أهل المشرق بأهل قطرنا حينئذ لما انتهى إليهم أمر غزوته العظيمة ، ما يكل عن وصفه اللسان ، ولا يحيط به بنان ، وترى الواحد منا بينهم كأنه أعجوبة عظيمة يشار إليه قائلين : هذا من أهل الغزوة المشهورة ! مما لا يدركه إلا من شاهد ذلك ، وصار لنا بذلك بينهم حظا عظيما ، ووقارا جسيما ، وصار العرب من كل مملكة يفخرون بذلك على الترك بهذا الملك العظيم ... »[64] ، وحتى في وصفه للمعركة نفسها فإنه لم يغفل الدور (السلبي) للاتراك

(63) أنظر النفحة المسكية ، 147 .
(64) أنظر المنتقى، ص 846.

فيها عند ما يقول : « ...فلما بلغ (المتوكل) لوادي المخازن ، وقد بلغه عبد الملك إليه بجيشه — ومعه أخوه أبو العباس أحمد المنصور — تواقعا واشتبكت الحروب بينهما ، وكان عبد الملك ضعيفا من سم كان به ، سمه رمضان العلج (القائد التركي) حيث أتى معه للمغرب غدرا له ... »[65] .

وعلى كل ، فابن القاضي تكون عبر ثلاث مراحل ، ابتدأت بتكوينه داخل المغرب وانتهت باتصاله بالمنصور ، وعلى هذا سوف نقسم هذا المبحث إلى الأقسام الآتية :

أولا : تكوينه داخل المغرب

ثانيا : تكوينه بالخارج

ثالثا : اتصاله بالمنصور .

* * *

## أولا : تكوينه داخل المغرب :

تم تكوين ابن القاضي بالمغرب على يد جماعة من علماء فاس ومراكش ، تعرض لهم بالتفصيل في **المنتقى** ، وسنحاول أن نتتبع هذا التكوين بإيجاز كبير نظرا لطوله وتشعبه .

انطلق تكوينه من البيت على يد أبيه محمد بن القاضي المتوفى سنة 981 هـ ، وقد كان حيسوبيا فرضيا . ولعل صفة والده هذه كانت عاملا من عوامل نبوغه في الرياضيات[66] .

وبعد هذه المرحلة توالت اتصالاته بالشخصيات العلمية في كل من فاس ومراكش ، وسنورد هنا طائفة من هؤلاء الذين أخذ عنهم ولازمهم :

1 — أبو راشد يعقوب بن يحيى اليدري :

قال عنه : « الأستاذ الراوية ، إمام الفرائض ، والحساب.. »[67] ، وقد كان أول من أخذ عنه بفاس الحساب والفرائض والعروض [68] ، ويقول بهذا الصدد : « وقرأت عليه نحو

---

(65) أنظر **درة الحجال** ، 2 : 224 .
ويؤكد نفس الأمر في **درة السلوك** حيث يذكر « إن قائد الاتراك الذين كانوا معه — أي مع المعتصم — بعث لبعض قواده أن يلقاهم بكعك مسموم هدية لعبد الملك المذكور ... » .
(66) أنظر **لقط الفرائد** ، 312 .
(67) أنظر ، **درة الحجال** ، 3 : 360 — 361 .
(68) أنظر **المنتقى**، 685.

الثمان ختمات في **كتاب الحوفي** ، **وتلخيص ابن البنا** عددا لا أحصيه ، وسردت عليه جل **الموطأ** ، **وربع البخاري** ، وأجاز لي عن سقين ... »[69] ، وقد أشهد على ذلك الفقيه أبا مالك عبد الواحد السجلماسي ، والفقيه أبا سالم ابراهيم بن محمد بن ابراهيم الشاوي الزيادي[70] . ولا يخفى ما سيكون لهذه الشخصية من تأثير على ابن القاضي ، فسيصبح هو الآخر بعد مدة « إماما في الفرائض والحساب » .

2 ــ أبو العباس أحمد بن علي المنجور :

يذكر ابن القاضي أنه لازمه من 975 هـ[71] إلى 995 هـ ، أي 20 سنة ، ويقول عن ذلك : « ...وما فارقته إلا زمن رحلتي إلى المشرق ، وزمن أسري فقط ، أو مدة أقمتها بمراكش في حياته ... »[72] ، وملازمة المنجور 20 سنة كان لها الأثر الفعال في ثقافة مؤرخنا وعقليته ، ومنهاجه العلمي ، إذ كان المنجور في عصره علما من أعلام المعرفة الواسعة ، عالما مشاركا ، مبرزا في الفلسفة والرياضيات والقراءات، فضلا عن التفسير والحديث والفقه والعقائد ، بالاضافة لأخلاقه الفاضلة ، إذ أنه لم يتول وظيفا رسميا قط غير الكراسي العلمية . وكانت له مهارة عجيبة في فن التدريس ، وقدرة فائقة على التعبير تحدث عنها باندهاش كبير جميع تلامذته .

ويحدد ابن القاضي ما أخذه عنه فيقول : «... ولقد أجازني فيها كلها ، وفي كل ما له من نظم ونثر بشرطه المعتبر عند أهله ، وبه انتفعت في العقائد ، والمنطق ، والبيان ، وعلم اصطلاح الحديث **كالماع** عياض **وكتاب أبي عمرو عثمان بن الصلاح** ... »[73] ، وأورد نص إجازة المنجور له في جمادى الأولى عام 986 هـ[74] ، وأتبعها بنص إجازة أخرى له في رجب عام 993 هـ[75] . وقد تألم ابن القاضي كثيرا لموت أستاذه ، خاصة وأنه أتى مباشرة بعد فكه من الأسر ، وما عاناه من ألم الغربة والتعذيب والتجويع ، فقال عن ذلك : « ...ولما خرجت من الأسر وجدته في مرضه الذي مات منه ليلة النصف من ذي القعدة عام خمسمائة وتسعين وتسعمائة ، ودفن خارج باب الفتوح بازاء شيخه اليستني ، ورحت لثغر تطاون أؤدي ما علي من دين الكفرة ــ دمرهم الله تعالى ــ فاختطفته المنية ورزئت [فيه] ، فيالها من رزية !

---

(69) أنظر **درة الحجال** ، 3 : 361 .
(70) أنظر **المنتقى**، 685.
(71) يلاحظ هنا النبوغ المبكر لابن القاضي بحيث سيبتدأ في الأخذ عن أستاذه المنجور وهو ابن 15 سنة .
(72) أنظر **درة الحجال** ، 1 : 163 .
(73) أنظر **المنتقى**، 769.
(74) أنظر المصدر السابق، 777 ــ 778 .
(75) أنظر المصدر السابق، 773.

ورثيته بقطعة مطلعها :

| | |
|---|---|
| يا عيـــن جودي بالدمـــوع السكب | إن الدمـــوع بغيـــر ذا لم تطلـــب |
| أهمي دموعك دون غيض بعـــد أن | قد حل بالأحداث قطب المغـــرب |
| شيـخ الجماعة أحمد المنجـــور من | شهـــدت له عليـــاؤه بالمنصـــب |
| بحـــر تدفـــق بالعلـــوم بأسرهـــا | مبدي المسائل كالضيا في الغيهب |
| ناحت عليـــه مساجـــد ومـــدارس | ومسائل من معضلات المذهـــب |
| سكب الاله علـى ضريحـــه صيبـــا | من رحمة أو نفحـــة من يثـــرب [76] |

**3 ـــ أبو زكريا يحيى بن محمد السراج :**

وهو شخصية علمية بارزة ، شغل لمدة منصب الخطابة بالقرويين والفتيا بفاس ، وهنا نجد المثال العملي للملاحظة الثالثة التي صدرنا بها هذا المبحث ، إذ يقول : « ...وممن أخذت عنه بعض شيء بفاس أبو زكريا يحيى بن محمد السراج الحميري النفزي بعض أبواب من **مختصر خليل بن اسحاق المالكي** ، وشيئا من **ألفية ابن مالك** ، وشيئا من **مغني اللبيب** ، وما لازمته تلك الملازمة ، وإنما كانت ملازمتي للشيخين السابقين (اليدري والمنجور) . ولد أبو زكريا هذا بعد نيف وعشرين ، ولا مدخل له في الادب أصلا ، سمعت منه غير مرة يقول : لا أقدر على تلفيق بيت واحد ، غير أنه فقيه صرف ، يعرف الفقه معرفة تامة ، والنحو ، وألفاظ **خليل** يحكها حكا جيدا . أخذ عن أبي مالك الونشريسي والزقاق وغيرهما . وهو أكبر أصحابنا الفاسيين غير أبي راشد المذكور ، فإنه أسن منه ، وهو رجل دين فاضل ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، إلا أنه معه بعض طيش فقط مع شيء من ضيق الخلق ، وتصحبه غفلة في بعض الأوقات. تولى الخطابة بالقرويين والفتيا بفاس ـــ عمرها الله تعالى بمنه ـــ » [77] .

**4 ـــ أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدي** قاضي الجماعة بفاس : وهذا مثال للملاحظة الأولى ، مع فارق واحد وهو أن ابن القاضي سوف يشارك في رأيه مؤرخون آخرون .

قال عنه : « ...وممن أخذت عنهم أيضا بعض بويبات من مختصر خليل القاضي أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الحميدي ، قاضي الجماعة بفاس ـــ أمنها الله تعالى ـــ .

---

(76) أنظر المصدر السابق، 774 .
(77) أنظر المصدر السابق، 779.

ولد سنة سبع عشرة وتسعمائة .

وهو مطبوع ، يقرض الشعر ، ويحفظ مقطعات وغيرها ، حافظ لمسائل المذهب ... »[78] .

وقال عنه أيضا : « ...كان حافظا لمذهب مالك ، إلا أنه نبذ الشريعة المحمدية وراء ظهره ، وكان يحكم بموافقة شهوته مع علمه بالفقه ، ولا يبالي بما فعل فيها ، حتى اكتسب هو ومن والاه أموالا جليلة لا حصر لها . ولما توفي قال فيه صاحبنا الوزير عبد الرحمان بن ابراهيم المشترائي :

**تولي الحميـــــدي وأحزابـــــه وأيـــام دولتـــه الغاويـــة**
**ومـــات وخفـــت موازنـــه وصار إلى أمـــه الهاويـــة**[79]

وقد أورد تلميذ آخر من تلامذة الحميدي ، وهو ابراهيم الكلالي ، إشارات خفية عن أستاذه لنفس الغرض[80] .

وقال الافراني في **الصفوة** : « كانت بنته ــ أي بنت الحميدي ــ تلبس خلاخل ذهب لا تحملها إلا بسلسلة في حزامها ، ولها اماء يتبعنها يحملن ما تخرج من حللها »[81] .

ومهما يكن من أمر عبد الواحد الحميدي فإنه لا يشكل في الواقع إلا حالة من حالات عديدة سبق أن نبه عليها أحمد بابا ، غير أننا نستطيع أن نتساءل عن السبب الحقيقي الذي أدى بابن القاضي إلى « تعرية » هذه الشخصية المرموقة بهذا الشكل ؟ .

هل صدر منه تجاه العلماء أو السلطة ما جعل (القدح) فيه جائزا ؟ الواقع أنه نال من

---

(78) أنظر المصدر السابق، 779.
(79) نقلا عن م. الأفراني ، في **النزهة** ، ص 172 .

**ملاحظة :**

ذكر .م. الافراني أنه رأى هذا القول في جذوة الاقتباس ، كما ذكر أنه شطب عليه بالحمرة . ويبدو من خلال ذلك أن ابن القاضي تراجع من باب عدم ذكر الأموات بالسوء . ولكن التسجيل يبقى مع ذلك قائما .

(80) انظر **التنبيه**، 251 ــ 255
(81) أنظر **الصفوة** ، 97 .

الطرفين ! فتذكر المصادر المعاصرة التي كتبها تلامذته ، أنه كانت بينه وبين بعض علماء وقته « منافسة دنيوية » على حد تعبير هؤلاء ، مثل ما وقع له مع أحمد بن علي الزموري الذي وصفه بالجهل القاتل هو وشيخه [82] . كما تذكر له المصادر التاريخية أيضا بعض الاحتكاك مع المنصور على الأقل مرتين ، وهكذا (فقد أظهر مرة الشكاية) من عنف المنصور ، كما أنه في المرة الأخرى وجه انتقادا لاذعا للمنصور عندما اتهم عصره بأنه أصبحت فيه (صنعة العلم كاسدة) ، وقد نقل كلامه هذا بالفعل للمنصور[83] .

وفي تقديرنا فإنه من المحتمل أن يكون قد وقع الكثير من هذا القبيل ، لكن المؤرخين اللاحقين أغفلوا عنه ، من باب (الاغضاء عن ذكر الفضائح) .

وعلى كل فإن كان بامكان ابن القاضي أن يتغاضى عن علاقة الحميدي بعلماء عصره ، فان لم يكن بالامكان أن يتغاضى عن رجل كان ينال من ملك يحاول كسب وده .

5 ـــ أبو العباس أحمد بن علي الزموري :

قال عنه : « وممن لقيته وأخذت عنه بعض شيء الفقيه النحوي الاديب أبو العباس أحمد بن علي الزموري ، أخذت عنه بعض بوييات **خليل وابن الحاجب** ، وهو فقيه حافظ ، مطبوع ، يقرض الشعر ... »[84] .

6 ـــ أبو العباس أحمد بن قاسم القدومي :

وهو نموذج آخر من نماذج الملاحظة الثالثة إذ قال عنه في **المنتقى** : « وممن اجتمعت به

---

(82) أنظر ابراهيم الكلالي ، **تنبيه** ، 253 .
كما أشار الافارني في **النزهة** ، ص 173 ، إلى المنافسة التي كانت بينه وبين المنجور قائلا : « كانت بينه (الحميدي) وبين المنجور منافسة حتى أن السلطان المنصور قدم المنجور مرة للصلاة ، فلما أراد المنجور أن يدخل المحراب منعه الحميدي ، فقال له السلطان : دعه ، فقد قدمه علمه . فقال الحميدي : إن قدمه علمه فقد أخره نسبه » .
ملاحظة :
يقصد الحميدي بذلك أن المنجور كان من الاسلاميين ، ذوي الأصل اليهودي .

(83) أنظر م. الافراني ، نزهة ، 158 ـــ 159 .
كما كان له احتكاك مع المعتصم ، فقد ذكر الافراني في هذا الصدد : « ...وكان السلطان المعتصم نقم مرة عليه (على الحميدي) شيئا ، فسجنه مدة ، فبعث بأولاده للشيخ سيدي رضوان يطلب منه أن يشفع له عند السلطان المعتصم ، فكتب له سيدي رضوان بخط يده يحضه على الاستشفاع (خلافا للأصل) بالنبي ﷺ والاستمساك بحبله الأعصم ...فقبل القاضي إشارته وتوجه إلى ربه بكلمته فأتاه الفرج » ، أنظر **النزهة** ، 172 .

(84) أنظر **المنتقى**، 779.

أيضا وأخذت عنه : أبو العباس أحمد بن قاسم القدومي ، أخذت عنه بعض **ألفية ابن مالك** ، وشيئا من **مختصر خليل** ، وكان لا يقرض الشعر ، وإنما كان نحويا حافظا له ولعلله ، وله من تقاييده تأليف حسن هو الآن بخزانة مولانا ــ عمرها الله ــ ، وهو في غاية الحسن سماه **بالهادي ، في حل الفاظ المرادي** ، اشتمل على مجلدات نحو الأربعة . وتوفي ــ رحمه الله ــ في يوم الأربعاء الخامس عشر من شعبان المعظم من عام اثنين وتسعين وتسعمائة ، ودفن خارج باب الفتوح ، أحد أبواب فاس المحروسة . وكانت له نية صالحة في تعليم العلم ــ نفعه الله بنيته ــ (85) .

7 ــ أبو العباس أحمد بن عثمان بن عبد الواحد اللمطي المكناسي :

وهو من العلماء الذين أخذ عنهم بفاس .

قال عنه :« ...أخذت عنه **ألفية ابن مالك** ، وهو رجل زاهد خاشع ، فقيه ، أستاذ ، يقرض الشعر ، نقي الجانب والشيبة ، عظيم الهيبة ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، لا يبالي بأحد في الحق ، وله نية صالحة في التعليم ــ نفعه الله بنيته ــ » (86) .

8 ــ مبارك بن علي بن ابراهيم الجزولي :

وهذا شارك ابن القاضي في أشياخه مثل أحمد المنجور ، والحميدي ، والزموري وغيرهم ، لأن هؤلاء أيضا درسوا عليه ، ومنهم من أخذوا منه وأخذ منهم مثل أحمد المنجور الذي يقول : « وممن لقيته الفقيه سيدي مبارك المصمودي كان نافذا في تدريس **مختصر خليل** يحل اللفظ ، قليل الزيادة عليه . وقرأت عليه وقرأ علي ، فقرأت عليه ما ينيف على أربع ختمات من **المختصر** ، وقرأ علي **فرائض الحوفي** ختمة وجل أخرى ، **وتلخيص ابن البنا** . وكان أول قراءته على شيوخ المصامدة . ولزم أيضا جماعة من أهل فاس كشيخنا الامام وغيره 87) .

9 ــ أبو سالم ابراهيم بن الأكحل السويدي :

وهو من الشخصيات البارزة التي أخذ عنها الحساب والفلك بمدينة مكناس . قال عنه : « ...داهية الانسان ، وفيلسوفي الزمان ، له عقل لفهم المسائل ثاقب ، وعلى الحق والصواب ناقب ، له قدم راسخ في التعديل والهيئة ، ما أظن أن أحدا في زماننا اليوم يصله . حدثني شيخنا أبو العباس المنجور أنه أخذ عنه علمه ، وقال لي : كانت المسائل في فنه تشكل على محمد

---

(85) أنظر المصدر السابق، 781.

(86) أنظر المصدر السابق، 781.

(87) أنظر **فهرس** أحمد المنجور ، 78 ــ 79 .

الصغير بن الحاج ، ويوجهها له ويقول : السويدي لها أو كلاما يقرب من هذا . وهو في غاية التقشف والزهد ، حتى أن الناس من كثرة زهده نسبوه إلى صنعة الكيمياء ولا أصل لما نسبوه إليه »[88] .

10 ــ أبو عبد الله محمد يوسف الترغي [89] (ت 1009 هـ / 1600 ــ 1601) :

وقد تأثر به ابن القاضي كثيرا ، إذ خصص له 23 صفحة من كتابه **درة الحجال** ، كما ذكره من بين الشيوخ المغاربة الخمسة في **الفهرسة** . وقد أدرك الترغي شأوا بعيدا في علوم القرآن ، كما كان يعقد مجالس للتفسير والحديث والفقه والنحو على كرسيه في جامع الاشراف بمراكش . قال عنه ابن القاضي : « الفقيه الأستاذ النحوي أبو عبد الله . فقيه مشارك نحوي ، له سند . أخذ عن أبي القاسم بن ابراهيم المشترائي ، وأجاز له في القراءات السبع ، وفي كل ما يجوز له ، وروى عن أبي النعيم : رضوان بن عبد الله الجنوي ، وعن أبي عبد الله الخروبي . وله حفظ غزير ، ذاكر للمسائل . أجاز لي جميع مروياته .

وما رويته عنه وأخذته فهو في جزء مسموعاتي عنه الذي كتب فيه خطه لنا بذلك ... »[90] .

وهنا لا نترك هذا الشيخ قبل أن نشير إلى أنه :« كان أولا يخص بالتعليم الأشراف وذوي الجاه ويستنكف عن الضعفاء والمساكين ... »[91] وهذا ما يؤكد أن ارستقراطية ابن القاضي أفادته كثيرا في تعليمه ، ولولا ذلك لما قبله هذا الشيخ كأحد تلامذته .

11 ــ أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار [92] (ت 1012 هـ / 1604 م) :

حدد ابن القاضي ما أخذ عنه قائلا : « ...قرأت عليه **جامع البخاري** ، وأجازه لي ، وعدة كتب مذكورة في برنامج روايتي عليه في أول يوم ابتدأت القراءة عليه . سمعت منه الحديث المسلسل بالأولية وهو حديث الرحمة ... »[93] .

12 ــ أبو المحاسن يوسف بن محمد الفاسي [94] (1013 هـ / 1604 م) :

---

(88) أنظر **المنتقى**، 794.
(89) أنظر ترجمته ومصادرها عند م. حجي ، **الحركة الفكرية** ، 2 : 380 .
(90) أنظر **درة الحجال** ، 2 : 165 .
(91) أنظر ع. الرحمان التمنارتي ، **الفوائد** ، 32 .
(92) أنظر ترجمته ومصادرها عند م. حجي ، المصدر السابق ، 2 : 363 .
(93) أنظر **درة الحجال** ، 2 : 154 .
(94) أنظر ترجمته ومصادرها عند م. حجي ، المصدر السابق ، 2 : 364 ــ 365 .

وتنطبق على هذا الشيخ الملاحظة الثانية حول سكوته عن ذكر بعض الشيوخ . فهو لم يترجم له مع أن ولده محمد العربي الفاسي في **المرآة** يؤكد على أن ابن القاضي حضر مجالس الشيخ المذكور ، كما أن حفيده عبد الرحمان الفاسي ذكره في **ابتهاج القلوب** — عند ذكره للفقهاء الذين حضروا مجالس الشيخ أبي المحاسن — : « ...ومنهم الفقيه المحدث الرحلة أبو العباس أحمد بن القاضي المؤرخ ممن قرأ عليه الفقه والأصول وسمع منه وحضر مجالسه ... » .

فما هو سر هذا السكوت إذن ؟

13 — أبو عبد الله محمد بن أحمد الحضري الزروالي :

وهو من بين الشيوخ المغاربة الخمسة الذين ذكرهم في **الفهرسة** . قال عنه : « القاضي ، فقيه محدث ، له سند صحيح ، وقلم فصيح ...أجاز لي كل ما يحمله عن أشياخه وتواليفهم ، ووضع خط يده بالاجازة سنة 999 هـ في أواسط شوال منها »[95] .

14 — أبو عبد الله محمد بن محمد المشاط ، المعروف بالهزاز :

قال عنه : « أخذ عن أبي عبد الله : محمد بن أحمد بن غازي **القرآن** . وقرأت عليه فاتحة الكتاب بسنده ما روى عن ابن غازي بواسطته ج وأجاز لي سنة 993 هـ »[96] .

15 — محمد بن علي الدادسي :

قال عنه : « له سند صحيح وأخذ وسماع . إلا أنه ليس من أهل العلم . وله حفظ **بالقرآن** العظيم ...وأخذت عنه ، وأجاز لي .

ولد سنة 922 وكانت إجازته لنا في منزله بمراكش المحروسة . وتوفي سنة 999 هـ »[97] .

16 — إمام الدين بن محمد الخليلي المقدسي :

من علماء الشام المستوطنين بمراكش ، وقد أجاز لابن القاضي في 5 محرم سنة 999 هـ بمدينة مراكش ، جميع مصنفات الحديث التي يرويها عن شيوخه المشارقة ، العرب والعجم ، وتعتبر هذه الاجازة من أهم الوثائق التي تعطينا معلومات دقيقة عن هذا العالم ، إذ ذكر في صلب الاجازة أسانيده في الحديث ، ومن أخذ عنهم ، أو أجازوه من محدثي القدس ، ومصر ، والحرمين الشريفين ، وحمص ، وحماة ، وحلب ، وانطاكية ، وطرابلس الشام ، والقسطنطينية ثم طرابلس

---

(95) أنظر **درة الحجال** ، 2 : 34 .
(96) أنظر المصدر السابق ، 2 : 34 — 35 .
(97) أنظر المصدر السابق ، 2 : 150 .

الغرب ، وتونس ، والجزائر . وتعتبر هذه الاجازة بمثابة موسوعة لعلم الحديث في القرن العاشر الهجري ، وهذا نموذج منها :

« وبعد ، فيقول العبد الفقير ، الراجي فضل ربه القدير ، الواضع اسمه عقب تاريخه أدناه ــ أصلح الله له دنياه وأخراه ــ لما دخلت في المرة الثالثة أرض المغرب ــ حماها الله ــ قاصدا حمى مولانا أمير المؤمنين ابن الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ، الليث الهصور ، والملك المنصور ، مولانا أبو العباس أحمد المنصور ، وحصل من احسانه ما أعجز لساني عن أداء شكره ، وكنت اتخلل مجالس العلماء والادباء وأخبرهم بمن لقيت من علماء الاسلام بمصر ، والشام ، وأن لي سندا امتد بواسطتهم إلى ابن حجر العسقلاني وغيره ، فرغب إلي من له الفضل علي مفيدنا وبركتنا ، الامام الفاضل ، وليي : أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن علي بن أبي العافية الشهير بابن القاضي ، والاديب الفاضل ، العلامة الاحد المتقن ، المفيد ، الرحلة : سيدي الحسين بن أبي القاسم بن أحمد الدرعي ثم الجوزي الملولي ــ خار الله لهما ونفعهما باعتقادهما ــ أن أخبرهما بمن أجازني من العلماء المشهورين والأئمة المهديين ، وأن أصل سندهما بهؤلاء السادة الآتي ذكرهم ، لا سيما في كتب الحديث ، كما جرت بذلك العادة في القديم والحديث ... » .

17 ــ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن جلال [98] :

لم يذكر ابن القاضي أنه أخذ عنه غير أن تلميذه أحمد المقري جزم بهذا الأخذ فهو يقول : « ومن أشياخ صاحب الترجمة (أحمد بن القاضي) أيضا الفقيه الامام بلدينا أبو عبد الله محمد بن جلال ــ رحمه الله ــ ... »[99] .

* * *

وهكذا تتعدد قائمة شيوخ ابن القاضي تعددا كبيرا معقدا ومتشعبا إلى الدرجة التي يصعب معها حصر كل شيوخه ، نظرا لأن ابن القاضي لم يقتصر على طائفة من الشيوخ دون أخرى ، أو مدينة دون أخرى ، بل نجده يشد الرحال إلى كل مكان يسمع بوجود من يفيده به ، وقد أدرجنا هذه الأمثلة لتكون كنماذج لما قلناه من ملاحظات سابقة ، ولنؤكد أن ابن القاضي أثناء استعراضه لشيوخه لا يورد لنا تراجم جافة لهم كما يفعل الكثير من المؤرخين وأصحاب كتب التراجم ، بل يستطيع القارىء النبيه أن يلتقط بسرعة المعلومات الضرورية لرسم خريطة الازدهار

---

(98) أنظر ترجمته ومصادرها عند م. حجي ، المصدر السابق ، 2 : 357 .
(99) أنظر روضة الآس ، 287 .

الفكري في المغرب في عهد المنصور وقبله بقليل ، سواء من حيث المحتوى أو التوزيع الجغرافي .

يضاف إلى ذلك أن ابن القاضي لم يكتف فقط بذكر شيوخه ، بل استعرض مجموعة من الطلبة الذين كانوا يدرسون معه ، وهذا عمل يشكر عليه ، لأنه قلما اهتم المؤرخون وأصحاب كتب التراجم بالذين كانوا يدرسون معهم ، أو الذين هم أقل منهم مستوى.

يقول ابن القاضي في **المنتقى** : « ...وأما من شاركنا فيهم فجماعة من طلبة العلم ، فمنهم ابن عمنا : قاسم بن محمد بن محمد بن قاسم بن علي بن العافية الشهير بابن القاضي المكناسي ... وقاسم هذا نحوي ، فرضي ، حيسوبي ، فقيه استاذ...له شرح مفيد على **ألفية ابن مالك** انتفع به كثير من الطلبة ، وآخر على **الجرومية**، ما في أصحابنا الفاسيين اليوم أحفظ منه لعلل النحو والتصريف ، آخذ فيما يعنيه ، ومقبل عليه ، معروف بقول الحق ... »[100] . ويقول عن طالب آخر ، وهو : أبو عبد الله محمد بن أحمد الجنان الأندلسي ـــ الذي شاركه في أبي العباس المنجور ـــ : « طالب مطبوع ، له فهم جيد في المسائل ، معقولي ، نحوي، فرضي ، عددي ، ولا له نظم ، حدثني أنه لا يقدر على عقد بيت واحد ، عاقل لبيب ، متعفف ، مقبل على ما يعنيه ومنكب على أشغاله »[101] .

ويقول عن آخر ، وهو أبو زيد عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن ابراهيم الدكالي المشترائي : « فقيه مطبوع ، معقولي ، بياني أديب ، ناظم ، ناثر »[102] .

ومعلوم أن هؤلاء كانوا ينشدون ابن القاضي مقطعات احتفظ لنا بها ـــ لحسن الحظ ـــ وهي امالهم ، أو لشعراء آخرين ، معروفين وغير معروفين .

وهناك طائفة أخرى يذكر ابن القاضي أنه التقى معهم ، ولكن لم يذكر أنه أخذ عنهم أو أخذوا عنه ، بل يذكر فقط مناصبهم ـــ إن كانت لهم مناصب ـــ وما يتقنون من علوم ، وأحيانا يذكر إنشاداتهم ، إن كانت لهم إنشادات[103] .

والطائفة الأخيرة ، وهي الطائفة التي أخذ عنها وأخذت عنه ، نذكر ـــ على سبيل المثال ـــ عبد الواحد السجلماسي الذي تدبج معه في 28 شوال سنة 998 هـ ، حيث قرأ ابن القاضي بلفظه فهرس السجلماسي ، إذ يقول : « وقد أجازني **بفهرسته** ، وناولني منها نسخة

---

(100) أنظر **المنتقى**، 790.
(101) أنظر المصدر السابق، 791.
(102) أنظر المصدر السابق، 791.
(103) أنظر طائفة من هؤلاء في المصدر السابق، ص 755 وما بعدها

ضاعت في محنتي »[104]، وقرأ عبد الواحد السجلماسي على ابن القاضي فاتحة الكتاب بما به فيها من سند وإجازة مشرقية ، فأجازها له مع جميع ما يجوز له وعنه روايته [105] . ومن الذين تدبج معهم أيضا محمد بن أبي بكر التواتي (14 شوال عام 998 هـ) ، إذ أجاز التواتي لابن القاضي **صحيح البخاري** بعد أن قرأ عليه بعضه بسنده المتصل بالحافظ ابن حجر فالبخاري ، وحضر التواتي دروس ابن القاضي في الحساب والفرائض ، ونال منه اجازة في ذلك[106] . وتدبج مع الأمير زيدان بن أحمد المنصور (أواخر عام 1010 هـ) ، أجاز ابن القاضي للأمير جميع ما تحتوي عليه **فهرسته رائد الفلاح** ، وأدمج الاجازة في صلب **الفهرسة** على نحو ما فعل المنجور مع أحمد المنصور ، وروى ابن القاضي عن زيدان أشعاره وأخباره ، وقال : « وأجاز لي كل ما له من نظم ونثر ، ووضع لي خطه الكريم بذلك »[107] ، كما تدبج مع يحيى بن علي بن يحيى المالكي الخصيبي [108] .

★ ★ ★

وهكذا نلاحظ من خلال هذه العناصر أن ثقافة ابن القاضي في المغرب كانت متينة بفعل هذه الاتصالات المكثفة ، وأنه في ثقافته هذه لم يقتصر على علم من العلوم أو فن من الفنون ، بل تعددت مشاغله واهتماماته ففي الوقت الذي يهتم فيه بالرياضيات ويبحث عن أساتذتها ، يبحث أيضا في ميدان الادب واللغة والفقه ، مما جعل شخصيته تكون مرآة صادقة لثقافة عصره في بلده .

ولا شك أن هذه الشخصية اكتسبت عناصر جديدة في رحلتها إلى الخارج وتفتحت إلى الدرجة التي وصلت فيها إلى هذا المستوى الرفيع فكيف تمت إذن هذه الرحلة ؟ وما هي الشخصيات التي اتصل بها ؟ وما هي نتائج هذه الاتصالات ؟ وما هي نوعية الثقافة المحصلة هناك ؟

كل هذه الأسئلة سنحاول الاجابة عنها في المبحث التالي .

---

(104) أنظر المصدر السابق، 755.
(105) أنظر عبد الواحد السجلماسي ، ذيل **الفهرس** ، 94 — 95 .
**ودرة الحجال** ، 3 : 140 — 141 .
(106) أنظر المصدر السابق ، 96 .
**ودرة الحجال** ، 2 : 162
(107) أنظر **فهرس** أ. بن القاضي **رائد الفلاح** ، مخطوط غير مرقم .
(108) أنظر **درة الحجال** ، 3 : 342 .

## ثانيا : تكوينه بالخارج

ونقسمه إلى ثلاثة أقسام :

أ ــ المشرق العربي ، ب ــ تركيا ، ج ــ المغرب العربي .

### أ ــ المشرق العربي :

يقول ابن خلدون : « فأهل المشرق ــ على الجملة ــ أرسخ في صناعة تعليم العلم ، بل في سائر الصنائع ، حتى إنهم ليظن أن عقولهم على الجملة ونفوسهم الناطقة ، أكمل من عقول أهل المغرب ونفوسهم ، وأن حقيقة الانسانية بيننا وبينهم متفاوتة ، لما يرى من حذقهم في العلوم والصنائع ... »(109) بهذه النظرة سوف ينطلق ابن القاضي إلى المشرق العربي لربط سند العلم والرواية بالأساتذة الاعلام هناك . وقد قام برحلته هذه سنة 986 هـ ، إذ يقول : « ...وقد اتصل بنا خبر هذه الواقعة العظيمة ونحن بفزان بموضع يقال له المخاتن في الخامس عشر من شعبان سنة ست وثمانين وتسعمائة »(110) ، إذن فقد قام برحلته هذه وهو في السادسة والعشرين من عمره ، أي بعد أن أخذ قدرا لا بأس به من العلم بالمغرب ، وبعد أن لازم عددا من الشيوخ مثل احمد المنجور الذي يكون قد لازمه في سفره هذا 11 سنة (579 هـ إلى 689 هـ ) ، نضيف إلى هذا توفر الأسباب المادية والمعنوية من شباب ومال وطموح .

وقد تجول ابن القاضي كثيرا انطلاقا من فاس فالجزائر فتونس فليبيا فمصر ، واتصل بعلماء العصر ، وتبادل معهم الآراء ، ونعيد التأكيد هنا على أن هذه الاتصالات حملت معها صورا واضحة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية للبلاد التي وقعت فيها ، كما حملت معها أيضا الأصداء الواسعة التي تركتها معركة وادي المخازن هناك ، وكيف كان ينظر عرب الشرق الرازخين تحت نير السيطرة العثمانية إلى الدولة العربية الوحيدة التي لم تصلها يد الأتراك .

### 1 ــ في مصر :

★ ــ ابراهيم بن عبد الرحمان بن علي بن أبي بكر العلقمي : قال عنه : « فقيه ، شافعي المذهب ، أعلى راوية سندا في زماننا اليوم ، وأضبط حافظ للحديث في وقتنا ، أديب مطبوع ، عالم تحرير ، أصولي. أجازني في **البخاري** والحديث ، **وألفية العراقي** وغير ذلك في الحديث. ما رأيت مثله في حل أشكال معارضات الحديث ، ولا أحفظ منه باللغة. ولقد ضاعت مني اجازته ــ التي أجازني بها

---

(109) أنظر المقدمة ، ص : 989 ، 990 .

(110) أنظر **المنتقى**، 246.

بخطه — في حال محنتي ، وهي اليوم بيد الكفرة — دمرهم الله تعالى وأخزاهم — وهو يأخذ عن الشيخ عبد المجيد السامولي ، وعن الشيخ عبد الحق السنباطي ، عن ابن حجر ، ويروي عن أخيه محمد بن عبد الرحمان الذي شرح **الجامع الصغير** للاسيوطي وغيره ... »[111].

★ — **سالم بن عبد الله السنهوري** :

قال عنه : « الفقيه المالكي. أخذت عنه **ألفية العراقي** في علم الحديث. وهو فقيه أصولي ، معقولي ، نحوي ، يروي الحديث عن نجم الدين الغيطي ، عن زكريا الأنصاري ، عن ابن حجر ، والفقه عن الشيخ الصالح الصوفي الزاهد الناسك ، بركة الناس : سيدي أبي عبد الله محمد البنوفري »[112].

★ — **منصور المنوفي** :

قال عنه : « أخذت عنه شيئا من **ألفية العراقي** ، **والتصريف للعزي** وغير ذلك من الحديث والسير »[113] .

★ — **أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي الخير الشريف الميقاتي المعروف بالطحان** :

قال عنه : « أخذت عنه **كتاب المجسطي** في الهندسة ، **والجغميني في الهيئة** ، فقيه مالكي ، منطقي ، له كيس ونباهة ، يصنع بيده الربع المجيب وغيره من آلات الميقات »[114] .

★ — **أبو الحسن نور الدين علي بن أحمد بن علي الأنصاري القرافي الشافعي** :

قال عنه : « ...وأجازني بفاتحة **الكتاب** سند قريب من طريق الجان ، عنه ، عن التتائي ، عن برهان الدين اللقاني ، عن سليمان معلم أولاد الجان ، عن القاضي شمهروس الأحمر ، عن النبي ﷺ برواية أبي عمرو بن العلاء بمد مالك »[115] .

وقد أجاز نور الدين القرافي ابن القاضي في شهر ذي القعدة الحرام سنة ست

---

(111) أنظر المصدر السابق، 794 — 796.
**ودرة الحجال** ، 1 : 203 — 204 رقم 281.
(112) أنظر المصدر السابق، 796 .
ودرة الحجال ، 3 : 214 رقم 1413 .
(113) أنظر المصدر السابق، 796.
**ودرة الحجال** ، 3 : 10 رقم 894 .
(114) أنظر المصدر السابق، 797.
**ودرة الحجال** ، 2 : 104 رقم 538 .
(115) أنظر المصدر السابق، 799 — 800.

وثمانين وتسعمائة بمصر [116] .

ونور الدين القرافي هذا غير بدر الدين القرافي صاحب **ذيل الديباج** الذي أجاز المنصور وجماعة من العلماء المغاربة ، فبدر الدين لم يلقه ابن القاضي رغم أنه أدركه ، إذ يقول : « أدركته بمصر سنة ست وثمانين وتسعمائة ، إلا أني لم ألقه ، ولم آخذ عنه ، لم يرد الله ذلك »[117] .

★ **ــ أبو عبد الله محمد بن أحمد الرملي :**

لم يذكر أنه أخذ عنه ، ولكن أورد له إجازة فيما بعد في **فهرسة** ، مؤرخة بسنة 1003 هـ ، ويبدو من خلال ذلك أنه استجازه عندما رجع إلى المغرب .

★ **ــ أبو عبد الله محمد البهنسي المصري :**

قال عنه :« الفقيه الراوية المحدث المفسر . له تفسير في نحو الأربعين مجلدا ، وله شرح على **البخاري** في نحو الثلاثين مجلدا وغير ذلك من التصانيف .

لقيته بمصر سنة 986 هـ وأخذت عنه ، وأجاز لي كل ما يحمله لفظا لا كتابة »[118] .

★ **ــ أبو عبد الله محمد المحلي :**

قال عنه : « الفقيه الشافعي ، فقيه ، نحوي ، وله مشاركة في الأصلين ، والبيان ، والمنطق .أخذ عن أبي عبد الله الرملي وأبي اسحاق : ابراهيم بن عبد الرحمان بن أبي بكر العلقمي وغيرهم .

لقيته بمصر سنة 986 هـ » [119] .

★ **ــ أبو الحسن علي بن محمد بن غانم المقدسي [120] :**

**أورد نص اجازته في فهرسه .**

★ ــ راشد بن عبد الله البغدادي :

قال عنه : « فقيه نحوي ، أخذ عن جماعة من أهل بغداد وعن الامام الرملي والعلقمي ، وأحمد بن قاسم ، ويوسف النحوي ، وجماعة . لقيته بمصر سنة 986 هـ وله معرفة بالمنطق أخذت عنه المنطق بالقاهرة في السنة المذكورة »[121] .

---

(116) أنظر المصدر السابق، 800.

(117) أنظر **درة الحجال** ، 2 : 250 رقم 730 .

(118) أنظر المصدر السابق ، 2 : 239 رقم 700

(119) أنظر المصدر السابق ، 2 : 239 ، رقم 701 .

(120) أنظر ترجمته ومصادرها عند خ. الدين الزركلي ، **الاعلام** ، 5 : 166 .

(121) أنظر **درة الحجال** ، 1 : 227 رقم 427 .

★ ـــ **أحمد بن أحمد بن عبد الحق السنباطي** :

قال عنه :« الفقيه المؤلف الشافعي . له نظم ونثر ، وله تآليف حسنة ، من ذلك **نظمه** الذي جمع فيه سبعة عشر علما .

أخذ عن جماعة : كالمرصفي وغيره ، لقيته بمصر سنة 986 ، وقرأت عليه شيئا من **منظومته** المذكورة ، وأجاز لي كل ما يحمله »(122) .

★ ـــ **داود بن عبد الله البغدادي** :

قال عنه : « الطبيب الماهر ، وكان ضريرا أعمى ، لقيته بمصر سنة 986 هـ وكتب الطب تسرد عليه ، ومعرفته في الطب عظيمة »(123) .

★ ـــ **عبد الله الشنشوري المصري** (124) :

قال عنه : « الفقيه الفرضي الحيسوبي ، وهو فرضي مصر المحروسة ، اجتمعت معه بها سنة 986 »(125) .

★ ـــ **محمد النجراوي الحنفي** :

قال عنه :« وممن أخذ عنه شيئا من **المحادي** على **ألفية لابن هشام** : الشيخ محمد النجراوي الحنفي ، فقيه ، نحوي ، لغوي ، استاذ »(126) .

★ ـــ **أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن غانم المقدسي (ت 1004 هـ / 1596)** :

**أورد ابن القاضي إجازة له في فهرسه . ولم يترجم له .**

وقد أثنى عليه المحبي كثيرا ، إذ قال في جملة ما قال : « ...العالم الكبير الحجة ، الرحلة القدوة ، رأس الحنفية في عصره ، وإمام أئمة الدهر على الاطلاق ، وأحد أفراد العلم المجمع على جلالته وبراعته وتفوقه في كل فن من الفنون ، وبالجملة والتفصيل فهو أعلم علماء هذا التاريخ وأكثرهم تبحرا وأجمعهم للفنون مع الولاية والورع والزهد والشهرة الطنانة التي سلم لها أهل عصره وأذعنوا لها مع أن العصريين يجحدون فضل بعضهم بعضا ولا يذعنون كل الاذعان . وقد وقفت على أخباره كثيرا في التواريخ وكتب الآداب المؤلفة فانتقيت ما يحصل المراد من ترجمته ... »(127) .

---

(122) أنظر المصدر السابق ، 1 : 168 رقم 201 .
(123) أنظر المصدر السابق ، 1 : 167 رقم 406 .
(124) أنظر ترجمته ومصادرها عند خ. الدين الزركلي ، **الاعلام** ، 4 : 273 .
(125) أنظر **درة الحجال** ، 3 : 63 رقم 981 .
(126) أنظر **المنتقى**، 799 .
(127) أنظر **خلاصة الاثر** ، 3 : 180 .

وقد ذكر بعد ذلك جماعة من طلبة العلم وغيرهم ممن التقى معهم مثل :

* ــ **أبو يعقوب يوسف بن محمد الزرقاني:**
قال عنه : « وممن لقيته بها من طلبة العلم : الشريف أبو يعقوب يوسف بن محمد الزرقاني ، طالب مطبوع »[128] .

* ــ **أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عبد القادر الدمياطي الحنفي المفتي :**
وهو ممن التقى بهم ابن القاضي وقال عنه أنه : (طالب مطبوع)[129] . وقد وصفه المحبي بما يأتي : « الامام المقدم على أقرانه ، البارع في أهل زمانه ، مفتي مذهب النعمان بالقاهرة ، والمبدي من تحريراته التحقيقات الباهرة ، فاق في الفضائل جميعها ، وبهر في تأصيل المسائل وتفريعها ، وتكلم في المجالس ، واظهر من درر بحره النفائس ، وجمع وألف وكتب وأفاد ، وأرسل فتاويه طائرة بأجنحة ورقها إلى سائر البلاد ، ولازم شيوخ الحنفية من المصريين كالشيخ الامام زين بن نجيم وأخيه الشيخ عمر وشيخ الفقهاء في وقته الشيخ علي بن غانم المقدسي وغيرهم وأجازوه ، وتصدر للتدريس ونفع الناس ... »[130] .

ويتجلى من خلال هذا النص نوعية الطلبة الذين التقى معهم والشأو الذي وصلوه فيما بعد .

* ــ **أبو التقى صالح بن أحمد البلقيني الشافعي :**
قال عنه : « إمام معقولي ، منطقي ، مقبل على ما يعنيه »[131] ، وقال عنه في **درة الحجال** :« عارف بالأصلين والمنطق والبيان والنحو وغير ذلك . لقيته بالقاهرة سنة ست وثمانين وتسعمائة ... »[132] . وقد أصبح البلقيني فيما بعد شخصية بارزة كما يتجلى من نص المحبي : « ...كان من كبار العلماء والزهاد وله القدم الراسخة في التصوف وفقه الشافعي والمعقولات بأسرها . أخذ عن أبيه وغيره . وشاع أمره وقصده الناس للتلقي عنه ... »[133] .

* ــ **أبو عبد الله محمد البنوفري :**
تحدث عنه بإعجاب المؤرخ المغربي المجهول في **طبقات المالكية** ، وكان قد قام

---

(128)أنظر المصدر السابق ، ص
**ودرة الحجال** ، 3 : 353 رقم 1499 .
(129)أنظر المصدر السابق ، ص
(130)أنظر **خلاصة الأثر** ، 4 : 270 .
(131)أنظر **المنتقى**، 797.
(132)أنظر **درة الحجال** ، 3 : 32 رقم 929 .
(133)أنظر **خلاصة الأثر** ، 2 : 237 .

برحلة قريبة زمنيا (981 هـ) من رحلة ابن القاضي، وحضر مجالسه، وهكذا يقول عنه: «...كان فقيها صالحا زاهدا. انتصب للتدريس في **المختصر** بالجامع الأزهر، وحضرت مجالسه، واجتمعت معه في طريق الحجاز...»[134].

وقال عنه نجم الدين الغزي: «...الامام العلامة شيخ الاسلام، الورع الزاهد الخاشع، الناسك العابد: الشيخ شمس الدين البنوفري المالكي شيخ المالكية بمصر. أخذ العلم عن جماعة...»[135].

* — **أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن البكري الصديقي** [136].
* — **أبو عبد الله محمد بن الطبلاوي:**

قال عنه: «الفقيه الشافعي بمصر، كان فقيها أستاذا محققا، وله رواية وسند عال» [137].

* — **محمد الماموني المالكي المصري:**

قال عنه: «وممن لقيته بها الشيخ محمد الماموني، منطقي، مالكي، نحوي، تصريفي» [138].

* — **أبو عبد الله محمد بن عبد الله الغزي:**

قال عنه: «بياني، نحوي، أديب»[139].

* — **أبو عبد الله محمد بن عبد الحق السنباطي** [140].

**2 — في الديار المقدسة:**

دخل ابن القاضي جدة في أوائل ربيع الثاني عام سبعة وثمانين وتسعمائة ودخل مكة في جمادى من نفس السنة، ودخل المدينة المنورة في الثامن من رجب من العام نفسه [141]، وسيبقى هناك إلى أن يؤدي مناسك الحج في سنة 987 هـ [142].

---

134) أنظر **طبقات المالكية**، مخطوط م.ع. بالرباط عدد 3928 د، ص 461 — 462.

135) أنظر **الكواكب السائرة**، 3 : 82.

136) أنظر ا. بن القاضي، **المنتقى**، 799، درة، 2 : 227 — 229 رقم 677، ونجم الدين الغزي، **الكواكب**، 3 : 67.

137) أنظر **درة الحجال**، 2 : 229 رقم 678.

138) أنظر **المنتقى**، 799.
**ودرة الحجال**، 2 : 74 رقم 516.

139) أنظر المصدر السابق، 799.

140) أنظر المصدر السابق، 799.

141) أنظر المصدر السابق، 799.

142) أنظر **لقط الفرائد**، ص 316.

ولقي في الحرمين الشريفين جماعة من الشيوخ ذكر بعضهم ، وهم :

**1 ــ أبو زكريا يحيى بن محمد بن عبد الرحمان الحطاب :**

ذكر أنه أخذ عنه **كتاب خليل بن اسحاق** من باب العيدين إلى باب الايمان والنذور ، ومن باب البيوع إلى الفرائض ، وأضاف قائلا : « وسمعت عليه شيئا من **الموطأ** رواية يحيى بن يحيى الليثي ، **ومناسك الشيخ خليل** بأجمعها مع **شرح** والده عليها ، **والخزرجية بشرحه** عليها الذي سماه **بالعيون الغامزة على القصيدة الرامزة** [143] ، وأجازني في كل ذلك وفي الحديث ، ووصل لي اسناده في الفقه إلى مالك ــ رضي الله عنه ــ فيه ، وأجازني بخطه ، وقد ضاع مني في محنتي ، وهو الآن بيد الكفرة ــ دمرهم الله تعالى ــ . توفي رحمه الله في شهر ربيع النبوي عام خمسة وتسعين »[144] .

**★ ــ أبو زيد عبد الرحمان بن عبد القادر بن فهد الهاشمي :**

قال عنه : « العارف المحدث ، عالية الزمان . أخذت عنه **البخاري** ، **ومشكاة المصابيح** للتبريزي ، وشيئا من **مقدمة ابن حجر** ، **وألفية العراقي** ، وأخذت عنه المسلسلات بأسانيدها ، كالمسلسل بالأولية ، وأجازني بخطه وضاعت مني في محنتي ، توفي سنة خمس وتسعين أيضا »[145] .

وتأتي بعد ذلك قائمة بأسماء من التقى معهم هناك مثل :

**★ ــ القاضي محمد بن عبد الحق المالكي .**

---

(143) أخطأ ابن القاضي في نسبة هذا الشرح ليحيى الحطاب ، فلم يذكر أحد من الذين ترجموا لع أنه له ، نذكر على الخصوص المؤرخ المغربي المجهول الذي زار الشيخ الحطاب في الديار المقدسة حيث قال : « ...شيخنا ، أجل عيان المالكية بمكة ، لقيته بمكة سنة احدى وثمانين وتسعمائة ، وأجازني ... » (أنظر **طبقات المالكية** ، ص 460) .
كما لم يذكره حاجي خليفة (**كشف الظنون** ، 2 : 1135 ــ 1136) من ضمن الذين شرحوا **الخزرجية**. فالشرح مشهور إنه لمحمد بن أبي بكر الدماميني المتوفى سنة 828 هـ .
وقد استمر ابن القاضي في خطئه في **الدرة** (3 : 341) ، ولكنه لم يذكره له في الترجمة التي عقدها له في **لقط الفرائد** (ص 321) ، في حين ذكر شرح والده على **مناسك الشيخ خليل** [299] .
ويبدو من خلال ذلك أن إبن القاضي تراجع عن خطئه .

(144) أنظر **المنتقى**، 746.

(145) أنظر **المنتقى**، 747.

* ـــ **القاضي قطب الدين العجمي**[146] .

* ـــ **القاضي حسين المكي**[147] .

* ـــ **حسن الشريف** .

* * *

**ب ـــ في تركيا :**

دخل تركيا في رمضان عام ثمانية وثمانين ، وقبل استعراض الشيوخ الذين اجتمع بهم نحاول أن نبدي ملاحظات عامة حول هذا الدخول :

**الملاحظة الأولى** : إن ابن القاضي لم يحدد أسماء المدن التي دخلها من بلاد الترك بل اكتفى بقوله : (مدنا من بلاد الترك)[148] .

**الملاحظة الثانية** :استعمل ثلاث مرات عبارة (وأنشدني بلسانه)[149] ، فهل كان يعرف اللسان (العجمي) ؟

**الملاحظة الثالثة** : نلاحظ حسن الاستقبال الذي لقيه من بعض (الشيوخ) وهو سلوك لعبت فيه سمعة المغرب (أرض معركة وادي المخازن) دورا كبيرا .

**الملاحظة الرابعة** :إن الوصف الذي قام به ابن القاضي حين كان بمصر قد اختفى الآن ، فلم يتعرض لوضعية عامة الاتراك بكلمة واحدة ، فهل وجد الأوضاع هناك ملائمة ، وبالتالي لم يجد شيئا ينتقد به الأتراك في عقر دارهم ؟

**الملاحظة الخامسة** :إن الشخصيات التي اجتمع بها ابن القاضي لا نعرف عنها الشيء الكثير ، في حين كانت شخصياته في المشرق العربي مشهورة جدا .

وهذه الشخصيات التي اجتمع بها هي :

---

(146) أنظر ترجمته عند ن. الدين الغزي ، **الكواكب** ، 3 : 207 ، وابن العماد الحنبلي ، **شذرات** ، 8 : 437 .

(147) أنظر ترجمته عند ن. الدين الغزي ، **الكواكب** ، 3 : 146 ـــ 147 ، وابن العماد الحنبلي ، **شذرات** ، 8 : 419 .

(148) أنظر **المنتقى**، 749 .

(149) أنظر المصدر السابق، 750 ـــ 751.

**1 ـــ سجاع فلقة :**

قال عنه : « رجل فقيه ، حنفي ، أديب مطالع ، متضلع بالعلوم كالمنطق والنحو والتصريف وغيره ، وجرت بيني وبينه مباحثات في التفسير والمنطق والنحو »[150] .

**2 ـــ أبو الثناء محمود بن عبد الله الرومي :**

قال عنه : « أديب ، لغوي ، منطقي ، نحوي ، تصريفي »[151] وأكد أنه « خطيب جامع من بلاد الترك »[152] .

**3 ـــ محمد بن علي شلبي :**

قال عنه :« فقيه ، نحوي ، معقولي ، أديب ...فعل معي خيرا كثيرا ، أعارني جملة من الكتب مدة إقامتي بها ، ويوم وداعي له زودني بزاد طيب ، وأوصى علي صاحب السفينة ، ولم يزل الرئيس يلاحظني لوصيته حتى بلغنا طرابلس الغرب في ربيع النبوي عام ثمانية وثمانين »[153] .

* * *

**ج ـــ المغرب العربي**

نلاحظ هنا أيضا أنه لم يتعرض للأوضاع السائدة بالاقطار التي مر بها ، ولم يكشف اتصالاته كما فعل في مصر ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أنه لم يكن لديه الوقت الكافي لذلك .

وعلى كل فقد مر بعدة مناطق منها :

**طرابلس الغرب :**

وقد التقى فيها بجماعة نذكر منهم :

ـــ محمد بن ابراهيم الأنصاري الأندلسي الثغري تلميذ أبي عبد الله العيسي .

ـــ ويوسف الاربضي[154] .

---

(150) أنظر المصدر السابق، 749.
(151) أنظر المصدر السابق، 750.
(152) أنظر **درة الحجال** 2 : 325 رقم 876 .
(153) أنظر **المنتقى**، 751.
(154) أنظر المصدر السابق، 751.

**تونس :**

**في جربة** : ذكر أنه اجتمع بها بأبي بكر بن محمد بن محمد بن أبي بكر الأموي ، من تلامذة العيسي . كما اجتمع في تونس بأبي الغيث : غالب بن القشاش إذ قال عنه : « الولي الصالح ، المحقق ، الزاهد ، الورع ، التونسي ، له مكاشفات وكرامات لا تحصى .

وهو منشيء المدارس اليوم بتونس المحروسة ، بنى مدارس كثيرة لا يقدر على بنائها على تلك الصفة إلا أكابر الملوك ، وزوايا بتونس وغيرها ونواحيها ، واستخلص جمعا غفيرا من أسارى المسلمين من يد العدو الكافر ... اجتمعت به بتونس المحروسة سنة 988 هـ في زاويته قرب جامع الزيتونة وشاهدت منه العجب العجاب ، ودعا لي »(155) .

**أما في صفاقس** : فقد ذكر أنه لقي بها جماعة من الفضلاء ، وزار قبر أبي الحسن اللخمي ، ووصفها بأنها مدينة قليلة الماء جدا ، ولم يذكر أسماء من التقى بهم بمدينة صفاقس ، وذكر بعد ذلك أنه تابع السفر إلى أن وصل مدينة فاس حيث أقام بها مدة راح بعدها إلى مراكش (156) .

هكذا انتهت هذه الرحلة التي كانت عاملا أساسيا في تكوينه ، هذا التكوين الذي سيكتمل باتصاله بالمنصور ورجال بلاطه.

★ ★ ★

**اتصاله بالمنصور :**

عاد ابن القاضي إذن إلى وطنه ، واتصل من جديد بأستاذه المنجور وغيره من أساتذة فاس ومراكش ، وجلس للتدريس وإفادة الطلاب ، واشتهر بين معاصريه بطريقته في تدريس العلوم : شرعية ، وأدبية ، ورياضية ، المبنية على التركيز والتحصيل والابتعاد عن المباحث اللفظية ، وما لا تدعو الضرورة إليه من شروح وحواش وتعاليق ، كما اشتهر باتقانه وتبصره في العلوم الرياضية من حساب وهندسة وميقات .

وكانت محافل مراكش ـــ عاصمة السعديين ـــ تزخر بالعلماء الذين توافدوا على المنصور من كل حدب وصوب ، ووجدوا فيه ملكا لا تشغله شواغل السياسة وأعباء الحكم عن مجالس العلم ، ومحافل الأدب ، والمشاركة فيها مشاركة فعالة ، هذه المشاركة التي نجد أصداءها في

---

(155) أنظر **درة الحجال** ، 3 : 261 ـــ 262 رقم 1311.
(156) أنظر **المنتقى**، 752.

المصادر المعاصرة . فيكون من الطبيعي إذن أن يقصد ابن القاضي مدينة مراكش لينضم إلى هؤلاء العلماء ، ويكون من الطبيعي أن يحاول المنصور الاستفادة من علم ابن القاضي وتجربته ، لا سيما وقد اشتهر بالعلوم الرياضية والمنصور شغوف بهذه العلوم يدرسها ويبحث عن رجالها ، وله فيها جولات يرويها المؤرخون بإعجاب .

وقد تحدث ابن القاضي عن سبب اتصاله بالمنصور والوساطة التي قام بها شيخه يحيى الحطاب قائلا : « ...ولما أردت القفول من مكة إلى المغرب ، استكتبت شيخنا أبا زكرياء يحيى بن محمد الحطاب ليوصي مولانا بنا وبأهلنا ، فأجابني إلى ذلك في لحظة ، شوقا منه لمخاطبته — أيده الله — فلاحظني — أيده الله — لذلك ملاحظة شديدة ، فلما حصل لي منه حظ كاتبت شيخنا — برد الله ضريحه ، وأسكنه من الجنان فسيحه — بما حصل لي منه — أيده الله تعالى — لمكة المشرفة — رحمه الله ورضي عنه — وكتابه — رحمه الله — هو سبب معرفتي به — أيده الله تعالى — » (157) .

غير أن عبد العزيز الفشتالي يتحدث عن وساطة أخرى قام بها لفائدة صاحب **المنتقى** : « أقام بمصر وروى عن علمائها وحمل إجازاتهم ، وقفل إلى المغرب ، ولحق بمستقره من فاس ، ثم وفد من بعد ذلك على حضرة مراكش — صانها الله — وتلطف حتى وصل إلى أمير المؤمنين — أيده الله — بمداخلة أهل بساطه من العلماء والكتاب ، وكان يمحضني الود من بينهم فكنت سفير وسائله حتى نجحت وحصل على الأمنية من أمير المؤمنين بانتظام في سلك أولى المراتب المرعية ... »(158) .

ونعتقد أن وساطة الفشتالي لم تكن وحدها التي بوأت ابن القاضي الانتظام في (سلك أولي المراتب) ، بل نضيف إليها عوامل أخرى منها :

— وساطة يحيى الحطاب ، وقد أقر الرجل بنفسه بذلك .

— مكانة شيخه المنجور عند المنصور .

— مؤهلات ابن القاضي نفسها .

وقد أراد المنصور أن يستغل خبرة ابن القاضي ببلاد الشرق ، ويجعل منه داعية لاظهار عظمة الدولة السعدية وما لها من قوة ونفوذ أمام المشارقة ، لأنهم كانوا لا يعرفون إلا الدولة العثمانية صاحبة النفوذ المطلق هناك ، وفي نفس الوقت يستكمل صاحب **المنتقى** تكوينه . يقول صديقه

---

(157) أنظر المصدر السابق، 846.

(158) أنظر **مناهل الصفا** ، 153 .

الفشتالي في هذا الصدد : « ثم ثاب له رأي في معاودة السفر إلى البلاد المشرقية بقصد التطوع بحجة أخرى ، واستزادة العلم والتحصيل ، وكانت له نية بالغة في نشر مآثر أمير المؤمنين — أيده الله — في الآفاق ، فجمع من مفاخر الدولة ومآثرها وأمداحها وفتوحها ما أمل بثه في الأقطار ، ونشره في المشارق لو ساعدته الأقدار ، واستأذن أمير المؤمنين — أيده الله — في ذلك ، فأذن له ووصله »(159) ، إذن فالرحلة كانت علمية سياسية وطنية في آن واحد ، يجمع الوثائق الضرورية ويسافر إلى الشرق ليذيع محاسن الخليفة المنصور ، وينشر مآثر الدولة السعدية فيما يعقده من مجالس للتدريس أو يؤلفه من كتب . لكن كانت له الأقدار بالمرصاد ووقع بين أيدي القراصنة ، يقول الفشتالي عن هذه العملية : « ...وتوخى الطريق على البحر فركب السفينة من ثغر تيطاون ، فاعترضتهم أساطيل العدو في بحر الزقاق ، فأسرتهم وحصل في ورطة عظيمة لولا تداركه من ألطاف الله تعالى ... »(160) .

وتحدث ابن القاضي عن نفسه في هذه العملية فقال : « ...حيث أسرت في حال رحلتي بمصر لأجل طلب العلم الشريف ، بعد أن استشرته — أيده الله تعالى — في ذلك ، وأذن لي ، فسافرت في البحر متوجها للمقصود ، فكان ما كان من أمر الله المعبود ، في يوم الخميس الرابع عشر من شعبان سنة أربع وتسعين ... » (161) .

هكذا حطم بسرعة أمل ابن القاضي في الذهاب إلى الشرق ، للقيام بهذه المهمة العلمية السياسية ، وقد تأثر ابن القاضي كثيرا بما لاقاه من ظروف غير انسانية بفعل التعصب الكاثوليكي الأعمى ، فهو في كل كتبه التي أهداها للمنصور لا يفتأ يذكرنا بما كان فيه (من بلاء عظيم من الجوع والضرب والتعذيب) وبما عمله المنصور من أجله ، ولعل إلقاء بعض الضوء عن القرصنة في القرن 16 يمكنه أن يفسر لنا عملية أسره هذه.

* * *

**رابعا : أسره :**

ظل ابن القاضي في الأسر من يوم الخميس الرابع عشر من شعبان سنة أربع وتسعين إلى غاية السابع عشر من رجب سنة خمس وتسعين وتسعمائة (162) عانى خلالها (البلاء العظيم من

---

(159) أنظر **مناهل الصفا** ، 153 .
(160) نفس المصدر والصفحة .
(161) أنظر **المنتقى**، 347.
(162) أنظر **المنتقى**، 347.

الجوع والبرد والتكليف بما لا يطاق والضرب وغير ذلك مما لا يمكن وصفه من عذابهم)[163] ، وكان الاسبان في ذلك مدفوعين بالتعصب الكاثوليكي الأعمى ، وبالرغبة في الحصول على الفداء والثراء .

لكن ابن القاضي لم يكن وحده الذي تعرض لعملية الأسر ، بل سبقه إلى ذلك الحسن بن محمد الوزان المعروف عند الأوروبيين باسم ليون الافريقي [164] ، كما سبق أن تعرض لها كذلك محمد بن أبي الفضل خروف التونسي (توفي سنة 966 هـ ) شيخ الجماعة بفاس [165] ، وقد قارن ابن القاضي بين أسره وأسر محمد بن أبي الفضل الخروف التونسي قائلا : « امتحن بالأسر ، فأخرجه أبو العباس أحمد المريني بواسطة أبي عبد الله محمد اليسيتني ، لمكاتبة جرت بينهما ، وكان يكتب في كتبه للمريني : معتق ايالتكم فلان .

قلت : واتفق لي مع عالم الأمراء ، وأمير العلماء : أبي العباس أحمد بن أمير المؤمنين الشريف الحسني المنصور مثل ما اتفق لهذا : أخرجني من الأسر لما أسرت مذ كنت قافلا للديار

---

(163) أنظر المصدر السابق، 251.

(164) أسر الحسن بن محمد الوزان أثناء عودته من القسطنطينية مارا بتونس عام 926 هـ /1519 م ، قاصدا المغرب ، لكنه وقع في أيدي قرصان صقيلية الذين كانوا يجوبون في البحر المتوسط قرب جزيرة جربة ، ويبدو أن هؤلاء القرصان أدركوا أنه شاب ليس كباقي الأسرى الذين يقعون في أيديهم فلم يبعوه في أسواق النخاسة بل حملوه إلى نابولي ثم إلى روما حيث قدموه هدية إلى البابا ليون العاشر ، وكان هذا البابا من أسرة أثرت من التجارة لكنها أيضا اشتهرت بتشجيعها للعلم والعلماء ، فعرف له مكانته وأضفى عليه رعايته وأطلق سراحه كما أطلق عليه إسمه ، وأتاح له فرصة الاجتماع بالعلماء والادباء الذين كان البابا يحتضنهم وتثير المراجع التي تعرضت لهذه الفترة الحاسمة من حياة ليون جدلا حول اعتناقه المسيحية من عدمه وهل تم هذا مجاملة للبابا الذي احتضنه أو للوسط الذي وجد فيه أم عن اقتناع ويقين كما يدعي (جون بوري) John Pory الذي نقل مؤلفه إلى الانجليزية عام 1600م.
أنظر :
كتابه ، وصف افريقيا ، مواضع متفرقة ،
محمد المهدي الحجوي ، حياة الوزان الفاسي وآثاره .
شوقي الجمل ، أضواء على حياة الحسن بن محمد الوزان وانتاجه الفكري والمؤثرات التي تأثر بها ، مجلة **المناهل** ، العدد الثاني ، السنة الثانية ، صفر الخير 1395 مارس 1975 ، 236 — 286.
محمد عبد الله عنان ، **تراجم إسلامية شرقية وأندلسية** ، 354 — 362 .
محمد حجي ، **الحركة** ، 2 : 348 — 349 مع المصادر المذكورة في الهامش 15 .

(165) أسر محمد بن أبي الفضل خروف من طرف أحد المطارنة الاسبان إثر احتلال شرلكان لتونس ، وقد ظل أسيرا سنوات في إسبانيا إلى أن افتداه أمير فاس أحمد الوطاسي حوالي سنة 947 هـ / 1540 م بألف أوقية ذهبا بواسطة الشيخ محمد اليسيتني الذي كان قد لقيه بتونس أثناء رحلته إلى الشرق . وقد صحب معه المطران الذي أسره إلى فاس نظرا لرغبة هذا الأخير في تعلم **مفصل الزمخشري** الذي كان قد ابتدأ في دراسته في غرناطة ، لكن حال دون ذلك معارضة العلماء آنذاك — ومن بينهم محمد اليسيتني — تعليم اللغة العربية لغير المسلمين .

المصرية لأجل أخذ العلم عمن فاتني لقيه في المرة الأولى ، فأخرجني وبذل للعداة من المال ما يكون له وقاية وجنة من غضب الله تعالى » [166] .

والجدير بالذكر أنه كانت للقرصنة آنذاك مكانتها في الحياة الدولية مما يستدعينا لالقاء الضوء على بعض جوانب القرصنة خلال القرن السادس عشر.

* * *

## 1 — جوانب من عمليات القرصنة في البحر الأبيض المتوسط خلال القرن 16

قبل الدخول في تفاصيل الموضوع لابد من إبداء ملاحظتين تتعلقان بمنهجية التحليل .

**الملاحظة الأولى** : حول استخدام لفظ قرصنة [167] ، فإن كان المفهوم الأوروبي معروفا ، فإن المفهوم العربي الاسلامي يختلف تماما عن هذا المفهوم ، إنه يعني ببساطة عملية حماية التراب الوطني من الغارات البحرية الأجنبية ، كما يعني حماية الوافدين على الديار الاسلامية من المورسكيين الذين طردوا من اسبانيا .

---

(166) أنظر درة الحجال ، 2 : 209 .

(167) هناك نوعان من جوابي البحار ، أحدهما هو المعروف في الفرنسية (بالبيرات) Pirates ، وينتمون إلى مختلف الأقطار الأوروبية ، برزوا للصوصية البحرية جهارا ولا يحترمون حتى سفن بلدانهم الأصلية ، وينظر إليها الناس بما ينظرون به إلى اللصوص البريين .
أما النوع الثاني فهم المعروفون بالقراصنة Corsaires ، ولم يكونوا في بداية أمرهم لصوصا وإنما كانوا أرباب بواخر تجارية يسلحونها بإذن حكوماتهم لتستطيع حماية نفسها من أولئك اللصوص ، فكان الناس ينظرون إليهم نظرة احترام لاشتغالهم بالتكسب المشروع وأن السفن الغير المسلحة تأمن جانبهم وترجوا حمايتهم ضد Pirates اللصوص الصرحاء .
لكن مع طول المدة أصبح هؤلاء القراصنة Corsaires أنفسهم ينتحلون الأسباب للسطو على السفن التي تضحها الأقدار في متناولهم ، ولكنهم مع ذلك يحترمون سفن بلدانهم الأصلية ، وحيث أنهم أروبيون مسيحيون فمن العبث أن ينتظر منهم الانسان شيئا آخر غير مهاجمة سفن البلاد الإسلامية .
ثم بعد ذلك اكتشاف أميركا سنة 1492 أصبح الطريق بينها وبين إسبانيا مطروقا وصار مغامرو القراصنة الذين كان معظمهم من الهولنديين والأنجليز يغيرون على السفن الاسبانية وتمكنوا من السطو على عدد ضخم منها .
وبعد مدة انضم هؤلاء إلى جماعة من اللصوص يعرفون في الفرنسية باسم Les Flibustiers وكانوا يجوبون جزر الآنتي طوال القرن 17 وأوائل القرن 18 ، ثم انضمت إليهم طائفة أخرى من اللصوص كانوا يطاردون الثيران الوحشية في أميركا للحصول على جلودها التي كانت لها قيمة عالية ، فكانت الحكومة الاسبانية تطاردهم ، واتخذوا مقرا خاصا في جزيرة La tortue قرب هايتي ، فأصبحوا لصوصا أقوياء وربما هاجموا حتى بعض السفن الحربية ، ثم صار رؤساء الدول يستغلونهم للهجوم على خصومهم فلا يكاد سوء التفاهم ينشأ بين دولتين حتى توجه احداهما رسائل الكفالة والضمانة إلى بعض جريئي
=

**الملاحظة الثانية :** سوف نقتصر في بحثنا هذا على علاقة القرصنة الاسبانية بالجهاد البحري في البحر الابيض المتوسط خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ما دام ما يتناوله المخطوط يدخل في هذا الاطار .

★ ★ ★

تعتبر عمليات القرصنة الاسبانية ضد المغاربة والمسلمين بصفة عامة في البحر الأبيض المتوسط كرد فعل مباشر للعلاقات التاريخية التي سادت بين الموريسكيين والاسبان إذ إن طرد الأوائل من اسبانيا واستصراخهم بالمسلمين في شمال افريقيا أدى إلى الاحتكاك المباشر بين الاسبان وسكان شمال افريقيا المسلمين وقد تطور الأمر فيما بعد انطلاقا من بداية القرن 16 إلى الهجمة الاستعمارية الكبيرة التي شنتها اسبانيا على الجزائر وتونس وليبيا .

وهكذا فقد غدت غارات المجاهدين من مجاهدي البحر المسلمين على الثغور والشواطىء الاسبانية تشكل خطرا حقيقيا عليها .

وتملأ سير هذه الغارات فراغا كبيرا في الرواية الاسبانية وتسبغ عليها الرواية العربية صفة الانتقام للأندلس الشهيدة .

## أ ــ تطور عمليات الجهاد البحري بالبحر الأبيض المتوسط :

لم تكن مياه البحر الأبيض المتوسط خالية من نشاط المغامرين المسلمين ، ولكنهم لم يظهروا في هذا الميدان إلا منذ القرن الخامس عشر ، حينما ضعف أمر الأندلس والدولة المغربية وسادت الفوضى ، واضطربت العلاقات البحرية والتجارية بين دول المغرب والدول المسيحية . ولما

= القراصنة تحرضهم على مهاجمة سفن أعدائه ويتيح لهم بيع أسلابها علانية كغنيمة حربية مشروعة ، وحيث أن أولئك القراصنة يعرفون نذالة حرفتهم اللصوصية في نظر الناس ، فقد كانوا يعتزون بهذه الرسائل الملوكية التي تسدل عليهم سترا ولو رقيقا من النظام والمشروعية ، وقد تكون في أحضان هؤلاء القراصنة رجال بحريون عظماء استفادت أوطانهم الأصلية من مواهبهم فاستندت لهم المهام الكبيرة في أساطيلها ، نخص بالذكر — على سبيل المثال ــ
Jean Bart . الفرنسي (1651 ــ 1707) و Claude de Forbin (1656 ــ 1735) الذي كان له شفوف عظيم فيما خاضته فرنسا في عصره من حروب حول أميركا ، و Surcouf (1773 ــ 1827) الذي اقتنص لبلاده كثيرا من السفن الإنجليزية .وأصبح من كبار أصحاب معامل صنع السفن بفرنسا ولما استفحل أمر القراصنة وأصبحوا يزاحمون الدول انعقد في سنة 1856 مؤتمر دولي في باريس تقرر فيه بأغلبية نسبية إلغاء القرصنة ، ولم يشذ فيه عن هذا الالتزام إلا الولايات المتحدة الأميركية وإسبانيا والمكسيك ، فاضمحلت بذلك القرصنة بمعناها الحقيقي قانونيا .

اشتد ساعد البحرية التركية بعد استيلاء الترك على القسطنطينية زاد نشاط المغامرين المسلمين في البحر ، كما كان سقوط غرناطة واضطهاد الاسبان للمسلمين ايذانا بتطور هذه المغامرات البحرية التي اتخذت شكل هجمات متوالية على الشواطيء الاسبانية ، وكانت الجزائر وبجاية وتونس أفضل القواعد للرسو والاقلاع ، وكانت هذه الغارات البحرية تعتمد على عنصر المفاجأة وتنجح في معظم الأحيان في تحقيق غاياتها ، إذ استطاعت أن تنقل أعدادا هائلة من المورسكيين الراغبين في الهجرة إلى شمال افريقيا وقد ظهر منذ أوائل القرن السادس عشر في الميدان عنصر جديد أذكى موجة الغارات البحرية في هذه المياه ، ذلك أن البحارة الترك وعلى رأسهم الاخوان : عروج وخير الدين سوف يتسلمون زمام القيادة في هذه العمليات ، ففي سنة 1517 سار عروج في قوة برية وبحرية إلى الجزائر واستولى عليها ، ولما قتل في العام التالي في معركة بينه وبين الاسبان خلفه أخوه ، وعينه السلطان العثماني بعد ذلك على هذه المناطق وأمده بالسفن والجند ، وتألق نجم خير الدين منذ ذلك الحين ، وأضحى اسمه يقرن بذكر أعظم أمراء البحر في هذا العصر ، يساعده نخبة من أمهر الربابنة الأتراك الذين اشتهروا بالجرأة والبراعة ، وبسطوا سلطانهم على معظم جنبات البحر المتوسط ، وفي سنة 1559 استطاع أمير البحر التركي درغوث ، الذي خلف جير الدين في الرياسة، أن يخطو خطوات أخرى تمثلت في قيامه بعدة عمليات كان القصد منها تهجير عدد من المورسكيين وبالفعل فقد نجح في هذه العمليات ، فقد استطاع في إحدى غاراته أن يحمل معه 2500 من المورسكيين ، وتواصلت بعد ذلك عمليات الاغارة على الشواطيء الاسبانية ففي سنة 1570 استطاعت السفن المغيرة أن تحمل معها جميع المورسكيين في بالميرا وفي سنة 1584 سار اسطول من الجزائر إلى ثغر بلنسية وحمل معه 2300 مورسكي ، وفي العام التالي استطاعت السفن المغيرة أن تحمل جميع سكان مدينة كالوا ، وعلى العموم فقد بلغت الغارات البحرية التي وقعت على الشواطيء الاسبانية فما بين سنتي 1528 و 1584 ثلاثا وثلاثين غارة ، هذا عدا الغارات المحلية التي تقوم بها سفن صغيرة لجماعات من المهاجرين المورسكيين [168] ، وقد أفزعت الحكومة الاسبانية هذه الحملات وكان من المنتظر أن تقوم برد فعل قوي .

**ب ــ رد الفعل الاسباني :**

إن رد الفعل الاسباني لا يمكن فهمه إلا من خلال عنصرين أساسين هما :

ــ عمليات إعادة الغزو التي قامت بها اسبانيا داخل اسبانيا نفسها ، وانعكاسات عمليات الجهاد البحري . فمع وجود المشاكل الداخلية التي صاحبت عمليات إعادة الغزو لما اشتملت عليه من ضغوط إدارية وأزمات اقتصادية نتيجة سيطرة الدولة على الموارد الاقتصادية

(168) أنظر محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، 388 .

حتى تتمكن من القيام بعملياتها اضطرت القيادة الاسبانية الجديدة الناشئة والمتحالفة مع الكنيسة إلى توجيه أنظار سكان شبه الجزيرة نحو الخارج ، وترفع من درجة حماسهم حتى ينسوا بؤسهم (169) .

ـ أما العنصر الثاني فيتلخص في كون الاسبان أمام الهجمات العنيفة والمتكررة التي كانوا يتلقونها من المسلمين سخروا كل إمكانياتهم لوضع حد نهائي لها ، خاصة وأن الأطماع الاستعمارية لاسبانيا كانت واضحة للغاية ، إذ أن الهدف لم يكن فقط تعقب المسلمين في البحر المتوسط ولكن أيضا احتلال شواطيء المغرب العربي الكبير ، خاصة وأنها تتوفر على قواعد قوية بالبحر المتوسط مثل مالطا التي كانت تحت نفوذ فرسان القديس يوحنا .

وهكذا اشتدت عمليات القرصنة من طرف الاسبان وواجهها المسلمون بعنف ، ونشير إلى أن عمليات القرصنة هذه لم تكن مجرد عمليات هامشية ، بل كانت تخفي وراءها دوافع دينية وسياسية واقتصادية . وفي الأخير نقول مع أحد المؤرخين : بأن عاصمة الحروب الجديدة لم تعد القسطنطينية ، ولكن الجزائر (بفعل الجهاد البحري) ، ولم تعد مدريد ولكن مالطا(بفعل القرصنة) (170) .

★ ★ ★

## 2 ـ أسر ابن القاضي وافتداؤه

**أ ـ أسره بمالطا** :يذكر ابن القاضي أنه أسر بعد خروجه من تطوان قرب هنين في 14 شعبان سنة 994 هـ (171) بالشمال الغربي للجزائر ، أي في المنطقة التي اشتدت فيها عمليات الجهاد البحري ضد السفن الاسبانية وغيرها من السفن المسيحية .

وقد اقتيد من هناك إلى جزيرة مالطا (172) التي وصف ما كان يعاني فيها من التعذيب والتجويع والتكليف بما لا يطاق ، إذ يقول : « ...إذ كنت مع العدو الكافر في بلاء عظيم من الجوع ، والبرد ، والتكليف بما لا يطاق والضرب ، وغير ذلك مما لا يمكن وصفه من عذابهم ـ أذلهم الله تعالى ـ »(173) ، وتردد صدى هذا الألم عبر صفحات عديدة من **المنتقى** .

---

(169) أنظر جلال يحيى ، **تاريخ المغرب الكبير** ، 3 : 18 .
(170) أنظر : F. Braudel, la Méditerranée, 2 :190—212.
(171) أنظر أ. بن القاضي ، **لقط الفرائد** ، 320 .
(172) أنظر **المنتقى**، 347.
(173) أنظر المصدر السابق، 251.

ولعل الأمر يتضح أكثر إذا حاولنا إلقاء الضوء على جزيرة مالطا وحكامها .

★ ★ ★

نتوفر في هذا الصدد على وثائق هامة معاصرة نشرها المستشرق الايطالي (ايتوري روسي) ETTORE ROSSI [174] في كتابه **طرابلس تحت حكم الاسبان وفرسان مالطا** [175] ، والوثائق المنشورة مأخوذة من محفوظات مالطا بلغتها الأصلية وعلى أساس هذه الوثائق وغيرها وضع الكاتب دراسته تلك .

كانت مالطا مقرا لفرسان القديس يوحنا ، وقد انتقلوا إليها بعد مراحل ، إذ استقروا أول الأمر بالقدس حيث ساهموا في الدفاع عن الأماكن المسيحية المقدسة ضد المسلمين ، وكانت لهم أملاك كثيرة واسعة في فلسطين وسوريا وغيرها ، وعندما طردهم صلاح الدين سنة 1187 م من القدس مع بقية الصليبيين استقروا في عكا حتى عام 1291 م حيث طردوا منها ، فاتجهوا إلى قبرص ، واحتلوا حوالي سنة 1306 جزيرة رودس ، والجزر المجاورة لها ، وأقاموا دولة حقيقية تحت حماية البابا وأمراء المسيحيين ، وبعد قرنين ، أي في 26 دجنبر سنة 1522 دخل العثمانيون إلى رودس التي دافع عنها الفرسان ببسالة بعد حصار عنيف دام ستة أشهر ، وترك الفرسان هذه الجزيرة في 2 يناير سنة 1523 ، والتجأوا إلى (شيفتافكيا) وتم تعيين مركز دير المنظمة في (فيتيربو) VITERBO التي تنازل عنها البابا للمنظمة وظلت فرقة الأسطول في (شيفتا فكيا) حيث كانت تقوم بعمليات جريئة في ملاحقة مجاهدي البحر المسلمين .

ولم يكن هذا الركود الذي اتسمت به أعمال المنظمة أثناء إقامتها في ايطاليا مما يتلاءم مع تاريخها الطويل الحافل بالصراع ضد أعداء الصليب .

وكان الفرسان يرغبون في استعادة رودس أو الاستقرار في أية جزيرة من جزر البحر الأبيض المتوسط حيث يمكنهم أن يستأنفوا نشاطهم الصليبي .

وفي أكتوبر سنة 1523 أرسل المرشد الأكبر إلى شارل الخامس وفدا يطلب منحهم جزيرة

---

(174) الأستاذ (ايتوري روسي) من اعلام المستشرقين الايطاليين ، ولد سنة 1894 وتوفي سنة 1955 ، عرف باطلاعه الواسع على تراث اللغتين العربية والتركية ودراسته للأدب العربي ، وقد عمل استاذا للأدب العربي في جامعة روما ، ثم مديرا للمعهد الشرقي ومشرفا على مجلته المعروفة باسم **الشرق الحديث** (Oriento Moderno)

(175) ترجم الكتاب إلى اللغة العربية الباحث الليبي خليفة محمد التليسي مؤسسة الثقافة الليبية للتأليف والترجمة والنشر ، طرابلس ليبيا الطبعة الأولى سنة 1969 .

مالطا وقد أرسل ثمانية من الفرسان لزيارة جزيرة مالطا وجوزو وطرابلس وقدموا تقريرا عن أحوال القلعة والسور وميناء طرابلس [176] .

وقد ترددت المنظمة في قبول العرض بإلحاق طرابلس إلى سيطرتها ، الأمر الذي كان شرطا ثقيلا مقرونا بمنح مالطا . وقد نصح المبعوثون الذين زاروا طرابلس سنة 1524 ، المرشد الأكبر ، بعدم قبول هذه المهمة الباهضة ، ومع ذلك ، كان لابد من الاذعان لارادة الأمبراطور ، وعدم إضاعة الفرصة السانحة التي تهيىء للمنظمة تنظيما يتلاءم مع تقاليدها وأهدافها .

وقد استغرقت المفاوضات للوصول إلى اتفاق نهائي مدة طويلة لتوالي بعض الأحداث التي أذهلت شارل الخامس وصرفته عنها (حرب ايطاليا وروما سنة 1527) وأخيرا وقع الأمبراطور في 24 مارس سنة 1530 المرسوم في (كاستل فرانكو مينيتو)[177] وفي يونيو سنة 1530 كان مندوبو المرشد الأكبر الذي انتقل في هذا الوقت إلى (نيس) ثم إلى (سيراكوز) ، قد استلموا السيطرة على مالطا واتجهوا إلى طرابلس ، حيث استلموا من (فرانسيسكو فلاسكيز Francesco Velasquez) نائب الحاكم كشفا بالمدفعية التي كانوا ملزمين بإرجاعها إلى الأمبراطور ، وسرعان ما وصلت إلى طرابلس سفينتان تحملان العتاد والمئونة من الفرسان ، وفرقة من الجنود تحت قيادة (جاسباري دي سانجو Gaspare di Sanguessa) أول حاكم يوفد من المنظمة إلى طرابلس .

وهكذا أنهي بهذه الطريقة الحكم المباشر للاسبان الذي دام عشرين عاما فقط طرابلس [178] .

★ ★ ★

ومن استعراضنا لهذه الأحداث إذن يتبين لنا أن المعاملة القاسية لم تكن شيئا غريبا بالنسبة لهؤلاء الفرسان الذين لهم تاريخ طويل مع المسلمين انطلاقا من الحروب الصليبية ، ولا يمكن لأي أحد أن ينتظر منهم غير هذا ، خاصة وأن عملية افتداء الأسرى كانت عملية رابحة إلى حد كبير وتستهوي العديد من المغامرين .

---

(176) أنظر :

—Bosio, Istoria Della s. Religione, Gersolimitana III

عــن

**طرابلس تحت حكم الاسبان وفرسان مالطا** ، 50 .

(177) أنظر نص المرسوم عند (ايتورى روسي) ، **طرابلس تحت حكم الاسبان وفرسان مالطا** ، 52 — 53 .

(178) أنظر المزيد من الايضاح عند (ايتوري روسي) ، المصدر السابق ، 53 .

—F. Braudel, la Méditerranée, 2 : 319-329.

ب ــ المداؤه :

كاتب ابن القاضي المنصور ليفتديه ، وفي هذا الصدد يقول : « ...وعلمت أن سبب خلاصي لا يكون إلا على يده لما تحصل عندي من عظيم فضله وكريم أصله فكاتبته بأبيات حضرتني :

تجلت عن العني الأسير المكبل ... هموم سرت في الجسم في كل مفصل

بذكر الامام الهاشمي الذي سما ... بسيمة خير الخلق في كل محفل

امام العلا المنصور فخر أئمة ... به قد تحلى كل جيد معطل

به راق وجه الأرض وافتر ثغره ... وحلي جيد منه بالدر والحلي

امام همام همه طول همة ... ظبي ما له غير المعالي بصقيل

فكم تضحك الخيرات في بطن كفه ... ويبكي دماء كل رمح ومنصل

وكم جاوز الغايات حتى لوانه ... أراد الثريا أمها في التنزل

ففر الليالي من سناه توقدت ... ضياء بنور للخلافة مشعل

زكي زهي للسماح سماؤه ... جناح لنسر النصر في كل جحفل

إمام الهدى بحر الندى قسور الردى ... إلى المعتفي والفاجر المتضلل

بحق الذي أولاك ملكا فنجني ... من الملك يا قصد الأسير المكبل

وكن يا إمام العدل في عون خائر ... أسير كسير ذي جناح مذلل

لقد قرفت أيدي الزمان وريده ... دارت عليه الدائرات كجلجل

وأخنى عليه الدهر من كل وجهة ... وداست عليه النائبات بأرجل

فعافاك رب العرش يا ملك العلا ... ودمت إماما في علاء مزمل

ولا زلت حج المعتفين وكعبة ... مطافا لأهل الفضل في كل محفل

فما بلغت ليده إلا بعد تكفل همته العلية بإخراجي ، لأنه ــ أيده الله تعالى ــ كان قد كتب في شأني لقواد الثغور أن يبحثوا عني وفيأي موضع مستقري من بلاد الكفرة ــ أذلهم الله تعالى ــ »(179) .

كما اتصل بالمنصور أخوه محمد شقرون الذي وعده المنصور بخلاص أخيه ، وقد

(179) أنظر المنتقى، 347.

كتب بالفعل إلى قائد ثغر تطوان والى الأمين بها التاجر احمد المفضل يأمرهما بصرف العناية لاستخلاص ابن القاضي ، لكن العملية لم تكن سهلة لأسباب تتعلق بشخصية ابن القاضي نفسه ، إذ يقول الفشتالي عن ذلك : « ...وكان الكفرة قد توسموا فيه مخائل السراوة ، وتنسموا منه رائحة الحسب والأصالة ، فانبعثت مطامعهم إليه وشططوا في الفداء عليه ... »(180) ، وتواصلت بعد ذلك محاولات تخليصه إلى أن خلص أخيرا بعد جهد جهيد : « ...فلم يتخلص منها إلا بعد عصب الريق ... »(181) .

وقال ابن القاضي عن هذا الافتداء : « ...وقد أخرج من بلاد الكفرة من الأسارى مالا يحصى كثرة بالأموال الطائلة التي لم يسبق إلى بذل مثلها ملك قبل ، وقد افتكني بما يعادل عشرين ألف أوقية ، وقام بمسألتي معهم أتم قيام ـــ عامله الله بأحسن مما عاملني به »(182) .

وعملية الافتداء هذه تجعل الدارس يخرج بنتيجتين أساسيتين :

**النتيجة الأولى** :اشتهار المنصور بافتدائه للأسرى ، وذلك لتوفر الامكانيات المادية لديه ، وتتجلى هذه الامكانيات بالخصوص في كونه كان يحتفظ بعدد ضخم من أسرى معركة وادي المخازن فكانت المبادلة تتم على أساس افتداء مسلم بأسير مسيحي ، يقول ابن القاضي في هذا الصدد : « ...وما جاء معتف من المسلمين أو من اليهودِ الذين تحت ذمته قط يطلب أسيرا نصرانيا عوضا عن المسلم الأسير إلا ويبدله عن طيب نفس ، باسم الثغر ، قاصدا به الأجر ، وكثيرا ما أبدل من الأسارى والأموال في هذا المعنى قصدا به الدار الآخرة ، والقربات الفاخرة ، وكثيرا ما يقول في مجالسه : أيما عان تعذرت عليه حاجة في أسير أو غيره فليأتنا لنقضيها له (183) .

**النتيجة الثانية** :إن عملية الافتداء هذه لم تشمل طائفة من المجتمع دون أخرى ، بل شملت حتى اليهود الذين تحت ذمته خاصة وأن عملية الطرد والاضطهاد في اسبانيا لم تشمل المسلمين فقط ، ولكن وصلت أيضا إلى اليهود ، وقد وجدوا في المغرب ملاذا أمينا ومعاملة حسنة لا تقل عن معاملة المغاربة إلى الدرجة التي كان المنصور يفتدي فيها أسراهم :

« ...ولقد أخرج يهوديا من الأسر من جزيرة مالطا بمال ، إذ طلب منه ـــ أيده الله

---

(180) أنظر **مناهل الصفا** ، 154 ،
(181) أنظر عبد العزيز الفشتالي ، المصدر السابق ، 155
(182) أنظر **المنتقى**، 251.
(183) أنظر المصدر السابق، 347.

تعالى ــ ذلك »[184] .

### 3 ــ تأثير عملية الأسر في شخصية ابن القاضي

### أ ــ الجانب السلبي :

يتجلى بالخصوص فيما أورده في **المنتقى** من عبارات تدل بالفعل على عناصر سلبية بقيت بارزة في شخصيته وملاصقة له طوال حياته ، وذلك ناتج عن :

ــ فقدانه لعدد كبير من الوثائق إبان أسره ، ونذكر على سبيل المثال أنه عندما كان يتحدث عن معركة وادي المخازن ذكر أنه ضاعت منه قصائد تلك المعركة وقد كان ذاهبا بها إلى الشرق : « ...وكثيرا ما ضاع مني في محنتي من قصائد هذا المعنى وغرائب هذا المبنى ... »[185] ، ولعلنا ندرك أهمية هذا الحدث إذا علمنا أن هذه المعركة رغم ضخامتها وصداها لم تخلد إلا في قصائد تعد على رؤوس الأصابع .

ويتحدث عن ضياع **فهرس** أحمد المنجور قائلا : « ...وقد ألف شيخنا **فهرسة** جمع فيها كل ما اتفق له معه ، وناولنيها بخطه وأجازني فيها بعد قراءتها عليه مرتين...وقد ضاعت مني هذه النسخة في حال محنتي ، وهي الآن عند الكفرة ــ أذلهم الله تعالى ــ »[186] . وقال أيضا عن ضياع قصائد المولد النبوي « ...وقصائد هذا الفن كثيرة جدا ، وما كان منها بيدي ضاع مني مع مقيداتي في محنتي ... »[187] . .

وإن الأثر ليكون عميقا عندما يذكر بأنه كان يتوفر على قصائد كاملة لأدباء كانوا مشهورين جدا في العصر السعدي ، ولا نتوفر اليوم إلا على النزر اليسير مما كتبوا ، بل إن بعضهم لا نعرف إلا أسماءهم ، يقول ابن القاضي : « ...وقد ضاع مني قصائد هذا الوادي ، أعني القصائد الميلاديات ، كقصائد الفقيه ، الناظم الناثر ، الصوفي المحب في أهل الله تعالى : أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف الحسني ، وكقصائد الفقيه الكاتب ، الناظم الناثر : أبي عبد الله محمد بن علي الفشتالي ، نخبة الاعلام ، وحسنة الليالي والأيام ، وكقصائد أبي عبد الله محمد بن علي الهوزالي ، وأبي العباس أحمد بن يحيى الهوزالي وغير هؤلاء ممن يطول ذكرهم ، ولو تتبعناهم واحدا واحدا لخرجنا عن المقصود ، وطالت هذه العجالة »[188] .

---

(184) أنظر المصدر السابق، 347.
(185) أنظر المصدر السابق، 246.
(186) أنظر المصدر السابق، 307.
(187) أنظر المصدر السابق، 375.
(188) أنظر المصدر السابق، 376.

ـ عدم تحقيق رغبته في الذهاب إلى الشرق لاستكمال تكوينه ، وتلك أمنية طالما سعى ابن القاضي لتحقيقها ، خاصة وأنها هذه المرة أتت بأمر من المنصور لتصبح مهمة علمية سياسية . غير أنه رغم هذا كله فإن الحدث لا يخلو من جانب ايجابي .

**ب ــ الجانب الايجابي :**

لعل المرء يستغرب لأول وهلة عندما يحاول الباحث استخراج جانب ايجابي من عملية كهذه ، هذه العملية التي قلنا عنها وقفت في وجه استكمال ابن القاضي لتكوينه ، وأضاعت ثروة أدبية طائلة يصعب تعويضها ، فنقول بأنه رغم كل ذلك فإن العملية أتاحت لابن القاضي أن ينتج كثيرا للمنصور كاعتراف له بالجميل ، ومن خلال ذلك سجل لنا مظاهر فكرية واقتصادية وسياسة نقلها عنه مؤرخون لاحقون كالافراني والقادري والناصري ، وما زالت تحظى مؤلفاته إلى اليوم بتقدير الباحثين ، والدليل على ذلك أن جل كتبه في التاريخ والتراجم قد طبعت ، وهذا ما لم يحظ به مؤرخ آخر في عصره ، فما هي إذن هذه المؤلفات ؟

ذلك ما سنراه في المبحث الخامس من هذا الفصل .

★ ★ ★

**خامسا : مؤلفاته :**

تعكس مؤلفات ابن القاضي المتنوعة مشاركته الواسعة في العلوم العقلية والنقلية ، إذ كان في نفس الوقت رياضيا ولغويا ، وفقيها ، ومحدثا ، وأديبا ، وشاعرا .

وقبل الدخول في التفاصيل علينا أن نسجل ملاحظات أساسية تساعدنا على وضع إطار عام لهذا المبحث .

**الملاحظة الأولى :**

يقع أحيانا الكثير من الخطأ في نسبة العديد من المؤلفات لأحمد بن القاضي ، ويرجع ذلك ــ في نظرنا ــ إلى سبب أساسي وهو : تعدد أفراد أسرة ابن القاضي الذين يتسمون بهذا الاسم ، وجلهم ألف في نفس الميادين التي ألف فيها ابن القاضي [189] .

---

(189) مثل هذا الخطأ وقع فيه الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله ، في **الموسوعة المغربية** ، 2 : 87 ، حيث نسب لأحمد بن القاضي عدة كتب ليست له . فقد نسب له كتاب **تنوير الزمان** ، بقدوم مولانا زيدان ، في حين أنه لابن عمه قاسم بن القاضي ، ويوجد ضمن مجموع بالمكتبة الملكية عدد 255 . ونسب له أيضا كتاب **نصح ملوك المسلمين** الموجود بنفس المكتبة عدد 1258 ، وقد تأكدنا بعد

**الملاحظة الثانية :**

وجود أغلب مؤلفاته وتعدد نسخها ، إذ من مزايا مؤلفات ابن القاضي ، وجود أغلبها ، وهذا ما لا نجده عند أي مؤلف آخر معاصر له في العصر السعدي .

**الملاحظة الثالثة :**

تنوع مؤلفاته ، فهو لم يقتصر على علم واحد من علوم عصره ، بل شملت مؤلفاته جل علوم عصره .

**الملاحظة الرابعة :**

إن المؤلفات التي أخذت المقام الأول عند الباحثين هي مؤلفاته التاريخية التي دون فيها

---

= التحريات الدقيقة التي قمنا بها أن الكتاب ليس لابن القاضي ، وإنما هو لابن السكاك .
ونسب له كذلك **تقاييد في التعريف بصلحاء فاس وأضرحتهم** ، في حين أنه لعبد الرحمان بن القاضي المتوفى سنة 1082 ه/ 1672 م (أنظر عبد الله الفاسي ، **الاعلام بمن غبر**) .
ونسب له كتابا سماه (**في الرواية**) وذكر أنه يوجد بمكتبة القرويين بفاس عدد 228 . وبعد التحريات التي قمنا بها هناك لم نعثر على كتاب لابن القاضي بهذا الرقم . كما ذكر أيضا أن (ألفريد بيل) نشر وترجم **جذوة الاقتباس** بالجزائر سنة 1922 ، والواقع أن المستشرق المذكور لم ينشر ولم يترجم **جذوة الاقتباس** ، وإنما نشر وترجم **جني زهرة الآس** للجزنائي . كما ينسب له **تقييد** في ترجمة أبي جيدة عالم فاس المشهور ، ويوجد بالمكتبة العامة بالرباط عدد 1242 ك ضمن مجموع . والتقييد يتكون من صفحتين ونصف (387 ــ 389) ، وجاء في مقدمته ما يأتي : « الحمد لله ومن تأليف المرابط ، الخير الدين الناسك سيدي : أحمد بن محمد بن القاضي ــ رحمه الله ــ ما نصه : فصل : اعلم وفقني الله وإياك أنني لما فرغت من ذكر تاريخ الاقطاب الشرفاء أردت ــ إن شاء الله ــ أن أذكر وفيات المشايخ الذين منهم الشيخ الشهير ، والقطب العالم الكبير : أبو جيدة بن الامام أحمد اليزغيثني ، دفين خارج باب بني مسافر أحد أبواب مدينة فاس ، توفي ــ رحمه الله ورضي عنه ــ سنة بضع وستين وثلاثمائة ... ولم تزل تظهر له الكرامات ، وخوارق العادات ، حسبما سمعناه غير ما مرة من الشيخ الفقيه الاستاذ أبي زيد سيدي عبد الرحمان بن القاضي ــ رحمه الله ... » .
ولنا عدة ملاحظات حول هذا النص تجعلنا نشك في نسبته إليه :
أولا : وصفه بالمرابط الناسك ، هذا وصف لم نعهد أحدا من المؤرخين وصفه به ، فأوصافه معروفة مثل : المؤرخ ، الرحلة ، الفقيه ،الفرضي إلى غير ذلك ...
ثانيا : لا نعلم تاريخا لابن القاضي خاصا بالاقطاب الشرفاء ، ثم إن وفيات ابن القاضي تبدأ من سنة 700 هـ وابن جيدة توفي قبل هذا التاريخ بكثير.
ثالثا : يذكر المؤلف أنه سمع من أبي زيد عبد الرحمان بن القاضي المتوفى سنة 1082 هـ (ولعله يقصد كتابه **تقاييد في التعريف بصلحاء فاس وأضرحتهم**) ، ونحن نعلم أن مؤرخنا توفي سنة 1025 هـ ، إذن فالفرق واضح جدا .
رابعا : بالرجوع إلى الترجمة التي عقدها أحمد بن القاضي لأبي جيدة في **جذوة الاقتباس** (1 : 107 عدد 30) نلاحظ أنه لا يذكر أنه سيفرده بتأليف خاص ، ويختلف مع مؤلف التقييد حتى في تاريخ الوفاة إذ جعلها 563 هـ بدل 363 هـ .

عصر المنصور وأخبار دولته . واهمية هذه المؤلفات ترجع إلى ما اشتهر به ابن القاضي من اتقان وضبط ، وما اطلع عليه من نفائس المخطوطات التي كانت تزخر بها خزائن السعديين في مراكش ، وخزائن البيوتات العلمية بفاس، بالاضافة إلى ما كان محفوظاً بالزوايا والمساجد الكبرى ، وقد اعتمد ابن القاضي في مؤلفاته على عدد من المصادر منها ما هو موجود حاليا ومنها ما فقد .

**الملاحظة الخامسة :**

يذكر ابن القاضي مصادره أحيانا وأحيانا أخرى لا يذكرها ، وهذه هي الحالة الغالبة .

ونستطيع أن نقسم مؤلفات ابن القاضي إلى أربع مجموعات :

ــ المجموعة الأولى : في التاريخ والتراجم

ــ المجموعة الثانية : في الفقه والفرائض

ــ المجموعة الثالثة : في الحساب والهندسة

ــ المجموعة الرابعة : في المنطق

* * *

## المجموعة الأولى
## التاريخ والتراجم

**1 ــ المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور** [190] .

**2 ــ درة الحجال ، في غرة أسماء الرجال** [191]

ألف ابن القاضي هذا الكتاب في أوائل رجب سنة 999 هـ وأهداه لمخدومه أحمد المنصور ، وقد أوضح الهدف من التأليف قائلا : « ولما كنت قبل وضعت تأليفا وسميته **بالمنتقى المقصور ، على مآثر الخليفة أبي العباس المنصور** ، الشريف الحسني ، واستطردت فيه ذكر بعض الفضلاء ، ومحاسن بعض النبلاء ، وضاق عن استيفائهم تعيينا ، وعن حصرهم تبيينا ، فاحتجت لجمع هذا لأذكر من حضرني من الأعيان ، الذين لهم فضل قد شهد به العيان .

ولم أقتصر فيه على العلماء والأدباء ، بل كل من له شهرة واستطار على الألسنة ذكره من أولي الفضل والأعلام ، والصدور من ذوي السبق والأحلام . وذكرت من وفاة ابن خلكان ، إلى آخر العاشرة وأول الحادية عشرة مما حفظته من الأعيان .

وإنما ابتدأته من ابن خلكان ليكون كالذيل لوفيات الأعيان له ، والله الموفق ورتبته على

---

(190) أنظر الفصل الثاني من هذه الدراسة .

(191) طبعت **درة الحجال** أولا بالمطبعة الجديدة بالرباط (1934 ــ 1936) بعناية أ.س. علوش في جزءين ، 618 صفحة ، وأعيد طبعها بالقاهرة بعناية الدكتور محمد الأحمدي في ثلاثة أجزاء ، 1970 ــ 1970 ، في 322 ص 349 ص 561 ص .
والتحقيق الأخير مليء بالتحريف كسابقة ، وقد تتبع سقطات الجزء الأول الأستاذ التونسي محمد محفوظ في سلسلة مقالات له بعنوان : « نظرات في كتاب درة الحجال في أسماء الرجال » ، وذلك بجريدة **الصباح** التونسية على الشكل الآتي :
**الحلقة الأولى** : 25 مارس 1971 ، السنة 21 ، العدد 6677 .
**الحلقة الثانية** : 1 أبريل 1971 ، السنة 21 ، العدد 6683 .
**الحلقة الثالثة** :8 أبريل 1971 ، السنة 21 ، العدد 6689 .
**الحلقة الرابعة** : 15 أبريل 1971 ، السنة 21 ، العدد 6695 .
وفي تقديرنا فإن الكتاب في حاجة إلى إعادة تحقيق ، يعتمد المصادر التي اعتمدها ابن القاضي .

ترتيب حروف المغاربة كعياض ونحوه في المشارق لا على ترتيب أهل الشرق ، وكان أول ابتدائي لهذا التأليف في أوائل رجب عام 999 هـ ، سميته : **درة الحجال ، في غرة أسماء الرجال** [192] .

### 3 ـــ جذوة الاقتباس ، في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس [193] :

ألف ابن القاضي **الجذوة** عام 1004 هـ ، وأهداها أيضا للمنصور ، إذ يقول : « ...وكنت جمعت لايالته الكريمة تآليف تنوب عن شكري لأياديه ونعمته ، وتكون كالاقرار بمنته...فأردت إنشاء هذا أيضا تجديدا لشكره اللازم ، ولأَسْتَدْرِكَ به ما فاتني من بعض الواجب اللازم ، فوضعته وسميته **جذوة الاقتباس ، في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس** ، وانتقيت أن أذكر أولا المدينة ومحاسنها وما اختصت به ، ثم بعد ذلك أذكر على ترتيب حروف المعجم ملوكها ، وعلماءها وأعلامها وما لهم من نظم وتأليف ومن أخذ عنهم ، سواء كانوا من الغرباء القادمين عليها أو من أهلها ، إلا أني أفرد ـــ إن شاء الله تعالى ـــ في كل حرف ترجمة للغرباء الوافدين عليها ... »[194] .

وقد لقيت **الجذوة** قبولا واستحسانا من لدن أهل فاس ، ومن هؤلاء معاصره الأديب محمد الوجدي الغماد الذي مدحها قائلاً :

| | |
|---|---|
| **إن التـــآليـــف لا تحصى لكثرتهـــــا** | **في جملـــة العلـــم منظـــوم ومنثـــور** |
| **ومـا رأت مقلتـي في كل ما لحـظت** | **كجـذوة قد أنـــارت كل ديجـــــور** |
| **أتـى (الشهـاب) بهـا تولـى مطالعهـــا** | **علمـا بمـا قد مضى من كل مشهـور** |
| **لأحمـــد بمراقـــي العلـــــم مرتبـــــة** | **عليـاء يقصر عنهـــا كل تحريـــر** [195] |

---

(192) أنظر **درة الحجال** ، 1 : 4 ـــ 5 .

(193) طبعت **الجذوة** على الحجر بفاس عام 1309 في 355 صفحة بعناية الأديب محمد الفاطمي بن الحسين الصقلي (ت 1313 هـ ) الذي بذل جهدا لا يستهان به في تحقيق نصه ، ثم أعيد طبعها بالرباط سنة 1973 ـــ 1974 ، وقد اعتمدنا هذه الطبعة الأخيرة .
وقد ذكر أبو جندار الرباطي في كتابه **الاغتباط** في ترجمة أبي اسحاق ابراهيم بن محمد التادلي الرباطي المتوفى سنة 1311 هـ /1893 ، أن هذا الأخير اختصر **جذوة الاقتباس**. كما ذكر الأستاذ عبد القادر زمامة أن هناك مختصرا للجذوة قام بها الأديب المؤرخ محمد بن محمد العربي الزعري المباركي الذي كان حيا سنة 1249 هـ (المقال السابق ، ص 210) .

(194) أنظر **الجذوة** ، 1 : 10 .

(195) أنظر أ. المقري ، **روضة** ، 83 ـــ 84 .

**4 ــ درة السلوك ، فيمن حوى الملك من الملوك (196) :**

وهي عبارة عن أرجوزة تاريخية ، جعلها كذيل **لرقم الحلل** لابن الخطيب (197) وتقع الأرجوزة في أربعمائة بيت ، بدأها بالسير النبوية أَوْجَزَهَا في عدة أبيات ، ثم انتقل إلى الأمويين ، فالعباسيين ، فالفاطميين ، ثم الأيوبيين ، وينهي القسم الأول من الأرجوزة بذكر سلاطين آل عثمان ، ثم خصص القسم الثاني للمغرب وقد أعرض عن الأندلس والموحدين لكنه ذكر الأدارسة وذكر معهم جده موسى بن أبي العافية ، ثم مغراوة ولمثونة وبني مرين ، وأشار في أربعة أبيات إلى أمير فاس مزوار الشرفاء محمد بن علي بن عمران الجوطي (869 هـ ــ 876 هـ ) ثم بني وطاس ليصل إلى السعديين .

والملاحظ أن الأربعمائة بيت التي تشتمل عليها الأرجوزة لا إلا يمكن أن تكون عرضا لأسماء وتواريخ جافة لا يزيدها ما يقتضيه النظم من حشو إلا غموضا وتعقيدا . وينطبق الأمر حتى بالنسبة للقسم الذي خصصه للسعديين ، إذ إن 59 بيتا التي خصصها لهم لا تفيد الباحث إلا بمقدار ضئيل جدا.

وعلى كل فهذا مطلع الارجوزة :

| | |
|---|---|
| **الحمد لله الذي أبدى العبر** | **في دول الملوك للذي عبر** |
| **ثم صلاتنا على محمد** | **العربي الهاشمي الأمجد** |
| **وبعد فالغرض من ذا النظم** | **ذكر أناس من ملوك القوم** |
| **ووفياتهم على الترتيب** | **تبصرة للعاقل الأريب** |
| **كالذيل صغته لرقم الحلل** | **مستدركا ما فاته من دول** |
| **رمت به مبرة المنصور** | **نجل الرسول المجتبى المبرور** |
| **من قد أزاح الضيم والفسادا** | **ونصر الاسلام والعبادا** |

(196) توجد منه عدة نسخ منها : نسخة م.ع بالرباط عدد 763 د ، ضمن مجموع من ورقة 1/أ إلى الورقة 91/ب ، مسطرته 19 ، مقياسه 145/185 ، خط مغربي رديء ، متلاش ، وبه أكل أرضة . ونسخة أخرى بنفس المكتبة عدد 1428 د ، بها القسم الخاص بالدولة السعدية فقط . ونسخة ثالثة بنفس المكتبة كذلك عدد 487 د .

(197) هو عبارة عن تاريخ منظوم للدول الاسلامية : الخلفاء الأوائل وبني أمية ، وبني العباس ، وبني الأغلب ، والعبيديين ، والمرابطين والموحدين ، وبني مرين ، وقام بشرحها هو نفسه . وتوجد منه عدة نسخ منها : نسخة الاسكوريال عدد 1776 (الغزيري) تحمل تاريخ الفراغ من كتابتها وهو 765 هـ أي في حياة المؤلف . وتوجد منها نسخة بخزانة القرويين بفاس ، وثلاث نسخ بالمكتبة الملكية بالرباط ، وقد نشر جزء من هذا الكتاب بتونس سنة 1316/1898 .

سميتـــــــه بدرة السلـــــــوك		فيمـــــن حوى الملك من الملـــــوك
مبتديـــا بالمصطفـــى المختـــار		تاج الهدى وسيـــــد الأبـــرار

**5 ــ الدر الحلوك ، المشرق بدرة السلوك[198] :**

وهو شرح للمنظومة السابقة ، كان الفراغ منه بمراكش يوم الجمعة 19 رجب الفرد عام 1000للهجرة ، كما أكد هو نفسه ذلك في آخر الشرح . والشرح ألف بناء على طلب المنصور لشرح ما غمض من درة السلوك ، ورغم أنه مفصل شيئا ما إلا أنه لا يفي بالمطلوب ، حيث إنه لا يتضمن أكثر من أسماء الملوك ونسبهم وتواريخ وصولهم للحكم ووفياتهم ، وأحيانا لوائح فيها أسماء وزراء وكتاب وحجاب وقضاة الخ ...وحتى القسم الذي خصصه لشرح الأبيات المتعلقة بالدولة السعدية في المنظومة ضئيل جدا لا يتعدى ست صفحات ، ولا يفيد الباحث إلا بمقدار ضئيل كسابقة وكثيرا ما يحيله على كتابيه **المنتقى ودرة الحجال** .

**6 ــ لقط الفرائد ، من لفاظة حقق الفوائد [199] :**

انتهى منه أول الأمر سنة 1000 هـ ، وأضاف إليه بعد ذلك وفيات جديدة وصلت إلى سنة 1009 هـ . وقد جعله كذيل **لوفيات ابن قنفذ** [200] .

والكتاب رغم صغر حجمه يدل على تلك الحاسة التاريخية عند الرجل ، فتجد عنده بنفس الايجاز أحداث العالم الاسلامي في أخبار العباسيين ، والممالك والعثمانيين ، والحفصيين ، والزيانيين ، والمرينيين ، والوطاسيين ، والسعديين ، وسقوط مدن الاندلس إلى نهاية الاسلام هناك ، وغزو المسيحيين لثغور المغرب العربي الكبير من طرابلس إلى أقصى سوس وما واجهه من مقاومة شعبية ورسمية .

---

(198) توجد منها عدة نسخ منها : نسخة م.ع. الرباط عدد 763 د ، وأخرى بنفس المكتبة عدد 1428 د ، وأيضا 372 د (أول مجموع) .

(199) توجد منها عدة نسخ في المكتبة العامة بالرباط منها : نسخة عدد 270 ، وبالمكتبة الملكية بالرباط عدد 3829 ز ، وهي تامة حديثة ، جيدة الخط إلا أنها تقف عام 1000 هـ وأخرى عدد 5958 ، عتيقة مبتورة الأولى تبتدىء من عام 802 هـ إلى 1009 هـ ، وثالثة عدد 6328 ز ، عتيقة رائقة الخط ، تبتدىء من عام 825 هـ إلى 1009 هـ ، وقد طبع الكتاب أخيرا بتحقيق الأستاذ محمد حجي بالرباط عام 1976/1396 .

(200) توجد عدة نسخ منه بالمغرب منها : مخطوطة م.ع. بالرباط عدد 1428 د ومخطوطة م.م بالرباط عدد 2938 . وقد نشر هذا الكتاب بكلكتا في الهند سنة 1911 بعناية مولوي محمد هداية حسين ، ثم نشره (هنري بيريس) سنة 1939 ، وبعد ذلك عادل نويهض ببيروت وأخيرا الأستاذ محمد حجي سنة 1976/1396 .

**7 ـــ زهرة البستان ، المتضوعة بمحاسن أبناء الزمان :**

لا نعرف عنه الا ما ذكره في **المنتقى** وهو بصدد الحديث عن بيتين للمنصور : « ... وكنت أثبتهما في زهرة البستان، المتضوعة بمحاسن أبناء الزمان، مع كثير من قصائده الشعرية، وملحمه النثرية، وضاع ذلك مني في حال محنتي ... » [201].

**8 ـــ رائد الفلاح، بعوالي الاسانيد الصحاح [202] :**

كتب ابن القاضي هذا الفهرس عام 1010 هـ مجيزا به الأمير زيدان بن أحمد المنصور الذهبي ، وقد كتب بخط يده على أول صفحة من الفهرس :

| | |
|---|---|
| **هذا كتابـــي رائـــد الفـــلاح** | **بشر بالمـــلك المتيـــن المتـــاح** |
| **كمـــا لكـــم روى حديث علا** | **فقـد روى عنكـم حديث السمـــاح** |
| **ومـــا روى من سحركـــم ختمـــه** | **ما يعجـــز الضليـــل يوم الكفـــاح** |
| **لا زلت في عز وفـــي رفعـــة** | **ما قد روى عنكـم عطـــا عن ربـــاح** |

وهو يذكر أسانيده في 314 كتاب بأسمائها ، وفي عموم مؤلفات 243 مؤلف آخر ، ويبدأ بكتب القراءات والتجويد ، ثم التفسير ، ثم الحديث وشروحه ، والسيرة النبوية ، والأجزاء والمسلسلات ، وعلوم الحديث ، ثم كتب العقائد ، وأصول الفقه ، والتصوف والاذكار ، والمواعظ ، والمناقب ، والرحلات ، والفهارس ، والمشيخات ، والمعاجم ، ثم الفقه ، ثم النحو ، والبلاغة ، واللغة ، والتراجم ، ويؤخر كتب الادب والشعر إلى الخاتمة ، فاصلا بينهما بذكر أسانيده في تآليف المؤلفين . ثم يروي بعد ذلك ثماني قطع شعرية لزيدان : سبع قطع منها أنشدها زيدان نفسه لابن القاضي وأجازه كل ما له من نظم ونثر ، ووضع له خطه بذلك ، وواحدة منها رواها عنه بواسطة . ثم روى عنه بيتين لوالده أحمد المنصور في وصف نهر المسرة .

وابن القاضي في فهرسته هذه يروي عن أحد عشر شيخا ، خمسة منهم مغاربة ، وستة مشارقة . ومن المشارقة الذين أجازوه أبو عبد الله محمد بن أحمد الرملي الأنصاري الذي أورد إجازته له مؤرخة بسنة ثلاث وألف . وأبو الحسن علي بن محمد بن علي الشهير بابن

---

(201) أنظر المنتقى، 627.

(202) ربما كانت المخطوطة الوحيدة **لرائد الفلاح** هي التي بمكتبة الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد عدد 17 . بخط ابن القاضي نفسه في 156 ورقة ، وبها شطب وإلحاق .

غانم[203] ، المقدسي النجار ، المصري الدار ، وأورد نص إجازته له . وأغلبية مروياته عن أبي عبد الله محمد بن يوسف الترغي إلى المنتوري ، وكثيرا ما يقول : وبالسند قبله إلى المنتوري ، وتليها روايته عن أبي راشد اليدري .

## المجموعة الثانية
## في الفقه والفرائض

### 1 ــ نيل الأمل ، فيما به بين المالكية جرى العمل[204] :

وهو في الفقه .

### 2 ــ القانون الوفي ، بجداول الحوفي[205] :

وهو في الفرائض قال عنه المقري : « وهو كتاب عجيب في بابه ، ولما رفعه إلى أمير المؤمنين ــ نصره الله ــ كتب على أول ورقة منه بيتين من نظمه ، وهما :

**لما رأيت مقامك السامي الذي ... ملك العلا والنصر صار مطيعا**
**أيقنت أنك وارث الدنيا لذا ... أهديت علم الارث فيه جميعا[206]**

(203) ذكر الأستاذ محمد ابراهيم الكتاني (في مقال له عن **الفهرسة** بمجلة **دعوة الحق** ، العددان 9 ــ 10 ، يوليوز 1966 ، 82 ــ 87) أن هناك شيخين مذكورين في **الفهرسة** ضمن شيوخ ابن القاضي :
الأول : على الشكل الآتي :
أبو الحسن علي بن محمد بن علي الشهير بابن غاغ (كذا) ، المقدسي النجار ، المصري الدار ، الخزرجي .
وقد ذكر الأستاذ أن ابن القاضي أورد إجازة شيخه وفيها أنه ولد سنة 920 هـ .
الثاني : وقد جعله هو الشيخ الرابع ضمن شيوخ ابن القاضي المشارقة ، وهو أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن غانم الخزرجي المقدسي .
والواقع أنه لا يوجد هناك شيخ لابن القاضي باسم (ابن غاغ) ، فالشيخ المذكور بهذا الاسم ليس في الحقيقة إلا ابن غانم المقدسي المشهور ، خاصة وأن الأستاذ نفسه يذكر أنه ولد سنة 920 هـ (أنظر ترجمته عند المحبي ، **خلاصة الأثر** ، 4 : 270) ، وعليه لا داعي لذكر نفس الشيخ مرتين .
ونرى في الأخير أن ابن غاغ مصحفه عن ابن غانم ، خاصة وأن تلميذه المقري لا يذكر إلا هذا الأخير (**روضة** ، 288) .

(204) ذكره أ. المقري في **روضة الآس** ، 299 .

(205) المصدر السابق ، 298 .

(206) نفس المصدر والصفحة .

3 ـــ **الرائض لطالبي فهم الناهض ، بأعباء علم الفرائض** (207) :

جاء في مقدمته :

« ...وبعد فلما وقفت على أرجوزة بديعة في علم الفرائض بعمل الكسور للشيخ الفقيه المشارك المتفنن النبيه : أبي جعفر أحمد بن علي بن أحمد البلوي ، الشهير بابن داود التلمساني ، الأندلسي النجار ، جامعة لما اشتملت عليه من ذلك الفن ، رأيت أن أضع عليها شرحا يبين ألفاظها ويوضح أغراضها ـــ بحول الله تعالى وقوته ـــ . وسميته بالرائض لطالبي فهم الناهض ، بأعباء علم الفرائض ... » .

4 ـــ **مختصر المعيار** :

ذكره عبد الله الفاسي وهو بصدد الحديث عن مؤلفاته : « اختصاره **للمعيار** ، إلا أنه لم يكمل ، لفقده نسخة أصله ، لكون من كان يملكه ضن به عليه لشحناء وبعض حسبما هو معلوم في أهل هذا الحين ... »(208) .

## المجموعة الثالثة
## في الحساب والهندسة

1 ـــ **فتح الخبير ، بحسن التدبير ، لفك رموز الاكسير ، في صناعة التكسير** (209) :

يبدو أن هذا التأليف اقترح عليه ، إذ يقول في المقدمة : « ...وبعد فقد سألني بعض الاخوان ، من المتضلعين ...وصناعة البرهان ، أن أضع له شرحا مختصرا على أرجوزة العالم الاستاذ : أبي عثمان سعيد بن أبي جعفر بن ليون المسماة **بالاكسير ، في صناعة التكسير** ،

---

(207) مخطوط م.م بالرباط عدد 8840 .
كتب في آخرها : « فرغ من نسخه من ننسخة المؤلف ـــ رحمه الله تعالى ـــ بعد عشاء ليلة الثلاثاء السادسة والعشرين من جمادى الأولى عام أربعين وألف ...دنا...الله...القاسم ... » .

(208) أنظر **الاعلام بمن غبر** ، ص 366 .
ملاحظة :
المقصود هنا **معيار الونشريسي**.

(209) مخطوطة م.م. بالرباط عدد 5455 ، في 36 ورقة ، خط مغربي دقيق ، ابتدأ فيه في 10 شوال عام 1017 هـ ، وانتهى منه في 5 ربيع النبوي عام 1018 هـ بمدينة فاس .

لحل ألفاظها ، وتبيين مراميها وأغراضها ، وليكون تبصرة للمبتدي ، وتذكرة للمنتهي ، فأجبته إلى ذلك بعد الاستخارة ... سائلا من الله — تعالى — التوفيق والارشاد إلى عين الصواب ...وسميته **فتح الخبير ، بحسن التدبير ، لفك رموز الاكسير ، في صناعة التكسير** ، ورأيت قبل الشروع في المقصود أن أعرف بمؤلفه ... » . واستمر بعد ذلك في ذكر شيوخ ابن ليون التجيبي المتوفى سنة 750 هـ ، والكتاب يحتوي على أشكال هندسية كثيرة رسمت بعناية فائقة .

### 2 — الفتح النبيل ، بما تضمنه من العدد ومعنى الحساب والتنزيل [210] :

جاء في مقدمته : « ...وبعد فالقصد بهذا الكتاب ذكر بعض ما وجد في آي التنزيل من أسماء العدد ومعنى الحساب ، ليكون نافعا للطلاب ، وغنية لذوي العقول والألباب ، قصدت به خدمة سدة باب الامام الأعظم ، الخليفة كهف الملوك والانام الأفخم ، مولانا أبي العباس المنصور الشريف الحسني ... مقابلة لبعض إحسانه ، إذ خفف أصرى ، وأطلق من ربقة العدو الكافر أسرى ... وسميته **بالفتح النبيل ، بما تضمنه من العدد ومعنى الحساب والتنزيل** ...وكان الفتح المذكور في يوم الاثنين ثالث وعشرون شعبان عام خمسة وألف وانتقيت حصره في أربعة أقسام :

الأول في الصحيح ، والثاني في الكسور ، والثالث في الجذور ، والرابع قوانين استخراج المجهول ... » .

### 3 — مدخل في الهندسة [211] .

### 4 — نظم تلخيص ابن البنا :

ذكر المقري أنه ضاع في أسره [212] .

---

(210) مخطوط م.ع بمراكش عدد 472 ، خطه مغربي ، مسطرته 21 ، مقياسه : 230 160 .
كتب بآخره ما يأتي : « ...قال مؤلفه أحمد بن محمد بن العافية المكناسي — خار الله له بمنه — : كان الفراغ من تأليفه وجمعه بسلا المحروسة بالله تعالى يوم الاثنين سادس عشر رجب عام ستة وألف ، وتم تحريره في يوم السبت ثامن عشر ربيع النبوي عام ثمانية وألف ... »

(211) ذكره أ. المقري في **روضة الآس** ، 298 .

(212) نفس المصدر والصفحة .

## المجموعة الرابعة :
## في المنطق

**نظم منطق السعد :**

ذكر المقري أنه ضاع في أسره [213] .

★ ★ ★

هذا وقد حرر ابن القاضي العديد من الاجازات لتلامذته ، ولكنها ضاعت ، ولا نتوفر اليوم منها إلا على النزر اليسير [214] . كما نظم العديد من الأشعار [215] ، ولكنها أشعار عادية ولا تصل حتى إلى مستوى بعض معاصريه مثل عبد العزيز الفشتالي والحسين المسفيوي ، وبالتالي فشعره لا يعدو إلا أن يكون شعر فقيه ، وهو بهذا المفهوم ناظم وليس بشاعر . ولعل السبب في ذلك يعود إلى تشتت اهتمامات ابن القاضي ، في حين أن معاصريه اختصوا في ميدان واحد اتقنوه ، نذكر على سبيل المثال عبد العزيز الفشتالي الذي استهواه الادب فبرع فيه حتى قال فيه المنصور : (إننا نباهي به لسان الدين ابن الخطيب) .

وقد ذكر كذلك عزمه على وضع تأليف في قصر البديع : « ...إن فسح الله في أجلي أضع ـــ إن شاء الله ـــ تأليفا على ما اشتمل عليه من أنواع البناءات ، وما سطر فيه من النظم ، ومساحة قببه ، وقصوره ، وجداول مائه وصهاريجه ، وأشجاره ، وما فيه من أنواع الطير والوحوش وغير ذلك من العجائب ، لأن إفراده بالذكر في تأليف أشمل وأبلغ في استقصائه جملة لا تفصيلا »[216] .

وقد فسح الله فعلا في أجله ، فهل وفى بوغده وضاع الكتاب من جملة ما ضاع من كتبه ، أم أنه لم يوف بوعده ، وشغلته شواغل أخرى عن ذلك ؟

وعلى كل فمؤلفات الرجل تعكس إيجابياته وسلبياته ، وتفاعله مع بيئته ، هذا التفاعل

(213) نفس المصدر والصفحة .
(214) نذكر على الخصوص إجازته لتلميذه أحمد المقري ، أنظرها في **روضة الآس** ، ص 295 ـــ 297.
(215) توجد هذه الأشعار بالخصوص في كتابه **المنتقى، وروضة الآس** للمقري، **وكناشة** الزجالي.
(216) أنظر **المنتقى**، 836.

هو الذي سنحاول أن نلقي عليه الضوء في المبحث التالي .

### سادسا : تفاعله مع بيئته :

سندرس هذا التفاعل من خلال نقطتين أتيحت له الفرصة فيهما ليتفاعل مع بيئته ، وليبدي آراءه في كثير من قضايا مجتمعه . وهكذا فقد أتيحت له الفرصة ليعبر عن آراءه فيما يخص بعض القضاة ، وهو في هذا الموضوع يتخذ نقد الماضي ستارا لنقد الحاضر ، وأتيحت له الفرصة كذلك ليبرز الجانب الصوفي من شخصيته ، فنراه يجري وراء الأولياء والصالحين يستشفع بهم للخلاص الدنيوي والأخروي ، لأن (الدعاء عند قبرهم مستجاب) على حد تعبيره . كما أتيحت له الفرصة ليبرز موقفه من (البدع الضالة) والتي استنكرها بشدة وحذر قومه منها .

#### 1 — ابن القاضي والقضاء :

سبق أن قلنا أن أسرة ابن القاضي تسلسل فيها القضاء منذ وقت بعيد ، فالحدث ليس طارئا إذن ولكنه استمرار لوضعية كانت قائمة بالفعل . ويخبرنا ابن القاضي أنه تولى أول الأمر القضاء والخطابة بالقصر ، ونراه بعد ذلك قاضيا في سلا ، ثم في مكناسة[217] .

والواقع أن ابن القاضي كان يتوفر على قدر كبير من الشجاعة الأدبية جعلته يقبل هذا المنصب (الخطير) بدون تردد ، خاصة إذا علمنا أن الانتقاد كان لاذعا للقضاة في عصره حتى إن شيخه المنجور يذكر أن خطة القضاء أفلست ومنذ أواخر الوطاسيين عندما أسندت إلى من لا تتوفر فيه الكفاية العلمية والنزاهة الأخلاقية [218] .

أما كيف مارس ابن القاضي القضاء ، وكيف واجه الناس في المدن التي مارسه فيها ، فإننا لا نتوفر على وثائق توضح ذلك ، مما يدل على أن الأمور كانت عادية ، خاصة وأن أي أحد لم يشر إليه بأصبع الاتهام . غير أننا نستطيع أن تستخلص مع ذلك موقفه من القضاء ورجاله من خلال سلسلة التراجم التي عقدها لبعض القضاة .

فبالنسبة للعصر المريني يذكر في ترجمة محمد بن أبي حاج الجزولي — قاضي فاس في عهد السلطان أبي سعيد عثمان المريني وابنه أبي الحسن — ما يأتي :« ...ويذكر عنه أن ابنه كان يأخذ الرشا في أحكام القضاء ولا يغير عليه ويتم عليه العقود ، ولذلك هجاه محمد بن يحيى أبي طالب بن أبي القاسم العزفي ، وورى ببابين من أبواب المدينة فقال :

---

(217) أنظر عبد الله الفاسي ، **الاعلام بمن غبر** ، ص 367 .
(218) أنظر **فهرس** أحمد المنجور ، ص 53 .

أقـــاضي فاس لقـــد شنتهـــا فأحـــدثت فيهـــا أمـــورا شنيعـــة
ظلـــمت العبـــاد ورمت العنـــاد وخـادعت في الديـــن كل الخديعـة
فتـــحت لنجـــلك باب الفتـــوح وأغلـــقت للنـــاس باب الشريعـــة
فبـــادر مولـــى الـــورى فارس بعـــز لك عنهـــا لسد الذريعـــة[219]

أما في العصر السعدي فقد ذكر في ترجمة أحمد بن محمد الطرون ما يأتي : « الفاسي الدار ، القصري النجار ، الأموي . كان قاضيا بفاس ، ولم يكن من أهل العلم ، وإنما ولي القضاء لأنهم كانوا يولون القضاء من يكون مليا وإن لم يكن ذا علم ، لينكف بماله عن أموال الناس وعن الرشا .

توفي ذبيحا سنة 961 هـ [220] .

ويمكننا تلخيص موقفه من خلال هذين النصين وغيرهما على الشكل الآتي :

ـــ ضرورة توفر القاضي على قدر مهم من العلم ، إذ لا قضاء بدونه . وفعلا فقد كان بعض القضاة في العصر السعدي علماء يمارسون مهنة التدريس بالاضافة إلى مهنتهم كقضاة .

ـــ ضرورة أن يكون (من أهل الورع) ، وقد كرر ذلك بالنسبة لعديد من القضاة الذين ترجم لهم . فالعلم وحده لا يكفي ، لأن العالم أحيانا قد يستغل علمه لتحقيق مآربه .

ـــ ضرورة توفير الامكانيات المادية للقضاة (لينكفوا عن أموال الناس) ، وهذا البديل الذي يطرحه ابن القاضي في شأن تولية الأغنياء الغير العلماء

وفعلا فإننا نلاحظ أن أجور القضاة والمفتين لهذا العهد ـــ وإن كانت غير معروفة لدينا ـــ فإن هناك ظواهر كثيرة تدل على مدى رخاء عيشهم وسعة رزقهم ، حتى إنهم كانوا يبنون الدور الفخمة ، ويمتلكون الأجنة والحقول ، ويستطيعون تقديم الهبات السنية العديدة للطلبة والفقراء [221] .

ـــ ضرورة تدخل السلطان لصد القضاة الغير الأكفاء عن الأعمال المشينة التي يقومون بها مهما كانت مكانة هؤلاء.

---

(219) أنظر **الجذوة** 1 : 230 .
(220) أنظر **درة الحجال** ، 1 : 167 رقم 199 .
(221) أنظر ما يقوله عن قضاة هذا العصر أحمد المنجور في **فهرسه** والكلالي في **التنبيه** ، والقادري في **النشر**.

ـــ يشير ابن القاضي في الأخير إلى أن الردع وإن لم يأت من السلطان ، فإن العامة لن تغفر له ، وكلمة (توفي ذبيحا) في الأخير يحتمل أن نفسرها في هذا الاتجاه .

ونثير الانتباه إلى أن هذه المباديء بالنسبة لابن القاضي لم تكن نظرية بحتة أو بقصد المباهاة والظهور بمظهر المدافع عن العدالة ، بل على العكس من ذلك فقد تصدى لكثير من القضاة في التراجم التي عقدها لهم واستنكر أعمالهم ، وهكذا استنكر أعمال شيخه عبد الواحد الحميدي ـــ قاضي الجماعة بفاس ـــ قائلا : « ...نبذ الشريعة المحمدية وراء ظهره ، وكان يحكم بموافقة شهوته مع علمه بالفقه ، ولا يبالي بما فعل فيها حتى اكتسب هو ومن ولاه أموالا جليلة لا حصر لها ... »(222) .

ونشير في الأخير إلى أنه وإن لم يرق إلى درجة مفتي (223) فإنه مع ذلك كان يتمتع باحترام كبير سواء من لدن السلطة أو العامة ، وكان دائما يسعى للمحافظة على اسم أسرته التي تسلسل فيها القضاء ، وقد برهن على أنه أهل لذلك بالفعل .

**2 ـــ الجانب الصوفي من شخصية ابن القاضي :**

نشأ ابن القاضي في بيئة صوفية سواء على مستوى أسرته أو ضمن إطار مجتمعه من قمته إلى قاعدته ، ويكفي أن نذكر ان انتقال أسرة ابن القاضي نفسها من مكناس إلى فاس كان بسبب خدمة أحد المتصوفة ، وهكذا فقد ذكر ابن عيشون الشراط ، في معرض حديثه عن آمنة بنت الفقيه أحمد بن القاضي (جد مؤرخنا) المتوفى سنة 955 هـ ، ما يأتي : « كانت من الأولياء ، الخاصة الأصفياء . أخذت عن الشيخ أبي الحسن علي الصنهاجي ... وكانت تخدمه وتتبعه ، وكان أولا أهلها ينكرون ذلك عنها ، فسجنوها مرة في غرفة وجعلوا على رجليها قيدا من حديد ، فجاء شيخها سيدي ووقف وسط الدار وناداها يا آمنة ! فقالت نعم يا سيدي ، فقال : اهبطي ، فسقط القيد من رجليها وخرجت وهم ينظرون إليها والغرفة على حالها مسدودة ، فمن يومئذ سلموا لها حالها . وطبخ أهلها يوما دجاجا فأعطوها سهمها منه فقالت : لو أن كليبة سيدي هنا أو أية كليبة كانت له لأعطيتها سهمها هذا ، فإذا هي معها مادة يدها فناولتها إياها ...وقد شهد لها الشيخ سيدي عبد الرحمان المجذوب ـــ رضي الله عنه ـــ بالخصوصية ...وكانت ربما تصبح في فراشها جريحة من أثر حضور الجهاد...وكان شيخها يقول

---

(222) أنظر م. الافراني ، **نزهة**، 172 .

(223) هناك من شيوخ الجماعة من ولي الفتوى مباشرة دون سابق ولاية القضاء ، كعلي السكتاني وعبد الواحد السجلماسي بمراكش ، ويحيى السراج ومحمد القصار في فاس . كما أن هناك من ولي القضاء والفتوى معا كعبد الرحمان التمنارتي في مدينة المحمدية (تارودانت) .

إنه ما أتى بأولاد ابن القاضي من مكناس إلى فاس إلا من أجلها ... »[224] .

والشيخ الصوفي المذكور ترجم له ابن عسكر بما يأتي : « ولايته عند أهل فاس قطعية كفلق الصبح . وكان بهلولا مجذوبا على طريق الملامتية ، تعتريه أحوال الجذب في كل حين ، وليس له أهل ولا قرار ، يخبر بالمغيبات ويكاشف به من لقاه (كذا) ، لا يلتفت إلى مدح ولا إلى ذم ، يدخل ديار ملوك بني مرين فيتلقاه النساء والأولاد فيقبلون يديه وقدميه فلا يلتفت إلى أحد ويدفعون إليه الحوائج الرفيعة والذخائر النفيسة ، ويلبسه السلطان من أشرف لباسه ، فإذا خرج تصدق بجميع ذلك . ويمر على حوانيت الزياتين فيغمس أكمام الحلة التي تكون عليه ويبرقعها بالزيت والسمن ، ولا يزال يدور في بعض الأماكن ويصرخ باسم الجلالة ، ولا يعرف له أحد مأوى ، وشأنه عظيم عند أهل فاس لما رأوا له من الكرامات التي لا تخطر على بال . ولما توفي تساقط الناس على جنازته وتقاسموا أعواد نعشه وسجادته ولباسه ... »[225] .

أما على مستوى السلطة فيذكر ابن القاضي نفسه عن المنصور ما يأتي : « ...فمن ذلك زيارته لأهل الله الأئمة المشاهير ، والعلماء الجماهير ، ومحبته فيهم ، فغير ما مرة راح لزيارة أهل الله تعالى ، كالولي الصالح : دراس بن اسماعيل بن ميمونة . حكى أنه ــ ايده الله ــ مرض مرضا شديدا ، فرأت أمه ــ رضي الله عنها ــ شخصا في النوم يقول لها : زوريه دراسا ، فإنما أصابته عين ، فقصت عليه رؤيتها ، ثم زاره فعوفي . وقد زار أيضا قبر الولي الصالح : أبي الحسن علي بن حرزهم ، وكقبر أبي بكر بن العربي ، وغير هؤلاء الذين بمدينة فاس ــ رحمة الله عليهم ــ ، وكان هذا منه حين إقامته بفاس . وقد راح ــ أيده الله ــ لأغمات غير مرة لزيارة أبي عبد الله الهزميري وأمثاله .

وبمراكش يتعاهد كثيرا زيارة الأولياء كزيارة الولي : أبي العباس السبتي ، وضريح القاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي ، وأبي القاسم السهيلي ، وغير هؤلاء ممن بحضرته العلية . وهذا فعله في غيرها من البلدان إن مر بها ، ولا يسمع بشيخ يزار إلا يقصد زيارته . وحدثني بعضهم أنه كان يتعاهد كثيرا ضريح الولي الصالح سيدي أبي مدين ، حيث كان بتلمسان [226] .

ومؤرخنا لم يخرج عن هذا الاطار فقد كان خلية من خلايا مجتمعه ، فحافظ في التصوف على نظرية تقديس وتعظيم الأولياء والصالحين ، فاستشفع بهم للخلاص الدنيوي والأخروي .

---

(224) أنظر **الروض المعطار** ، 301 .
(225) أنظر **الدوحة** ، 81 رقم 66 .
(226) أنظر **المنتقى**، ص 387.

وهكذا فقد قال في ترجمة أبي جيدة بن أحمد ما يأتي « ...وكانت له كرامات ، والدعاء عند قبره مستجاب ... »[227] . وقال في ترجمة أحمد بن محمد بن عاشر : « ...كان منقطع القرين في الزهد ، وله كرامات ظاهرة ...وقصده يوما أسير من المسلمين فنظر إليه ثم أخرج له سكين البقل لكونه لم يكن عنده ما يدفعه إليه من المال فباعها الأسير بالمزايدة في السوق بسبعة عشر دينارا ذهبا ...وقبره مزار ، والدعاء عند قبره مستجاب ... »[228] .

وقال في ترجمة أبي الغيث غالب بن القشاش : « الولي الصالح المحقق ، الزاهد ، الورع ، التونسي ، له مكاشفات وكرامات لا تحصى ...واستخلص جمعا غفيرا من أسارى المسلمين من يد العدو الكافر — دمره الله — وله في ذلك كرامات مأثورة : من جملتها أنه استخلص أسيرا من أهل البيت شريفا أيضا فلما بلغ بلده قال هذا الشريف والله لا يخلص إلا بذهب شريفي يعني من سكة ساداتنا الشرفاء الذين عمدتهم مخدومنا أبو العباس المنصور ، وكان عدد المال ينيف على ثلاثة آلاف أوقية فصار يدخل يده تحت سجادته ويخرج الذهب الشريفي حتى أكمل عدد الفدية ولم يعهد قبل ذلك تحتها شيء بالكلية . وكراماته أكثر من هذا ، لو تتبعتها لطال الكتاب جدا .

اللهم بحرمته عندك اغفر لنا وللوالدين وسائر المسلمين أجمعين يا رب العالمين ...اجتمعت به بتونس المحروسة سنة 988 هـ في زاويته قرب جامع الزيتونة ، وشاهدت منه العجب ، العجاب ودعا لي ... »[229] .

وهكذا فقد كان ابن القاضي يجري وراء الأحياء والأموات من الصلحاء والزهاد ويستشفع بهم ، ويؤمن بكراماتهم ومكاشفاتهم ، ويذكر أنه رآى منهم (العجب العجاب) ، وهو في هذا لم يقتصر على منطقة معينة ، بل زار جل المناطق التي كان يسمع فيها بوجود ولي صالح ، فكأنه كان يعيش إذن في (غيبوبة مطلقة) ، وهو في انجرافه هذا وصل إلى حد المبالغة عندما جعل (الدعاء عند قبرهم مستجاب) لأنه يلغي بذلك أي اتصال روحي مباشر مع ربه .

غير أنه من الانصاف أن نذكر أن ابن القاضي لم يكن حالة انفرادية في عصره ، بل سار على نهجه الكثير من العلماء نذكر على سبيل المثال أحمد بابا الذي يقول في ترجمة أبي العباس السبتي : « الولي الزاهد العالم العارف بالله القطب ذو الكرامات الشهيرة ، والمناقب الكثيرة ، والأحوال الباهرة ، والفضائل الظاهرة ، نزيل مراكش وبها توفي ، وقبره بها معروف مزار مزاحم عليه مجرب الاجابة زرته مرارا لا تحصى وجربت بركته مرة ...قلت : وإلى الآن ما زال الحال على ما كان

---

(227) أنظر2الجذوة ، 1 : 107 .
(228) المصدر السابق ، 1 : 153 .
(229) أنظر درة الحجال ، 3 : 261 — 262 ، رقم 1311 .

عليه في روضته من ازدحام الخلق عليها وقضاء حوائجهم ، ولكن قل ذلك العطاء لفساد الزمان وتقاصر أهله وبخلهم ومع ذلك فما زالت بركته تعم قاصديه من الفقراء والقاصدين فالله الحمد ، وقد زرته ما يزيد على نحو خمسمائة مرة وبت هناك ما ينيف على ثلاثين ليلة وشاهدت بركته في الأمور ...[230] .

فالأمر إذن كان عاما ، إذ كان التصوف يغلف البيئة المغربية بهذا الشكل ، مما يستدعينا إلى التساؤل عن حقيقة هذه الوضعية : هل هي وليدة عصر ابن القاضي فقط أم أنها استمرار لوضعية سابقة ؟ ما هي الأسباب التي جعلت وضعية التصوف المغربي بهذا الشكل ؟ وهل وجد بالفعل من انتقد هذه الوضعية ؟ وهل كان الأمر كذلك بالنسبة للمناطق التي زارها ابن القاضي خاصة مصر ؟

ذلك ما سنحاول الاجابة عنه في المباحث التالية .

## أ ــ ملامح من تطور الحركة الصوفية بالمغرب إلى غاية عصر ابن القاضي :

إن تاريخ الحركة الصوفية جزء من تاريخنا العام الذي لا يشمل الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي فحسب بل يتجاوزه إلى الجانب الثقافي والروحي . على أن التصوف في المغرب كان له كبير أثر في توجيه وتلوين جميع مرافق الحياة بحيث انتشرت شذراته في مصنفات لم يكن من المنتظر أن تحفل به فإنك تجد أخبار الصوفية وحياة الزهاد ووصف الحركات الطرقية ــ التي قامت في المغرب في وقت مبكر ــ مبعثرة في كتب التاريخ والتراجم والمناقب والفهارس والرحلات ، بل حتى كتب الفقه مثل شرح ميارة على **المرشد** و**معيار** الونشريسي .

أما كتب التاريخ المغربي فيغلب على الظن أنها تضم من الصوفيات أكثر مما تضم مصنفات الشرق لأن الدور الذي لعبه التصوف المغربي في الميدان السياسي لا يكاد يضاهى ويكفي أن نعلم أن أسرا مالكة لم تتمكن من مسك زمام الحكم بالمغرب إلا بفضل روابطها مع الصوفية الذين بلغت سلطتهم الروحية على الشعب مبلغا أصبحوا يوجهونه الوجهة التي يرتضونها . وقد بدأت الحركة الصوفية بافريقيا الشمالية في شكل مزارات مقدسة لأحداث الصحابة والتابعين الذين رافقوا عقبة بن نافع في فتوحاته ، وهم زهاء ثلاثمائة ، والذين استشهدوا في الحرب ضد كسيلة ، وأول مزارة من هذا النوع في الشمال الافريقي قبور هؤلاء الشهداء التي جصصت واتخذ عليها مسجد عرف باسم عقبة ، أما في المغرب فلعل أول رباط من هذا النوع وقع تأسيسه هو رباط شاكر (المعروف اليوم بسيدي شكير على ضفة وادي نفيس بحوز مراكش ) . وقد وصفه ابن الزيات بأنه : « كان مجمعا للصالحين من قديم ولا سيما في رمضان يفدون إليه من

(230) أنظر **نيل الابتهاج** ، ص 59 ــ 62 .

كل حدب (231) .

وقد ظل المغرب خلال العصور الاسلامية الأولى بعيدا عن الطوائف الضالة وعن النظريات الشاذة التي كانت تعصف إذ ذاك بالشرق ، وقد شهد أبو بكر الطرطوشي (232) في رسالة وجهها من الاسكندرية إلى سلطان المغرب بأن أهل المغرب هم المشار إليهم في الحديث الشريف : (لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق) (لما نم عليه من التمسك بالسنة والجماعة وطهارتهم من البدع والاحداث في الدين)(233) .

ونحن لا نكاد نجد آثار بدعة جافية في ربوع المغرب قبل القرن السادس ، لأن التصوف كان إذ ذاك مطبوعا بالبساطة ولم يكن الصوفية يختلفون عن بقية الناس إلا بكثرة العبادة وتلاوة القرآن وسرد المأثور من الأدعية وكانت الأذكار نفسها مقتبسة من الآثار الواردة أو من القرآن من ذلك بعض الاحزاب لا سيما أحزاب الشاذلي ، التي تتألف مطالعها من سلسلة آيات ، ولم يكن لبس الخرقة والمرقعة صفة لازمة للصوفي في المغرب إلا إذا جاء عفوا عن طريق الزهادة في متع الدنيا وكانت الرباطات عبارة عن مجامع لقراء العلم وتلاوة القرآن والجهاد فإذا طالعت **تشوف** ابن الزيات وجدت أن كثيرا من رجاله كانوا « معلمين » يعلمون القرآن للصبيان (234) .

وكان الأمر على خلاف ذلك في الشرق حيث ترجع معظم المستحدثات الشاذة إلى القرن الثالث كوحدة الوجود والحلول والتحدث بلسان الحقيقة المحمدية والايغال في لبس المرقعات واندساس الأدعياء في صفوف النزهاء حتى كان القشيري ينشد إذا جلس إليه الصوفية وعليهم الهيآت والمرقعات ابياتا منها :

---

(231) أنظر **التشوف** ، ص 26 .
ورباط شاكر هذا هو مدفن المجاهد العربي شاكر من أصحاب عقبة بن نافع .
والذي بنى هذا الرباط هو يعلى بن مصلين أحد رجال رجراجة السبعة الذين يقال أنهم وفدوا على رسول الله ﷺ بمكة ، فأسلموا ورجعوا إلى المغرب دعاة للدين الحنيف .
وقد كان يعلى يقيم في هذا الرباط لقتال كفار برغواطة ، وهذا يدلنا على أن هذا الرباط كان مأوى للمجاهدين بقدر ما كان موئلا للزهاد .

(232) هو : محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهري الأندلسي ، أديب ، من فقهاء المالكية الحفاظ . من أهل طرطوشة شرق الأندلس ، تفقه ببلاده ، ورحل إلى المشرق سنة 476 هـ فحج وزار العراق ومصر وفلسطين ولبنان ، وأقام مدة في الشام . وسكن الأسكندرية ، فتولى التدريس واستمر فيها إلى أن توفي سنة 520 هـ /1126 م . وكان زاهدا لم يتشبث من الدنيا بشيء . من كتبه : **سراج الملوك** ، **والحوادث والبدع**.

(233) أنظر عبد العزيز بتعبد الله ، « الفكر الصوفي والانتحالية بالمغرب » ، مقال بمجلة **البينة** ، السنة الأولى ، العدد السادس ، أكتوبر 1962 ، ص 63 .

(234) نفس المقال والصفحة .

أمـــا الخيـــام فإنهـــا كخيامهـــــم وأرى نساء الحـــي غيـــر نسائهـــــا

إننا لا نقصد بهذا أن المغرب لم يعرف إلى غاية القرن السادس أي بدعة أو طائفة ضالة بل على العكس من ذلك فقد عرف بعضها ، لكن ملوك المغرب آنذاك معززين برجال الدين كانوا يقفون ضد المبتدعين والمتمهدين (235) .

وتعدى الأمر الملوك إلى الفقهاء حيث قاموا بدورهم ضد غلاة التصوف ، وهكذا فقد ذكر أبو عبد الله محمد ابن القاضي عياض ما يأتي : « أخبرني أبي — رضي الله عنه — فيما كتب لي بخطه ومنه نقلت ، قال : حدثني صاحبنا أبو حفص عمار بن مسلم ، قال ذكرت للفقيه أبي يوسف حجاج المأموني (236) يوما خبرا كنت سمعته من كرامات الأولياء فيه غلاء وإفراط ، من أن رجلا من الصالحين ، خرج إلى البادية وبه جوع مفرط ، فإذا بخبز سخن قد وضع ، وشبه هذا ، فصاح علي وأنكر قولي كا الانكار ، وقال لي : لا تصدق بمثل هذه الحالات ، هذا محمد رسول الله وخيرة خلقه قد بلغ منه ومن آله غير مرة الجهد والجوع إلى كيت وكيت واحتاج إلى العمل والنصب ، ولو كان الله تعالى مكرما أحدا من خلقه بمثل هذا دون نصب ولا تعب ، لكان محمد أحق بذلك ، وهكذا فضلاء الصحابة وأئمة الدين لا يوثر عن أحد منهم مثل هذا (237) .

لكن الفكرة الصوفية ما لبثت أن تشعبت ، فتسرب إليها الانحراف والشذوذ بعد القرن الثامن الهجري على إثر انتشار الطرقية ، واندساس الأدعياء في الزوايا والرباطات ، فانتحل

---

(235) نذكر على سبيل المثال ما وقع بالأندلس أيام المرابطين حيث ذكر صاحب **لسان الميزان** (1 : 247) أن أحمد بن قسي ابتنى مسجدا في بعض قرى شلب (بالبرتغال) ، وتحدث بالاباطيل ، وتبعه كثير من الاعيان ، وكاتب أهل المرية يدعوهم إلى خلع الملثمين ، وقد تمكن منه عبد المومن فعفا عنه بعدما سجنه ، وقد ادعى النبوة كذلك في الأندلس كما ورد في **الاحاطة والدرر الكامنة** : ابراهيم الفزاري الساحر فقام بالرد عليه أبو جعفر أحمد بن الزبير صاحب **صلة الصلة** حتى قتل على يديه في غرناطة .

(236) هو حجاج بن قاسم المعروف بابن المأموني . أصله من سبتة وعاش في المرية حيث كان مشاورا بها ثم انتقل إلى سبتة وسكنها إلى أن توفي سنة 481 هـ (نظر **الصلة** ، 1 : 150) ، **وذكر القاضي عياض في المدارك** أثناء ترجمة والده قاسم أن بيتهم شهير بسبتة . **المدارك**3 — 4 : 784 (ط. بيروت) .

**ملاحظة :**

**تصدى طائفة** من المدافعين عن الكرامات وعلى رأسها أبو الربيع سليمان بن سبع ، للذين ينكرون **الكرامات ، وقد ألف** كتابا في ذلك سماه : **الحجة في أثبات كرامات الأولياء** . ومنه نسخة بالمكتبة **العامة بالرباط** عدد 35 ق .

(237) **أنظر التعريف** ، 45 — 46 .

الكثير المذهب الصوفي لأغراض لا تمت إلى الروح بصلة وأصبح وسيلة للتوصل لأغراض الدنيا عن طريق الشعوذة والتدليس على العوام . وبدأت الفكرة الصوفية المغربية تتبلور منذ القرن الثامن محاطة بهالة من الشكليات المستحدثة . وفي هذا في القرن نفسه ظهر كتاب **شفاء السائل** (238) فرد الطرقية إلى أصولها وحلل خصائص الصوفية الحقيقيين ليتميزوا عن الأدعياء .

وفي القرن التاسع برز (محتسب الصوفية) الامام النقاد، الشيخ زروق بكتابه : **عدة المريد الصادق من أسباب المقت ، في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت** ، (239) وقد علل انتشار المبتدعة والادعياء بانتقاص الايمان والجهل بأصول الطريقة ، واعتقاد أن الشريعة خلاف الحقيقة ، وحب الرياسة مع الضعف عن أسبابها ، ثم أكد أن الصوفية الحفيقيين أنفسهم عرضة للخطأ وأن مقالاتهم يجب أن تعرض على الكتاب والسنة ، وأن الفقه والأصول شرطان في التصوف فلا تصوف إلا بفقه وهذا نص ما قاله : « (فصل) في أصل ظهور مدعي التصوف في هذا الزمن بالبدع واتباع الناس لهم عليها . فأما ظهورهم بالبدع فله أصول ثلاثة ، أولها نقص الايمان لعدم العلم بحرمة الشارع وفقد نور الايمان الهادي إلى اتباع الرسول عليه السلام . قال الله تعالى : ﴿ وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ . وقال أحمد بن حضرويه ــ رضي الله عنه ــ : الله الدليل لائح ، والطريق واضح ، والداعي قد اسمع فما التحير بعد هذا إلا من العمى . وقال ابن عطاء الله ــ رضي الله عنه ــ : في حكمه لا يخاف عليك ، إن تلتبس الطرق عليك ، وإنما يخاف عليك ، من غلبة الهوى عليك ، وقال أيضا : تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال ...

الثاني : الجهل بأصول الطريقة ، واعتقاد أن الشريعة خلاف الحقيقة وهذا هو الأصل الكبير في ذلك وهو من نباديء الزندقة، ومنه خرجت الطوائف كلها وصار الفروعي الجامد لا يتوقف في سب الصوفية ، والمتصوف لا يتوقف في النفور من العلم وأهله ، ويخالف ظاهر الشريعة في أمره ويرى ذلك كمالا في محله ، حتى لقد سمعت من بعض من تفقر من طلبة الوقت

---

(238) نسب الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله هذا الكتاب لابن خلدون وذلك في سلسلة أبحاث نشرتها له مجلة **رسالة المغرب** (1952).
وينسب الكتاب أيضا لأب ابن خلدون ، وقد طبع باسطنبول بتحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي كما نشر بيروت سنة 1959 .

(239) مخطوط م.ع بالرباط عدد 1657 د وقد قال الأستاذ عبد الله كنون عن هذا الكتاب ــ وهو بصدد الحديث عن مؤلفاته ــ ما يأتي : « ...ويزاد عليها كتاب عدة المريد الذي لا نظير له في النضح عن التصوف والدفع في وجوه أدعياء بالحجة والبرهان . وهو في نظرنا عديل كتاب تلبيس ابليس لابن الجوزي وربما فاقه لاختصاصه بهذا العلم ولمكانة صاحبه عند المتصوفة أنفسهم فلا يمكن أن يقدحوا فيه بما يقدحون به في تلبيس ابليس ... »أنظر كتيبه **أحمد زروق** ، ذكريات مشاهير المغرب ، العدد 23 ، 24 .

أنه سمع حكاية من حكايات الخارجين أوجبت أثرا في الوجود فنطق ناطق زندقته وجهله بأن قال ظاهر الشريعة حرمان ، وهذا — والعياذ بالله — كفر وضلال انجر له من جهله بالطريق واعتقاده الفرق بين الشريعة والحقيقة ، وهذا هو الأصل الذي بنى عليه المارقون أصولهم ، واستظهرت الطوائف بأعمال خارجة عن الدين ، وأحوال موافقة للمارقين ، فحمل الصادق على الكاذب والمصيب على الخائب ، ووقع الكل في جهالات لا يمكن تفصيلها ، ولا ينضبط تأصيلها ، ودفع ذلك لا يكون إلا بتقرير أصول القوم ...

الثالث : حب الرئاسة والظهور ، مع الضعف عن أسبابها والقصور ، فيضطرهم ذلك لاحداث أمور تستميل القلوب لكونها مجبولة على استحسان الغريب ، مع جهلها بما يشين ويريب ، وحرصها على الخير ، وظهور هذا الشخص بصورة ذلك وحقائق منه مع ما يجري على يديه من خوارق شيطانية أو يبدو لتابعيه من لذة نفسانية ، أو يدركه من أذواق طبيعية ، يظنها فتوحات وأسباب وصول ، فينبذ لها الفروع والأصول ، مع ما يعينه على ذلك من احتقار الأمور المألوفة واعتقاده أن المقام العجيب ، لا يدرك إلا بالأمر الغريب ، وأن العبادة في صورها ووجوهها لا تفيد المقصود إلا بإضافة أمر إليها فينقاد لذلك عند ظهوره ويعمل به ، فيجتهد الأمر له بذلك ويتقوى عليه بما ظهر له من ذلك وما هو إلا الجهل والانقياد للموهم ، وعدم التثبت والفهم ... » .

كما احتوى كتابه **قواعد التصوف** [240] الذي يعد حجة في هذا الباب على كثير من هذه الآراء التي نظن أنه جردها من كتابه الأول وأودعها في القواعد ، كما احتوى على حقائق أخرى لها أهمية كبيرة في الموضوع . وقد علق الاستاذ عبد الله كنون على آراء الشيخ زروق قائلا : « ...هي آراء موزونة بميزان الشرع ترد إلى التصوف الاسلامي اعتباره وتعود به سيرته الأولى التي كان عليها في عهد الجنيد وطبقته من الصوفية الأخيار »[241] .

هكذا إذن انقلب التصوف من تجربة وذوق ومشاهدة ، إلى شعوذة وتضليل . لقد وصل المتصوفة في هذا القرن إلى أسوأ حال ، حتى قال فيهم فتح الدين محمد بن محمد بن سيد الناس :

| | |
|---|---|
| **ما شروط الصوفي في عصرنا اليـــو** | **م سوى ستـة بغيـر زيـــادة** |
| **وهي نيك العلوق والسكر والسـط** | **لة والـرقص والغنـاء والقيـادة** |
| **وإذا ما هذى وأبدى اتحــادا** | **وحلـولا من جهلـه أو اعـادة** |
| **وأتـى بالمنكـرات عقـلا وشرعـا** | **فهو شيخ الشيـوخ ذو السجـادة**[242] |

---

(240) مخطوط م.ع بالرباط عدد 1148 د

(241) **أحمد زروق** ، سلسلة ذكريات شاهير رجال المغرب ، العدد 23 ، ص 32 — 33 .

(242) أنظر عبد المتعال الصعيدي ، **المجددون في الاسلام** ، ص 287 .

وبلغ استحواذ هؤلاء المتصوفة المتشعوذين على العامة إلى درجة أصبحوا معها يشكلون قوة يحسب لها حسابها في الميدان السياسي والديني . وأصبح الملوك ، وكذا رجال الدين من الفقهاء ، يخضعون لمدعي التصوف ويبالغون في تعظيمهم وإرضائهم ويخضعون لنزواتهم وشهواتهم . لقد كان لهم من السلطة والنفوذ في بعض الأوساط ما كان لزعماء القبائل وشيوخها من سمو الكلمة بين قبائلهم ، وكما كان الولاء المباشر لشيخ القبيلة هنا ، كان لشيخ الصوفية هناك . إن انتشار الشعوذة الصوفية جعل التفكير الخرافي يسيطر على روح العصر : فمن إيمان أعمى بالسحر ، إلى اعتقاد جازم في الخوارق ، إلى تسليم مطلق بسيطرة القوى الخفية وتأثيرها في سلوك الانسان وفاعليته ، بل وتحكمها في مصيره . كل ذلك جعل من القرن والقرون التي تليه عصر الانحطاط المفجع ، عصرا طابعه العام سيطرة التفكير الخرافي والاعراض عن كل نشاط فكري سليم . وقد حاول الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله أن يفسر أسباب هذا التدهور قائلا : « والحقيقة أن التصوف بدأ يتدهور منذ أصبح في متناول العوام تلوكه ألسنتهم في غير هدى ولا اتزان ولن أضرب لك سوى مثل واحد وهو : طريقة (أبي محمد صالح) دفين آسفي ، وتلميذ أبي مدين الغوث ، فقد كان إماما ذائع الصيت يرد عليه الصوفية حتى من مصر للأخذ عنه ، وانتشرت طريقته خلال القرن السابع ، فكثر تلاميذته في الشام وبلاد الكنانة حتى مدحه البصيري بقصيدة طويلة مطلعها :

**قفا بي على الجرفاء من جانب الغرب ففيها حبيب لي يهيم به قلبي**

غير أن طريقته هذه التي كانت سنية المعالم ما لبثت أن انحرفت بما دسه فيها الدخلاء والأدعياء وأصحاب الأغراض من الدجاجلة والملبسين . وقد صنف أحمد الماجري **المنهاج الواضح** لا لشيء سوى صون طريقة جده أبي محمد صالح عن (تأويل الجهلة ومتعسفي العصر) . وقد أكد في هذا الكتاب أن طريق التصوف أفلت في معظم بلاد المغرب (ص 14) وإنما سوقها بار ، وانصاره قد ولت الأدبار ، فظهر من الفتن التي ابدعت في مواسم الخير ومواضع العبادة والبدع التي احدثت بالجهل من أهل الشر ، ومدعي الارادة كلهم توسموا بزي الفقر ولكنهم حجبوا عنه في الحقيقة بالغشاوة والوقر (ص 18 — 19) وقد انطوى بين الناس بساط الورع ...فالتبس الطريق على سالكيه (ص 389) وثارت ثائرة طلبة العصر ، وفقهاء المصر ، على المتصوفة الذين يلبسون المرقعات ، ويتطوقون السبحات (ص 159)... »[243] .

(243) الفكر الصوفي والانتحالية بالمغرب ، مقال مجلة **البينة** ، السنة الأولى ، العدد السابع ، نونبر 1962 ، 90 — 91 .

أما في القرن العاشر فقد استمرت الشعوذة والتضليل ، واستمر ظهور الطوائف الضالة التي كانت تنخر جسم المجتمع المغربي وتشيع فيه الفوضى والفساد ، وتبعده عن الاستقامة والفكر السليم ، وقد تعرض ابن القاضي لبعض هذه الطوائف وحذر منها ، وهذا ما سنحاول أن نبينه في النقطة التالية .

**ب — ابن القاضي والبدع الضالة :**

إن كان ابن القاضي يؤمن (بكرامات الأولياء ومكاشفاتهم وبعجبهم العجاب) فإنه مع ذلك وقف موقفا صلبا أمام الطوائف الضالة ، غير أننا يمكننا أن نتساءل كيف استطاع الرجل أن يوفق بين الاثنين ، خاصة وأن شيوخ الطوائف الضالة كانت تنسب لهم أيضا (الكرامات والمكاشفات والعجب العجاب) ؟

إن الجواب هنا واضح ، وهو أن هذه الطوائف الضالة بالغت في بدعها إلى الدرجة التي انحرفت فيها تماما عن الاسلام ، وأصبح انحرافها واضحا ليس فقط بالنسبة للعلماء ، بل حتى بالنسبة للعامة الذين ثاروا في الأخير عليها بعد أن عاينوا ما عاينوا من الزيغ والفساد . ونقرر منذ البداية حقيقة أساسية وهي أن جريه المستمر وراء تقديس الأولياء كان يخفي عليه منطلق هذه البدع ، ألم يكن منطلق هذه البدع هو تقديس الأولياء والغلو في ذلك إلى درجة نسبة هؤلاء أو بعض أتباعهم إلى النبوة ؟

**1 — موقفه من الطائفة اليوسفية**

ابرز ابن القاضي موقفه من هذه الطائفة في ترجمة أحمد بن يوسف الملياني — الذي انتحلت هذه الطائفة اسمه — إذ قال عنه : « الولي الصالح المقطوع بولايته ، يكنى أبا العباس . أخذ عن أعلام تلمسان وعن أبي العباس : أحمد زروق ، وأخذ عنه أحمد بن موسى الجزولي الرجل الصالح المشهور بالسوس الأقصى .

واليه — رحمة الله عليه — تنسب الطائفة اليوسفية بالمغرب الملعونة ، وحاشاه أن يقول بمقالتهم ، إذ هم أحلوا ما حرم الله تعالى ، وقد اختلقوا بدعتهم من ترك الصلاة ، والصوم ، واستباحة الزنا ، والدياثة ، والقيادة — أذلهم الله وأخزاهم ، وغير هذا مما الشيخ منزه عنه — رحمة الله عليه — .

وهي طائفة من الطوائف المعدودة بالمغرب التي خرجت عن الحق إلى الزيغ — والعياذ بالله تعالى — من مخالفة السنة والجماعة . أماتنا الله على اتباع السنة والجماعة الصالحة بمحدو آله .

توفي رحمه الله سنة 927 [244] .

وقال ابن عسكر في ترجمته : « ومنهم الشيخ العالم ولي الله تعالى أحمد بن يوسف الملياني ، نزيل مليانة بين الجزائر وتلمسان ، من أصحاب الشيخ زروق ، جليل القدر كبير الشان ، من أكابر مشايخ الصوفية ...كانت عجائب الكرامات وأنواع الانفعالات تظهر على يده . فبعد صيته وكثر أتباعه ، فتوغلوا في محبته وافرطوا فيها حتى ربما نسبه بعضهم إلى النبوة ، وفشا ذلك التوغل على يد رجل ممن صحب أصحابه يقال له ابن عبد الله ، فإنه تزندق وذهب مذهب الاباضية ...واعتقد هذا المذهب الخسيس كثير من الغوغاء وأجلاف العرب وأهل الشهوات من الحواضر ، وتعرف هذه الطائفة باليوسفية ... »[245] .

والمشار إليه هو مؤسس الطريقة أحمد بن عبد الله المنزولي ـــ تلميذ الشيخ السالف الذكر ـــ ، ووصل بطريقته إلى حد أصبح معه التذمر عاما ويكفي أن نلقي نظرة على مبادئهم ـــ من خلال نص ابن القاضي وغيره ـــ لنتأكد من ذلك :

ـــ إنكار نبوة محمد ـــ عليه السلام ـــ والتصريح ببغضه وتفضيل المنزولي عليه ، فكانوا يقولون للمسلمين أنتم أصحاب محمد ونحن أصحاب أحمد ، وينشدون في مجالسهم : « آمنا بك ياسيدي أحمد ! وصدقنا بك يا العلوفي » .

ـــ ادعاؤهم أن لهم كتابا يسمى (ابن رباش) بديلا للقرآن ، فيه مناجاة المنزولي ويعتبرونها أوثق من الوحي المحمدي .

ـــ تركهم الصلاة والصيام إلا عند الضرورة للتستر من المسلمين .

ـــ اعتقادهم حلية أكل الميتة والخنزير ، وحرمة أكل أضحية العيد ، وقولهم : « إن الميتة ذبيحة الله ، وهي خير من ذبيحة الآدمي » .

ـــ اعتقادهم فاحشة الزنى .

ـــ اعتقادهم حلية دماء وأموال غيرهم من المسلمين [246] .

وهنا نجد المثال العملي للملاحظة التي سبق أن لاحظناها حول منطلق هذه الطوائف الضالة ، فقد كان المنطلق هو تقديس الأولياء والمبالغة في ذلك إلى درجة الانحراف ، وهذا مما

---

(244) أنظر درة الحجال ، 1 : 164 ـــ 165 رقم 190 .
(245) أنظر دوحة الناشر ، 124 ـــ 125 رقم 123 .
(246) أنظر م. حجي ، الحركة الفكرية ، 1 : 238 .

يفهم من كلام ابن عسكر السالف الذكر : « فتوغلوا في محبته وافرطوا فيها حتى ربما نسبه بعضهم إلى النبوة ... » .

### 2 ـــ موقفه من الطائفة الأندلسية :

يقول ابن القاضي في ترجمة محمد الأندلسي رئيس هذه الطائفة : « رئيس الطائفة الأندلسية ، ومخترع البدعة العظيمة المضرة بالسنة السمحة الحنفية ...وزيد هذه الطائفة اليوم بالمغرب على من كان به من اليوسفية والعكازية ، فليحذرهم المسلم ، ولا يغتر بخزعبلاتهم ، وما أحدثوه في الدين ... ومن أراد الوقوف على شناعاتهم جملة وتفصيلا ، وما قبل في هذه الطائفة الملعونة ، فليطالع تأليف الفقيه الخطيب أبي القاسم بن سلطان القسنطيني نزيل تطوان ، فقد ابدع فيهم ، وزيف أقوالهم ، وبين فسادها ، وهو في نحو مجلدين . وصنف أيضا في الرد عليهم في وريقات أبو العباس : أحمد الصغير ، أحد تلامذة المنجور ، وكان يؤذيهم كثيرا ، فغضبوا لذلك ، وعظم الأمر لديهم ، فقتلوه ... وإنما أطلنا في ذكر هذا الخبيث وأشياعه ليتحفظ منه ، لانطماس بصيرته ، وإعماء عيني قلبه ... »[247] .

ويقول في ترجمة عبد الخالق الومغاري ـــ الذي خلف محمد الأندلسي على رأس هذه الطائفة ـــ ما يأتي : « ...وهو رأس الطائفة الأندلسية الملعونة ، ولقد شاهدت بمدينة مكناسة ثلمة عظيمة في الدين : أجلسوه على كرسي بجامعهم الأعظم ، وهو يتكلم في التصوف بزعمه ! ويضل العامة بمذهبهم الشنيع ...وهو حي من أهل العصر . وله نظم لم أذكره ، بغضا في جانبه وطريقته وغيرة على أهل السنة : أهل الله . وإنما ذكرته لأحذر منه ، أبعده الله تعالى بمنه »[248] .

ومن تعاليم هذه الطائفة :

ـــ الاجتهاد في الأحكام الشرعية جريا على مظاهر الكتاب والسنة ، وعدم تقليد مالك أو غيره من الفقهاء .

ـــ إنكار أحكام جزائية مشهورة عند جمهور المسلمين ، فقالوا بعدم مشروعية الدعاء دبر الصلوات ، وعدم وجوب إعادة الصلاة إذا خرج وقتها الخ ...

ـــ استنكار ذكر النبي عليه السلام مع الله تعالى في الشهادة وغيرها لأن ذكر المحدث لا يفيد ، ولا يفيد إلا ذكر الله القديم سبحانه) ، بل قالوا : إن الاكثار من ذكر النبي عليه

---

(247) أنظر **درة الحجال** ، 2 : 35 ـــ 36 رقم 480 .
(248) أنظر المصدر السابق ، 3 : 168 رقم 1138 .

السلام حجاب عن الله [249].

### 3 ــ موقفه من الطائفة العكازية :

ذكر ابن القاضي هذه الطائفة واستنكرها ، وذلك في معرض حديثه عن الطائفة الاندلسية . وقد درج بعض الباحثين على اعتبار أن الطائفة العكازية هي نفسها الطائفة اليوسفية ، ونعتقد أن الأمر ليس كذلك للعوامل الآتية :

العامل الأول : إن الطريقة التي أسسها المنزولي لم تعرف طوال القرن العاشر إلا باسم الطائفة اليوسفية ، ونصا ابن عسكر وابن القاضي واضحان في هذا المجال .

العامل الثاني : لو كانت الطائفة العكازية هي نفسها الطائفة اليوسفية أو على الأقل فرقة متفرعة عنها لما توانى ابن القاضي عن ذكرها ، خاصة وأنه هنا يحذر قومه ، وهذا التحذير لن يكون له مفعول إلا بإعطاء المعلومات الدقيقة عن هذه الطوائف البدعية .

العامل الثالث : وهو عامل رئيسي ، ذلك أنه عندما يحدثنا عن هذه الطوائف البدعية فهو يحدثنا عن وجود ثلاث طوائف : الأندلسية ، واليوسفية ، والعكازية . فلا مجال إذن للشك في كون الطائفة العكازية هي اليوسفية . وبناء على ذلك فمن تكون هذه الطائفة التي يتحدث عنها ابن القاضي ؟

إن بعض المؤرخين يرجعون العكازية إلى أصل أقدم من هذا عند قبيلة مصمودة السوسية ، إذ كان منهم المهدي ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين في مستهل القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي لا يأخذ معه من متاع الدنيا في سياحته الكبرى سوى عكاز وركوة ، واعتقد قومه وأنصاره عصمته ورأوا تكفير غيرهم من المسلمين الذين لا يتمذهبون بمذهبهم [250] .

وقد تحدث الأستاذ محمد المنوني عن هذه الطائفة في العصر المريني قائلا : (وقد كانوا موجودين في هذه الفترة ، وجاء تفسيرهم عن أبي يعقوب المحساني بأنهم يكفرون من لا يومن بالمهدي ابن تومرت (أنظر **نوازل المجاطي** ص 91 ، 95 ، 111 ، 125 ، مع **المعيار** للونشريسي ، 2 : 423) ، وفي آخر نوازل التعزيرات من **المعيار المعرب** (2 : 352) يوجد سؤال يفسر نحلة هؤلاء ، وكان المخاطب به وهو فقيه تازي ومفتيها محمد بن عبد المومن ، من أهل القرن الثامن للهجرة ، وجاء في هذا السؤال :

---

(249) أنظر م. حجي ، المصدر السابق ، 1 : 242 .
(250) أنظر المصدر السابق ، 1 : 237 .

— جوابكم في قوم فارقوا الجماعة .

— ويكفرون المسلمين .

— ويأكلون ذبائحهم .

— ولا يصلون خلفهم .

— ويقولون من لم يومن بالمهدي ابن تومرت فهو كافر .

— ويفضلونه على أبي بكر وعمر — رضي الله عنهما — .

— ويقولون من لم يعلم اثني عشر بابا من التوحيد فهو كافر .

— وينقضون الوضوء بلمس ذوات المحارم .

— ويقولون من حلق ما تحت اللحية فهو مجوسي .

— فهي تسع مسائل ينبني عليها مذهبهم .

— ثم جاء في أواخر جواب المستفتي في شأنهم (**المعيار** ، 2 : 358) : « وقد كان ورد عليهم ظهير من السلطان — رحمه الله — في مدة الترجالي أن يبحث عن أمرهم ، فاجتمع الناس عليهم في مسجد السبتاني وبحثوا فلم يوجد عندهم شيء من العلم ، واتفق الناس حينئذ على أنهم قوم جهلة ، وأنهم يستتابون ، فإن تابوا وإلا قتلوا ، وكنت أنا حاضرا لذلك فتابوا وانصرفوا ، وما أفلتهم من القتل حينئذ إلا توبتهم على يد سيدي أبي عبد الله ابن عطية — رحمه الله تعالى — ، فإذا ظهر عليهم بعد ذلك أنهم لم يزالوا على بدعتهم يخاف عليهم ألا تقبل لهم توبة ويقتلون من غير استتابة ، لأنهم يصيرون حينئذ بمنزلة الزنديق الذي لا تقبل له توبة ، لكونه يخفي حاله ، فكذلك هؤلاء » .

ومما يؤكد أن هؤلاء هم العكازون ان المجاصي لما نقل في نوازله بعض هذا الجواب عقب عليه بقوله (ص 95 ، 111) : « وأصحاب ابن تومرت المذكورون هم المسمون بالعكازين حسبما نقله التتائي في شرحه **للرسالة** عن الحساني ... »[251] .

فهل يمكن اعتبار الطائفة العكازية التي يتحدث عنها ابن القاضي استمرارا لطائفة العكازين التي كانت موجودة أيام بني مرين ؟

لا بد وأن ذكرى أمجاد المهدي بن تومرت والنجاحات الهائلة التي حققها أتباعه قد دامت

---

(251) انظر التيارات الفكرية ، 45 — 47

بأودية جبل درن مدة طويلة ...وطوال أجيال عديدة « لازم الأمل القلوب في تجديد العز البائد سرا ، كما قامت ثورات ضد المرينيين وحتى في عهد السعديين ، وامتنعت قبائل نفيس من المصامدة ـــ إخلاصا منها لهذه الذكرى ـــ على الحركة الصوفية في القرن 10 هـ / 16 م وأغلقت أبوابها في وجهها ... »[252] . فنرى بأن ذكرى المهدي لم تنمح بعد من عقول وقلوب المصامدة على الرغم من مرور أربعة قرون على قيام دعوته ، كما نلاحظ في نفس الوقت النشاط الملحوظ الذي عرفته فكرة (المهدوية) في العصر السعدي الذي راجت أثناءه غير ما مرة : فالسعديون أنفسهم استعملوها في بداية أمرهم مع محمد الشيخ المهدي ، وقد عرف القرن 11 هـ /17 م قيام عدة حركات سياسية اعتمدت المهدوية وأشهرها حركة أبي محلي [253] ، والأكثر من هذا فاليوسي يعثر بالصدفة بإحدى قرى شمال البلاد على مؤلف عنوانه : **المقصد الأسنى ، في المهدي الأقنى** ، فيكشف وهو يتصفحه بأن صاحبه العالم الصوفي ينتمي إلى الطائفة التومرتية ، [254] فلا يستبعد إذن أن تكون الطائفة العكازية التي ساق ابن القاضي ذكرها مع طائفتي الأندلسية واليوسفية تهم أتباع المهدي بن تومرت [255] .

ونتساءل في الأخير هل هذه الوضعية كانت تهم المغرب فقط أم أنها كانت تهم أيضا المناطق التي زارها ابن القاضي خاصة مصر التي حاول أن يعطينا صورا عن حياتها الاجتماعية .

### ج ـــ ملامح من الحركة الصوفية بمصر خلال القرن العاشر الهجري :

الملاحظة الأساسية بالنسبة لابن القاضي أنه عندما ذهب إلى مصر قدم لنا صورا عن الحياة الاجتماعية وعن علاقة المصريين بالاتراك، كما بينا ذلك سابقا، ولكنه أعرض عن ذكر رجال التصوف هناك، خاصة الشخصية التي طبعت البيئة الصوفية المصرية خلال هذا القرن بطابع خاص ألا وهي شخصية عبد الوهاب الشعراني (ت 973هـ / 1565 م)[256]. يقول الأستاذ زكي مبارك عن هذه الشخصية : « هي إحدى الشخصيات المصرية التي أثرت أبلغ التأثير في

---

(252) أنظر :. R. Montagne, les Berbères, P. 70

(253) أنظر : م. حجي ، المصدر السابق ، 1 : 227 ـــ 236 .

(253) أنظر : م. حجي ، المصدر السابق ، 1 : 227 ـــ 236 .

(254) أنظر :

الحسن اليوسي ، **المحاضرات** ، 108 .

(255) أنظر مزيدا من الايضاح عند :

عبد الله نجمي ، « العكاكزة » ، مقال بمجلة **كلية الآداب** بالرباط ، العدد الخامس والسادس ، 1979 ، 92 ـــ 94 .

(256) ترجم الشعراني لنفسه ترجمة وافية في مقدمة كتابه **لطائف المنن** ، فذكر أنه من ذرية الامام محمد بن الحنفية وأن جده السابع كان سلطان تلمسان ، وأنه حفظ القرآن وهو في سن التمييز ، وأنه واظب على =

ذيوع الثقافة الصوفية بين المصريين، فالشعراني أكبر شخصية أثرت في الأذواق المصرية، وسيطرت على الجماهير زمنا غير قليل »[257]. فلم يكن إذن من المنتظر بالنسبة لابن القاضي أن يغفل عن شخصية في هذا المستوى، مما يدعونا للتساؤل حول حقيقة هذا الاغفال ؟

ما دام ابن القاضي له رأي خاص في أتراك مصر، فإن تساؤلنا سوف يتجه منذ البداية إلى علاقة هذا الشيخ بالولاة الأتراك. فهو يوصي بمداراة الحكام ويقول : « أخذ علينا العهد بأن نأمر إخواننا أن يدوروا مع الزمان وأهله كيف داروا، ولا يزدرون قط من رفعة الله عليهم ولو في أمور الدنيا وولايتها، كل ذلك أدبا مع الله عز وجل الذي رفعهم، فإنه ما يرفع أحدا إلا لحكمه . ثم أي فائدة لازدرائهم من ارتفع عليهم، مع أن أحدا لا يسمع لهم ؟ وهذا العهد قل من يعمل به من الناس فيقولون عن المحتسب أو الوزير أو غيرهما : من أين لهؤلاء السفل الضخامة علينا ونحن نعرف آباءهم، وفلان كان أبوه زبالا، وفلان كان أبوه نوتيا، وفلان كان أبوه فلاحا . ونحو ذلك من الهذيانات، ومن أقام هذا الميزان اليوم على الناس حرم بركة أهل زمانه »[258] .

والشعراني يكرر هذا المعنى كلما لاحت فرصة ومن رأيه انه ينبغي لمن اجتمع بسلطان أو أمير أو كبير في قومه أن يسأله أن يدعو له . ولو كان غير صالح، فإن الله تعالى يستحيي أن يرد دعاء هؤلاء الأكابر بين قومهم ورعيتهم ويخجلهم . ويضرب المثل بما وقع لفرعون حين طلب منه قومه أن يطلع لهم نيل مصر لما توقف، فإنه قال : يا رب لا تخجلني بين عبادك فأجابه. ثم يضيف الشعراوي قائلا : « وهذا سر قل من يتنبه له من الناس ...ولما طلعت للباشا داود نائب مصر في هذا الزمان في قضية أوجبت ذلك في سنة خمس وأربعين وتسعمائة سألته الدعاء بأمور كانت متوقفة علي شهور فنزلت من القلعة فوجدتها كلها قد قضيت، فاعلم ذلك واعمل عليه »[259] .

ويضيف الشعراوي سببا آخر لطاعة الحكام ومدارتهم : « أخذ علينا أن نتصدر لازالة

= الصلاة منذ كان عمره ثماني سنين ، وأن الله عصمه من الآفات مع أنه نشأ الابوين ، وأنه حفظ متن أبي شجاع ومتن الأجرومية ودرسها على أخيه في الريف قبل أن يهاجر إلى القاهرة . فلما هاجر إلى القاهرة حفظ من المتون ما لم يحفظه أحد من أهل عصره ، ثم صحب الأشياخ وكان له من علومهم أوفى نصيب . وفي نهاية كتاب **البحر المورود** رسالة صغيرة كتبها الشعراني عن المؤلفات التي قرأها ، وهي تمثل مراجع الثقافة في ذلك العصر ، وكذلك صنع في **لطائف المنن** ، فذكر طائفة عظيمة من المؤلفات التي درسها وقدم لنا أمتع صورة عن أساتذة القاهرة في القرن العاشر .
وانظر أيضا ن. الدين الغزي ، الكواكب ، 3 : 176 — 177 وابن العماد الحنبلي ، **شذرات** ، 8 : 372 .

(257) **التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق** ، 2 : 200.

(258) **البحر المورود** ، 292

(259) المصدر السابق ، ص 293

منكرات الولاة إلا أن كان معنا تصريف فيهم، وإلا آذونا ونفونا من بلادنا وأحوجونا إلى الاستخفاء زمانا طويلا »[260] .

وقد سار الشعراوي في هذا الطريق لسبب واضح جدا، فقد كانت له ارتباطات مع حكام عصره، وزاد ذلك في جاهه فكان أكثر الناس لا يصلون إلى الوظيفة إلا عن طريقه، وكان الحكام بدورهم يزورونه في زاويته فيلقاهم بالترحيب ويخلو بهم خلوات خاصة يدبر فيها معهم ما يشاء، فهذا هو السر إذن في كونه كان ينهي عن مقاومة الحكام ويسأل الله مع فقرائه أن يرفع عنهم « الحملات » [261] .

وبسلوكه هذا الطريق فقد أوقع الشعراوي نفسه في تناقض لا مبرر له . فقد ألح في كتبه [262] على رفع الظلم ومقاومة الطغيان ونشر العدل بين الناس، فكيف يسمح بظلم الولاة وطغيانهم ولأسباب واهية ؟

إن سياسته الموالية للولاة الأتراك توضح كل شيء . وبناء على ذلك فالاحتمال المطروح بالنسبة لاغفال ابن القاضي ذكر الشعراوي يسير في هذا الاتجاه . فمن المحتمل جدا أن يكون ابن القاضي قد اطلع على مؤلفاته عندما كان بمصر وسمع من أتباعه الشيء الكثير لكن أعرض عن ذكره لسببين :

ـــ تجنب إغضاب المنصور بذكر شخصية كانت تؤيد علنا الأتراك بمصر .

ـــ إن نزعة ابن القاضي الصوفية كانت تمنعه من أن يذكر صوفيا شهيرا بسوء، خاصة وأن الرجل آنذاك كان قد توفي (سنة 973 هـ ) وفقهه يمنعه من أن يذكر ميتا بسوء .

أما بالنسبة لصوفية الشيخ فإنه يتفق مع ابن القاضي في كثير من المسائل فهو : « رجل يؤمن بالكرامات إيمانا مطلقا ويرى الأولياء يقدرون على كل شيء . وليس من المستبعد عنده أن يعرف الولي أخبار البيوت، ومن الممكن في رأيه أن يبيع الرجل الحشيش وهو في حقيقة أمره من الأولياء، ويجوز في تصوره أن ينقل الرجل من مكة إلى مصر في مثل لمح البصر إذا دفعه أحد الواصلين . وحدثنا أن أستاذه الخواص كان يرسل أصحاب الحوائج إلى رجل كان يبيع الفجل على باب الأزهر فيقضيها لهم في الحال، وأن هذا الرجل كان لا يأكل أحد من فجله ويبدنه مرض من جذام أو برص أو غيرهما إلا شفي لساعته ، وحدث عن الشوني أحد الحمارين في قنطرة الموسكي كان معروف البركة فلا تركب حماره مومس إلا تابت ، ولا تعود للزنى أبدا ، وإن أحد

---

(260) المصدر السابق ، 271

(261) أنظر زكي مبارك ، المصدر السابق ، 2 : 219 ، هامش 1 .

(262) نذكر بالخصوص ثلاثة كتب وهي : **لواقح الانوار** ، **ولطائف المنن** ، **والبحر المورود** .

باعة الحشيش كان لا يشتري أحد منه قطعة إلا تاب عن الحشيش (لواقح الانوار، 99 ـــ 101) وحدثنا أنه اجتمع بإبليس على ساحل النيل وجادله وسمع منه أن الانسان ككفتي الميزان وقلبه كلسان الميزان (المصدر السابق ، 206)... »[263] .

ويظهر من النقول المبثوثة في كتب الشعراني أن الصوفية المصريين لعهده كانوا جميعا يقولون بالكرامات ، ويظهر كذلك أنه كان في مصر لذلك العهد طوائف من الفقهاء تنكر الكرامات ، لأنه شغل نفسه بمحاجة من ينكرون ما اختص به الأولياء [264] .

ويقول الأستاذ زكي مبارك في هذا الصدد أيضا : « وما ادعي أن الاعتقاد في الكرامات خاص بأهل مصر : فقد عقد لها الغزالي بابا في الاحياء . وإنما احكم بأن الشعراني كان أكبر ممن غرسوا هذه العقيدة في البيئات المصرية ، وإليه يرجع الفضل في توجيه الناس إلى ما في الكرامات من حدائق الخيال !

والاعتقاد في الكرامات عزاء كبير (للفقراء) : فهم يخلقون لأنفسهم دنيا من المجد الموهوم يعوضون بها ما ضاع عليهم من حظوظ الحياة .

ومن المؤكد أن هذه الوساوس لا تسود إلا في عصور الضعف السياسي والاقتصادي : حين تصبح الأمة وهي فارغة الأيدي من سلطان الجاه والمال . ومن ذلك رأينا المسلمين في عصور قوتهم لا يعرفون غير الواقع ، مع أن الصلاح كان أغلب الصفات عليهم ، ثم رأيناهم في عصور الانحطاط يصدقون كل شيء ، ويلقون زمامهم إلى كل مخلوق عساهم ينسون ما هم فيه من شظف العيش ونكد الشقاء...وخلاصة القول إن الشعراني وأصحابه وجدوا في مصر تربة خصبة فأنبتوا فيها ما شاءوا من صنوف الخيال ، وكان شيوع الشعوذة الصوفية في هذه البلاد يسير جنبا لجنب مع ما اصطفاه نصارى مصر من النحلة الارثوذكسية ، فإن اصطفاء نصارى مصر للمذهب الأرثوذكسي لم يقع إلا بفضل ما هم عليه من الضعف : لأنه مذهب مشبع بالخرافات ، والخرافات هي السند لكل مخلوق ضعيف » [265] .

(263) أنظر زكي مبارك ، المصدر السابق ، 2 : 204

(264) المصدر السابق ، 2 : 205 .

(265) المصدر السابق ، 2 : 206 ـــ 207 .

# تقويم عام لشخصية
# ابن القاضي

## 1 ـــ ابن القاضي المؤرخ :

إن ابن القاضي باعتباره فقيها ومحدثا كان عليه أن يستعمل التاريخ إلى حد كبير ، يقول محمد السخاوي في هذا الصدد : « ...فعلم التاريخ فن من فنون الحديث النبوي ، وزين تقربه العيون ، حيث سلك فيه المنهج القويم المستوي ، بل وقعه من الدين عظيم ، ونفعه متين في الشرع ، بشهرته غنى عن مزيد البيان والتفهيم ، إذ به يظهر تزييف مدعي اللقا ، وبيان ما صدر منه من التحريف في الارتقا ، إذ كان اختل عقله أو اختلط ، ولم يجاوز بلدته التي لم يدخلها الطالب قط ، وتحفظ به الأنساب المترتب عليها صلة الرحم ، والمتسبب عنها الميراث والكفاءة حسبما قرر في محله وفهم . وكذا تعلم منه آجال الحيوف ، واختلاف النقود والأوقاف ، التي ينشأ عنها من الاستحقاق ما هو معهود ، وينتفع به في الاطلاع على أخبار العلماء والزهاد والفضلاء والملوك والأمراء والنبلاء وسيرهم ومآثرهم ، في حربهم وسلمهم ، وما أبقى الدهر من فضائلهم أو رذائلهم ، ولا يسمع أن أبادهم الحدثان ، وأبلى جديدهم الأوان ، حيث تتبع الأمور الحسنة من آثارهم ، ولا يسمع منهم فيما تنفر عنهم العقول المستحسنة من أخبارهم . ويعتبر بما فيه من المواعظ النافعة واللطائف المفيدة ... »(266) .

ومن موقعه أيضا كفقيه ومحدث استعمل أساليب علوم الحديث ومصطلحه للتثبت من الخبر (267) ، وهذا هو الطابع الذي نجده في أغلبية التراجم التي عقدها لاعلام عصره ، فهو كثيرا ما يستعمل عبارة (رجل ثقة) ، (حدثني بعض من أثق به) ، (رجل لا يخاف في الله لومة لائم) ، (رجل من أهل الورع) ، مما يدل بالفعل على أنه يتحرى قبل أن يسجل ، وهذا بالفعل ما شهد له به عدد من المؤرخين ، نذكر على سبيل المثال سليمان الحوات الذي يقول : « ...كان حافظا ضابطا ، مؤرخا اخباريا ثقة ... »(268) ، وادريس الفضيلي الذي

---

(266) أنظر م. السخاوي ، **التبر المسبوك** ، ص 2 .
(267) أنظر المزيد من الايضاح عند ع. الله العروي ، **العرب والفكر التاريخي** ، ص 46 ، و م. زنيبر ، « ابن الخطيب والتجديد في المنهج التاريخي » مقال بمجلة **كلية الآداب** بالرباط ، العدد الثاني ، لسنة 1977 ، ص 85 ـــ 87 .
(268) **البدور الضاوية** ، 67 .

يقول : « ...الضابط المتقن ، المؤرخ النسابة...كان صاحب الترجمة أوحد دهره وفريد عصره ... »(269) ، ومحمد الكتاني الذي يقول : « ...وكان حافظا ضابطا محققا مؤرخا اخباريا ثقة ... »(270) .

غير أن القادري ينفرد برأي خاص ، فهو من جهة يقر ما قاله الآخرون : « ... وكان صاحب الترجمة إماما مؤرخا ضابطا واعية متحريا معبرا علامة دراكة مشاركا ... »(271) ، ومن جهة أخرى يأخذ على ابن القاضي غلوه واطراءه في مدح المنصور إذ يقول — وهو بصدد الحديث عن درة الحجال — : « له غلو واطراء في صاحب الترجمة (المنصور) ، فلذلك تركنا من كلامه ما الاولى تركه ... »(272) .

ونضيف إلى ملاحظة القادري ملاحظات أخرى منها :

— عدم العناية بالناحية التنظيمية فهو في درة الحجال — مثلا — لم يلتزم بترتيب المترجمين ترتيبا دقيقا لا بالسنوات ولا بالاسماء ، وإنما أورد الاعلام تحت عنوان الحرف الواحد كيفما اتفق ، فلم يصنع صنيع ابن حجر في الدرر الكامنة ، ولا صنيع السخاوي في الضوء اللامع ، حيث رتبا الاعلام بحسب الحروف والآباء والأجداد ترتيبا دقيقا يسهل على الباحثين العثور على ما يحتاجونه بسهولة . ولم يفعل كما فعل الذهبي في العبر وابن العماد في الشذرات حيث رتبا التراجم في كتابيها بحسب سنوات الوفاة . وقد اعترف هو بذلك ثم اعتذر لنفسه حيث قال : « ...ولم أرتبه على ترتيب السنين ، بل كيفما اتفق في الحرف ، لأني جمعته من مقيداتي ، وعسر علي جمع ذلك على السنين ... »(273) .

— عدم التوسع في ذكر أخبار بعض الشخصيات المهمة التي ترجم لها ، فهو لا يذكر لها أحيانا إلا سنة الولادة والوفاة ، والمناصب إن كانت لها مناصب .

— عدم إبداء الرأي فيما يكتب ، فهو يسرد الحدث كما هو ، ويترك للقاريء مهمة استخلاص ما يريد أن يستخلصه عن طريق اجتهاده .

— عدم ذكر مصادره ، ومن المعلوم أن المصادر التي اعتمدها نوعان : إما موجودة أو مفقودة ، فبالنسبة للمصادر الموجودة فلا يطرح هناك مشكل ما دام يسهل الرجوع إليها ، أما

(269) **الدرر البهية** ، 2 : 352 .
(270) **سلوة الانفاس** ، 3 : 134 .
(271) **نشر المثاني** ، 1 : 214
(272) المصدر السابق ، 1 : 104 .
(273) **درة الحجال** ، 1 : 6 .

بالنسبة للمصادر المفقودة فعدم ذكرها يطرح معه مشكلا خطيرا ، ذلك أن عدم ذكرها يضيع علينا حتى فرصة معرفتها كمصدر تاريخي استفاد منه مؤرخنا ، وعلى كل فإن النصوص التي نقلها من هذه المصادر المفقودة ما زالت تفيد الباحثين إلى يومنا هذا في سد كثير من الثغرات .

— إن التراجم المهمة التي عقدها للاعلام هي التراجم التي عقدها لعلماء عصره ، فهو يعتبر حجة في هذا الميدان .

وعلى كل ومهما قدمنا من ملاحظات حول ما كتبه الرجل ، فإننا لا يجب أن نحمل الرجل ما لا يستطيع تحمله ، فلا ننسى أن ابن القاضي لا يعدو إلا أن يكون فقيها محدثا في المقام الأول ، وبالتالي فهو ليس بالمؤرخ الذي يستطيع أن يغوص إلى أعماق الحدث التاريخي لاستخراج كنوزه ، ولا بالاديب البارع الذي يستطيع أن يصوغ هذا الحدث في شكل يجذب إليه القارىء بقوة ، وإن حق لنا أن نقر له بالبراعة فإننا نقرها له في ميدان واحد هو ميدان الفقه والفرائض ، وهذا ما جعله يحتل مكانا بارزا بين علماء عصره .

### 2 — ابن القاضي العالم :

أجمع معاصره على أنه كان بالفعل شخصية علمية بارزة لها مكانتها في الوسط العلمي إبان عصر المنصور ، رغم تواجد عدد مهم من ألمع الشخصيات التي لم يكن أبدا من السهل منافستها ولا حتى التفكير في محاولة تجاوزها .

وقد عبر عن هذا الرأي من المعاصرين له عبد العزيز الفشتالي في **المناهل** [274] ، وأحمد المقري الذي خصص له 60 صفحة من كتابه **روضة الآس** ، إذ قال في جملة ما قال : « الشيخ الفقيه القاضي ، إمام أهل الفرائض والحساب ، ذو الأدب المنساب، الذي قضته غرماء العلوم ديونها حق التقاضي ، أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي العافية الشهير بابن القاضي ، الملقب شهاب الدين . من أهل فاس ، لا يجاري في علم افرائض والحساب والهندسة ، إن بنى جدارا من ذلك لم يقدر أحد أن يهدم ما أسسه ، إلى ما انضاف إلى ذلك من الفقه والنحو والأصلين والعروض والادب ... وصاحب الترجمة — أسماه الله — من ذرية علماء أعلام مشهورين بالمغرب ... لقيته — حفظه الله — بفاس ، واستفدت من علومه ، واختبرت منه خير رجل ، وله — حفظه الله — في الكرم والتواضع ولين الجانب محل مشهور ... » [275] ، ومن المؤرخين اللاحقين محمد الافراني الذي يقول : « ...وكان — رحمه الله — إماما في جميع الفنون خصوصا علم الحساب والفرائض ، فإنه كما قال سيدي أحمد بابا السوداني : انفرد بمعرفتها شرقا

---

(274) ص 153 — 154 .
(275) ص 240 .

وغربا ، يتصرف فيها تصرف الحوت في البحر ... » .

والملاحظة الاساسية في هذه الشخصية هي الرغبة اللامتناهية في العلم ، فنراه يسافر من منطقة إلى أخرى داخل المغرب وخارجه ، يحاور ويناظر عددا من الشيوخ . والشيخ في نظره ليس مجرد أستاذ يلقن مجموعة من المعارف للطلاب ، بل هو الملجأ الأخير في عالم يسود فيه كثير من الضلال والفساد ، فتتجاوز العلاقة هنا إذن علاقة استاذ بطالب ولكنها تصبح بمثابة علاقة مريد بصوفي ، ومن هنا نفهم سر ذكره لعدد من الشيوخ في **المنتقى** ، بل وتأليفه **فهرسا** في ذلك . وقد أخذ ابن القاضي بالفعل عددا من المعارف وأتقن بعضها اتقانا كبيرا ، نذكر — على سبيل المثال — الفقه الذي حاول أن يخرجه من أطار التعقيد والغموض إلى إطار الوضوح بالتخلي عن كل ما من شأنه أن يعوق عملية الفهم . كما أنه برع في الرياضيات ، وهي مبادرة ايجابية من فقيه وكان بالامكان أن تتطور ، لكن كان دائما يقف في النقطة التي وقف فيها من سبقوه ، فقد ظل دائما يعتمد كتب الرياضيات القديمة من أمثال : كتاب المجسطي في الهندسة[277] والجغميني في الهيئة[278] وكتاب اقليدس [279] الخ ... والواقع أن الأمر لا يتعلق بالرياضيات فقط بل يتعلق بسائر العلوم التي أخذها ومن ضمنها الفقه ، وهكذا إذا طرح تساؤل هنا فيجب أن يكون تساؤلا عاما على الشكل الآتي : لماذا لم يحاول ابن القاضي تطوير معارفه ؟

لا شك أنه إطلع في سفره عما وصله الاتراك ، ولا شك أنه خبر قوة المسيحيين عندما أسر بمالطا ، كما أنه لا شك أنه سمع بقوة الاسبان وغيرهم من الأوروبيين عن طريق المورسكيين الموجودين آنذاك بكثرة في المغرب ، فَلِمَ لم يبحث ابن القاضي إذن عن موطن الضعف فيقويه وعن موطن الاعوجاج فيقومه ؟

---

(276) الصفوة ، 77 .

(277) **المجسطي** Almageste ، ومعناها الأكبر ، أقدم كتاب في الفلك وصل إلينا للمفكر والجغرافي اليوناني المشهور بطليمس Ptolémé . وقد عربه عن اليونانية حنين بن اسحاق المترجم المشهور ، المتوفى سنة 620 هـ .
أنظر :
أ. بن خلكان ، **وفيات الاعيان** ، 2 : 217 — 218 ، وخ. الدين الزركلي ، **الاعلام** ، 2 : 325 ، وحاجي خليفة ، **كشف الظنون** ، 2 : 1594 .

(278) أنظر ترجمة الجغميني عند :
حاجي خليفة ، **كشف الظنون** ، 2 : 1819 — 1820 ، واسماعيل البغدادي ، **هدية العارفين** ، 2 : 410 ، وخ. الدين الزركلي ، **الاعلام** ، 8 : 59 — 60 .
وقد ترجم كتاب الجغميني في الهيئة إلى الألمانية ، ونشر في مجلة جمعيتها الشرقية .

(279) اقليدس (القرن الثالث قبل الميلاد) : رياضي يوناني ، علم الهندسة في الاسكندرية على أيام بطليموس الأول ، ووضع مبادىء الهندسة المسطحة .

إن ابن القاضي (الفاسي الدار) كان يعاني نوعين من الضغوط ، فقد كان يعاني ضغط الاجيال السابقة عن طريق التربية والتكوين العلمي ، كما كان يعاني ضغط المجتمع المعاصر من جهات متعددة .

**أ ــ تربيته وتكوينه العلمي :**

إن ابن القاضي عندما صار طالبا وجد أمامه علما محفوظا ، مثبتا منذ عدة قرون في جملة من الكتب القديمة معظمها من المختصرات والانظام والشروح والحواشي المؤلفة فيما بين القرنين الهجريين السادس والتاسع مما ألفه الأندلسيون والمغاربة ، أمثال أبي محمد الشاطبي ، والكلاعي البلنسي ، وابن عاصم الغرناطي ، وابن عرفة التونسي ، ومحمد السنوسي التلمساني ، وابن بري التازي وابن البناء المراكشي ، أو مما دخل إلى المغرب الاسلامي من مؤلفات المشارقة ، أمثال ابن الحاجب الاسكندري ، وابن مالك الدمشقي ، وابن هشام المصري ، وخليل الجندي ، وابن حجر العسقلاني ، وجلال الدين السيوطي [280] ، ووجد أمامه مشايخ يؤكدون له باستمرار أن العلم هو معرفة ما في هذه الكتب المختلفة بدون زيادة ولا نقصان وأن دوره ينحصر في حفظها وتبليغها للغير حينما يصبح بدوره عالما . إن التربية التيترباها ابن القاضي وغيره كونت فيهم طبيعة ثانوية وهي التخلي تلقائيا ونهائيا عن كل ما يتجاوز الحدود المرسومة والوعي بكل المحظورات ، فهي تربية تنبني على مقاومة النزعات النفسية العميقة وتقوية الشعور بالذنب والخطيئة [281] .

**ب ــ مجتمعه :**

كان ابن القاضي يعاني ضغط مجتمعه من ثلاثة محاور :

المحور الأول : أسرته بصورتها القديمة التي لا تنحصر في وحدة محدودة ، بل هو مسؤول عن الأسرة بأوسع معناها ومسؤول عن إسمها . يمثلها في كل حركاته وسكناته ومن دون شك أن الأسرة بفاس كانت لها تقاليد والتزامات قد لا توجد إلا في أماكن معدودة من المغرب كما أن المجتمع الفاسي بتركيبه وعقليته ونوع حياته أذكى في النفوس الشعور بالأسرة كما تدل على ذلك التآليف الخاصة بالموضوع [282] .

المحور الثاني : مجتمعه الفاسي : الذي كان يمثل بتنظيماته المهنية واعتزازه بماضيه وقيمه

---

(280) أنظر المزيد من الايضاح عند م. حجي ، **الحركة الفكرية** ، 1 : 136 ــ 137 ، و ل . بروفنسال ، **مؤرخو الشرفاء** ، 30 ــ 32 .

(281) أنظر م. زنيبر ، الصورة التاريخية للمثقف التقليدي المغربي ، مقال بمجلة **كلية الآداب** بالرباط ، العدد الثالث والرابع لسنة 1978 ، ص 100 .

(282) نفس المصدر والصفحة .

وحدة اجتماعية متماسكة ، فقد كان يعيش في ظل الملحمة الادريسية ويعظم الأشراف ويقدس الأولياء ويحترم العلماء الذين تحفل بهم أروقة القرويين ، وفي نفس الوقت يقبل على الدنيا بصدر سليم فيغامر في كل صنوف التكسب من تجارة وصناعة ومناصب قضائية وعلمية وسياسية . مجتمع يشخص حضارة بلغت حدها من الرقة والتأنق في كل شيء مما يدفعه إلى نوع من الاعتداد بشخصيته ، ولكنه مع ذلك مجتمع محافظ في عمقه يمارس ضغطا لا متناهيا على كل الذين يعيشون بين أحضانه (283) .

ج ــ **الوسط العلمي** : الذي يكون طائفة رئيسية في هذا المجتمع لها امتيازاتها العريقة ، ومن جملتها حق تنصيب الملوك والفتوى في كل النوازل العارضة في حياة البلاد وتوجيه الرأي العام في المسائل الدينية والدنيوية في بعض الأحيان ، وهذه الطائفة هي التي تكون مستقبل الطالب ، وتحكم له أو عليه . ولهذا فإن المشايخ يلعبون فيها دور الزعامة ويظل الطالب في قبضتهم حتى ترسخ قدمه في العلم . ولكن هذا التنظيم الهرمي ليس من شأنه أن يسير دائما مع مقاييس الاستحقاق . بل إن أول علم يتعين على الطالب أن يتحلى به كان هو علم السلوك للمحافظة على أحسن العلاقات مع أولئك المشايخ الذين يسلمون الاجازة المنمقة لتلامذتهم (284) .

وعلى كل فقد انقطع ابن القاضي عن الوظيف بعد وفاة المنصور سنة 1012 هـ ، واتجه إلى الزاوية الدلائية بالأطلس المتوسط ، وأقام هناك ثماني سنوات قضاها في التدريس ملحوظا بعين الاجلال عند الدلائيين ، وأخذ عنه في هذه الفترة محمد بن أبي بكر الدلائي واخوته الأدب والحساب والتوقيت وغيرها ، وفي ذلك يقول سليمان الحوات : « ...وكان سافر لزاوية الشيخ العارف الكبير سيدي أبي بكر الدلائي ــ رضي الله عنه ــ فأقام عنده مكرما يقرىء بنيه مدة ، فانتفعوا به غاية الانتفاع ولا سيما أكبرهم سيدي محمد ... »(285) ، ولا نعرف المدة التي قضاها في الزاوية الدلائية ولا تاريخ رجوعه نهائيا إلى فاس . وقد قضى ابن القاضي سنوات عمره الأخيرة مدرسا **لصحيح** الامام البخاري بجامع الابارين بفاس أو القرويين ، إلى أن أدركته الوفاة بمدينته يوم الجمعة سادس شعبان عام 1025 هـ /19 غشت عام 1616، ودفن بباب عجيسة بعد أن صلى عليه إمام القرويين آنذاك أبو العباس المقري صاحب نفح الطيب (286).

هذه إذن ملامح بارزة من شخصية ابن القاضي تناولت مقوماته الذاتية ومؤلفاته ، وحاولنا أن نبرز من خلالها مدى الاشعاع الذي انطلق منها ليملأ الساحة الفكرية في عصر المنصور ،

---

(283) نفس المصدر والصفحة .
(284) نفس المصدر والصفحة .
(285) **البدور الضاوية** ، 67 .
(286) أنظر م. الكتاني ، **سلوة الانفاس** ، 3 : 135 .

فكانت بحق نموذجا من نماذج الفكر المغربي الأصيل ، وسوف ندرك هذه الحقيقة بصفة أكثر عندما نتناول بالدراسة والتحليل أهم مؤلفاته على الاطلاق : **المنتقى المقصور ، على مآثر الخليفة المنصور** .

# الفصل الثاني :

## المنتقى المقصور
## على
## مآثر الخليفة المنصور

اعتمدنا على ثلاث نسخ في تحقيق المنتقى ، وهي النسخ التي استطعنا العثور عليها [1] بعد عملية بحث دقيقة في مختلف مكتبات المغرب العامة والخاصة ، وعند بعض الشخصيات العلمية التي تعتني بجمع المخطوطات ، وقمنا أيضا بجولة في اسبانيا في أهم مكتباتها العامة ، لكن لم نعثر على أي شيء في هذا الميدان .

أما النسخ التي اعتمدنا عليها في التحقيق فهي :

---

(1) هناك نسخة أخرى بالمكتبة العامة بالرباط عدد 764 د ، ولكن بها تشويه كبير مع أكل أرضة في جميع صفحاتها ، بحيث إنه يتعذر قراءتها تعذرا مطلقا ، وبالتالي يمكن اعتبارها في حكم المفقود ما دام الموجود منها مجرد أوراق لا غير .

ونرى من الفائدة العلمية إيراد بعض المعلومات عنها من خلال ما كتبه عنها الباحثون الذين اطلعوا عليها ( عندما كانت في حالة جيدة ) في **فهرس المخطوطات العربية** بالرباط ، لعلوش وعبد الله الرجراجي ، 2 : 125 ، ما يلي : « بها 157 ورقة ، مسطرتها 16 ، مقياسها 157/215 ، كمل من نسخها يوم الأربعاء 6 شعبان عام 1167 هـ على يد أحمد بن أبي القاسم بن عبد الرحمان بن القاضي ، خط مغربي لا بأس به » .

وكتب عنها الأستاذ محمد حجي الذي اطلع عليها سنة 1966 في مقال له بمجلة **دعوة الحق** ، السنة العاشرة ، نونبر 1966 العدد الأول ، ص 100 وما بعدها : « ...تتفق مخطوطات الرباط الثلاث ( ز 3197 ، 1153 ، 764 د ) في محتوى المقدمة والخاتمة...وتقف المخطوطة رقم 764 د في الباب الخامس عشر ، وليس فيها بعده إلا الخاتمة » .

وهناك نسخة أخرى مسجلة في نفس الفهرس ، 2 : 125 ، تحت رقم 48 د ، وهي من المخطوطات التي ضاعت من المكتبة العامة بالرباط أثناء فترة الحماية الفرنسية بالمغرب .

— وقد ذكر ليفي بروفنسال في **فهرس المخطوطات العربية بالرباط** الصادر سنة 1921 ، ص 127 ، أنها تتكون من عشرين بابا على الشكل الآتي :

المقدمة : في نسبه الزاهر ، وحسبه الشريف الظاهر . =

ــ نسخة المكتبة الملكية بالرباط عدد 3197 ز ، وهي التي اعتمدناها أساسا للتحقيق [2] .

ــ نسخة ثانية بنفس المكتبة عدد 1153 .

---

= الباب الأول : في حسن خلقه وعقله ، وكمال خلقه وفضله .
الباب الثاني : في محافظته على التكاليف الشرعية ، والأعمال البدنية ، والاعتقادات الأشعرية .
الباب الثالث : في عدله في رعيته وقيامه (كذا) .
الباب الرابع : في تعظيم الميلاد النبوي ، وأبناء عمه من النسب العلوي .
الباب الخامس : في رعايته لأهل العلم ، ومجاورته لأهل الحلم .
الباب السادس : في حسن ظنه بالله الكريم ، وقوة رجائه في فضله الجسيم .
الباب السابع : في نظره في أمور رعيته وأحوالها .
الباب الثامن : في علمه وحلمه وسخائه ، وكرمه وبذله المال في طاعة ربه وحسن ثنائه .
الباب التاسع : في صبره الجميل ومقابلته (كذا) .
الباب العاشر : في شدة حيائه ، الذي هو من صفات ذاته وبهائه .
الباب الحادي عشر : في بره بوالدته .
الباب الثاني عشر : في عظيم فوائده .
الباب الثالث عشر : في ملاحظته لأهل العلم وذويه .
الباب الرابع عشر : فيما يؤثره من العلوم النافعة .
الباب الخامس عشر : في طهارة مجالسه العظيمة .
الباب السادس عشر : في قبوله المعذرة ، وعفوه بعد المعذرة (كذا) .
الباب السابع عشر :
الباب الثامن عشر :
الباب التاسع عشر : فيما صرفت فيه همته العلية .
الباب العشرون : في عظيم سطوته .

وكتب في آخرها أنها نسخت في 9رجب سنة 23/1333 ماي 1915 من نسخة أخرى كتبت في 6 شعبان لسنة 2/1167 ماي 1754 .

(2) كانت هذه النسخة في ملك نقيب الشرفاء العلويين بمكناس المؤرخ عبد الرحمان بن زيدان (ت 1946/1365) . وقد نقلت إلى المكتبة الملكية بالرباط عندما انتقلت مكتبته إلى هناك ضمن إطار المجموعة الزيدانية لذلك سوف نرمز لها بحرف « ز » .

ـــ والنسخة الثالثة توجد بالمكتبة العامة بالرباط عدد 1059 ج [3] . وسنتعرض خلال بحثنا في هذا الفصل ، المتعلق **بالمنتقى** ، الى عدة نقط تساعدنا على أخذ فكرة واضحة ودقيقة عن المخطوط ، شكلا ومحتوى ، وتتناول هذه النقط المباحث الاتية :

ـــ المبحث الاول : محاولات نشر الكتاب
ـــ المبحث الثاني : الباعث على التأليف
ـــ المبحث الثالث : تاريخ التأليف
ـــ المبحث الرابع : اصالة المخطوط
ـــ المبحث الخامس : اختلاف النسخ
ـــ المبحث السادس : مصادر **المنتقى**
ـــ المبحث السابع : المشاكل التي يطرحها النص
ـــ المبحث الثامن : قيمة **المنتقى** الأدبية
ـــ المبحث التاسع : قيمة المنتقى التاريخية
ـــ المبحث العاشر : النقد التاريخي .

## أولا : محاولات نشر الكتـــاب :

ان الباحث ليبدي دهشته حقا لعدم نشر **المنتقى** منذ وقت بعيد ، ولو على الطباعة الحجرية ، خاصة وان كتبا اقل قيمة بكثير منه طبعت طباعة حجرية ثم أعيد طبعها طباعة عصرية في حين ظل كتابنا هذا في طي النسيان ، فما هي أسباب ذلك ياترى ؟ .

---

(3) كانت من جملة الكتب التي حجزت من خزانة الكلاوي بمراكش إذ إنه بعد استقلال المغرب صدر الحكم بمصادرة أملاك بعض المتعاونين مع الاستعمار الذين تآمروا ضد المغفور له محمد الخامس وعندما استولت مصلحة الأملاك المخزنية على ممتلكاتهم تبرعت بما استولت عليه من كتبهم إلى الخزانة العامة ، وهكذا انتقلت إليها مخطوطات كل من الباشا التهامي الكلاوي (ولذلك سوف نرمز له بحرف ج) والشيخ عبد الحي الكتاني ، والفقيه محمد الحجري ، والمصدر الأعظم محمد المقري .

وقد كانت هذه النسخة في الأصل في ملك الأستاذ محمد بن عثمان المسفيوي ( ت 1364 هـ ) الرئيس السابق لكلية ابن يوسف بمراكش ، وقد انتسخها هو بدوره من نسخة من خزانة الشيخ أحمد الناصري ( مؤلف **الاستقصا**) . وقد اتصلنا في شأن هذه النسخة بالاستاذ جعفر الناصري ( ابن مؤلف **الاستقصا** )فأخبرنا أن أخاه محمد الناصري كان قد أعارها لمحمد بن عثمان المسفيوي ، وعند وفاته حاول استرجاعها من ذويه لكن بدون جدوى .

لقد أدرك المهتمون بالدراسات التاريخية بالفعل قيمة **المنتقى** العلمية وحرصوا على طبعة منذ أواخر القرن 19 ، وشرع بالفعل في طبعه طباعة حجرية وانجز منه 16 ورقة [4] ، ولكن الطبع توقف . ولعل عدم نشره يرجع الى الأسباب الآتية :

السبب الاول : يعود **للمنتقى** نفسه ، ذلك أنه مليء بالبياض والبتر والتصحيف ، مما يجعل الاستفادة منه ضئيلة أو متعذرة ان لم تكن مدعاة لتشويش الافكار ، وقلب الحقائق وهذا ما واجهنا نحن بالفعل في تحقيقنا .

السبب الثاني : ان اغلبية المخطوط لا توجد الا في نسخة واحدة هي نسخة « ز » ، ولا يخفى ما في تحقيق الكتاب على نسخة واحدة من أخطار قد تؤدي احيانا الى نتائج هي غير النتائج التي هدف اليها المؤلف .

السبب الثالث : ان **المنتقى** مليء بالطرف الادبية والقواعد اللغوية والاحاديث النبوية بالاضافة الى الحوادث التاريخية التي تغطي فترة تاريخية طويلة من تاريخ المغرب ، بل وتتجاوز ذلك الى المشرق العربي وتركيا ، ولا شك أن مثل هذا النوع يفرض على المحقق ان يكون على اطلاع واسع على مختلف المصادر الادبية واللغوية والدينية بالاضافة الى خبرته التاريخية والالمام بجوانبها الخفية .

وفي الاخير نشير الى أن محمد بن عثمان ، الرئيس السابق لكلية ابن يوسف بمراكش ، كان يعتزم نشر هذا الكتاب ــ وهو الذي كانت بحوزته نسخته « خ » قبل أن تصير الى خزانة الكلاوي ــ اذ كتب النسخة كتابة واضحة اعدادا للنشر ولكنها نسخة بعيدة كل البعد أن تعطي لنا صورة حقيقية عن **المنتقى** ، بل يكفي ما فيها من الحذف ، والتقديم والتأخير ، والاخطاء ، والنقص الكبير في أبوابها أن نستبعدها كأساس لتحقيق المخطوط ، وعن هذه النسخة قال الاستاذ محمد حجي وهو بصدد الحديث عنها : « ... ولعل من حسن الحظ أن لم ير النور هذا المشروع الذي لم يعد اعدادا مناسبا ... ان ذلك لا يعني أني أعارض في نشر هذا الكتاب أو أحاول التنقيص من أهميته أو تتبيط الهمم ، بل بالعكس أرجوا صادقا أن يتيسر نشره وسائر ما تزخر به خزائننا العلمية من تراث خالد . لكن أرى من الضروري قبل كل شيء أن يصرف مجهود

---

(4) أنظر ع . السلام بن سودة ، **دليل** ، 1 : 162 .

وقد ذكر ادريس بن الماحي في **قائمة المطبوعات المغربية** ، 51 ، أن **المنتقى** طبعت منه 12 ورقة .

ملاحظة :

لم نقف على هذا القسم المطبوع لنتأكد من عدد الصفحات المطبوع بالضبط هل هو 16 أم 12 ؟

جدي في التنقيب عن نسخ اخرى منه في بعض الخزائن الخاصة او المكتبات العامة بالخارج وتبذل العناية اللازمة للمقابلة والتصحيح والتلفيق والى الرجوع الى المظان من الكتب المعاصرة او القريبة من عهد المؤلف للاستعانة بما فيها من ارشارات أو اعتراضات او نقول لمحاولة اخراج نسخة كاملة او قريبة من الكمال ....» [5] .

**ثانيا : الباعث على التأليف :**

من الواضح ان الكتاب ألف كاعتراف بالجميل للمنصور على تخليصه من الاسر .

ونجد هذا في كل صفحات الكتاب تقريبا ، فلا حاجة اذن الى تأكيده . ولم يقتصر الأمر على **المنتقى** ، بل انه اهدى أغلب كتبه التي ألفها فيما بعد للمنصور . ولصفة الاهداء هذه اثر كبير على **المنتقى** لما امتاز به من الدقة والجودة ، اذ من المعلوم أن المنصور لم يكن فقط راعيا للعلماء بل كان مشاركا لهم ، بل متفوقا عليهم أحيانا ، فمن الطبيعي اذن أن يؤلف ابن القاضي كتابا في مستوى هذا الملك العالم .

**ثالثا : تاريخ التأليف**

لا نعرف بالضبط الوقت الذي بدأ فيه كتابة **المنتقى** غير اننا نستطيع أن نقول انه انتهى منه سنة 998 هـ ، اذ انها آخر سنة يذكرها فيه ، ثم انه ذكر في **درة الحجال** ما يأتي : «ولما كنت قبل وضعت تأليفا وسميته **بالمنتقى المقصور ، على مآثر الخليفة أبي العباس المنصور** ، الشريف الحسني ، واستطردت فيه ذكر بعض الفضلاء ، ومحاسن بعض النبلاء ، وضاق عن استيفائهم تعيينا ، وعن حصرهم تبيينا ، فاحتجت لجمع هذا لأذكر من حضرني من الأعيان ، الذين لهم فضل قد شهد به العيان ... وكان أول ابتدائي لهذا التأليف في أوائل رجب عام 999 هـ» [6] .

وهكذا يتضح أن التأليف كان خلال الثلاث سنوات التي اعقبت افتكاكه من الاسر ، أي ما بين سنتي 995 هـ 998 هـ .

**رابعا : أصالة المخطوط :**

لا نتوفر على النسخة الاصلية أو على الاقل على نسخة اطلع عليها ابن القاضي ، لخلو النسخ المتوفرة من أية اشارة الى ذلك ، ونظرا للبياض ، والبتر ، والتصحيف ، والتحريف ، بل

---

(5) مقال بمجلة **دعوة الحق** ، السنة العاشرة العدد الأول ، نونبر 1966 ، ص 101 .
(6) أنظر **درة الحجال** ، 1 : 4 ـ 5 .

وفقدان ثلاثة أبواب كاملة ، مما يؤكد على أنها منقولة عن نسخ ثم ان بعضها مسجل عليه ما يعتقد انه اسم الناسخ وتاريخ النسخ .

**خامسا : اختلاف النسخ :**

تتفق كل من نسختي « ز » و « م » اتفاقا يكاد يكون كليا في المقدمة والخاتمة ومحتوى الابواب ، والاختلاف الموجود بينهما يتعلق فقط بتغيير بسيط في بعض كلمات العناوين ، وأرقام الابواب وعددها ، بحيث لا يوجد في « م » الا 19 باب ، بالاضافة الى زيادات مهمة تمتاز بها « ز » عن « م » .

أما بالنسبة لنسخة « ج » فهي تختلف اختلافا يكاد يكون كليا من حيث المقدمة والخاتمة ، كما تختلف عن « ز » بالحدف الكبير الموجود في الأبواب الا 18 بابا .

ولكي يتسنى لنا الوقوف على حقيقة اختلاف هذه النسخ سوف نتعرض لكل نسخة على حدة لنتمكن من أخذ فكرة واضحة ودقيقة عن هذا الاختلاف .

**1 ـ نسخة «ز» :**

سبق ان قلنا انها النسخة التي اعتمدناها أساس للتحقيق لانها الأقرب الى الكمال ، رغم أنها تفتقد ثلاثة أبواب كما سنلاحظ فيما بعد .

**أ ـ وصف النسخة :**

ـ مقياسها : 22 سنتم طولا ، و 17 سنتم عرضا .

ـ مسطرتها : 26 سطرا في الصفحة في المتوسط .

ـ عدد كلمات السطر : تسع كلمات في المتوسط .

ـ خطها : خط مغربي دقيق .

ـ صفحاتها : 359 صفحة .

اسم الناسخ وتاريخ النسخ :

كتب في آخرها ما يأتي : « الحمد لله زادت لنا صبية هي فاطمة بنت السيد عبد الله بن أحمد بن ناصر عمر في يوم الاحد الثاني والعشرين من شهر الله المبارك رمضان المعظم عام احدى وتسعين ومائة وألف .

ولعلنا نستطيع أن نستخلص من هذا اسم الناسخ وتاريخ النسخ

## ب ـــ تصميم النسخة :

المقدمة : في ذكر نسبه الطاهر ، وحسبه الشريف الظاهر .

الفصل الاول : في حقيقة الخلاف وشروطها .

الفصل الثاني : في فضل الامانة .

الفصل الثالث : في وجوب طاعته .

الفصل الرابع : في حكم غريبة ونكت عجيبة .

تشتمل على آداب الرعية مع الملك .

الفصل الخامس : فيما يجب على الخليفة

والابواب ستة وعشرون :

الباب الاول : في حسن خلقه ، وعقله ، وكمال خلقه .

الباب الثاني : في محافظته على التكاليف الشرعية ، والاعمال البدنية ، والاعتقادات الاشعرية .

الباب الثالث : في عدله في رعيته ، وقيامه بشريعة جده محمد وسنته .

الباب الرابع : في تعظيمه الميلاد النبوي ، وأبناء عمه من النسب العلوي .

الباب الخامس : في رعايته لاهل الصلاح .

الباب السادس : في حسن ظنه بالله تعالى .

الباب السابع : في نظره في أمور رعيته .

الباب الثامن : في حلمه وكرمه .

الباب التاسع : في صبره ، ومقابلة الاساءة بالاحسان .

الباب العاشر : في حيائه .

الباب الحادي عشر : في بره بوالدته .

الباب الثاني عشر : في مراعاته لاهل ود والده .

الباب الثالث عشر : في تعظيمه العلم الشريف ، النافع المنيف .

الباب الرابع عشر : فيما يؤثره من العلوم .

الباب الخامس عشر : في طهارة مجالسه من الغيبة والنميمة .

الباب السادس عشر : في اقالته العثرات .

الباب السابع عشر : في قبوله المعذرة .

الباب االثامن عشر : في قبوله الشفاعات .

الباب التاسع عشر : في مجازاته على الهدية [7] .

الباب العشرون : في توفيقه للاستخارة [8] .

الباب الحادي والعشرون : في ذكر كتبه [9] .

الباب الثاني والعشرون : في ذكر نظمه .

الباب الثالث والعشرون : في غزوته .

الباب الرابع والعشرون : في ذكر فقهاء عصره .

الباب الخامس والعشرون : في تمهيد الطرق .

الباب السادس والعشرون : في عظيم سلطنته .

الخاتمة : في ذكر نكت غريبة ، وطرف بديعة عجيبة .

## 2 ــ نسخــة « م »

### أ ــ وصف النسخة :

مقياسها : 26 سنتم طولا ، و20 سنتم عرضا .

مسطرتها : 24 سطرا في كل صفحة في المتوسط .

عدد كلمات السطر : تسع كلمات في المتوسط .

---

(7) مفقود من « ز » و « م » و « ج » والنسخ الثلاث المذكورة هي النسخ المتوفرة لدينا لحد الساعة .
(8) مفقود من « ز » و « م » و « ج » ، والنسخ الثلاث المذكورة هي النسخ المتوفر لدينا لحد الساعة .
(9) مفقود من « ز » و « م » و « ج » والنسخ الثلاث المذكورة هي النسخ المتوفرة لدينا لحد الساعة .

عدد صفحاتها : 202 صفحة

اسم الناسخ وتاريخ النسخ :

كتب في آخر النسخة ما يأتي :« كمل المنتقى المقصور ، على مآثر الخليفة المنصور ، بحمد الله تعالى وحسن عونه ، وتوفيقه الجميل ويمنه ، وذلك صبيحة يوم الأحد الحادي والعشرين من المحرم الحرام فاتح ثلاثين ومائة وألف ، اللهم اغفر لكتابه ولقرائه وللداعي لهم بالرحمة ، آمين يارب العالمين » .

اذن فنحن نتوفر على تاريخ النسخ ولكن لا نتوفر على اسم الناسخ ولا مكان النسخ.

**ب ـــ تصميم النسخة :**

المقدمــة : في ذكر نسبه الطاهر ، وحسبه الشريف الظاهر .

الفصل الاول : اختلاف العلماء في الخلافة .

الفصل الثاني : في فضل الامامة :

الفصل الثالث : في وجوب طاعته .

الفصل الرابع : فيما يجب على الخليفة .

الفصل الخامس : في حكم غريبة ، ونكت عجيبة .

الباب الاول : في حسن خلقه وعقله ، وكمال خلقه وفضله .

الباب الثاني : في محافظته على التكاليف الشرعية ، والاعمال البدنية ، والاعتقادات الاشعرية .

الباب الثالث : في عدله في رعيته ، وقيامه بشريعة جده محمد وسنته .

الباب الرابع : في تعظيمه الميلاد النبوي ، وأبناء عمه من النسب العلوي ، وفي احسانه للشرفاء من أبناء عمه .

الباب االخامس : في تعظيمه الميلاد النبوي ، وأبناء عمه .

الباب السادس : في حسن ظنه بالله الكريم ، وقوة رجائه في فضله الجسيم.

الباب السابع : في نظره في أمور رعيته وأحوالها ، وملاحظته لشؤونها وأفعالها.

الباب الثامن : في علمه وحلمه وسخائه ، وكرمه وبذله المال في طاعة ربه وحسن ثنائه .

الباب التاسع : في صبره الجميل ، ومقابلته الاساءة بالاحسان الأثيل .

الباب العاشر : في شدة حيائه ، الذي هو من صفات ذاته وبهائه .

الباب الحادي عشر : في بره بوالدته ، واقتداؤه فيه بمآثر جده وسنته .

الباب الثاني عشر : في عظيم فوائده ، ومراعاة لأهل ود والده .

الباب الثالث عشر : في ملاحظته لأهل العلم وذويه ، وايثاره لمن اتصف به من اوليه .

الباب الرابع عشر : فيما يؤثره من العلوم النافعة ، ويهتم به من فوائدها اللامعة .

الباب الرابع عشر [10] : في طهارة مجالسه العظيمة ، مما هو مذموم من الغيبة والنميمة.

الباب الخامس عشر : في اقالته العثرات ، وعفوه عن كبائر السيئات .

الباب السادس عشر : في قبوله المعذرة ، وعفوه بعد المقدرة .

الباب السابع عشر : فيما صرفت فيه همته العلية ، وتمهيد الطرق بسيرته المرضية .

الباب الثامن عشر : في عظيم سطوته ، وما شوهد من جميل شيمه وعلو همته .

الخاتمة : في ذكر نكت غريبة ، وطرف بديعة عجيبة .

**3 ــ نسخة «ج»**

**أ ــ وصف النسخة :**

مقياسهـــــا : 23 سنتم طولا و18 سنتم عرضا

مسطرتهـــــا : 23 سطرا في المتوسط

عدد كلمات السطر : عشر كلمات في المتوسط

خطهـــــا : خط مغربي واضح

تاريخ النسخ واسم الناسخ :

خالية من اسم الناسخ وتاريخ النسخ .

---

(10) يلاحظ أن رقم 14 كرر مرتين ، وهو خطأ واضح ، صوابه أن يكون رقم الباب 15 ، كما هو مقرر في نسخة « ز » ، وسينتج عن ذلك أن أرقام الأبواب التالية ستكون غير صحيحة ، بحيث يجب أن يكون الباب 15 هو الباب 16 والباب 16 هو الباب 17 وهكذا ...

## ب ـ تصميم النسخة :

ب ـ تصميم النسخـــة :

المقدمة : في ذكر نسبه الطاهر ، وحسبه الواضح الظاهر .

الباب الأول : في حسن خلقه وعقله ، وكمال أوصاف خلقه وفضله .

الباب الثاني : في محافظته على التكاليف الشرعية ، والاعمال البدنية ، من المصالح : الدينية والدنيوية .

الباب الثالث : في عدله في رعيته ، وقيامه بأوامر شريعة جده ـ ﷺ ـ وسنته .

الباب الرابع : في تعظيمه للميلاد النبوي ، ولأبناء عمه من أهل النسب العلوي .

الباب الخامس: في رعايته حق أهل العلم ، ومجاوزته عن هفواتهم بالاغضاء والحلم .

الباب السادس: في حسن ظنه بالله تعالى المولى الكريم ، وقوة رجائه في فضله الجسيم .

الباب السابع : في نظره في أمور رعيته وملاحظته لجميع شؤونها وأفعالها .

الباب الثامن : في طيب نفسه وسخائه ، وبذله الاموال في طاعة ربه وكرمه وحسن خيمه وثنائه.

الباب التاسع : في صبره الجميل ، ومقابلته الاساءة بالاحسان الاثيل.

الباب العاشر : في شدة حيائه ، التي هي في صفات ذاته الجليلة وبهائه .

الباب الحادي عشر : في بره بوالدته .

الباب الثاني عشر : في بره بوالده ، وأهل مودته ، وافتداؤه في ذلك بسيرة جده وسنته .

الباب الثالث عشر : في ملاحظته لأهل العلم وذويه ، وايثاره لمن يتصف به ويقتنيه .

الباب الرابع عشر : فيما يؤثره من العلوم النافعة ، ويهتم به من فوائده اللامعة.

الباب الخامس عشر : في طهارة مجالسه العظيمة ، مما هو مذموم كالغيبة والسعاية والنميمة [11].

الباب الثامن عشر : في قبوله المعذرة ، وعفوه بعد المقدرة.

الباب التاسع عشر : فيما صرف فيه همته العلية ، من تمهيد الطرق بسيرته المرضية .

الباب الموفى عشرين : في عظيم سطوته ، وما شوهد من جميل شيمه وعلو همته .

**الخاتمـــة :**

فصـل : في ذكر حقيقة الخلافة .

فصـل : في فضل الامامة .

فصـل : في وجوب طاعته ، وتحريم مخالفته .

---

(11) هناك بياض في هذا الباب بمقدار 4/3 الصفحة ، وقد كتب فيه : ها هنا سقط في النسخة المنسوخ عنها ، ولا يحتوي هذا الباب في « ج » إلا على خمسة أسطر .

فصـل : ويجب على الخليفة الامام الرفق برعيته والشفقة عليهم ، وعدم اهماله مصالحهم .
فصـل : في ذكر نكت وحكم بديعة غريبة ، وطرف جيدة رفيعة عجيبة ، تشمل على بعض آداب الرعية مع الملوك .
فصـل : أردت أن أذكر فيه شيئا من النوادر الحسنة ، والملح المستحسنة ، واضيف الى ذلك من افادات الانشادات والحكايات المستفادة، انشادات كنت أنشدتها ، وحكايات كنت استفدتها ليكون ذلك أعون لمطالعة الكتاب ، والله الموفق .

وهذا الفصل هو خليط من الابواب السابقة ، من اشعار وحكايات وملح .

وتنتهي نسخة « ج » بالابيات الاتية :

| | |
|---|---|
| لك في القلـوب منـازلٌ ومقـام | لا العقـل يدركهـا ولا الافهـام |
| ولقبـى المشتـاق فيك صبابـة | لا الدهـر ينفدهـا ولا الأيـام |
| وسرت الـى الارواح منك نسيمـة | سكروا بهـا العشـاق فيـك وهامـوا |
| من أصبحت خطرات ذكـرك قوتـه | وفـؤاده مـأواك كيـف ينـام |
| ومـن التجـا بجنـاب عزك ذلـة | واستمسك بعـراك كيـف يضـام |
| ما الوجد وجد ان عداك ولا الهـوى | الا هـواك ولا الغـرام غـرام |
| واذ خلت منك الخيـام وأصبـحت | مأوى سواك فما الخيام خيـام [12] |

يتضح من هذا اذن ان الناسخ تصرف الى حد كبير في المقدمة والخاتمة ، وأقحم فصولا في الخاتمة مما لا علاقة له بها ، والا فما معنى أن يدخل فصلا يقول فيه : « أردت أن اذكر فيه شيئا من النوادر الحسنة ليكون ذلك أعون لمطالعة الكتاب » ، أي عندما يكون القارىء قد انتهى من قراءة المخطوط ، وهذا عكس ما هدف اليه ابن القاضي ، فقد أورد الملح والطرف اثناء قراءة الكتاب لتكون بالفعل ( أعون على مطالعة الكتاب ) لا عندما ينتهي القارىء من قراءته . خاصة وانه حدد المنهج منذ البداية تحديدا واضحا لا غموض فيه ، ولكن هذا المنهج سقط من « ج » و« م » ويوجد فقط في « ز » .

وما معنى أن يدمج فصولا في الخاتمة كان الاجدر أن تكون في المقدمة مثل : ذكر حقيقة الخلافة ، وفضل الامامة ، ووجوب طاعة الامام الخ... اذ جرت عادة المؤلفين آنذاك أن تكون مثل هذه الفصول في المقدمة لا في الخاتمة [13] . ثم تنتهي هذه الخاتمة بأشعار ،

(12) توجد هذه الأبيات في نسختي « ز » و « م » في الباب السادس .
(13) أنظر ــ مثلا ــ المسند لابن مرزوق ، وهو الكتاب الذي سار على نهجه ابن القاضي .

وليس هناك أية اشارة الى انتهاء الكتاب ، وهذا مخالف لما جرت عليه عادة المؤلفين آنذاك .

ولعل سقوط المقدمة المنهجية من نسخة « ج » هو السبب في هذا الخلط ، اذ ان الناسخ اختلط عليه الأمر فجمع ما ورد من نكت وطرف في الخاتمة بعد أن حذفها من بعض الابواب .

وسنعود الى ذلك في الملاحظات التالية بشيء من التفصيل .

**الملاحظات العامة حول النسخ الثلاث :**

الملاحظة الأولى :

ان أول ما يثير الانتباه هو أن المقدمة في « ج » تختلف عن مقدمتي « ز » و « م »، ذلك أن ناسخ « ج » أورد فصيلا واحدا فقط من المقدمة وهو الفصل المتعلق : « بذكر نسبه الطاهر ، وحسبه الواضح الظاهر » ، وترك بقية الفصول للخاتمة ، وأضاف اليها فصلا آخر قال عنه : « فصل أردت أن أذكر فيه شيئا من النوادر الحسنة ، والملح المستحسنة... ليكون ذلك أعون لمطالعة الكتاب » وهذا تصحيف واضح اوضحناه فيما سبق .
سبق .

الملاحظة الثانية :

تتفق النسخ الثلاث الى غاية الباب الرابع عشر ترتيباً ومحتوى الا ما كان من اضافات توجد في « ز » وسقطت في كل من « ج » و « م » أو اضافات توجد في « م » ولا توجد في « ز » و « ج » وقد اثبتنا ذلك في محله من التحقيق .

الملاحظة الثالثة :

هناك خطأً في ترتيب الابواب انطلاقا من الباب الرابع عشر في « م » وانطلاقا من الباب الثامن عشر في « ج » ويرجع ذلك بالنسبة لنسخة « م » الى :

1 — تكرار رقم 14 مرتين ، بحيث استخدام نفس الرقم للباب المتعلق بـ : « طهارة مجالسه العظيمة ، مما هوة مذموم من الغيبة والنميمة » في حين كان سيكون هو الباب 15 كما هو مقرر في نسختي « ز » و « ج » ، ونتج عن ذلك أن الابواب التالية ستحمل أرقاما ليست هي أرقامها الحقيقية .

2 — يرجع هذا الخطأ في الترقيم أيضا الى سقوط 7 أبواب وهي الابواب : 18 — 19 — 20 — 21 — 22 — 23 — 24 .

أما بالنسبة لنسخة « ج » فيرجع ذلك الى سبب واحد وهو افتقادها للأبواب السبعة السالفة الذكر .

الملاحظة الرابعة :

تمتاز نسخة « ز » بزيادات كبيرة داخل الأبواب ، وقد أثبتنا ذلك في محله .

الملاحظة الخامسة :

تفتقد كل من نسختي « م » و « ج » الابواب السبعة الاتية :

الباب الثامن عشر : في قبول الشفاعات
الباب التاسع عشر : في مجازاته على الهدية
الباب العشـــرون : في توفيقه للاستخارة
الباب الحادي والعشرون : في ذكر كتبه
الباب الثاني والعشرون : في ذكر نظمه
الباب الثالث والعشرون : في غزوته
الباب الرابع والعشرون : في ذكر فقهاء العصر

الملاحظة السادسة :

تشترك النسخ الثلاث في فقدان الابواب الثلاثة الآتية :

الباب التاسع عشر : في مجازاته على الهدية
الباب العشـــــرون : في توفيقه للاستخارة
الباب الحادي والعشرون : في ذكر كتبه

يتضح من هذا اذن ان نسخة « ز » هي الأقرب الى الكمال ، ولولا فقدانها لثلاثة لكانت كاملة تماما ، خاصة وانها قد أزالت كل غموض وليس فيما يتعلق بعدد الابواب وترتيبها ومنهجية المقدمة والخاتمة .

ونشير في الأخير الى ان ابن القاضي أورد اشارات عديدة تتعلق **بالمنتقى** في **درة الحجال** [14] والذي اعتبره كتكملة له . فقد أورد أبياتا للمنصور ذكر انه أوردها في **المنتقى** وهي من جملة ما فقد منه ، كما أنه ذكر بمناسبة ترجمة مالك بن المرحل انه أورد قصيدته حول

(14) 1 : 109 — 119 .

مدينة سبتة كاملة [15] ، ولا نجد منها في **المنتقى** الا بيتا وشطرا من بيت [16] .

## سادسا : مصادر المنتقى

نسجل أولا في البداية ان ابن القاضي في كثير من الأحيان لا يذكر مصادره ، وهذا مأخذ أساسي يؤاخذه به ، اذ يضطر الدارس الى الرجوع الى عدد كبير من المظان الادبية واللغوية والدينية عله يحظى بالمصدر الذي استقى منه ابن القاضي الخبر ، وهذا عمل شاق وطويل كان من الممكن أن يتجنبه الدارس لو وثق ابن القاضي خبره . ولعلنا ندرك قيمة توثيق الخبر اذا علمنا أننا في كثير من الاحيان كنا نشتغل على نسخة واحدة ، ولا يخفى ما في الاعتماد على نسخة واحدة من مخاطر . واسلوبه هذا في ايراد الخبر لم يسلكه فقط في **المنتقى** بل سلكه أيضا في سائر كتب التراجم التي ألفها **كجذوة الاقتباس** ، **ودرة الحجال** .

* * *

* *

ويمكننا تقسيم مصادره المذكورة في **المنتقى** الى قسمين : مصادر مباشرة ، ومصادر غير مباشرة .

أ ــ المصادر المباشرة :

ونقصد بها المصادر التي عاينها بنفسه وتشمل :

1 ــ ما أطلعه عليه رجال الدولة : « ... أطلعني على هذه النسبة أبو العباس أحمد بن يحيى الهوزالي قائد قواد ولي عهده مولانا أبي عبد الله محمد المامون بداره سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة ... » [17] .

2 ــ ما رواه عن شيوخه : « ... وبمثل هذا حدثني شيخنا ابو العباس أحمد بن علي بن عبد الرحمان المنجور... » [18] ، « ...وحدثني شيخنا أبوا راشد يعقوب بن يحيى اليدرى... » [19] .

3 ــ ما نقله عن معاصريه من عُلماء وأدباء أثناء رحلته للشرق الاسلامي : « ... ولما رحلت

---

(15) 3 : 26 .

(16) ــ ص. 708.

(17) المصدر السابق، 243 .

(18) المصدر السابق، 243.

(19) المصدر السابق، 244.

من مصر وقصدت مكة المشرفة والمدينة ــ على ساكنها الصلاة والسلام ــ على الصعيد ، ودخلت مدن الصعيد كجرجة ونحوها واجتمعت بمنى مع أبي العباس أحمد القلفاط ، فأنشدني... » [20] ، « ... وممن لقيته بها خطيبها أبو الثناء محمود بن عبد الله الرومى أديب ، لغوي ، منطقي ، نحوي ، تصريفي ، أنشدني للشافعي ... » [21].

4 ــ ما وقع له مع المنصور : « ... ومن تواضعه ما اتفق لي معه ــ أيده الله وسدده ــ ذات يوم في محلته المنصورية بفسطاط الجماعة منها المعدة للديوان ، وقد كنت حاضرا به من جملة عبيده وخدمه ... » [22] .

5 ــ ما شاهده ، ووقع له أثناء مقامه بالشرق الاسلامي : « ... فمن ذلك أن كل وافد على الاسكندرية يعطي عشر ما بيده وعشر عشره من السلع وكذلك أيضا كل خارج منها ، ومثله في مرسى جدة ، وسائر البلاد المشرقية وغيرها ، فمن وقف على ذلك يعلم صحة ما قلنا ... » [23] .

ب ــ المصادر الغير المباشرة :

ونقصد بها مصادره المكتوبة والتي أخذ منها بعض اخباره ، وقبل استعراض هذه المصادر نبدي ملاحضتين أساسيتين :

الملاحظة الاولــى :

هناك نوعان من الاخبار ، أخبار ذكر ابن القاضي مصادرها ، وأخبار أخرى لم يصرح بمصادرها ، وفي سبيل توثيق هذه الاخيرة رجعنا الى عدد من المصادر وعثرنا عليها بأشكال مختلفة ، ولكن لا نتوفر على دليل قطعي من أن ابن القاضي استخدم أحدها بعينه ، لهذا أشرنا في الهامش عند التحقيق الى كل هذه المصادر ، ولا نرى فائدة في إعادة ذكرها هنا .

الملاحظة الثانية :

لم نحلل المصادر المصرح بها ما دام معظمها معروفا ، أما القسم الغير المعروف فاننا حللناه في الهامش وبينا أماكن تواجده ، ولا نرى كذلك فائدة في اعادة ذكره هنا .

* * *

---

(20) المصدر السابق، 745.
(21) المصدر السابق، 750.
(22) المصدر السابق، 315.
(23) المصدر السابق، 357.

— **أبكار الأفكار** لسيف الدين الآمدي .
— **أحكام النساء** لابي الفرج بن الجوزي .
— **ألفية ابن مالك** .
— **ألفية العراقي** .
— **انتهاز الفرصة ، في محادثة عالم قفصة** ، لابن مرزوق (الحفيد) .
— **انوار البروق ، في انواء الفروق** ، لشهاب الدين القرافي .
— **أنوار التجلي ، على ما تضمنته قصيدة الحلي** ، للثعالبي .
— **بغية الطلاب ، على منية الحساب** ، للامام ابن غازي .
— **التبصرة** ، لابي الحسن اللخمي .
— **حياة الحيوان الكبرى** ، لكمال الدين الدميري .
— **الخزرجيـــة** .
— **الرسائل** ، لأبي بكر الخوارزمي .
— **الرسالة** ، لابن زيد القيرواني .
— **الرسالة القشيريـة** .
— **زهرة البستان ، المتضوعة بمحاسن أبناء الزمان** ، لابن القاضي .
— **الكامل** للمبرد .
— **كتاب الروضتين ، في أخبار الدولتين** لابي شامة المقدسي .
— **مختصر ابن الحاجب**
— **مختصر خليل** .
— **مدونة** الامام سحنون .
— **منية الحساب** ، للامام ابن غازي .
— **معالم السنن** للخطابي .
— **المغني** ، لابن هشام .
— **مفتاح العلوم** ، للسكاكي .
— **مقامات الحريري** .
— **مقدمة** ابن الصلاح في علوم الحديث .
— **المسند الصحيح** ، لابن مرزوق .
— **المستطرف** ، للابشيهي .
— **نزهة النفوس ، ومضحك العبوس** ، لابن سودون .
— **صحيح البخاري** .
— **صحيح مسلم** .

- **صلة السمط** ، لابن الشباط .
- **عنوان الدراية** ، لمحمد بن صالح الكناني .
- **فرائض الحوفي** .
- **الغيث المسجم ، في شرح لامية العجم** ، لخليل بن أبيك الصفدي .
- **فهرسة ابن رشيد** .
- **فهرسة ابن غازي** .
- **فهرسة احمد المنجور** .
- **شروط الرواية** ، للحازمي .
- **الشفا** ، للقاضي عياض .
- **شفاء الصدور** ، لابن سبع .
- **الشافي ، في تحرير ما وقع من الخلاف بين التبصرة والكافي** ، لابن سلمون .
- **الوافي ، في نظم القوافي** ، لصالح بن شريف الرندي .

**سابعا : المشاكل التي يطرحها النص**

يطرح النص عدة مشاكل منها ما يرجع الى الشكل ومنها ما يرجع الى المضمون .

**أ ــ من الناحية الشكلية :**

- ان اهم ما يجب اثارة الانتباه اليه هو أن أغلبية المخطوط توجد في نسخة واحدة هي نسخة « ز » فبالاضافة الى فقدان نسختي « م » و « ج » لعدد من الابواب هناك كثيرة من الحذف والبتر والتصحيف في الابواب الموجودة ، والتحقيق في مثل هذه الوضعية يتطلب الحذر الشديد قبل الاقدام على اي عمل من شأنه تشويه الحقائق التي اتى بها النص .
- ما يوجد مصحافي « ز » يوجد ايضا مصحفا في « م » و « ج » وأحيانا اسوأ مما هو موجود في « ز » .

**ب ــ من حيث المضمون :**

- تعدد المعلومات التي اتى بها النص من تاريخ وأدب ودين ولغة مما يطرح معه مشكل توثيق هذه المعلومات المتعددة مع العلم أنها لا تنحصر في فترة معينة ، بل تشمل فترة واسعة من التاريخ .
- هناك مشكل ادبي يتلخص في كون ابن القاضي ينسب الابيات الشعرية لغير اصحابها ، أو يرويها بصفة مشوهة بحيث يقدم ويؤخر ويضيف ابياتا ليست لنفس

الشاعر ، وقد نبهنا على ذلك في محله .

— ومشكل لغوي يتلخص في كثرة الأخطاء اللغوية ، بل واستخدام ألفاظ عامية ، وقد نبهنا على ذلك في محله ، ونعتقد ان الناسخ له دور أيضا في هذا .

— كما نسب ابن القاضي عددا من الكتب لغير أصحابها ، وقد أبدينا رأينا في الموضوع .

— كثرة الشخصيات التي تعرض لها في **المنتقى** ، وقد عرفنا كل شخصية على حدة ، لكن لم نستطع في بعض الاحيان أن نعثر على ترجمة بعض الشخصيات التي التقى بها ابن القاضي أو سمع بها في الشرق الاسلامي والمغرب العربي .

**ثامنا : قيمة المنتقى الادبية**

يغلب الطابع الادبي على **المنتقى** الى حد بعيد انطلاقا من عنوانه المسجوع ( ولعله أخذه من **منتقى** الباجي ) الى أبوابه ، إذ لا يخلوا باب من أبوابه من طرف واخبار أدبية وأشعار ، إما لمعاصريه أو لأدباء وشعراء سبقوه مغاربة ومشارقة ، وهو لهذا السبب يعتبر — بحق — ثروة أدبية هائلة تعطينا نظرة واضحة عن وضعية الثقافة المغربية آنذاك ، كما يبرز لنا الدور الذي قام به المغاربة للحفاظ على التراث العربي الاسلامي ، هذا التراث الذي عرف ركودا كبيرا انطلاقا من القرن السادس عشر نتيجة الاحتلال التركي للعالم العربي .

ويمتاز ابن القاضي في **المنتقى** بالاسلوب السلس المنطلق الذي لا تكلف فيه ولا سجع الا ما دعت الحاجة اليه عند الوصف او الدعاء ، كما يمتاز بملكة الاختيار التي تجعله يرقى بالنص الى مستوى عال من الذوق الفني ، وتجعل القارىء يشد الى النص ، وهي مهمة أفصح عنها المؤلف أثناء تحديده لمنهجية الكتاب ، ويمكننا أن نقول أنه نجح الى حد كبير فيها ، خاصة إذا علمنا أن الكتاب كله مدح وإطراء للمنصور ، ومن شأن مثل هذه الموضوعات أن تدخل الملل والسآمة على القارىء وتجعله ينفر من قراءته .

لكن هناك مآخذ تفرض نفسها على الدارس يمكن أن نلخصها فيما يلي :

— المبالغة في الاستطرادات الادبية التي تكاد تنسينا الموضوع الاصلي الذي يتحدث عنه المؤلف حتى انه هو نفسه يشعر بهذا فيحاول أن يستدرك الامر بالقول : « ولنرجع الى ما كنا بصدده » .

— تخونه أحيانا ملكة الاختيار فيختار ابياتا رديئة تنزل به الى مستوى ليس هو المستوى المعهود .

— قصر في حق بعض الأدباء المغاربة المعاصرين له في حين أطال جدا بالنسبة للبعض

الأخر .

ورغم هذا كله فان **المنتقى** يبقى نموذجا للتأليف الادبي التاريخي في العصر السعدي ، ويكفى ان نذكر انه احتفظ لنا باسماء شخصيات ادبية مغربية مع أشعارهم ، هذه الشخصيات التي لا نجد لها ذكرا في أي مصدر آخر .

### تاسعا : القيمة التاريخية للمنتقى

سنحاول أن نبرز القيمة التاريخية **للمنتقى** من خلال مقارنته بمصدرين أساسين ، أحدهما ألف في عصر المرينيين وهو الذي سار ابن القاضي على نهجه ، والآخر معاصر له تناول نفس موضوعه ، وهي مقارنة تبين ايجابياته وسلبياته .

**1 — بين المنتقى والمسند [24] :**

سبق أن قلنا ان **المسند** يعتبر أحد مصادر **المنتقى** ، وقد لاحظ ليفي بروفانسال — وهو بصدد الحديث عن المصدر المريني وأهميته — وانه ظل مصدر الهام لكثير من المؤرخين وخص بالذكر ابن القاضي في **المنتقى** [25] ، والباحث لا يسعه الا أن يؤكد هذه الملاحظة ، لكن نؤكد في نفس الوقت ان **المنتقى** لم يكن صورة مكررة للمسند لسبب أساسي وهو ان شخصية ابن القاضي تختلف في كثير من الجوانب عن شخصية ابن مرزوق نظرا للتجارب القاسية التي مر منها هذا الأخير وانعكاس ذلك على كتاباته .

**أ — المسند** خلاصة تجربة قاسية :

لقد حاول الرجل أن يعرض نفسه وتجاربه تماما كما فعل ابن القاضي في **المنتقى** ، لكن ظروف الرجلين تختلف تماما . فابن القاضي كتب مصدره والطريق ممهد له الى القصر ، أما ابن مرزوق فقد كتب كتابه وهو مثقل بالتجارب لا يدري أن ستسقربه الاقدار : « ....وعرضت بين وفاته (أبي الحسن المريني) — رضوان الله عليه — وزمني الآن ، عوارض امتحان ، وتقلبات

(24) سنعتمد النسخة التي تحمل رقم 111 ق بالمكتبة العامة بالرباط .
وقد نشر منه ليفي برفنسال في مجلة **هسبريس** ، المجلد الخامس ، سنة 1925 ، ص 1 — 43 ، الأبواب الآتية : 34 ، الفصل الثاني من الباب 36 ، الفصل الثالث من الباب 36 الباب 39 ، 40 ، 41 ، 42 ، 43 ، 44 ، 50 .
كما قامت الباحثة الاسبانية ( ماريا فيفراس ) بترجمته إلى الاسبانية ، ونشرت الترجمة بإسبانيا سنة 1978 .

(25) مجلة **هسبريس** ، المجلد الخامس ، 1925 ، ص 10 .

أزمان ، واختلاف احوال ، وظعن وترحال ، وكابدت فقدان الاقران ، وقلة الاخوان ، وجفوة الاوطان ، وهجرة السلطان ، وكان من الامر ما كان ... » [26] .

وعلى كل ، فابن مرزوق ينتمي الى عائلة عريقة في العلم تماما كعائلة ابن القاضي ، وتعددت فيها الاسماء اللامعة التي تحمل نفس الاسم أيضا كعائلة ابن القاضي ، فهناك ابن مرزوق الخطيب ، وابن مرزوق الكفيف ، وابن مرزوق الحفيد الخ... وواضح اننا نقصد هنا ابن مرزوق الخطيب (أو الجد) . وقد ولد مؤرخنا بتلمسان سنة 701 هـ / 1310 م ، ونشأ بها الى أن رافق أباه الى المشرق حيث أدى هذا الاخير فريضة الحج وبقي معتكفا هناك . أما الابن فقد رجع الى المغرب بعد أن أخذ عن عدد كبير من علماء المشرق ، وكان رجوعه الى وطنه سنة 733 هـ فصادف رجوعه هذا وجود السلطان أبي الحسن المريني (731 هـ ـــ 752 هـ / 1331 م ـــ 1351 م)الذي كان محاصرا لتلمسان [27] فاغتنم مؤرخنا هذه الفرصة واستغلها لتحقيق مآربه فتقرب من السلطان المريني الذي أولاه عطفه وتقديره نظرا لما كانت عليه أسرته من علم وثقافة ونبل ، فأسند اليه ـــ بعد وفاة عمه ـــ امامة المسجد الذي بناه بالعباد. فأخذ ابن مرزوق يمدح مخدومه ويشيد بذكره ، فزاده ذلك تقربا من أبي الحسن ، وارتفعت مكانته لديه وحظي بكبير ثقته ، فكانت النتيجة أن أصبح من ملازميه ومن خواصه الاقربين . فقام ابن مرزوق بمهامه هذه أحسن قيام ، وأخلص لرئيسه ايما اخلاص حيث رافقه في وقعة طريف [28]وترأس السفارة التي تفاوضت مع ملك قشتالة القونس الحادي عشر لابرام معاهدة صلح فوفق سفيرنا في مهمته [29] .

ولما توفي السلطان أبو الحسن المريني قدم ابن مرزوق إلى المغرب عله يسترجع لدى الملك الجديد أبي عنان مقامه السابق ، لكن الظروف لم تكن مواتية ، فقفل راجعا إلى تلمسان حيث أقام بالعباد . إلا أن الطموح السياسي وحب المغامرة والسيطرة على مناصب الدولة الرئيسية ، كل ذلك دفعه إلى استغلال ظروف أخرى حيث اتصل ببني عبد الواد وصار في خدمتهم إلى أن زجوا به في السجن ، لخذلانه وتآمره على سلطانهم . فلبث في السجن إلى أن التحق بالعدوة الأندلسية حيث عين خطيبا بمسجد غرناطة الأعظم . ونظرا للشهرة التي اكتسبها ولدهائه وثقافته الواسعة ،

---

(26) ص ، 2 .

(27) حول فتح تلمسان أنظر : ابن خلدون، **العبر**، 7 : 109 ، م. الزركشي ، **تاريخ الدولتين** ، ص 72 ـــ 73 ، ابراهيم حركات ، **المغرب عبر التاريخ** ، 2 : 44 ـــ 45.

(28) ـــ أنظر أحمد الناصري ، **الاستقصا** ، 3 : 134 ـــ 137 ، وابراهيم حركات ، المصدر السابق ، 2 : 49 ـــ 50 .

(29) أنظر ابن خلدون ، **التعريف** ، ص 48 .

ومهارته في خدمة الملوك ، استدعاه أبو عنان المريني سنة 754 هـ/ 1353 م بعد استرجاعه تلمسان وقربه منه ، حتى أصبح من خواصه ومن كبار أعضاء مجلسه . وبعد مدة بلغت أربع سنوات ، كلفه بمهمة شخصية عالية وهي الاتصال بالسلطان الحفصي أبي يحيى ليخطب منه ابنته التي كان أبو عنان يرغب في التزوج بها . لكنه لم يوفق في هذه المهمة ، فرجع خائبا . وقد قيل لأبي عنان أن السبب في هذا الفشل هو ابن مرزوق نفسه الذي قصر في الأمر ولم يستغل نفوذه ولا الوسائل التي كان في استطاعته أن يستعملها لانجاح المهمة . فثار أبو عنان وقبض على السفير وألقى به في السجن عقابا له وانتقاما منه ، فمكث فيه مدة تقرب من سنتين أطلق سراحه بعد انصرامها [30] .

ومع ذلك ، كعادته ، وكعادة معاصريه ابن خلدون وابن الخطيب لم يعتزل السياسة ، ولم يتعظ بهذه الأحداث التي نكبته وألحقت أضرارا خطيرة به . فعاود الكرة ، واستعمل حيله ونفوذه ودهاءه ، فتقرب من أبي سالم المريني بمجرد استيلائه على عرش أجداده ، فاسترجع سابق عهده وما كان له من نفوذ أيام أبي الحسن المريني ، لكن الأحداث السياسية والفتن الداخلية وتلاعب الوزراء بالسلطة واستبدادهم بشؤون الدولة ، كل ذلك عكر الجو الصافي الذي كان يعيش فيه ، ونغص حياته ، وأصابه في الصميم ، حينما قبض عليه ورمي به في السجن مرة أخرى ، وبقي إلى غاية سنة 764 هـ/ 1363 م ، وذهب إلى تونس حيث نزل على السلطان أبي اسحاق ابراهيم الذي عينه أولا خطيبا لجامع الموحدين ، إلى أنه عزل عنها سنة 773 هـ/ 1372 م ، فقرر مغادرة البلاد إلى مصر ، وظل هناك إلى أن توفي سنة 781 هـ/1379[31] .

هذه إذن هي تجربة ابن مرزوق ، تجربة قاسية مليئة بالأخطار ، ويتضح منها بكل جلاء الفرق بينها وبين تجربة ابن القاضي ، فبقدر ما كانت الأولى معقدة متشبعة تتداخل فيها عدة عوامل لتصوغها في قالب خاص ، بقدر ما كانت الثانية واضحة تعبر عن صاحبها باطمئنان ، ونخلص في الأخير إلى أن التجربتين سوف تنعكسان بقوة على المؤلفين ، فإذا كان **المنتقى** طابعه الوضوح والاختصار فإن **المسند** طابعه التشعب والتوسع .

**ب ـــ منهجيته في المسند :**

لقد سبق أن قلنا ان ابن القاضي في **المنتقى** سار على منهج ابن مرزوق في **المسند** ، ونرى من الفائدة العلمية ابراز هذا المنهج ـباختصار كبيرـــ لنتمكن في الأخير من مقارنة الكتابين بعد أن قارنا الشخصيتين . يتضمن **المسند** زيادة على الديباجة والخاتمة خمسة وخمسين بابا كلها تدور

---

(30) نفس المصدر والصفحة .
(31) نفس المصدر والصفحة .

حول أصل وتاريخ الدولة المرينية ، ورغم كون الكتاب ألف من أجل الرجل الذي أحسن إليه فإنه مع ذلك شمل الدولة المرينية كلها بالعطف والتقدير وأثنى عليها بمزيد الاعجاب والاحترام ، كما أبرز من خلال ذلك صورا رائعة للحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية السائدة في عصره ، ولن ندخل في التفاصيل فذلك ما سنتركه للمقارنة ، ونكتفي الآن باعطاء الكلمة للرجل نفسه ليبرز منهجه من خلال استعراض أبواب وفصول كتابه :

المقدمـــة :

الفصــل الأول : في حقيقة الخلافة لغة وشرعا

الفصل الثاني : اختلاف العلماء في الخلافة

الفصل الثالث : في فضل الخلافة

الفصل الرابع : في وجوب طاعة السلطان وتحريم عصيانه

الفصل الخامس : في تفصيل الحكام ، على المفتين والأئمة على الحكام

البــاب الأول : في نسب بني مرين

الباب الأول ( كذا ) : في حسن خلقه واعتدال مزاجه

الباب الثاني : في تربيته

الباب الثالث : في الخصال المحمودة المتعلقة بذاته

وفيه فصول :

الفصل الأول : فيما كان عليه من حسن الشارة وكمال الهيئة

الفصل الثاني : في سلاحه الحربي

الفصل الثالث : في مطعمه

الفصل الرابع : فيما هو دليل الكمال من صحة الذكورية

الفصل الخامس : في تواضعه

الباب الرابع : في محافظته على الأعمال التكليفية

وفيه فصول :

الفصل الأول : في محافظته على أصول الاعتقاد

الفصل الثاني : في محافظته على الطهارة والصلاة

الفصل الثالث : في صيامه

الفصل الرابع : في صدقته وإيثاره

الفصل الخامس : في عمله اليومي والليلي

الباب الخامس : في إقامته العدل ومحافظته على الحدود

وفيه فصول :

الفصل الأول : في إقامته الحدود على من وجبت عليه

الفصل الثاني : عدله في القضايا على من ترفع عليه باطلا

الفصل الثالث : لما شرع في زيادة جامع العباد

الباب السادس : في رعايته آل البيت والقيام في ليلة المولد

وفيه فصول :

الفصل الأول : في محافظته على النسب الشريف

الفصل الثاني : تعرض رجل له في طلب شيء مدعيا الشرف

الفصل الثالث : في بذله الأموال الطائلة في فك من أسر من آل البيت وقضاء الدين عنه

الفصل الرابع : في مجاوزته عن أهل الشرف

الفصل الخامس : فيما يعطيه لهم

الفصل السادس : في عادته الجارية ليلة المولد الشريف

الباب السابع : في رعايته لأهل الله وجميل اعتقاده

وفيه فصول :

الفصل الأول : في حسن لقائه لهم ، وسيرته معهم

الفصل الثاني : في مذهبه زيارة الصلحاء الأحياء والأموات

الباب الثامن : في شدة خوفه ومراقبته ووقوفه مع الحق

الباب التاسع : في حسن ظنه بالله وقوة رجائه فيه

الباب العاشر : في ملاحظته لأحوال رعيته

الباب الحادي عشر : في حلمه

وفيه فصلان :

الباب السابع عشر : في بره بأبويه

وفيه فصول :

الفصل الأول : في فضل البرور

الفصل الثاني : في بره بأمه

الفصل الثالث : في بره بأبيه

الباب الثامن عشر : في رعايته لأهل ود أبيه

وفيه فصول :

الفصل الأول : في فضيلة هذه الخصلة الكريمة

الفصل الثاني : في قيامه بذلك ومحافظته عليه

الفصل الثالث : فيما يلحق بهذا الباب في رعيته وبره

الباب التاسع عشر : في رعيه لمن له سلف صالح

وفيه فصول :

الفصل الأول : في هذه الخصلة الكريمة

الفصل الثاني : فيما يحكى عن جدهم الملك أبي يوسف

الفصل الثالث : فيما حفظته من محافظة إمامنا على هذا الوصف

الباب العشرون : في محبته في العلم وأهله وإيثاره لمن اتصف به

وفيه فصول :

الفصل الأول : في فضل العلم

الفصل الثاني : فيما جاء في رعاية أهل العلم والبرور بهم

الفصل الثالث : في اختصاصه بهذه المنقبة

الباب الحادي والعشرون : فيما يؤثره من العلوم

وفيه فصلان :

الفصل الأول : فيما ورد في فضل الاشتغال بالحديث

الفصل الثاني : فيما شاهدناه من لحظه لهذا المعنى

الباب الثالث والثلاثون : في سؤله في الاستخار والرأي والمشورة

وفيه فصول :

الفصل الأول : فيما يدل على فضيلتها وطلبها شرعا

الفصل الثاني : في الآثار الواردة في هذا الباب والحكم والاناشيد

الفصل الثالث : في سيرة إمامنا في الاستخارة والمشورة

الباب الرابع والثلاثون : في ذكره وزرائه

وفيه فصلان :

الفصل الأول : روينا في **الصحيح**...

الفصل الثاني : كان لامامنا وزراء على سنته وطريقته

الباب الخامس والثلاثون : في جلسائه

الباب السادس والثلاثون : في كتابه

وفيه فصول :

الفصل الأول : في فضل خطة الكتابة

الفصل الثاني : في كتاب إمامنا ، كتابة الرسائل والبطائق

الفصل الثالث : كتاب الخراج والديوان وأهل الحساب والمساحة

الباب السابع والثلاثون : في تمهيد طريق الحج والعمرة

وفيه فصول :

الفصل الأول : في فضل هذين النسكين

الفصل الثاني : في فضل الزيارة

الفصل الثالث : في تمهيد سبيل الحج وبذله المعونة على ذلك

الباب الثامن والثلاثون : في أعماله في الجهاد والغزو

وفيه فصول :

الفصل الأول : اما الآيات الواردة في الباب الخ ...

الفصل الثاني : اعلم أن إمامنا كان أشد ملوك الأرض قياما بهذا الغرض بنفسه وماله

الفصل الثالث : في عمله في حربه وسلمه مع المجاور له صاحب قشتالة

الفصل الرابع : وأما ما يتعاهد به سلطان الأندلس ويمده به من الأموال الخ...

الفصل الخامس : وهو عنوان ضخامة ملكه وكبر قدره وقدر أعماله الجهادية

الباب التاسع والثلاثون : في إنشاء المحارس والمناظر في جميع بلاد السواحل

وفيه فصول :

الفصل الأول : في فضل الرباط والحراسة

الفصل الثاني : في إنشائه المحارس والمناظر

الفصل الثالث : في إنشائه الابراج

الباب الأربعون : في بنائه الجوامع والصوامع

وفيه فصلان :

الفصل الأول : فيما ورد في فضل بناء المساجد وعمارتها

الفصل الثاني : في اهتمامه ببناء ذلك وانفاقه فيه الأموال الجسيمة

الباب الحادي والأربعون : في إنشائه المدارس

وفيه فصلان :

الفصل الأول : في فضيلة نشر العلم وبثه

الفصل الثاني : في إنشاء المدارس في المغرب غير معروف

الباب الثاني والأربعون : في إنشائه الزوايا

وفيه فصول :

الفصل الأول : في ثواب هذه الأعمال

الفصل الثاني : اما تخاذه الزوايا

الفصل الثالث : وهذه الزوايا هي التي يطلق عليها في المشرق الربط والخوانق

الفصل الرابع : في وجه مشابهة أهل الزوايا أهل الصفة

الفصل الثالث : فيما أولاني من المبرة والكرامة

الفصل الرابع : فيما قابلني به مما دلني على منزلتي لديه

الفصل الخامس : فيما تحمله من جهالتي

الفصل السادس : في جميل ظنه

الفصل السابع : في ذكر فراقي له

الفصل الثامن : في تمهيد اعذار عن أمور وقعت في هذا التأليف

**ج ــ الملاحظات العامة حول المصدرين :**

ــ لقد كتب ابن القاضي المنتقى والمنصور بالفعل في السلطة ، فهو إذن مجرد اعتراف بالجميل ، أما ابن مرزوق فقد كتب مسنده في سلطان كان قد توفي وتلاحق بعد وفاته عدد من السلاطين ووقع له ما وقع له أثناء هذه الفترة : « ...وعرضت بين وفاته ( أبي الحسن ) ــ رضوان الله عليه ــ وزمني الآن ، عوارض امتحان ، وتقلبات أزمان ، واختلاف أحوال ، وظعن وترحال ، وكابدت فقد الاقران ، وقلة الاخوان ، وجفوة الأوطان ، وجهر السلطان ، وكان من الأمر ما كان ... »[32] ، فهو إذن يثير الانتباه إلى هذه الوضعية .

ــ يمتاز ابن مرزوق في المسند عن ابن القاضي في المنتقى برصانة أسلوبه وقوته ، فقد برهن المؤلف عن مقدرة كبيرة في التنظيم والتنسيق وربط الأحداث وحسن التخلص من باب إلى باب . لا تعقيد في ذلك ولا تكليف ، ولا صناعة لفظية طاغية على الأفكار والمعني كما هو الشأن بالنسبة لمعاصره ابن الخطيب . فقد جاءت تراكيبه وجمله سهلة ممتنعة ، خالية من الزخرف والتمنيق والسجع المقيت المتكلف .

ــ التزام ابن مرزوق بالموضوع أكثر من ابن القاضي ، فاستطرادات ابن مرزوق قليلة إذا ما قورنت باستطرادات ابن القاضي الذي ينصب نفسه أستاذا موسوعيا يعطي دروبا في جميع العلوم .

ــ استعرض ابن مرزوق جل أفراد الأسرة المرينية في حين اقتصر ابن القاضي على المنصور وأبيه .

ــ كلاهما أورد لائحة بأسماء شيوخه والمعارف التي أخذها عنهم في إطار تثبيت الشخصية .

---

(32) ص : 2 .

ـــ غزارة معارف ابن مرزوق ، ويكفي أن نقارن بين بعض فصول المسند والمنتقى لنتأكد من ذلك .

ـــ كلاهما بالغ في وصف دولته والافراط في مدحها .

ـــ كلاهما تعمد عدم ذكر بعض الشخصيات من ملوك وعلماء ، فقد رأينا أن ابن القاضي أعرض عن ذكر كثير من الشخصيات ووضحنا أسباب ذلك ، أما ابن مرزوق فيكفي أن نذكر أنه تعرض لأبي عنان بقدر كبير من الايجاز رغم أنه يعتبر من أعظم ملوك الدولة المرينية ولعل السبب يرجع إلى ما لقيه مؤرخنا على يده من محن .

ـــ كلاهما كان متعاليا في نظرته فلم يهتما بلفئات الدنيا من المجتمع .

ـــ إن الخبرة السياسية الطويلة التي اكتسبها ابن مرزوق جعلته يصوغ كتابه في شكل يجذب إليه بسرعة السلطة والعامة على السواء ، فالسلطة ترى فيه خبيرا ومحنكا سياسيا يمكن أن تستغله ، والعامة ترى فيه عالما يجب الاستفادة من علمه ، وهو بهذا الشكل أحاط نفسه بهالة من الاحترام والتقدير جعلته يستغلها لتحقيق مآربه . أما ابن القاضي فهو مجرد فقيه يكتب كما يكتب الفقهاء يعظ العامة ، ويشكر الخاصة ، ويبقى عند هذا الحد ، وحتى إن طمع في منصب ما فان هذا المنصب لا يتجاوز منصب قاضي مدينة صغيرة أو متوسطة .

ـــ كلاهما استخدم نفس المحاور للدفاع عن دولته : الشرف ، الجهاد ، القدرة والكفاءة .

فإبن القاضي يؤكد كلما أتاحت له الفرصة شرف السعديين وبأحقيتهم بالخلافة على جميع العالم الاسلامي ، وابن مرزوق يؤكد هنا أيضا شرف بني مرين إذ يقول : « ...لا نزاع في أنهم أشرف قبائل المغرب وفاقا بين المؤرخين وأنهم وارثو ملك المغرب الأقصى وقد ورثوا ملك المغرب الأوسط ، وقد وقع بين النسابين من المؤرخين من الاختلاف في نسب زناتة ما لا يخفى عن ذي مشاركة ... مما وقفت عليه أن زناتة من ذرية قيس غيلان من غير نزاع في ذلك ولا خلاف ممن يعتمد عليه ...وقد ذكر الكلبي صنهاجة وزناتة أو كتامة في العرب ... » [33] وابن القاضي يؤكد جهاد المنصور ويذكر بهذا الصدد معركة وادي المخازن وفتح السودان ، وابن مرزوق يذكر جهاد ابي الحسن خاصة في الأندلس .

ـــ يلاحظ من خلال المسند كثرة المدارس التي شيدها المرينيون في حين نلاحظ فراغا مهولا بالنسبة لمنتقى السعديين ، ويرجع هذا إلى أن السعديين لم يشيدوا مدارس بل اكتفوا بتجديد

---

(33) ص : 15 .

المدارس التي كانت ماثلة منذ أيام بني مرين .

ـــ كلاهما توسع في ذكر حاشية السلطان ووزرائه وكتابه وقواده ، كما توسع في ذكر الشعراء والفقهاء والمتصوفة ، وذلك كله يدخل في إطار واحد وهو إبراز حركية الدولتين من الناحية العلمية ، وإبراز دور السلطان في هذه الحركية العلمية .

ـــ أورد ابن مرزوق فصلا خاصا يتعلق بتربية أبي الحسن في حين نجد أن ابن القاضي أعرض عن ذلك بالنسبة للمنصور فما هو السبب إذن ؟ لعل السبب يرجع إلى أن تربية المنصور لم تكن فيها خصائص معينة تميزه ، بل إن التاريخ يسجل له هفوات قبل توليه السلطة وهذه رسالة من أخيه عبد المالك ، عندما كان خليفة له في فاس ، توضح ذلك : « ...أما بعد فاعلم أني لا أحب أحدا بعد نفسي كمحبتي لك ، ورغبتي في انتقال هذا الأمر بعدي إليك لا لغيرك ، غير أني اعتاد منك التراخي في الأمور حتى إنك لا تبالي بعظيم الأمر ولا تعتبره ، إلى أن يتطرق إلى ما لا يتلافى جبره ، من الأمور التي تكاد ـــ لولا لطف الله ـــ تذهب بهذا الملك وتهد أركانه ، ويبلغ العدو معها مناه ومراده ، من ذلك التراخي اهمالك أمر الجند الذي بالعرائش ، واغفالك له مع ما يترادف عليك في كل ساعة من تلقائه من استدعاء ما دعت الحاجة اليه من المئونة والبارود والرصاص الذي لا يستقيم لهم أمر في مقاومة العدو دون ذلك ، وجعلت تقابل خطابهم بالاهمال وعدم المبالاة ، والآن ساعة يرد عليك كتابنا هذا قبل وضعه من يدك ابعث اليهم مؤنة عشرة أيام بينما نصل إن شاء الله فيقع التدبير فيما يحتاجون اليه زائدا على ذلك مع ما عندكم هنالك من البارود والرصاص من غير عطلة ولا تراخ بحيث لا نقبل منك عذرا في هذه المسألة التي لا تحتاج إلى الاهمال ، ولا بد ولا بد ، فقد بلغنا أن صاحب النصارى بقرب أصيلا في خمس عشر مائة من النصارى ، وتمنيت أن لو حركتك الهمة للاقتحام عليه في مكانه بجيش تكسوه أردية الصغار ، ويرجع ساعة رؤيته إلى عادته من الذل والفرار ، فانتبه من الغفلة وافتح عين الانتباه واليقظة ، فإن الساعة لا تقتضي إلا الحزم ، والتشمير عن ساعد الاجتهاد والعزم» (34) فالرسالة تدل إذن على تراخي المنصور في فترة من أخطر فترات تاريخ المغرب وهي الفترة التي سبقت وقوع معركة وادي المخازن ، فهو تنبيه صارم . ولا شك أن ابن القاضي كان يعرف الكثير من هذا القبيل عن المنصور ، فمن المحتمل أن نفسر عدم تخصيصه لفصل يتعلق بتربيته بمحاولة تجنبه التعرض لمثل هذه الهفوات .

ـــ **الملاحظة الأخيرة :**

كلاهما كفر عن اطرائه ومدحه لدولته بالانقطاع الى التدريس الى حين وفاته .

---

(34) أنظر أحمد الناصري ، المصدر السابق ، 5 : 66 ـــ 67 .

## 2 — بين المنتقى والمناهل :

قبل التطرق إلى المقارنة بين **المنتقى والمناهل** نبدي ملاحظتين أساسيتين :

الملاحظة الأولى : نشير إلى أن المقارنة ستنصب أساسا على الجزء المعثور عليه من **المناهل والمنتقى** ، على أنه ان كنا نتوفر على الجزء الأكبر من **المنتقى** فإن العكس تماما بالنسبة **للمناهل** ، إذ يبدو أننا لا نتوفر إلا على جزء يسير منه (35).

**الملاحظة الثانية :**

إن وضعية الرجلين تختلف تماما ، فالفشتالي مؤرخ رسمي للدولة مطلع على أسرارها ، فهو مطالب إذن بأن يكون الكتاب في مستوى إمكانياته أما تأليف ابن القاضي فهو مجرد اعتراف بالجميل للمنصور ، ويجب أن يدخل في هذا الاطار ، فهو لم يقصد به تاريخ الدولة لأن صديقه الفشتالي كان يقوم بهذه المهمة . وما دام الجزء المعثور عليه من المناهل يتعلق أساسا بحياة المنصور فقد كان من المنتظر أن يسير الرجلان في نفس الطريقة والاتجاه بحكم المعاصرة والاتصال بالبلاط ، وبالتالي فقد كان من المنتظر أن يكرر أحدهما قول الآخر . لكن الواقع يثبت غير هذا ، فكلاهما ينفرد بأشياء لا توجد في الآخر إلى الدرجة التي نستطيع معها أن نقول إن أحدهما لا يمكن أن يعوض الآخر .

ولنبدأ **بالمناهل** لنخلص بعد ذلك إلى **المنتقى** .

**ما يمتاز به المناهل عن المنتقى ؟**

— قوة أسلوب الفشتالي ورصانته ولا غرابة في ذلك فالرجل شاعر أديب اعترف له بالسبق معاصروه ، ومنهم المنصور الذي قال فيه : « إن الفشتالي نفتخر به على ملوك الأرض ونباري به لسان الدين ابن الخطيب » ، وهو بهذا يفوق **منتقى** ابن القاضي الفقيه .

توسعه في المعلومات التاريخية بحكم وظيفته ، وقد أبدع في ذلك أيما إبداع . أما ابن القاضي فإن الهدف كان بالنسبة له دائما هو إبراز عظمة المنصور بدون الدخول في التفاصيل .

— اهتمامه بأحداث أوروبا الغربية ، في حين أعرض عنها ابن القاضي رغم أنه سافر

---

(35) ذكر المقري في **النفح** ، 7 : 82 ، إنه يتكون من 8 مجلدات ، كما ذكر في **الروضة** ، ص 162 ، وهو بصدد الحديث عن مؤلفاته : « ...**مناهل الصفا** المشتمل على عدة أسفار ، أجاد فيها غاية الاجادة ، وذكر ما اشتملت عليه الدولة الأحمدية من الاعلام ، وكذا ما يسر الله لها من الفتوحات التي لم يوجد مثلها في ملوك الاسلام ، أخبرني أنه ذكر في فتح السودان فقط ما تحمله سفر ضخم ، فما ظنك بغيره... » .

وتجول ، بل وأسر من طرف الأوروبيين .

**ما يلتقي فيه المناهل والمنتقى :**

أ ــ نفس محاور الدفاع عن الدولة السعدية الموجودة في **المناهل** توجد كذلك في **المنتقى** وتتلخص في :

1 ــ التأكيد على أحقية السعديين في الخلافة لشرفهم .

2 ــ التأكيد على دورهم القيادي في الجهاد ، وذلك بفتح السودان ، وتهييء الاستعدادات لاسترجاع الأندلس .

3 ــ قوة المنصور وكفاءته في القضاء على الثورات .

ب ــ الاعتناء بالناحية الفكرية : كلاهما أثبت نصوص إجازات معينة ، وتعرض للعلوم التي أخذها المنصور ومدى اعتنائه بالعلماء ، واعتنى بتسجيل قصائد عدد من الشعراء السعديين .

ج ــ الغلو في مدح المنصور ومحاولة تبرير أعماله .

د ــ عدم الاهتمام بالطبقات الشعبية .

**ما يمتاز به المنتقى عن المناهل :**

ليس غرضنا في هذه النقطة استعراض جميع الجوانب المهمة في **المنتقى** ، فهذا الشيء يستطيع القارىء أن يلمسه من خلال الدراسة والتحقيق ، ولكن المقصود فقط هو إثارة الانتباه إلى بعض هذه الجوانب المهمة ، وهكذا نجد في **المنتقى** :

ــ نص وثيقة الوقف المشتمل على عقارات كثيرة أوقفتها أم المنصور عودة بنت أحمد الوزكيتي على المسجد الذي أنشأته بباب دكالة وفيها أنها أوقفت : « جميع السبعين حانوتا غير نصف حانوت الواجبة لها في نصفها من القيسارية المشتركة بينها وبين مساكين المارستان المخترعة لها وسط سوق الحضرة المراكشية دون البقعة المتصلة بقبلتها وجميع بيت الأرحى الجديدة المخترعة لها على وادي تسلطانت القريبة من أرحى أولاد الامين محمد بن قاسم القسطلي وأولاد التاجر عبد الله التناجرفي ، المشتمل على أربع مدارات مع جميع داره المبنية له ... » [36] .

وأهمية هذه الوثيقة تكمن من جهة في تبيين الاملاك الوقفية في المنطقة والجهات التي

---

(36) ص : 258.

حبست عليها ، وتكمن من جهة أخرى فيما تزودنا به بصفة غير مباشرة من معلومات عن اقتصاد حي من أحياء مراكش ومورفولوجيته حين ورد عند الوصف ذكر أسماء عدد من الأماكن ومن التجار ، وهي وثيقة ، رغم صغر حجمها ، مثال على ما لمثل هذه الوثائق الوقفية من أهمية في تاريخ البنية الحضرية لحواضر المغرب .

ـــ ونجد في الباب الرابع وصفا لمهرجان ليلة المولد النبوي بحضرة الخليفة ، وما يقرأ فيها على التوالي من آي القرآن الكريم ، وكلام ابن عباد وقصائد المدح ، والمقطعات الشعرية ، ويفيدنا ابن القاضي ـــ تاريخيا ـــ ان عادة إحياء ليلة المولد النبوي بالقراءة والانشاد كانت قد انقطعت من المغرب منذ عهد بن مرين إلى أن أحياها المنصور [37] ، ويحدد المبالغ التي كان يعطيها المنصور للشعراء آخر الحفل : « ...حتى أنه ينفق في ذلك اليوم من الأموال مالا يحصى كثرة ويعطى كلا على قدره من ثلاثمائة إلى خمس آلاف أوقية ، وقد أنال الفقيه النحوي أبا العباس أحمد الزموري ذات سنة نحو من خمس آلاف أوقية ، وأنا له جنانا بمراكش وأرض حرث وغير ذلك ... »[38] ، وعندما يتحدث ابن القاضي عن اهتمام المنصور بالعدل للنظر في المظالم فيذكر أنه كان : « إذا صلى الجمعة تارة يجلس بمقصورة المسجد وتارة عند ضريح والده ـــ قدس الله روحه ، وأسكنه فسيح جناته ـــ وتارة بقبته الخمسينية التي شادها في بديع أنسه للشكاية ، فتعرض عليه في المواضع المذكورة القضايا ، وترفع له هناك الشكايا ، فيقضي بعدله وقسطه ، ولا يخرج عنه في حالتي قبضه وبسطه ، وربما يعرض عليه شيء منها في أيام الديوان : السبت والاثنين والأربعاء ، بل لابد وأن يعرض عليه منها في كل يوم [39] .

ـــ ثم يقدم بعد ذلك أسماء بعض العلماء والكتاب والوزراء الذين كانوا محل ثقة الخليفة ليتولوا عنه النظر في شؤون المظالم مثل المفتي عبد الواحد السجلماسي ، وقاضي القضاة بمراكش قاسم الشاطبي والفقيه علي بن سليمان التاملي ، والكاتب عبد العزيز الفشتالي ، والشاعر محمد بن عمر والقائد ابراهيم السفياني .

---

(37) أول من جعل من عيد المولد النبوي عيدا رسميا بالمغرب يحتفل به في سائر البلاد هو أبو يعقوب يوسف سنة 1291/691 ، وكان هذا الاحتفال يدخل في إطار سياسة المرينيين تجاه الأشراف ، وقد ظلت هذه السياسة بين مد وجزر إلى حين تولي السلطان أبي سعيد الثالث ( 800 ـــ 1398/823 ـــ 1420 ) الذي أزال مراسيم الاحتفال بعيد المولد النبوي على الصعيد الرسمي .

وقد أحيا المنصور الاحتفال بهذا العيد كما يذكر ابن القاضي هنا . والجدير بالذكر أن التقاليد التي نحتفظ بها إلى يومنا هذا فيما يتعلق بهذا الاحتفال ترجع إلى أيامه ، فقد أعطى له روعة ومظهرا فنيا حيث تعرض الشموع الضخمة المزخرفة والتي تقتصر في الوقت الراهن على مدينة سلا .

(38) ص : 375 ـــ 376.

(39) ص : 409

ـــ مقارنة الأحوال الاقتصادية بالمغرب بالأحوال الاقتصادية بالمشرق العربي فيذكر بصدد أعمال المنصور في هذا الميدان : « وقد رفع ايضا في اقطار ملكه عن رعيته الامكاس كلها كأعشار السلع في المراسي والأبواب وغير ذلك من الوظائف السلطانية التي عمت سائر البرايا ، وعظمت بها البلايا ، مما هو في سائر البلاد ، فمن ذلك أن كل وافد على الاسكندرية يعطي عشر ما بيده وعشر عشره من السلع ، وكذلك أيضا كل خارج منها . ومثله في مرسى جدة وسائر البلاد المشرقية وغيرها . فمن وقف على ذلك يعلم صحة ما قلنا [40] .

ـــ نجد في الباب الرابع والعشرون صورا دقيقة للعلوم التي أخذها اثناء رحلته للشرق ، وكيفية معاملة الأتراك للعرب ، ونصوص إجازات مثل إجازة نصر الدين القرافي [41] و إجازة احمد المنجور بفاس [42] .

ـــ ونجد في الباب الخامس والعشرون صورا من الاستقرارالاجتماعي السائد في عهد المنصور : «اعلم ان مخدومنا اولى ما صرفت اليه همته العلية تمهيد الطرق على المسافرين بمنازل وخيام امر بسكانها على الطريق ، بين المنزلة و المنزلة ما يقرب من اربعة وعشرين ميلا ، يسكنها اهل البادية ، فقد اجرى لهم على ذلك من اقطاع الأرض ما يكفيهم ثوابا لهم على سكناهم هناك وامرهم ببيع الشعير ، والطعام ، واللحم ، والعسل وغير ذلك مما يحتاج اليه المسافر ودوابه ... » [43] .

نستنتج من هذا إذن أن **المنتقى** يحتل مكانة هامة من بين المصادر التاريخية المغربية ، وأن لا غنى للدارس عنه ، لما يبرزه من تطورات سياسية وحضارية واجتماعية خاصة وأن وجوده أغنانا عن الرجوع إلى المصادر الأخرى التي نقلت عنه ، كالمقر في **روضة الآس** ، والأفراني في **النزهة** ، والزياني في **الترجمان المعرب** ، واكنسوس في **الجيش العرمرم** ، والناصري في **الاستقصا** .

* * * *

## عاشرا : النقد التاريخي

هناك مسألتان جوهريتان تستوقفان الدارس وهو بصدد استغلال تلك المجموعة الضخمة من الأخبار التي يحتوي عليها **المنتقى** .

---

(40) ص : 357.
(41) ص : 799.
(42) ص : 777.
(43) ص : 827.

المسألة الأولى :تتعلق بالمحتوى التاريخي .

المسألة الثانية : تتعلق بالتحقيق التاريخي .

فيما يتعلق بالمسألة الأولى : نطرح السؤال الآتي :

ما وزن ما يقدمه المنتقى من معلومات بالقياس الى ما يتركه ؟

إن أهم نقد يوجه إلى المؤرخين المغاربة والعرب بصفة عامة يوجه إلى الكيفية التي يتصورون بها التاريخ ، فهم لا يهمهم في كتاباتهم إلا شيء واحد هو مصدر السلطة في البلاد أي السلطة الملكية والمبالغة في وصفها بالمدح ، وفي هذا الصدد يقول ليفي بروفنسال : « ... ولا حاجة الى القول أن هذا القسم من المؤرخين المتمتعين برضى الحكام يجافون النزاهة والصدق ، ولذا ينبغي أن نقرأ مؤلفاتهم بحذر شديد لأنها مليئة بالتحريف ، وتكيل التملق بالمكيال الأوفى بحيث قد تجعل من أشد السلاطين فجورا وبطشا ، سلطانا مثاليا » [44] ، ويقول في مكان آخر : « وفي الختام يجدر أن نلاحظ أن أصحاب المدونات التاريخية يقتصرون على الاهتمام بالسلطة الملكية وما يحيط بها فحسب ، وأنهم يهملون عن قصد تاريخ البلاد الداخلي الشعبي الذي يدور حول زوايا المرابطين والطرق الدينية ، وقد يكون ذلك اعتبارا للرعاية والاكرام الواجبين لذوي الحكم ، ومراعاة للصراع الخفي والصريح بين السلطة المركزية الملكية وبين الرؤساء الدينيين ذوي النفود الواسع لدى عامة الناس » [45] .

وغير خاف ما في هذا النقد من خطورة ، إذ أنه يضع في ميزان الشك القيمة الاخبارية لكتبنا التاريخية التي هي من صنف المنتقى .

وتتوالى الانتقادات من هذا الجانب أو ذاك وتدور كلها حول نفس النقطة ويمكن للدارس أن يبرز صحة بعض هذه الانتقادات شريطة أن يوضح مدى خطورتها وان يعين موقعها بالنسبة للمجموع .

وهكذا فأول ما يقال بصدد النقد والاعتراض : إن التواريخ من هذا الصنف ــ صنف المنتقى ــ هو تاريخ الملوك والوزراء والولاة فأين هو تاريخ الشعب ؟ لا شك أن مثل هذا القول يترجم رد فعل مشكور من حيث المبادىء ، ولكن المقام يقتضي الانصاف عند الحكم به ، كما يقتضي ألا نستعمل مقاييس عصرنا الذي صار التطور فيه حثيثا في جميع المستويات ، لنطبقها على عصر كعصر المنصور ، فقد يغيب أحيانا عنا أهمية عامل التطور في تعاقب العصور ،

---

(44) مؤرخو الشرفاء ، ص 49 .
(45) المصدر السابق ، ص 53 .

فنتخيل بكل سهولة أن الأموز كانت تسير كما لو كان هناك من جهة حكم قائم ، ومن جهة أخرى شعب يتحرك ويتتبع يوميا القرارات التي يتخذها أهل الحل والعقد والتي ستؤثر على مصيره ، ورأي عام منتبه للأحداث يعبر عن شعور السكان بأجمعهم .

إن الانتقادات الموجهة إلى كتب من صنف **المنتقى** بدعوى أنها لا تقدم لنا التاريخ السياسي للشعب بما ينبغي من التوسع والتفصيل إنما هي انتقادات مبنية على افتراضات وهمية ومسلمات غير صحيحة ، خاصة وأن مؤرخينا لم يهملوا بتاتا الاشارة إلى ردود الفعل الشعبية التي كانت تحدث في النطاق المحلي في شكل ثورات أو حركات عصيانية ، كما فعل المؤرخ الفشتالي في **المناهل** (46) .

وينتج عن هذا إذن أن فكرة تعادل القوى بين الحاكم والمحكوم ، التي يمكن أن نطبقها بكل سهولة على مجتمعاتنا الحالية دون أن نخشى أي شطط في حكمنا قد يؤدي بنا إلى الخطأ والبعد عن الحقيقة التاريخية إذا نحن أردنا أن نستعملها بدون تمحيص لتصوير العلاقات التي كانت قائمة آنذاك بين الدولة المسيطرة وجماهير الشعب .

نعم هناك انتقاد يمكن أن نوجهه لابن القاضي في **المنتقى** ، فهو حينما يقوم بعرضه التاريخي لا يعطينا أدلة كافية تجعلنا نجزم بأنه يتوفر على ملكة التفسير التاريخي ، فهو لا يدرك دائما الصورة المناسبة للربط بين الأحداث ، ولا يدرس دائما بكامل الوضوح عناصر كل حالة مع تقديم المعلومات الضرورية عنها ، كما أنه لا يتتبع دائما حسب منهاج مسطور تطور مشكلة من المشاكل من بدايتها إلى نهايتها ، وهكذا يسدل ستار النسيان على عناصر مهمة جدا أو يكتفي في شأنها بتلميحات موجزة إن لم تكن غامضة(47) .

---

(46) نضيف إلى ذلك أن ابن القاضي نفسه وإن ألف **المنتقى** في المنصور فإن كتب التراجم التي ألفها فيما بعد ( **درة الحجال ــ جذوة الاقتباس ــ لقط الفرائد** ) قد اهتمت بأخبار العلماء والصلحاء والمجاهدين والكتاب والشعراء والمؤلفين ، وحتى الموظفين من قضاة ومتحتسبين ونظار وقواد وكذلك الفنانين من موسيقيين ووراقين .

(47) نذكر على سبيل المثال ما ذكره عن ابن الخطيب ، : « توفي ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب السلماني بسجن فاس مخنوقا... » بدون إعطاء أية إيضاحات تتعلق بالموضوع ولا إبداء الرأي في ذلك .

وعند تعرضه لقضية المعتمد بن عباد : « ...وتوفي في سجن يوسف بن تاشفين بأغمات... » لم يحاول أن يضع القضية في إطارها التاريخي ، وكان من الممكن أن يفيدنا في ذلك .

وكذلك فعل عند تعرضه لقضية القاضي عياض : « ...وحدثني شيخنا أبو العباس أحمد بن علي المنجور أن عياضا لما جيء به مغلولا من سبتة إلى مراكش... » .

ملاحظة :

=

المسألة الثانية : التحقيق التاريخي ، أي ما مدى صحة المعلومات التي أتى بها ابن القاضي ؟ في هذا المجال نسجل ملاحظتين أساسيتين :

أ ـــ سجل ابن القاضي نوعين من الأحداث : أحداث شاهدها وعاصرها ، وأحداث أخرى استقاها من مصادر مكتوبة أو عن طريق السماع ، إذن فمن هذه الناحية يمكن الاطمئنان إلى هذه المعلومات بحكم المعاصرة والسماع المباشر .

ب ـــ يجب مراعاة الظروف التي كتب فيها ابن القاضي **المنتقى** ، إذ أنه كتبه في غمرة الاعتراف بالجميل للمنصور مما يجعله لا يبقى باستمرار في المستوى المطلوب من الموضوعية والتجرد .

إنه رغم كل ما قيل لا يجب أن نتسرع في الحكم على ابن القاضي في **المنتقى** ولا على الفشتالي في **المناهل** ، ويجب قبل كل شيء أن نحاول تفهم الوضعية التي كان يوجد عليها المؤرخ آنذاك ، هل كانت لديه كامل الحرية لينقل إلينا الحقيقة التاريخية كما كان يكتشفها ؟ ألم يكن يشعر بأنه تحت رقابة الحكام الذين لن يتوانوا في معاقبته أشد العقاب إذا ما لاح منه أي انحراف بالنسبة إليهم ؟ بل وأكثر من هذا : هل كان في مستطاعه أن يكون رجلا مستقلا ليس له أي ارتباط ولا يخضع لأي ضغط أو أي تأثير ؟

إن المثقف كان مرتبطا بالدولة من الناحية المادية ، إذ هي التي كانت تضمن له مركزه في المجتمع وتشجعه ، وتمكنه من أسباب الشهرة ، وتفسح له المجال للاتصال بالجمهور ، لذلك فليس من النادر أن يكون المؤرخ من أولئك المحظوظين الذين لهم ارتباط بالبلاط .

وفي بعض الأحيان كانت المبادرة تأتي من الملك نفسه ، والمؤرخ إنما يكون منفذا لارادته وهو يعلم أن كتابه سيجلب له جائزة ولربما فسح له الطريق للتوصل إلى إحدى المناصب السامية في البلاط ، وكيف يمكنه في مثل هذه الظروف أن يوفق بين رغبته في الكتابة الموضوعية وبين الهوى الذي يتولد في نفسه عن المصلحة الشخصية والطموح ؟

ولننظر إلى المسألة من جانب آخر ، فنتساءل :

لو لم توجد في تلك العهود تشجيعات الملوك ومبادراتهم ، هل كان يقدر لهذه الكتب التاريخية أن تؤلف ؟

---

= حاولنا أثناء التحقيق إعطاء الايضاحات المتعلقة بجل القضايا التي تعرض لها ابن القاضي ، وأبدينا رأينا في بعضها .

وهذا التساؤل لا يجوز التهاون بشأنه ، فنحن نعلم الأثر الذي كان لتشجيعات أولى الأمر وجوائزهم في العالم الاسلامي لبروز عدد مهم من المؤلفات القيمة ، سواء في التاريخ أو الأدب أو الطب أو غير ذلك ، بحيث يمكن القول أن السلطة الحاكمة كان لها بوجه من الوجوه نصيب من الفضل في المحافظة على تاريخ بلادنا مهما ظهر لنا فيه اليوم من نقص .

نستخلص من هذا أخيرا أن **المنتقى** رغم ما يوصف به من الغلو في المدح والافراط في الوصف بالنسبة للمنصور فإنه مع ذلك يحتوي على معلومات قيمة وأساسية لدراسة تاريخ المغرب في العصر السعدي ، وأنه إنما وجد بهذا الشكل لأسباب تتعلق بالظروف التي ألف فيها فالكتاب إذن صورة صادقة للاستقرار الاجتماعي والازدهار الفكري في عهد المنصور ، وهذا ما سنبينه في الفصل الثالث من هذه الدراسة .

★ ★ ★

★ ★

★

# الفصل الثالث

## جوانب من الحياة الاجتماعية والسياسية
## والفكرية في عهد المنصور من خلال المنتقى

منهج البحث :

**المبحث الأول : جوانب من الحياة الاجتماعية في عهد المنصور.**

ويقسم إلى مطلبين :

**المطلب الأول : حفظ الأمن الداخلي.**

ويضم :

أ ــ **مميزات الثوارات في عهد المنصور .**

ب ــ **وسائل المنصور للحفاظ على الأمن الداخلي .**

ج ــ **آثار الاستقرار الاجتماعي على الحياة الاقتصادية .**

د ــ **مقارنة الاستقرار الاجتماعي في عهد المنصور بالاستقرار الاجتماعي في كل من الامبراطورية التركية واسبانيا .**

**المطلب الثاني : فئات المجتمع المغربي في عهد المنصور .**

**المبحث الثاني : جوانب من الحياة السياسية والفكرية في عهد المنصور .**

## المبحث الأول
## جوانب من الحياة الاجتماعية في عهد المنصور

### المطلب الأول
### حفظ الأمن الداخلي

جابه المنصور أثناء حكمه مشاكل تتعلق بالأمن الداخلي وصل بعضها إلى درجة الخطورة ، لكن على العموم كان جهاز الأمن في عهده حازما ومضبوطا إلى القدر الذي يجعله يتصرف دائما من مركز قوة ، وذلك لاستخدامه وسائل كانت في مجملها ناجعة .

**أ ــ مميزات الثورات في عهد المنصور :**

#### الميزة الأولى
#### تدخل الأجانب في بعض هذه الثورات

من الملاحظ أن العديد من الثورات كانت هناك للأجانب يد فيها ، خاصة الاتراك والاسبان ، مما جعلها تكتسي شأنا خطيرا ، نظرا لأنها تستهدف السلطة الرسمية نفسها ، أي أنها كانت تريد تعويض حاكم بحاكم آخر .

وفي هذا الصدد نذكر :

ــ ثورة داود عبد المومن بسوس ضد عمه المنصور في شعبان 987 هـ / اكتوبر 1579 م : ( ساء ظنه بعمه ، واتصلت به العصابة التي كانت من أصحاب عمه المعتصم بالله ، فأظهروا له الميل إلى جانبه وجعلوا يوسوسون إليه ويقلون إليه الأقاويل ويبثون في آذانه الالاق ، فتمكنت منه وساوسهم وانطوى على النكث والغدر ، وجعل يرتقب في ذلك فرصة ينتهزها ، وفلته يجدها فيغتنمها ... »[1] . وتؤكد الوثائق التاريخية المعاصرة أن داود بن عبد المومن كان يسعى إلى

(1) انظر ع . العزيز الفشتالي، **مناهل**، 30 .

الوصول إلى درعة والصحراء المغربية الشرقية من أجل الاتصال بالأتراك في الجزائر [2] ، وقد استطاع المنصور القضاء على هذه الثورة في 998 هـ /1580 م بواسطة قائديه محمد بن ابراهيم بن بجة ومنصور بن عبد الرحمان : « ...وزحفت إليه الاجناد من كل جانب ، فطلب منجاته وانجفل إلى القفر ، فنزل على عرب الوداية وبقي يتقلب في أحيائهم حتى أتاه الحين ، وهلك في الغابرين ، فلم تبكه عين ، فجالت العساكر في قطر السوس وانبسطت في جهاته وأركانه ، ومرت في جباله وأوطانه ، ارضا ارضا ، وقطرا قطرا ، حتى دوخت القصى... وجاء الخبر بذلك إلى السلطان ـــ أيده الله ـــ بمعسكره بفم تانوت » [3] .

ثورة ابن قراقوش في منتصف صفر سنة 996 هـ/ يناير 1588 م :

لا نملك وثائق معاصرة تؤكد بأن لفليب الثاني يدا في قيام الثورة، الا أن القرائن المتعددة تجعلنا نعتقد بوجود هذه اليد، ومن هذه القرائن :

1 ـــ قيام ابن قراقوش بجبال غمارة « ... واغترب عن بلده وذهب يتقلب في الأرض منتحلا للمشيخة وطالبا للتلميذ، ولم يزل ينتقل في البادية من حي إلى حي، وكلما اقام بمكان واستوضح اهله خبثه، وفضحه العجب فيما ادعاه ومقتوه انتقل منه إلى مكان آخر غيره حتى وصل إلى جبال غمارة » [4]، والجبال المذكورة قريبة من مراكز الاحتلال الاسباني : سبتة وطنجة وأصيلا.

2 ـــ العدد العظيم من الأنصار الذين تبعوه : « ... وسار خبره في سائر بلاد الهبط وجبالها، فانثالوا عليه من كل فج وطافوا به وانفعلوا لقوله، فركبوا سنن الخلاف واتبعوه ... » [5] وقد صارت ثورته لذلك خطيرة، خاصة بعد أن ادعى أنه من أبناء المولى عبد الله الغالب : « ... ولبس شارة الملك، واتخذ الالة، وتسمى في كتبه بأمير المؤمنين فاضطرمت به سائر بلاد الهبط وغيرها من النواحي نارا... » [6].

---

(2) هناك رسالة موجهة من رمضان باشا حاكم الجزائر الى داود بتاريخ أواخر ربيع الأول 988ـــماي 1580، وقد جاء فيها : « ولما عزمنا الآن على قدومنا الى مدينة تلمسان، فأول ما سألنا عن أحوالكم، وأين استقر مقامكم، لكي ننشئوا معكم تقادم لنا مع أسلافكم، فبعثنا لكم هذا المكتوب لعلكم تعلموننا في جوابكم لنا بما عندكم من مأمول ومرغوب ... فلا تغيبوا عنا شيئا من مقاصدكم السنية » .
ويوجد نص الرسالة بسيمانكاس باسبانيا تحت رقم L-E 114 .

(3) انظر مناهل الصفا، 31.

(4) انظر المصدر السابق ، 46 .

(5) انظر المصدر السابق، 46 .

(6) انظر المصدر السابق، 46 .

3 ــ عدد القوات المحاربة التي أرسلها المنصور ضد الثائر وما كانت تحمل من أسلحة نارية فتاكة : « ...فجهز إليه ــ أيده الله ــ العساكر من فاس في جمادى الثاني من العام على يد ولي عهده ولده الشيخ المامون ــ أصلحه الله ــ يقتادها القائد الشهم أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن بجة ، وكانت زهاء ستة آلاف من الأسل والنار ... » (7) .

4 ــ محاولة ابن قراقوش بعد انهزامه أمام قوات المنصور الفرار نحو إحدى المراكز الاسبانية القريبة : « ...وزحفت إليه هذه العساكر فجمع إليها الدعي من أحزابه جموعا فصمدت نحوهم العساكر وصممت لحربهم ، والناس كل يوم يستوضحون خبء الدعي ، إلى أن اختل بزحف العساكر إليه نظام أحزابه ، فتفرقوا عنه وأسلموه ، فلاذ بالاختفاء ، وغاص في لجج الجبال مدلجا بالليل وكامنا بالنهار ، طالبا منجاته إلى بعض ثغور المشركين بسيف البحر... » (8) .

5 ــ بعد القضاء على ثورة ابن قراقوش شنت القوات المحاربة حملات متواصلة ضد قبائل جبال غمارة وكل جبال الريف ، أي إن المنصور وطد دعائم سلطانه على كل الشمال المغربي حيث توجد قواعد الاحتلال الاسباني (9) .

6 ــ نشير إلى أن المنصور وهو لم يقض بعد على ثورة ابن قراقوش ، بعث إلى الملكة إليزابيث ودون انطونيو بتاريخ 28 ابريل سنة 1588 يعرب لهما عن حرصه الأكيد واستعداده التام لمساعدة دون انطونيو إلى أن يسترد عرشه مما يدل على أن المنصور لم يشك قط في مساعدة الاسبان لثورة ابن قراقوش .

ثورة الناصر بن عبد الله الغالب :

تعتبر هذه الثورة من أخطر الثورات التي واجهت المنصور نظرا للدعم الكبير الذي حظي به الناصر من الاسبان . وهكذا فقد أبحر من مالقا يوم 7 ماي 1595 ومعه قوات جرارة معظمها من المورسكيين الذين كانوا يقاسون سوء العذاب باسبانيا للتعصب الديني ، والذين وجدوا في المشاركة في هذه الثورة فرصة للفرار من جحيم الاضطهاد ، كما وجد فليب الثاني بالمقابل في ذلك وسيلة للتخلص منهم ، ونزل الجميع بمدينة مليلية ، إحدى قواعد الاحتلال الاسباني بشمالي المغرب ، يوم الثلاثاء 17 شعبان عام 1003 هـ الموافق 9 ماي 1595 وأعلن منها الثورة ضد عمه المنصور ، وقد تخوف منها هذا الأخير كثيرا وواجهها بحزم ، ولذلك أسباب منها :

---

(7) انظر المصدر السابق، 46 .
(8) انظر المصدر السابق، 46 ــ 47 .
(9) انظر المصدر السابق، 48 .

1 ــ العدد الكبير من قبائل المغرب الشرقي التي استجابت لدعوة الناصر للأموال الطائلة التي وزعها على رؤساء هذه القبائل ، علاوة على الوعود والأماني التي مناهم بها بعد تحقيق الفوز ، وقد تجمع للناصر من مجموع ذلك قوات جرارة : « ...ثم لحق به سائر الاحلاف فاجتمعوا عليه والتفوا به واعلنوا بدعوته وخرجوا به إلى أحيائهم ففشا أمره بتلك الناحية من أهل الجبال ، فصاروا له من كل أوب ، وتسايلوا إليه من كل صوب ، وتسارعوا نحوه من كل فج ومكان ، قاص ودان ، فاجتمعت لديه جموع لا تحصى ... » (10) .

خرج بها من مليلية نحو تازة التي لم يجد صعوبة كبيرة في فتحها لانضمام عدد من قوات المنصور المسلحة إليه : « ...فتخاذلت منهم فئة ومالت... » (11) وبالاستيلاء على تازة باب المغرب الشرقي أصبح طريق مدينة فاس مفتوحا أمام القوات الثائرة ، كما أن هذا النصر الأولي زاد من حماس الناصر ودفع بالكثير من زعماء القبائل إلى الانضمام إلى الثورة وإعلان تأييدهم لها : « ...فدخلها وأقام بها يومين ، فتسامع به عامة تلك الجهات من قبائلها وأهل جبالها وتسايلوا إليه من كل حدب ، فتكاثرت جموعه وحشوده ، وأتباعه وجنوده ، والتف عليه منهم عالم كثير من العرب والبربر ، يغص به الفضاء ويكاثر عد الرمل والحصى ، واجتمعت إليه من عساكر النازعين إليه عن أعراص بالخزائن والاقوات والنازلين عن حكمه على تازا جيوش وافرة... » (12) .

2 ــ السبب الثاني الذي جعل المنصور يتخوف هو مركز الثورة نفسه . إذ اختيرت جبال الريف بالشمال الشرقي من المغرب كمركز للثورة لقربها من قاعدة الاحتلال الاسباني مليلية حيث يسهل مد الناصر بمختلف المساعدات العسكرية ، ولصعوبة تضاريسها مما يساعد على محاربة قوات المنصور ، ثم لاستراتيجية هذه المنطقة التي يمكن الانطلاق منها نحو مناطق المغرب الشمالية والشرقية، وقد كلف المنصور ابنه محمد الشيخ نائبه على فاس بتوجيه حملة عسكرية ضد الناصر وظل هو معسكرا على نهر تانسيفت وعلى أهبة الاستعداد للتدخل : « ...وتلوم ــ أيده الله ــ بعسكره ببابه أغمات أياما ، ريثما استكملت العساكر أهبة السفر ، فارتحل لنهر تانسيفت... » (13) ، ودخل الناصر في حروب دامية مع قوات المنصور وأحرز في الاصطدامات الأولى انتصارا بسبب تراجع بعض القبائل عن محمد الشيخ ، إلا أن هذا الأخير سرعان ما أعاد الكرة ضد الناصر للامدادات التي وصلته من مراكش ، وجرت معارك حاسمة دارت فيها الدائرة على الثائر الذي حاول الفرار ، لكن ألقي عليه القبض وصحبه ، وسيق الجميع

(10) انظر المصدر السابق، 95 ــ 96 .
(11) انظر المصدر السابق، 96 .
(12) انظر المصدر السابق، 96 ــ 97 .
(13) انظر المصدر السابق، 98 .

إلى فاس [14] .

وتم بذلك القضاء على هذه الثورة التي دامت سنة كاملة « 9 ماي 1595 حتى 21 ماي 1596 » .

## الميزة الثانية
## الانضمام السريع من طرف القبائل لهذه الثورات .

بمجرد إعلان الثورة تتلقى التأييد من الكثير من القبائل ، وهذا نظرا لما يغدقه عليها الثائرون من أموال ، والوعود التي يعدونهم بها ، بالاضافة إلى أن بعض القبائل لم تكن على ما يرام مع السلطة ، إما لماضيها أو لاحتكاكها المباشر مع السلطة في فترة ما .

## الميزة الثالثة
## هناك ثورات ذات طابع محلي صرف .

كان لهذه الثورات أيضا وزنها فيما يتعلق بخلق الاضطراب والتشويش على السلطة ، لكنها على أي حال لم تصل إلى خطورة الثورات السابقة ، مثال ذلك ما أوقعة المنصور بعرب الخلط الذين أسكنهم في ازغار فعاثوا فيه وأكثروا الفساد ومدوا أيديهم إلى أولاد مطاع بالسلب والنهب فكثرت الشكاية منهم ، ثم إنهم تمردوا على المنصور عندما طلب فئة منهم لتكورارين فتصدى لهم ، وفي ذلك يقول عبد العزيز الفشتالي : « ...فشبت لذلك نار الحرب بين الفريقين وجمع عرب الخلط وسائر قبائل ازغار لأولاد مطاع من عرب مراكش فأوقعوا بهم وكنسوا حللهم ولم يفلتوا إلا برؤوس الخيل فامتعض لهم أمير المؤمنين — أيده الله — وأجمع على الانتقام من الخلط وقبائلهم ففرض عليهم الوضائع الثقيلة وكانت تسعين ألفا عوضا عما نهبوه لأولاد مطاع وغيرهم وسرح لاقتضائها منهم فأعطوها عن يد ردعا وعقوبة ، وأبعد عنهم أولاد مطاع وأقطعهم بلاد تالماغت . ثم كانت حركة السلطان — أيده الله — لفاس عام تسعة وثمانين وتسعمائة فرهب الخلط من سطوته بهم فتجافى عنهم وأقرهم على أحوالهم فازدادوا بذلك استفسادا وإغراء بالعيث والنهب والاجلاب على من يليهم من الأعراب بالنهب تارة مجاهرة وبالسرقة أخرى وألحوا بذلك على عرب مراكش وسوس حتى شردوهم من مواطنهم كارهين ثم تخطوا إلى نهب الأسواق وإضرام نار الفتنة ومصادمة الاحكام ونبذ الأوامر وراء ظهورهم ثم حدث شأن الحركة وتجهيز البعوث إلى تيكورارين

(14) انظر المصدر السابق، 103.

من فاس ونواحيها ففرض أمير المؤمنين ـــ أيده الله ـــ على الخلط حصة قليلة من الخيل ينهضون بها صحبة البعوث المعدة إلى تيكورارين فلم يستجيبوا لذلك وتثاقلوا عليه فحق عليهم القول حينئذ... » [15] .

## ب ـــ وسائل المنصور للحفاظ على الأمن الداخلي :

ان اهم مظهر يمكن ان نلاحظه ، ونحن بصدد الحديث عن وسائل المنصور في حفظ الامن الداخلي ، هو ان عملياته كانت دائما تتسم بالعنف ، وذلك لحرصه الشديد على استقرار الاوضاع ، خاصة وان المغاربة عانوا طوال تاريخهم ما عانوه من الشدائد والمحن نتيجة الاضطرابات المروعة التي حلت بالمغاربة والتي كانت لها آثار سيئة على الصعيدين الداخلي والخارجي ، نذكر من بينها بالخصوص سقوط عدد من المدن المغربية بأيدي الأجانب .

وقد لاحظ ابن القاضي ذلك حينما قال : « ... هذا وان أهل المغرب لا يقدر على مجابرتهم ومقاومتهم ملك ، ومع هذا كله أحكم سياسته ، واتفق رياسته ، فينزل الناس منازلهم ، ولا ينقص مقدار أنازلهم ، وقد اشتهر هذا وظهر ، لأهل البادية والحضر ... » [16] وقال ايضا : « ... ومن اعتناء الله تعالى به ، اعانته على الباغين من الثوار ، فإن المغرب كثير الثوار لضعف عقول البرابر الذين بشواهق الجبال فكثيرا ما يصدر ذلك منهم ، فيكسر شوكتهم ، قبل ان تصل الى الرعية شوكتهم ، ولقد قتل من الثوار عددا كثيرا ، لأني ما رأيت اصعب من قبائل المغرب ليسوا كقبائل المشرق في الطاعة وعدم الثوران ، لكن مولانا ـــ ايده الله ـــ درياقهم بيده ـــ اعانه الله على كل فضيلة ، وأذل له كل قبيلة ، بمحمد وآله ـــ [17] .

وقد وجد من بين العلماء من انتقد بالفعل هذا العنف ، ولكن تعليل المنصور لهذا العنف كان أقوى ، اذ ذكر الأفراني : « أن قاضي الجماعة بفاس ابا مالك عبد الواحد الحميدي ـــ رحمه الله ـــ مر ذات يوم مع فقهاء فاس واعيانها لمراكش بقصد العيد مع المنصور كما هي العادة ، فمروا في طريقهم على سلسلة فيها رجال ونساء وفيهم امرأة أخذها الطلق وهي في كرب المخاض ، فرأوا من ذلك أمرا يحزن رائيه ويهم ناظره ، فبقى ذلك في خاطر القاضي ، فلما جلس مع المنصور ألقى له ذلك واظهر منه الشكاية فسكت عن جوابه المنصور وهجره على ذلك أياما ، فلما فهم القاضي غضب المنصور تلطف له في القول واظهر التوبة مما صدر منه وعده بادرة فقال له المنصور : لولا ما رأيت ما أمكنك أن تجيء مع اصحابك عشرة أيام في أمن

---

(15) انظر المصدر السابق، 112 ـــ 113 .
(16) انظر المنتقى. 307 .
(17) انظر المصدر السابق. 849.

ودعة ، فإن اهل المغرب مجانين مارستانهم هي المحن من السلاسل والأغلال ... » (18) .

وقد انتقد الأفراني نفسه هذا العنف وهو بصدد الحديث عن المنصور قائلا : « ... وكان غير متوقف في الدماء ولا هياب للوقيعة في ذلك ، وتتبع ما وقع في ذلك يناقض غرضنا في هذا الكتاب من الأغضاء عن العورات والستر على الفضائح ... » (19) وإذا ما حولنا تفسير هذا العنف نجد أنه يرجع الى سببين اساسيين : أولهما حرص المنصور على ضمان الأمن وعلى ان تسود سلطته في جميع أقطار مملكته ، وثانيهما عناد الثائرين ، وكمثال على هذا السبب الثاني نذكر ما أورده عبد العزيز الفشتالي عند التعرض لعملية فتح تيكورارين : « ... ونهضوا جميعا وضربوا موعدا للقاء بسجلماسة ، فتوافوا بها جميعا وزحفوا الى البلاد وواصلوا الترحال اليها ، ويمموا تيكورارين قبل توات لما كانت احد شوكة واعتمدوا تينميمون منها قاعدة قصورها فنزلوا عليها لسبعين مرحلة من مراكش ، وكانوا قدموا الى اهلها كتاب أمير المؤمنين ـــ أيده الله ـــ بالاعذار والطاعة ، والدخول في حزب الجماعة ، فأساءوا الرد ، ولاذوا بالمنع ، واستعدوا للحصار ، وسولت لهم انفسهم القدرة على الدفاع ، وجعلوا أكبر معولهم على تين ميمون مقر الملوك من قطرها ، ومحل أولي الأمر من ولاتها ، والرؤساء من اهلها ، فارتحل اليها كل من يليها من القصور والقرى ، وشحنوها بالمقاتلة ، وكان نزول الأجناد والعساكر عليها عند الزوال ، ولم يكونوا عولوا يومئذ على الزحف الى حربها ، فتفرقت الأجناد لحاجاتها بعد ضرب الأبنية ، ومر بعض الرماة بساحة البلد فكان اهلها بالمرصاد ، لانتهاز الفرصة فيمن ينفرد من العساكر والأجناد ، فانقضوا عليهم من مكانهم فأستلحموهم ، وجاء النذير بذلك الى الأجناد ، فزحفوا اليهم حينئذ من ساعتهم واحدقوا بهم في معتصمهم ، ونصبوا عليهم مدافع النار ... وضجت الأرض من صواعق النار ... وامتنعوا من القاء اليد ، فأذاقهم العساكر نكال الحرب ، وأرسلوا الصواعق عليهم عامة يومهم ، ووصلوه بالليل ، ولم تمض منه طائفة حتى اقتحموا عليهم البلد غلابا ، وتناولتهم السيوف وانطلقت أيدي العساكر بالنهب في المنازل ، حتى ارتفع النداء بالأمان ... » (20) . وبعد هذا يبقى لنا أن نتعرف على وسائل المنصور في حفظ الأمن الداخلي وهي وسائل متعددة يمكن حصرها فيما يلي :

**اولا : القوات المسلحة :**

وهي أداة فعالة لاقرار دعائم الطمأنينة بالبلاد ولضبط شؤون الادارة والدولة وقد كان المنصور يولي اهتماما كبيرا لتسليحها ، اذ زودها بالمدفعية الحديثة كما جعلها رهن اشارته باعتباره /

(18) انظر **نزهة الحادي**، 158 .
(19) انظر المصدر السابق، 153 .
(20) انظر **مناهل الصفا**، 37 ـــ 38 .

القائد الاعلى وبيده مقاليد الامور .

وكان الجيش المغربي ــ حسب بعض المصادر الانجليزية ــ في مجمله ، من نظاميين ومتطوعين ، يتكون من 40 الف جندي [21] ويعزز هذا الجيش كرديف ما يسمى بعرب الدولة ، وهم القبائل الموالية للدولة وحسب تقدير السفير الانجليزي ( هنري روبير ) فان هذه القبائل كانت على اهبة الاستعداد دوما لانجاد المنصور بقوات من الفرسان والمشاة يصل تعدادها الى 200 الف جندي [22].

وقد تعددت المجموعات السلالية لأفراد الجيش السعدي ، فهناك العرب والبربر والسود والأتراك ، والأوروبيون من اصل إسباني وبرتغالي الذين دخلوا الى الاسلام حديثا ويرجع هذا الاقبال على الجيش السعدي الى ما كان يعطي من ارزاق لأفراده ، ونذكر بهذا الصدد كمثال أن الجنود النظاميين كانوا يتقاضون راتبا كل أربعة اشهر من خزينة الدولة يتراوح بين 50 و 200 دينار ويمكن أن يصل الى 300 دينار ، هذا مع العلم ان القنطار من القمح مثلا كان يساوي 4 دنانير [23].

**ثانيا : الحصــــون.**

كانت القوات المغربية موزعة في حصون ذات مواقع استراتيجية ، منها :

ــ في الشرق وعند الحدود الجزائرية حصن تازة : « وليس الحصن الذي اختطه ــ ايده الله تعالى ــ على بلاد تازة ببعيد من هذه الآثار الضخمة ، والحصون الفخمة ، تشييدا وتوطيدا ومنعة وتحصينا [24] .

ــ بفاس : « اما المدينة القديمة من عمل آل ادريس التي خلل عمرانها المتراصف جلمني الوادي فيكتنفها شرقا وغربا المعقلان الضخمان أناما سر بهما تحت كفالتهما الموطد بالجانب الشرقي منهما الربوة المنيفة ذات الصخر الململوم الثقيل بحجرة قطران تجاه المصلى القديم العيدي من باب الفتوح وبمقابله بالجانب الغربي من المدينة تجاه القبلة من بني مرين وبمصلاهم العيدي قريعة لا بل كبيره الذي يلفه على عظمته في زاوية من زواياه المثلثة الشكل والبناء الرائق البالغ أقصى

---

(21) انظـــــر :

H. de Castries, Sources inéd., 1ere série anglaise, 2 : 222

(22) Loc . Cit.

(23) انظر :

Hespéris-Tamuda, Vol. XIII, Fascicule unique, 1972. P.85.

(24) انظر عبد العزيز الفشتالي، **مناهل**، 185 .

مبلغ الجفوة قد اغرى بهما ـــ ايده الله ـــ عنايته ووكل بشأنهما كفايته فجاء بها آية الاعجاز توطيدا وتحصينا وتشييدا متممي المآرب والمرافق مستكملي التحصين الموافق مسكن الحامية المنتقاة من جيش النار ودار قائدهم وخزائن البارود والرصاص وجباب المياه الرخوة الاجواف وآبار منحوته في الصخر الى قعر البحر من الماء العذب الفرات مستكثرا فيها من الانفاض القاذفة بمارج البارود وشواظ النار والاكوار المعادنية والصخرية التي تذر الجبال كثيبا مهيلا وتلقي من صواعقها على الاسماع قولا ثقيلا ، فعوذ ـــ ايده الله ـــ بهما المدينة من كل طارق يطرق بقهر ، بعزة الله وعنايته الى عابر الدهر » [25] .

وقد بلغ عدد الحصون ـــ حسب المصادر المعاصرة ـــ 30 حصنا ، ولا يعرف بالضبط عدد الجنود في كل حصن [26] .

**ثالثا : صاحب الشرطة :**

وهو الذي يترأس جماعة من الجند تناط بهم مسؤولية المحافظة على الأمن والسهر على سلامة العامة ، ثم القبض على الجناة والمجرمين وتنفذ العقوبات الصادرة في حقهم : « وعقد على الشرطة لمولاه القائد محمد بن سالم ... »[27] .

**رابعا : العامل .**

وهو الذي يتولى حكم عمالة خاصة باسم الخليفة في المجالين السياسي والاداري ، ولم يكن المنصور يتوانى عن معاقبتهم اذا ما حادوا عن الطريق القويم وظلموا الرعية : « ... ومن مشهور مآثره في العدل غلظته ـــ ايده الله ـــ على جبابرة العمال المشهورين بالحيف وارتكاب الجور وموالاة نكايته عليهم بانواع الانتقام وقذفهم في السجون والمضايق مقرنين في الاصفاد وغلق ابواب الشفاعة دونهم ... »[28] .

**خامسا : شيخ القبيلة**

وهناك نترك الكلمة لابن القاضي لأنه فصل المسألة تفصيلا دقيقا : «اعلم ان مخدومنا

---

(25) انظر المصدر السابق، 183 ـــ 184 .
(26) انظـــر :
**Hespéris-Tomuda, Vol. XIII, Fascicule unique, 1972, P. 66.**
(27) انظر عبد العزيز الفشتالي، المصدر السابق، 22 .
(28) انظر المصدر السابق، 134 .

أولى ما صرفت إليه همته العلية تمهيد الطرق على المسافرين بمنازل وخيام أمر بسكناها على الطريق بين المنزلة والمنزلة ما يقرب من أربعة وعشرين ميلا ، يسكنها أهل البادية ، فقد أجرى لهم على ذلك من أقطاع الأرض ما يكفيهم ثوابا لهم على سكناهم هنالك وامرهم ببيع الشعير ، والطعام ، واللحم ، والعسل ، وغير ذلك مما يحتاج اليه المسافر ودوابه ، وفي بعض المنازل من يصنع أطعمة جيدة ويبيعها ممن يستحقها ، وإن باتت لديهم قافلة يحرسونهم طول الليل ويحوطون امتعتهم ، وان ضاع شيء فيما بينهم ضمنوه لربه حتى لم يبق له درهم واحد وإن كان ضياعه فيما بين المنزلتين ضمنه أقربهما منه ، أي من كان ذلك في حدوده الملزوم ، فتجد المسافر في حال ذهابه وإيابه كأنه في بيته وبين أهله ... وليست بلاده كبلاد المشرق التي لا يقدر أحد أن يسافر فيها في البر إلا مع قافلة عظيمة محتوية على آلاف من الناس الحاملين للأسلحة ، وقد يعرض لهم من العرب من يقاومهم فينهب أموالهم ويستبيح دماءهم ... « [29] .

## سادسا : استخدامه لنوع معين من القبائل .

في رسالة بعثها المنصور الى ابنه المامون سنة1011هـ نجده يوصيه بعدم استخدام أولاد طلحة : « ... فالذي نؤكد به عليك أن تنقضهم من الخدمة ولا تستخدم منهم ولو فارسا واحدا أصلا ومن الذين ذكرنا لك ومن غيرهم كافة أولاد طلحة وأمرناك أن تنصل منهم وتقول لهم : أن السلطان منعني من استخدامكم ... » [30] .

ويقول في مكان آخر من الرسالة : « ... واعلم أن من جملة ما بلغنا أيضا أن الخلط كلهم رجعوا رماة على يد مصطفى مع حديث عهدهم بالفساد والخلاف وكنا انتشبنا معهم بالعودات فإذا بهم اليوم بالمدافع وعدة النار وهل هذا مما يجوز عليكم حتى تسمحوا فيه مع أن هذه المسائل ليست بغائبة عنكم حتى تسمعها بالسماع فقط ، ولا طويلة العهد حتى تنساها بل بالأمس شاهدت وباشرت ورأيت فما الذي أنساك فعلهم وما زال جرحهم الان لم يبر ... »[31]، ويقول المنصور ايضا في نفس الرسالة : «... ومن جملة من نحذرك من استخدامه في الرماة اهل الجبال من اهل الصحفة والدينار فلا تستخدم منهم أحدا وإلا فاعلموا أنكم ما اردتم أن يعطوا لكم حينئذ ولا أن يغرموا لكم بعد شيئا وإذا أردتم الخدمة فهاهم أهل هذه البلاد مثل أهل سوس وأهل درعة وأهل مراكش فكل ما تستخدمون من هؤلاء فلا عليكم وإذا لم يكن هؤلاء وكان ولابد من غيرهم فمن اهل فاس سكان الحاضرة وأما من عداهم

---

(29) أنظر المنتقى، 827.

(30) انظر م. الافراني، **نزهة**، 175 .

(31) انظر م. الافراني، المصدر السابق، 177 .

فلا ... » (32) .

ج ــ آثار الاستقرار الاجتماعي على الحياة الاقتصادية :

إن الاستقرار الاجتماعي قد هيأ الاطار الضروري للرفاهية الاقتصادية التي عاشها المغرب في عهد المنصور ، إذ أن توفر الأمن من جهة وتنوع أقاليم الامبراطورية المغربية وتعدد منتجاتها من جهة أخرى ساعدا الى حد كبير على خلق رواج تجاري عظيم في الداخل ، وزادا من تمتين الروابط بين أجزاء الامبراطورية واحكام الصلات بين مناطقها ودفعا بالتالي التجار الأجانب على الاقبال على المغرب للمتاجرة معه .

وكذلك الأمر بالنسبة للناحية الزراعية ، فقد سهر على توزيع الأراضي الزراعية على القبائل لزراعتها والاهتمام بها الى الحد الذي كان يجبر معه أحيانا بعض القبائل الرحل في البادية على الاستقرار بالأرض والاشتغال بالزراعة (33) .

كما وزعت الأراضي على المهاجرين الأندلسيين أيضا : « ... وأقطعتهم الدولة أراضي بالجانب الغربي من فحصها الافيح ، فاغترسوا بها جنات وحصلوا من استغلالها ما أنساهم وطنهم واعتاضهم ما فاتهم ... » (34) .

وقد لمس العديد من المعاصرين الأجانب الذين زاروا المغرب في عهد المنصور ما بلغته البوادي المغربية من ازدهار وانتعاش نتيجة هذا الاستقرار الاجتماعي (35) .

ودعم المنصور هذا الاستقرار الاجتماعي بما وفره له من وسائل الرفاه الاقتصادي ، وتتجلى هذه الوسائل فيما يلي :

ــ تشجيعه للبادية المغربية بحذفه لضرائب كانت تثقل كاهل الفلاح ، ومن أهمها النائبة ، حيث يقول : «... وإن مما أوقفنا الشرع على إنكار أصله ، وفلول حده ونصله ، وفساد جنسه وفصله ، اسم النائبة التي ثقل لمخالفتها للشرع على الآذان سماعها ، وخرجت عن حد السنة وأضاعها ، وأننا مذ صرف الله لطاعتنا عباده ، وحملنا هذه القلادة ، لم نزل نهتم بمحو إسمها وإعفاء رسمها ... »(36) .

---

(32) انظر م. الافراني، المصدر السابق، 178 ــ 179 .

(33) أنظر المنتقى، 827.

(34) انظر عبد العزيز الفشتالي، **مناهل، 20.**

(35) انظر :
H. de Castries, sources inéd. 1ere série anglaise, 2 : 222.

(36) انظر **رسائل سعدية**، 147 ــ 148 .

ـــ التخفيف من الضرائب على التجار : « ... وأما ما جرت به عادة أهل المشرق من توظيف الأمكاس على اموال التجار عند الوصول الى كل مدينة ، وشبه ذلك من المسمى بالغفر عند العرب ، فليس في بلاده ـــ أيده الله تعالى ـــ شيء من هذا القبيل أصلا حتى أن الانسان يكون في أحماله من التبر والياقوت ولا يخشى عليهما في الطريق شيئا ، ولا يعطي على ذلك كله إلا ربع درهم على كل حمل في باب المدينة ، فهذا مما تشرف به المغرب على كل الأقطار لا كما هو معهود في الاسكندرية و مصر والشام وجدة وغيرها من البلاد ، فقد طهر إمامنا ومخدومنا مملكته من هذه النقيصة العظيمة التي عمت بها البلوى ، وحصل بها في الاسلام دهية دهيا ... » (37) .

ويقول ابن القاضي ايضا في **المنتقى** : « ... هذا وقد رفع أيضا في أقطار ملكه عن رعيته الامساك كلها ، كأعشار السلع في المراسي و الأبواب و غير ذلك من الوظائف السلطانية التي عمت سائر البرايا ، وعظمت بها البلايا ، كما هو في سائر البلاد ، فمن ذلك أن كل وافد على الاسكندرية يعطي عشر ما بيده وعشر عشره من السلع ، وكذلك أيضا كل خارج منها ، ومثله في مرسى جدة ، وسائر البلاد المشرقية وغيرها ، فمن وقف على ذلك يعلم صحة ما قلنا » (38) .

ـــ تسهيل المعاملات بالتخفيف من أعبائها : « ... وبالجملة فالرعية مع مولانا ـــ أيده الله ـــ في أهنى عيش وأرغده ـــ أبقى الله للمسلمين أيامه ، وسدد ألويته وأعلامه ـــ . وأما الأحكام الشرعية فلم يقع فيها تبديل ولا تغيير ، كما هو معهود في البلاد المشرقية . فمن ذلك أن القاضي يوظف مالا على الخصمين يقل ويكثر على حسب النوازل ، فمن كان له مال حاضر دفعه، ومن لم يكن له مال ذهب في المجلس الى بعض خدمة القاضي المعتادين للسلف لكل محتاج اليه ، فيتسلف منه ما وظف عليه ويعطي زيادة على كل مثقال ربع عشره عن كل عام مادام في ذمته ، ويكتب الدين بزيادته في سجلات القاضي من غير مبالاة بأمر الدين و الشرائع أصلا . وخطة القضاء هناك تكون من جملة الامساك بمال عظيم مقدم على العقد يدفع للسلطان وجيبة السنة قبل مرورها » (39) .

هكذا إذن نمت التجارة الداخلية بفضل الأمن والاستقرار ، وليس من شيء يهيب بالتجارة إلى توسيع نشاطهم التجاري كاستقرار دعائم الأمن والطمأنينة . وقد تكونت بفضل هذه الظروف فئة تجارية غنية كان لها الدور الفعال في المجالين السياسي والاقتصادي ولا يخفى ما كان لهذه الفئة

---

(37) أنظر ابن القاضي، **المنتقى**، 828.
(38) أنظر ابن القاضي، المصدر السابق، 357.
(39) أنظر ابن القاضي، المصدر السابق، 358.

من دور عملية فتح السودان ، وفي الاجراءات الكثيرة التي اتخذها المنصور لصالح تنمية التجارة المغربية بالداخل .

## د ـــ الأوضاع الاجتماعية السائدة زمن المنصور في كل من الامبراطورية العثمانية وإسبانيا .

### أولا : في الامبراطورية العثمانية :

تدهورت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في تركيا في الربع الاخير من القرن السادس عشر ، حيث توقف التوسع العثماني في مختلف الجهات لأسباب عسكرية وجغرافية ، ولا يخفى ما لهذا التوقف من آثار سلبية على الامبراطورية العثمانية التي اعتمدت منذ نشأتها على الغزو ، وظهر الضعف أيضا في شخصيات بعض السلاطين الذين انسحبوا بالتدريج من المساهمة الفعلية في قيادة الجيش والادارة ، وانقطعوا الى حياة القصر الخاصة ومؤامراته .

وقد انعكس كل ذلك على أجزاء الامبراطورية حيث ازدادت الاضطرابات وتعددت الاصطدامات بين الأهالي والحكام الأتراك بسبب تصرف الحاميات الانكشارية ، عماد التركي في الباشوية ، والمضاعفات الخطيرة التي أوجدها نظام الالتزام ولاستبداد العناصر التركية بالمناصب الرئيسية في مجموع الامبراطورية .

وزاد من خطورة هذه الأوضاع التحول التدريجي لطريق التجارة العالمية من البحر المتوسط الى المحيط الأطلسي منذ اكتشاف أروبا للعالم الجديد والطريق البحرية المؤدية الى الهند والشرق الأقصى ، فقد أخذت تظهر مع السنين مضاعفات هذا التحول تظهر في مختلف نواحي الحياة بالامبراطورية العثمانية ولا سيما في العالم العربي لامتداده على الضفاف الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط الذي دخل في مرحلة جديدة من تاريخه تتسم بنوع من الضعف والركود وتتصف باضطراب الأمن وانتشار القرصنة ، مما زاد أحوال البحر المتوسط سوءا وتسبب في انفصام عرى الاتصال بين شعوبه بما في ذلك المناطق العربية الخاضعة للأتراك .

ونتج عن العوامل الاقتصادية السابقة ضغط على النقد العثماني ، ولم تستطع موارد الدولة من المعادن تلبية الحاجة المتزايدة للنقد ، وحدث في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، والأزمة النقدية العثمانية في أوجها أن تدفقت الفضة والذهب الى بلاد البحر الأبيض المتوسط من العالم الجديد ، وذلك بواسطة المستعمرين الاسبان ، فارتبك النقد العثماني تبعا لذلك وانهارت قيمة وحدته الفضية ، وهي الأقجة « تسمى أيضا أسبر » وارتفع سعر الذهب وقل وجوده

بسبب ازدياد قيمته بالنسبة للفضة [40] .

وهكذا أخذت مظاهر الأمن والاستقرار في الامبراطورية العثمانية خلال أواخر القرن السادس عشر تضعف وبدأت بالتالي نواحي الحياة الاقتصادية تعرف نوعا من التدهور ومع الأيام أخذ الاستياء والتذمر في البلاد العربية يشمل سائر الطبقات وينمو تدريجيا الى اصطدام وثورة مسلحة ضد الحاكم التركي والحامية التركية التي لم تكن تتوزع عن القيام بجميع أنواع القسوة والتنكيل ، كما أخذت بعض الحركات الاستقلالية تبرز بين الآونة و الأخرى وكانت تسعى الى الخروج عن الأتراك ، وقد حاول المنصور الاستفادة من هذه الأوضاع المضطربة في أجزاء الامبراطورية للدعوة له وذلك باحكام الصلات مع كبار العلماء والفقهاء بالعالم الاسلامي شعورا منه بالدور الذي يقوم به هؤلاء لدى عامة الناس ، وبارسال الدعاة الى الشرق الاسلامي ، وبالفعل فقد تمكنوا من استمالة عدد كبير من عرب المشرق : « ... ولقد حضرت مجالس ذكر فيها من مصر ، والاسكندرية ، والصعيد ، وجدة ، ومكة ، والمدينة — على ساكنها الصلاة والسلام — لما طنت في آفاق العالم حصاته ، وتعيت عن حمل حسناته بغزوته حفظة القول وحصاته ، فكادت قلوب الناس أن تتفطرإليه شوقا وودا ، أن يكونوا تحت رايته ، ومن الذين دخلوا في سلك بيعته ، وكثيرا من أهل المشرق الذين عليهم الحل والربط حلف لي بالايمان المغلظة التي لا يمكن نقضها أنه لو رأى جارية من جواري مولانا اقبلت بالدعاء لطاعته للانقياد إليه لكان أول مطيع لها هو وأهله من ذلك لشدة وطئته على عرب مصر والصعيد وبعض عرب إفريقية ، وما هذا إلا لمحبتهم فيه ، واشتياقهم لطلعته السنية ، وإمامته العلوية ، وحدثني بعض من أثق به أنه جلس ذات يوم بجرجة من بلاد الصعيد قاعدة إمارة بني عمر مع أميرها يونس بن عمر وتفاوضا في غزوة مولانا وماله من العدل والمآثر الحسنة ، والسير المستحسنة ، فتأوه لذلك وتاقت نفسه للدخول في سلك بيعته ، واعلمه يونس المذكور أن خبر الغزوة دخل عليه وهو مسجون برودس ، وأعلمه والحاضرين أن أمرها عظم على الترك جدا غيرة منهم أن يكون مثلها على يد أمير عربي فامتلأوا منها غيظا وامتلأ العرب منها سرورا ... »[41] .

**— المغرب العربي :**

كانت المنطقة منذ الفتح العثماني تخضع لحاكم تركي برتبة « بيلرباي » أي أمير الأمراء ، وكان مقره بالجزائر باعتبارها الحدود الغربية للامبراطورية العثمانية كما كان نفوذه المطلق يشمل المنطقة الممتدة بين الجزائر ومصر .

---

(40) انظر عبد الكريم رافق، **بلاد الشام ومصر**، 182 .

(41) انظر ابن القاضي، **المنتقى**، 846.

وفي سنة 1587 توفي علوج علي [42] أمير البحر ، فاستدعى السلطان العثماني حسن البندقي [43] إلى إسطنبول وولاه أميرا على البحر ، أما المغرب العربي فقد قسم إلى ثلاث ولايات ، وهي : الجزائر ، تونس طرابلس على أساس أن يولى على رأس كل ولاية والي لرتبة باشا لمدة ثلاث سنوات ، وهذا التغيير يدل من جهة على أن السلطان العثماني كان يسعى إلى تقوية نفوذه بالمغرب العربي عن طريق تجزئته ويدل من جهة أخرى على أن الباب العالي قد سلم بالوضع القائم بالمغرب ، ولم يعد السلطان كالسابق يسعى إلى بسط نفوذه على الجزء الغربي من المغرب العربي لما أبداه السعديون والمولى أحمد المنصور من حرص شديد على استقلالهم مستغلين الظروف الدولية لابعاد التهديد التركي عن بلادهم .

وكنتيجة لتجزئة الادارة العثمانية بالمغرب دخلت هذه الولايات في مرحلة جديدة من تاريخها تتسم بانتشار الفتن والاضرابات [44] . وترجع اسباب هذه الفوضى إلى الصراعات الدامية التي كانت تجري بين الأتراك والأهالي وإلى استبداد قادة الانكشارية بالسلطة والذين أصبحوا يقومون بتعيين الحكام من بينهم مع ما يصاحب ذلك من التعسف وسوء استعمال السلطة .

## الوضع السياسي والفكري بالجزائر :

### ـــ الوضع السياسي :

بدأ الحكم التركي بالجزائر انطلاقا من سنة 921هـ / 1515م واستمر حتى سنة 1246هـ / 1830م ، وقد قسم بعض المؤرخين الأوروبيين فترة هذا العصر الرئيسي إلى أربعة

---

(42) علوج علي : من اسرى نصارى (كلا بر) بصقيلية، تربى في احضان القراصنة ووصل اعلى مراكز البحرية عند الاتراك، وولاه السلطان بكلربك شمال افريقية ورحل الى الجزائر يوم 3 غشت 1568، وقد عرف ببطولته وشدة حروبه في البر والبحر، كما شارك في معركة (ليبانتو) الشهيرة سنة 1571، وفي فتح تونس سنة 1574، عين أخيرا قائدا عاما للاسطول العثماني .

(43) حسن البندقي : من الاسرى الايطاليين، تولى بكلربك شمال افريقيا في يونيو عام 1577، عرف بجده وحزمه، وقد دعاه السلطان مراد الثالث الى اسطنبول للاحداث الداخلية التي عرفها الشرق الاسلامي سنة 1580، الا انه اعيد الى الجزائر سنة 1583، وقام بدور هام في اخماد اضطرابات داخلية بشمالي افريقية، ومما عرف به اعمال القرصنة الواسعة التي قام بها في غربي البحر الابيض المتوسط، ومساعدة المورسكيين المضطهدين باسبانيا على الانتقال نحو شمال افريقيا، وبعد وفاة علوج علي سنة 1587 عينه السلطان مراد الثالث اميرا عاما للبحرية العثمانية .

(44) خير من يحدثنا عن اضطرابات افريقيا شمال افريقيا بعد تجزئتها سفير المنصور الى مراد الثالث، علي التمجروتي، الذي دون رحلته من تطوان الى استطنبول في كتابه **النفحة المسكية، في السفارة التركية**، فهو يقول ـــ مثلا في الصفحة 70 من كتابه : « ... هكذا اهل افريقية كلهم من الذل والاهانة، فوجب ذلك استباعهم لكل ناعق، واتباعهم لكل قائم، رجاء أن يجدوا الفرج معه » .

عصور فرعية ، منذ بداية التنظيم الاداري التركي بالجزائر .

**أولها : عصر باي لارباي ( باي البايات ) 940هـ ـــ 993هـ / 1534 ـــ 1585م .**

**ثانيهما : عصر الباشوات ( ذوي ثلاث سنوات ) 993هـ ـــ 1069هـ ـــ 1585 ـــ 1659م .**

**ثالثها : عصر الآغوات 1069 ـــ 1082هـ / 1659 ـــ 1671م .**

**رابعها : عصر الدايات 1082 ـــ 1246هـ / 1671 ـــ 1830م [45] .**

**وعلى ضوء هذا التقسيم يتضح لنا أن الفترة التي تهمنا تشمل العصرين الأول والثاني .**

وقد كانت الحكومة الجزائرية التركية في هذه الفترة تموج في بحور من دماء الثورات الداخلية ، التي اندلع أوارها في أعراش القبائل ، وانفجر بركانها في أحضان البدو ، وربما امتدت ألسنة لهيبها إلى عواصم المدن [46] . والسبب في ذلك يعود إلى سوء معاملة الحكام للرعية وإغفالهم لشؤونهم الضرورية واشتغالهم بالركض وراء السلطة وحب الانفراد بالرئاسة . وقد أدى ذلك بهم لقتل جلهم في مناصبهم ، شنقا مرة ، وخنقا تارة وذبحا تارة أخرى [47] .

ونكتفي في هذه العجالة بذكر بعض الثورات التي قامت في هذه الفترة ، منها :

ـــ ثورة أحمد مقران سيد بجاية في نواحي حمزة والساحل الجزائري [48] .

ـــ ثورة قبائل زواوة ضد الأتراك ، ولم يتمكن أي أحد من الباشوات إخمادها [49]

ـــ ثورة إمارة كوكو في مجاجة [50] ، ولا يستبعد أن تكون للمنصور صلات بهذه الامارة خاصة وأنها غير بعيدة عن الحدود الشمالية الشرقية لمنطقة تيكورارين المغربية وإلا فما الداعي لاطلاع سليمان باشا ـــ والي الجزائر ـــ المولى أحمد على انتصاراته على الأمير عمر بن عمر بن

---

(45) انظـــــر :

L'Encyclopédie Turque, Tome 10, p 324.

(46) انظر محمد بن عبد الكريم، مقدمة تحقيق **التحفة المرضية، في الدولة البكداشية،** ص 15 .

(47) نفس الصفحة والمصدر .

(48) انظر عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، 2 : 361 .

(49) انظر عبد الرحمان الجيلاني، المصدر السابق، 2 : 359 .

(50) امارة مجاجة قرب الاصنام، وهي منطقة جبلية وعرة، فضل تأسيسها الى قاضي بجاية الشيخ احمد بن القاضي، احد المجاهدين ضد الغزو الاسباني، ومن الذين مهدوا لنشر النفوذ التركي بالجزائر وعندما اغتاله الاتراك عام 933 هـ /1527 تزعم ابناؤه المقاومة ضد الحكم التركي، وربطوا لأجل ذلك صلات مع الاسبان .

القاضي في رسالة يؤكد له فيها تعاون الثائر مع الاسبان ؟

وكان جواب المنصور : « ... وأما ما عرفتم به من حال ابن القاضي صاحب كوك وصلة يده بيد الطاغية ، صاحب إسبانية — دمره الله وقذف به وبطواغيت الشرك في بحبوحة الهاوية ، وما كان من إرساله إليه بالهدية ، فيحيط بعلمكم أن هذا الخبر كان قرع أسماعنا الكريمة على ألسنة العوام ، فلم نصدقه لاستغرابنا أن يرضي أحد الانتصار بالكفر على الاسلام إلى أن جاءنا كتابكم فزال الشك والريب واتضح مازر عليه منه الجيب ، وكل من له سعي في خذلان الاسلام وتفريق كلمته ، فالله تعالى بفضله خاذله ، ومنزل به عاجل انتقامه وآجله ، ثم اعلموا أنه أن آنستم من جانب الكفرة — دمرهم الله — عمارة تنشأ أو أسطولا يؤم ناحيتكم ويغشى ، واحتجتم إلينا فنحن — بحمد الله — بأنفسنا وأموالنا وأجنادنا موجودون لنصرتكم على أتم أهبة واستعداد ، واحتفال لا يزال لنكاية الكفر بحول الله بالمرصاد ، وآذاننا صاغية لداعيكم ، وهبوب صوت مناديكم ، ومتى ناديتكم وأفيناكم بحول الله بعساكرنا المظفرة بالله خيلا ونارا ، وأسود بجهاد تزأر في ذات الله نهارا ، فإن كلمة الله الاسلام في النصرة على أعداء الدين واحدة وعلى أرغام أنوف المشركين بحول الله متعاضدة » (51) .

ورغم التعاطف الذي أبداه المنصور في رسالته الجوابية فإنه في واقع الأمر لم يكن مطمئنا إلى الأتراك في الجزائر ، بل كان دائما ينتظر الفرصة الملائمة لنشر دعوته . وهكذا فقد كان يأوي عددا من أمراء بني زيان ومنهم محمد الواثق الذي كان يجد في المنصور كل عون ومساعدة على مهاجمة خصومه الأتراك بالجزائر « السلطان الأجل ... فيليب ... كتبها محمد الواثق الشريف الزياني ابن صاحب إمارة المغرب الأوسط ... وتولى مولاي أحمد ... ومات أبي فخلفت أنا الحروب التي كانوا يحاربوا أهلنا مع الترك وجهزت لهم محلة في حياة مولاي أحمد وأخذت لهم ناحية من البلاد وكانت الحرب مرة علينا ومرة عليهم كعادة الأيام وكنت مع مولاي أحمد كأحد أولاده على وجه الضيافة وكان لي نصيب في طاعة المغرب من بلاد وإقامة وغير ذلك » (52) .

### — الوضـــع الفكـــري :

ولم يكن الوضع الفكري بالجزائر باحسن حال من الوضع السياسي ، فالأتراك لم يكونوا في يوم ما دعاة ثقافة وإنما كانوا رجال حرب ، وهكذا فقد ظل الوضع الثقافي بالجزائر يعرف تدهورا مستمرا إلى أن وصل إلى الوضعية التي سجلها أبو سالم العياشي حيث يقول : « ...

---

(51) انظر رسائل سعدية، 143 — 144 .

(52) نص الوثيقة في المجلة التاريخية المغربية (تونس)، عدد 2، 125 .

**ملاحظة : البيان والأخطاء موجودان بالاصل.**

وكان دخولنا لمدينة ( ورقلا ) عشية الخميس ، وأقمنا يوم الجمعة ، وصلينا بجامع المالكية ، وخطب الخطيب بخطبة أكثر فيها اللحن والخطأ والتحريف والتقديم والتأخير مع إدغام أكثر حروفها ، حتى كأنها همهمة ، فكنت أتخوف أن لا تصلح لنا معه الجمعة — إن كانت صلاته كخطبته — ، فنجى الله فأحسن في قراءة الفاتحة ، فما ظننا أن صلاتنا معه مجزئة ، ودعا في خطبته للامام المهدي ثم للسلطان الأعظم الخاقان الأفخم : محمد بن إبراهيم بن مراد ...فلما فرغ من الصلاة بعثت بعض أصحابنا ليسأله عن المهدي المدعو له في الخطبة ، أهو المنتظر ؟ أم أحد المنتحلين ذلك لمن مضى ؟ فسأله عن ذلك فإذا هو لا يفقه شيئا من ذلك ، وقال : أظنه النبي — صلى الله عليه وسلم — . فعلمت أنه وجد الخطبة مكتوبة في صحيفة عنده وحفظها كما وجدها ، إلا أنه لم يحرر حفظها ونقلها ، ولعلها من خطب بعض من كان أيام المهدي بن تومرت ، زاد فيها هو الدعاء للامامين اللذين في عصره ... » (53) .

واستمر مسلسل التدهور بشكل مروع سجله الحسين الورثلاني (54) حيث يقول : « ... ولما دخلت مسجدها (بسكرة) لم أجد قارئا ولا مدرسا ، سوى رجل واحد متى يقرأ لوحه — وهو ملقى أمامه — يقرؤه على غير أدب ولا استقامة . وأخبرني بعض أصحابنا أنه وجد رجلا واحدا يسرد **البخاري** وحده ، ووقف عنده وقال له : رح ياحاج ، ووجد آخر كذلك . ولعمري أن هذا أدل دليل على الخراب وأقرب الأسباب له ، بدليل ما روي عن النبي ﷺ أنه قال : إذا أراد الله عمارة قوم بدأ بما فيهم ، وإذا أراد خرابهم بدأ بما له فيهم ، أو كما قال : قال ﷺ . ولقد بدأ الله هذه البلدة بخراب بيته ، فهو أقوى الدلائل على خراب البلد وموته . ولقد مرضت من ذلك الأحشاء، والله تعالى يفعل في ملكه ما يشاء ... ويعذب من يشاء ويرحم من يشاء... »(55)

وهكذا فقد كان طابع الحركة العلمية آنذاك هو الجمود والانحراف ، يقول الباحث الجزائري محمد بن عبد الكريم في هذا الصدد : « ... وقد كانت الحركة العلمية — آنذاك — دينية تمت إلى العلم الظاهر وصوفية في آن واحد ، بيد أنهما ضئيلتان ، فالدين الظاهر قد أصبح تقليدا أعمى ، معتمده الحفظ الجاف لنصوص الحديث واجترار الأراجيز الفقهية والاذكار الصوفية ، وضبط ست وستين عقيدة ليخرج المكلف من ربقه التقليد :

**إذ كل من قلــــد في التوحيـــــد إيمانـــــه لم يخـــل من ترديــــد**

---

(53) ماء الموائد، 1 : 46.

(54) انظر ترجمته عند بن محمد بن عبد الكريم، المصدر السابق، أص 78 — 79.

(55) **نزهة الانظار، في علم التاريخ والاخبار**، ص 92 .

وقد كان جل علماء ذلك العصر لا يحكمون العقل ، بل ينحون نحو التسليم إلى من سبقهم من رجال التقليد ، ويرون في الأخذ بالمنقول أصوب منهج لمن اتبع سنة الله ورسوله ، حتى أنشد بعض علماء العصر :

**خبرا عنـــي المريـــد بأني كافـــر بالـــذي قضتـــه العقـــول**
**ما قضتـــه العقـــول ليس من الـــد ين بل الديـــن ما حوتـــه النقـــول**

أما التصوف فقد تحول إلى دروشة ، تتبلور في التوسلات بالأضرحة والقبور ، والتسلي ببسط الأكف عند المزارات في الحل والترحال ، والركون إلى الخرافات الخيالية ، وكل من يتصفح مؤلفات ذلك العصر الخامل ومصنفاته الباكية يجد نفسه يعيش في عالم الأموات ، فهذا يرقب خروج الدجال من المشرق ، وذاك ينتظر ظهور الدابة ، وذاك يتوقع انقضاء الدين وفناء المادة ، والنفخة الأولى في الصور ، ومن ظفر **بكتاب ابن سيرين** لتأويل رؤياه ، فقد فاز بكل ما يتمناه ... » [56] .

## الوضع السياسي والفكري بتونس :

نورد في البداية نصا مهما للمؤرخ التونسي حسين خوجة [57] يلخص بدقة الوضع السياسي والاداري بتونس في هذه الفترة إذ يقول : « ... وقد تقدم ذكر فتح حلق الوادي ، لست مضين من جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة ، على يدي الوزير الأعظم والسردار الأكرم سنان باشا ـــ رحمه الله ـــ . وقبل عوده ورجوعه ، إلى جانب السلطنة العلية ، خلف في مدينة تونس لمحافظتها ، أربعة آلاف عسكري ، وهي دار معينة من ديار عسكر الينجرية بآغاتهم ومقدمي عسكرهم . وانتخب منهم أربعين رجلا ، من صناديد الرجال الغزاة المجاهدين ، يسمى كل منهم باسم داي ، كناية عن أصحاب الشجاعة والخصال ، وقدم كل رجل من الأربعين على مائة من الأربعة آلاف عسكري ، لوقت الحاجة ، ومدافعة الأعداء . وقرر بها أيضا أمير الأمراء الكرام ، المعين من الباب العالي المعظم حيدر باشا لمحافظة البلاد .

وعين أيضا أمير لواء لضبط الأوطان ، وتقرير رعاياها ، واستجلاب جباياها رمضان باي .

وعين لها أيضا قاضيا لاجراء الأحكام الشرعية بين الناس ، وهو العلامة المولى حسين أفندي ، ومكث بتونس وتزوج بها ، وله عقب إلى الآن معروف . ودون دواوين مرتبات العساكر ،

---

(56) المصدر السابق، ص 49 .
(57) انظر ترجمته عند : الطاهر المعموري، مقدمة تحقيق **ذيل بشائر أهل الايمان**، ص 60 ـــ 78 .

وعلوفاتهم حسب مراتبهم ووظائفهم ، وتركهم على هذا النظام ، وكر عائدا إلى دار السلطنة اسطنبول .

وقد اقتبس أيضا اقتباسات من ديوان مصر والجزائر . وبقيت أحكام العساكر ، ومرجع أمرهم ، لنظر آغاتهم وديوانهم ، ووالي البلاد الباشا ، وأمير الأوطان الباي في تصرفاتهم واستجلاب الجبايا، وضبط الأموال، لتصرف في مرتبات العساكر. واستمروا على هذا النظام برهة من الزمان، ولكن حكام أهل الديوان عظمت شوكتهم ونفذت كلمتهم، وجاروا في أحكامهم ، وبلغ من جورهم ما عم سائر الناس خصوصا على العساكر ، فضجروا من ذلك ، فكان آخر أمرهم ، أن قام العسكر منهم ، وأوقعوا السيف والقتل في كبار أهل الديوان . وفي ساعة واحدة قتل ثمانون نفرا من طائفة البولكباشية ، وقطعوا رؤوسهم ، وألقوها قبالة باب قصبتها . وكانت فتنة عظيمة سنة تسع وتسعين وتسعمائة فتداركها العقلاء ، وحضرة الباشا وأعيان العسكر . وعقدوا ديوانا باتفاق من عسكرها ، أن يقدموا من ينظر في أمرهم واحدا من الدايات الأربعين المقدم ذكرهم ، ولا يتصرف أهل الديوان في عسكر يولداش إلا بمشورة المقدم الذكر ... » [58] .

وهكذا فبعد أن احتل سنان باشا تونس ، وطرد الاسبان من آخر معاقلهم التي تحصنوا بها سنة 982 /1574 [59] . انتقى أربعة آلاف من الانكشاريين [60] الذين جلبهم معه لحماية البلاد والمحافظة عليها . وكان على رأس كل مائة جندي بولوك باشي [61] . وعددهم أربعون يتألف منهم ديوان [62] الانكشارية . ويقود الجميع الآغا [63] يعينه في القيام بمهامه نائب ، وثمانية شواش ، وكاتبان ومترجم .

أما حكم البلاد فقد أسند للباشا الذي يسميه الباب العالي [64] مباشرة مستعينا في ذلك بالديوان الذي يتشاور معه في الشؤون الهامة [65] . واهتم الباشا كذلك بجمع الضرائب ، الذي

---

(58) انظر **ذيل بشائر أهل الايمان**، ص 87 — 89 .

(59) انظر عزيز سامح، **الأتراك العثمانيون في شمال افريقيا**، 258، P.Dan, Histoire de Barbarie, P.144.

(60) انظـــر :

J. Pignon, La milice des Janissaires au temps des deys (1590 — 1650), C.T. N° 15.

(61) قائد أو رئيس سرية، وتشير اليه المصادر باسم داي .

(62) خصص سنان باشا مقاعد في الديوان لأهل الحاضرة تأليفا لقلوبهم .

انظر : ابن ابي لضياف، **الاتحاف**، 2 : 27 .

(63) انظر :

CL. Huart, art sur Agha. EI. 1913. T.I, P.184.

H. Bowen, Art sur agha. EI. 1960 T.1, P. 253 — 254.

(64) انظـــــر :

J. Deny, Art sur Bad l'Ali . E.I. 1960, T. 1 P. 859 .

(65) انظر عبد العزيز سامح، المصدر السابق، ص 288 .

يرسل من أجله الباي [66] مستعينا بالبعثات العسكرية التي كانت تمهد البلاد ، وتنشر فيها أمنا نسبيا بين القبائل ، حتى يسهل عليها جمع الأداءات .

وقسمت البلاد الى ولايات ومناطق عسكرية، وعين على رأس كل منطقة ضباط وعسكريون وولاة . وتحددت مرتبات الجنود، والكتاب، وموظفي الديوان . وهذه التنظيمات المختلفة وقع اقتباسها من الولايات العثمانية الأخرى كمصر والجزائر .

ولكن هذه التنظيمات الادارية كانت كثيرا ما تختل بسبب سلطة الانكشاريين، وخاصة أعضاء الديوان الذين غرتهم نشوة الانتصار العسكري فتجاوزا حدود نفوذهم [67] . ولعل الغنائم الكثيرة التي كان يتحصل عليها ريابنة البحر دفعت عساكر الانكشارية للتفتيش عن مصادر للمال في البر، فتكالبوا على الثروة، وجمع المال الذي كان من أهم أهدافهم عندما تسابقوا للمشاركة في حملة سنان باشا .

وعندما يجرى تغيير في الولاة، يطلبون بزيادات في مرتباتهم أسوة بما يجري في تبديل السلاطين . ولايجاد هذه الأموال كانت تزداد الضرائب على الشعب، الذي اضطر الى ترك البلاد أمام تمردهم وعجزه عن الدفع .

وبينما كان الانكشاريون يفعلون ذلك، كان حكام الألوية يسلبون أموال الأهالي لحسابهم أما السكان فوسيلتهم كتابة رسائل التذمر من الوضع الى الباب العالي لكنها تظل بدون جواب [68] .

### ثـــورة سنـــة 999 /1591

اندلعت بسبب هذه الأوضاع ثورة عساكر الانكشارية [69] فقتلوا فيها أعضاء الديوان بسبب تجبرهم وظلمهم للجنود . عند ذلك تدخل الباشا [70] وأعيان البلاد، وقرروا اجراء تعديلات جديدة في نظام الحكم . منها : تعيين الداي رئيسا للدولة وابقاء الباشا شخصا شرفيا،

---

(66) يشك السراج في وجود الباي زمن الباشا .
(67) انظـــر :
A. Rousseau, Annales Tunisiennes, Alger 1864, 1 Vol. P. 33.
(68) نفس الصفحة والمصدر
(69) انظر ابن أبي دينار، المؤنس، 190 .
(70) يظهر أن الوالي في ذلك الوقت هو حسين باشا.
انظر عزيز سامح، المصدر السابق، ص 292 .

يلبس الخلعة السلطانية [71] ، ويمثل مصالح الباب العالي .

وتذكر المصادر أن أول باشا حكم البلاد وهو حيدر باشا، وسكتت عن بقية الباشاوات الذين تعاقبوا في الحكم الى اندلاع ثورة الجنود سنة 999 /1590 ، الا سامح عزيز [72] الذي قدم قائمة في الباشاوات وهم : حيدر باشا الذي حكم البلاد الى أواخر سنة 983 /1575 ، رجب باشا الذي أظهر في أول الأمر حنكة وعدلا ومقدرة، فأعرب السكان للسلطان عن سرورهم به الا أنه سرعان ما خاب أملهم فيه، فعزل وعوض بحيدر باشا مرة ثانية ، الذي وجهت ضده شكاوي عديدة الى الآستانة، فعوض برمضان، الذي استمر حاكما الى سنة 987 /1579 . ثم جاء بعده جعفر باشا فمصطفى فحسن [73] وهكذا إلى سنة 999 /1590 ، السنة التي اندلعت فيها ثورة الانكشارية .

ومدة حكم الباشا هي ثلاث سنوات، وهو وقت قصير نسبيا لا يستطيع معه النظر في مطالب السكان، ولا اقرار طريقة سليمة في الحكم [74] . والملاحظ أن النظام السياسي الذي سنه سنان باشا، كان يعتمد على السرعة ــ شأن النظم التي تفرض اثر الحروب ــ وتنقصه الاعتبارات الانسانية، بالاضافة لفوضى الانكشارية، وتدخلهم في كل أمر، وافسادهم ادارة الولاة والقضاء [75] .

كان جنود الانكشارية يقضون جل أوقاتهم في الفتنة والشغب، يخترعون أنواع البدع : يجبون الأموال ولا تعطى للخزينة، ويغتصبون أراضي الأهالي فيزرعونها ويحصدونها بدون دفع ضريبة الدولة . ويسجلون أبناءهم وخدامهم في قوائم المرتبات [76] .

وقد كانت هذه المساويء هي الهموم المشتركة للولايات العثمانية في الغرب بصورة عامة . فما يقع في تونس يعاد مثله في طرابلس أو في الجزائر . ولا يمكن الاصلاح لأن المسيءُ هو المسؤول نفسه . وكل والي يعين يؤمر بالتحقيق في مساوىً خلفه فيرتكب أكثر منها [77] . وبعد حادثة الانكشارية واستلام الدايات للنفوذ، وتخلي الباشاوات عن الحكم . لم نعد نعثر في المصادر المختلفة على وجه من وجوه النفوذ عندهم، الا بعض الاشارات لأسماء الذين استمرت السلطنة

---

(71) انظـــر :
CH. A. Julien, Histoire de l'Afrique du nord, P. 276.

(72) المصدر السابق، 277 ــ 303 .

(73) انظر الجدول الذي وضع في أسماء الباشوات عند حسين خوجة، **ذيل بشائر أهل الايمان**، ص 327 .

(74) انظر، الطاهر المعموري، المصدر السابق، ص 23 .

(75) نفس المصدر والصفحة .

(76) نفس المصدر والصفحة .

(77) انظر عبد العزيز سامح، المصدر السابق، ص 271 .

العثمانية في ارسالهم، وبعض المهام الثانوية التي قاموا بها [78] . أما بالنسبة لميدان القضاء فنذكر أن أهل البلاد كانوا يمتنعون عن أداء مهامه، لشعورهم بغرابة الاتراك، ونفورهم من مذهبهم الحنفي . وهذا القاضي علي أفندي يهدد الشيخ ساسي نويقة بالعقاب ان لم يتول نيابة القضاء [79] وبالنسبة لعدالة القضاة في هذه الفترة، فالمصادر تشير الى قلة عدالة بعضهم وتفشي الجهل فيهم، وخاصة القضاة الاتراك [80] .

وقد تجرأ أحدهم على شاهد عدل من طلبة العلم، فلطمه على وجهه، وكشف رأسه وعورته، ورفع رجليه في فلقة، وضربه بالعصا من غير موجب شرعي [81] وقد قام من أجل ذلك عدد كبير من السكان، ورفعوا أمرهم الى والي المدينة وأهل النظر، واشتكوا من القاضي المذكور بسبب ظلمه، واعتدائه على الناس، وتغييره للأحكام تحت تأثير الرشوة [82] .

وقد أجاب علي عبيد، بقوله : اذا كان الأمر كما ذكر فيجب اجباره على رد أموال الناس، ثم عزله عن منصب القضاء لثبوت جوره، لأن القاضي اذ ثبت ظلمه وجبت عقوبته ثم عزله [83] .

وينقل لنا الشيخ سعادة [84] عن المتقي عظوم في برنامج الشوارد : ان افريقيا لما دخلتها الفتنة، واختل نظامها تبدد نظام القضاة، وتشتت الفقهاء، وصار تصرفهم بمجرد التشهي والهوى ، والأغراض المالية والدنيوية . لا يعتمدون على أي قول من الأقوال سواء كان مشهورا أو شاذا . انما اعتمادهم على الوجاهة والتقرب لرجال الحكم . ومن أظهر علماء آذوه، وبادروا بحربه غيرة وحقدا [85] .

**موقف القوى الوطنية من الأتراك :**

نكتفي بالاشارة هنا الى الحركة الشابية [86] وهي حركة وطنية مهمة اتخذت منذ البداية

---

(78) انظر الطاهر المعموري، المصدر السابق، ض 23 — 24 .
(79) انظر حسين خوجة، **ذيل بشائر أهل الايمان**، ص 169 .
(80) انظر الطاهري المعموري، المصدر السابق، ص 33 .
(81) نفس المصدر والصفحة .
(82) نفس المصدر والصفحة .
(83) انظـــر :
H. chérif, Témoignage du Mufti Quasim Azzum, C.T. N° 77,78. 1972, P. 41 — 42 .
(84) أنظر : ابا عبد الله سعدة، **قرة العين بنشر فضائل الملك حسين بن علي**، مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس، عدد 7129، ص 105 .
(85) نفس المصدر ص 106 .
(86) يقطن أغلب الشابية (الشابيين) حاليا بتوزر وينسب جدهم أحمد بن مخلوف الشابي الى بلدة الشابة

موقفا واضحا من الاتراك، وذلك انطلاقا من مصدر معاصر هو **الفتح المنير** لمحمد المسعود بن محمد بنور الشابي ( 970 /1562 ـ 1028 /1618 ) (87) ، فقد تناول المؤلف بجلاء موقف سيدي عرفة ( مؤسس الدولة الشابية بالقيروان ) من العثمانيين ومفاده أنه كان بحكم موقعه الصوفي لا يرى للعثمانيين هذه الأحقية في تمثيلهم للاسلام وفي اختصاص حمايتهم لدياره، وأكثر من ذلك فقد كان يعتبرهم أجانب عن البلاد، وهم في نظره من هذه الناحية لايختلفون عن الاسبان، لذلك جد في مناهضتهم وعمد الى تهجينهم والزراية بهم في فترة سبقت قدومهم الى المغرب، وهو الذي حدث سنة ( 932 /1525 )، وذلك نتيجة لادراكه أنهم مصممون على فتحه . جاء فيه ( ص : 102 ) : « ومن ذلك ما سمعته عنه أيضا، أنه أتاه قائد من قواد الترك خرج من البحر قبل انتشارهم في هذا المغرب، فأتاه زائراً وجلس بين يديه وأقبل عليه الشيخ « عرفة »، وقال : يا فقراء، هذا الرجل مكتوب على « زمزومته » الفتح فأي بلد توجه اليها فتحها الله له، ولكن فيه عيب، فقالوا ياسيدى ما ذلك ؟ فقال انه خصي فاعترف الرجل بذلك ووضع بصره في الارض » ، ان سيدي عرفة كان يؤرقه اصرار العثمانيين على الفتح وقدرتهم عليه، وان لم يكن قارا ولا مثمرا، حسبما يفيده هذا النص، ومثل هذه الافادة يحتاج الى دراسة تقييمية في ضوء الوثائق المختلفة، بيد أنه يمكن أن نشير الى أن سيدى عرفة كان يهدف الى تأسيس دولة قومية ذات طابع صوفي، بعد أن أسلسلت له أغلب القبائل الافريقية قيادها لذلك قاوم الحفصيين والعثمانيين فحقق ما هدف اليه وبدت دولته وان لم تعمر طويلا أول دولة قومية في تاريخ تونس (88) .

## الــــوضـــــع الفكــــــري :

كان الصراع الدائر بين الاسبان من جهة والاتراك من جهة أخرى وما سبقه من صراع بين أفراد الاسرة الحفصية، أثره الكبير في الحياة الفكرية، فلقد طمست الحروب الطاحنة معاهد العلم والادب، وشردت العلماء والأدباء فتفرقوا في الآفاق. واستلم الترك مقاليد الولاية التونسية، وكان من المتوقع أن تسترجع هذه الولاية في عهدها الجديد نضارتها السابقة سريعا ولكن لم يحدث

---

بالساحل التونسي، بها ولد ونشأ، وفي مرحلة من مراحل عمره انتقل الى القيروان داعيا لمذهبه الصوفي ثم وفق ابنه سيدي عرفة في تأسيس الدولة الشابية بالقيروان، ولما أسقطها العثمانيون فر الشابية فطوفوا في الجنوب الغربي التونسي وفي المنطقة الجزائرية المصاقبة الى قسنطينة وخاضوا حروبا ضارية ضد العثمانيين استمرت ثلاثا وعشرين ومائة بين 965 /1557 و 1088 /1677، ثم استقر أغلبهم في توزر ابتداء من 1860 .

(87) أنظر ترجمته عند علي الشابي، « مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشابية »، مقال **بالمجلة التاريخية المغربية** (تونس) العددان 13 و 14 / يناير 1979، ص 62 وما بعدها.

(88) انظر علي الشابي، المصدر السابق، ص 71 .

هذا، لأسباب، أهمها أن الولاة الأتراك كانوا أعاجم ولم يكن لهم حظ من تذوق للأدب العربي ولم يحصل للقضاة الذين كانوا يفدون مع الجند العثماني إلى تونس، أن صقلت العربية ألسنتهم، وكانت عاصمة الخلافة إسطنبول تركية اللغة وبعيدة عن تذوق العربية مما جعل الولاية التونسية تظل ما يقرب من قرن ونصف خالية من الحياة الأدبية كما أشار إلى ذلك الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب حيث أسقط العصر التركي السابق للعصر الحسيني حين أرخ للأدب العربي بتونس، ولاحظ أن هذه الفترة تنعدم فيها الحياة الأدبية (89) ولم يقتصر الأمر على الناحية الأدبية بل تعداه إلى الناحية الدينية، فقد حاول الأتراك نشر المذهب الحنفي في البلاد، لذلك استقدموا عددا كبيرا من العلماء لمحاولة ادخال المذهب الجديد مؤيدين في ذلك من طرف الدايات والبايات.

لكن هذه المحاولة الأولى أخفقت لتعلق سكان البلاد بالمذهب المالكي منذ القرون الأولى، وضعف العلماء الأتراك الذين قدموا في الفوج الأول مع سنان باشا، وتغلب النزعة العسكرية عليهم، وقد ترتب عن ذلك إهمالهم للمراكز الدينية على اعتبار أنها تقوم على المذهب المالكي ومن ضمنها جامع الزيتونة الذي كان طوال التاريخ الاسلامي التونسي مركز إشعاع جاذب، إذ لم تسجل المصادر عناية أولاها الدايات أو البايات نحو الجامع ولا سعوا في احياء معالمه، ولا ترتيب دروسه (90).

أما الانتاج الثقافي في هذا العصر فقد كانت تغلب عليه التبعية والتقليد، وعكف الناس على المختصرات الفقهية يشرحونها ويعلقون عليها، حتى أصبحت دراسة الكتب هي الهدف، وضاع العلم واختفى الاجتهاد (91).

## الوضع في ليبيا :

يقسم المؤرخون عادة فترة الحكم العثماني في ليبيا إلى قسمين :

الفترة الأولى : تمتد من 1551 إلى 1711

الفترة الثانية : تمتد من 1835 إلى 1911.

وبين الفترتين من 1711 إلى 1835 (ما يقرب من قرن وربع) كانت السلطة في يد أسرة (القره ما نلي) التي ظلت تتوارث الحكم طوال هذه المدة.

وواضح ما هذا التقسم أن الفترة التي تهمنا هي الفترة الأولى.

لم يختلف الحكم العثماني في ليبيا في هذه الفترة عنه في غيرها من الولايات العثمانية، فقد عين

---

(89) **مجمل تاريخ الادب التونسي**، ص 233 .

(90) انظر الطاهر المعموري، المصدر السابق، ص 46 .

(91) المصدر السابق، ص 50 — 51 .

العثمانيون واليا لحكم هذه الولاية. وكان القائد البحري العثماني درغوث أول والعثماني عليها.

وعمل هذا الوالي لفرض نفوذ الدولة العثمانية على الشواطىء الليبية كلها. لكن نفوذ العثمانيين في الحقيقة لم يتعد السواحل، ولم يتغلغل العثمانيون في الحياة العامة للسكان بل تركوا إدارة الأقاليم الداخلية للحكام المحليين وزعماء القبائل، واكتفى الباب العالي بأن تحمل إليه الضريبة السنوية. ولم يبذل العثمانيون جهدا لانعاش البلاد وتطوير اقتصادها، ويبدو أن هذا النوع من التدبير لقي هوى في نفوس حكام ليبيا وسادتهم العثمانيين، لكن بالتدريج ضعف نفوذ السلطان العثماني بحيث لم يبق له إلا المظهر الاسمي متمثلا في ذكر اسمه في الخطبة، كما أن الضرائب كثيرا ما امتنع الناس عن دفعها [92].

وكانت السلطنة العثمانية تكثر من تغيير ولاتها في ليبيا شأنها في ذلك شأن باقي ولايات الدولة، وذلك خشية أن ترسخ أقدام الوالي في الولاية فيفكر في الانفصال عن الدولة. ولذا فقد تعاقب على ليبيا عدد كبير من الولاة يذكر المؤرخ أحمد الأنصاري على الشكل الآتي : يحيى باشا (971 هـ)، مصطفى باشا (973 هـ)، محمد باشا عرف التركي (982 هـ)، جعفر باشا (990 هـ)، سليمان طاي الذي ولاه الجند عام 1012 هـ بعد أن حاصروا جعفر باشا في قصر الحكومة. ولم يمنحوه الأمان إلا بعد أن وعد بترك البلاد [93].

وقد ترتب على هذا التغيير المستمر في الولاة أن زاد نفوذ جنود الانكشارية واستبدوا بالأمر واضطر الولاة لاسترضائهم فاعتبروا أنفسهم طبقة ممتازة.

وأصبح ميناء طرابلس، وغيره من موانىء ليبيا، موائل للقرصان الذين زاد نشاطهم حتى أن الدول الأوربية البحرية اضطرت لدفع الاثاوات باستمرار، وعقد الاتفاقات مع حكام ليبيا لضمان سلامة سفنها ورعاياها، وأصبحت الدولة تقاسم القرصان دخلهم، فأصبحت القرصنة تمثل جزءا مهما من دخل ليبيا، وأدى هذا بالتالي لزيادة نفوذ رؤساء القرصان الذين تلقبوا بألقاب مختلفة، ونافسوا الولاة في السلطة والنفوذ [94].

وساعدت كل هذه العوامل على إضعاف نفوذ الولاة واضطراب الأمن في البلاد، فكثرت الفتن والقلاقل الداخلية وزاد تدخل رؤساء الجند في أمور الدولة، بالاضافة إلى نفوذ القراصنة وممثلي العصبيات المحلية. ذلك في الوقت الذي كانت الدول الأجنبية فيه ما زالت تطمع في وضع أيديها على الموانىء الليبية الهامة متذرعة بالاضرار والمخاطر التي تتعرض لها سفنها ورعاياها من جراء

---

(92) انظر شوقي عطا الله الجمل، **المغرب العربي الكبير في العصر الحديث**، ص 131.
(93) **المنهل العذب**، ص 225 وما بعدها .
(94) شوقي عطاء الله الجمل، المصدر السابق، ص 132 .

أعمال القرصنة، ومن جراء عدم استتباب الأمن في ليبيا، وعدم وجود الشخصية القوية التي تمسك بزمام الأمور [95].

ويعطينا أحمد الانصاري صورا عن المدى الذي وصل إليه بعض الولاة العثمانيين من الضعف وانعكاسات هذا على الأمن في البلاد، فحين يتحدث عن جعفر باشا يؤكد : « أنه كان ضعيف الشكيمة، عاجز الرأي والحيلة، فتغلب عليه الجنود، واضطربت البلاد، وكثر الثوار والبغي والفساد، وتخطف الناس من السابلة وسرى هذا الداء في جميع أعمال البلاد، وأظلم الجو من بغي الجنود وجور العمال.... » [96].

أما عن سليمان طاي فيذكر : « أنه عاد فأساد السيرة، وبسط في الناس يد الجور، وأطلق يد الجند، وأباح لهم في هذه السنة (1022 هـ) نهب قرية تاجوراء، فجاسوا خلالها ودمروها وساموا أهلها سوء العذاب، ونهبوا جميع أموالهم وكافة مواشيهم... » [97]. وقد سجل السفير المغربي علي التمجروتي هذه الوضعية ـــ أيضا ـــ عند تعرضه لثورة زعيم عربي في طرابلس : « ... واجتمعت عليه العرب وحشدها وأقام له ملكا في ديارهم... وقد كان يزعم أنه يقوم بتغيير مناكر الترك وفسقهم لبسط العدل... » [98].

### ـــ مصر : أوضاعها في الربع الأخير من القرن السادس عشر ومحاولة المنصور الاستفادة منها

تميزت هذه الفترة من تاريخ مصر بقصر عهد الولاة إذا ما قورنت بالفترات السابقة، ولم يدم حكم أطولهم مدة أكثر من خمس سنوات، ويفسر ذلك بالاضطرابات التي حدثت في مصر وأدت أحيانا إلى عزل الولاة غير الأكفاء. وبكثرة المرشحين في إستانبول لمناصب الولاة في فترة ضعف الدولة.

وتميزت في المجال الاجتماعي بما كان يعانيه المجتمع المصري من ظلم واستبداد مسلط عليه من طرف الكشاف والوالي والعساكر. وإن كان الكشاف والوالي غالبا ما يستغلون مناصبهم للاثراء ويزول أذاهم بعد عزلهم واستبدالهم بآخرين، فإن العساكر المتمردين كان أذاهم مستمرا، ذلك أن هؤلاء كانوا ينتسبون إلى طوائف عسكرية مقيمة في مصر وتتمتع بسلطة شرعية، وقد استغلوا هذه السلطة للتعسف وابتزاز الأموال، وصعب على الولاة إزاء ذلك القضاء عليهم بسهولة وكمثال على ذلك نذكر قيام العساكر بثورة دامية في ولاية أويس باشا (حكم مصر من 12

---

(95) نفس المصدر والصفحة .
(96) **المنهل العذب**، ص 232 .
(97) نفس المصدر والصفحة .
(98) **النفحة المسكية**، ص 77 .

جمادى الثاني عام 994 هـ / 31 ماي 1586 م إلى غاية وفاته في 6 رجب 999 هـ / 30 أبريل 1591 م) إذ هجموا على الباشا في 2 شوال عام 997 هـ وكان إذ ذاك في الديوان، فهرب، ولكنهم اقتحموا بيته وسرقوا أنفس ما فيه، وقتلوا ثلاثة من أتباعه، كما اقتحموا بيت قاضي القضاة بمصر الملا أحمد الأنصاري، وفي 4 شوال من نفس السنة قبضوا على اثنين من القضاة، وقطعوا رأسيهما في اليوم التالي، واعتدى العساكر المتمردون على الأسواق في القاهرة، وهاجموا بيوت الأكابر بالسلاح، وأخذوا منهم ما يريدون [99] وقد صب العساكر نقمتهم خاصة على العرب — أي السكان المحليين — من أصحاب المناصب، فهاجموا منازلهم وأطلقوا النار عليها.

واجتمع قاضي القضاة والدفتر دار وغيرهما من كبار الدولة في 8 شوال من نفس السنة، وحذروا العساكر من عاقبة أعمالهم، ولكن بدون جدوى. واضطر أويس باشا الى اصدار أمره الى قاضي القضاة بمنح العساكر الثائرين ما يريدون، بعد أن اخذوا ابن اويس باشا رهينة حتى ينالوا مطالبهم، وحين تم لهم ذلك هدأت ثورتهم .

وقد كانت مطالبهم تتلخص بالسماح لهم بأخذ ( الطلبة ) وهي مبالغ من المال كانوا يفرضونها على الفلاحين، ويأخذونها لأنفسهم بدون وجه شرعي، وأصبحوا يضاعفون هذه المبالغ كلما لمسوا القوة في أنفسهم، واذا كانت نقمتهم قد انصبت على القضاة بصورة خاصة، فذلك لأن هؤلاء حرصوا على تطبيق مبادئ الشريعة التي تمنع الظلم وفرض المال بوجه شرعي [100] .

ولمعالجة أسباب هذه الثورة ونتائجها يجب التعرف أولا على هوية هؤلاء العساكر الثائرين وعلى نوعية مهامهم التي مكنتهم من الوصول الى هذه الدرجة من القوة .

لقد كان أغلب الثائرين من العساكر السباهية ( الفرسان ) المتمركزين في الاقاليم، وكانوا مزيجا من طوائف الجنليان والتفنكجيان والشراكسة [101] ولا يعني هذا ان جميع أفراد هذه الطوائف كانوا ثائرين، ولكن الثائرين من بينهم تمتعوا بسلطة كبيرة، كما أن أناسا ليسوا بعساكر اندسوا بينهم فيما بعد للاستفادة من ثورتهم، ووصف الثائرون بأنهم من ( الغز ) أي من الأتراك سواء من العثمانيين أو المماليك، وهذا ما يفسر كرههم للعرب ومطالبتهم السلطات أثناء ثورتهم بمنع العرب من الانتساب الى الفرق العسكرية وذلك خوفا من مقاسمتهم لهم النفوذ والامتيازات .

وكانت مهمة العساكر الثائرين مساعدة الكشاف في جمع الضرائب، ويجب الاشارة هنا

---

(99) انظر عبد الكريم رافق، **بلاد الشام ومصر**، 241.
(100) أورد هذه الاحداث بتفصيل م. البكري الصديقي، **التحفة البهية**، 47 وما بعدها .
انظر عبد الكريم رافق، المصدر السابق، 242 .
(101) انظر حول هذه الطوائف، عبد الكريم رافق، المصدر السابق، 144 — 145 .

الى أن أراضي مصر السلطانية وزعت على ملتزمين يجلبون المال ويسلمونه للدولة، ولم تعط كاقطاعات، وقد تمكن عدد من أفراد هذه الطوائف العسكرية أن يصبحوا في عداد الملتزمين .

ومن الأسباب الأخرى التي أدت الى تمرد العساكر انخفاض قيمة العملة الفضية في الدولة العثمانية، وذلك نتيجة لحاجة الدولة الى المال لدفع رواتب الجنود والموظفين المتكاثرين، ولسد النفقات الأخرى . وتفاقمت الأزمة بتدفق الفضة من امريكا، فانهارت قيمة النقد العثماني (102) .

وقد حدث في مصر بالذات في سنة 1584 أن خفضت قيمة عملتها التي تسمى بارة بمقدار النصف (103) وانخفضت تبعا لذلك القيمة الشرائية للرواتب التي تدفع للجند وغيرهم من الموظفين واذا كان الموظفون المدنيون قد لجأوا الى قبول الرشوة للتعويض عن ذلك فان الجند، وخاصة في الولايات البعيدة عن مركز الدولة، اما انهم انهاروا او ضعفوا ازاء انخفاض قيمة رواتبهم كما حدث في اليمن، أو أنهم استغلوا قوتهم العسكرية لجمع المال، وعلى غرار هؤلاء الاخيرين استغل الجند السباهية في مصر نفوذهم ووظائفهم في البوادي فضاعفوا جهودهم للحصول على المال وفرضوا ( الطلبة ) على الأهالي .

ان تخاذل أويس باشا أمام العساكر المتمردين زادهم نفوذا لاسيما بعد أن لبى مطالبهم، وتوفي في ابريل سنة 1595 دون أن يضع حدا لتمردهم، ولم يلق المتمردون اية مقاومة من الواليين اللذين خلفا أويس باشا وهما : احمد حافظ باشا الخادم (999 هـ ــ 1003 هـ /1591 ــ 1595 م) وقورد باشا (1003 هـ ــ 1004 هـ /1595 ــ 1596 م) والجدير بالذكر أن سكوت السلطان على حوادث القتل التي قام بها العساكر شجعهم بدوره على التمادي في أعمالهم وعلى زيادة تصميمهم على مقاومة من يقف في طريقهم . وقد بلغت بهم جرأتهم في عهد الوالي التالي الشريف محمد باشا ( 1004 هـ ــ 1006 هـ /1596 ــ 1598 ) الى حد الهجوم على القاهرة ومحاصرتهم له وقتلهم بعض كبار اتباعه (104)واجتمع العساكر المتمردون من سائر الأقاليم في 1 رجب عام 1006 هـ وهاجموا الشريف محمد باشا وكان عائدا من الجيزة برفقة عدد من الامراء ومشايخ البدو والصناجق، والانكشارية، واطلقوا عليه النار، قرب القلعة، فهرب الانكشارية وحوصر الباشا، وطلب منه العساكر أن يسلم اليهم بعض كبار الأمراء والموظفين، فطلب مهلة، وقبل تحكيم الشرع بينه وبينهم، وكان ذلك محاولة منه لكسب الوقت وليتمكن من الهرب الى القلعة، وبدأ العساكر من ثم بقتل من طالبوا بتسليمهم ونهبوا بيوتهم، وكانت نقمتهم مرة اخرى منصبة خاصة على العرب الذين تزيوا بزي الأتراك ( أي الذين اصبحوا موظفين عثمانيين

---

(102)انظر عبد الكريم رافق، المصدر السابق، 243 .
(103)انظر عبد الكريم رافق، المصدر السابق، 244 .
(104)انظر عبد الكريم رافق، المصدر السابق، 245 .

واستلموا مناصب هامة في الدولة ) وقد عزل الشريف محمد باشا بعد قليل وتمرد العساكر على اشده .

هذه اذن هي أوظاع مصر : اضطراب واستبداد بالسلطة واحتقار للعرب، هذا الاحتقار الذي سجله ابن القاضي من موقع المعاناة اذ يقول : « ... ولأهل المشرق، لا سيما منهم الترك، ازدراء بالناس لا يرون العرب شيئا، فمن ذلك ما اتفق لي ذات يوم بباب جامع السلطان حسن بالرميلة من مصر مع بعض الشيب من الترك لما أردت دخول المسجد المذكور، فوافيتهم بالباب ولم أعظم قدرهم كما هي عادة أهل مصر معهم ، ازدراءا بهم فلما رأوا جفوتي وعدم مبالاتي بهم ونخوتي، قام الي احدهم وقال لي : ياكلب، الى اين تريد ؟ ٱلمسجد معد لأمثالك ؟ اذهب من هنا، فما هذا محلك، فلم التفت الى قوله لغربتي وعدم ناصري هنالك، فلما رآى ذلك مني ما أمكنه الا بصق على وجهي وانصرف ... (105) .

ونشير في الأخير الى أن المنصور وجه عناية كبرى لمصر لمركزها الستراتيجي ودورها الرئيسي كباب للشرق الاسلامي وقد سعى بشتى الوسائل الى توطيد نفوده بها، يدفعه الى ذلك :

1) علاقته القوية مع العديد من كبار علمائها وتبادله واياهم العديد من المراسلات التي تضمنت من جملة ما تضمنته :

ــ تمجيد المنصور لخلافته العربية

ــ تصريح بعض كبار علماء مصر كالبكري بمعاداة الأتراك، والاعراب عن رغبته في أن يكون الخلاص على يد المنصور : « ... واعجبا من طلوع الشمس من المغرب امانا للعالم ... استطار ذكره بين نقطتي الشروق والغروب ... وحشرت لدعوته أفئدة الموحدين، فالكل ينادي البدار البدار ... غرة مولانا امير المؤمنين، وقبلة الموحدين فأصبح الاسلام متوجا منه بعزة الحي القيوم .... وتشرف به تخت الخلافة على المماليك ... يناصرهم من فتاك الأتراك ... (106) .

2) اضطراب الحكم التركي، واستياء المصريين منه .

3) امكانية الوصول الى مصر بحكم مجاورتها لحدود الامبراطورية المغربية.

3) أماني المنصور البعيدة في نشر لواء خلافته العربية الهاشمية .

وهذا ما عبر عنه الفشتالي بكل وضوح عندما قال :

---

(105) انظر **المنتقى**، 359.

(106) انظر ع. العزيز الفشتالي، المصدر السابق، 192 ــ 193 .

قضى الله في علياك أن تملك الدنا ... وتفتحهـا ما بيـن سوس وسودان
وانك تطـوي الارض غيـر مدافـع ... فمن أرض سودان الى أرض بغـدان
وتملأهــــا عدلا يرف لواؤه ... على الهرمين أو على رأس غمـدان
فكم هنأت أرض العراق بك العلا ... ووافت بك البشرى لأطراف عمـان
فلـو شارفت شرق البـلاد سيوفكـم ... أتـاك استلابـا تاج كسرى وخاقـان
ولـو نشر الامـلاك دهـرك أصبـحت ... عيـالا علـى علياك أبنـاء مروان
وشايـعك السفـاح يقتـاد طائعـا ... برايتـه السوداء أهـل خراسان (107)

وقد اشتبه الاتراك في الاتصالات القائمة بين المغاربة والمصريين، ويبدوا انهم انتبهو الى ان شيئا ما يدبر في الخفاء ضدهم، فشددوا الرقابة، وحالوا دون أي اتصال جديد بين المغاربة والمصريين، الامر الذي حدا بالمنصور الى مراسلة الوالي التركي بمصر في شأن التوصية بالوفد المغربي، والتأكيد له بأن الوفد لن يقوم بأي اتصال في مصر الا بإذن الباشا : « ... وجهنا لهذا الغرض على الخصوص رجلا أرسلناه اليه، وألزمناه الاقتصار عليه، وهو مبلغه اليكم خديمنا الحاج احمد الوجاني وجعلنا وجهته الى بابكم، وأمرناه بخط رحاله برحيب فناء جنابكم، فاجعلوا عبئه من جملة كلفكم، وآووه من فضلكم الى كريم كنفكم، وخذوا بيده فيما عسى أن يحتاجكم اليه من ذلك، وقد ألزمناه أن لا يقطع أمرا من الأمور الا بأمرك ومشورتك هنالك، وهذا موجبه اليكم والله يرعاكم بمنه والسلام (108).

أما بالنسبة للناحية الفكرية فانها وصلت إلى حالة من الجمود لم تعرفها من قبل، يقول جرجي زيدان في هذا الصدد : « ان الآداب العربية على الاجمال أصبحت في أحط أدوارها وندر نبوغ العلماء المفكرين أو المستنبطين فيها. وأكثر ما كتب في هذا العصر ( العصر التركي ) انما هو من قبيل الشروح والحواشي، والتعاليق، وشروح الشروح ونحوها. ويصح ان يسمى هذا العصر : عصر الشروح والحواشي . وشاع في هذا العصر التصوف، وتعددت الطرق الصوفية، وكثر التأليف بلا نظام مثل : **الكشكول**، وانحط أسلوب الانشاء، حتى أوشك أن يكون عاميا، كما في قصص : بني هلال، ونحوها، مما وصل الينا من القصص الموضوعة في عصور الانحطاط ... (109).

ويقول عن الآداب الاجتماعية : « وسوء الادارة أفسد على الناس نياتهم، فتشوشت

---

(107) انظر **المنتقى** 371.
(108) انظر **رسائل سعدية**، 182 — 183 .
(109) **تاريخ آداب اللغة العربية**، المجلد الثاني، ص 284 — 285.

أفكارهم، وانصرفوا الى ما يشغلهم عن تلك المظالم، من المخدرات والمسكرات، وشاع استخدام الافيون والحشيش . واستعان الظالمون في حفظ سيادتهم بالتفريق بين الطوائف، فتمكنت البغضاء بينها .

وتوالت الأوبئة الوافدة لا سيما الطاعون، وكان يجرف الاحياء جرفا . فاستولى على الناس الخوف من الحياة، وتمكنت الاوهام من عقولهم، وزاد اعتقادهم في الخرافات، وتمسكوا بالاحلام، فكثر المفسرون لها، وشاع الاعتقاد بأن الرؤية من النبوة . وكثر اعتقاد الناس في السحر على أنواعه فكثر مدعوه، وتعدد المؤلفون فيه .

ومن عواقب المظالم انحطاط الآداب العامة بفساد الاخلاق . فشاعت قلة الحياء، وظهرت آثار ذلك في آداب اللغة، فزاد الكتاب جرأة على التعابير البذيئة، حتى في الخلاعة والفحشاء . وكثر السفه في المجون في الكتب، وفي الشعر . وكسدت بضاعة الأدب على الاجمال، فوصف ذلك صاحب **العقد المنظوم، في افاضل الروم**، المتوفى سنة 992 هـ، بقوله : « فانا قد انتهيت الى زمان يرون (أهله) الادب عيبا، ويعدون التضلع من الفنون ذنبا، والى الحنان المشتكي من هذا الزمان » . وآل هذا الفساد الى ظهور دعاة الاصلاح برد الفعل »[110] .

**ــ الشـــــام :**

**في دمشق** : يمكن تقسيم الاضطرابات التي وقعت في دمشق في هذه الفترة الى قسمين :

1) الاضطراب الذي كان واقعا على مستوى السلطة بين الولاة والانكشارية خاصة بعد أن أصبح الجيش الانكشاري اكثر افراده من أصل محلي أو من الغرباء الوافدين على دمشق، بعد أن كان جل أفراده من أصل رومي، هذا رغم أن السلطان العثماني كان قد وجه منذ سنة 1577 فرمانا الى والي شام يأمره فيه بأن يمنع الذين لاينتمون الى أصل رومي من الانتساب للجيش .

2) الاضطراب الواقع على المستوى الاقتصادي : عرفت دمشق ايضا في هذه الفترة أزمة اقتصادية زادها حدة القحط، والطاعون، وتجلت بالخصوص في غلاء الحبوب في بلاد الشام بصفة عامة، فارتفعت أسعار الخبز الى الدرجة التي أثارت معها استغراب المؤرخ المعاصر شرف الدين موسى [111] ولم تنفع جهود الأتراك في استيراد القمح من مصر وقبرص وطرحه في الاسواق اذ سرعان ما ارتفعت أسعاره وزاد من حدة الازمة كذلك في دمشق وجود عملة نقدية خاصة بها

---

(110) المصدر السابق، ص 285.
(111) انظر عبد الكريم رافق، المصدر السابق، 187.

تصك فيها [112] وقد اختلفت قيمتها بالنسبة لقيمة النقد السلطاني في اسطانبول [113] ولم يدرك أفراد الشعب في دمشق الاسباب العميقة للازمة، فظنوا ان المسؤول عن ذلك هو تهاون القضاة الذين كانوا يقومون عادة بتطبيق قوانين الشريعة في عدم التلاعب بالاسعار باعتبار قيامهم أحيانا بدور المحتسب فهاجموهم وجهروا بالشكوى ضدهم .

واندفع الانكشارية نتيجة هذه الأزمة ولاسباب اخرى الى ابتزاز اموال الفلاحين في البوادي فزادوا بذلك من استفحال الوضعية .

### في منطقة جبل لبنان :

حدثت في الربع الأخير من القرن السادس عشر عدة تطورات في منطقة جبل لبنان أدت الى شهرة فخر الدين المعني الثاني واخضاعه الامراء المحليين الذين اعترفت لهم السلطة العثمانية بولاياتهم على هذه المناطق، وقد أدى توسعه في النهاية الى اصطدامه بولاة الشام [114] .

### فـــي حلـــــب :

حدثت في هذه الفترة عدة اضطرابات أثارها متمردون محليون شمالي حلب، وقد ساعدت جغرافية المنطقة على حماية هؤلاء المتمردين بل وتشجيع غيرهم الى اللجوء اليها، وكانت الاقليات التي تقطن هذه المنطقة تستغل دائما فرصة ضعف السلطة العثمانية لتعلن الثورة [115] .

### ثانيا : في اسبانيا :

كانت اسبانيا في عهد فيليب الثاني تعيش وضعا خاصا تبرز ملامحه من خلال عدة معطيات :

1) **طابع التعصب الكاثوليكي الاعمى** الذي أمدته شخصية فيليب الثاني بكل الوسائل التي تجعل السياسة في خدمة الدين، ومن شأن هذه الوضعية ان تحجب عن فيليب الثاني الجوانب الخفية في الدولة وتجعله يجازف بمصلحة اسبانيا الحقيقية، كما وقع عندما تعمق في تتبع البروتستانت داخل اسبانيا وخارجها وما فعله ضد المسلمين واليهود . فهذه السياسة جلبت له عداء انجلترا وثورة الاراضي المنخفضة، وحقد الأتراك، بل ان الكثير من أفراد المجتمع الاسباني

---

(112) انظر حول وجود عملة خاصة نصك في دمشق :
J. de Thévenot, Voyages de Monsieur de Thévenot en Europe, Asie et Afrique, 2 a 688 .
(113) انظر عبد الكريم رافق، المصدر السابق، 88.
(114) للمزيد من التوسع انظر عبد الكريم رافق، المصدر السابق، 195 .
(115) انظر للمزيد من التوسع، عبد الكريم رافق، المصدر السابق، 200 — 201 .

نفسه لم يكونوا راضين عن سياسة المجازفة هذه [116] .

يقول المؤرخ الانجليزي هربرت فيشر بصدد شخصية فيليب الثاني : « ... وكان فيليب الثاني حاكما كاثوليكيا متدينا شديد التمسك بواجباته، وكان يرى أن أسمى رسالاته في الحياة ان يستأصل الهرطقة من جذورها في البلاد التي يحكمها، وأن يأخذ بناصر عقيدة آبائه في شتى ربوع العالم، ولما كان رجلا ضيق الافق جادا في عمله متوفرا عليه، عاجزا عن تمييز جلائل المسائل من حقيرها وبالتالي عاجزا عن أن يعهد بعمله لغيره، فانه أثقل نفسه بواجبات تافهة، بحيث خفيت عليه الجوانب الكبرى من سياسة الدولة ولقد ترسبت في ذاكرته بعض الذكريات المعتمة : كقتل أكبر أبنائه ــ وكان مختل العقل ــ، واغتيال سفير للأراضي المنخفضة سرا، ولا يعطي التاريخ امثلة كثيرة أفجع من حياة هذا الحاكم المستبد المنقبض المثقل الضمير، وقد راح منكبا على مكتبة وباذلا جهدا يفوق طاقة البشر يعمل لانقاذ امبراطورية اسبانيا الكاثوليكية من الافكار الجديد التي بلبلت الخواطر، ومن القوى العارمة التي كان يزخر بها العالم ... [117] .

**2) اضطراب الاقتصاد الاسباني :**

كان فيليب الثاني في حاجة مستمرة الى المال، ويرجع ذلك الى فساد النظم المالية والتبذير في موارد الدولة، فاسبانيا رغم قوتها وعضمتها كانت في الواقع سائرة في طريق الانهيار، ولهذا اسباب، فالسعي الجنوني وراء الذهب في العالم الجديد تسبب في انهيار الزراعة والصناعة وغلاء الاسعار وانتشار السرقة والفساد، وصار الملك لا يستطيع ان يجمع الكثير من المال من اسبانيا نفسها ورغم ثراء طائفة رجال الدين، فانها كانت معفاة من الضرائب، والامراء لم يكونوا يساهمون في موارد التاج بانتظام وساعد على الانخراط في اسبانيا فقد انها لأحسن صناعها وعمالها خلال عمليات طرد العرب، وفقدانها لكثير من قوتها التجارية من جراء طرد اليهود، وفقدانها الكثير من خيرة ابنائها عامة عن طريق أعمال محاكم التفتيش الرهيبة . من جهة ثانية نجد أن عمليات النهب والسرقة في المستعمرات الاسبانية في العالم الجديد والسياسة الاسبانية الضيقة الأفق، هناك، اسهما في إضعاف إسبانيا، فلم يكن يصل لخزائن الدولة سوى جانب ضئيل من الثروة التي كان يتم جمعها في العالم الجديد . واتبعت اسبانيا هناك سياسة عادت عليها بالوبال، فقد نقلت النظام الاقطاعي الى امريكا وشددت في منع غير الاسبان من الدخول الى مستعمراتها، وحرمت عليها التجارة مع الدول الاخرى، وفي نفس الوقت لم ترسل الى هذه المستعمرات ما كانت تحتاج اليه،

(116) انظر المناقشات التي جرت حول شخصية فيليب الثاني عند :
H. Lapeyere, les Monarchies européennes du XVI siècle, PP. 336 — 341 .

(117) انظر اصول التاريخ الاوروبي الحديث، 200 .

مما ادى الى عرقلة نمو المستعمرات وشجع التهريب على نطاق واسع وشل الرخاء الاقتصادي في اسبانيا نفسها .

يضاف الى ذلك ان مجهودات اسبانيا لزيادة قوتها السياسية في أوروبا ولقيادة حركة الاصلاح الكاثوليكي اضعفت الامبراطورية الاسبانية وأسرعت بانهيارها .

يقول المؤرخ الانجليزي ( هربرت فيشر ) بصدد اضطراب مالية اسبانيا : « ... ان ضعف اسبانيا كان في اضطراب ماليتها، لم توجد في القرن السادس عشر حكومة أوروبية ذات اقتصاد قوي، ولكن اسبانيا ضربت مثلا فريدا لبلد يمتلك مساحة واسعة من الكرة الارضية في كلا العالمين القديم والحديث، وفي متناول يديه أغنى الموارد، المعدنية المعروفة حينئذ، ومع ذلك فهو في حاجة مستمرة الى المال وهو غالبا عاجز ـــ لفقره المدقع ـــ عن القيام بأبسط أعباء الحكومة، وأسباب هذا التناقض يرجع بعضها الى سياسة عامة لا وعي فيها ولا ذكاء، وبعضها الى جهل بالقوانين الاقتصادية والى نظام ضرائبي فاسد، ولا يقل عن ذلك أثرا فقدان جدي لأعمال المضاربة والتذبير . ولم يكن باستطاعة الملك أن يجمع الكثير من الأموال من اسبانيا ذاتها : فالاكليروس ـــ برغم ثرائهم العريض ـــ كانوا يعفون من الضرائب، وفي قشتالة كان النبلاء غالبا عرضة لاجراءات ابتزاز طويل ـــ كانوا يعفون من المساهمة في موارد التاج المنتظمة، وفي ارجونة، أقر الكورتيس مبلغا من المال ولكنه غير كاف بالمرة، ولما كان الانتهاب شائعا في المستعمرات الاسبانية، لم يكن يصل الى الخزائن الملكية سوى جانب صغير من الثورة التي كانت تجمع من المسيك والبيرو، ولكن اذا كان في الوسع علاج خراب الذمم بفرض قابة أشد صرامة فان اخطر من ذلك ان النظام المالي العام في الامبراطورية الاسبانية كان يقوم على نظرية خاطئة فيما يتعلق بالتجارة، اذ ان رخاءها كان يتطلب ان يوفر لها اقصى ما يمكن القيام به من التبادل الدولي للبضائع . أما أسبانيا فقد اتبعت فعلا خطة الحماية في أضيق صورها وأشدها اسرافا . ولم يكن في اسبانيا إذذاك أي علم أو صناعة، وعلى الرغم من أنها كانت عاجزة عن أن ترسل الى مستعمراتها ما كانت هذه الأخيرة تحتاج اليه، فانها حرمت عليها المتاجرة مع الدول الاخرى وكان من المتوقع أن تنتهي هذه السياسة الى احدى نتيجتين لا ثالث لهما : اما عرقلة التقدم المادي في المستعمرات، أو تشجيع التهريب على نطاق واسع. وقد أدت هذه السياسة في الواقع الى كلتا النتيجتين، هذا في الوقت الذي عرقلت فيه ضرائب ذاخلية لا حصر لها تجارة اسبانيا وزراعتها، كما اثقلت كاهلها كذلك ضريبة القبالة ( Alcabala ) وهي ضريبة كانت تفرض بنسبة 10 % على المبيعات، حتى انه من العسير ان نتصور وجود وسيلة أخرى دبرت خيرا من هذا لتشل الرخاء الاقتصادي عند شعب من الشعوب [118] .

---

(118) انظر المصدر السابق، 202 ـــ 203.

3) كان المجتمع الاسباني يستفيد قليلا من موارد البلاد، قليل النشاط، فقيرا، متغطرسا، يطمع الكثير من أفراده الى أن يصبحوا من النبلاء (Hidalgos) أو على الاقل يريدون أن يحيوا حياة النبلاء . وكان سكان اسبانيا قليلي العدد وتناقص عددهم في آخر القرن وكان (الهيدالغوس) العاطلين عن العمل يتجولون بكل كبرياء (وهم يلبسون ارديتهم المهلهلة المرقعة وبطونهم خاوية جائعة ) (119) .

هكذا اذن ومن خلال مقارنتنا للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية السائدة في المغرب في عهد المنصور بالاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في دول معاصرة له، أدركنا مدى ما كان يتمتع به المغرب في عهد المنصور من رخاء اقتصادي وسلم اجتماعي مما جعل الكثير من الدول الاوروبية والاسلامية تسعى الى كسب وده للحصول على مساعدته .

## المطلب الثانـي
## فئات المجتمع المغربي في عهد المنصور

كان لظروف الأمن التي استطاع المنصور ان يوفرها للمغرب اثرها الفعال في تطور معالم الحياة الاقتصادية والاجتماعية، اذ امتزجت تيارات حضارية مختلفة : تركية واندلسية وأوروبية وسودانية مع مظاهر الحضارة العربية الاسلامية التي كانت تطبع الحياة المغربية آنذاك .

وهكذا اخذت انماط الحياة الاجتماعية تتطور مع ملاحظة ان هذا التطور حدث بالخصوص في المدن الكبرى .

وكتصنيف عام لفئات المجتمع المغربي، نلاحظ أن هناك :

**الفئة الاولى** : نجد ها في قمة الهرم الاجتماعي وهي افراد الاسرة الحاكمة، وقد كان المنصور يولي البعض منهم مهام سياسية أو يعطيهم ولايات خاصة .

**الفئة الثانية** : كبار القوم من الحكام السياسيين والقادة العسكريين الذين كانوا يحيون حياة خاصة للانعامات والهبات المتوالية التي يغدقها المنصور عليهم في مختلف المناسبات والظروف، ثم للاقطاعات التي كانت تقدمها لهم الدولة، ويدخل في هذه الفئة رؤساء القبائل وشيوخها من (عرب الدولة) .

**الفئة الثالثة** : وتتكون من (شرفاء وقضاة وفقهاء وكتاب وشعراء وقراء وخطباء، واجناد

---

(119)انظر نور الدين حاطوم، **عصر النهضة الاوروبية**، ص268.

ورؤساء وأشياخ نبهاء وعمال) (120) ويدخل ضمن هؤلاء فئة التجار الاغنياء. ولا يخفى ما كان لهؤلاء من أثر في كثير من الاجراءات الاقتصادية التي اتخذها المنصور لصالح التجارة الداخلية بالمغرب والمساعدة التي قدموها في عملية فتح السودان .

**الفئة الرابعة** : وهي قاعدة الهرم الاجتماعي وتضم فئات العامة من أرباب الحرف وطبقات الجند، وجمهور الشعب في المدن والبوادي وفي السهول والجبال .

لكن نثير الانتباه الى الملاحظات الآتية :

**أولا** : هذا التصنيف تصنيف مرن وليس بدائم، فهناك عناصر تحولت بسرعة من فئتها الى فئة اخرى احسن . اما نتيجة بروزها في ظروف سياسية طارئة، كتأييدها في عملية القضاء على ثورة ما، أو نتيجة خدماتها العامة للسلطة، أو نتيجة دورها الثقافي والعلمي .

**ثانيـــا** : نلاحظ العلماء كانوا يتميزون من بين كل هذه الفئات بوضع خاص، لما لهم من دور خطير بفعل نفوذهم القوي لدى العامة لهذا كان يتغاضى عن كثير من اعمالهم، بل ويتقبل انتقاداتهم ومن هؤلاء احمد بابا السوداني مع المنصور اثر عملية فتح السودان اذن ذكر الافراني عنه : « ... ولما دخل ابو العباس بعد التسريح من السجن على المنصور وجده يلكم الناس من وراء حجاب وبينه وبينهم شملة مسدولة فقال له : ان الله تبارك وتعالى يقول وما كان لبشر ان يكلم الله الا وحيا أو وراء حجاب وأنت قد تشبهت برب الارباب فان كانت لك حاجة في الكلام فأنزل الينا وارفع عنا الحجاب فنزل المنصور ورفع الستار، فقال له ابو العباس اي حاجة لك في نهب متاعي وضياع كتبي وتصفيدي من تنبوكتو الى هنا حتى سقطت من فوق الجمل واندق ساقي فقال له المنصور : اردناكي تجتمع الكلمة وانتم في بلادكم من اعيانها فان اذ عنتم اذعن غيركم فقال له ابو العباس هلا جمعت الكلمة بترك تلمسان وما يليها من البلدان فانهم أقرب اليك منا فقال له المنصور :

قال النبي ﷺ : « اتركوا الترك ما تركوكم فامتثلنا الحديث، فقال له ابو العباس : ذلك زمان وبعده قال ابن عباس :

« لاتتركوا الترك ولو تركوكم، فسكت المنصور ولم يجد جواب وانفض المجلس ... » (121)
ومما قاله ايضا عن الحميدي : « ... وكان للقاضي المذكور ادلال على المنصور لأنه شيخه فكان المنصور يتحمل منه لمكان الشيخوخة ... ) (122) .

---

(120) انظر عبد العزيز الفشتالي، المصدر السابق، 223 .
(121) نزهة الحادي، 97 .
(122) المصدر السابق 158 — 159.

كما ذكر ابن القاضي أيضا — وهو بصدد الحديث عن اقالة المنصور للعثرات — ان : « أبا عبد الله محمد بن ابي زيد عبد الرحمان سقين شيخ شيخه رضوان بن عبد الله الجنوي المتقدم ذكره، كان قد ولاه خطة النظارة على مال الاحباس بمراكش المحروسة، وبقي في الخطة المذكورة اعواما، ثم ان قاضي الجماعة أبا القاسم بن علي الشاطبي اعلم المخدوم — ايده الله — بأمور توجب عزله من عدم قيامه بالاحباس وانه اضاع الاموال وبددها في غير وجهها وقد ترتب في ذمته منها ما ينيف على الخمسين الفا، فلما علم بذلك ووقف على صحته، لم يحاسب الرجل حياء منه لكونه ابن شيخ شيخه، فتجاوز عنه وأبقاه على ديوان الرماة، لانه كان بيده قبل ولم يواجهه بقبيح ولا جعل السبيل لا حد عليه بمحاسبته أو غيرها الى الآن ... »[123] .

وبمناسبة ذكر رضوان بن عبد الله الجنوي في النص السابق نشير الى ان هذا الشيخ كا صارما في مقاومة الانحرافات وان صدرت من السلطان نفسه، ونذكر على سبيل المثال أنه بعث برسالتين الى المنصور بعد انتهاء معركة وادي المخازن تدل كلاهما على ما كان يتمتع به هذا الشيخ من حظوة لديه .

ففي الرسالة الأولى يثير انتباهه الى بلبلة البرتغاليين بعد انهزامهم في المعركة، ويلح على انتهاز هذه الفرصة لاسترداد المدائن التي يستولي عليها المنهزمون : طنجة وأصيلا وسبتة، حتى يتجاوب الحكم مع تطلعات الرعية، وهذه مقتطفات من الرسالة : « ... والى هذا فالله ؛ الله في الحزم، وامضاء العزم، وهو ما ظهر لرعيتكم من انتهاز هذه الفرصة الممكنة في هذا الوقت، من الحركة لمدائن الكفار التي هي طنجة وأصيلا وسبتة، فانهم في هذه الساعة في دهش وخزي وخذلان بما أمكن الله منهم، ولا أظن — نصركم الله — مثل هذا يخفى عليكم حتى نحتاج أن نذكركم به ... »[124] .

أما الرسالة الثانية فيآخذ فيها العاهل ذاته على سياسته في قبول الفداء — بالمال — للأسرى البرتغاليين، في حين ان المسلمين والمسلمات بأيدي الكفار في غاية العذاب والاهانة، والفرصة مواتية لتخليصهم، وفي الحاح بالغ تحض الرسالة على العمل لفك الاسرى بقدر الجهد، وهذه مقتطفات من هذه الرسالة الثانية : « ... فاني أحمد اليكم الله الذي لا الاه الا هو، ومرادي — ان شاء الله — أن أبث لكم ما في باطني من الاحتراق، فقد قال القائل :

---

(123) **المنتقى**، 570.

(124) انظر أحمد المرابي، **تحفة الاخوان**، ص423 — 424 .

**ملاحظـــة** :

نشر الأستاذ محمد المنوني هذه الرسالة كاملة في مقال له بمجلة **دعوة الحق**، السنة 19، العدد 8، غشت 1978، ص 31 .

فلا بد من شكوى الى ذوي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتفجع

وهي : كيف يمشي هؤلاء الكفار كلهم الى بلادهم، واخواننا ـــ المسلمون ـــ بأيديهم في غاية العذاب والاهانة ؟ ونحن قادرون على أن يبقى واحد منهم في أيديهم، وفداؤهم فرض علينا من بيت المال وأموال الناس كلهم حتى لا يبقى واحد، ففتح الله في هذا الفتح العظيم، ومن الله ـــ تعالى ـــ عينا به، وحصل في أيدي المسلمين رؤوس الكفر، الا وهم يمشون لبلادهم بالشيء التافه الذي لا حاجة للاسلام به، ويبقى اخواتنا بأيديهم، كأن هذا الأمر سهل، فلا ـــ والله ـــ ليس الامر بسهل، وانما يحاسب على ذلك من قدر عليه ولم يفعله، كالراعي والرعية، فان كان هذا حرصا على المال فان المال بالغرب كثير، وقبل أن كانت هذه الغنيمة اكنتم محتاجين اليه ؟ بل كنتم ـــ والحمد لله ـــ أغنياء عنه .

فالله الله في فك الأساري بقدر الجهد، ألم تعلم ان قسيس النصارى يشتري كبار النصارى بالشيء القليل ويحملهم الى بلادهم والناس ساكتون لا يعبأون بذلك، انا لله وانا اليه راجعون . وسمعت أن ابن الدك يقدر يفدي به ما لا يحصى، فالله الله، ثم الله الله في هذا الامر، وأنت أقدر الناس عليه، والامر الاكيد هو فك الاساري لله غز وجل ... (125) » .

**ثالثا** : ان الشرفاء وان ادرجناهم في الفئة الثالثة فان ذلك لا يعدو الا أن يكون ادراجا مؤقتا، فكما أن العلماء كانت لهم (حصانة علمية) فالشرفاء كانت لهم (حصانة شرفية)، ولا غرابة في ذلك فقد كان الشرف أحد المحاور الرئيسية التي قامت عليها الدولة السعدية وظلت متشبثة بها، وهذا مؤرخ الدولة الرسمي عبد العزيز الفشتالي يشير الى ذلك في أبيات من قصيدته :

**امام البرايا من علي نجاره ومن عترة سادوا الورى، آل زيدان**
**دعائم ايمان وأركان سؤدد ذوو همم قد عرست فوق كيوان**
**هم العلويون الذين وجوههم بدور اذا ما أحلكت شهب أزمان**
**وهم آل بيت شيد الله سمكه على هضبة العلياء ثابت أركان**
**وفيهم فشا الذكر الحكيم وصرحت بفضلهم آي الكتاب وفرقان**

---

(125)انظر أحمد المرابي، المصدر السابق، ص 31 ـــ32 .
**ملاحظة** :
نشر الأستاذ المنوني ـــ أيضا ـــ هذه الرسالة الثانية ضمن المقال السابق .

| | |
|---|---|
| فروع ابن عم المصطفى ووصيه | فناهيك من فخرين : قربي وقربان |
| بمجدهم الأعلى الصريح تشرفت | معد على العرباء عاد وقحطان |
| أولئك فخرى ان فخرت على الورى | ونافس بيتي في الولا بيت سلمان [126] |

ويشير ابن القاضي الى هذه المكانة الى كان يحظى بها الشرفاء قائلا : « فمما شاهدته في يوم جمعة من سنة اثنين وتسعين من مآثره ــ أيده الله تعالى ــ وذلك أنه وقف له بالطريق شريف من شرفاء مراكش حين رجع من مسجد الجمعة، وحلف عليه حتى يعطيه شيئا فأعطاه كسوة، وذكر لي أن من عادته مع الرجل اعطاؤه في كل وقت، ويصرف ما يأخذه منه في الخمر ويعود اليه فيسأله فيعطيه لمنزلته من الشرف [127] .

كما ذكر المختار السوسي في نفس الموضوع ما يأتي : « قرأت في وثيقة سقطت الي، كتبها احد علماء جزولة يوم الاثنين الاول من ربيع الأول، سنة 988 هـ حين فتح مولانا احمد الذهبي هذه البلاد من جديد، ونظمها تنظيما تاما، ان السلطان امر ان لا يتخطى بالوظائف المخزنية احد من ارباب الزوايا، الا اولاد الشيخ سيدي بيورك بن الحسين الهشتوكي المتوفى قبل هذه السنة بنحو اربع سنوات 983 هـ والا اولاد سيدي خالد الكرسيفي، والا الشرفاء الكثيريون والركراكيون والفلاليون واولاد سيدي يعقوب والشرفاء المعلومون، واما من عداهم فيلحق بغمار الناس في الوظائف المخزنية [128] » .

## المبحث الثاني :

## جوانب من الحياة السياسية والفكرية في عهد المنصور من خلال المنتقى

### أ ــ جوانب من الحياة السياسية والادارية :

سنحاول من خلال المنتقى أن نرسم صورة ولو مصغرة للنظام السياسي والاداري في عصر المنصور، وذلك لكي تكتمل لنا المقارنة التي حاولنا أن نعقدها لانظمة الحكم في المغرب العربي . فهذه المقارنة تبين من جهة ما اقتبسه المنصور من الاتراك، وتبين من جهة

(126) انظر المنتقى، 371.
(127) المصدر السابق، 379.
(128) المعسول، 1 : 93 .

أخرى ما استقل به وابتكره لتسيير دفة الحكم في البلاد . أول شيء نلاحظه في هذا المجال أن ابن القاضي حدد منطلقه من عنوان الكتاب نفسه : **المنتقى المقصور، على مآثر (الخليفة) المنصور**، وهو يعتمد على أحقية المنصور بالخلافة .

وبالفعل فالمولى أحمد منذ الساعة الأولى لتوليته، تسمى بالخليفة المنصور، تخليدا لانتصار المسلمين في معركة وادي المخازن من جهة، ولأن الحكام السعديين ــ لأصلهم العربي ونسبهم الشريف ــ [129] كانوا يعتبرون دولتهم من جهة ثانية بعثا وتجديدا للخلافة الهاشمية المنقرضة، وبأنهم أحق بخلافة المسلمين من الاتراك العثمانيين الذين هم من (جملة المماليك والموالي الذين دافع الله بهم عن المسلمين وجعلهم حصنا وسورا للاسلام ... وقلدوا الامر في الحقيقة نيابة وامانة يؤدونها الى من هو أحق بها وأهلها وهم موالينا ساداتنا الشرفاء ملوك بلادنا المغرب الذين شرفت بهم الامامة والخلافة) [130] .

وقد اتخذ المولى أحمد كل القاب الخلافة، فهو (أمير المؤمنين وامام الجماعة ... وركن الامامة ... والخليفة المخصوص بتراث الرسالة ومالك امرة المؤمنين) [131] . واستعمل جميع شاراتها مم ذكر اسمه في خطب المساجد أيام الجمعة والاعياد، وضربه على السكة والنقود، ثم الجلوس على أريكة الملك ولبس أبهى الحلل وأفخمها، كما أعطى لبلاطه وحكومته من المظاهر والصفات ما يؤكد قوته وعظمته، ويجعله جديرا بامامة المسلمين وخلافتهم العظمى :

( الحمد لله الذي رفع أعلام الخلافة بعد نكوصها ونكوسها، وأضحك مباسم الايام عند قطوبها وعبوسها، وجدد معالمها الدراسة، وأركانها الطامسة، بلمة من عترة نبيه، وخليله وصفيه، فنفق بهم كسادها، وأصلح فسادها، وأمن في الاغيال من الاغتيال آسادها، وكادت السخلة أن تفترس الضرغام، وتدس في فيه على رغمه الرغام، رأفة بالعباد من العيث، ورحمة للبلاد كالغيث ... ) [132] .

وقد عمل المنصور على انشاء جهاز اداري وسياسي قوي، اذ كانت الحكومة التي انشأها تضم شخصيات من مستوى علمي رفيع : ( ... ويعين لشأن الرعية من يثق بنصحه

---

(129) يقول ابن القاضي في هذا الصدد : « أما نسبه ــ أبقاه الله وأيده ورفع ألويته ــ فلا خلاف أن شرفهم أصح شرف أهل المغرب، لان أصلهم من شرفاء ينبع، وقصة اتيانهم من ينبع الى درعة اذ اتى بهم أهلها من هنالك كما أتى أهل سجلماسة بني عمهم قبل ذلك ... ».
انظر المنتقى، 242.

(130) أنظر على التمجروتي، **النفحة المسكية**، ص 76.

(131) انظر **مناهل الصفا**، ص 1، (بتحقيق الدكتور عبد الكريم كريم).

(132) ابن القاضي، المصدر السابق، 237.

لعباد الله المسلمين وفيه شفقة على أمة محمد من الرؤفاء الرحماء، الناصحين الكرماء . فممن عينه لذلك الفقيه الصوفي المحب المفتي الحافظ الزاهد الخير، الورع الدين، الخاشع الأواه : أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف الحسني ــ أحسن الله اليه، وأسبل نعمه عليه ــ، والفقيه الأجل، القاضي الاعدل، قاضي القضاة بالحضرة العلية، من الديار المراكشية : أبو القاسم بن علي الشاطبي، والفقيه الاجل الاكمل الاتقى، الانقى الاسعد الاصعد، الانصح لعباد الله تعالى : أبو الحسن علي بن سليمان التاملي . ومن الفقهاء الكتاب الفقيه الكاتب الناظم الناثر، حجة الاعلام، وحسنة الليالي والايام : أبو فارس عبد العزيز بن محمد بن ابراهيم الفشتالي، والفقيه الكاتب الحافظ الناظم الناثر : أبو عبد الله محمد بن علي الفشتالي ــ أعلا الله مقامه، ورفع أقلامه ــ، والفقيه الكاتب اللوذعي الفكاهة الحافظ، الناظم الناثر، الاسمى الاسنى : ابو عبد الله محمد بن عمر، وغير هؤلاء ممن يطول ذكرهم . ومن وزرائه كالقائد الاعظم والخضم الفخم، الاسمى الاسنى، الامجد الانجد، الاحظى الارضى المحسن الانصح، القائد الارجح : أبو سالم ابراهيم بن محمد السفياني الروقي، صانع ايالته العلية، وناصح دولته الهاشمية ...) [133] . وقيمة هؤلاء تتجلى ــ بالاضافة الى مستواهم العلمي الرفيع ــ في اطلاعهم العميق على أحوال السكان وسلوك السلطة الاقليمية، والمعرفة بسير الاحوال خارج المغرب، ولا سيما بالنسبة للدول التي لها ارتباط وثيق بالسياسة المغربية، وفي مقدرتهم الفائقة في تحرير الخطابات الملكية والمنشورات التي تهم مختلف الاقاليم [134] . وكانت عناية المنصور بضبط أعمال مساعديه تفوق عناية أسلافه من ملوك الدولة السعدية، فكان يحاسبهم على عدم المحافظة على أوقات العمل الرسمية، والتأخر في الرد على المراسلات الادارية والسياسية : (... ويعين في كل سنة من يتفقد أحوال رعيته، ومن ينهي أمرها بحضرته، ويأخذ العهد من خواصه وجلاسه على مثل هذه الامور ألا يخفوا عنه شيئا جل أو صغر، ولا يغادروه صغيرة ولا كبيرة من أحوال رعيته، وقد يتولى بعض هذا بنفسه فيركب ويشق مراكش ليفحص في ركوبه عن أحوال رعيته، ويتوصل الى شكيته، وقد شاهدت ذلك، ولم يزل على هذا النحو في كل نفس، فأوقاته بالمصالح معمورة، وسيره في ملوك الأرض مشهورة، وهو أبدا رافع لما يرفع اليه من ظلمات الظلم، ويأمر بالنداء في البلدان برفع ذلك اليه ...) [135] . ومن أعماله احداث حروف (شيفرة) بعدد حروف المعجم سميت (الزمام) [136] وهي خاصة بالمراسلات السرية حتى لا يعرف فحواها اذا وقعت في ايدي

---

(133) المصدر السابق، 409 ــ 410.

(134) انظر ابراهيم حركات « أحمد المنصور الذهبي كرجل دولة » مقال بمجلة **دعوة الحق**، السنة 19 العدد 8، غشت 1978، ص 61 ــ 62 .

(135) ابن القاضي، المصدر السابق، 410.

(136) عثر بعض الباحثين على رسالة مكتوبه بطريقة الزمام بخط عبد الواحد عنون وتوصل لحل رموزها واستخرج =

العدو، وكان اذا غادر أحد أبنائه أو مساعديه المقربين العاصمة سلم اليه نسخة منها حتى يمكنه أن يفك بها رموز الخطابات الملكية [137] ، وقد أشرف على هذه (الشيفرة) في بلاط مراكش عبد الواحد بن مسعود عنون الاصيلي [138] .

وباستثناء بعض الجهات التي كانت تدين بالولاء للسلطان السعدي وتحتفظ باستقلالها في أماكن نائية من الامبراطورية، فان جميع الجهات الأخرى زودت بأجهزة ادارية يعين المسؤولون عنها في الغالب من المناطق الجنوبية القريبة نسبيا من العاصمة، كبعض العناصر السوسية والدرعية والفيلالية . وعلى العموم فقد تميز عهد المنصور الذهبي بتقسيم جديد للمناطق الادارية التي تتميز بضخامة رقعتها، واستمر هذا التقسيم من سنة 1585 الى 1670، أي الى حين انهيار الدولة السعدية وقيام العلويين، بقطع النظر عما وقع من تمزق في السلطة وتوزيعها بين عدد من الاشخاص والحركات الثائرة [139] .

وكان المنصور ينيب عنه في هذه الاقاليم ابناءه ومن يتمتعون بثقته : ( ... وسلك سلكه في عدله (المنصور) وهديه أولاده المكرمون المعظمون المهتدون، فمنهم ولي عهده ووصيه على الخلافة من بعده، مولانا أبو عبد الله محمد المامون — أمن الله روعته، وستر عورته — لما ولاه مدينة فاس، لاحظ سيرة والده في كل الأنفاس . وقد شوهد من عدله وقيامه بالجيش وأكتاد دولتهم ما صيره في الخلفاء كنار في علم ...ومنهم واسطة عقد المجالس، وفارس الفوارس، ولده الواثق بالله مولانا أبو فارس، ضبط بالعدل أحوال الرعية وأحصى، لما أن ولاه والده السوس الاقصى، وكذلك شوهدت منه السير المرضية، والشهامة الهاشمية، لما أبقاه في الحضرة المراكشية ... ومنهم نخبة الولدان مولانا : أبو المعالي زيدان، ظهر على يده هتون، لما أن ولاه مكناسة الزيتون ... فأجرى أولاده (المنصور) — أيده الله — على العدل في المناهج المبرورة، والمساعي المشكورة ...) [140] . ويبدو ان الولايات التي يتولاها أبناء المنصور كانت تتمتع بصفات خاصة أبرزها ان الامير كان مطلق الصلاحيات، وان ادارته كانت تشبه الى حد كبير ادارة والده المركزية بمراكش (والى هذا فلا بد من تعيين قائد المحلة وحاجب وكاتب سرك وأصحاب مشورتك وصاحب المظالم كما هو عندنا) [141] ، وان الامير يجند قوات مسلحة يتخذها من

---

منها الاشكال السرية بالترتيب الابجدي .

انظر مقال ج. كولان في **هسبريس**، 1927، جزء 7، الشهور الثلاثة الثانية، ص 221 — 228.

(137) انظر ع. العزيز الفشتالي، المصدر السابق، ص 161.

(138) انظر ترجمته ومصادرها عند م. حجي، **الحركة**، 2 : 387 — 389 .

(139) انظر ابراهيم حركات، المقال السابق، المقال السابق، ص 62 .

(140) ابن القاضي، المصدر السابق، 410.

(141) انظر م. الافراني، نزهة، ص 178.

قبائل اقليمه للمحافظة على الامن وتسيير الشؤون : (بلغنا انه قد استخدمتهم هناك جماعة من أولاد طلحة ... وبلغنا أن الخلط رجعوا كلهم رماة ... بالمدافع والنار) [142] ، ولانجاد والده عند الملمات (وتزيد للقائد ... ألف رام ليستوفى بهم الغرض) [143] . وقد درج الملوك السعديون منذ تأسيس دولتهم على اتخاذ فاس مقرا لولي العهد، لاهميتها الدينية والعلمية وكمركز حضاري هام لا يقل أهمية عن العاصمة مراكش [144] ، لذا فقد عين المنصور منذ توليته ابنه محمد الشيخ وكان لا يزال صغير [145] على ولاية فاس وجعل معه من يساعده على تدبير الامور، ولما كبر أصبح المتصرف المطلق في المدينة واقليمها، وبديهي ان الغرابة من ذلك تدريب ولي العهد على ممارسة شؤون الادارة والحكم وتهييئة لتحمل المسؤولية الكبرى في المستقبل [146] .

ومن مبتكرات المنصور الذهبي في طرق البيعة لولي العهد، أن يؤدي المبايعون يمين البيعة أمام **كتاب الله وصحيح البخاري ومسلم** [147] . وبذلك يكون استعمال الصحيحين أو أحدهما ليمين البيعة، سابق لعهد مولاي اسماعيل بما يناهز قرنا، فقد اشتهر ان الجيش الافريقي الذي نظمه السلطان العلوي كان يؤدي اليمين على **صحيح البخاري** وبذلك سموا عبيد البخاري [148] .

وعلى العموم فقد قسم المنصور امبراطوريته الى اثنتي عشرة ولاية : مراكش، سوس، تادلة، مكناسة، فاس، تامسنا، درعة، تافيلالت، الصحراء، تيكورارين، الطوارق والسودان [149] ، وبالنسبة لهذه الأخيرة نشير الى أن المنصور جعلها (باشوية) وولي عليها قادة عسكريين حمل كل منهم لقب (باشا)، بيدهم كل السلطان العسكرية والسياسية، فاتخذت ولاية السودان لاجل ذلك طابعا عسكريا محضا [150] . وقد كانت السلطة السياسية تتكون من :

1 ــ **الحاجب** : المسؤول الأول في حكومة المنصور : (حاجب الامامة الكريمة وكبير الدولة الصدر القائد أبو محمد عزوز بن سعيد بن منصور الوزكيتي) [151] ، والواسطة بينه وبين

---

(142) المصدر السابق، ص 177.
(143) المصدر السابق، 178 .
(144) انظر عبد الكريم كريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، ص233.
(145) انظر نص ولاية العهد في مناهل الصفا، ص 82، (طبعة الرباط).
(146) انظر عبد الكريم كريم، نفس المصدر والصفحة .
(147) انظر **مناهل الصفا**، ص 32 ــ 53، و م. الافراني، **نزهة** ص 99 ــ 100.
(148) انظر ابراهيم حركات، المقال السابق، ص 62 ــ 63 .
(149) انظــــر :
H. de Castries, Sources inéd. France, 2 : 236 .
(150) أنظر عبد الكريم كريم، المصدر السابق، ص 234.
(151) انظر **مناهل الصفا** (بتحقيق كريم)، ص 134 .

الوزراء والكتاب : (وكتبت لحاجب الباب أعرفه بالقصة ليقيم المعذرة عند السؤال عني) [152] ، وهو موضع ثقة المنصور : (وانتهى معهم الوضع تشييعا حاجب الامامة الكريمة ... استكفاه من مولانا الامام ... في تثقيف أحوال العساكر ومراقبة أمورهم عند منتهى العمران وتجديد ما وهي وانبث من أسبابهم وغير ذلك من شؤونهم، لم يستتم فيها الا لمثله من عليه الخدام الاكابر الثقاب ...) [153] .

2 ــ **كاتب السر** : الذي يحافظ على سر الدولة حتى لا (يطلع عليه الاجانب وان كانوا أحب من كل حبيب، وأقرب من كل قريب) [154] ، ويؤمن الاتصال بين الخليفة وجميع الولايات ومن الولاة الى الخليفة (وهو الذي يتولى قراءتها ويعرفكم مضمنها) [155] .

### 3 ــ أصحاب المشورة :

أي الهيئة الاستشارية التي كانت تتكون من (طبقات الاجناد وذوي الحل والربط وأولي البصيرة والحنكة وخبرة الامور) [156] . وقد كان المولى أحمد يلجأ الى عقد مجالس الشورى لاخذ رأي من يهمهم الامر من كبار دولته في بعض الامور التي ينوي الاقدام عليها، وذلك كما حصل عند تفكيره في غزو بلاد السودان .

### 4 ــ صاحب المظالم :

وهو الذي يتلقى شكاوي المظلومين ويرفعها الى المنصور للبت فيها، وغالبها ما كان الخليفة ينظر فيها بعد صلاة يوم الجمعة، يقول ابن القاضي في هذا الصدد : (وأما يوم الجمعة فشأنه فيه اذا فرغ من الصلاة، يجلس للنظر في شأن رعيته ولشكاويها والفصل، ورفع ظلمات ظلم الظالم عنها الى أن يصلي العصر، تارة يكون ذلك عن ضريح والده ــ وتارة بالمقصورة، وتارة بالبديع المذكور، وقد يستمر به الجلوس في بعض الايام الى صلاة المغرب، لا يألو ــ فيما طوقه الله ــ جهدا، ولا يلوي عنه عزما وقصدا) [157] .

وقد كان المنصور حريصا على اقامة الحدود الى حد كبير : (وأما اقامته للحدود على من وجبت عليه، فلم يبال في ذلك بأحد، ولم يلحقه في حق الله تعالى لومة لائم، فينصف الحق ولو

---

(152) المصدر السابق، ص 232 .
(153) المصدر السابق، ص 134 .
(153) المصدر السابق، ص 134 .
(154) نزهة الحادي (طبعة فاس)، ص 149 .
(155) نفس المصدر، ص 162 .
(156) انظر عبد العزيز الفشتالي، المصدر السابق، ص 126 .
(157) المنتقى، 353.

من نفسه وأبنائه وأقاربه — أيده الله تعالى —، وخدمة الشرع يمسكون من وجب عليه حق، ويحمل من كل مكان ولو كان ببابه العلية الى الحضرة الشرعية، فحكم الله جار عليه من قصاص وغيره من الحدود الواجبة الثابتة ... وكثيرا ما تعرض لبعض الناس محاكمة معه في أمر من الأمور، مسلما كان أو كافرا، فيعين وكيلا لينوب عنه، ويتحاكم مع بعض من ذكر، فتارة يكون الحق له وتارة عليه، ويوفي طالبه حقه ان كان عليه حتى لا ينقصه منه دانقا واحدا ...) (158) .

### 5 — القاضي والمفتي :

كان القضاء أيام السعديين خاصا بالمدن وبعض القرى المهمة التي تتوسط قبائل كبيرة، يتولاه أكابر الفقهاء بظهير من الملك نفسه، ويمتد نفوذ قاضي المدينة الى ضواحيها القريبة وأحيانا الى الاقليم كله، ويسمى كل من قاضي فاس ومراكش والمحمدية قاضي الجماعة (159) . والى جانب القاضي يعين في المدن الكبرى، بظهير كذلك، مفت يرجع إليه الخصوم — مسبقا — لمعرفة الاحكام الشرعية المتعلقة بقضاياهم أو يعرضون عليه أحكام القضاة التي لا ترضيهم ليصححها أو يفتي ببطلانها . فكان المفتي لذلك بمثابة الخبير القانوني، والمراقب للأحكام أو قاضي الاستئناف، ولو لم يكن من حقه اصدار أحكام الزامية (160) من ثم كانت درجة المفتي أعلى من درجة القاضي ماديا ومعنويا، فكان القاضي عندما تحمد سيرته، بعد طول الممارسة والتجربة، يرقى إلى مرتبة مفت، مثلما حدث لعبد الواحد الونشريسي الذي مكث في قضاء الجماعة بفاس ثماني عشرة سنة قبل أن يلي خطة الفتوى على اثر وفاة شيخه على بن هارون . على أن هناك من شيوخ الجماعة من ولي بن الفتوى مباشرة دون سابق ولاية القضاء، كعلي السكتاني وعبد الواحد السجلماسي في مراكش ويحيى السراج ومحمد القصار في فاس، كما ان هناك من ولي القضاء والفتوى معا كعبد الرحمان التمنارتي في مدينة المحمدية (ترودانت) (161) .

واذا كان القضاء المغربي قد تمتع بسمعة رفيعة عبر التاريخ الاسلامي فانه في العهد السعدي عرف أجمل حقبه أيام المنصور بالذات . وهكذا كانت مسؤوليات القضاة محترمة لا تتدخل فيها السلطة التنفيذية . وكان في المستوى الاعلى لهذه المستويات، قضاء المظالم الذي كان

---

(158) المصدر السابق، 363 .

(159) انظر م. حجي، المصدر السابق، 1 : 116 .

(160) عندما يختلف رأي القاضي والمفتي في نازلة وستشبت كل منها برأيه، يرفع الامر الى السلطان . ومن أمثلة ذلك افتاء يحيى السراج باعتبار شهادة الاب والابن كشهادة واحدة اعتمادا على ما في **مختصر** خليل، وحكم القاضي عبد الواحد الحميدي باعتبارهما بشاهدين تبعا لما في **تحفة** ابن عاصم، فرفعت المسألة الى أحمد المنصور وأثبت رأي القاضي لانه جار على ما به العمل.
انظر : ت. ابن سودة، **شرح التحفة**، ص 1 : 97.

(161) انظر م. حجي، المصدر السابق، 1 : 116 — 117 .

يمارسه العاهل السعدي نفسه مع وجود ديوان للمظالم كانت مهامه تقنية ادارية أكثر منها قضائية [162] . وقد قارن مؤرخ فرنسي كبير من رجالات القرن الماضي بين القضاء الأوروبي والقضاء المغربي في القرنين 16 ـــ 17 م (11 ـــ 12 هـ) فقال : ( في الوقت الذي كانت أوروبا في العصر السعدي يحتفظ الملوك فيها وحدهم بحق الحكم في عدد من القضايا، فان الملوك السعديين لا ينظرون الا في القضايا المرفوعة ضد رجال السلطة، وهذا ما كان يدعى بقضاء المظالم) [163] .

ولا مراء في أن المنصور كان أحرص ملوك الدولة السعدية على النظر في المظالم، يرأس مجلس المظالم في مقصورة جامع القصبة بمراكش، بجوار قصره، أو بضريح السعديين بنفس المكان. وما كان يتخلف عن هذه المهمة حتى أيام اجتماع الديوان الذي سيأتي ايضاح دوره . واذا انتقل الى فاس حضر مجلس المظالم الذي تساهم فيه شخصيات قضائية أو فقهية على مستوى عال من المعرفة بأحكام الفقه والقضاء . ومع هذا لم يكتف المنصور بالنظر في المظالم بل أنشأ لجنة للمراقبة تتولى النظر بصفة دورية في مجرى القضاء بالاقاليم وأوضاع الفئات الشعبية بوجه عام وكان المنصور يدرس تقاريرهم بعناية حتى يتتبع سير الاحكام والادارة بمملكته .

وقد أحدث لأول مرة في العهد السعدي منصبا لقاضي القضاة خصصه للسودان نظرا لبعد المسافة بينها وبين العاصمة، ويستقر هذا القاضي السامي بتنبوكتو، وأول من عين به : أبو جعفر العاقل الصنهاجي وهو مواطن سوداني ، وكان تحت نظره سائر قضاة السودان [164] . على أن أهم تجديد سياسي أدخله أحمد المنصور، هو بدون شك، احداث مجلس استشاري له تنظيمات قارة واختصاصات محددة، وقد سماه بالديوان ويجتمع أيام السبت والاثنين والاربعاء : (اعلم انه ـــ ايده الله ـــ قد سن في رعيته سنة اهتداء، وانتهج فيها مناهج اقتداء، وذلك كله من فعل عظماء السلاطين المهتدين . فمما سن في ذلك ما قدمناه انه اذ صلى الجمعة تارة يجلس بمقصورة المسجد وتارة عند ضريح والده ـــ قدس الله روحه، وأسكنه من الجنان فسيحه ـــ وتارة بقبته الخمسينية التي شادها في بديع أنسه للشكية، فتعرض عليه في المواضع المذكورة القضايا، وترفع له الشكايا، فيقضي فيها بعد له وقسطه، ولا يخرج عنه في حالتي قبضه وبسطه، وربما يعرض عليه شيٌ منها في أيام الديوان : السبت والاثنين والاربعاء ...) [165] ، وكانت اختصاصاته سياسية قضائية عسكرية، وهو معين غير منتخب، ولكنه يتميز بكونه يمثل مختلف الفئات

---

(162) انظر ابراهيم حركات، المقال السابق، ص 63 .

(163) أنظر : Lavisse, Histoire générale, 4 : 141 .

(164) أنظر ابراهيم حركات، المقال السابق، ص 64.

(165) المنتقى . 409.

الاجتماعية على وجه التقريب، ففيه قادة عسكريون ووزراء وقضاء وفقهاء وزعماء شعبيون وغيرهم وهو مستمد من الديوان التركي الذي كان موجودا في كل من الجزائر وتونس، وكانت مهمته الأساسية مراقبة الباشا أي الوالي العام، وتزويد الباب العالي بكل المعلومات الضرورية عن سير الأمور في الايالة، وكان الديوان التركي بالاضافة الى ذلك أعلى هيئة قضائية حيث ترد اليه أحكام القضاة، فضلا عن اهتمامه بالمسائل الادارية والسياسية والخارجية [166] .

وكان المنصور يعتبره أعلى مرجع قانوني للبلاد، ويتنازل لاحكام قضاته لو كانت لغير صالحه [167] .

وعند ما يقتضي الامر استشارات على نطاق شعبي واسع، يضاف الى الديوان عناصر تمثيلية من مختلف المدن والمراكز القروية الكبرى [168] .

ونوه المؤرخ (لافيس) بمزايا هذا الديوان المغربي في وقت كان (ما يزال في أوروبا عصر الملكية المطلقة، فالبرغم من انشاء مجالس ملكية لمساعدة الملك في مهامه، يظل القول الفصل للعاهل) [169] .

## ب ـ جوانب من الحياة الفكرية :

بلغت الحياة الفكرية اوجها في عهد المنصور، ويتجلى ذلك بالخصوص في تزايد معاهد العلم والدراسة، وانتشار المراكز الثقافية في الحواضر البوادي على السواء، وفي كثرة العلماء والطلبة وتعدد مجالات اختصاصتهم . ويمكننا ونحن بصدد دراسة الحياة الفكرية من خلال المنتقى ان نسجل عدة ملاحظات، منها :

ـ احتلال المغرب لمركز الصادرة في العالم العربي، نظرا لأن هذا الاخير كان خاضعا للاتراك العثمانيين، ولا يخفى ما صاحب هذا الخضوع من ركود فكري .

ـ اجتازت مؤلفات المغاربة واشعارهم ورسائلهم الحدود فوصلت الى بلاد المشرق والسودان، وتنافس العلماء والأدباء في اقتنائها والتعليق عليها بالشرح والاقتباس والنقد والتقريظ .

وهكذا نجد أن جل كتب التاريخ والتراجم المشرقية التي كتبت في ذلك العهد تحمل

---

(166) انظر :

Mercier, l'Afrique septentrionale, 3 : 134 .

(167) مناهل، ص 142 ـ 144 .

(168) ابن القاضي، **لقط الفرائد**، ص 316 .

(169) أنظـــر :

Lavisse, op. Cit. p. 140

صفحات عديدة في تراجم المغرب السعدي .

ما نجده ــ مثلا ــ عند المؤرخ التركي مصطفى الجنابي (ت 999 هـ /1590) في **البحر الزخار، والعلم التيار**، وعند نجم الدين الغزي الدمشقي (ت 1061 هـ /1651) في **الكواكب السائرة**، وعبد البر الفيومي المصري (ت1071 هـ /1661م) في **منتزه العيون**، ومحمد المحبي الدمشقي (ت 1111 هـ /1699 م) في **خلاصة الاثر**، بل منهم من خصص قسما مستقلا من تآليفه لتراجم علماء المغرب وادبائه كالشهاب الخفاجي المصري (ت 1069 هـ /58 ــ 1659 م) في **ريحانة الالبا، وفي خبايا الزوايا**، وعلى بن معصوم المدني (ت119 هـ /1707م) في **سلافة محاسن الشعراء بكل مصر** .

ــ تعززت مكانة العلوم العقلية والنقلية في عهد المنصور الى حد كبير، فبرز حيسوبيون، ومهندسون، واطباء وغيرهم، وكان احمد المنصور بنفسه يرعى العلوم ويشتغل بها وتحفظ لنا الوثائق الانجليزية صورا من هذه الرعاية، ففي رسالة مؤرخة ب 24 يونيو 1600 بعث التاجر الانجليزي بالمغرب Thomas Bernhere الى العالم الرياضي Edward Wright يقول « ... ان الملك مولاي احمد مغرم بدراسة علم الفلك وعلم التنجيم ويجل اعمال الادوات المتعلقة بالشمس والقمر التي هي من التدبير العجيب للغاية، لذلك فان كرتك وساعتك ومزولتك الارضية وآلة السدس وآلتك الفلكية المعدنية الجديدة المتخدة للاميال أواية آلة فلكية لها تتعلق بذلك، ستقبل قبولا حسنا، ويمكنك ان تبيع بأثمان جيدة ... (170) » .

ــ انتشار الثقافة في البوادي والجبال والصحراء وذلك نظرا لارتباط السعديين بمنطلقهم الاول وهوالجنوب، وهكذا كان السعديون في كثير من الاحيان يعتمدون على سكان البدو المثقفين للقيام بعدة مهام، سواء كانت هذه المهام ادارية أم سياسية ام ثقافية .

ــ **الطابع الديني للفكر المغربي في عهد المنصور، فانطلاقا، من المنتقى** نفسه نلاحظ كثرة الاستشهادات بالايات القرآنية والاحاديث النبوية والاحكام الفقهية، فقد عرف عصره مزيدا من الاقبال على القرآن ضبطا، ورسما، وتجويدا، وتفسيرا، وقراءات، وكان هذا على حساب مواد اخرى كالادب، وهذا ما عبر عنه ابن القاضي بكل وضوح، اذ وصف العديد من الذين التقى بهم بالوصف الآتي : (فقيه صرف) و(لا نظم له) و(لا يقدر على عقد بيت واحد) و(لا خلطة له في الادب اصلا) الى غير ذلك من الاوصاف، قال هذا ــ مثلا ــ في ابي زكريا يحيى السراج : (... وأبو زكريا لا مدخل له في الادب اصلا، سمعت منه غير مرة يقول : لا أقدر على

---

(170)أنظر الرسالة كاملة عند :

H. de Castries, Sources inéd., 1ere série anglaise, 2 : 168 — 170.

تلفيق بيت واحد ... غير انه فقيه صرف يعرف الفقه معرفة تامة) [171] وقاله ايضا في أبي العباس احمد بن القاسم القدومي : (... وكان لا يقرض الشعر) [172] وفي ابي عبد الله محمد بن أحمد الجنان : (... ولا نظم له، حدثني انه لا يقدر على عقد بيت واحد ...) [173] ولعلنا ندرك سبب هذا النفور من الادب من خلال اشارة عابرة أوردها احمد المنجور في فهرسه وهو بصدد الحديث عن كراهية تدريس مقامات الحريري في المسجد : (... قلت ذكر الامام ابو عبد الله الابي ان ائمة تونس كانوا ينزهون المسجد عن قراءتها فيه ...) [174].

هذه اذن دراسة وجيزة لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية من خلال المنتقى، حاولنا فيها ابراز بعض الجوانب التي تساعد الباحث على أخذ صورة واضحة عن تطور الحياة الاجتماعية والفكرية في عهد المنصور، ونخلص بعدها الى الخروج بالاستنتاجات الآتية :

ــ صمود المغرب تجاه التيارات الاجنبية سواء اكانت تركية أم غربية مسيحية .

ــ تمتع المغرب بسمعة طيبة في العالم العربي، نتيجة الصدى الواسع الذي تركته معركة وادي المخازن .

ــ محاولة المنصور الاستفادة من الاوضاع المضطربة في الشرق العربي لنشر دعوته .

ــ حفاظ المغرب على التراث الحضاري العربي الاسلامي، اذ ان جل الكتب التي كانت تدرس في العصر العلوي انتسخت في العصر السعدي، وما زلنا الى اليوم نحتفظ بعدد كبير منها .

ــ ابعاد المنصور للخطر الاوروبي المسيحي عن افريقيا الغربية بعد ضم السودان الى المغرب .

ولكن من المؤسف حقا ان جهود المنصور هذه في الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية لم تدم بعد موته [175] نتيجة ما حل بالمغرب من كوارث مدمرة ساهم في حدوثها الطاعون، والمجاعة، والحروب الاهلية .

وقد ابدع المؤرخ المعاصر عبد الرحمان التامنارتي [176] في وصف هذه الاوضاع اذ قال :

---

(171) المنتقى، 779.
(172) المصدر السابق، 781 .
(173) المصدر السابق، 791 .
(174) ص 45 .
(175) ابتداء التدهور في الواقع في الفترة الأخيرة من حكم المنصور.
انظر في هذا الصدد : عبد الكري كريم، المصدر السابق، 219 ــ 226 .
(176) انظر ترجمته ومصادرها عند م. حجي، المصدر السابق، 2 : 413 .

«وفي اثني عشرة وألف بلغني وفاة أبي العباس المنصور ملك المغرب في هذا العصر ــ رحمه الله ــ ، وكانت وفاته بمدينة فاس ... فنزل الارض بذلك ما نزلها، من الفساد والفتن ما نالها، طاش لها الوقور... ووضع النفيس، وارتفع الخسيس، وفشا العار، وخان الجار، ولبس الزمان البؤس، وجاء بالوجه العبوس، وأورد نار الاختلاف، وانضب ماء الوجوه والائتلاف، وطأطأ الحق رأسه، وأخفى المحق نفسه ... ووردت المهالك، وسدت المسالك، وعم الجوع، وتبرى الكوع من البوع ... فانا لله وانا اليه راجعون، فيالها من مصيبة ما أعظمها ... [177]» .

ونثير الانتباه في الاخير الى اننا ان كنا نعرف ــ نسبيا ــ أوضاع المغرب في عهد المنصور، فان الفترة التي تلت وفاة المنصور ما زالت تحتاج الى الكثير من البحث والتنقيب للكشف عن حقائق تاريخية جديدة تساعنا على اخذ فكرة واضحة ودقيقة عن عصري الازدهار والانحطاط معا .

---

(177) الفوائد الجمة، 1 : 193 .

# المنتقى المقصور
# على
# مآثر الخليفة المنصور

## منهج التحقيق

اعتمدنا أساسا على النسخة المخطوطة التي تحمل رقم « ز » 3197 بالمكتبة الملكية بالرباط، وقد رمزنا لها بحرف : « ز ».

وقابلناها مع نسختين مخطوطتين هما :

1 ــ النسخة المخطوطة التي تحمل رقم : 1153 بالمكتبة الملكية بالرباط، وقد رمزنا لها بحرف : « م ».

2 ــ النسخة المخطوطة التي تحمل رقم ج 1059 بالخزانة العامة بالرباط، وقد رمزنا لها بحرف : « ج ».

والنسخ الثلاث المذكورة هي النسخ المتوفرة لدينا لحد الساعة.

بسم الله الرحمٰن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه

الحمد لله الذي رفع أعلام الخلافة بعد نُكوصها ونُكوسها، وأضحك مَباسمَ الأيام عند قطوبها وعبوسها، وجدَّد معالمها الدراسة، وأركانها الطامسة، بلُمَّةٍ من عِتْرة نبيه، وخليله وصفيه، فنفَّق بهم كسادها، وأصلح فسادها، وأمَّنَ في الأغيال من الاغتيال آسادها، وكادت السَّخْلَةُ أن تفترس الضِّرْغام، وتدس في فيه على رغمه الرَّغام، رأفة بالعباد من العيث، ورحمة للبلاد كالغيث. والصلاة والسلام الأتمان على سيدنا ومولانا محمد قطب هذه الدار، وأما الأخرى فعليه فيها المدار، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وعترته وأحزابه، ماماس غصن بتعطُّف، وهب نسيم بتلطُّف.

وبعد، فيقول العبد الراجي عفو ربه، المشفقُ من سوء صنيعه وكسبه، أقل عبيد الله تعالى، مُعْتَقُ إيالة مولانا أبي العباس أحمد المنصور ــ ملأ الله بذكره أقطار المعمور ــ أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن العافية المكناسي الشهير بابن القاضي ــ خار الله له بمنه، وأدخله بفضله في رحمته وأمنه : إنَّهُ لما مَنَّ الله على عباده المؤمنين بمَلِكٍ مَلَكَ حبات القلوب، وتطاير ذكره بين نقطتي الشروق والغروب، بفضائل لا تُحْصَى، وشيم جميلة لا تُستقصَى، وطَنَّتْ في آفاق العالم حَصاتُه [1]، وتعيَّتْ عن حمل مآثره حَفَظَةُ القول وحُصاتُه، نورٌ اقتبس من مِشْكاة النبوءة سراجُه، وأدى إلى الصراط السوي منهاجُه [2]، وجب علي أن أذيع شكره، وأخلد مآثره وذكره، لكن رأيت

---

(1) الحصاة : العقل

قال طرفة :

وان لسان المـــرء ما لم تكـــن له ... حصاة علـــى عوراتـــه لدليـــل

(2) في « ج » : ورد بعد كلمة منهاجه ما يأتي : أمير المؤمنين أبي العباس مولانا أحمد المنصور ــ ملا الله بذكره أقطار المعمور ــ .

ذلك في الدفاتر أولى، وأهم جدوى، لذى الذهن الذكي وذى البال الفاتر، لا سيما وقد أخرجني من الأسر، وصرت معدودا له في الأجر، وأسدى الى من النِّعَمِ، بل ولعيري، ما يعجز عن حمله [آلاف [3]] الابل من النَّعَمِ — ] وما أولاني بانشاد ما لبعضهم — :

فلــو بذلتُ دمـــي أبغـــي رضاه به والمـالَ حتى أسُلَّ النعل من قدمي
مَا كان ذاك سوى عاريـــةٍ رجـــعت إليـه لو لم يَهَبْهَا كان لم يُلَـــمِ [4] ]

وهو السلطان الأعظم، والخضم المفخم [5] : [ أمير المؤمنين مولانا أبو العباس أحمد المنصور الشريف الحسني [6] ] — أعز الله نصره، وخلّدَ ذكره، بمحمد وآله —. وانتقيت حصر الموضوع في مقدمة وأبواب وخاتمة، وسميته : « **بالمنتقى المقصور، على مآثر الخليفة المنصور** »، فجاء بحمد الله من بركة مولانا تحنو عليه القلوب، وتُثني عليه الألسن، وفيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأشهى من مسرات الصَّبوح، وأبهى من بشائر الفتوح، أوراقه كأوراق الجنان، وأحداق الحسان، وأنيقة الأنوار وريقة الأزهار، دانية القَطف، ثانية العِطف، نفحاته مسكية أَرِجَة، ولمحاته ذكية غَنِجَة، ما طلعت على جلوة معانيه ماشطة، ولا طلعت عن ذروة مبانية ناشطة، ولم آل جهداً عن ذكره مآثره الحسنة، ومفاخره المستحسنة، التي هي قُراضات الذهب، وعراضات النخب، فيجمعها كان له في القلوب حلاوة، وفي العيون طلاوة، فالمقدمة تشتمل على :

ذكر نسبه الطاهر الشريف، وحسبه الظاهر المنيف، وشيء من فضائل قامت لذاته الكريمة، وطلعته الجسيمة [7].

[ وعلى حقيقة الخلافة.

وما يجب للسلطان على رعيته الخصوص والأعيان [8] ].

والأبواب أذكر فيها ما تفرق وانتشر من جواهر مآثره، وأنظم جمانها ليسهل لناظمه وناثره، وقد أذكر فيها بعض حكايات وقصائد ومقطعات أنشدتها، وملح غريبة استفدتها، ليكون ذلك

---

(3) ما بين المعقوفين سقط من « ز » و « م ».
(4) ما بين المعقوفين سقط من « ج ».
(5) في « ج » : كيف لا وهو السلطان المفخم.
(6) ما بين المعقوفين سقط من « ج ».
(7) في « ج » : طلعته البهية والوسيمة.
(8) ما بين المعقوفين سقط من « ج » ويوجد مكانها ما يأتي : وفضائل والده الواضحة، ووالدته الولية الصالحة.

كالمعين على مطالعة الكتاب، لأن النظر في فن واحد فقد ترغب عنه النفوس، بخلاف ما إذا نُمِّقَ بغيره فقد يسلي العبوس :

[ لا يُصلح النفسَ إذْ كانت مُدبَّرَةً    إلَّا التنقلُ من حالٍ إلــى حالِ (9) ]

ولا أذكر ذلك إلا على نحوما أنشدتها في محل أو يوم من شخص أو أشخاص وإن اختلفت معانيها.

[ والأبواب ستة وعشرون :

الأول : في حسن خلقه وعقله، وكمال خلقه.
الثانــي : في محافظته على التكاليف الشرعية، والأعمال البدنية، والاعتقادات الاشعرية.
الثالــث : في عدله في رعيته، وقيامه بشريعة جده محمد وسنته.
الرابــع : في تعظيمه الميلاد النبوي، وأبناء عمه من النسب العلوي.
الخامــس : في رعايته لأهل الصلاح.
الســادس : في حسن ظنه بالله تعالى.
السابــع : في نظره في أمور رعيته.
الثامــن : في حلمه وكرمه.
التاســع : في صبره ومقابلته الاساءة بالاحسان.
العاشــر : في حيائه.
الحادي عشر : في بره بوالدته.
الثاني عشر : في مراعاته لأهل ود والده.
الثالث عشر : في تعظيمه العلم الشريف، النافع المنيف.
الرابع عشر : فيما يؤثره من العلوم.
الخامس عشر : في طهاة مجالسة من الغيبة والنميمة.

---

(9) ما بين المعقوفين سقط من « ج ».
والبيت لابي العتاهية، انظر **ديوانه**، ص 359.

**ملاحظــة :**
رواية **الديوان** (أن) عوض (اذ).

وقد اتفقت رواية أ. المقري في **أزهار الرياض** (1 : 21) مع رواية **المنتقى**.
النفس المدبرة : المشغولة بالتفكير في الأمور.

السادس عشر : في قبوله الشفاعات.
السابع عشر : في قبوله المعذرة.
الثامن عشر : في قبوله الشفاعات.
التاسع عشر : في مجازاته على الهدية.
العشــرون : في توفيقه للاستخارة.
الحادي والعشرون : في ذكر كتبه.
الثاني والعشرون : في ذكر نظمه.
الثالث والعشرون : في غزوته.
الرابع والعشرون : في ذكر فقهاء عصره.
الخامس والعشرون : في تمهيد الطرق.
السادس والعشرون : في عظيم سلطنته.

والخاتمة أذكر فيها نكتا غريبة، وطرفا عجيبة، يصغي إليها المنتهي والشادي، والعاكف في ربع الآداب والبادي.

وهذا أوان الشروع في المقصود، متوكلا على الله المعبود [10] ].

---

(10) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».

## المقـدمـة

## في ذكر نسبه الطاهر وحسبه الشريف الظاهر *

* ـــ طرحت مسألة شرف نسب السعديين في أواخر العصر السعدي من طرف مولاي محمد بن الشريف العلوي وغيره لأغراض سياسية، اذ عندما أخذ نفوذ السعديين طريقه نحو الاضمحلال وتدهورت الحالة السياسية والاقتصادية بتفكك المغرب، بدأ خصومهم السياسيون يحطمونهم، ويبحثون عن معاول لهدم كيانهم، فكان أن وجدوا معول التشكيك في نسبهم، لكن الأمر ما لبث أن اتضح، حيث إن شرف السعديين أثبت بإجماع المؤرخين والنسابين والشرفاء، كشرفاء سجلماسة مثل عبد الله بن علي بن طاهر الحسني، وعبد الواحد السجلماسي، وهم من أجداد العلويين وكانوا يعتبرون السعديين أبناء عمهم ويخدمونهم.

ونذكر من جملة المؤرخين الذين أكدوا صحة شرف نسب السعديين، الافراني في **النزهة** (ص : 1 ــ 9)، الذي اطلع على مقالة المؤرخ المجهول في تاريخ الدولة السعدية ـــ والذي تحامل على السعديين تحاملا واضحا، ونال من صحة شرف نسبهم ـــ وضعف هذه المقالة وبين انحرافها، وبين أنهم في أول الأمر كانوا يسمون بالزيدانيين (نسبة إلى زيدان بن أحمد)، وأنه لم يكن أحد يجرؤ على تسميتهم بالسعديين. وهكذا كان شرفهم واضحا عند جميع الناس، والدليل على ذلك هو اختيارهم السعديين لقيادة العمليات الجهادية وليس لهم أي عصبية ولا مؤهل إلا النسب القرشي.

وقد أصبح الملوك العلويون فيما بعد يؤمنون ايمانا مطلقا بصحة شرف نسبهم، بل أن المؤرخين يذكرون أن السلطان محمد بن عبد الله كان معجبا بالسلطان أحمد المنصور السعدي، وكان يقول بالتقاء السعديين والعلويين في العمومة، ونورد هنا ما ذكره المؤرخ أبو القاسم الزياني في **الترجمان المعرب**، ص 343 : « ... والذي سمعته من مولانا أمير المؤمنين سيدي محمدبن عبد الله ـــ رحمه الله ـــ لما جرى ذكرهم، وذكرنا له الخلاف الذي جرى في ثبوت نسبهم، قال لي ـــ رحمه الله ـــ : اسكت ولا تعد لهذه المقالة، فإنهم إخواننا وبنو عمنا، وجدنا وجدهم واحد، وقريتنا وقريتهم بالينبوع واحدة يقال لها بنو ابراهيم، وجدهم أحمد خرج للمغرب قبل جدنا حسن بنحو الثلاثين سنة، وهما أخوان، لكنهم لما ملكوا لم يعاملونا معاملة الاخوان، واقتصروا على التعظيم والتوقير والاحترام، فكان سلفنا ـــ رحمهم الله ـــ يحقدون عليهم إهمالهم لجانبنا، وقلة الاعتناء بأمرنا، هذا موجب طعن سلفنا في نسبهم وإلا فالحق أحق أن يسمع : لا ينكر نسبهم إلا جاهل، أو من لا اطلاع له على الأنساب، فقلت له ـــ رحمه الله ـــ : وما يزعمه الناس أنه لما وجه المنصور للسيد عبد الله بن علي بن طاهر، وكان عنده بمراكش، قال له : أين يجتمع نسبنا ونسبكم قال ابن طاهر : وبهذا المكان الذي نحن به، فقال : لم يكن ذلك وما ثم الا الكذب ومولانا عبد الله أعرف بنسبهم وكذلك حفيده عبد الهادي والعلامة مولاي عبد الواحد بن أحمد قاضي دولتهم ومفتيها، كلهم متحققون من نسبهم، ومتفقون على صحة شرفهم والطعن الواقع في شرفهم إنما هو من منافسة أقيالهم، ومنافسة شيعهم، في أهل الدولة، كما طعن بنو العباس في نسب العبيديين ملوك افريقيا ومصر، وشاع ذلك عند كثير من علماء دولتهم، وكما وقع الطعن في ادريس بن ادريس من طرف بني العباس وعمالهم وأهل دولتهم من أمراء بني الأغلب الذين كانوا يحاربونهم بما لا يليق بجنابهم الشريف.... ».

وأخيرا نختم هذا بالقول الفصل الذي ذهب إليه المؤرخ محمد القادري ـــ بعد أن اطلع على ما قاله أنصار السعديين وخصومهم ـــ : « ... والمراد من هذا كله التحذير من التعرض لاذاية أهل النسب النبوي... والا فلا أظن لهم باقية الآن... ».

انظر : **نشر المثاني**، 1 : 100.

أما نسبه ـــ أبقاه الله وأيده، ورفع ألويته وسدده ـــ [ فـ]ـــلا خلاف أن شرفهم أصح شرف أهل المغرب، لأن أصلهم من شرفاء ينبع [1]. و [ قصة [2] ] إتيانهم من ينبع إلى درعة ـــ اذ اتى بهم أهلها من هنالك كما أتى أهل سجلماسة ببني عمهم قبل ذلك ـــ وحكايتهم مشهورة بين المؤرخين فلا نطيل بذكرها [3]. وهو مولانا أبو العباس أحمد أمير المؤمنين المنصور ابن مولانا الامام أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد المهدي بن مولانا أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله تعالى ابن أبي زيد عبد الرحمنْ [4] بن علي بن مخلوف بن زيدان بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي محمد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن الحسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم بن محمد المهدي [ الملقب بالنفس الزكية [5] ] بن عبد

---

(1) ينبع : مدينة تقع في اقليم الحجاز بالمملكة العربية السعودية على البحر الأحمر، وقد اشتهر قديما، ولا تزال تشتهر إلى اليوم، بالنخيل ولهذه الصفة ـــ حسب ابن القاضي ـــ علاقة باتيان السعديين إلى المغرب، انظر العليق رقم 3.

(2) بالأصول الثلاثة : قضية، وقد آثرنا رواية م. الافراني عن **المنتقى**، لانها أنسب. انظر **نزهة**، ص 6.

(3) أورد م. الافراني في النزهة، ص 6 ، هذه الحكاية كما يأتي : « .... وأشار بذلك إلى ما يزعمه السعديون من أن أهل درعة كانوا لا تصلح ثمارهم وتعتريها العاهات، فقيل لهم : لو أتيتم بشريف إلى بلادكم أتى به أهل سجلماسة إلى بلادهم لصلحت ثماركم كما صلحت ثمارهم، فأتوا بالسيد زيدان بن أحمد من الينبع كذلك، فصلحت ثمارهم.... ».

**مـــلاحظـــــة :**

ما أورده ابن القاضي هنا لا يستقيم مع منطق التاريخ، فهو أقرب إلى الخرافة منها إلى الحقيقة التاريخية.

(4) انتقد الافراني هذه النسبة في **النزهة**، ص 4، قائلا : « ... وما ذكره صاحب **المنتقى** من أن محمد القائم هو ابن عبد الرحمنْ بلا واسطة، كذلك يوجد في بعض الكتب، وليس بصواب، بل هو القائم بن عبد الرحمنْ، فاسقط محمدا القائم بن عبد الرحمنْ... ».

(5) ما بين المعقوفين سقط من « ز » و « م ».

**مـــلاحظـــــة :**

علق م. الافراني في النزهة، ص 4، على هذا الجزء من النسبة قائلا : « ... وأظن أن فيه بترا بين قاسم ومحمد النفس الزكية، إذ ليس في أولاد النفس الزكية من اسمه قاسم، وانما القاسم بن الحسن بن محمد بن عبد الله الاشتر بن محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل... »، وقد اتفقت رواية ادريس الفضيلي مع رواية ابن القاضي. =

الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي وفاطمة — على أبيها محمد وعليهما الصلاة والسلام، ورضي عنهم أجمعين بمنه ويمنه —.

أطلعني على هذه النسبة الشريفة أبو العباس أحمد بن يحيى الهوزالي [6] قائد قواد ولي عهده مولانا أبي عبد الله محمد المامون بداره سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة [7] — برد الله ضريحه، وأسكنه من الجنان فسيحه —. وبمثل هذا حدثني شيخنا أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الرحمن المنجور [8] — قدس الله ضريحه — توفي — رحمه الله — ليلة النصف من ذي القعدة عام خمسة

---

= وهكذا يقول ادريس الفضلي في **الدرر البهية**، 1 : 47 : « ... وأما صاحب **المطالع**، ومثله في **الدرة**، توفي القاسم بن محمد النفس الزكية في حياة أبيه وجده وترك زوجا حاملا بابنه اسماعيل، فلما وضعته تزوج بها أخوه عبد الله الأشتر وكفل ابن أخيه اسماعيل.... ». وقال أيضا في نفس المصدر، 1 : 46 — 47، عن محمد النفس الزكية : « ... وكان له من الأولاد على ما في **الدر السني** وغيره سبعة، وعلى ما عند ابن حزم ستة، وعلى ما عند مصعب خمسة، والتحقيق ما في **الدر السني**، وهم القاسم وبه كان يكنى، ويلقب الأكبر، وعبد الله الأشتر، وفيهما البيت والعدد، وعلي، والحسن بالتكبير، خلافا لمصعب اذ جعله مصغرا، وأحمد يذكره مصعب، وتعقبه عليه ابن حزم، وابراهيم، والطاهر.

قال في **درة التيجان** :

| | |
|---|---|
| **محمـــد فرع المعالــــي قد سمــــا** | **ولــد سبعـــا كالثريـــا في السمـــا** |
| **فمنهـــم القـــاسم فيمـــا ذكـــروا** | **وعابـــد الا له وهـــو الأشتـــر** |
| **وفيهمـــــا العـــــقب والأنساب** | **والبـــــيت والشرف والأحساب** |
| **ثم علـــي والحســـن الباهـــر** | **أحمـــد، ابراهيـــم، ثم الطاهـــر** |
| **وذاك في الـــدر السنـــي ما ذكـــر** | **وعدهـــم سبعـــا وفـــي ذاك نظـــر** |

والتحقيق ما في **الدر السني**، وان كان مصعب عدهم خمسة، وابن حزم عدهم ستة فقد عدهم أبو زرعة الرازي، وأبو عبد الله الحسين الديار بكري سبعة، والقاعدة أن المعتمد الذاكر فيما ذكر، لا التارك فيما ترك، وسأنبه على ذلك بحول الله، وعقبه على التحقيق من اثنين وهما القاسم وعبد الله، وقيل : ان لأحمد عقبا، والله أعلم... ».

(6) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **درة**، 1 : 156، رقم 185، **جذوة** 1 : 159 رقم 110، و ع. بن ابراهيم، **الأعلام**، 2 : 237، رقم 201، والناصري، **الاستقصا**، 5 : 96.

(7) 993 هـ توافق 1585 م.

(8) له ترجمته مفصلة في **فهرسه** الجامع، وعند أ. بن القاضي، **جذوة**، 1 : 135، رقم 78، **درة**، 1 : 157 — 163، رقم 186، **لقط**، ص 989، و م. بن عسكر، **دوحة**، ص 59 رقم 45، وأ. بابا، **كفاية**، ص 17 — 18، **نيل** ص 95، و م. الفشتالي، **لامية**، البيت 178، وأ. الكلالي، **تنبيه**، ص 15 — 16، وأ. المقرى، **روضة**، ص 285 — 286، و ع. التمنارتي، **الفوائد**، ص 37، 50، و م. الحضيكي، **طبقات**، 1 : 32، و م. بن مخلوف، **شجرة**، ص 287 رقم 1095، و ع. بن ابراهيم، **الاعلام**، 2 : 237 — 241، رقم 202، وأ. الناصرى، **الاستقصا**، 5 : 191، و م. حجي، **الحركة**، 2 : 360 و ل. بروفنسال، **مؤرخو الشرفاء**، ص 78 — 80.

وتسعين وتسعمائة [9]، ودفن يوم الاثنين الخامس عشر من الشهر المذكور خارج باب الفتوح من فاس المحروسة بازاء شيخه أبي مدين عبد الله اليسيتني [10].

وحدثني شيخنا أبو راشد يعقوب بن يحيى اليدري [11] أنه رأى هذه النسبة أيضا مكتوبة بخط أبي عبد الله محمد بن أبي غالب المدعو ابن جشار المغيلي [12]، توفي سنة ثمان وتسعين وثمانمائة [13]، وعليها استقلال القاضي أبي عبد الله محمد بن علال [14] — رحمه الله تعالى — المتوفى سنة خمس وثمانمائة. وقد اجتمع لمولانا من الحسب، والملك، والعلم، والحلم، وحسن المعاشرة، وكرم الأخلاق، وكثرة البذل، والتودد لرعيته، وجبر قلوبهم، والشفقة عليهم، والرأفة بهم، ما لم يجتمع لملك قبله.

ولد — أيده الله تعالى — سنة ست وخمسين وتسعمائة [15]، فيما حدثني به بعضهم بمدينة فاس — حرسها الله تعالى بمنه [16] —، وعقدت له البيعة في غزوته العظيمة التي تركت فيها أجسام بني الأصفر تتعاطى اشلاءها الرخام، وأنوف أهل ملة التثليت قد ألصقت بالرغام، بوادي المخازن يوم الاثنين منسلخ جمادى الأولى سنة ست وثمانين [17]، وابتديت بيعته الشريفة بالمحل المذكور وتمت بمدينة فاس — حرسها الله —. وكانت غزوة عظيمة حضرها جم غفير من أهل الله تعالى حتى أنها أشبه شيء بغزوة بدر [18].

---

(9) 15 ذي القعدة عام 995 هـ توافق 17 اكتوبر عام 1587م.

(10) ما بين المعقوفين سقط من « ج ».
وانظر ترجمة عبد الله اليسيتني مفصلة عند تلميذه أحمد المنجور في **فهرسه**، ص 14، و أ. بن القاضي، **درة**، 2 : 201، رقم 645، و م. بن عسكر، **دوحة**، ص 58، رقم 44، و أ. بابا، **كفاية**، ص 145، و م. الفشتالي، **لامية**، البيت 166، و م. الحجوي، **الفكر السامي**، 4 : 101، و م. بن مخلوف، **شجرة**، ص 283 رقم 1070، و ل. بروفنسال، **مؤرخو الشرفاء**، ص 78.

(11) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **جذوة**، 2 : 558 — 559 رقم 651، **درة**، 3 : 360، رقم 1015، وأ. بابا، **نيل**، ص 349، و أ. الناصري، **الاستقصا**، ص 35، 81.

(12) أنظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **درة**، 2 : 143 رقم 608، **جذوة** 1 : 243 — 244 رقم 231، و م. الكتاني، **سلوة** 3 : 88.

(13) سنة 898 هـ توافق 1493 / 1492 م.

(14) وردت نسبته عند أ. بن القاضي في **لقط الفرائد**، ص 267، هكذا : القاضي أبو عبد الله محمد بن محمد بن عيسى بن علال المصمودي الكتامي.

(15) سنة 956 هـ توافق 1549 م.

(16) ما بين المعقوفين سقط من « ج ».

(17) يوم الاثنين 30 جمادى الأولى سنة 986 هـ يوافق 4 غشت سنة 1578 م.

(18) لم تول المصادر المغربية لهذه المعركة ما تستحقه من الاهتمام، في حين نجد المصادر الأوروبية قد خصصت لها حيزا كبيرا من الدرس والتنقيب، هذا رغم أن المغاربة كانوا آنذاك، في زمن المنصور، يعرفون قيمتها، =

حدثني شيخنا أبو راشد أنه حدثه بعض من يثق به، أن الرجل من حاضري المعترك يستبق لينتهز الفرصة من قتل كافر فما يصل إليه حتى يجد ميتا من غير فاعل يرى لذلك، فعلم الناس أن موتهم انبهارا إنما هو من بعض عباد الله تعالى، وكان عدد الكفرة فيما تواتر وشاع، وامتلأت به الآذان والأسماع، مائة ألف وخمسا وعشرين ألفا، الخمس والعشرون ألفا بقيت في سفائنهم في البحر، والمائة ألف أسر جلها، وقتل سائرها، في خمس وأربعين درجة أو اثنتين وخمسين على ما حدثني به بعض الميقاتيين [19].

فلم ير في سالف الأزمان مثل ما اتفق لهذا الملك في هذه الغزوة العظيمة [20]، ومن لدن كانت الهزيمة على الكفرة، تمهد ملكه، وتوالت عليه فتوح البلدان التي لم يملكها أحد من أسلافه،

---

= والدليل على ذلك تشبيه ابن القاضي لهذه المعركة بغزوة بدر، بحيث إنه اعتبرها كحد فاصل بين عهدين، وفعلا فقد استطاع المغرب بعدها أن يكتسب احتراما كبيرا من لدن الدول الأجنبية، فالاسبان أوقفوا مخططاتهم الاستعمارية، والأتراك تراجعوا عن مخططاتهم، إلى أن أصدر السلطان العثماني مراد الثالث فرمانا سنة 1587، تقسم بمقتضاه شمال افريقيا إلى ثلاث باشويات : باشوية الجزائر، وباشوية تونس، باشوية طرابلس، فكان هذا بمثابة اعتراف نهائي لحكم المنصور.

(19) اختلفت الروايات المغربية مع الروايات الأوروبية في عدد الجيوش البرتغالية والأوروبية بصفة عامة، التي اشتركت في معركة وادي المخازن، فالافراني في **النزهة**، ص 74، والمؤرخون الذين أتوا بعده ينقلون كلهم عن ابن القاضي العدد السالف الذكر في حين أن المصادر الأوروبية تقدر عدد البرتغاليين، ومساعديهم، بما يتراوح بين 13.000 و 30.000 جندي، ومن السفن ما بين 1000 و 13.000 سفينة، من بينها 12 مركبا حربيا كبيرا، والمدافع ما بين 26 و 36 مدفعا.
انظـــر :

H. de Castries, Sources, 1ère série anglaise, 1 : 293-294.

ـــ محمد الفاسي، معركة وادى المخازن، مجلة **البحث العلمي**، العدد التاسع لسنة 1966، ص 225.

(20) ـــ نلاحظ هنا أن ابن القاضي أرجع الانتصار العظيم إلى حنكة المنصور وجيشه، وأهمل عنصرا مهما، وهو المشاركة الشعبية الفعالة، ولعل أمر هذه المشاركة يتضح أكثر إذا عرفنا ظروف تكوين الجيش السعدي في عهد عبد الملك، فقد عمل هذا الأخير على أن يجعل الجيش المغربي على صورة الجيش التركي نظاما ولباسا وأسلحة، ولم يتردد في استعمال العنف لفرض التنظيم الجديد على رجال القبائل البدو، وكادت ظاهرة الرفض والتشبث بالتقاليد الموروثة تأخذ طابع فتنة شاملة لولا الظروف الدقيقة التي خلقها نزول القوات البرتغالية في ناحيتي العرائش والقصر الكبير لمحاولة اكتساح البلاد والقضاء على سيادتها قضاء شاملا. وهكذا فقد استجاب للنفير العام، الذي أعلنه عبد الملك في الجنوب وأخوه أحمد في الشمال، جميع طبقات الأمة في الحواضر والبوادي، فكانت هذه الاستجابة سند قوى للجيش المغربي.

فقد ملك بلاد السودان، وصقعي توات [21] وتيجورارين [22]، وغير ذلك من البلاد، امتدت دعوته وشاع صيته في سائر الأقطار، وطنت حصاته في سائرأ الأمصار، وكثيرا ما مدح الناس هذه الغزوة وشاع أمرها في أقطار البلاد، وفشا ذكرها في ألسنة العباد [23]، وكثيرا ما ضاع مني في محنتي من قصائد هذا المعنى، وغرائب هذا المبنى، وقد اتصل بنا خبر هذه الوقعة العظيمة ونحن بفزان بموضع يقال له المخاتن، في الخامس عشر من شعبان سنة ست وثمانين [24]، وهناك أخبرنا أن مولانا أتته الخلافة منقادة إليه، ومقتصرة عليه :

---

(21) توات : اقليم يقع في الجنوب الشرقي للمغرب، جنوب اقليم فكيك، ويوجد حاليا ضمن اطار منطقة الزاب الجزائرية، وأهم واحاته على وادى الساورة، وقد قام المنصور بتمهيده سنة 991 هـ عن طريق قائديه أحمد بن الحداد الغمرى ومحمد بن بركة مع ملاحظة أن هذا الاقليم مهد صلحا بغير قتال، ذلك أن تمنطيط قاعدة اقليم توات الصحراوي — دخلت في طاعة المنصور مخافة ان يقع لها ما وقع لتينميمون — قاعدة اقليم تيكورارين — حيث فتحت عنوة، ووقع فيها ما وقع من التقتيل والتدمير نتيجة الأسلحة النارية التي استخدمها جيش المنصور في عمليات التمهيد.

انظر :

ع. العزيز الفتشالي، **مناهل**، ص 36 — 45 أ. المقرى، **روضة**، ص 31 هامش 21.

(22) تيجورارين : كلمة بربرية عربت الآن بكورارة، وهي اسم لمنطقة فسيحة واقعة في شمال اقليم توات بين العرق الغربي وهضبة تدمايت ووادي الساورة، وفيها تقع واحات تبلكوزة، وطلمين، وشروين وأولاد سعيد، وتينميمون، ووكروت، والخنافسة، ودلدل، وقصور كورارة التي تقع في وسطها.

وقد فتحها المنصور عنوة سنة 991 هـ، اذ انقض جيشه على تينميمون — قاعدة اقليم تيجورارين — انقضاضا عنيفا، نتيجة رفض السكان هناك الدخول في طاعته.

وقد كان هدف المنصور من تمهيده لا قليمي توات وتيكورارين بعيدا، ألا وهو الذهاب إلى السودان.

انظر في هذا الصدد :

ع. العزيز الفشتالي : **مناهل**، ص 36 — 45.

أ. المقرى، **روضة**، ص 31، هامش 22.

— A. G. P. Martin, Quatre siècles d'Histoie marocaine au Sahara de 1504 à 1902, PP. 17 - 41.

(23) كان وقع هذه المعركة قويا في نفوس البرتغال والاسبان، وامتد هذا الوقع إلى غاية القرن العشرين، حيث إن الاسبانيين أيام حمايتهم على المنطقة الشمالية من المغرب كانوا يذهبون كل سنة يوم 4 غشت ومعهم رهبانهم للترحم على أرواح المسيحيين الذين لقوا حتفهم هناك ولم يقتصر الأمر على المستوى الشعبي، بل تعداه إلى المستوى الرسمي، حيث ذكر صاحب كتاب :

Seleccion de Conferncias y trabajos

المنشور بالاسبانية بتطوان سنة 1952، ص 51، أنه كل سنة يتوجه جماعة من الرسميين الاسبان إلى محطة قطار السواكن بالقرب من القصر الكبير ومعهم راهب، لوضع باقات من الأزهار في مكان المعركة. كما أن المغاربة يحتفلون اليوم كل سنة بهذه المعركة التي تعتبر منعطفا حاسما في تاريخ المغرب.

(24) ما بين المعقوفين سقط من « ج » و 15 شعبان 986 هـ توافق يوم الجمعة 17 أكتوبر سنة 1578 م.

فألقتْ عصاها واستقرَّ بِها النَّـوَى  كما قَرَّ عينا بالإياب المسافـرُ [25]

ثم استقامت سيرته، وصفت لرعيته سريرته، وولع بالعلم وأهله، وحرص على تحصيله وحمله، لا يألو جهدا، ولا يلوي عنه عزما ولا قصدا.

حدثني شيخنا أبو العباس أحمد بن علي المنجور عنه ــ أيده الله تعالى ــ لأنه كان من أهل مجلسه، ومسامريه في مذاكرة العلم لأنسه : أنه ــ أيده الله ــ استفاد وأفاد، لكن ما أفاد أكثر مما استفاد. فتارة يملي العلم، وتارة ينشر الحلم، وتارة يكثر العطاء، وفي أخرى يستر الزلات بالغطاء، أوقاته معمورة، وبالبركات مغمورة، همته عالية، وفاق كل ملك في الورى، هامته في الثريا ورجله في الثرى [26]، وفيه أقول :

فرعُ النبـوءة أصل كل كريمـةٍ  يروي السيادَة أشرفـا عن أشرفِ
عَضْبٌ حُسامٌ مالـه من صَيْقَـلٍ  غيـرُ المعالـي للمعالـم يَصْطفـي
مَاإِنْ يُساجلُ في العُلى تلك الحُلى  مَلِكٌ تمنَّع بالحمـاء [27] الأكْنَـفِ
كَمْ أضحك الخيـرات وسط يمينـه  وأسَالَ عَبْـرَةَ كل سيـف مُرهـفِ
ليثُ الشَّرى، غيثُ الـورى لكنـه  من نسل أحمد فضلُـه لم يختـفِ
أَلِمَـمْ به تُلْـفِ البريـة كلهـا  في ذاتـه والعـدل في أُسَدٍ وَفِـي
تُلْفيـه إِلّا في المحامـد مُعْـرِضاً  ولمالـه في حكمـه لم ينصف
مجـدٌ بخـدِّ الفرقديـن نِعالُـه  مصبـاحُ ذهنـه نورُه لم يَنْطَـفِ
مِنْ مَعْشَرٍ لِلْمُعتفيـن زواخـرٌ  فاذكرْ حُلاهـم في الـوراء [28]وشَنِّـق

---

(25) البيت للمضرس بن ربعي بن لقيط بن خالد بن نضلة الفقعسي الأسدي كان من الشعراء المجيدين في عهد الدولة الأموية، وله شأن مع الفرزدق على ما ذهب إليه المرزباني وهو الذي يقول :

فالقت عصا التسيـار عنهـا وخيـمت  بأرجـاء عذب المـاء بيض محافـره
بلماعـة قد باكـر الصيـف ماءهـا  وبـاضت عليـه شمسه وحرائـره
فلا تهلكـن النـفس لومـا وحسرة  علـى الشيء سداه لغيـرك قادره

انظر الجاحظ، **البيان والتبيين**، 3 : 38، وحياة **الحيوان الكبرى**، 1 : 7.

(26) من الظواهر الاساسية في العصر السعدي أن الملوك السعديين كانوا يجمعون دائما بين الثقافة الواسعة والسياسية، وهكذا رغم أن المنجور كان استاذا للمنصور، وأجازه اجازة عامة في **فهرسه** فإنه أكد مرارا أن المنصور لم يكن سلبيا، بل كان دائما يبدي آراءه وملاحظاته في كل ما يسمع ويقرأ.

(27) في « ز » و « م » و « ج » : بالحماء، وفي **الروضة**، ص 67 : بالجناب.

(28) في « ز » و « م » و « ج » : الوراء، وفي **الروضة**، ص 68 : الأنام

| | |
|---|---|
| طِفْــلٌ اذَا جاشت عليــه ملاحـــم | كهــل المحافِــل قوة المستضعَــف |
| بحر المكارم أصلها المــنصور من | نادى به في المعضلات لقد كُفي |
| ناديتـــه لمصيبتـــي فكأنـــه | لشفائهـا أمُّ الكتـاب لمشتـف |
| أخرجتنـي من ضيـق أسرنالنـي | ومنحتنـي اسمـاع آي المصحـف |
| اذ كنت أسْحب للحديـد خلاخـلا | وسلاسلا أغلالُهـا لم توصف |
| لا زلتَ تكشف كربَ كل مولّــهٍ [29] | ما أُصْحِبَ المحزونُ باللُّطف الخفي |

ومن دأبه — أيده الله تعالى — اشتغاله بافادة العلماء الأعلام، والجماهير العظام، أنواع العلم : كالتفسير، والنحو، واللغة، والتاريخ، والآداب، والمنطق، والبيان، وغير ذلك، ويجمع لذلك علماء أمصار ملكه، وينظم الكل مع تلامذته في سلكه، وفي شهر رمضان المعظم يشتغل بسماع أحاديث النبي ﷺ التي في **صحيح** الحافظ الامام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَة البخاري الجُعْفي، ويستحضر كتب العلماء الأعلام **كفتح البارى** [30]، **وتأليف القَسْطَلاني** [31] وغيره مما لا يحصى كثرة من شروح **البخاري** للرجوع إليها استشهادا واستشكالا. ومن شأنه — أيده الله — مع الطلبة في حال مذاكرة العلم كأحدهم، جبرا لخواطرهم.

ومن شأنه — أيده الله — إقامة مجد ذوي الأنساب الفاخرة، والأحساب الظاهرة، وجبر أحوالهم، فلقد جعل خواص مجلسه من الفقهاء العلماء وقواده منهم، كالفقيه الحافظ المحدث الصوفي : أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف الحسني [32]، ولد في رمضان

---

(29) في « ز » و « م » : موله، وفي « ج » : ملمة.

(30) اسمه الكامل : **فتح البارى بشرح صحيح البخاري**، للحافظ ابن حجر العسقلاني. ط.
انظر تحليلا للكتاب عند سعيد أعراب، فتح البارى للحافظ ابن حجر العسقلاني، مجلة **دعوة الحق**، العدد الخامس، السنة 17، شهر يناير 1976.

(31) هو : أحمد بن محمد أبو العباس شهاب الدين القسطلاني المتوفى بالقاهرة سنة 923 هـ / 1517، حافظ، ومؤرخ، له تصانيف عديدة منها : **ارشاد السارى صحيح البخاري**، وهو المقصود هنا.
انظر ترجمته عند ن. الدين الغزى، **الكواكب السائرة**، 1 : 126 — 127، وخ. الدين الزركلي، **الأعلام**، 1 : 221.

(32) هو : مفتي الحضرة المراكشية زمن المنصور وترجمته مفصلة في **فهرسه** الجامع، وعند أ. بن القاضي، **درة**، 3 : 140 — 142 رقم 1096، **جذوة**، 2 : 453 — 454 رقم 493، وأ. المقرى، **روضة** ص 3 — 7، وم. الأفراني، **صفوة**، ص 41 — 43، وع. التمنارتي، **الفوائد**، ص 41 — 44، وع. القادرى، **الدر السني**، ص 58، وم. القادري، **نشر**، 1 : 14 — 16، وم الحضيكي، **طبقات**، 2 : 277 — 279، وأ. العلوي، **الأنوار**، ص 58، وا. الفضيلي، **الدرر**، 1 : 103 — 104، وع. الحي الكتاني، **فهرس الفهارس**، 2 : 165، وأ.
=

سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة [33]، وكالفقيه القاضي أبي القاسم بن علي بن قاسم بن مسعود الشاطبي [34]، ولد سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة، وكالفقيه الحافظ المتفنن، المشارك، نخبة الأعلام، وحسنة الليالي والأيام : أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الحُمَيْدي الناظم الناثر [35]، ولد ـــ حفظه الله ـــ سنة ثلاثين وتسعمائة [36]، وكالفقيه الزاهد العابد : أبي الحسن علي بن سليمان التاملي [37]، والفقيه الأنصح الأعظم، قائد قواده : أبي سالم ابراهيم بن محمد السفياني الروقي [38]، وكالفقيه، الناظم الناثر، المشارك المتفنن، الحافظ : أبي الحسن القائد

---

= الناصري، **الاستقصا**، 5 : 111 وما بعدها، ول. بروفنسال، **مؤرخو الشرفاء**، ص 84، 166، وم. حجي، **الحركة**، 379،

C. Brockelmann, Sup. 2 : 336, G. Deverdun, Marrakech, 1 : 432.

(33) 933 هـ توافق 1526 / 1527 م.

(34) انظر ترجمته عند ع. الفشتالي، **مناهل**، ص 129، 136، 142، 225، وأ. بن القاضي، **درة**، 3 : 284 ـــ 285 رقم 1359.

(35) رأي ابن القاضي هذا في الحميدي يناقضه ما أورده م.الأفراني في **النزهة**، ص 172، اذا قال : « ... وقال ابن القاضي في **جذوة الاقتباس** حسبما قرأته بخطه، إلا أنه شطب عليه بالحمرة، ما نصه : عبد الواحد بن أحمد الحميدى، الفقيه، القاضي بمدينة فاس، كان حافظا لمذهب مالك، إلا أنه نبذ الشريعة المحمدية وراء ظهره، وكان يحكم بموافقة شهوته مع علمه بالفقه، ولا يبالي بما فعل فيها حتى اكتسب هو ومن وإلاه أموالا جليلة لا حصر لها، ولما توفي قال فيه صاحبنا الوزير عبد الرحمن بن ابراهيم المشنزائي :

**تولـــي الحميـــدي وأحزابـــه ‌ ‌ ‌ ‌ وأيـــام دولتـــه الغاويـــة**
**ومـــات وخـــفت موازنـــه ‌ ‌ ‌ ‌ وصار إلـــى أمـــه الهاويـــة**

وقد ذكر م. الافراني أيضا في **الصفوة**، ص 97، عن غنى عبد الواحد الحميدى، ما يأتي : « .... كانت بنته تلبس خلاخل ذهب لا تحملها لا بسلسة في حزامها، ولها اماء يتبعنها يحملن ما تخرج من حللها... »، وانظر أيضا الاشارات الخفية التي أوردها تلميذه ابراهيم الكلالي في **التنبيه**، ص 251 ـــ 255.

وقد ترجم له أ. بن القاضي ترجمة عادية في **الدرة**، 3 : 142 رقم 1097، م. بن مخلوف، **شجرة** ص 294 رقم 1127، وأ. المقرى، **روضة**، ص 19 وع. الرحمن التمنارتي، **الفوائد**، ص 49، ومحمد القادرى، **الاكليل**، ص 63، وم. حجي، **الحركة**، 2 : 361. والعباس بن ابراهيم، **الاعلام**، 8 : 525 ـــ 532 رقم 1321.

(36) سنة 930 هـ توافق 1523 ـــ 1524 م.

(37) أبو الحسن علي بن سليمان التاملي كان يشتغل بوظيفة صاحب المظالم عند المنصور.
انظر ترجمته عند أ. بن القاضي. **درة**، 3 : 254 ـــ 255 رقم 1295، وأ. الناصرى، **الاستقصا**، 5 : 167، والمختار السوسي، **المعسول**، 8 ض 154، 13 : 270، وم. حجي، **الحركة**، 2 : 572 ـــ 573.

(38) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **درة**، 3 : 205، رقم 285.

علي بن منصور المرابط الشيظمي [39]، ولد سنة خمسين وتسعمائة [40]، والفقيه الأديب، الناظم الناثر : أبي عبد الله محمد بن علي الفشتالي [41] ـــ أعلى الله مقامه، ورفع أقلامه ـــ ولد سنة ست وخمسين وتسعمائة [42]، وغير هؤلاء ممن يطول ذكرهم.

وقد ظهر في دولته الشريفة من العلم والحرف المهمة التي لم تكن قبل في المغرب أصلا [43]، ومن الطلبة من لا يحصى عددهم كثرة [44]، ومن أنواع العلوم على اختلاف ضروبها كالمنطق، والنحو، والبيان، والعقائد، والفقه والفرائض، والحساب، والهندسة،

(39) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **درة**، 3 : 258 ـــ 259 رقم 1305، و ع. الفشتالي، **مناهل**، ص 78، 87، 106، 132، 146، 150، 210، 228، 277، وأ. المقرى، **روضة**، ص 173 ـــ 182، وأ. الناصرى **الاستقصا**، 5 : 68، 141، 152، 156.

(40) سنة 950 توافق 1543 / 1544 م.

(41) انظر ترجمته عند ع. الفشتالي، **مناهل**، ص 51، 72، 77، 131، 157، 158، 159، 233، وعند أ. بن القاضي، **درة**، 2 : 190 ـــ 201 رقم 644، **لقط الفرائد**، ص 302، وأ. المقري، **روضة**، ص 7 ـــ 9 و 27 ـــ 29، وم. القادرى، **الاكليل**، ورقة 38 ظ، **التقاط**، ص 8، و ع. السلام بن سودة، **دليل**، 2 : 407 رقم 1846، ول. برفنسال، **مؤرخو الشرفاء**، ص 62 و 81، ومحمد حجي، **الحركة**، 2 : 399، C. Brockclmann, Sup. 680 - 681.

(42) سنة 956 هـ توافق 1549 / 1550 م.

(43) عرف المغرب تجديدا اقتصاديا كبيرا في عهد المنصور، وقد شمل هذا التجديد البوادي والحواضر على السواء، فنشطت الزراعة الداخلية إلى حد الاكتفاء الذاتي، بل وتصدير الفائض منها إلى الخارج. كما اشتهرت مناطق ببعض الصناعات المستخلصة من الزراعة، مثل منطقة دكالة التي اشتهرت بمصنوعاتها الصوفية الجيدة. وكذلك كان الشأن بالنسبة للصناعات المعدنية التي لقيت رواجا كبيرا في المغرب وخارجه، فقد كانت بعض المواد المعدنية المستخرجة تصنع في عين المكان، فيذاب النحاس في سوس والأطلس الصغير ليصدر في شكل قضبان إلى أروبا، وافريقيا السوداء، أو تصنع منه ومن الصفار آواني براقة يقبل عليها السكان وتروج رواجا كبيرا في أسواق السودان، كما اشتهرت بعض القبائل المتاخمة لمناجم الحديد بصنع بعض الأدوات والأسلحة.
وقد تكاثر عدد الصناع في المدن، ولو أن التقنية الصناعية ظلت في مجملها يدوية تقليدية، وانتظموا في حرف يرأسها أمناء يسهرون على جودة الانتاج.
وهناك مادتان أساسيتان لعبتا دورا أساسيا في الاقتصاد المغربي آنذاك، وهما الذهب والسكر، وقد زار عبد العزيز الفشتالي مصانع السكر في شيشاوة وعبر عن اعجابه بها.
انظر في هذا الصدد :
ع. الفشتالي، **مناهل**، 185 ـــ 187.
م. حجي، **الحركة**، 1 : 48 ـــ 51.
عبد الكريم كريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، ص 253 ـــ 276.
H. de Castries, Sources, 1ère Série anglaise, 2 : 222.
P. Berthier, les anciennes Sucreries du Maroc et leur réseaux hydrauliques.

(44) يرجع تكاثر عدد الطلبة إلى أسباب علمية ومادية يمكن تلخيصها فيما يأتي : =

والمساحات، وغير ذلك مما لا يحصى [45].

ومن همته وبركته ـــ أيده الله تعالى ـــ كثر تعاطى الآداب، وحفظها وانشاؤها، وتنافس الناس في كل ما ذكر، كل على قدر وسعه وطاقته وما ذلك الا من جوائزه وصلاته على القصائد الشعرية والنكت النثرية. وقد أخرج من بلاد الكفرة من الأسارى ما لا يحصى كثرة بالأموال الطائلة التي لم يسبق إلى بذل مثلها ملك قبل، وقد افتكني بما يعادل عشرين ألف أوقية (ذهبا)، وقام بمسألتي معهم أتم قيام ـــ عامله الله بأحسن مما عاملني به ـــ ولا نعمة تشبه نعمتع علي، اذ كنت مع العدو الكافر في بلاء عظيم من الجوع، والبرد، والتكليف بما لا يطاق، والضرب وغير ذلك مما لا يمكن وصفه من عذابهم ـــ أذلهم الله تعالى ـــ، والآن فها أنا حسنة من حسناته، وصنيع اصطنعه بإيالته.

---

= أ ـــ تشجيع النظام القائم لانتشار العلم، خاصة وأن المنصور نفسه كان عالما.
ب ـــ تجديد المدارس القديمة في البوادي والحواضر على السواء، وقد كانت ما تزال ماثلة منذ العصر المريني.
جـ ـــ تكاثر العلماء والكتب المتداولة.
د ـــ توفير الامكانيات المادية للطلبة.
ويشترك في توفيرها لهم الدولة، بما توقفه على المدارس من أوقاف وهي كثيرة تشمل عددا كبيرا من دكاكين الأسواق والدور والأجنة والحمامات، والأسر الموسرة التي تنفق مباشرة على هؤلاء الطلبة أو توقف أوقافا لهذا الغرض.
هـ ـــ ايجاد منافذ للعمل بسهولة.

(45) تعززت مكانة العلوم العقلية والتجريبية والبحتة في عهد المنصور إلى حد كبير، فبرز حيسوبيون، ومهندسون، وأطباء، وغيرهم، وكان المنصور يرعى بنفسه هذه العلوم ويشتغل بها حتى إن ابن القاضي ـــ الذي كان يعتبر سيد عصره في الرياضيات والحساب ـــ صرح بأنه كان يعجز أمام المنصور في حل كثير من المسائل الهندسية، وبالتالي تفوق مخدومه عليه « ... وفتح الله عليه ـــ أيده الله ـــ في فهم **كتاب أوقليدس** من غير شيخ، لعزة وجوده في المغرب، فكان يفك شكلا، في كل يوم، من أشكاله مع ملكه إلى أن أتى عليه ». **درة**، (1 : 108).

كما أكد هذه الحقيقة تلميذ أحمد بن القاضي الحسن المسفيوي (انظر **الروضة**، ص 164)، والذي كان هو الآخر من نبغاء العصر في الرياطيات والحسان، وتحفظ لنا الوثائق الانجليزية صورا من اهتمام المنصور هذا، ففي رسالة مؤرخة ب 24 يونيو سنة 1600 م. بعث بها (توماس برنهير **thomas Bernhere**، التاجر الانجليزي بالمغرب، إلى (ادوار دريط) **Edward Wright** العالم الانجليزي في الرياضيات والعلوم، نجد ما يأتي « ان الملك مولاي احمد مغرم بدراسة علم الفلك، وعلم التنجيم، ويجل اعمال الأدوات المتعلقة بالشمس والقمر التي هي من التدبير العجيب للغاية، لذلك فإن كرتك، وساعتك ومزولتك الأرضية وآلة السدس، وآلتك المعدنية الجديدة المتخذة للأميال أو أية آلة فلكية لها علاقة بذلك، ستقبل قبولا حسنا، ويمكن أن تبيع بأثمان جيدة... ».

انظر بقية الرسالة عند : **H. de Castries, Sources, 1ère Série anglaise, 2 : 168 - 170**

وبذل الأموال الكثيرة في الاحسان والصدقات، وأفعال البر والطاعات، حتى فاض المال على العباد، في أقطار مملكته وغيرها من البلاد، لكثرة الوراد والمعتفين عليه من كل فج عميق، من نحو الحرمين الشريفين، وبيت المقدس، ومصر، والشام، والعراقين [46]، وأهل الهند، وغيرهم [47].

ومن غريب ما اتفق بين يديه ذات يوم ـــ أيده الله تعالى ـــ في ثلاثة نفر من المساجد الثلاثة التي تشد الرحال إليها، أحدهم مدني، والآخر مكي، والثالث خليلي قدسي يقال له إمام الدين محمد بن قاسم البطايحي الخزرجي [48]، ثم ألقى في خاطره وفي بديهته ما اتفق من اجتماعهم على إيالته، فأنشأ بيتين في الحال، ومن معه من المعتفين حاضر، أعني الذين قصدوا إيالته العلوية من الديار المكية والمدنية، فقام على قدميه وقال :

(46) العراقان : البصرة والكوفة بالعراق، مدينتان لهما أصالتهما التاريخية والعلمية وخاصة في اللغة في عصري الأمويين والعباسيين.

(47) كان يقصد المنصور علماء من جل الأقطار الاسلامية، من تركيا، وايران، ومصر، والحجاز، والشام، وتونس، والجزائر، ويرجع السبب إلى ما كان يشهده المغرب آنذاك من حركة فكرية قوية، وإلى ما كان يوفره لهم المنصور من امكانيات مادية.

(48) أمام الدين الخليلي من علماء الشام المستوطنين بمراكش، وقد أجاز لأبن القاضي، في 5 محرم سنة 999 هـ نونبر 1590 م بمدينة مراكش، جميع مصنفات الحديث التي يرويها عن شيوخه المشارقة، العرب والعجم. وتعتبر هذه الاجازة من أهم الوثائق التي تعطينا معلومات دقيقة عن هذا العالم، اذ ذكر في صلب الاجازة أسانيده في الحديث، ومن أخذ عنهم، أو أجازوه من محدثي القدس، ومصر، والحرمين الشريفين، وحمص، وحماة، وحلب، وانطاكية، وطرابلس الشام، والقسطنطينية، ثم طرابلس الغرب، وتونس، والجزائر، وتعتبر هذه الاجازة بمثابة موسوعة لعلم الحديث في القرن العاشر الهجري وهذا نموذج منها : « وبعد، فيقول العبد الفقير، الراجي فضل ربه القدير، الواضع اسمه عقب تاريخه أدناه ـــ أصلح الله له ديناه وأخراه ـــ لما دخلت في المرة الثالثة أرض المغرب ـــ حماها الله ـــ قاصدا حمى مولانا أمير المؤمنين، ابن الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، الليث الهصور، والملك المنصور، مولانا أبو العباس أحمد المنصور، وحصل من احسانه ما أعجز لساني عن أداء شكره، وكنت اتخلل مجالس العلماء والأدباء وأخبرهم بمن لقيت من علماء الاسلام بمصر، والشام، وأن لي سند امتد بواسطتهم إلى ابن حجر العسقلاني وغيره، فرغب إلي من له الفضل على مفيدنا وبركتنا، الامام الفاضل، والعلامة الكاملة الخير الدين، النقيل، الرحالة، مفيد الطالبين، ولبي : أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن علي بن أبي العافية الشهير بابن القاضي، والأديب الفاضل، العلامة الأحد المتقن، المفيد، الرحالة : سيدي الحسين ابن أبي القاسم بن أحمد الدرعي ثم الجوزي الملولي ـــ خار الله لهما ونفعهما باعتقادهما ـــ أن أخبرهما بمن أجازني من العلماء المشهورين، والأئمة المهديين، وأن أصل سندهما بهؤلاء السادة الآتي ذكرهم، لا سيما في كتب الحديث، كما جرت بذلك العادة في القديم والحديث... »
انظر ترجمته في **الاجازة** المذكورة مخطوط خاص بالرباط، وأ. المقرى، **روضة**، 14 ـــ 18، **نفح**، 7 : 80، و ع. الرحمن التمنارتي، **الفوائد**، ص 48، وم. الافراني، **نزهة**، ص 126 ـــ 128، صفوة، ص 155، والعباس بن ابراهيم، **الاعلام**، 2 : 268، وم. حجي، **الحركة**، 2 : 382.

ان أميـــر المؤمنيـــن أحمـــد بحـــر النـــدى وفضلـــه لا يجحـــد
فمكـــة وطيبـــة أهلهمـــا والمسجـــد الأقصى بذاك يشهـــد

فلما بلغ إلى قوله : بمكة وطيبة، أشار بيده إلى نفسه ثم قال : نصرك الله، لم يتفق مثل هذا بملك قصدت إيالته قبلك، فتبسم لذلك ــ أبقاه الله تعالى ــ، وقد أجزل لهم في العطاء واجراء النفقة عليهم كما هو دأبه لكل وافد عليه من أي بلد كان، فهمته أبدا ــ أيده الله ــ طالبة للعلو، وتواقة للسمو كما قال المتنبي :

وإذا كانت النفـــوسُ كبـــارا تَعِـــبَتْ في مرادهـــا الأجسامُ[49]

[ ولا يألو جهدا في أفعال البر والخيرات، ويضع الخير في كل موضع، ولا يبالي به أينما وقع منه، لان المعروف لا يضيع حيثما وضع.

حكي أن الرشيد قال للمُفَضَّل الضَّبِّي [50] : أخبرني عن قول العرب :

الخيـــرُ أبْقَـــى وان طال الزمـــان به والشر أخبث ما أوعيتَ من زادِ [51]

فقال : يا أمير المؤمنين، هذا مثل لهم سائر قبل الاسلام، وكان من حديث هذا المثل أن عَبِيد بن الأبرص الأسدي [52] كان حكيما من حكماء العرب شاعرا مجيدا، قتله المنذر بن ماء السماء [53]، وكان من حديث هذا المثل، قبل أن يقتله المنذر بثلاثة أحوال، أن ناسا نزلوا عليه فقراهم فأحسن ضيافتهم، وكان يقري الضيق ويحسن إلى المنقطع له، فلما أراد القوم الرحيل خرج معهم يشيعهم حتى أبعدوا، ونزلوا في موضع.

خرج عبيد وصاحب له يمشيان، فسارا حتى أتيا حيا، فرأيا شجاعا أقرع يلهث، قد أدلع لسانه من العطش، فأخذ صاحب عبيد حجرا وهم أن يشدخه، فقال له عبيد : ما أنت

---

(49) انظر **ديوان المتنبي**، 4 : 64.

(50) انظر ترجمته عند ج. السيوطي، **بغية الوعاة**، 2 : 299 رقم 2016، وخ. الديوان الزركلي، **الأعلام**، 8 : 204.

(51) انظر **ديوان عبيد بن الأبرص**، ص 14 ــ 15..

(52) انظر ترجمته في **الأغاني**، 23 : 408، وعند خ. الدّين الزركلي، **الأعلام**، 4 : 339 ــ 340، والمصادر بالهامش 1.

(53) انظر ترجمته عند ابن خلدون، **تاريخ العبر**، 2 : 265، وخ. الدين الزركلي، **الأعلام**، 8 : 225 ــ 226، والمصادر بالهامشين 1 و 3

صانع ؟ قال : أقتل هذا الشجاع فإنه عدو قاتل، قال عبيد : لا تفعل ! ثم استقى من الجُبِّ، فسقى الشجاع، فجعل يشرب حتى روي، ثم تسبسب في الرمل فغاب، ورجع عبيد إلى القوم فودعهم، ثم رحلوا، ورجع عبيد إلى منزله، فأقام حولين، فأتاه بعض الرعاة، فأخبره أن إبله قد شردت، فركب راحلته وخرج يطلبها، كان شجاعا بطلا، فسار عشر مراحل لا يرى لها أثرا، ولا يعرف لها خبرا... [54] وكلت راحلته وتعب، وأظلم اليل، وهبت الرياح... [55] راحلته، وكان الموضع الذي هو فيه يقال له : الصادى، فقال : والله ما أرى الا... [56] ثم حط رحله عن راحلته وأسند ظهره إليه، وطأطأ رأسه إلى الأرض، وجمع أثوابه عليه فإذا هاتف يهتف من ... [57] وهو يقول :

يا أيها الشخص المضلُّ مذهبُـــــهُ ما عنــده من ذى رشاد يَصْحَبُـــهُ
دونك هذا البَكْــر منـــا فاركبـــه وبكــرك الميمـــون منـــا فاجنبـــه
حتـــى إذا الليـــل أزال غيهبـــه فحـــط عنـــه رحلـــه وسيبـــه

فالتفت وراءه فاذا بكر معقول...... [58] ]. وشأنه أيضا جزل صلة العلماء، وجوائز

---

(54) بياض بالأصل.
(55) بياض بالأصل.
(56) بياض بالأصل.
(57) بياض بالأصل.
(58) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».

**مـــلاحـــظة :**

هناك بياض بالأصل بمقدار نصف صفحة ونرى من الفائدة العلمية ادراج رواية الأغاني، التي تتمم رواية ابن القاضي، وتوضح في نفس الوقت الفرق بين روايته ورواية الأغاني.
وهكذا فقد ذكر أبو الفرج الاصبهاني في **الأغاني**، 23 : 408 ـــ 409، القصة على الشكل الآتي :
« .... قرأت في بعض الكتب عن ابن الكلبي، عن أبيه، وهو خبر مصنوع يتبين التوليد فيه : ان عبيد ابن الأبرص سافر في ركب من بني أسد، فبيناهم يسيرون اذا هم بشجاع يتمعك على الرمضاء، فاتحافاه من العطش. وكانت مع عبيد فضلة من ماء ليس معه ماء غيرها، فنزل، فسقاه الشجاع عن آخره، حتى روي، واستنعش، فانساب في الرمل، فلما كان من الليل ونام القوم، ندت رواحلهم، فلم ير لشيء منها أثر، فقام كل يطلب راحلته، فتفرقوا، فبينا عبيد كذلك وقد أيقن بالهلكة والموت، واذا هو بهاتف يهتف به :

يا أيهـــا الساري الـــمضل مذهبـــه دونك هذا البكـــر منـــا فاركبـــه
وبكـــرك الشارد أيضا فاجنبـــه حتـــى اذا الليـــل تجنـــى غيهبـــه
فحـــط عنـــه رحلـــه وسيبـــه

=

أبناء عمه الشرفاء، ولقد وفد عليه طائفة من شرفاء مكة، ومن شرفاء المدينة — على ساكنها الصلاة والسلام — فأجزل لكل منهم ما أمله، ومنحه فوق ما أم له. ومن الوافدين عليه لصلته الشريف أبو الفضل محمد بن محمد العارف العقاد المكي [59]، كان أديبا فاضلا، ناظما، فكاهة، فمن شعره — رحمة الله عليه — :

لا وفـرعٍ كدجـى الليــل غَسَقْ     وجبيـــنٍ ضوؤه ضوءُ الفَلَـــقْ
وَمُحَيّـــاً كَلِـــفَ البـــدر به     وَخُدَيْـــدٍ من حواليـــه شَفَـــقْ
ما أرى الغـــزلان إلّا سرقت     منـــه جيـــداً والتفاتـــا وحَـــدَقْ
ثم خافت فتـــولت شُرَّدا     كيـف لا يَشْرُدُ خوفـاً مَنْ سَرَقْ [60]

وقد مدح مولانا بموشحة عجيبة عارض بها موشحتي ابن الخطيب وابن سهل [61]، مطلعها :

[ ليس شعـري هل أروّي ذا الظمـأ     من لَمـى ذات الشنـيب الألـعسِ
وتـرى عينـايَ ربـات الحمـى     باهيـــاتٍ بقُـــدود مُيَّسِ
يُدْخلـون السقـمَ من دار اللـوى     كَلَـــم الهجـــر فؤادي وأسر
هَدَّ منْ ركـن اصطبـاري والقـوى     مُبدلًا أجفـانَ نومـي بالسهـر [62]

---

= فقال عبيد : يا هذا المخاطب، نشدتك الله الا أخبرتني من أنت ؟ فأنشأ يقول :

أنا الشجـاع الـذي الفيتـه رمضا     في قفـرة بيـن احجـار واعقـاد
فجـدت بالمـاء لمـا ضن حاملـه     وزدت فيـه ولـم تبخـل بانكـاد
الخيـر يبقـى وان طال الزمـان به     والشر أخبـث ما أوعيـت من زاد

فركب البكر، وجنب بكره، فبلغ أهله مع الصبح، فنزل عنه، وحل رحله وخلاه، فغاب عن عينيه، وجاء من سلم من القوم بعد ثلاث ». يلاحظ اذن خلاف في الرواية والأبيات الأولى، وقد وردت في جل المصادر الأدبية برواية **الأغاني**، (انظر — مثلا — ابن حجة الحموي، **ثمرات الأوراق**، 2 : 103 — 105)، وعلى أي حال فالرجز مضطرب، ركيك، سقيم الأسلوب، شاذ الأعراب.

(59) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **جذوة**، 326 رقم 345، وأ. المقرى، روضة، ص 15 — 16، وم. الافراني، نزهة، ص 125 — 128.

(60) انظر أ. المقري، **روضة**، ص 15.

(61) انظر ترجمته عند م. بن شاكر، **فوات الوفيات**، 1 : 20 — 30 رقم 5، وخ. الدين الزركلي، **الأعلام**، 1 : 30، واحسان عباس، مقدمة **ديوان ابن سهل**.

(62) ورد البيت بالأصل هكذا :

وهـد من ركـن اصطبـاري والقـوى     ثم مبـدل أجفـان نومـي بالسهـر

وهو غير مستقيم وزنا، والتصويب من **الروضة**، ص 15، والنفح، 7 : 69.

حين عز الوصل عن وادي طوى ... هملت دموع عيني كالمطر
فعساكم أن تجودوا كرما ... بلقاكم في سواد الحِندِسِ
وتداووا قلبَ صب مغرما ... من جراحات العيون النُّعَّسِ
كلما حن ظلامُ الغَسَقِ ... هزني الشوق إليكم شغفا
واعتراني من جفاكم قلقي ... مذ تذكرت جيادا [63] والصفا
وتناهت لوعتي من حُرَقي ... ثم زاد الوجدُ في التلفا

فانعموا لي ثم جودوا لي بما ... يُطْفِ [64] نيران الجوى والقبس
ساعة لي من رضاكم مغنما ... وتداوي جثتي مع نفسي

كنت قبل اليوم في زهو وتيه ... مع أحباء بسلع ألعبُ
ومعي ظبيٌ بإحدى وجنتيه ... مشرقُ الشمس وأخرى مغربُ
فرماني بسهامٍ من يديه ... ضاربُ البين فقلبي متعبُ

لست أرجو للقاكم سلّما ... غير مدحي للامام الأرأسِ
أحمد المحمود حقا من سما ... الشريف بن الشريف الكيس [65]]

وقد عارضه مولانا في الأبيات المذكورة، ويد مولانا في ذلك أطول من يده وكذلك كتبته وشعراء الوقت، بمعارضات كثيرة ضاعت مني أيضا، وما رأيته ينصرف عنه منصرف إلا نال مطلوبه، وبلغ فيما قصده إليه مرغوبه.

ومن شيمه الحسنة، ومفاخره المستحسنة، أنه أرحم خلق الله قلبا، وأرقهم نفسا، وأعظمهم رحمة، وبمثل هذه الصفة اتصفت والدته أم المؤمنين [66] ــ عاملها الله بلطفه ــ، ففيها من الرحمة والشفقة على عباد الله تعالى ما لا يدخل تحت حصر، فكم جهزت من يتامى، وكم زوجت من أيامى، وكم بذلت من الصدقات، وكم أجزلت من الصلات، هذا مع

(63) جياد : يعني جبل أجياد بمكة.
(64 خرج عن الأعراب ضرورة.
(65) ما بين المعقوفين سقط من « م ».
وقد ورد الجزء الأخير من خرجة الموشح في الروضة، ص 16، هكذا :
أحمد المحمود حقا من سما ... الكريم بن الكريم الكيس
(66) أم المنصور هي عودة بنت أحمد الوزكيتي، انظر ترجمتها عند أ. بن القاضي، درة، 3 : 182 ــ 183 رقم 1160، وأ. المقري روضة، ص 63 ــ 67.

ماكانت تنشئة من المساجد والقناطر، واصلاح الطرق للبادي والحاضر، وغير ذلك، مع ماكانت تسرده من الصيام والهدايا مع كل قفل إلى المشاعر الحرام.

وأما طاعته لها فسأذكرها في محلها من الأبواب — إن شاء الله تعالى —.فمما أمرت ببنائه المسجد الذي أنشأته بباب دكالة من مراكش المحروس مسجد عظيم تقام به الجمعة، وحبست عليه وقفا عظيما (67).

ونص التحبيس بعد البسملة والتصلية :

« لما نشر الله سبحانه — من الذرية الشريفة العنصر، ذات النسبتين الطاهرتين، والسلالتين الطيبتين، والولادتين الكريمتين، العلوية الحسنية الفاطمية، آل بيت المصطفى رضوان الله عليهم — النور والضياء، وألاح من حسن الاقتداء بهم السبيل السواء، أصبح الفضل لفضلهم تابعا، والجود والسؤدد لأصلهم طائعا، والفضائل والمآثر بعنايتهم متحققة، والآراء المختلفة على تقديمهم متفقة، والامامة والخلافة لجنابهم عاكفة، والأمم بمكارمهم عالمة عارفة، والقلوب على محبتهم مطبوعة مجبولة، والأسباب المنقطعة بإنعامهم الشامل موصولة، فارتفع في عقائد فضلهم الأصيل القواعد الخلاف، واستقلت مباني أساسات فخرهم على أسس الأسلاف، فأقاموا شعائر هذه الشريعة الشريفة، وحازوا قصبات السبق إلى المعالي المنيفة، وخص من بينهم بفواضل متوالية، وفضائل غير متناهية، الامام المطاع، الواجب لعظيم

(67) يعتبر هذا المسجد من أهم المساجد في العصر السعدي، في كل من مراكش أو فاس على السواء، ومما زاد في أهميته أن أم المنصور أمدته بمكتبة عظيمة، أوقفت عليها جملة وافرة من الكتب العلمية، وتنافس في اهداء هذه الكتب العلمية إلى هذه المكتبة كل من أحمد المنصور، وأبنائه وأحفاده، وجملة من العلماء والمعنيين، ومن المخطوطات الباقية من هذه المكتبة اليوم في المكتبة العامة بمراكش، المخطوطات التي تحمل أرقام : 64 و 112 و 136.

يورد الناصري قصة طريفة لبنائه : « ... وتزعم العامة أنها بنت المسجد المذكور كفارة لما انتهكته من حرمة رمضان، وذلك أنها دخلت بستانا من بساتين قصورها وهي في حال الوحم فرأت به خوخا ورمانا فتناولتهما وأكلت منهما في نهار رمضان، ثم ندمت على ما صدر منها، وفعلت أفعالا كثيرة من باب البر رجاء أن يتجاوز الله عنها، ومنها الجامع المذكور، ولا زال النساء والصبيان يسجعون بقضيتها إلى الآن فيقولون : عودةأكلت رمضان بالخوخ والرمان، في أسجاع غير هذه. ولفظ عودة مخفف من مسعودة على طريقة البربر في مثل هذا، والله تعالى أعلم... ».

انظر : أ. الناصري، **الاستقصا**، 5 : 118.

وعن تخطيطه من الناحية المعمارية، انظر :

G. Marçais, l'Architecture Musulmane d'Occident, PP. 385-386.

عثمان عثمان اسماعيل : « من تاريخ العمارة الدينية في عصر الأشراف السعديين »، مجلة **دعوة الحق**، السنة 19 العدد، 5، رجب 1398 ماي 1978، ص 72 — 75.

قدره في الملوك الانقياد والاهطاع، عميد عصابتهم العلوية وأثيرها وممهد قواعد ايالتهم الحسنية ومقررها، ومؤسس مبانيها ومطهرها، ومدير أمرها السامي ومدبرها، صدر الصدور، وبدر البدور، وعلم الملة المشهور، ومؤمل الخاصة والجمهور، السلطان المؤيد بالنصر أمير المؤمنين : أبو العباس المنصور ــ أدام الله عزته، ووالي سموه ورفعته ــ، وكانت دولته الشريفة المذهبة المذهب التي هي نزهة الصادر والذاهب، يَزهى الوجود بحسن وجودها، وتستمد أضواء الفضائل من مقباس جودها، ثم إن دواعي رفعة شأنه وعزة سلطانه ومحاسن أوصافه ومفاخر أسلافه، حرك العزم الساكن من نشاط والدة هذا السلطان الحرة، الجليلة، الحسيبة، الحفيلة، الولية، العابدة، الصالحة، الصوامة، القوامة، الكثيرة الأوراد، المشفقة على العباد، المحافظة على الأدعية والأذكار، والسعي في الخيرات وأعمال البر والايثار، المرتسمة بديوان الأولياء، الموفقة بفضل الله لأعمال الصالحين الأتقياء، المتفضلة على نساء أهل زمانها، المتحدث بنباهة شأنها، المعروفة بسداد النظر واصابة الرأي، الحائزة درجات السبق بالمبادرة والسعي، الميمونة المسعودة، أمة الله عودة بنت أحمد صان الله مجدها وبلغها من كل خير أملها وقصدها، وألهمها التوفيق والهداية إلى سواء الطريق، بعزيمة علم صدقها، ونية رضى عملها، اذ كانت ــ أدام الله حفظها ــ أوفى الناس رغبة إلى التكثير من الخير، والفحص عن عمل البر، والعثور على أسبابه، والتطلع إلى ايناسه، والحرص على اقتباسه.

فكانت آثارها الحسنة، وأفعالها المستحسنة، تخرق المعتاد خرقا، وتجوب البلاد غربا وشرقا. وتلك هداية من الله استأخرت إلى زمانها، وحسنات اذخرتها لميزانها، فحبست لوجه الله العظيم، ورجاء ثوابه الجسيم، والنعيم المقيم، جميع السبعين حانوتا غير نصف حانوت الواجبة لها في نصفها من القيسارية المشتركة بينها وبين مساكين المارستان المخترعة لها وسط سوق الحضرة المراكشية دون البقعة المتصلة بقبلتها وجميع بيت الأرحى الجديدة المخترعة لها على وادي تسلطانت القريبة من أرحى أولاد الأمين محمد بن قاسم القسطلي وأولاد التاجر عبد الله التناجرفي، المشتمل على أربع مدارات مع جميع داره المبنية له وجميع العين الكبرى التي تملكتها من ورثة أحمد بن ربوح الكائنة بالمخالص خارج باب تاغزوت مع أرضها وجنانها ومائها ماعدا الحظ الواجب لأولاد الولي الصالح السيد أبي عمر القسطلي [68] فيها بجميع منافع ذلك كله وحقوقه الداخلة عنه، وما عد منه ونسب إليه، جعلته حبسا مؤبدا، ووقفا مخلدا، يحاز بما تحازبه الأوقاف، ويحترم بحرمتها، إلى يرث الله

(68) انظر ترجمته عند م. بن عسكر، **دوحة**، ص 108 ــ 109 رقم 105، وقد ألف في ترجمته كتابان، أولهما : **شمس المعرفة، في سيرة غوث المتصوفة**، لقاسم الحلفاوي (ت بعد 1000 هـ / 1591 م)، مخطوط المكتبة العامة بمراكش رقم 171، والمكتبة العامة بالرباط رقم 764 ج و 2552 و 3165. والكتاب الثاني : **شمس القلوب، لكل محبوب**، لمحمد بن الفقير الزروالي، ميكروفيلم المكتبة العامة بالرباط رقم 188.

الأرض ومن عليها، على جامعها الأعظم السعيد، المخترع لها الجديد، بين حومتي باب الرخا (69) وباب دكالة من حضرتهم المراكشية الذي هو لكريم جنابها منسوب، ولعظيم أجرها مجلوب، أحيت به ذلك المكان الميت، والهمها الله قوله : « وما رميت إذ رميت (70)»، تأنقت في بنائه، وبلغت الغاية الممكنة في إنشائه، وأمدته بعين الماء، لا سباغ الطهور وأرواء الظَّمّاء، فجاء محكم الانشاء، وأغنى عن الدلو والرِّشَاء، فما أعظم منة منت بها، وأجل قدر هبتها في مواهبها، فالله سبحانه يجازيها عن كل كبد رطبة سقتها، ومشقة صعبة وقتها، بكل صعبة أجرا يقود منها إلى أفضل ألف، ويضاعفه إلى مائة ألف ضعف، وتصير الأوقاف المذكورة يصرف خراجها ومستفادها في مصالح الجامع المذكور من مرتب أئمته وفقهائه، ومؤذنيه والقائمين بسائر وظائفه واجراء واكمال بنائه.

قالت ذلك وأشهدت به على نفسها حسبما وضعت به خاتمها المتضمن اسمها في أواسط شهر الله المحرم من عام خمسة وتسعين وتسعمائة (71) ».

ثم بعد هذا اشهاد حفيدها الواثق بالله تعالى مولانا أبي فارس، ثم اشهاد أبي الحسن أحمد بن أبي الحسن بن أحمد بن مولانا القائم بأمر الله تعالى، ثم حيازة الأملاك المذكروة، ثم استقلال أبي القاسم بن علي الشاطبي، ثم امضاء ولي عهد مولانا المامون ــ أمنه الله ــ.

وأما امضاء مولانا فنصه ــ وهو من إنشاء أبي فارس ــ (72) :

---

(69) بابا الرخا : ذكر العباس بن ابراهيم أنه كان قرب باب الرب وأنه أغلق، وباقي الأبواب التي كانت توجد بمراكش هي : أغمات، وباب ايلان، وباب الدبغ، وباب الخميس، وباب دكالة، وباب الرب، وباب القصبية، وباب احمر، وباب العرايس، بين باب دكالة وباب الرب. أما باب تاغزوت ــ أي الغزو ــ فقد كان من أبواب مراكش قبل ان تضاف الزاوية العباسية إليها ويصير داخل المدينة.
انظر : **الأعلام**، 1 : 98.

(70) الآية 17 من سورة الأنفال، ونصها :
« فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت اذ رميت، ولكن الله رمى، وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا، وأن الله سميع عليم ».

(71) 15 محرم سنة 995 هـ توافق 26 دجنبر سنة 1586 م.

(72) يقصد أبا فارس عبد العزيز الفشتالي، مؤرخ المنصور، انظر ترجمته في كتابه، **مناهل**، مواضع متفرقة، وأ. بن القاضي، **درة**، 3 : 169 ــ 131 رقم 1074، **لقط الفرائد**، ص 302، وأ. المقرى، **نفح**، 5 : 22، 6 : 49، و 5، 7 : 68، 81، 82، **فتح**، ص 241 ــ 245، وم القادري، **الاكليل**، ورقة 60 ظ، **التقاط**، 14، والزياني، **الروضة السليمانية**، ص 128، وم. العربي الفاسي، **مرآة**، 163 وش. الدين الخفاجي، **خباياً**، ورقة 64 ظ، 65 ظ، وم. المحبي، **خلاصة الأثر**، 2 : 425 ــ 426، وم. بين معصوم، **سلافة**، ص 582 ــ 589، وم. بن مخلوف، **شجرة**، ص 298 رقم 1154، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 4 : 152، وع. السلام بن السودة، **دليل**، 1 : 161 ــ 162 رقم 602، ول. بروفنسال، **مؤرخو الشرفاء**، ص 80 ــ 81، وعبد الله كنون، **النبوغ المغربي**، 1 : 262 ــ 263، وكذلك العدد الأول من سلسلة **ذكريات مشاهير**=

« عن عبد الله تعالى، الامام، الخليفة المجاهد، أبي العباس المنصور، أمير المؤمنين ابن مولانا الامام الخليفة، أمير المؤمنين وناصر الدين، أبي عبد الله القائم بأمر الله، الشريف الحسني — أيد الله أوامره، ووصل له مجد الدنيا بمجد الآخرة — صدر هذا الأمر العلي، الامامي الكريم المنصور — أعلى الله به الدين وشرفه، ورفع إلى سمك السماكين غرفه — بامضاء التحبيس الصادر أسفله عن الحرة الجليلة، الأصيلة، المثيلة، الحسيبة، القانتة العابدة، الصالحة، الغادية في سبيل مرضاة الرب والرائحة، أم القرب والحسنات، وكاشفة الكرب المزمنات، السيدة الطاهرة، والدة أمير المؤمنين، وكافلة البنات والبنين — أبقى الله بركتها، وأجرى على الخير والصلاح سكونها وحركتها — امضاء لا يعقبه بحول الله فسخ، ولا يتناول آيه المحكمة نسخ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، والله لا يضيع أجر المحسنين بفضله ومنه. وبتاريخ المحرم الحرام فاتح خمسة وتسعين وتسعمائة. وعلامته أيده الله بأعلاها ».

وأفعال برها لا تحصى كثرة، ولولا خوف الاطالة لهذه العجالة لذكرنا شيئا كثيرا من برها.

---

= المغرب، وم. بن تاويت، **الأدب المغربي**، ص 322 — 325، وم. حجي، **الحركة**، 2 : 457 — 485، وكذلك مقاله عن **مناهل الصفا** بمجلة **دعوة الحق**، العدد الثامن السنة التاسعة، يونيو 1966، ص 70 — 74، وم. زنيبر، مقال عن **مناهل الصفا** بمجلة **البحث العلمي**، العدد الثالث لسنة 1964، ص 267 — 271،

C. Brockelmann, Sup. 2 : 680

# الفصل الأول :

## * [ في حقيقة الخلافة وشروطها ]

اختلف العلماء في الخلافة وهي الامامة ، قال ابن سَلْمون [1] : « الامامة عبارة عن خلافة شخص للرسول ﷺ في إقامة حدود الشرع وحفظ الملة على وجه يجب على كافة الأمة » [2].

وشروطها المتفق عليها ستة : الذكورية والبلوغ ، والحرية ، والورع ، والعدالة ، والاجتهاد في الأحكام الشرعية ، وزاد أهل السنة شرطا ، وهو أن يكون من قريش [3] ، لقول الرسول ﷺ : « قَدِّموا قريشا ولا تَقَدَّموها » [4] .

قلت : وهذه الأوصاف موجودة في مولانا ــ أيده الله تعالى بمنه ــ [5] ، قال إمام

* ورد هذا الفصل في « ج » في الخاتمة.

(1) أنظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **جذوة**، 2 : 434 ــ 435 رقم 464، **لقط الفرائد**، ص 193، و ع. الحي الكتاني، **فهرس الفهارس**، 2 : 373، وم. ابن مخلوف، **شجرة**، 214، والمؤلف المجهول، **طبقات المالكية**، 425، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 4 : 243.

(2) أنظر م. بن الأزرق، **بدائع السلك**، 1 : 98 ــ 99، 110 ــ 111.

(3) أنظر م. بن الأزرق، المصدر السابق، 1 : 96 ــ 27 ، وم.

عابد الجابري، **العصبية والدولة**، 200 ــ 201، وم. أبو زهرة، **تاريخ المذاهب الاسلامية**، 1 : ص 24 وما بعدها.

(4) أجرجه الشافعي في **مسنده**، وابن جرير في **تفسيره**.والبيهقي في **المعرفة** عن ابن شهاب مرسلا. أنظر ج. السيوطي، **الجامع الكبير**، 2 : 332.

وأنظر أيضا، القاضي عياض، **الشفا**، 2 : 49، والماوردي، **الأحكام**، ص 6.

(5) من الواضح هنا أن ابن القاضي يرمز بهذا إلى أن السعديين ــ لشرفهم ــ هم أحق بالخلافة من الأتراك، وهذا الرأي هو ما عبر عنه بكل وضوح سفير المنصور إلى مراد الثالث محمد التمجروتي، إذ قال في =

الحرمين [6] : « من اجتمعت له الشروط المذكورة ، وانعقدت له الامامة ، فقد لزمت طاعته ، ولا يجوز خلعه من غير حدث ، وبغير أمر » ، وهذا مجمع عليه . ومنع من عقدها لشخصين ، لقول النبي ﷺ : « إذا بويع أحد الخليفتين فاضربوا عنق الآخر [7] ، وقال الآمدي [8] في **الأبكار** [9] : « الامامة من الفرعيات ، واختلف فيها ، هل هي واجبة عقلا أو نقلا ؟ » ؛ انتهى .

وذهب بعض المعتزلة إلى أنها واجبة على الله تعالى ، كما هو أصلهم في مرعات الصلاح والاصلاح. وتعالى الله أن يجب عليه شيء ، لأنه هو الموجب ، الآمر الناهي ، فلا أمر ولا نهي يتوجه إليه من سواه تعالى : «لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون» [9مكرر].

والقول بأنها واجبة عقلا نسب للمعتزلة أيضا [10] . قال ابن مرزوق [11] : « وبوجوبها

---

= **النفحة المسكية**، ص 147، ما يلي : « ... والعثمانيون من جملة المماليك والموالي، الذين دافع الله بهم عن المسلمين وجعلهم حصنا وسورا للاسلام، وأن كان أكثرهم، وأكثر اتباعهم ممن يصدق عليهم قوله ﷺ : « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » ، وإن كانوا إنما حملوا الامارة، وقلدوا الأمر في الحقيقة نيابة، وأمانة يؤدونها إلى من هو أحق بها، وأهلها هم موالينا وساداتنا الشرفاء ملوك بلادنا المغرب، الذين شرفت بهم الامانة والخلافة، وكل مسلم لا يقول عكس هذا ولا خلافه ...» .

(6) هو : عبد الملك بن عبد الله الجويني الشافعي ( توفي سنة 478 هـ 1085)، درست من كتبه في عصر ابن القاضي : **الارشاد في العقائد، والورقات في أصول الفقه**، وهما مطبوعان.
وأنظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان** ، 3 : 167 — 170، رقم 378، والمصادر بالهامش.
ومن الدراسات الحديثة، أنظر : **الجويني أمام الحرمين ومذهبه في حدوث العالم** للدكتورة فوقية حسين محمود، سلسلة أعلام العرب، عدد 40.

(7) أخرجه مسلم في **الصحيح** ،6 : 23 ، عن أبي سعيد الخدري باللفظ الآتي : إذ بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما » .
ويوجد بنفس لفظ مسلم في **مسند** ابن جنبل ، وعند ابن عساكر في **تاريخ دمشق** .
أنظر ج . السيوطي ، **الجامع الكبير** ،1 : 95 .

(8) أنظر ترجمته عند أ . بن خلكان ، **وفيات الأعيان** ، 3 : 293 — 294 ، والمصادر بالهامش 432 من الصفحة 493 من نفس المصدر .

(9) إسم الكتاب الكامل هو : **أبكار الأفكار** ، لسيف الدين الآمدي .
أنظر حاجي خليفة ، **كشف الظنون** ، 1 : 4 .

(9م) الآية 23 من سورة الأنبياء .

(10) أنظر م . بن مرزوق ، **المسند** ،ص 6 .

(11) أنظر ترجمته في **فهرسه** ، مخطوط م . ع ، عدد 7579 ، وكتابه **المسند الصحيح** ، مواضع متفرقة ، وعند أ . بن القاضي ، **درة** ، 2 : 275 — 276،رقم 782 ، جذوة ، 1 : 225 — 227 رقم 194 ، لقط الفرائد ، ص 219، و أ. بن فرحون، **الديباج**، 2 : 290 — 296 رقم 10، و أ. بن حجر، **انباء الغمر**، 1 : 206 — 207 رقم 31، و أ. ابن قنفذ، **وفيات**، ص 86، و أ. الونشريسي، **وفيات، ص 129**، و =

عقلا قال صاحب كتاب **التجريد** [12] ، وهو كتاب عمت به البلوى ، وحصلت منه في الاسلام دهية دهيا . وذهب الخوارج إلى عدم وجوبها مطلقا ، أي عمت البلوى أم لا ، ومستند أهل السنة إجماع المسلمين على نصب أبي بكر خليفة بعد وفاته ﷺ . والاجماع حجة ، لأنه لا تجتمع أمته ﷺ على ضلالة ، ولأنه معصوم مشهود له بالعصمة ، فإقامة الخلافة بين الناس واجبة على أهل الحل والعقد من المسلمين ، واتفق أهل السنة والمعتزلة على أن الخلافة سبب حصولها عقد البيعة، واختلفوا في اشتراط العدد في أهل الحل والعقد وهل تنعقد بواحد أم لا ؟ [13]، فانتقلت من سلف الى خلف إلى أن وصلت لمولانا أبي العباس المنصور، فألقت عصاها لديه، وقصرت أملها عليه.

ع . الحي بن العماد ، **شذرات** ، 6 : 271 — 272 ،و م . بن مريم البستان ، ص 184 — 190، وأ . بابا، نيل ، ص 267 — 270 ، و أ. المقري ، نفح ، 5 : 390 — 396 رقم 18 و م . بن مخلوف ، **شجرة** ، ص 236 — 237 رقم 849 ، وإسماعيل البغدادي ، **هدية العارفين** ، 2 : 170 . و أ . الناصري ، **الاستقصا**، 4 : 25 وما بعدها، و ع. الحي الكتاني **فهرس الفهارس**، 1 : 394، والعباس بن إبراهيم، **الاعلام** ، 5 : 11 — 21 رقم 615 ، وعادل نويهض ، **معجم اعلام الجزائر** ، ص 140 — 141 ، و خ . الدين الزركلي ، الأعلام ، 62 : 226 ،ومحمد بن شقرون ، **مظاهر الثقافة المغربية** ، ص 123 — 129 ، وكذلك كتابه :

La Vie Intellectuelle Marocaine , PP . 283 - 293.

(12) يقصد كتاب **تجهيد الجدل**، لأبي القاسم أحمد بن عبد الله البلخي، رئيس المعتزلة، المتوفي سنة 319 هـ. أنظر حاجي خليفة ،**كشف الظنون** 1 : 345.

(13) أنظر : **المسند** ،ص 6.

**مـلاحظـة :**

تصرف ابن القاضي كثيرا عند نقل نصه هذا.

# الفصل الثاني

* في فضل الامامة

وأما فضل الامامة فهو من الأمور الاضافية، التي لا تعقل الا بنسبتها لشيء آخر. ولاشك أن الخلافة هي أشرف من غيرها، لكونها خلافة الله ورسوله، فبهذا الاعتبار هي أعظم المنازل، ففي الصحيح عن رسول الله — ﷺ — : « سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل الا ظله — الحديث [1] ». قال بعضهم : « ولا تجتمع جميعا إلا لامام ». حدثني شيخنا أبو راشد عن شيخه ابن هارون [2]، عن أبي عبد الله محمد بن غازي [3]، عن أبي عبد الله محمد بن قاسم بن

---

* ورد هذا الفصل في « ج » في الخاتمة.

(1) أخرجه البخاري في **الصحيح**، 1 : 161، عن أبي هريرة كما رواه النسائي في **السنن**، 8 : 222.

(2) يقصد علي بن موسى بن هارون المطغرى، انظر ترجمته عند م. بن عسكر، **دوحة**، ص 51 رقم 34، وأ. بن القاضي، **درة**، 3 : 254 رقم 1295، **جذوة**، 2 : 477 رقم 533 ، **لقط الفرائد**، ص 298، وأ. بابا، **كفاية**، 74،وع. الحي كتاني، **فهرس الفهارس**، 2 : 245 — 246 وقد توفي ابن هارون بفاس سنة 951 هـ / 1545 م.

(3) توجد ترجمته مفصلة في كتابيه : **التعلل برسوم الاسناد، والروض الهتون**، وعند أ. المنجور، **فهرس**، ص 17 وم. بن عسكر، **دوحة**، ص 45 رقم 31، وأ. بن القاضي، **درة**، 2 : 147 — 148 رقم 622، **جذوة**، 1 : 320 رقم 331، **لقط الفرائد**، ص 284، وأ. بابا، **نيل** 359، وم. الكتاني، **سلوة**، 2 : 73 — 77، وع. الرحمان بن زيدان، **اتحاف**، 4 : 2 — 21، وم. الحجوى، **الفكر السامي**، 4 : 100، وم. بن خلوف، **شجرة**، 276 رقم 1029، وع. الحي الكتاني، **فهرس الفهارس**، 1 : 210 — 213 و 315 — 316، 2 : 256 — 257، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 6 : 232، وع. السلام بن سودة، **دليل**، 2 : 52 رقم 104، وم. بن تاويت، **الأدب المغربي**، ص 288 — 289، وعبد الله كنون، **النبوغ**، 1 : 208 — 209، كما خصص العدد 12 من سلسلته **ذكريات مشاهير المغرب** لابن غازي، وانظر أيضا : ل. بروفنسال، **مؤرخو الشرفاء**، ص 156 — 159 ومحمد حجي، **الحركة**، 2 : 346، وكذلك :

C. Brockelmann, SUp. 1 A : 302, 522 - 523, 546, 2 : 97. 337 - 338. M. Benchekroun, la vie intellectuelle, PP. 385 - 394.

محمد القورى [4]، أنه بات ليلة بكاملها يحاول نسق السبعة المذكورين في شعر، لأنه كان لا ينصاع له نظم الشعر، وكان آية من آيات الله في العروض، والنحو، والفرائض، والفقه، فلم يجد الا بيتا واحدا متكلفا وهو :

**أمـــام شب في حب وجمـــع      وبكـــاء ومدعـــو تصدق**

ثم ان أبا زيد عبد الرحمان البردعي [5] صدره ببيت، وهو :

**يظـــل الله تحت العـــرش قومـــا      وهـــم سبـــع كمـــا قال الـــمصدق**

امام إلى آخره...

وهذا البيت في غاية الحسن — رحم الله تعالى جميعهم — وقد نظم هذا الحديث، أيضا، أبو شامة المقدسي، وهو عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهم بن عثمان المقدسي الدمشقي [6]، الذي ولد سنة ست وتسعين وخمسمائة [7]، أخذ عن السخاوي [8] **القرآن، له كتاب الروضتين، في أخبار الدولتين، النورية والصلاحية** [9]، توفي سنة خمس وستين وستمائة [10].

ونظمه هذا :

**وقال النبي المصطفى : ان سبعة      يظلهـــم الله الكريـــم بظلـــه**
**محب عفيـــف ناشيء متصدق      وبـــاك مصل والامـــام بعدلـــه**

---

(4) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **درة**، 2 : 295 — 296 رقم 832، **جذوة**، 1 : 319 رقم 329، وم. الكتاني، **سلوة**، 2 : 116، السخاوى، **الضوء اللامع**، 8 : 280 رقم 772، والمؤلف المجهول، **طبقات المالكية**، ص 449.

(5) انظر ترجمته عند أ. ابن القاضي، **درة**، 3 : 95 رقم 1020، **جذوة** 2 : 406 رقم 419.

(6) انظر ترجمته عند م. بن شاكر، **فوات الوفيات**، 2 : 269 — 271 رقم 251، وج، السيوطي، **بغية الوعاة**، 2 : 77 — 78 رقم 1480.

(7) سنة 596 هـ توافق 1199 — 1200 م.

(8) يقصد علم الدين السخاوى، المتوفى بدمشق سنة 643 هـ انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 3 : 340 — 341، والمصادر بالهامش 456 من الصفحة 340 من نفس المصدر.

(9) طبع بمصر بتحقيق محمد حلمي سنة 1956.

(10) سنة 665 هـ توافق 1266 / 1267 م.

وفي الحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ : « السلطان ظل الله في الأرض [11] »، وعن أنس بن مالك [12] ـ رضي الله عنه ـ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « اذا مررت ببلدة ليس فيها سلطان فلا تدخلها، انما السلطان ظل الله ورمحه في الأرض [13] »، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص [14] ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ان المقسطين عند الله على منابر من نور العرش، الذين يعدلون في حكمهم [15] »، وفي **التوراة** : «من يظلم يخرب بيته» ، ومعناه في **القرآن** : ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا [16]﴾، والملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم (17)، «فاياك والظلم فإنه ظلمات يوم القيامة [18] .

[ وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال لكعب [19] : اخبرني عن جنة عدن، قال يا أمير المؤمنين، لا يسكنها الا نبي صديق، أو شهيد، أو امام عادل، قال عمر : والله ما أنابنبي، وقد صدقت رسول الله ـ ﷺ ـ، وأما عادل فإني أرجو ألا أجور، وأما الشهادة، فأنى لي بها ؟

قال الحسن : فجعله الله صديقا، شهيدا، حكما، عدلا [20]. وسأل الاسكندر حكماء

---

(11) أخرجه الطبراني في **المعجم الكبير**، والبيهقي في **شعب الايمان** عن أبي بكرة، انظر ج. السيوطي، **الجامع الكبير**، 2 : 64.

(12) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 1 : 365 ـ 366، والمصادر بالهامش 1.

(13) أخرجه البيهقي في **شعب الايمان** عن أنس، انظر ج. السيوطي **الجامع الكبير**، 1 : 171.

(14) انظر ترجمة عبد الله بن عمرو بن العاص، عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 4 : 250، والمصادر بالهامش 1.

(15) أخرجه مسلم في **الصحيح**، 6 : 7، عن عبد الله بن عمرو باللفظ الآتي : « ان المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين الذين في حكمهم وأهليتهم وما ولوا ».

(16) سورة النمل الآية 52.

(17) في « ج » : ولذلك يبقى الملك مع الكفر والعدل ولا يبقى مع الاسلام والظلم.

(18) حديث نبوي أخرجه مسلم في **الصحيح**، 7 : 18، عن جابر بن عبد الله، باختلاف يسير في اللفظ.

(19) هو كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري المشهور بكعب الأحبار (توفي سنة 32 هـ / 652 م)، تابعي. كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في زمن أبي بكر، وقدم المدينة في دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيرا من أخبار الامم الغابرة، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة. وخرج إلى الشام، فسكن حمص وتفي بها.
انظر : صلاح الدين الادلبي، **كعب الأحبار : حياته، آثاره، تجريحه وتعديله**. رسالة جامعية غير منشورة محفوظة بمكتبة دار الحديث الحسنية بالرباط، وانظر كذلك خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 6 : 85 والمصادر بالهامش 3 من نفس الصفحة.

(20) انظر م. الابشيهي، **المستطرف**، 1 : 100.

أهل بابل : أيما أبلغ عندكم، الشجاعة أم العدل ؟ قالوا : « اذ استعملنا العدل استغنينا عن الشجاعة [21] ».

ويقال : « عدل السلطان أنفع من خصب الزمان [22] ».

وقيل : « اذا رغب الملوك عن العدل، رغبت الرعية عن طاعتهم [23]. وكتب بعض العمال لعمر بن عبد العزيز يشكو إليه من خراب مدينته، ويسأله مالا يرمها به، فكتب إليه عمر ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ : « قد فهمت كتابك، فإذا قرأت كتابي فحصن مدينتك بالعدل، ونظفها من الظلم ترمها، والسلام [24] » ].

وعنه ـــ ﷺ ـــ : « ما من أحد أقرب من الله مجلسا يوم القيامة، بعد ملك مصطفى، أو نبي مرسل، امام عادل، ولا ابعد من الله من امام جائر [25]، وعنه ـــ ﷺ ـــ : « الامام العادل لا تكاد ترد دعوته [26] ».

وفي بعض الآثار : « إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن [27] »، لكن يجب عليه أن يعدل في رعيته، فالعدل اذا دام عمر، والظلم اذا دام دمر.

وعن وهب بن منبه [28] : « اذا هم الوالي بالجور، أو عمل به أدخل الله النقص في

---

(21) انظر م. الابشيهي، المصدر السابق، 1 : 100 — 101.

(22) انظر م . الابشيهي، المصدر السابق، 1 : 101.

(23) انظر م. الاشيهي، المصدر السابق، 1 : 101.

(24) ما بين المعقوفين سقط من « ج ».
وانظر مقالة عمر بن عبد العزيز عند م. الابشيهي، المصدر السابق، 1 : 101.

(25) أخرجه الترمذي في السنن، 2 : 277، باللفظ الآتي : « أحب الناس إلى اللهوأقربهم منه مجلسا يوم القيامة أمام عادل، وأبغض الناس إلى الله يوم القيامة، وأشدهم عذابا امام جائر ».
وقد قال عنه الترميذى : حديث حسن غريب.

(26) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عن أبي هريرة بإسقاط عبارة : «لاتكاد»، انظر الجامع الكبير، 2 : 28.

(27) الأثر لعمر بن الخطاب، انظر المتقي الهندي، منتخب كنز العمال، 1 : 134، وم. ابن الأزرق، بدائع السلك، 1 : 92.

(28) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، وفيات الأعيان، 6 : 35 والمصادر بالهامش 772 من نفس الصفحة والمصدر.

أهل مملكته، في الأسواق، والزروع، والضروع، وكل شيء، واذا هم بالخير والعدل، أو عمل به، أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك [29].

ومن الطرف التي حدثني بها شيخنا أبو راشد، وذكر لي أن شيخه أبا الحسن على بن هارون كان يستعملها في خطبه العيدية، دائرة الاسكندر، التي أولها : « العالم بستان، سياجه الدولة. الدولة سلطان، تحيا بها السنة. السنة سياسة، سيوسها الامام. الامام راع، يعضده الجيش. الجيش أعوان، يكفلهم المال. المال رزق، تجمعه الرعية. فالرعية عبيد، يشملهم العدل. العدل مألوف، به صلاح العالم [30] ».

وحدثني أيضا بدائرة أخرى لأهل الطب تنسب لجالينوس، وهي : « الطب صناعة، تعضدها الأدوية. الأدوية آلة، تعدل الاخلاط. الاخلاط سموم، تولدها الأغذية. اغذية أطعمة، تلدها الشهوات. الشهوات نزوع، تعرض للنفس. النفس كمال، يستكمل بها البدن. البدن تركيب، تقويه الصحة، الصحة هيئة، يحفظها الطب ».

---

(29) انظر م. الابشيهي، المصدر السابق، 1 : 102، وم. بن الأزرق، **بدائع السلك**، 1 : 230.

(30) أورد الحسن اليوسي هذه الدائرة في **المحاضرات**، ص 103، مع اختلافات بسيطة، وانظر أيضا : م. بن الأزرق، **بدائع السلك**، 1 : 232، وابن خلدون، **المقدمة**، ص 65.

# الفصل الثالث

## في وجوب طاعته

وأما وجوب طاعته، وتحريم مخالفته، فبالكتاب، والسنة، والاجماع.

أما الكتاب، فقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (1). وأما السنة، فقد روي عن عبد الله بن عمر (2) — رضي الله عنهما — قال: قال رسول الله ﷺ: « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، الا أن يُؤْمَرَ بمعصية فلا سمع ولا طاعة » (3)، متفق عليه. وعنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » (4)، وفي رواية أخرى « من فارق الجماعة قيد شبر، مات ميتة جاهلية » (5)، وفي الحديث: « اسمعوا وأطيعوا وإن أُمِّرَ عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة» (6)، رواه البخاري. وفي الحديث عنه ﷺ: « عليك بالسمع والطاعة في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأمره عليك » (7)،

* ورد هذا الفصل في « ج » في الخاتمة:

(1) الآية 59 من سورة النساء.

(2) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 3 : 28 — 31، والمصادر بالهامش 321 من الصفحة 28 من نفس المصدر.

(3) أخرجه مسلم في **الصحيح**، 6 : 15، والبخاري في **الصحيح**، 8 : 105 — 106، وكلاهما عن عبد الله بن عمر باختلاف يسير في اللفظ.

(4) أخرجه مسلم في **الصحيح**، 6 : 22، عن عبد الله بن عمر.

(5) أخرجه مسلم في **الصحيح**، 6 : 21، والبخاري في **الصحيح**، 8 : 87، وكلاهما عن ابن عباس باللفظ الآتي: « من راى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات الا مات ميتة جاهلية ».

(6) أخرجه البخاري في **الصحيح**، 1 : 170، عن أنس، باللفظ الآتي: « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل حبشي كأن رأسه زبيبة ».

(7) أخرجه مسلم في **الصحيح**، 6 : 14، عن أبي هريرة.

وعن وائل بن حُجْر (8) ــ رضي الله عنه ــ قال : سأل سَلَمَة بن يزيد الجُعْفي رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله، أرأيت إن قام علينا أمراء يسألوننا حقهم ويمنعون حقنا، فما تأمرنا ؟ فأعرض عنه، ثم سأله، فقال رسول الله ﷺ : « اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حُمِّلُوا، وعليكم ما حُمِّلْتُمْ » (9)، رواه مسلم. وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني » (10)، وقال ﷺ : « الامام بمنزلة الوالد، فلاتضربه إن ضربك، ولا تسبه إن سبك » (11)، وقال ﷺ : « من أكرم سلطان الله فقد أكرم الله، ومن أهان سلطان الله فقد أهان الله » (12). فكادت الولاية أن تكون تلو النبوءة. وإذا ظهر له عدو فيلزم معاونته، وإن استقرضهم أقرضوه، وإن استعان بهم أعانوه، وإن عدل فيهم مدحوه، وإن جار عليهم صبروا، إلى أن يتيح الله مخرجا (13).

ومما يجب على الرعية نصح الامام، لأن من نصحه فقد نصح الله ورسوله، ومن غشه فقد غش الله ورسوله ﷺ.

ومن نصحك..... (14) فداهنك، فقد غشك، ومن لم يقبل نصيحتك فليس بأخ لك. قال عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ : « لا خير في قوم ليسوا بناصحين، ولا خير في قوم لا يحبون الناصحين ».

ولبعضهم :

---

(8) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 9 : 117، والمصادر بالهامش 1.

(9) أخرجه مسلم في **الصحيح**، 6 : 19، عن وائل بن حجر.

(10) أخرجه مسلم في **الصحيح**، 6 : 13، والبخاري في **الصحيح**، 8 : 104، والنسائي في **السنن**، 7 : 154، وكلهم عن أبي هريرة.

(11) الحديث غير موجود عند ج. السيوطي في **الجامع الكبير**، ولا عند أ. ي ونسنك في **المعجم الفهرس**.

(12) أخرجه أ. بن حنبل في **مسنده**، 5 : 46، والبخاري في **التاريخ**، وكلاهما عن أبي بكرة، باللفظ الآتي : « من أكرم سلطان الله في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة، ومن أهان سلطان الله في الدنيا أهانه الله يوم القيامة ».

وانظر أيضا ج. السيوطي : **الجامع الكبير**، 3 : 40.

(13) انظر م. بن الأزرق، المصدر السابق، 1 : 99 ــ 100.

(14) بياض بالأصل.

بذل النصيحة سنة الفضلاء لا يخلون بها على البعداء
يعطونها من جاءهم مسترشدا لا يتغون بذلك نيل جزاء
..........................................(15) من كان دان منهم أو ناء
.................................. ......(16) تلتاح في الأشياء
......(17) كثرة الأدواء

........(18) «إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم» (19).

وبالجملة فطاعتهم مقرونة بطاعة الله تعالى، وبطاعة رسوله ﷺ. حدثني شيخنا أن والد مولانا كثيرا ما كان ينشد :

لا يصلح الناس فوضى لا سَرَاةَ لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا ينبني إلا بأعمدة ولا عمود إذا لم تُرس أوتادُ
فإن تَجَمَّعَ أسبابٌ وأعمدةٌ وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا (20)

وينبغي للملك أن ينزل الرعية منزلة الأولاد والاخوان، وينظر إليهم بعين الرعاية والاكرام، فإن الفرس كان من عادتهم ان ينزلوا الرعية منزلة العبيد، لا يراعون لهم حرمة، ولا يحفظون لهم ذمة، فعاب عليهم الحكماء فعلتهم، ثم كتبوا إلى الاسكندر لينظر إلى الرعية بالعين التي ينظر

---

(15) بياض بالأصل.
(16) بياض بالأصل.
(17) بياض بالأصل.
(18) بياض بالأصل.
(19) الآية 91 من سورة التوبة، وما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج »، وانظر مزيدا من الايضاح عند م. بن الأزرق، المصدر السابق، 1 : 313.
(20) وردت الأبيات عند م. بن الأزرق في **بدائع السلك**، 1 : 128، هكذا :

لايصح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا
والبيت لا ينبني إلا على عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
فإن تجمع أوتاد وأعمدة يوما فقد بلغوا الأمر الذي كادوا

وقد نسبها الماوردي في **الأحكام**، ص 5، إلى الشاعر الجاهلي الأفوه الأودي، وكذلك فعل المستشرق الايطالي (كارلونا لينو) في **تاريخ الآداب العربية**، ص 80. وقد وردت كاملة عند ابن عبد ربه في **العقد الفريد** و**أمالي القالي**، وفي ديوانه المطبوع ضمن إطار كتاب **الطرائف الأدبية**.

بها إلى أولاده وإخوانه، فَلَأنْ تكون ملك الأحرار والأشراف خير من أن تكون ملك العبيد والأوغاد.

من قوام العدل إعداد الأسلحة، فقد سأل عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ عمرو بن مَعْدي كَرِب [21] عن الأسلحة، فقال : ما تقول في الرمح ؟ قال : أخ قوي، وربما يخونك في موضع فينكسر، قال : فالرمي ؟ قال : حصن، وحمل ثقيل للرجال، ومشقة للفارس، وقيل أجابه عن الرمي بقوله : منايا تخطىء وتصيب، قال : فالسيف، قال : سالب الأرواح، وساكب الدماء.

وقال علي ــ رضي الله عنه ــ : « لا مجد ولا نسب أعظم من مجد السيف ».

والعرب تسمي السيف ظل الموت، قال الطائي :

**السيــف أصدق أنبــاء من الكــتب ... في حده الحد بيـن الجـد واللــعب**
**والعلــم في شهب الأرمــاح لامعــة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب** [22]

ومن كمال الامام أن يقصد العدو قبل أن يقصده العدو، ومحمد نبينا ﷺ يدعى في التوراة والانجيل بنبي القتال.

قال بعضهم : « ولا يتولى الحرب بنفسه ويجتهد في قمع العدو بالحيلة والمكيدة، فرب حيلة أنفع من قبيلة » [23].

---

(21) انظر ترجمته عند ج. الدين الزركلي، **الاعلام**، 5 : 260 ــ 261 والمصادر بالهامش 1.
(22) انظر **ديوان أبي تمام**، ص 14.

**مــلاحظـــة :**

وردت كلمة (سنن) عوض (شهب)، والتصويب من **الديوان**.
(23) انظر م. بن الأزرق، المصدر السابق، 1 : 173، 180.

# الفصل الرابع

* في حكم غريبة ونكت عجيبة تشتمل
على آداب الرعية مع الملك

قال بعض الحكماء : إذا حضرت مجالس الملوك فغض عينيك، وضم شفتيك، ولا تقل في غيبتهم مالا تقوله في حضرتهم، فإن حرمة مجالسهم في مغيبهم كحرمتها في مشهدهم، ولا تأمن أن يكون لهم عليه عيون ترفع اليهم أخبارك، وتورد أسرارك وآثارك، وفي ذلك أنشدوا :

**احفــظ لسانك أيهـــا الانسان — لا يلدَغَـــنَّكَ إنَّـــه ثعبـــانُ**
**كم في المقابــر من قتيـــلِ لسانِـــهِ — قد كان تهـاب لقـاءه الشجعـــان [1]**

ولعلي بن هاشم :

**لعمــرك إنَّ الحلــم زيــن لأهلــه، — ومــا الحلــم الا عادة وتَحَلُّـــمُ**
**اذا لم يكن صمت الفتى عن (فدامة)[2] — وَعَيٍّ، فان الصمت أَوْلَـــى وأسلــمُ**

حكي انه لما خرج يونس من بطن الحوت، طال صمته، فقيل له : ألا تتكلم ؟ فقال (الكلام صيرني [3]) في بطن الحوت.

---

▫ ورد هذا الفصل في « ج » في الخاتمة.

(1) البيتان للشافعي، انظر **ديوانه**، ص 82.
وقد ورد عجز البيت الثاني **بالديوان** هكذا : كانت تهاب لقاءه الأقران.
وانظر أيضا م. بن الأزرق، **بدائع السلك**، 2 : 903.

(2) ورد عروض البيت الثاني بالأصل هكذا : (ند)، وعند الابشيهي في **المستطرف**، 1 /82 : (ندامة).
غير أننا نعتقد أنها مصحفة عما اثبتناه، فالذي يناسب سياق الشعر هي (فدامة) بالفاء من فدم فدامة فهو فدم، إذا جفا طبعه وجسأ خلقه، وغلظ ذهنه.

(3) بياض بالأصل، والاكمال من **المستطرف** للابشيهي، 1 : 82.

وكان بهرام جالسا ليلة تحت شجرة، فسمع منها صوت طائر، فرماه فأصابه، فقال : ما أحسن حفظ اللسان بالطائر والانسان، لو حفظ هذا لسانه ما هلك [4] . وقال علي — كرم الله وجهه — : «بكثرة الصمت تكون الهيبة [5] ، وقال عمرو بن العاص [6] : «الكلام كالدواء : اذا أقللت منه نفع، واذا أكثرت منه قتل [7]».

وقال لقمان [8] لولده : يا بني اذا افتخر الانسان بحسن كلامه، فافتخر أنت بحسن صمتك [9] ».

يقول اللسان كل صباح ومساء للجوارح : كيف أنتن ؟ فيقلن : بخير أن تركتنا [10].

ولبعضهم :

| | |
|---|---|
| احفظ لسانك لا تقول فتُبْتَلَى، | « إنّ البلاء موكل بالمنطق [11] » |
| | ..................................................... [12] |
| ..................... [12 مكرر] والجوارح كلها | فلكل جارحة عليك لسان |
| واخزن لسانك ....................................... | ...................... [13] والكلام سنان [14] |

وقيل : أن الحكمة عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت، والعاشرة عزلة الناس [15].

---

(4) انظر م. الابشيهي، **المستطرف**، 1 : 82.
(5) نفس المصدر والصفحة.
(6) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 5 : 248، والمصادر بالهامش.
(7) انظر م. الابشيهي، نفس المصدر والصفحة.
(8) انظر عبد الله كنون، **لقمان الحكيم**.
(9) انظر م. الابشيهي، نفس المصدر والصفحة.
(10) انظر م. الابشيهي، نفس المصدر والصفحة.
(11) ورد البيت في مصادر عديدة منها : **حياة الحيوان الكبرى**، 1 : 161، **والمستطرف**، 1 : 82، **وبدائع السلك**، 2 : 903. وعجز البيت مثل من الامثال، انظر الميداني، **الامثال**، 1 : 19 — 20. وهو مستمد من حديث نبوي أخرجه الخطيب البغدادي في **تاريخ بغداد**، انظر المتقى الهندي، **منتخب كنز العمال**، 1 : 293.
(12) بياض بالأصل.
(12م) بياض بالأصل.
(13) بياض بالأصل.
(14) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».
(15) نسب م. الابشيهي في **المستطرف** 1 : 82. القول لوهب بن الورد.

واذا جلست على موائد الملوك، فصم على الكلام، ولا تشده للطعام، واذا حدثك الملك، فاستمع إليه، واقبل بوجهك عليه، ولا تعرض عن قوله، ولا تعارض بمثله، وان خالطك بخاصتة، وأهَّلَكَ لمعاشرته، فلا تؤمن على دعوته، ولا تشمته في عطسته.
لكن هذا كان في الصدر الأول.

[ حدثني شيخنا أبو راشد عن شيخه أبي الحسن، أن جماعة بين يدي أمير شمتوه في عطسته، فقال من حينه ودخل إلى منزله، وخرجت خادم من خدم داره وهي تقول له : من الذي تمنى لمولانا الموت منكم في قوله له : رحمك الله ؟

وأنشدني ما لابي العباس بن عبد المنان [16] لما عطس مخدومه بين يديه، فأنشده هذين البيتين :

**يرحـــمك الرحمــــــنُ مِنْ عاطسٍ وَلْيَهْـنِكَ الحمــدُ عَلــى عَطْسَتِكْ**
**ويغفــــر الله لنـــا كلنــــا وَلْيُسْبِل السترَ علــى وَجْنَـتِكْ [17]**

حدثني ان الشيخ ابن غازي، كان يقول : ............ [18]
في هذا جارية على السنة [19] ].

ولا تسأله عن حاله، ولا تعزه في ميته، ولا تلقه بالسلاح، ولا تفاتحه بالكلام.

أنشدني شيخنا أبو راشد ـــ أدام الله بقاءه ـــ :

**إذا رأيتَ نيــوبَ اللــــيث بارزةً فلا تظـن بأن اللـيث يَبْـتَسِمُ [20]**

---

(16) انظر ترجمته عند أ. الونشريسي، **وفيات**، ص 132، وأ. بن القاضي، **لقط الفرائد**، ص 226، **درة**، 1 : 53 ـــ 55 رقم 72، **جذوة**، 1 : 124 ـــ 125 رقم 57، وأ. المقرى، **نفح**، 7 : 117، و ع. الرحمٰن بن زيدان، **اتحاف**، 1 : 212 ـــ 213.
(17) ـــ انظر البيتين عند أ. بن القاضي، **درة**، 1 : 55.
(18) بياض بالأصل.
(19) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».
(20) البيت للمتنبي من قصيدته الميمية المشهورة التي مطلعها

**واحــر قلبــاه ممــن قلبــه شبــم ومـن بجسمي وحالي عنده سقــم**

انظر **ديوان المتنبي**، 4 : 85.

واياك ان تزاحمه في التدبير، أو تعاتبه في التقصير.

اذا لاعبت الملك فاستعمل حسن الأدب، واستوف حق اللعب، اياك والقدح في الملوك، وان مضى زمنهم وانقضى سلطانهم، فإن ذلك مما يضع في قدرك، ويشهد بغدرك. إذا أرسلك السلطان في رسالة فلا تزد في رسالته، ولا تزل عن نصيحته، واعص نفسك في طاعة سلطانك، واحفظ رأسك من عثرة لسانك، وان كانت لك حاجة لديه فلا ترفعها إليه ما لم تر وجهه بسيطا، وقلبه نشيطا، وبشره باديا، وفكره خاليا. ولتكن على مقدار حقك وخدمتك، لا على مقدار نفسك وهمتك، فإذا طلبت منه فقصر المقال، وتوق الاملال، ولا يحملنك فرط ميله إليك، وحسن اقباله عليك، على كثرة السؤال، وشدة الاسترسال، وان سمعت حديث الملك فكن مستبشرا به، مستطرفا، وان كنت أحكمته علما، واتقنته فهما.

ولنرجع إلى ما كنا بصدده.

فأما والد مولانا ـــ أيده الله، ورضي عنه ـــ فهو أمير المؤمنين : مولانا محمد المهدى، كان ملكا شجاعا، مقداما، عالما، عاملا، متفننا، أديبا، حافظا. حدثني شيخنا أبو راشد أنه كان ممتع المجالسة والمذاكرة، حسن السيرة والمجابرة، نقي الشيبة، عظيم الهيبة، حسن السيرة، سالم السريرة. وقال لي : ما رأيت بعد شيخي أبي الحسن علي بن هارون، احفظ منه للمقطعات الشعرية، والملح النثرية، وكثيرا ما كان ينشد :

**النـــاس كالنـــاس والأيـــام واحـــدة      والدهـر كالدهـر والدنيـا لمـن غلبـــا**

[وحدثني أنه كان يقول : ........ [21]، ومما حدثني به أيضا أن بعض الطلبة كان بمجلس ابن عرفة [22]، ونقل عن كتاب اللخمي [23] في « ضع » و « تعجل » [24] أنه

---

(21) بياض بالأصل.

(22) انظر ترجمته عند ابن القاضي، **درة** 2 : 280 ـــ 283، رقم 794، **لقط الفرائد**، ص 231، وأ. بن قنفذ، **وفيات**، ص 88 ـــ 89، وأ. الونشريسي، **وفيات**، ص 134، وم. بن مخلوف، **شجرة**، ص 227 رقم 818، وأ. بابا، **نيل** ص 274 ـــ 279، وم. بن مريم، **البستان** ص 190 وم. السخاوي، **الضوء اللامع**، 9 : 240 ـــ 242 رقم 586، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 7 : 272، وم. العابد الفاسي، **فهرس مخطوطات خزانة القرويين**، 1 : 369 ـــ 372.

(23) ويقصد كتابه **التبصرة**، انظر وصفا لمخطوطاته عند م. العابد الفاسي، **فهرس مخطوطات خزانة القرويين**، 1 : 359 ـــ 363، وانظر ترجمته عند أ. بن قنفذ، **وفيات**، ص 58، وأ. بن فرحون، **الديباج المذهب**، 2 : 104 ـــ 105 رقم 14، وم. السراج، الحلل السندسية، 2 : 336 ـــ 337، وم. بن مخلوف، **شجرة**، 1 : 117 رقم 326 و، خ. الدين الزركلي، **الأعلام**، 5 : 148، والمؤلف =

يجوز على قول ابن القاسم [25]، فأنكر ذلك ورد عليه قوله، ثم إنه بحث عنه في مظانه منه فلم يجده، وتحير لذلك، فبينما هو نائم ذات ليلة اذ أقبل عليه رجل، فسلم عليه، فقال له : من أنت يا سيدي ؟ فقال : علي اللخمي، ثم قال له : يا سيدي، نقلت عن كتابك من كلام ابن القاسم جواز « ضع » و « تعجل » وضل عني، وفحصت عنه في مظانه فلم أجده، ولم أعثر عليه، فقال له : هو في فصل الخُلْع [26]. فاستيقظ واسرج السراج من حينه، فألفاه كما قال، ثم حملها في صبيحتها للمجلس، وسألوه كيف تفطن لها مع أن المحل ليس من مظانها فأخبرهم القصة، فجل لذلك في عين الشيخ وعظم قدره عنده.

وحدثني أيضا عن والد مولانا أنه كان يقول : « ما من شيء فيه نفع الا وفيه ضر، وما من شيء فيه ضر الا وفيه نفع ». سمع منه هذا في حال اجتماعهم عليه في التفسير مع اليسيتني، المتوفى لسنة ثمان وخمسين وتسعمائة، هو : محمد بن عبد الرحمن اليسيتني. وقد رد والد مولانا على أبي القاسم بن ابراهيم [27] الأستاذ [28] حيث أنشده :

**فلا تحقـــرنّ عدوا رمـــــاك ... وإنْ كان في ساعديـــــه قِصَرْ**

**فإنّ السيـــوف تحـــز الرقـــاب ... وتعجـــز عمـــا تنـــال الابَـــرْ** [29]

---

- المجهول، **طبقات المالكية**، ص 277.

(24) هي التي قال فيها ابن أبي زيد في باب البيوع ومشاكله : ولا يجوز الوضعية من الدين على تعجيله. قال الشيخ زروق في **شرح الرسالة**، ص 125 — 126 : « وتسمى عند الفقهاء « ضع » و « تعجل » وحكمها المنع على المشهور، ونقل اللخمي جوازه.

(25) هو : عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي المصري، أبو عبد الله، ويعرف بابن القاسم، فقيه، جمع بن الزهد والعلم. تفقه بالامام مالك ونظرائه، مولده ووفاته بمصر (132 هـ / 191 هـ / 750 م — 806 م)، له **المدونة**، ستة عشر جزءا، وهي من أجل كتب المالكية، رواها عن الأمام مالك، وهي المقصودة هنا.
انظر ترجمته عند القاضي عياض، **ترتيب المدارك**، 3 : 244 — 245، وأ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 3 : 129 — 130 رقم 362، وان بن فرحون، **الديباج**، 1 : 465 — 469، و ع. الحي بن العماد، **شذرات**، 1 : 329، وم. بن مخلوف، **شجرة**، ص 58، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 4 : 97.

(26) الخلع : بضم الخاء، الطلاق بعوض، انظر **مختصر خليل**، باب الخلع.

(27) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **درة**، 3 : 287 رقم 1364، **جذوة**، 1 : 110 رقم 38، وم. بن عسكر، **دوحة**، ص 57 رقم 41، وأ. المنجور، **فهرس**، ص 65 — 66، و ع. الفاسي، **ابتهاج** ص 232، وم. الحضيكي، **طبقات**، 1 : 157، وم. الكتاني، **سلوة**، 2 : 128.

(28) يختص لقب استاذ في العصر السعدي بالمقريء، المحصل لعلوم **القرآن**.

(29) نسب كمال الدين الدميري في **حياة الحيوان الكبرى**، 1 : 128، البيتين لأبي نصر السعدي، وانظر أيضا م. الابشيهي، **المستطرف**، 1 : 216.

حيث أنشده أبو القاسم المذكور « صغيرا » مكان « عدوا ». وحدثني أيضا عن والد مولانا أن يوما جاءهم خبر عيد الفطر في العصر، فأفطر الناس، ثم أن جماعة صعدوا إليه ليهنوه بالعيد، وكان فيهم أبو زيد عبد الرحمن بن ابراهيم (30)، وأبو عبد الله اليسيتني، وعبد الوهاب الزقاق (31)، أبو القاسم الحُمَيْدي، ومن المراكشيين أبو الحسن الاخصاصي. ثم ان والد مولانا قال لهم : وَلِمَ لَمْ تصل العيد وان خرج وقتها ؟ فقال جملتهم : لا تُقْضَى لقول خليل (32) في **مختصره** : « ولا يُقْضَى غير فرض إِلّا هي، أي : الفجر ». فقال لهم : بل للخمي قول بقضائها، فأفحمهم بقول اللخمي.

وأنشدني لأبي علي الحسن بن عطية الونشريسي (33)، من أشياخ ابن جابر القورى،

---

(30) انظر ترجمته عند م. بن عسكر، **دوحة**، ص 56 رقم 39، وأ. بن القاضي، **جذوة**، 2 : 407 رقم 422، **درة**، 3 : 97 — 98 رقم 1024 ، وأ. المقرى، **روضة الآس**، ص 336 — 338 رقم 29، وم. الحضيكي **طبقات** 1 : 157.

(31) ترجم له تلميذه أحمد المنجور، **فهرس** ، ص 15 رقم 13 ، وم. بن عسكر، **دوحة**، ص 55 رقم 38، وأ بن القاضي، **درة**، 3 : 150 رقم 1112، **جذوة**، 2 : 455 رقم 495، وأ. بابا، **كفاية**، ص 54، وم. حجي **الحركة**، 2 : 351.

(32) خليل بن اسحاق المصري (ت 776 /1374) من أكبر فقهاء المالكية شرح **مختصر** ابن الحاجب في ستة مجلدات (المسمى بالتوضيح) ثم اختصره في الكتاب المعروف **بمختصر خليل**، وقد دخل **مختصر خليل** إلى المغرب أوائل المائة التاسعة على يد عمر بن الفتوح المكناسي.
وقد تداوله المغاربة كثيرا في العصر السعدي إذ كتبوا عليه نحو ثلاثين شرحا وحاشية وتعليقا، ونظموه في آلاف الابيات، ومن أشهر هذه الشروح :
— شرح الامام ابن غازي، المسمى **شفاء الغليل، في حق مقفل خليل**، في جزءين. مخطوطات م. القرويين أرقام 432 و 434 و 535 وم. ع. بالرباط رقم 834 د و م. م بالرباط 1862 و 3463.
— شرح أحمد بابا السوداني المسمى **منن الرب الجليل، ببيان مبهمات خليل**، فيجزئين، مخطوطات م. القرويين، رقم 428 وم. ع بالرباط 420 د وم. ع بمراكش، رقم 80 و 437 وم.م. بالرباط رقم 4468 و 4975. انظر عبد الله الجراري **من أعلام الفكر المعاصر**، 1 : 202 — 205، وم. حجي، **الحركة**، 1 : 144 هامش 41، وم. العابد الفاسي، **فهرس مخطوطات خزانة القرويين**، 1 : 396 — 397.
وانظر ترجمته عند ا. بن فرحون، **الديباج**، 1 : 357، وأ. بابا، **نيل**، 112، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 2 : 364.

(33) بالأصل : لابي الحسن بن عطية الونشريسي، وسماه ابن القاضي في **درة الحجال**، 3 : 247 رقم 1272، بأبي الحسن علي بن علي بن عطية الونشريسي، وكلاهما تحريف، اذ المترجم هو أبو علي الحسن بن عثمان بن عطية التيجاني الونشريسي.
انظر في هذا الصدد أ. بابا، **نيل**، ص 107 — 108، وهو ينقل الترجمة عن تلامذة الونشريسي المباشرين مثل ابن الخطيب وابن الأحمر وغيرهما، وانظر أيضا أ. بن القاضي، **لقط الفرائد**، ص 219، **جذوة**، 1 : 179 رقم 138، و ع. القادر زمامة، **أبو الوليد بن الأحمر**، ص 118 .

المتوفى سنة احدى وثمانين وسبعمائة [34] :

**واظِبْ على نظـــر اللخمـــي إنّ لَهُ ... فضلا على غيـــره للنـــاس قَدْ بَانـــا**
**يرجـــح القـــول إنْ صحت أدلتـــــه ... ويـــوضح الحـــق تبيانـــا وفُرقانـــا**
**ولا يبالـــي اذا ما الحـــق ساعـــده ... بمن يخالفه في الناس مَنْ كانا [35]**

وقال لي : كان حافظا **للقرآن**، وكان فهمه له جيدا، ويحفظ **ديوان المتنبي** عن ظهر قلب، وكان حافظا **لصحيح البخاري**، ويستحضر ما للناس عليه، ويقول في **فتح الباري** لابن حجر : « ما صنف في الاسلام مثله »، وكان عارفا بالتفسير، والفقه، وغير ذلك.

أخذ العلم عن أبي علي الحسن بن عثمان الجزولي [36]، أحد تلامذة الشيخ ابن غازي، وأبي العباس الونشريسي [37] توفي في حدود اثنتين وثلاثين وتسعمائة [38].

حدثني عنه أيضا أبو راشد، وأنه كان يحض على المشورة، ويقول لا سيما في حق الملك وينشد :

**ومـــــن جهـــــلت نفسهُ قَدْرَهُ ... رأى غيـــرُهُ منـــــه ما لا يَرَى [39]**

وكان يقول : « ينبغي للملك أن يكون طويل الأمل، فإنّ طول الأمل، وان كان لا يحسن من غيره، فهو منه حسن، لأن الرعية تصلح بطول أمله. وحدثني عنه أنه كان يقول : « من طول

---

(34) — 781 هـ توافق 1379 / 1380 م.

(35) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».
وانظر الابيات الأخيرة عند م. بن غازي، **فهرس**، ص 67.

(36) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **جذوة**، 1 : 182 رقم 143، **درة** 1 : 240، رقم 355، **لقط الفرائد**، ص 291.

(37) انظر ترجمته عند م. بن عسكر، **دوحة**، ص 47 — 48 رقم 32، أو. بن القاضي، **درة**، 1 : 91 — 92 رقم 130 **جذوة**، 1 : 156 — 157 رقم 105، وأ. بابا، **نيل**، ص 87 — 88، وع. الحي، الكتاني، **فهرس الفهارس**، 2 : 438، وم. الحجوى، **الفكر السامي**، 4 : 99، واسماعيل البغدادي، **هدية العارفين** ، 1 : 138، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 1 : 255 — 256، وعادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر**، ص49 — 50.

(38) 932 هـ توافق 1525 / 1526 م.

(39) البيت للمتنبي، انظره عند الراغب. الاصبهاني، **محاضرات الأدباء**، 1 : 19.

أمله أخذ تلمسان [40] وسبتة [41] وغيرهما »، وكان ــ رحمه الله ــ يطيل الأمل كثيرا، ومن مآثره ــ رضي الله عنه ــ ما كان يأمر به من بناء القناطر، كالجسر العظيم الذي على وادي سبو [42]، والجسر العظيم على وادي أم الربيع، وغيره من الحسنات.

حدثني شيخنا أبو راشد بحكاية عن الامام أبي عبد الله الشيخ المهدي، أنه كان

---

(40) تلمسان في عهد محمد الشيخ آلت إلى الأتراك العثمانيين بعد صراع عنيف يمكن تلخيصه فيما يأتي :
أ ــ استولى الأتراك على الجزائر وامتد نفوذهم إلى غاية وجدة منذ سنة 956 هـ / 1549.
ب ــ رفض السلطان السعدي محمد الشيخ الاعتراف بالسلطان العثماني سليمان القانوني.
ج ــ مهاجمة الاتراك في وجدة خلال سنة 956 هـ / 1549 م، وفي تلمسان سنة 957 هـ / 1550 م.
وهكذا نشب هذا الصراع المسلح حيث تمكن القائد حسن كورسو من اخراج السعديين من تلمسان ووجدة، كما استطاعت القوات التركية أن تدخل مدينة فاس في مطلع سنة 961 هـ / 1554 م، وأعلنت بيعة الأمير الوطاسي أبي حسون بها. غير أنه لم تمض 8 أشهر حتى استطاع محمد الشيخ أن يسترجع مدينة فاس بجموع أهل الجنوب، وقد ظلت العلاقات متوترة بين الطرفين ــ السعدي والعثماني ــ مما دفع محمد الشيخ إلى التعاون مع الاسبان والبرتغال خصوم الأتراك العثمانيين. وقد فشلت جميع المحاولات الدبلوماسية التي قام بها الاتراك لدى محمد الشيخ للدخول في طاعتهم مما أدى بهم إلى تدبير مؤامرة اغتيل خلالها السلطان السعدي يوم الأربعاء 27 ذي الحجة سنة 964 هـ الموافق 23 اكتوبر 1557.
انظر في هذا الصدد :
ــ المؤرخ المجهول، **تاريخ الدولة السعدية**، ص 16 ــ 21
ــ م. الافراني، **نزهة** ص 30 ــ 36.

— H. de Castries, Sources, 1ère série espagnole,
1 : 208, 244, 246, 313, 441, 471, 532, 2 : 36, 41, 88, 95, 139, 148, 151, 160.
— Ch. A. julien, l'Histoire de l'Afrique du Nord, PP. 207 — 208.
— A. Laroui, l'Histoire du Maghreb, P. 234.

(41) سبتة كانت في عهد محمد الشيخ بأيدي البرتغال مند أن احتلت من طرفهم سنة 818 هـ / 1415 م، وقد كانت تراوده فعلا فكرة استرداد الثغور المغربية الموجودة بأيدي البرتغال والاسبان ــ ومن ضمنها سبتة ــ لكن التهديد العثماني حال دون ذلك.

(42) نقل المقرى قول ابن القاضي هذا في **روضة الآس**، ص 22، وقد علق القادري على ذلك بما يأتي :
« قلت : وقوله وهي من مفاخر والده (والد أحمد المنصور)، ظاهره أن والده محمد الشيخ المهدي هو الذي أنشأها، ولم أقف على هذا، إلا أن يكون لها بناء قبل ذلك وتهدم فالله أعلم. وقوله احتسابا أي في أداء ما وجب عليه، اذ بناء القناطر وما في معناه على بيت المال، فهو في ذلك كالوكيل في تتبع المصالح، والعمل بالراجح، وذلك مما يجب عليه كما لا يخفى. وأما قنطرة سبو فقد تهدم بعد ذلك نحو نصفها، وجدده السلطان الافخم، الشجاع البطل الأعظم، الجواد المفصال الأكرم، المولى الرشيد الشريف السجلماسي الحسني... ».
انظر **نشر المثاني** ، 1 : 106.

يحدثهم عن شيخه أبي علي المذكور، أنه لما أكمل قراءته على الشيخ ابن غازي وأراد الرجوع إلى وطنه، فجاء إلى الشيخ ليودعه، فأخذ الشيخ بيده اليمنى وقال له : « استودع الله دينك وأمانتك وخواتم عملك ثم قال الشيخ بعد ذلك : « الآنَ أجْزَأت فاس »، أي ولدت الاناث، ومنه قوله تعالى : « وجعلوا له من عباده جُزْءاً [43] »، أي اناثا. وممن شارك أبا علي في القراءة على الشيخ ابن غازى : الاستاذ أبو عبد الله محمد الانفاسي الكفيف [44]، المتوفى سنة سبع وعشرين وتسعمائة [45]، وهو الذي ذيل بيتا لبعض الأقدمين بأبيات، والبيت :

| | |
|---|---|
| لقد هتكت قلبي سهامُ جفونها | كما هتك اللخمي مذهب مالك |
| وقلدت اذا ذاك الهوى في مرادها | كتقليد أعلام النحاة ابن مالك |
| وما ست على الأوصال بالقد قدها | فأمست كأبيات بتقطيع مالك |
| ومَلّكتها رقي لرقّة عِطْفها | وان كنت لا أرضاه مِلْكاً لمالك |
| وناديتُها : يابغيتي بَذْلُ مهجتي | ومالي قليلٌ في بديع جمالك [46] |

وحدثني بما اتفق للكفيق مع الشيخ ابن غازي ــ رحمه الله تعالى ــ ذات يوم في حال اقرائه صحيح البخاري، لما بلغ إلى محل فيه : فاسقنا كاسا دهاقا [47]، قال الشيخ هذا شطر بيت ينبغي لمن يكمله، فقال على البديهة :

| | |
|---|---|
| استبقنا لأحادي | ث البخاري استباقا |
| فَرَوْينا وَرَوينا | ولقد كنا شياقا |
| وتناولنا رحيقا | فاز شخص منه ذاقا |
| دمت يا ابن الشيخ فينا | فاسقنا كأسا دِهاقا |

---

(43) الآية 14 من سورة الزخرف.

(44) ترجم له تلميذه أحمد المنجور، **فهرس**، 62 ــ 63، وأ. بن القاضي، **الذرة** ، 2 : 150 ــ 151 رقم 625، **جذوة**، 1 : 245 رقم 236، **لقط القرائد**، ص 288، وأ. بابا **نيل**، ص 334.

(45) 927 هـ توافق 1520 ــ 1521 م.

(46) انظر الابيات عند أ. بن القاضي، **درة**، 2 : 150 ــ 151 وقاسم بن القاضي، **فهرس تنوير الزمان**، ص 195.
وقد ورد البيت الأول هكذا.

**لقد مزقت قلبي سهام جفونها كما مزق اللخمي مذهب مالك**

(47) ورد في « ز » بعد كلمة (دهاقا) ما يأتي : « وهو ما في ترجمه أيام الجاهلية »، ولا معنى لها هنا.

وعنى بابن الشيخ : أبا عبد الله محمد الملقب بغازى [48] ولد الشيخ ابن غازي لأنه هو الذي كان يتولى سرد **البخارى** لأبيه. وحضر للحكاية الشيخ أبو سعيد عثمان بن عبد الواحد اللمطي المكناسي [49]، والد شيخنا أبي العباس أحمد [50] ــ أبقاه الله للمسلمين بمحمد وآله ، ولد أبو سعيد سنة ثمان وثمانين وثمانمائة [51]، وتوفي سنة أربع وخمسين وتسعمائة [52]، وحضرها أيضا الاستاذ : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله العبسي [53]، المتوفى ليلة الأحد سابع وعشرين محرم عام خمسة وستين [54] فجأة وهو يطالع تفسير الزمخشرى [55] : **الكشاف**، في فصل الشتاء، عن [ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن غازي وغيره [56] ]، فقيه أستاذ. أبو سعيد هو الذي حدث بها شيخنا، وحدثني بها يوم السبت التاسع عشر من جمادى الأولى عام ستة وتسعين [57] ــ عرفنا الله خيره وأمننا شره ــ.

ومما اتفق للكفيف المذكور مع الشيخ ابن غازي لما عمل نزهة لبعض أصحابه، ولم يدع الكفيف، فلما لقيه بعد قفولهم من النزهة أنشده :

**[ تنزهتـــــمُ فهينئـــا لكـــمْ ... كأنـــي كَلٌّ علـــى كُلِّكُـــمْ**
**أمَا كان فيكـــم صديـــق لنـــا ... يقـــول فلان صديـــق لَكُـــمْ**

............... [58] حدثني بهذه الحكاية [59] ].

وأخذ والد مولانا أيضا ــ رضي الله عنه ــ عن أبيه محمد عبد الله بن عمر

---

(48) انظر ترجمته عند أ. القاضي، **لقط الفرائد**، ص 295، ودرة، 2 : 163 ــ 164 رقم 636.
(49) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **درة**، 3 : 211 رقم 1216، **جذوة**، 2 : 459 رقم 502، **لقط الفرائد**، ص 268، وم. بن مخلوف، **شجرة**، ص 282 رقم 1066، وم. الكتاني، **سلوة 3** : 65، وم. حجي، **الحركة**، 2 : 353.
(50) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **درة 1** : 168 رقم 200.
(51) 888 هـ توافق 1484 / 1484 م.
(52) 954 هـ توافق 1574 / 1548 م.
(53) انظر ترجمته عند أ بن القاضي، **درة**، 2 : 208 رقم 651 **جذوة**، 1 : 248 رقم 244.
(54) 27 محرم عام 965 هـ توافق 19 نونبر عام 1557 م
(55) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الاعيان**، 5 : 168 ــ 174 والمصادر بالهامش 711 من الصفحة 168 من نفس المصدر.
(56) ما بين المعقوفين بياض بالأصل والاضافة من **درة الحجال**، 2 : 208.
(57) يوم السبت 19 جمادى الأولى عام 19 جمادى الاولى عام 996 هـ يوافق 16 أبريل 1588 م.
(58) بياض بالأصل.
(59) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».

المضغرى [60] ــ مضغرة سجلماسة [61] ــ أحد تلامذة ابن غازي والامام القوري، فقد شارك ابن غازي في شيخه، وهو الذي نسق الشعراء الستة في بيتين، وهما :

**علقمـــه وامــرؤ القـــيس والنابغـــه عنتـــرة طرفـــة وزهيـــر وفـــي**
**هؤلاء ستـــة شهـــروا عندنـــا لفصاحـــة شعرهـــمُ المقتفـــي [62]**

وعن أبي محمد عبد الله بن عمر المضغرى أخذ أبو الحسن علي بن موسى بن علي بن هارون المضغرى، شيخ شيخنا أبي راشد وأبي العباس المنجور، الجذور وذوات الاسماء والمنفصلات، [ توفي أبو الحسن بن هارون سنة خمسين وتسعمائة [63]، والمضغرى هذا ليس المطغرى الشاعر، الذي أدركه جماعة من أشياخنا. حدثني شيخنا أبو راشد أو ابن هارون أقام في ذوات الأسماء والمنفصلات مع أبي محمد المضغرى مدة شهرين [64] ].

وممن شارك أبا عبد الله في ابن غازى أبو زيد عبد الرحمن البردعي الجذامي الاندلسي. حدثني شيخنا أبو راشد : أن أبا زيد كان مع الشيخ ابن غازي المتوفى سنة تسع عشرة وتسعمائة [65]، ذات يوم عند قبر الولي الصالح، الخطيب الزاهد، الصوفي العابد، أبي عبد الله محمد بن عباد [66]، وكانت هناك شجرة لوز في أوان نورها فقال له الشيخ ابن غازي : قل في هذه الشجيرة، فقال ارتجالا :

---

(60) انظر ترجمته عند م. بن عسكر، **دوحة**، ص 87 ــ 88 رقم 80، وأ. بن القاضي، **درة**، 3 : 55 رقم 965، **جذوة**، 2 : 440 رقم 468، وأ. بابا، **نيل**، ص 161، وم. الناصري، **الدرر المرصعة**، ص 188، وم. الحضيكي، **طبقات**، 2 : 169 و 213، وأ. الناصري، **الاستقصا**، 5 : 36، ومحمد المختار السوسي، **سوس العالمة** ص 21 و 48، المعسول، 13 : 267، وم. حجي، **الحركة**، 2 : 520 ــ 521.

(61) يفرق النسابون بين فرعي قبيلة مطغرة من قبائل البربر البتر، فيجعلون مطغرة (بالطاء) للفرع المقيم بضواحي تلمسان، ومطغرة أو مدغرة بالضاد أو الدال للفرع المقيم بتافيلالت من المغرب.

(62) انظر البيتين عند قاسم بن القاضي، **فهرست تنوير الزمان**، 193.

(63) 950 هـ توافق 1543 / 1544 م.

(64) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».

(65) 919 هـ توافق 1513 / 1514 م.

(66) يقصد محمد بن ابراهيم بن عباد النفزي الرندي، هاجر من الاندلس إلى المغرب، وتنقل بين فاس وتلمسان ومراكش وسلا وطنجة، واستقر اخيرا بفاس خطيبا بجامع القرويين، وبها توفي عام 792 هـ 1390 م. انظر م. الكتاني، **سلوة** 2 : 133 ــ 134، وأ. بن قنفذ، **أنس الفقير**، ص 75، وأ. بابا **نيل**، ص 287 ومحمد المنوني، **التيارات الفكرية**، ص 16، وم. العابد الفاسي، **فهرس مخطوطات خزانة القرويين بفاس** ، 1 : 351.

عروس تُجْتَلَـــــــى في كل حَوْلٍ    تُنَـــزَّهُ مَنْ تَفَـــرَّدَ بالكمـــــال
وتـــؤذِنُ بالحيـــاة اثـــر موتٍ    وان الحادثـــــات إلـــــى زوال

والبردعي هذا كان فقيها، نحويا، أديبا، توفي في حدود العشرين وتسعمائة. كان من أقران هارون، ولما وقف على ما قاله ابن حجر [67] في صومعة المؤيدية، بالقاهرة المعزية، وورَّى بالشيخ العيني [68] في البيتين، وهما :

بجامـــع مولانـــا المؤيـــد رونـــقٌ    وصومعة تزهـو من الـحسن والزيـن
تقـول وقـد مالت عليهـم ترفَّقـوا    فليس على جسمي أضر من (العين) [69]

فأجابه العيني :

منارة كعروس الـحسن قد جُليـت    وهدهـــا بقضاء الله والقـــدر
قالوا : أصيبت بعين، قلت : ذا خطأ    ما أوجب الهـد الا خسة (الحجـر)

قال هو كالتنكيت عليهما :

كلا كما أحْسَنَ التعريض حيـن هجا    وقـال قولا بديعـا رائقـا بَهجـــا
فاستغفـرا الله يا شيخـيَّ وانتدِبـا    لتوبـةٍ وطريـقَ الحـق فانْتَهِجـا

---

(67) ألف برسمه تلميذه محمد السخاوي كتابه المسمى : **الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الاسلام ابن حجر**، مخطوط م. م. بالرباط عدد 1500، وم. الوطنية بباريس عدد 2105، وانظر أيضا **الضوء اللامع**، 2 : 36 — 40 رقم 104، **التبر المسبوك**، ص 230، وأ. بن القاضي، **درة**، 1 : 46 — 72 رقم 94، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 1 : 173 — 174، وحسن حبشي، مقدمة كتاب **أبناء الغمر**، 2 : 7 — 25.

(68) انظر ترجمته عند ج. السيوطي، **بغية الوعاة**، 2 : 275 — 276 رقم 1967، وم. السخاوي، **الضوء اللامع**، 10 : 131 — 135، **التبر المسبوك**، 375، وع. الحي بن العماد، **شذرات الذهب**، 7 : 286، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 8 : 38 — 39، وم. العابد الفاسي، **فهرس مخطوطات خزانة القرويين**، 1 : 138 — 141.

(69) ورد البيتان عند ج. السيوطي في **بُغْيَة الوعاة**، 2 : 276، هكذا :

بجامـــع مولانـــا المؤيـــد رونـــق    منارتـــه بالـحسن تزهـــو وبالزيـــن
تقـول وقـــد مالت عليهـــم تمهلـــوا    فليس على هدمي أضر من (العيـن)

[« ومن شارك أبا الحسن بن عثمان في ابن غازي والونشريسي، عبد السميح المصمودي [70]، وأبو حفص عمر السملالي، وعلي بن محمد بن عبد العزيز الحامدي [71]، وهو والد الأديب أبي عثمان سعيد بن علي (الحامدي ...) [72].

| | |
|---|---|
| ... [73] بيَ الأعداءُ طُرّاً وسابَقَتْ | إلَيَّ سهامُ كُلِّ أشْوَسَ عادي |
| وأدْبَرَ عني اليوم من كان مقبلا | وأبغضني من كان إلْفَ وِداد |
| فَإِنْ أنكرتني أنْ رأتنيَ شاحبا | نحيفا من البلوى عيون رداد (كذا) |
| فيارب يوم فيه ناغيت غادةً | مهفهفة هاجت غرام فؤادي |
| تبدّت بثغر باسم لي وزخرفت | حديثا له طعم كطعم شِهاد |
| وحَلّ شغافَ القلب مني حديثُها | فألّف ما بيني وبين سُهادي |

ومنها :

| | |
|---|---|
| إمامٌ همامٌ حاز مجد ورفعةً | وألويةَ التمكين يوم نِجاد |
| متى تَلْقَهُ تلقَ السماحة والنَّدى | ومأثرةً ليست بذات فساد |
| اليه جميعا يلجأ الناس عندما | ...................................[74] |
| هدى الناسَ جهراً بالقواضب والقنا | وجاهدهم في الله حَقَّ جهاد |

ومنها ختاما :

---

(70) بالأصل : الصموت، وهو تصحيف، انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **درة**، 3 : 171 رقم 1144، **جذوة**، 2 : 453 رقم 492، وم المختار السوسي، خلال، 2 : 130.
(71) انظر ترجمته عند م. المحضيكي، **طبقات**، 2 : 210، ومحمد المختار السوسي، **خلال**، 2 : 129 — 130 وم. حجي، **الحركة**، 2 : 591 — 592.
(72) بياض بالأصل.
وانظر ترجمته سعيد بن علي الحامدي عند أ. بن القاضي، **درة**، 3 : 301 — 302 رقم 1386، **لقط الفرائد**، ص 309، ود. الفشتالي، **مناهل** ص 283 — 292 وع. الرحمن التمنارتي، **الفوائد**، ص 39، وم. الحضيكي، **طبقات**، 2 : 130 — 133، وم. المختار السوسي، **سوس العالمة**، ص 69 و 180، وع. السلام بن سودة، **دليل**، 2 : 386 رقم 1695 وم. حجي، **الحركة**، 2 : 592.
(73) بياض بالأصل.
(74) بياض بالأصل.

**فلا يُبْعِـدَنْكَ الله يا ذروة العُلـى ويـا خيـر عالٍ فوق متـن جواد**
**فدونك منـي حُلّـةً قد نسجتهـا من المـدح لا تبلَى بطـول عِهَـادِ**[75]

ومن فقهاء سوس : أبو العباس أحمد بن عبد الرحمنْ الجزولي [76]، أخذ عن أبي زكريا يحيى السوسي [77]، ومحمد بن ابراهيم التمنارتي [78]، أيضا توفي سنة وتسعين وتسعمائة [79]،

---

(75) بحثنا طويلا عن قائل هذه القصيدة من أدباء العصر السعدي لاكمال البياض ولتصويب ما ند عن الصواب. وقد عثرنا على بعضها بالفعل في مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط يحمل رقم 5408، وهو مجموع أدبي مجهول المؤلف يشتمل قسمه الأول على شعر ونثر لأدباء من العصر السعدي. والأبيات الواردة **المنتقى** توجد في الاثنتي عشر صفحة الأولى منه وهي تختص بأدبيات الكاتب الشاعر محمد بن عيسى التاملي صاحب كتاب **الممدود والمقصور من سنا السلطان أبي العباس المنصور.**
وبعد المقارنة تبين لنا أن هناك ثلاثة أبيات من القصيدة الواردة في **المنتقى** هي نفسها الواردة في المخطوط الآنف الذكر، وهذه الابيات هي :
أولا بالصفحة 10

**فإن أنكرتنـي ان رأتنـي شاحبـا نحيفا من البلوى عيون رماد ( كذا )**

وهو خامس بيت في قصيدة الشاعر محمد بن عيسى التاملي.
ثانيا بالصفحة 11 :

**أمـام همام حاز مجدا ورفعـة وألويـة التمكين يوم نجاد**

وهو ثامن بيت في قصيدة الشاعر.

**هلك النـاس طرا بالقـواضب والقنـا وجاهدهـم في الله حق جهـاد**

وهو البيت الثاني عشر في قصيدة الشاعر، المكونة من أربعة عشر بيتا. وهذا يجعلنا نرجح أن تكون القصيدة الواردة في **المنتقى** هي نفس القصيدة الواردة في المخطوط، أورد ابن القاضي بعضها، وأورد المؤلف المجهول البعض الآخر، فتكون القصيدة الواردة في **المنتقى** بناءا على هذا الاساس للشاعر محمد بن عيسى التاملي.

(76) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **درة**، 1 : 154 رقم 100.

(77) انظر عند أ. بن القاضي، **درة**، 3 : 339 رقم 1463، **جذوة**، 2 : 544 رقم 631، وأ. بابا، **نيل**، ص 359، وأ. النجور، **فهرس**، ص 29 — 30.

(78) انظر ترجمته عند م. بن عسكر، **دوحة**، ص 111 رقم 109 وم. الافراني، **صفوة**، ص 63 — 64، وع. الرحمنْ التمنارتي، **الفوائد** ص 71 — 73، وم. الحضيكي، **طبقات**، 2 : 5 — 9، وم. التعقيلي، **مناقب**، 17 — 19، وم. المختار السوسي، **خلال جزولة**، 3 : 4 — 41، المعسول، 7 : 10 — 46، **سوس العالمة**، ص 127 و 156.

(79) 997 هـ توافق 1588 / 1589 م

وأما أبو عثمان سعيد بن علي فتوفي سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة [80]. وأما قاضي سوس اليوم وهو : أبو عثمان سعيد بن علي بن مسعود الهوزالي [81]. فولد سنة ثلاث عشرة وتسعمائة [82]، أخذ عن أبي عبد الله محمد بن علي الدرعي [83]، وعن أبي القاسم الكوش الملقب بالشيخ التفنوتي الدرعي ] [84].

وأما والد مولانا ــ رضي الله عنه ــ فتوفى سنة أربع وستين وتسعمائة.

---

(80) 973 هـ توافق 1565 / 1566م

(18) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **درة**، 299 ــ 300 رقم 1383، وعبد الواحد الحسني، **فهرس**، ص 87 ــ 88، وع. الرحمن التمارتي، **الفوائد**، ص 24 ــ 27، وم. الافراني، **صفوة**، ص 37، وم. القادري، **الاكليل**، ص 83 ، **نشر** 1 : 23 وم. الحضيكي، **طبقات**، 2 : 341 ــ 344، وم. المختار السوسي، **المعسول**، 7 : 47 ــ 51، **سوس العالمة**، ص 185، وم. حجي، **الحركة** 2 : 407.

(82) 913 هـ توافق 1057 ــ 1508.

(83) انظر ترجمته عند عبد الله الفاسي، **الاعلام بمن غبر**، 1 : 355، وم. الناصري، **الدرر المرصعة**، ص 294 ــ 295 ، وم. الحضيكي **طبقات**، 2 : 16 ــ 17، وم. بن عسكر، **دوحة**، ص 93 رقم 87.

(84) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ح ».

وانظر ترجمة الشيخ التفنوتي الدرعي عند أ. بن القاضي، **درة**، 3 : 284 رقم 1358، **لقط الفرائد**، ص 299، وأ. المنجور، **فهرس**، ص 75، وع. الرحمن التمارتي، **الفوائد**، ص 28 ــ 29، وم. الافراني، **صفوة**، ص 39 ــ 40، وم. الناصري، **الدرر المرصعة**، ص 135 ــ 136، وم. الحضيكي، **طبقات**، 1 : 151 ــ 153، وم. حجي، **الحركة**، 2 : 542 ــ 543.

# الفصل [ الخامس ] :

## * [ فيما يجب على الخليفة ]

* ـــ ورد هذا الفصل في « ج » في الخاتمة.

يجب على الخليفة الرفق برعيته ، ونصحهم ، والشفقة عليهم ، وعدم أهماله مصالحهم ، ولا يشدد عليهم لأنه : « ما كان الرفق في شيء إلا زانه ، ولا كان الخُرْق في شيء ألا شَانَهُ » (1) .

روي عن ابن عمر — رضي الله عنهما — ، عن النبي ﷺ أنه قال : « كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته » (2) ؛ متفق عليه . وعنه ﷺ : « ما من عبد يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت ، وهو غاش لرعيته ، إلا حرم الله عليه الجنة » (3) .

وكان يقول ﷺ : « اللهم من وَلِيَ من أمر أمتي شيئا ، فَشَقَّ عليهم ، فاشْقُقْ عليه ومن وَلِيَ، ومن أمر أمتي شيئا ، فرفق بهم ، فارفق به » (4) ، وعنه ﷺ أنه قال : « من ولاه الله شيئا من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وَخَلَّتِهِمْ ، احتجب الله دون حاجته وخَلَّتِه يوم القيامة » (5) .

ويجب عليه أن يكون مشتاقا ، متعطشا إلى لقاء العلماء ، ومخالطتهم ، ويكون حريصا على الاستفادة من كلامهم ... (6) ، فالحمد لله الذي طهر مولانا من كل ما يشينه في حق رعيته ، وحلاه بحلية الحلم ، وزينه بزينة العلم ، فهو أمير العلماء ، وعالم الأمراء ، أحسنهم قياما بسياسته ، وأحظاهم رفعة في رياسته ، وأشدهم على رعيته شفقة ، وأكثرهم في الصالحات نفقة ، وأحرصهم على إيصال الخير إلى رعيته ، وأبعدهم من الاحتجاب عنها.

ولنقتصر على هذا القدر في هذه المقدمة ، ونشرع في ذكر الأبواب المشتملة على ذكر فضائله الشريفة ، وفضائله المنيفة .

---

(1) — حديث نبوي أخرجه مسلم في **الصحيح**، 8: 22، عن عائشة.
(2) — أخرجه مسلم في **الصحيح**، 1: 88، والبخاري، 8 : 107، وكلاهما عن ابن عمر.
(3) — أخرجه البخاري في **الصحيح**، 8: 107، ومسلم في **الصحيح**، 1: 88، وكلاهما عن معقل بن يسار
(4) — أخرجه مسلم في **الصحيح**، 6: 7، عن عائشة.
(5) — أخرجه أبو داود في **السنن**، 3 : 135، عن معاوية، باختلاف يسير في اللفظ.
(6) — بياض بالأصل.
— وما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».

# الباب الأول

## * في حسن خلقه وعقله
## وكمال خلقه وفضله

---

* ورد الشطر الثاني من العنوان في « ج » هكذا : وكمال أوصاف خلقه وفضله.

قال بعض السلف : « الحسن الخلق ذو قرابة عند الأجانب، والسيء الخلق أجنبي عند أهله [1] »، وقال الفضيل بن عياض [2] : « لأن يصحبني فاجر حسن الخلق، أحب الي من أن يصحبني عابد سيء الخلق »، لأن الفاسق اذا حسن خلقه خف على الناس وأحبوه، والعابد اذا ساء خلقه مقتوه :

[ اذا رام التخلـــق جاذبتـــه    خلائقـــه إلـــى الطبـــع القديـــم [3]

وعن النبي ـــ ﷺ ـــ انه قال : « ما من شيء في الميزان أثقل من خلق حسن [4]، وقيل : « سوء الخلق يعدى، لأنه يدعو أن يقابل بمثله ».

ولبعضهم :

وإني لألقـــى المـــرء، أعلـــم أنـــه    عدو وفي أحشائه الضِّغْـــنُ كامـــنُ
فأمنحــــه بِشْرِي فيرجــــع قلبـــه    سليما وقد ماتت لديه الضغائنُ [5]

---

(1) انظر م. الابشيهي، **المستطرف**، 1 : 115.
(2) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 4 : 47 ـــ 50، والمصادر بالهامش 531 من الصفحة 47 من نفس المصدر.
(3) انظر م. الابشيهي، المصدر السابق، 1 : 115 ـــ 116
(4) أخرجه أبو داود في **السنن** ، 4 : 253، والترمذي في **السنن** 3 : 145 وكلاهما عن أبي الدرداء، باختلاف يسير في اللفظ.
(5) انظر م. الابشيهي، المصدر السابق، 1 : 116.

وقال الحارث بن قصى : « يعجبني من القراء كل فصيح مضحاك، وأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بوجه عبوس فلا كثر الله في المسلمين مثله [6] » ].

لا غرو أنه ــ أيده الله ــ جمع من العلم، والحلم، وحسن الخلق، وكمال الخلق، والفضل، وحسن الادراك، والميز، والعقل، مالم يحصل لملك، لا سيما وهو ملكهم، وعقول الملوك ملوك العقول، ولذلك قال بعض الحكماء في العقل : « العاقل من عقله في ارشاد، ومن رأيه في امداد، فقوله سديد، وفعله جميد، والجاهل من جهله في اغراء، فقوله سقيم، وفعله ذميم [7] ».

ــ ولذلك قيل :

[ من لم يكــن أكثـــره عقلـــه أهلكـــه أكثـــر ما فيـــه

ولهذا قال بعضهم : « العاقل لا تنقطع صداقته، والأحمق لا تدوم مودته »، وقال ــ عليه السلام ــ « ما اكتسب المرء مثل العقل، يهدي صاحبه إلى هدى، ويرده عن ردى [8] »، وعن رسول الله ــ ﷺ ــ : « لكل شيء دعامة، ودعامة عمـل المـرء عقلـه........[9] »، عليـه السلام : « العقـــل نور في القـــلب يفــرق بيـــن الحـــق والباطل »........[10] الله تعلى عقلا كاملا.

قال أزدشير [11] : « أربعة تحتاج إلى أربعة، الحسب إلى الأدب، والسرور الى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة [12].

(6) ما بين المعقوفين نسقط من « و » و « ج ».
وانظر مقالة الحارث بن قصي عند م. الابشيهي، المصدر السابق، 1 : 18.
(7) انظر م. الابشيهي، المصدر السابق، 1 : 15.
(8) أخرجه البيهقي في **شعب الايمان** عن عمر، انظر ج. السيوطي، **الجامع الكبير**، 2 : 481.
(9) بياض بالأصل.
والحديث لا يوجد عند. السيوطي في **الجامع الكبير**، ولا عند أ. ي. ونسنك في **العجم المفهرس**.
(10) بياض بالأصل.
(11) هو : اردشير (بالراء المهملة، وعند العرب الزاي المعجمة) بن بابك بن ساسان الأكبر، وهو أول من جمع كلمة الفرس بعد ما تفرقت على يد الاسكندر، وكان سبب تفرق كلمتهم أن الاسكندر لما حكم الفرس أرسل إلى أرسطا طاليس يستشيره في أمر الفرس، فقال له : ولكل رجل من أكابرهم جهة حتى تتفرق كلمتهم. وعندما جمع أردشير كلمة الفرس وتم له الأمر قال : ان كلمة فرقتنا لكلمة مشؤومة. يريد بذلك كلمة ارسطا طاليس. والمؤرخون المسلمون يسمون ثلاثة أشخاص من ملوك الفرس باسم (اردشير) أولهم : المترجم له، توفي سنة 241 م، ثانيهم : توفي سنة 383 م. وثالثهم توفي سنة 630 م.
(12) انظر م. الابشيهي، المصدر السابق، 1 : 15.

وقال القاسم بن محمد [13] : « من لم يكن عقله أغلب الخصال عليه، كان حتفه أغلب الخصال عليه [14].

وقال أبو الدرداء [15] : قال النبي ــ ﷺ ــ : « يا عويمر ازدد عقلا تزدد من الله قربا، قلت : بأبي وأمي، من أين لي بالعقل ؟ قال : اجتنب محارم الله تعالى، وأد فرائض الله تعالى تكن عاقلا، ثم تنتقل إلى صالح الاعمال تزدد في الدنيا عقلا، وتزدد من الله قربا وعليه عزا [16] ».

ويروي عن علي ــ كرم الله وجهه ــ أنه كان ينشد :

| | |
|---|---|
| ان المكارم أخلاق مطهرة | فالعقل أولها والدين ثانيها |
| والحلم ثالثها والعلم رابعها | والجود خامسها والعرف ساديها |
| والبر سابعها والصبر ثامنها | والشكر تاسعها واللين عاشرها |
| والعين تعلم من عيني محدثها | ان كان من حزبها أو من أعاديها |
| والنفس تعلم أني لا أصدقها | ولست أرشد الا حين أعصيها [17] |

وحاز من الشجاعة والاقدام ما لا يخطر ببال، الا أنه على الكافرين وبال. أما ما كان ظاهرا من ذلك فلا أحتاج إلى ذكره، ولا أخوض من أمره، لأنه ظاهر للعيان، وللعامة والخاصة الأعيان. وأما ما يغيب منها الا عن من كان مُجالسه، أو يحضر في الغالب مَجالسه، فسأذكر شيئا من ذلك [18] ]. فمنها أني لما قدمت مراكش حين أخرجني من الأسر ــ أخرجه الله من كل ضيق، وسهل له في الخيرات الطريق ــ أقبل علي ورحب بي، ثم قال لي بعد ذلك : « والله إني كنت مهتما بأسرك وأمرك »، كرر ذلك علي ثلاثا، ثم بعد ذلك بأيام، حضرت ذات يوم بين يديه ــ أيده الله تعالى ــ في مسجد داره العلية، ولا ثالث لنا، فاراد أن يسألني عن الكفرة ــ أذلهم الله تعالى بمنه ــ فاستشعر مني بعض خجل حصل لي منه، فأقبل على بالسؤال عن أحوال أسري، وكيف اتفق لي مع الكفرة، حتى أنّسني بذلك، وأزاح عني الخجل،

---

(13) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 6 : 215 والمصادر بالهامش.

(14) انظر م. الابشيهي، نفس المصدر والصفحة.

(15) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 5 : 281، والمصادر بالهامش 1.

(16) لا يوجد الحديث عند. خ . السيوطي في **الجامع الكبير**، ولا عند أي. ونسنك في **المعجم المفهرس**، ويوجد عند م. الابشيهي، نفس المصدر والصفحة.

(17) انظر **ديوان علي بن أبي طالب**، ص 132.

(18) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».

وأذهب عني الوجل، فلما رجعت إلى نفسي، وسكن روعي بعد أنسي، استفهمني عن أحوالهم، فعلمت اذ ذاك أن له عقلا صعد إلى العرش، وعاد إلى الفرش، ثم رجع إلى يده فتحكم فيه كيف شاء ــ أبقاه الله وأيده، ورفع ألويته وسدده.

[ ............................................................................................(19)

ويرحم الله القائل :

من لم يكـــن أكثـــره عقلـــه أهلكـــه أكثـــر ما فيـــه

وقد تقدم.

ولبعضهم.

يعد رفيـعَ القـوم من كان عاقـلا وان لم يكـن في قومـه بحسيب

وان حل أرضا عاش فيهـا بعقلـه وما عاقـل في بلـدة بغـريب[20] ]

وأما حسن ادراكه وفهمه، فيظهر في أجوبته على أبحاث في **الكشاف** ألفها قائده أبو الحسن علي بن منصور المرابط الشيظمي، وهي غاية في الحسن، تدل على عقله الشامخ، وقدمه الراسخ، ومن أرادها فليطالعها في محلها.

حدثني شيخنا أبو العباس المنجور عن كثرة فهمه، وغزر علمه، فقال لي : « كثيرا ما سامرته، وما رأيت أجود من فهمه، وأكثر من علمه، استفاد مني وأفاد، لكن ما أفاد أكثر مما استفاد ». وقد ألف شيخنا **فهرسة** جمع فيها كل ما اتفق له معه، وناولنيها بخطه، وأجازني[21] فيها بعد قراءتها عليه مرتين، إحداهما مع الفقيه الأديب، الناظم الناثر : أبي عبد

(19) بياض بالأصل بمقدار سطرين.

(20) ما بين المعقوفين سقط من « م. » و « ج ».

(21) الاجازة في الأصل من مصطلحات المحدثين يعدونها في الدرجة الثالثة من انواع الرواية، ويأتي قبلها : السماع أي سماع لفظ الشيخ من حفظه أو كتابه، والعرض أي قراءة الطالب على الشيخ وعرضه الحديث عليه كما يعرض القرآن على المقرىء.
وقد توسع المتأخرون من علماء المسلمين في الاجازة، فأطلقوها على كل أنواع الرواية، وجعلوها غير قاصرة على الحديث، بل شاملة لسائر العلوم النقلية والعقلية.
انظر في هذا الصدد :
ــ القاضي عياض، **الالماع، إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع**، ص : 88 ــ 107.

الله محمد بن علي الهوزالي [22]، والأخرى لم أشارك فيها أحدا، وقد ضاعت مني هذه النسخة في حال محنتي، وهي الآن عند الكفرة — أذلهم الله تعالى —.

قلت : وقد حضرت لبعض أبحاثه في **البخاري** الذي يسرد بين يديه في رمضان، سنة اثنتين وتسعين [23]، فيأتي بما يزري بالعقول، ويشرف المنقول، من أخذ نكتة عجيبة، أو فائدة غريبة، أو جواب عن معارضة، مهما أوردت على المحل مناقضة، وبما يشهد له بالرتبة العلية، والهمة الزكية.

وأما خلقه في أمر رعيته، ومسايسته لها، وجلب قلوبها، حتى كان الكبير والده، والصغير ولده، فقد فاق في ذلك من سواه، وأرغم من ناواه، فقد ملك بسريرته الحسنة، وسيرته المستحسنة، من رعيته القلوب، وتطاير ذكره بين نقطتي الشروق والغروب. هذا وان أهل المغرب لا يقدر على مجابرتهم ومقاومتهم ملك، ومع هذا كله أحكم سياسته، وأتقن رياسته، فينزل الناس منازلهم، ولا ينقص مقدار أنازلهم (كذا)، وقد اشتهر هذا وظهر، لأهل البادية والحضر [24].

---

= — ع. بن زيدان، **فيلق**، مخطوط غير مرقم.
— م. حجي، **الحركة**، 1 : 100 — 110.
— أحمد شلبي، **تاريخ التربية الاسلامية**، ص 260 — 269.
— صبحي الصالح، **علوم الحديث ومصطلحه**، ص 88 — 104.

(22) محمد بن علي الهوزالي هو المشهور بالنابغة، انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **درة**، 2 : 233، رقم 288 وع. العزيز الفشتالي، **مناهل**، ص 27، 41، 76، 130، 131،...... وع. الرحمن التمنارتي، **الفوائد**، ص 40 — 41، وم. الحضيكي، **طبقات**، 2 : 47، وعبد الله كنون، **النبوغ**، 1 : 263، وم. حجي، **الحركة**، 2 : 464.

(23) 992 هـ توافق 1584 / 1585 م.

(24) كان المنصور حريصا إلى حد كبير على حفظ الأمن والمحافظة على وحدة المغرب، لهذا زجر الثوار بكل عنف سواء أكانوا من الأسرة المالكة نفسها أم من القبائل، وقد صور عبد العزيز الفشتالي في المناهل هذا بكل دقة. وحاول بعض العلماء انتقاد المنصور على هذه السياسة المتشددة مثل عبد الواحد الحميدى — قاضي الجماعة بفاس — حيث مر هذا الأخير على جماعة من الرجال والنساء مغلولين في سلسلة ومن ضمنهم امرأة في كرب المخاض، فلم يعجبه هذا الأمر واظهر منه الشكاية للمنصور، فغضب الأمير لذلك، وبعد أيام أجابه بقوله : « لولا ما رأيت ما أمكنك أن تجيء مع اصحابك عشر أيام في أمن ودعة، فان أهل المغرب مجانين مارستانهم هي المحن والسلاسل والأغلال ».
انظر م. الافراني، **نزهة**، ص 158.

وهو أولى بأن يقال فيه :

ـــــم تك تصلـــــح الا له ولـــم يك يصلـــح الا لهـــا[25]

وقد رفع للدين ألويته، وجدد لأركانه أعمدته.

---

(25) البيت لأبي العتاهية، يمدح فيه المهدي العباسي، وقد ورد البيت ضمن أبيات هكذا :

| | |
|---|---|
| أتتـــه الخلافـــةُ منقـــادةً | إليـــه تُجـــرِّرُ أذيالَهـــا |
| فلـــم تكُ تَصْلُـــحُ إلّا لَـــهُ | ولـــم يكُ يصلُـــح إلّا لهـــا |
| ولـــو رامها أحـــدٌ غيـــرهُ | لزُلْـــزِلَتِ الأرضُ زلزالَهـــا |
| ولـــو لم تُطِعْـــهُ بنـــاتُ القلـــوبِ | لَمَـــا قَبِـــلَ اللـــهُ أعمالَهـــا |

انظر أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 1 : 221 ــ 222، وابن حجة الحموى، **خزانة الأدب**، ص 311.

# الفصل [ الأول ] :

## * [ فيما هو دليل الكمال وصحة الذكورية ]

* — قارن بين ما أورده ابن القاضي هنا وما أورده م. بن الأزرق في بدائع السلك، القاعدة الرابعة : العفة، 1 : 441.

وأما ما هو دليل الكمال وصحة الذكورية، وما يتفاخر به عادة وهو النكاح، فإنه يؤثره لأحاديث وردت في ذلك وهي كثيرة. من ذلك ما روي عنه ﷺ أنه قال : « حبب إلي من دنياكم ثلاث : النساء، والطيب، والصلاة ــ الحديث » [1].

والاستكثار من النساء غير قادح في زهد الانسان وورعه، وعلى هذا درج جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ كعلي، وابن عمر، والحسن وغير هؤلاء ــ رضي الله عنهم أجمعين ــ.

[ وقال بعض الحكماء : « كل شهوة أناها الرجل نفسه فلا بد أن يكتسب قلبه بها قساوة إلا الجماع، فإنه يرقق القلب ويصفيه »، ولأجل هذا كان الأنبياء والحكماء يفعلونه. قال عياض [2] في الشفا : « لم يزل التمادح بكثرة الجماع، والفخر بوفوره عادة معروفة، وسيرة

---

(1) أخرجه النسائي في السنن، 7 : 61 عن أنس باللفظ الآتي : « حبب إلي من الدنيا : النساء، والطيب، وجعل قرة عيني في الصلاة ». وانظر أيضا القاضي عياض، **الشفا**، 1 : 87.

(2) انظر ترجمته في فهرسه المسمى : **الغنية**، مخطوط المكتبة العامة بالرباط رقم 1807 د، وعند ابنه أبي عبد الله محمد في كتابه : **التعريف بالقاضي عياض**، وأ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 3 : 483 ــ 485 رقم 511، وأ. بن فرحون، **الديباج المذهب**، 2 : 46 ــ 51 رقم 2، وأ. بن القاضي، **جذوة**، 2 : 498 رقم 587، كما ألف برسمه أ. المقري كتابه : **أزهار الرياض، في أخبار القاضي عياض**.

ومن الدراسات الحديثة نذكر :

أحمد بغداد، **دراسة عن القاضي عياض**، رسالة جامعية محفوظة بمكتبة دار الحديث الحسنية بالرباط.

كما خصصت مجلة **المناهل** العدد 19 (1981) للقاضي عياض.

ونظمت وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية ندوة عن القاضي عياض بمدينة مراكش في شهر مارس من سنة 1981.

وهناك حاليا العديد من الدراسات الجامعية عن القاضي عياض في طور الاعداد.

ماضية، فإنه دليل الكمال وصحة الذكورية، وهو في الشرع سنة مأثورة، ولم يره العلماء مما يقدح في الزهد. قال سهل بن عبد الله : كيف يزهد فيهن وقد حببن إلى سيد البشر ؟ »[3]، وعن أنس، عن النبي ﷺ : « فضلت على الناس بأربع : السخاء، والشجاعة، وكثرة الجماع، وقوة البطش »[4] ].

---

(3) انظر **الشفا**، 1 : 87.

(4) أخرجه الطبراني في **المعجم الأوسط**، والخطيب البغدادي في **تاريخ بغداد**، وابن عساكر في **تاريخ دمشق**، وكلهم عن أنس.

قال عنه ج. السيوطي : قال الذهبي في الميزان : هذا خبر منكر.

انظر ج. السيوطي، **الجامع الكبير**، 2 : 302. وأيضا القاضي عياض، **الشفا**، 1 : 91.

**ملاحظة** :

ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».

# الفصل [ الثاني ] :

## [ في تـواضـعـه ]

ومن صفاته القائمة بذاته الكريمة : التواضع، فلا شك أنه مطهر من الكبر الذي يسلب كل فضيلة، ويكسب كل رذيلة، فقد آثر التواضع على الكبر لما يعلم أنه : « ما تواضع أحد لله إلا رفعه » [1]، ولا تكبر أحد على الله إلا قصمه. فمن دأبه أن يجبر خاطر الوافدين عليه وغيرهم، ويؤنس كل واحد بالكلام الطيب، حتى كأنه أقرب الناس إليه، وما ذاك إلا لكثرة عقله ومعرفته.

قال الأحنف [2] : « ما تكبر أحد إلا من ذِلَّةٍ يجدها في نفسه ». وقالت الحكماء : « لا يدوم ملك مع كبر »، فالكبر يوجب المقت، ومن مقته رجاله، لم يستقم حاله.

[ ولبعضهم :

| | |
|---|---|
| يا مظهر الكبر إعجابا بصورته | انظر خلاك فإن النتن تثريبُ |
| لو فكر الناس فيما في بطونهمُ | ما استشعر الكبر شبان ولا شيب |
| يا ابن التراب ومأكول التراب غدا | اقصر فإنك مأكول ومشروب ][3] |

ومن تواضعه ما اتفق لي معه — أيده الله وسدده — ذات يوم في محلته المنصورية بفسطاط الجماعة منها المعدة للديوان، وقد كنت حاضرا به من جملة عبيده وخدمه، فلما

---

(1) حديث نبوي أخرجه مسلم في **الصحيح**، 8 : 21، عن أبي هريرة.
(2) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 2 : 499 — 506 والمصادر بالهامش 305 من الصفحة 499 من نفس المصدر.
(3) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».

حضر الطعام ونظر إلى غير آكل لحياء عَنَّ لي في الوقت، عينني بلسانه للأكل من بين الناس، وأمر خدمته أن يعطوني الطست جبرا لخاطري، ورفعا لشأني بين الحاضرين، وكان هذا سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة بتانسيفت من خارج حمراء مراكش ـــ حرسها الله تعالى بمنه ـــ.

وأنشدني بها كاتبه ووزير قلمه الأعلى : أبو فارس عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم الفشتالي، الناظم، الناشر، لبعض المشارقة في هلال :

[ قد ] رميتم عشاقكم بالتجني — ليروموا عن الغرام بديلا
وَكَسَرْتُمْ قلوبهم لِيَحُولوا — هل علمتم بكسرها تحويلا ؟

وأنشدني بها بعضهم في طحان :

طحانكم قد زها جمالا — فما يطاق السلوُّ عنهُ
ودقَّ خصْراً فليت شعري — بكم يباع (الدقيقُ) منهُ

وأنشدني بها :

أخضر وأصفر لاعتلال — فصار كالنرجس المضعَّف
كأن نسرين وجنتيه — بشعر أصداغه مغلَّف
يَرْشَحُ منه الجبين ماءً — كأنه لؤلؤٌ منطَّف [4]

وأنشدني بها :

ما زال يَنْهَلُ مِنْ صِرْفِ الطِّلا قمري — حتى غدت وجنتاه منه كالشفقِ
وقام يخطر والأرداف تثقله — طورا وحاول أن يسعى فلم يُطقِ
شمائلٌ فعلت فعل الشَّمول به — فعلَ النسيم بغصن البانة الوَرِقِ
جاذبته لعناق فانثنى خجلا — ان العناق لَأَثْمٍ قلتُ في عنقي [5]

---

(4) انظر الأبيات عند م. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 210.
(5) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج »، وانظر الأبيات الأخيرة عند م. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 210.

وأنشدني بها، للحاجري [6] ـــ [ اسمه حسام الدين، توفي في شوال سنة اثنتين وثلاثين وستمائة [7]، وتقدير عمره خمسون سنة ـــ ] [8] :

[ عجبت لخال يعبد النار دائما ... بخديك لم يُحرق بها وهو كافر
وأعجب من ذا أن طرفك منذر ... يُصدِّق في آياته وهو ساحر
ومذ خبَّروني أن غصن قوامه ... تيقنت أن القلب منيَ طائر
وما اخضر ذاك الخد نبتا وإنما ... لكثرة ما شُقَّتْ عليه المرائر

وأنشدني لابن طلحة ـــ من أهل جزيرة، تقربها أيضا ـــ :

يَا هل ترى أبدع من يَوْمِنَا ... قَلَّدَ جيدَ الأفْقِ طَوْقَ العَقِيقْ
وَأنْطَقَ الوُرْقَ بعيدانها ... مُطْرِبَة كل قضيبٍ وَرِيقْ
والشمسُ لا تشرب خمر الندى ... في الروض إلا بكؤوس الشَّقِيقْ [9]

وأنشدني لابن حمديس الصقلي [10] بها :

باكر إلى اللذات واركبْ لها ... سوابقَ اللهو ذوات المراحْ
من قبل أن تَرْشُفَ شمس الضحى ... ريقَ الغوادي من ثغور الأقاحْ [11]

وأنشدني بها أيضا لابن حمديس :

هاتها صفراء ما اخترت لها ... أفق الشمس على أفق يد
جارحٌ في راحتي مقتنصٌ ... كل هَمٍّ كامنٍ في خَلَدي

---

(6) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 3 : 501 ـــ 505، والمصادر بالهامش 518 من الصفحة 501 من نفس المصدر.
(7) شوال سنة 632 هـ يوافق يونيو ـــ يوليوز سنة 1235 م.
(8) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».
(9) انظر الأبيات عند ابن الخطيب، **الاحاطة**، 1 : 236.
(10) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 3 : 212 ـــ 215، والمصادر بالهامش 396 من الصفحة 212 ـــ من نفس المصدر، وانظر كذلك إحسان عباس، مقدمة **ديوان ابن حمديس**.
(11) انظر **ديوان ابن حمديس**، ص 89.

وأنشدني بها :

هاتِ المدامَ إذا رأيت شبيهها ... في الأُفْقِ يا فرداً بغير شبيهِ
فالصبح قد ذبح الظلام حُسامُهُ ... فغدت حمائمه تخاصمُ فيهِ

وأنشدني بها :

كأنما السوسنُ الغضُّ الذي افتتحت ... منه كمائمُهُ المبيضةُ اللَّوْنِ
بَنانُ كَفٍّ فتاةٍ قَطُّ ما خُضِبَتْ ... تُلْقَى بها مَنْ يراها خيفةَ العينِ [12]

وأنشدني بها :

بَلَدٌ يحف بها الرياض كأنها ... وجة جميلٌ والرياض عذارُهُ
وكأنما واديه مِعْصَمُ غادةٍ ... ومن الجسور المحكمات سِوارُهُ [13]

وأنشدني بها :

ما أبصرت عيني عجيبا ... كاللوز حين بدا نُوَّارُهْ
اشتعل الرأس منه شيبا ... واخضرَّ من بعد ذا عذارُهْ [14]

وأنشدني بها :

تَنَبهْ إلى الدولاب والنهر إذْ جرى ... ودمعهما بين الرياض غزيرُ
كأن نسيم الروض قد ضاع منهما ... فأصبح ذا يجري وذاك يدور [15]

---

(12) البيتان لأبي القاسم بن أحمد بن الخصر بن أبي العافية، أحد صدور القضاة، والشاعر الأديب، المتوف سنة 475 هـ.

انظر البيتين، وهما في التشبيه، عند لسان الدين بن الخطيب، **الاحاطة**، 1 . 499.

(13) البيتان لابن الخطيب، انظر أ. المقري، **نفح**، 1 : 62، **أزهار**، 1 : 3 — 4.

(14) نسب بهاء الدين العاملي البيتين للبدر الذهبي. انظر **الكشكول**، ص : 490.

(15) البيتان لمحمد بن تميم. انظر **فوات الوفيات**، 4 : 58.

وأنشدني بها :

كهولٌ وشبان إذا شَهِدوا الوغى — رأيتَ مكان النصر ليس بهارب
إذا أضْرِمَتْ نار الحروب ببيضهمْ — غدا ساقطا منها فراش الحواجب
وتُشرق في ليل العَجاج رماحهمْ — كأن العوالي نُصِّلَتْ بالكواكب

وأنشدني بها لابن نُباتة (16) :

يومي على ليلايَ عامٌ كاملٌ — الصيف قلبي والشتاء جفوني (17)

وأنشدني بها يوم الجمعة، الرابع من ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين (18) :

لأعذبنَّ العين غير مفكر — فيها بكت بالدمع أو فاضت دما
ولأهجرنّ من الرقاد لذيذَهُ — حتى يعودَ على الجفون مُحَرَّما
هي أوقعتني في حبائل فتنةٍ — لو لم تَكُنْ نَظَرَتْ لكنت مُسَلَّما
سفكت دمي فلأسفكنَّ دموعَها — وهي التي بدأت فكانت أظْلَما (19)

وأنشدني بها لأبي الطيب :

كَشَفَتْ ثلاثَ ذَوائبٍ من شَعْرِها — في ليلة فأرت لياليَ أربعا
واستقبلت قمر السماء بوجهها — فأرتني القمرين في وقت معا (20)

وأنشدني بها للشريف الغرناطي (21) :

---

(16) انظر ترجمته عند أ. المقري، **نفح**، 1 : 87، والمصادر بالهامش 1، وكذلك خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 7 : 268، مع مصادر أخرى بالهامش 1.

(17) انظر **ديوان ابن نباتة**، ص 53.

(18) يوم الجمعة 4 ذي الحجة سنة 992 هـ يوافق 7 دجنبر 1584 م.

(19) الأبيات لأبي شجاع محمد بن الحسين بن محمد بن عبد الله، الروذراوري الملقب ظهير الدين، المتوفى سنة 488 هـ / 1095 م.
انظر **وفيات الأعيان**، 5 : 136، **الوافي بالوفيات**، 3 : 3 ـ 4، **والمستطرف**، 2 : 209.

(20) انظر **ديوان المتنبي**، 3 : 4.

(21) انظر ترجمته عند أ. بن قنفذ، **وفيات**، ص 83 وج. السيوطي، **بغية الوعاة**، 1 : 39 رقم 64، وحاجي خليفة، **كشف الظنون**، 2 : 1807، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 6 : 224.

ليلٌ وليلٌ بفرع واردٍ ودُجىً طالا فَوا حَزَني مِمَّا أكابدُهُ
شاهدتُ في ذاك بدراًلا أهيمُ به وهمتُ في ذا ببدرٍ لا أشاهدُهُ ] [22]

وأنشدني بها للامام الصوفي أبي عبد الله البكري [23]، كتبها لمولانا ــ أيده الله تعالى ــ :

ولما نأيتم ولم أستطع أسير لحضرتكم بالقدَمْ
سعيت إليكم برجل الرسول وخاطبتكم بلسان القَلَمْ [24]

[ ولابن سودون [25] من هذا المعنى في سكين اقلامية :

حَكَمت في الأقلام لما خِيفَ من افشائها سر الهوى لعذولِ

---

(22) ما بين المعقوفين سقط من « ج ».
(23) هو : محمد بن محمد البكري الصديقي، العالم الصوفي المصري، له شعر رائق، وحزب مشهور عند الصوفية يدعى حزب البكرى، ويقبل عليه شيوخ المغرب كثيرا.
انظر ترجمته عند نجم الدين الغزي، **الكواكب السائرة**، 3 : 67.
عبد الحي بن العماد الحنبلي، **شذرات**، 8 : 431.
خير الدين الزركلي، **الاعلام**، 7 : 289 ــ 290.
(24) انظر أ. المقري، **روضة**، 267.
(25) هو : أبو الحسن علي بن سودون البشبغاوي (أو اليشبغاوي) القاهري ثم الدمشقي، ولد بالقاهرة سنة 810 هـ / 1407 م، وتوفي بدمشق سنة 868 هـ / 1463 م. صنف **قرة الناظر ونزهة الخاطر**، في الهزليات، **ونزهة النفوس، ومضحك العبوس**، وهي مجموعة أشعار ونكت، جعلها قسمين، الأول في المدح والجديات، والثاني في الهزليات، طبع على الحجر بمصر سنة 1280 هـ. وتوجد مخطوطة فريدة منه بالاسكوريال حدد 368، وهي التي سوف نعتمدها في تحقيق أشعاره الواردة في **المنتقى**.
قال شمس الدين السخاوي عن شعره في **الضوء اللامع**، 5 : 229 : « ........ سلك في نظمه طريقة هي غاية في المجون والهزل والخلاعة، فراج أمره فيها، وطار اسمه بذلك، وتنافس الظرفاء ونحوهم في تحصيل ديوانه ».
وقال عنه ع. الحي بن العماد الحنبلي في **شذرات الذهب**، 7 : 307 ــ 308 : « .... كان مملقا فأخذ في رواج أمره بالمجون ».
وقد أورد ابن القاضي الكثير من أشعاره في **المنتقى**، ونعتقد أن لصفة ابن سودون المجونية والهزلية هذه علاقة بما أورده ابن القاضي في مقدمة **المنتقى**. حيث قال : « ........ وأذكر فيها بعض حكايات، وقصائد، ومقطعات أنشدتها، وملح غريبة استفدتها، ليكون كالمعين على مطالعة الكتاب، لأن النظر في فن واحد قد ترغب عنه النفوس، بخلاف ما إذا نمق بغيره ».
انظر ترجمة ابن سودون عند :

فأقمْتَ عنـد الـوصل حدّاً قاطعـا    من ألسن الأقـلام كُلّ فُضولِ ] (26)

وللامام البكري ــ قدس الله روحه، وبرد ضريحه ــ، [ توفي سنة أربع وتسعين تسعمائة ] (27)، يستدعي بهما لبيته الشيخ نجم الدين الغيطي (28) المحدث، الحافظ ــ رحمه الله تعالى بنمه وكرمه ــ :

إذا زرتـمُ وتفضلتـمُ    وشرفتمونـا بنقـل القـدَمْ
فلـيس بعـار ولا منـقص    دخـولُ الموالـي بيـوت الخَـدَمْ

وأنشدني بها الكاتب أبو عبد الله محمد بن عمر (29)، الناظم، الناثر، اللوذعي الفكاهة، لأبي حيان (30)، المتوفى سنة خمس وأربعين وسبعمائة (31) :

يا فُرْقَـةً أبْدَلَتْنـي بالسرور أسىً    وَأسْهَـرَتْ ناظـرا قد طال ماتـعَسا
أنّى يَكـونُ اجتمـاع بيـن مفتـرقٍ    جسم بمصر وقلبٌ حلّ أندلسا (32)

---

= ــ شمس الدين السخاوي، **الضوء اللامع**، 5 : 229 رقم 768.
ــ عبد الحي بن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، 7 : 307 ــ 308.
ــ حاجي خليفة، **كشف الظنون**، 1 : 803.
ــ اسماعيل البغدادي، **هدية العارفين**، 1 : 734.
ــ جرجي زيدان، **آداب اللغة العربية**، 3 : 126 رقم 15.
ــ خير الدين الزركلي، **الاعلام**، 5 : 105.

(26) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».
وانظر البيتين عند ابن سودون، **نزهة النفوس ومضحك العبوس**، مخطوط الايسكوريال عدد 368، ورقة 9.

(27) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».
وسنة 994 هـ توافق 1586 م.

(28) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **درة**، 3 : 28 رقم 920، **لقط الفرائد**، ص 312، ونجم الدين الغزي، **الكواكب السائرة**، 3 : 51 ــ 53.

(29) انظر ترجمته عند م. الأفراني، **نزهة**، ص 102، والعباس بن إبراهيم، الاعلام، 5 : 180 ــ 182 رقم 653.

(30) انظر ترجمته عند م. بن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، 4 : 71 ــ 81 رقم 507، وج. السيوطي، **بغية الوعاة**، 1 : 280 ــ 284 رقم 516، وأ. المقري، **نفح**، 2 : 535 ــ 584 رقم 26، وخير الدين الزركلي، **الاعلام**، 8 : 26.

(31) 745 هـ توافق 1344 م.

(32) انظر البيتين عند خالد البلوي، **تاج المفرق**، 2 : 26.

وأنشدني الكاتب أبو علي الحسن المسفيوى [33] الناظم، الناثر للقواريري [34] :

وكلما رام نطقـــا في معاتبتـــي سددت فاه بنظـم اللثـم والقُبَـلِ
وبات بدر تمام الـحسن مُعْتَنِقِــي والشمسُ من فلك الكاسات لم تَمِلِ
وبتُّ منها أرى النار التي سَجَدَتْ لها المجوسُ من الابريق تَسْجُدُ لي [35]

وأنشدني أيضا لابن النبيه [36] بعضهم :

قُمْ فاسقني وانهبْ رحيـق السَّلْسَلِ واشرب ولا تعمـل بقـول العُـذَّلِ
سيمـا وقـد راض الربيـع رياضَهـا فنباتهـا يُجْلَـى بأنـواع الحُلِـي
والـروض بيـن تألُّفٍ وتَعَطُّـفٍ وتصرف وتهيـف وتميُّـلِ
من أخضرٍ في أصفـرٍ ومعصفـرٍ ومكوفـر ومعنبـر ومصنـدل
ومهـذَّبٍ ومـقضب ومكـتب ومقمـع ومـرصع ومُكَحَّـلِ
والجـو بيـن تعـبس وتغـلس وتبـرق وترعـد وتهطـل
والمـاء بيـن تصفـق وتدفـق وتـروق وترقـرق وتسلسل
والطيـر بيـن مغـرد ومشرد ومطـرد ومقيـد ومُنَقِّـلِ

---

(33) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **درة**، 1 : 240 — 241 رقم 357، **لقط الفرائد**،ص 308، وعبد العزيز الفشتالي، **مناهل**، ص : 91، 131، 239........، أ. المقري، **روضة**، ص 163 — 173، **نفح**، 6 : 49، وأ. القاسم الزياني، **الروضة السليمانية**،ورقة 128، وأ. الناصري، **الاستقصا**، 5 : 152، والعباس بن إبراهيم، **الاعلام**، 3 : 150 — 151 رقم 404، وم. حجي، **الحركة**، 2 : 401.

(34) انظر ترجمته عند ع. الحي بن العماد الحنبلي، **شذرات**، 2 : 85.

(35) وردت الأبيات عند النواجي في **حلبة الكميت**، ص 173، بالتنظيم التالي :

وبات بدر تمام الـحسن معتنقـي والشمس من فلك الكاسات لم تمل
وكلمـا رام نطقـا في معاتبتـي سددت فاه بنظـم اللثـم والقبـل
وبت منها أرى النار التي سجـدت لها المجوس من الابريق تسجـد لي

أي أن البيت الثاني أصبح هو المطلع، وأصبح البيت الأول هو الثاني.

ملاحظة :

نسب النواجي الأبيات لأبي الفتح بن قادوس المتوفى سنة 553 هـ / 1158 م.

(36) انظر ترجمته عند م.بن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، 3 : 66 — 73 رقم 531. وكذلك عمر أسعد، مقدمة **ديوان ابن النبيه**، وبها دراسة وافية عن مصادر ترجمته، وشعره، ونسخ ديوانه.

والزهــر بيــن مفتــح ومطــرح ومجنــح ومرنــح لم يَكْمــل
والــراح بيــن تسكب وتحــجب وتلــهب وتوقــد وتشعــل
والــورد بيــن موهــج ومفــوج ومتــوج ومبهــرج ومكحــل
ما بيــن منشور كثــوبٍ مُغْلَــمٍ لكنــه بيــد امــرىء لم يعمــل
يزهــو بأحمــر كالعقيــق وأصفــر كالزعفــران وأبــيض كالسنجــل
غَضٌ النبــات بديعــةٌ ألوانــه نسجتــه أنــواء السمــاء الهُمَّــل
وبنــفسج يحكــي إذا عاينتــه آثار قَرص في محب محمل (كــذا)
وكــأن مبــيضٌ الأقــاح ثغــورُ من يزهــو علــي بحسنــه المتدلــل
وكأنمــا الشيــخ الزكــيُّ نسيمُــهُ يُحْيي النفوس إذا جرى في شَمْــأَلِ
وكأنمــا النخــل الطــوال عرائسٌ يُجْلَوْنَ في حلل الشعــور المسبَــل
وكأنمــا النَّارنــج في أغصانــه خُضْرُ المطارف في حريــر مشعــل
وكأنمــا الأُتْرُجُّ حيــن بدا لنــا نُوَّار تِبْــر في حريــر منسل
وكأنمــا السَّرْوُ الطــوال إذا بدت للعيــن بيــن تقــوُّم وتميــل
حُورُ الكــواعب قد لَبِسْنَ غلائــلًا خُضْراً ترى للناظــر المتــأمِّلِ
وكــأن تَرْجِيــعَ الميــاه إذا جرت من جدول وتحــدَّرَتْ في جدول
حَيَّــاتُ نهــر خفــن من متطــلّب يسعيــنَ سَعْيَ الخائــف المستعجــل
وترنَّــمت أطيــاره فحــكت لنــا نفحــات عود في الثقيــل الأول
والعــيش أخضر من غُصَيْــنٍ يانــع والشمــل مجتمــع بنــا في منــزل
بادر إلــى فرص الزمــان فإنهــا فرص وإن الدهــر ليس بممهــل
ما العــيش إلا هكــذا فانعــم به واقبل على إقبال دهر مقبــل [37]

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من ذكر مآثر مولانا الحسنة، وشيمه المستحسنة.

(37) لا توجد القصيدة في ديوان ابن النبيه.

# الباب الثاني

## * في محافظته على التكاليف الشرعية والأعمال البدنية والاعتقادات الأشعرية

---

* — في « ج » ورد الشطر الثاني من العنوان هكذا : والأعمال البدينة من المصالح الدينية والدنيوية.

أما محافظته ـــ أيده الله ـــ على الطهارة البدنية، فلا تجده أبدا إلا على طهارة، ولا يخلو منها حالة خروجه على الناس وجلوسه.

وأما الصلاة فهو مواظب على الصلوات الخمس في أوقاتها، ملازم لها، محافظ على مفروضها ومسنونها، مهما حضره وقت صلاة تقام عليه، ويؤم الناس في مسجده الذي يقصده، الأعظم، وتارة بالبديع الذي أعده دَسْتا [1] لامامته العلوية، وسلطنته الهاشمية.

[ حدثني بعض من أثق به أنه ـــ أيده الله ـــ يلازم تراويح رمضان من أوله إلى آخره، ويحيي الأوتار في العشر الأواخر من رمضان، رغبة في تحصيل ليلة القدر، لما رُوي أنها : « تُلْتمس في العشر الأواخر من رمضان » [2]، وأنه يأخذ بالسنة في رمضان، لما رُوي عن عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ قالت : « كان رسول الله ﷺ يجتهد في رمضان مالا يجتهد في غيره »[3]].

---

(1) الدست ـــ بفتح فسكون، وجمعها دسوت، كلمة معربة عن الفارسية، ثم صار لها في العربية معان أربعة : الرياسة، والحيلة، واللباس، ودست القمار، وقد استعملها الحريري بالمعاني الأربعة في قوله بالمقامة الشعرية : « نشدتك الله، ألست الذي أعاره الدست، فقال : لا، والذي أجلسك في هذا الدست، ما أنا بصاحب الدست، بل أنت الذي تم عليه الدست ».
واوضح أن ابن القاضي يقصد المعنى الأول، أي اتخاذ المنصور للبديع مقرا لرياسته.
انظر أحمد الشرقاوي إقبال، **لعبة الشطرنج في ماضيها الاسلامي**، 76، **والقاموس المحيط**.

(2) حديث نبوي أخرجه البخاري في **الصحيح**، 2 : 254، عن ابن عباس.

(3) ما بين المعقوفين سقط من « ج ».
والحديث أخرجه مسلم في **الصحيح**، 3 : 176، عن عائشة.

كان لسان حاله ينشد ما لأبي محمد [ يسكر، ونسبهما بعضهم للحافظ أبي بكر بن (عطية)، وربك أعلم بأهلهما ] [4].

**لا تَجْعَلَــنْ رمضان شهــر فكاهــة يُلْهِــيك فيــه من الحــديث فنونُــهُ**
**واعلــم بأنك لن تنــال ثوابَــــهُ حتــى تكــونَ تصومُــهُ وتصونُــهُ**

**وأما محافظته على أصول الدين والاعتقاد :**

فيقرأ في بعض أوقاته بين يديه من ذلك تآليف العقائد الأشعرية، والمناهج السنية، كعقائد الامام : أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي الحسني [5] ــ رحمة الله عليه ــ،

---

(4) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».
ويسكر : هو أبو محمد يسكر بن موسى، فقيه فاس، والمتصوف المشهور، المتوفى يوم السبت 12 ذي القعدة عام 598 هـ / الموافق 3 غشت سنة 1202 م.
انظر ترجمته عند يوسف بن الزيات، **التشوف**، ص 338 ــ 340 رقم 171، وأ. بن قنفذ، **أنس الفقير**، ص 23، وأ. بن القاضي، **جذوة**، 2 : 562. رقم 655، وم. الكتاني، **سلوة**، 3 : 164.
أما أبو بكر بن عطية فهو غالب بن عبد الرحمان بن عطية، وهو والد القاضي عبد الحق بن عطية المفسر المشهور.
انظر ترجمته في **قلائد العقيان**، 207، **وأزهار الرياض**، 3 : 99، **ونفح الطيب**، 2 : 523 ــ 526، **وتذكرة الحفاظ**، 1369، **والصلة**، 432.
**مــلاحظــة** :
نسب ابن الزيات في **التشوف** (ص 339)، وابن القاضي نفسه في **الجذوة** (2 : 563)، البيتين ليسكر.
في حين نسبهما أ. المقري في **أزهار الرياض** (3 : 100) وفي **النفح** (2 : 25) للحافظ أبي بكر بن عطية المترجم له سابقا.

(5) الامام محمد بن يوسف السنوسي، المتوفى سنة 895 هـ / 1490 م من الشخصيات المهمة التي عملت على ازدهار علم الكلام بتلمسان، وقد مزج بين العقائد السنية الأشعرية، والبراهين العقلية المنطقية في كتبه التعليمية المشهورة : **عقيدة أهل التوحيد**، وهي العقيدة الكبرى، **والعقيدة الوسطى**، **وأم البراهين** المعروفة بالعقيدة الصغرى، **والمقدمات** أو صغرى الصغرى.... ونشر المهاجرون من تلاميذ الامام السنوسي هذه الكتب في المغرب، فاعتمدها الناس وراجت بينهم كثيرا وكتب عليها المغاربة شروحا وتعاليق عديدة، وظلت عقائد السنوسي وما كتب عليها في العصر السعدي من شروح وحواش محط عناية الدارسين بالمغرب إلى العصر الحاضر.
انظر ترجمة الامام السنوسي عند م. بن عسكر، **دوحة**، ص 121 ــ 122 رقم 118 وأحمد بن القاضي، **درة**، 2 : 141 ــ 142 رقم 605، أ. بابا، **نيل**، ص 325 ــ 329، وم. بن مخلوف، **شجرة**، ص 266 رقم 984، وم. بن مريم، **البستان** ص 237 ــ 248، وإسماعيل البغدادي، **هدية العارفين**، 2 : 216، وعادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر**، ص 189 ــ 190.

وغيرها من مطولات ذلك الفن وما يتعلق به، كالمنطق، وإليه يرجع في حل المشكل، وكشف المعضل، وقد يورد معارضات ويجيب عنها، وقد تسرد بين يديه في بعض الأوقات كتب الآداب وما يتعلق بها : كاللغة، والنحو، والتصريف، والبيان وتوابعه من البديع، وغير ذلك من تواريخ القرون الخالية، وأخبار الملوك الماضية، وكسير النبي ﷺ ، ويقرض الشعر في بعض أوقاته، ولا يكثر من ذلك، ولا يأتي منه إلا بما يدل على سلامة طبعه فقط، لأن الملوك لا تكثر من ذلك ولا تقول منه إلا القليل، فمن ذلك ما أنشدنيه بالمحلة المنصورية له وزير القلم الأعلى، وحائز القدح المعلى، الكاتب الأعظم، والخضم المفخم، الناظم الناثر، وحائز قصبات السبق في الدفاتر : أبو عبد الله محمد بن علي الفشتالي سنة اثنتين وتسعين في معنى التورية..............[6]، وهما :

**وصفوا اشتياقي للحبيب وسَرَّهُمْ — قول الحبيب أنا أنا فيه**
**قلبي له حَجَرٌ، فقلت مغالطا — للحاسد المؤذي أنا فيه** [7]

وأنشدني بالمحلة المذكورة، أبو العباس أحمد بن محمد بن الحكيم التونسي [8] لما وفد عليها لا يالة مولانا ــ أيده الله ــ لأبي الفضل [9] :

**ومُعَذِّرٍ نَقَشَ الجمالُ بمسكِهِ — خدّاً له بدم القلوب مُضَرَّجا**
**لما تيقن أن سيف جفونه — من نرجسٍ جعل النجاد بنفسجا**

---

(6) بياض بالأصل.

(7) سيتعرض إلى قصتهما في الباب الثاني والعشرين عندما يتعرض إلى نظم المنصور.
وانظر أيضا : **روضة الآس**، 41، **ومناهل الصفا**، 210، **ودرة الحجال**، 1 : 114، **والنفح**، 7 : 79.

(8) انظر ترجمته عند العباس بن إبراهيم، **الاعلام**، 2 : 247 رقم 210.

(9) يقصد أبا الفضل محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز الدارمي التميمي (388 هـ ــ 455 هـ / 998 م ــ 1063 م) الوزير الشاعر، من أهل بغداد. أنظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 7 : 133 ــ 134، والمصادر بالهامش 1 من الصفحة 134 من نفس المصدر.

**ملاحظة :**

نسبت كثير من المصادر البيتين لابن عبد ربه القرطبي، انظر مثلا :
**وفيات الأعيان**، 1 : 110، **اليتيمة**، 2 : 5 ــ 6، **المطمح**، 51 ــ 53، **النفح**، 7 : 52.

وأنشدني بها أيضا :

ومُعَــــذِّرٍ قال الالاه لِحُسْنِـــــه  كُنْ فتنـــةً للعاشقيـــن فكانـــا
زعـم البنــفسج أنـــه كعـــذاره  سَفَهاً فَسَلُّوا مِنْ قَفـاه لسانـا [10]

وما لبعضهم :

أصبــحت مأسورا بسهـــم لحاظـــه  ومقيـــدا من صُدْغِـــه بسلاسلِ
حتـــى بدا سيـــف العـــذار مجـرَّداً  فَخَشِيتُ منه وقلت : هذا قاتِلِي [11]

وما لبدر الدين بن حبيب [12] :

عيناه قد شهـدت بأنـي مُخْطِـىءٌ  وأتـــى بخـــط عذاره تذكـــارا
يا حاكـم الـحب اتئـد في قتلتـي  فالخـــط زورٌ والشهـــود سُكـــارى

[ وما لبعضهم :

ولمـــا رأى وردا بخديـــه يُجْتَنَـــى  فخاف عليه القطفَ دون اختبـــارِهِ
أقـام عليـــه صارمـــا من جفونـــه  ومـــدَّ عليــــه أزرقـــا من عِذاره

وما للحلي :

وعهــدي بالعقــارب حيث تَشْتُــــو  يُخَفِّـــفُ لَدْغُهـــا وثِقِـــلُّ ضُرّاً

---

(10) البيتان لأبي العباس الضبي، انظر ابن حجة الحموي، **خزانة الأدب**، ص 311.
(11) ورد بيتان عند م. الابشيهي في **المستطرف**، 2 : 16، بهذا الشكل.

أصبـــحت مكسورا بسهـــم لحاظـــه  ومقيـــدا من صدغـــه بلسانـــه
حتى بدا سيـــف العـــذار مجـــردا  فخشيت يقتلنـــي وذا من شأنـــه

(12) انظر م. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 17.
وقد نسبهما ابن حجة الحموي في **خزانة الأدب**، 311، لصلاح الدين الصفدي.

فمــا بالُ الشتــاء أتــى وهـــذي عقــارب صدغهـــا تزداد شرا [13]

وما لبعضهم :

بخديك من روض المحــاسن روضة أقيــمَ عليهـــا من لحــاظك حارسُ
ومــن عجب أن اللواحـــظ قُلِّــدتْ حراسةَ ذاك الروض وهي نواعسُ ] [14]

وما لبعضهم :

ومــا ضره نار بخديـــه أُلهـــبتْ ولكنْ بهــا قلب المــحب يُعــذَّبُ
عناقيــد صدغيــه بخديــه تلتــوي وأمــواجُ رِدْفَيْــهِ بِخَصْرَيْــهِ تَلْــعَبُ
شربت الهــوى صرفــا زُلالًا وإنمــا لواحظــه تسقــي وقلبــيَ يشرب [15]

وما لأبي فراس بن حمدان، الذي ولد سنة عشرين وثلاثمائة [16]، وتوفي سنة سبع وخمسين وثلاثمائة [17] :

يا من يلـــومُ علـــى هواه جهالــــةً انظـــر إلـــى تلك السوالــف تُعْــذرِ
حَسُنَتْ وطـــاب نسيمُهـــا فكأنهـــا مسك تساقـــط فوق خَدّ أحمــرِ [18]

وما لبعضهم :

ومعــــــــــذر رقت حواشي خده فقلوبنـــا وَجْـــداً عليـــه رقـــاقُ
لم يكس عارضَه السوادُ وإنمــــــا نَفَضَتْ عليـــه سوادَهاالأحـــداق [19]

---

(13) لم يرد البيتان في ديوان الحلي.
وقد نسبهما م. الابشيهي في المستطرف، 2 : 15، للعادلي.
(14) مابين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».
(15) انظر الأبيات عند م. الابشيهي، المستطرف، 2 : 15.
(16) 320 هـ توافق 932 م.
(17) 357 هـ توافق 968 م.
(18) انظر البيتين في ديوان أبي فراس الحمداني، ص 171.
(19) البيتان للشاعر الأندلسي المشهور : ابن صارة الشنتريني، انظر وفيات الأعيان، 3 : 94، وأيضا 6 : 252، والمستطرف، 2 : 15.

وما لبعضهم :

ومهفهــــــــف راقت نضارةُ خده / والعيــنُ تنظــرُ منــه أحسن منظــرِ
أصْلَـى بنــار الخــد عنبـَرَ خالِـه / فبدأ العـذارُ دخـانَ ذاك العنبــرِ [20]

وما لبعضهم :

أصبـحتَ سلطــانَ القلــوب ملاحــةً / وجمــال وجــهك للبريــة عسكــرُ
طلـعتْ طلائــعُ وجنتــيكِ مُعَــزَّةً / بالــنصر تَقْدُمُهــا لواء أخضرُ [21]

وما لبعضهم، وهو ابن عبد ربه القرطبي [22] :

يا ذا الــذي خطَّ العــذار بخــده / خطيــن هاجــا لوعــة وبــلا بلا
ما صح عنــدي أن لحــظك صارم / حتى حملت بعارضيك حمائلا [23]

وما لبدر الدين الدَّماميني [24] مضمنا :

يُحَــدِّثُ ليــلُ عارضِهِ بأنــي / سَأسْلُــوهُ ويــنصرفُ المــزارُ
فأشرقَ صبــحُ وجنتــه ينــادي / « حديثُ الليـل يمحوه النهـارُ » [25]

---

(20) البيتان لابن البرهان الحاسب المنجم الطبري المتوفى سنة 655 هـ.
انظر **وفيات الأعيان**، 6 : 254، **والمستطرف**، 2 : 15.

(21) انظر البيتين عند م. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 15.

(22) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان** 1 : 110 ـــ 112 رقم 46، وج. السيوطي، **بغية الوعاة**، 1 : 371 رقم 727، وخ.
الدين الزركلي، **الاعلام**، 1 : 197 ـــ 198، وقد نشر الأستاذ محمد بن تاويت بعض أشعاره (سنة 1979).

(23) انظر البيتين في **خزانة الأدب** لابن حجة ص 314، **واليتيمة**، 2 : 5، ووفيات الأعيان 1 : 110، **والمستطرف**، 2 : 15، وتاج المفرق، 2 : 142، **والمطمح**، 51 ـــ 53، **والنفح**، 7 : 51.

(24) انظر ترجمته عند شمس الدين السخاوي، **الضوء اللامع**، 7 : 1845 ـــ 187 رقم 440، وج. السيوطي، **بغية الوعاة**، 1 : 66 ـــ 67 رقم 113، وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، 7 : 181 ـــ 182، وم. بن مخلوف، **شجرة**، ص 240 ـــ 241 رقم 863، وخ الدين الزركلي، **الاعلام**، 6 : 282 ـــ 283.

(25) انظر البيتين عند م. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 16.

وما لجمال الدين بن نُباتة :

وضعتُ سلاح الصبـر عنـه فمالَـهُ    يُغـازلُ بالألحـاظ من لا يغازلُـهْ
وسالَ عِذارٌ فوق خديـه سائـلٌ    على خدّه « فليتق الله سَائِلُهْ » [26]

وما لبعضهم من الاستخدام [27]، ولكنه في أربعة مواضع في البيت الأخير :

ورب غَزالـةٍ طلـعتْ    بقلبـي وهـو مرعاهـا
نصبت لهـا شِباكـا من    لُجَيْـن [28] ثم صِدْناهـا
وقـالت لي وقـد صرنـا    إلـى عيـن قصدناهـا
بَذَلْتَ العيـنَ فَأكْحَلَهـا    بطلعتهـا ومجراهـا [29]

وما لبعضهم :

حَلّتْ عقـارب صُدغـه من خدّه    قمـرا يَجِـلّ بهـا عن التشبيـهِ
ولقـد عهدنـاه يَحُـلّ ببرجهـا    ومـن العجائب كيف حلّت فيـهِ [30]

---

(26) لم يرد البيتان في الديوان المطبوع، لكن تتفق المصادر الأدبية التي رجعنا إليها إلى نسبتهما إليه، خاصة الرحالة المغربي خالد البلوي، الذي اتصل بالشاعر وأثبت الكثير من أشعاره في **تاج المفرق**، 1 : 274، وانظر أيضا ابن حجة، **خزانة الأدب**، 363، **والمستطرف**، 2 : 16.

**مـلاحظـة :**

البيت الثاني فيه تلميح لقول الشاعر :

ولـو لم يكـن في كفه غيـر نفسه    لجـاد بهـا فليتـق اللـه سائلـه

(27) انظر عن الاستخدام ابن حجة الحموي، **خزانة الأدب**، ص 53 ــ 56.
(28) عند بهاء الدين العاملي في **الكشكول**، ص 361 : نضار.
(29) قال بهاء الدين العاملي في **الكشكول**، ص 361 ــ 362، عن هذه الأبيات ما نصه : « قال الصفدي للقاضي زين الدين (ابن الوردي) وقد أنشده بعض شعراء العصر بيتا له يجمع استخدامين، استخدم هو أربعة، وهو :
ورب غزالة طلعت...............الخ.
ومعنى الاستخدامات الأربعة : بذلت الذهب، فاكحل عينك بطلوع الشمس ومجرى العين الجارية من الماء، انتهى ».
(30) نسبهما ابن العماد الحنبلي في **شذرات الذهب**، 4 : 11 إلى الغزالي.

وما لبعضهم :

قد قلتُ لمـــا أطلـــعت وجناتُـــهُ حولَ الشقيـــق الـــغَضّ روضةَ آسِ
أعذارَهُ الساري العجـــولَ تَوَقَّفَـــنْ « ما في وقوفك ساعة من باسٍ » (31)

وما لبعضهم :

قد اسودَّ كالـــمسك صُدْغـــا وقـــد طاب كالـــمسك خُلْقـــا

وما لبعض المشارقة :

كتب الـــحسنُ علـــى وجنتـــه بسحيـــق الـــمسك خطّـــا معتبـــرْ
عادة الأقمـــار تسري في الدُّجـــى فرأيت الليـــل يسري في القمـــرْ

وما لبعضهم، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد التُّطِيلي (32)، نشأ بقرطبة (33) :

ومعـــذّر رَقَّتْ له خمـــرُ الصِّبـــا حيث العـــذارُ حَبابُهـــا المترقـــرقُ
ديبـــاجُ حُسْنٍ تاه غُفْـــلًا ناقصا فَأَتَمَّـــهُ علـــمُ الشبـــاب المونِـــقُ
وشكـــا الجمـــالُ مَقِيلَـــهُ في ورده فَأَظَلَّـــهُ آس العـــذار الـــمشرق
عامت بمـــاء الـــحسن شامـــةُ خدّه فغـــدا العـــذار زويرقـــا لا يَغْـــرقُ

---

(31) في الشطر الثاني من البيت الثاني تضمين، إذ ضمنه قول أبي تمام :

ما في وقـــوفك ساعـــة من باس نقضي ذمـــام الأربـــع الأدراس

انظر **ديوان أبي تمام**، ص 152.

(32) التطيلي : نسبة إلى تطيلة مدينة على وادي أبره، تبعد عن سرقسطة ب 82 كلم في الشمال الغربي، فتحها العرب سنة 716 م واسترجعها الاسبان سنة 1115 م، ينسب إليها علماء وأدباء معروفون. ولم نقف لهذه الشخصية بالذات على ترجمة.

(33) قرطبة : عاصمة الخلافة الأموية بالأندلس وأم حواضرها، وقد بلغت درجة من الازدهار والحضارة أيام العرب لم تبلغه مدينة أخرى في أوروبا. استرجعها الاسبان سنة 1236 م، فنزح عنها المسلمون إلى المدن التي كانت لا تزال تحت النفوذ الاسلامي، وقد تدهورت أحوالها الاقتصادية والعمرانية، وانحطت، وصارت مدينة صغيرة، ولم تقم من كبوتها إلى الآن.

إنْ كان يمحـــو نقشه من وجهـــــه     فَطُلا [34] الغزال بمسكها تَتَفَلَّقُ [35]

قلت : وله من بديع التوليد [36] في ذم العذار وأجاد :

أتــــاك العـــــذارُ علـــــى غِرَّةٍ     وقـــد كنتَ في غفلـــةٍ فانتبـــهْ
وقـــد كنتَ تَأبَـــى زكـــاةَ الجَمـــالِ     فصار شجاعـــــا فَطُـــــوِّقْتَ بِهْ

ومن ذلك أيضا :

ما زال ينتـــف ريحانـــا بعـــــارضه     حتى استطـــال عليـــه صار يحلقُـــهُ
كأنمـــــا طُورُ سينـــــا فوق عارضه     مدى الزمـان فمـــوسى لا يفارقُـــهُ [37]

وما لبعضهم، وهو ابن جُزَي الكلبي [38] من قصيدة :

ولمـا التَحى من كنت أشقى بحبــه     وأصبــح مثلي سيء الظَّـــن والبـــال
وقـــفت عليـــه كالمضلَّـــــل منشدا     « ألا عِمْ صباحا أيها الطلل البالي » [39]

[ فقلت : أجر................[40] أبو عبادة البحتري أول شعر قاله :

---

(34) الطلا : بضم الطاء، الأعناق.
(35) انظر الأبيات عند أحمد الشريشي، **شرح مقامات الحريري**، 4 : 197، وقد نسبهما لأبي إسحاق الطليطلي.
(36) انظر عن التوليد ابن حجة الحموي، **خزانة الأدب**، 358 — 361.
(37) انظر البيتين عند ابن حجة الحموي، **ثمرات الأوراق**، 2 : 225، وم. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 16.
(38) انظر ترجمته عند أ. المقري، **أزهار الرياض**، 3 : 184، وأ. بابا، **نيل**، ص 238، وم. الكتاني، **سلوة**، 3 : 222، وع. الحي الكتاني، **فهرس الفهارس**، 1 : 224 — 225، وم. بن مخلوف، **شجرة**، ص 213 رقم 746، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 6 : 221.
(39) في البيت الثاني تضمين، إذ ضمنه قول الشاعر :

ألا عم صباحا أيها الطلل البالـــي     وهل يعمن من كان في العصر الخالي

انظر **ديوان امرىء القيس**، ص 27.
(40) بياض بالأصل.

نبـــتت لحيـــــة شقـــــــرا    نَ شقيـــقِ النـــفس بَعْـــدِي
حُلِـــقَتْ، كيـــف أتتــــه    قبـــل أن يُنْجـــز وعـــدي [41]

أبو عبادة، اسمه الوليد بن عبيد، ولد بمنبج [42]، ونشأ بها، ثم خرج إلى العراق، ومدح جماعة من الخلفاء أولهم المتوكل وخلق من الأكابر، ولد سنة مائتين وقيل ست ومائتين [43]، وكان شاعرا فصيحا، الا الهجاء، فان بضاعته فيه فيها ندرة، وكان يعرض على أبي تمام شعره.

قال البحتري : كنت أتعشق غلاما من أهل منبج يقال له شقران، واتفق لي سفر فخرجت وأطلت الغيبة، ثم عدت وقد التحى، فقلت فيه، وكان أول شعر قلته : نبتت إلى آخره........

ولأبي عبادة ولد اسمه أبو الغوث.

قال الحسين بن إسماعيل المَحَامِلي [44] : أنشدني البحتري :

إذا المـــرء لم يرض ما أمكنَـــهُ    ولـــم يأت من أمـــره أزينَـــهُ
وأُعْجِبَ بالعُـــجْبِ فاقتـــادَهُ    وتـــاهَ به التيـــه فاستحسنَـــهُ
فَدَعْـــهُ فقـــد ساء تدبيـــرُه    سيضحك يومـــا ويبكـــي سنَـــهْ [45]

وله في بعض الأمراء :

أنَّ الأميـــر أطـــال اللـــه مدّتـــه    يُعْطي من العُرْف ما لم يُعْطِـهِ أَحَدُ
ينسى الـذي كان من معروفـه أبـدا    إلى الرجال ولا ينسى الـذي يعد [46]

وقد كان مدحه بقصيدة فتوانى الأمير في قصة، فلما أنشده هذين البيتين أعطاه خمسين ألف درهم، وقال : إن هذين البيتين خير من القصيدة التي امتدحتني بها. مات

(41) انظر **ديوان البحتري**، 2 : 427.
(42) منبج : مدينة بالشام قرب حلب بسوريا، انظر ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، 5 : 205 — 207، **والروض المعطار**، 547.
(43) 206 هـ توافق 821 م.
(44) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**،5 : 251، والمصادر بالهامش.
(45) انظر الأبيات عند الاسحاقي، **لطائف أخبار الأول**.
(46) انظر البيتين عند أحمد الشريشي، **شرح مقامات الحريري**، 1 : 44 — 45.

البحتري سنة ثلاث، وقيل أربع، وقيل خمس وثمانين ومائتين..................[47] ومن ذلك ما للحاجري :

ما زال يحلف لي بكل وثيقةٍ ألّا يزال مدى الزمان مصاحبي
لَمّا جفا نزل العذار بخدّه فتعجبوا لسواد وجه الكاذبِ [48]

وما ان ذكرنا العذار، وما للناس في حسنه وذمه، ذكرنا أيضا ما قيل في السواد.

ولبعضهم في أسود يسبح في بركة :

يا أسودا يسبح في بركة فقت الورى حسنا وإحسانا
كنت لخدّ الحسن خالا وقد صرت لعين الحسن إنسانا

ولابن خفاجة [49] :

وأسود يسبح في لجَّة لا تُكْتَمُ الحصباءَ غدرانُها
كأنها في شكلها مقلةٌ زرقاء والأسود إنسانُها [50]

ولنجم الدين المنجنيقي [51] :

وجارية من بنات الحُبوش ذواتِ جفونٍ صحاح مِراض
تعشقتها للتصابي فَشِبْتُ غراما ولم أك بالشيب راض
وكنت أُعَيِّرها بالسواد فصارت تُعيرني بالبياض

---

(47) بياض بالأصل.
و 285 هـ توافق 898 م / 899 م.
(48) انظر البيتين عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 3 : 501، وم. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 16.
(49) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، وفيات الأعيان، 1 : 56 — 57، والمصادر بالهامش 17 من الصفحة 56 من نفس المصدر.
(50) انظر **ديوان ابن خفاجة**، ص 264.
(51) انظر ترجمته عند أ. خلكان، **وفيات الأعيان**، 7 : 35 — 46، والمصادر بالهامش 832 من الصفحة 35 من نفس المصدر.

ولأحمد بن أبي بكر الكاتب :

**يا من فؤاديَ فيــــــه مُتيمـــــــا لا يزالُ**
**إن كان لليــــــل بدرٌ فأنت للصبـــــح خالُ ]** (52)

وأنشدني بها أيضا لابن الحكيم سنة اثنتين وتسعين (53) :

**أهــدي إليــه بنفسجــا يَشْتَمُّــهُ فكأنــه عمــدا دعــا للنــفس جي**
**ما كان ألطفــــه بروح محبـــه إِذْ سلَّهـا منــه بغيــر تحــرُّجِ**

أنشدني لأبي فراس الحمداني :

**وبـيضٍ بألحــاظ العيــون كأنمــا هَزَزْنَ سيوفــا واستللــن خناجــرا**
**تصدين لي يومــا بمنعــرج اللِّــوى فغــادرن قلبــي للتصبــر غادرا**
**« سَفَـرْنَ بدورا وَانْتَقَبْــنَ أَهِلَّــةً ومسنَ غصونا والتفتــنَ جآذرا »** (54)

وما لجلال الدين بن خطيب [داريا] (55) :

**شَهِـدَتْ جفـونُ معذبــي بملالــة منــــي وأن وداده تكليــــفُ**
**لكننــي لم أنــأ عنــه لأنــه خَبَــرٌ رَواهُ الجفـــن وهـــو ضعيـــفُ**

---

(52) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».
(53) 992 هـ توافق 1584 م / 1585 م.
(54) لا توجد الأبيات في **ديوان أبي فراس** المطبوع، ولكنها توجد بنفس النسبة عند م. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 17. وقد نسب أحمد الشريشي في **شرح مقامات الحريري**، 2 : 231، البيت الثالث للراهي.
(55) بالأصل جمال الدين بن خطيب، وهو تصحيف، والتصويب من **خزانة الأدب** لابن حجة الحموي، ص 334، والبيتان مثبتان هناك، وانظر أيضا م. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 18.
وانظر ترجمة جلال الدين بن خطيب داريا عند شمس الدين السخاوي، **الضوء اللامع**، 6 : 310، وج السيوطي، **بغية الوعاة**، 1 : 25 رقم 39. و خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 6 : 227.

وما لأبي صفوان :

أخو دَنَفٍ رمته فأقصدتْهُ سهامٌ من جفونك لا تطيشُ
أصبن فؤاد مهجته فأضحى سقيماً لا يموت ولا يعيش
كئيب أنْ تَرَحَّلَ عنه جيشٌ من البلوى أناخ به جيوشُ (56)

وما للقيراطي (57) :

بأبي أهيفُ المعاطف لَدْنٌ حسدَ الأسمرُ المثقفُ قَدَّهْ
ذو جفون مذرمت منها كلا ما كَلَّمتني سيوفهنَّ بِحدَّهْ

وما لابن الصائغ (58) :

لِسَلْمَى من لواحظها سهامٌ لها في القلب فتكٌ أي فتكِ
إذا رامت تَشُكُّ به فؤاداً يموت المستهام بغير شَكِّ

---

(56) انظر الأبيات عند م. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 17.

(57) هو إبراهيم بن عبد الله الطائي (ت 781 هـ / 1379 م)، الشاعر، القاهري، جمع بين الفقه والأدب، وله ديوان شعر سماه : **مطلع النيرين**.
انظر ترجمته عند ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، 6 : 269 — 270، وأ. المقري، **نفح**، 2 : 396، 252، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 1 : 43.
وانظر البيتين عند م. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 17.

(58) هو : أبو بكر محمد بن يحيى المعروف بابن الصائغ التجيبي الأندلسي (توفي سنة 533 هـ / 1138 م). انظر المزيد من التفاصيل في المصادر التالية :
ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، 1 : 62، والقفطي، **أخبار العلماء**، 265، وابن خاقان، **قلائد العقيان**، 312، وابن خلكان، **وفيات الأعيان**، 4 : 429 — 431 رقم 670، والمقري، **نفح**، 7 : 17، 27 — 30، وابن العماد **شذرات**، 4 : 103، والصفدي، **الوافي بالوفيات**، 2 : 240، وابن سعيد، **المغرب**، 119، والمراكشي **المعجب**، 239، وابن خلدون، **العبر**، 548، وابن القاضي **جذوة**، 1 : 256 — 257، والكتاني، **سلوة الأنفاس**، 3 : 262، والعباس بن إبراهيم، **الاعلام**، 4 : 77.
ومن الدراسات الحديثة انظر :
فوقية حسين محمود، ابن باجة في تدبير المتوحد، مقال بمجلة **دار الحديث الحسنية**، العدد الأول (1399 / 1979)،
ص 295 — 349.
وانظر البيتين عند م. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 18.

وما لبعضهم :

عيناك أمكنت الشيطان من خَلَدي | إن العيون لأعوان الشياطين
كم ليلة بِتُّ مطويا على حُرَقٍ | أشكو إلى النجم حتى كاد يشكوني

وما للصفدى :

يا عاذلي في هوى عيني بجفوته | وسِحْر ناظرها فالسحر فيه خفي
وَدَعْ فؤادي ودعه نصبَ مقلتها | لا تَرْمِ نفسك بين السَّهْمِ والهدف (59)

وله أيضا :

بدوي كم حدثت مقلتاه | عاشقا عن مَقاتل الفرسانِ

وما لابن المعتز (60) :

وردُ الخدود ونرجس اللحظات | وتصافُحُ الشفتين في الخلوات
شيءٌ أُسَرُّ به وأعلم أنه | وحياةِ من أهوى من اللذات (61)

وأنشدني ابن الحكيم أيضا :

ووردِيّ خدٍّ، نرجسِيّ لواحظٍ | مشايخ علم السحر عن لحظه رووا

---

(59) انظر البيتين عند م. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 18.
وقد وردا هكذا :

**ياعاذلي على عين محجبة | خف سحر ناظرها فالسحر فيه خفى**
**وخذ فؤادي ودعه نصب مقلتها | لا ترم نفسك بين السهم والهدف**

(60) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 3 : 76 — 80، والمصادر بالهامش 341 من الصفحة 76 من نفس المصدر.

(61) البيتان لا يوجدان في **ديوان ابن المعتز**، وقد وردا بدون نسبة عند م. الابشيهي في **المستطرف**، 2 : 19.

وواواتُ صدغيــه حكيــن عقاربـــا | من المسك فوق الجُلنار قد التــووا
ووجنتــه الحمــرا تلــوح كجمــرة | عليهـا قلوب العاشقيــن قد انكــووا
وودّي له باقٍ ولست بسامــــع | لقــول عذول والحــــواسد ان غووا
وواللـــه لا أنساه لو صرت رِمَّــة | وكيف وأحشائي على حبه انطووا (62)

وما لبعضهم، وهو الصاحب بن عباد (63) :

أيـــا قمـــراً تبسم عن أقـــاح | ويـــا غصنـــا يميـــل مع الريـــاح
جَبِيـــنُكَ والمُقَلَّـــدُ والثنايـــا | صبـــاح في صبـــاح في صبـــاح (64)

وما لبعضهم :

أنفـــقتُ كنـــز مدامعـــي في ثغـــره | وجمـــعت فيـــه كل معنـــى شارد
وطلـــبت منـــه جزاء ذلك قبلـــةً | فأبـــى وراح تغزلـــي في البـــارد (65)

وما لبعضهم :

نقـــل الأراك بأن ريقـــةَ ثغـــره | من قهـــوة مُزجت بمـــاء الكوثـــر
قد صح ما نقـــل الأراكُ لأنـــه | يرويه نصا عن (صحاح الجوهر) (ي) (66)

وما لبعضهم :

ومهفهـــفٍ يُغْنـــي النديـــمَ بوجهـــه | عن كأسه المـــلأى وعـــن إبريقِـــهِ

---

(62) الأبيات لبرهان الدين القيراطي، انظر م. الابشيهي، المصدر السابق، 2 : 198 — 199.
(63) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 1 : 228 — 233 رقم 96، وج. السيوطي، **بغية الوعاة**، 1 : 449 — 451 رقم 918، وانظر أيضا محمد آل ياسين مقدمة **ديوان الصاحب بن عباد**.
(64) البيتان لا يوجدان في **الديوان**، وقد وردا بدون نسبة عند م. الأبشيهي في **المستطرف**، 2 : 17.
(65) نسبهما كمال الدين الدميري في **حياة الحيوان الكبرى**، 1 : 156، لابن لؤلؤ. وانظر أيضا م. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 19.
(66) نسبهما الابشيهي في **المستطرف**، 2 : 19، للصفدي.

فِعْلُ المدامِ ولونُها ومذاقُها في مقلتيه ووجنتيه وريقِهِ [67]

وما لبعضهم :

صبحُ الجبين وليلُ شعرك ذاوذا ما البدرُ عند كماله ما الغيهَبُ
ملأت محاسنك القلوبَ محبةً فسعت إليك وعنك ليست تذهب

وما للخفاجي إبراهيم الأندلسي، المتوفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة [68]، [ وهو إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الهواري من أهل جزيرة شقر ] [69]، مولده إحدى وخمسين وأربعمائة [70] :

أهلا بساحرة الجفون وقد أتت لزيارة تمشي على استحياءِ
خافت عيون وشاتها فتلفّعَتْ حَذَرَ الرقيب ببردة الظلماء
وافتك بين لِداتِها فكأنها قمر وهن كواكب الجوزاء [71]

---

(67) البيتان لابن حيّوس من قصيدة مكونة من 53 بيتا، يمدح فيها نصر بن محمود بن صالح، مطلعها :

أرقدت عن قلق الفؤاد مشوقة فأمرت بالسلوان غير مطيقة

انظر **ديوان ابن حيوس**، 2 : 409.

(68) 533 هـ توافق 1138 م / 1139 م.

(69) جزيرة شقر : من أعمال بلنسية، إحدى عواصم الأندلس، وليست شقر جزيرة في البحر وإنما هي بليدة بين شاطبة وبلنسية، وقيل لها جزيرة لاحاطة الماء بها بفعل وقوعها على نهر شقر Jucar. وقد كانت من أجمل البقاع بتلك المنطقة. وكانت تسمى أحيانا بالجزيرة فقط، وهو الاسم الذي استعير فيما بعد لبلدة Alcira الاسبانية الواقعة على نهر شقر على مقربة من الجزيرة المذكورة. وكانت جزيرة شقر موطن كثير من العلماء والأدباء.

انظر ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، 3 : 354 ـــ 355، ولسان الدين بن الخطيب، **الاحاطة**، 1 : 179، هامش 6.

**ملاحظة :**

ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».

(70) 451 هـ توافق 1059 م / 1060 م.

(71) الأبيات لا توجد في **ديوان ابن خفاجة**.

وما لبعضهم :

ومريضِ جفنٍ ليس يصرف طرفَهُ نحو امرىء الا رماه بحتفه
قد قلت إذا أبصرته متمايلا والردفُ يجذبُ خصْرَهُ من خلْفِهِ
يا من يُسَلِّمُ خصره من ردفه سلم فؤادَ محبه من طرفه [72]

وما لأبي جعفر أحمد بن علي بن خاتمة [73]، توفي سنة ست وسبعين وسبعمائة [74] :

ومُحَكَّمِ اللحظات في مُهَج الورى تحكيم نار هواه بين جوانح
جرح الفؤاد فطار من وَلَعٍ به كيف الخلاصُ لطائر من جارحِ [75]

وله أيضا :

مَنْ شافعٌ لي عند مالك مهجتي مالي سوى حُبي وليس بنافع
فمن المحقق أن مذهب مالك لا تستقيم لديه حجة شافع (ي)

وله أيضا :

ومن طاعتي إياه أمْرَضَ ناظري له حين يبدو من ثناياه لي بَرْقا
كأن دموعي تبصر الوصل هاربا فمن أجل ذا تجري لتدركه سَبْقا

وله أيضا :

ومخطوطةِ المتنين مهضومة الحشا منعَّمة الأرداف تدْمَى من الَّلمس

---

(72) انظر الأبيات عند م. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 17.
(73) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **لقط الفرائد**، ص 214، وم. بن مخلوف، **شجرة**، 1 : 229 رقم 823، وإسماعيل البغدادي، **هدية العارفين**، 1 : 113، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 1 : 171 — 172.
**هدية العارفين**، 1 : 113، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 1 : 171 — 172.
(74) 770 هـ توافق 1368 م / 1369 م.
(75) البيتان لا يوجدان في **ديوان ابن خاتمة**.

إذا ما دخان النـدّ من خدهـــا علا على وجهها أبصرت غَيْماً على شمس

وما لعز الدين الموصلي (76) :

لهــا عيـــنٌ، لهــــا غزوٌ وغــــزلٌ مكحلـــةٌ ولـــي عيـــن تبــــاكث
وحـــاكت في فعائلهـــا المـــواضي فيـــالك مقلـــة غزلت وحــــاكت

[ وما لعبد العزيز الحموي :

رَشـــــأٌ من آل يَـافِـــثْ لحظـــــه للسحـــــر نَافِثْ
مالــــــه في الـــحسن ثانِ فهــــو للبدريـــــن ثالث
يخـــيء السيـــر إلـــى ثا ء المثانــــــي والمثـــالث
قلت : عدنـــــــي بوصال قال : دع هذي الوثـــاوث ] (77)

وما لابن سودون :

عَبِثَ الشرابُ بطرفِهـــا النّعـــاس فتمايـــلت بقَوامهـــا المَيَّـــاسِ
صَدَمَتْ فؤاداً كاد يكسر بالهـــوى جبرتـــه صدمتهـــا بعـــود الآس

وله أيضا :

من الأتـــراكِ أقمـــارٌ تلـــوحُ فؤادي من محبتهـــم جريـــحُ
خدودهـــمُ تحاكـــي الـــورد حسنـــا روائحهـــا كتفـــاح يفـــوح
هم الأحبـــاب لا أهـــوى سواهـــم وروحـــي عندهـــم أبـــدا تروح
لقـــد جرحت عيونهـــم فؤادي وَهَيَّمَنـــي لهـــم وجـــه صبيـــح
فقلبـــي من صدودهـــمُ كسيـــرٌ وحبـــي في وصالهـــم صحيـــح
وإن هم أحسنـــوا أو قد أساءوا جميـــعُ فِعالهـــم عنـــدي مليـــح

---

(76) انظر ترجمته عند خ.الدين الزركلي، **الاعلام**، 5 : 91، والمصادر بالهامش 3، وانظر البيتين عند م. الابشيهي في **المستطرف**، 2 : 17.
(77) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».

وكـم أخفـيت حبهـم ولكـن ... دموعي بالـذي أخفـي تبـوح (78)

وما لجلال الدين المحلي (79) :

لم تتـرك الأتـراك بعـد جمالهـا ... حُسْنـاً لمخلـوق سواهـا يلحـق
جَذَبُـوا الـقِسِيَّ ألى قِسِيِّ حواجب ... من تحتهـا نَبْـلُ اللواحـظ تَرْشق
نشروا الشعـور بكـل قَدّ منهـمُ ... لَدْنٍ عليـه من الذُّؤابَـةِ سنجـق
لي منهـم رشأ إذا قاربتُـهُ ... كادت لواحظـه بسحـر تنطـق
إن شاء يلقانـي بخُلْـقٍ واسع ... عنـد السلام نهـاه طرف ضيـق

[والأعين الضيقة تنسب للأتراك.

وللصفدى في ضيق العين :

يا شادِنا أبدا أرى نفسي به ... دون البرية لا تفارق شَيِّقَـهْ
واللهِ ما اتسعت همومي في الدُّجى ... حتى بُلِيتُ بمقلتيك الضَّيِّقهْ] (80)

وما لبعضهم :

لا واخـذَ اللـه بَنْـدَك ... فقـد وَشَى بِيَ عنـدَك
وقـال عنـي بأني ... شبهت بالـغصن قدَّك
وأنت تَعْظُـمُ عنـدي ... أن يمسي البـدر عبـدك
ولست واللـه أرضى ... أن يحكـم الـورد خدَّك
فقاتـل اللـه طرفي ... فكـم به نلت قصدك

---

(78) انظر الأبيات عند ابن سودون، **نزهة النفوس**، ورقة 32 ظ.

(79) هو : محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد، ولد بالقاهرة سنة 791 هـ، شافعي، أصولي، متكلم، له عدة تآليف منها : **شرح جمع الجوامع**، وشرح المنهاج، **والورقات في الأصول**، وتفسير القرآن. وقد توفي سنة 864 هـ / 1459 م.
انظر ترجمته عند شمس الدين السخاوي، **الضوء اللامع**، 7 : 39 — 41 رقم 82، وأحمد بن القاضي، **درة**، 2 : 244 رقم 711.

(80) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».

ولا رعى الله قلبي فكم رعى لك عهدك
وما عشقتك وحدي بلى عشقتك وحدك
وكم أطعتك جهدي وكم تجنيت جهدك
وبعد هذا وهذا وذاك لا ذقت فقدك (81)

وما لبعضهم :

يا ليل دم لي لا أريد صباحا حسبي بذكر مُعانقي مِصْباحا
حسبي به نورا وحسبي ريقه خمرا وحسبي خدّة تفاحا
طوقته طوق العناق بساعدي وجعلت كفي للشام وِشاحا
هذا هو اليوم السعيد فخلّنا متعانقين فما نريد براحا (82)

قلت : والناس في شأن الليل أحوالهم مختلفة، فمنهم من يريد طوله ومنهم من يريد قصره. ولنرجع إلى ما كنا بصدده.

فمن مآثر الظاهرة، ومحاسنه الطاهرة، ما شاع من صدقاته في الامصار والأقطار، فمن ذلك أنه في كل ليلة موسم كالعيدين، والميلاد النبوي، وعاشوراء المحرم، والأشهر الثلاثة من رجب، وشعبان، ورمضان، بل في كل وقت من السنة، يصرف في ذلك من الأموال مالا يمكن أن يحصى، ولا يستطاع أن يستقصى، ومن دأبه في كل أربعة أشهر يخرج بستة آلاف أوقية (ذهبا) للضعفاء والمساكين، ليرفع بذلك الفقر عن فقراء مصره، ومحتاجي عصره. ومن صدقاته أيضا إخراجه الكثير من الأسرى في كل وقت من أقطار بلاد الكفرة وجزيرة الأندلس وغيرها.

وما جاء معتف من المسلمين أو من اليهود الذين تحت ذمته قط يطلب أسيرا نصرانيا عوضا عن المسلم الأسير الا ويبدو له عن طيب نفس، باسم الثغر، قاصدا به الأجر، وكثيرا ما أبدل من الأسارى والأموال في هذا المعنى قصدا به الدار الآخرة، والقربات الفاخرة، وكثيرا ما يقول في مجالسه : « أيما عانٍ تعذرت عليه حاجة في أسير أو غيره فليأتنا لنقيضيها له ». حدثني بهذا غير واحد ممن أثق به. ولقد أخرج يهوديا (83) من الأسر من جزيرة مالطا بمال، إذ طلب منه — أيده الله تعالى — ذلك ومصداق ذلك ظاهر للعيان، ويشهد به العامة والخاصة الأعيان.

---

(81) الأبيات لمحيي الدين بن عبد الظاهر، انظر **فوات الوفيات**، 2 : 186.
(82) انظر الأبيات عند م. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 25.
(83) تمتع اليهود في عهد أحمد المنصور بحريات كبيرة، فكان منهم السفراء إلى أوروبا والممثلين في الصفقات =

فمن مآثره الحسنة ومفاخره المستحسنة ما اتفق لي معه من إخراجه إياي من الأسر، حيث أسرت في حال رحلتي لمصر لأجل طلب العلم الشريف بعد أن استشرته ــ أيده الله تعالى ــ لي ذلك وأذن لي، فسافرت في البحر متوجها للمقصود، فكان ما كان من أمر الله المعبود، في يوم الخميس الرابع عشر من شعبان سنة أربع وتسعين [84]، فبعد ذلك لجأت إلى الله وتوكلت عليه، وعلمت أن سبب خلاصي لا يكون إلا على يديه، لما تحصل عندي من عظيم فضله، وكريم أصله، فكاتبته بأبيات حضرتني، وهي :

**تجَلَّتْ عن العاني الأسير المكبل ... همومٌ سرت في الجسم في كل مفصلِ**

**بذكر الامام الهاشمي الذي سما ... بسيمة خير الخلق في كل مَحْفِلِ**

**امام العلا المنصور فخرُ أئمة ... به قد تحلَّى كل جيد معطل**

**[ به راق وجهُ الأرض وافتر ثغرُه ... وحُلي جيدٌ منه بالدر والحُلي ] [85]**

**امــام همام همه طول هِمَّــةٍ ... ظُبَى ماله غير المعالي بصَيْقَلِ**

**[ فكم تضحك الخيرات في بطن كفه ... ويبكي دماء كل رمح وَمُنْصُلِ] [86]**

---

= التجارية الكبرى، هذا إلى جانب الحريات الدينية التي جعلتهم يقيمون شعائرهم وطقوسهم في أمان داخل البلاد وقد حملت إليهم مرة باخرة انجليزية في جملة ما حملت من بضائع 26 صندوق مملوء بنسخ التوراة، وعرف عن أحمد المنصور أنه كان يفدي أسرى المسلمين واليهود من رعاياه بالمال أو بالمبادلة بالمسيحيين أسرى وادي المخازن. لكن العلماء كانوا ينتقدون أحمد المنصور في سماحة لليهود بالاتصال ببلاطه، ونذكر على سبيل المثال أن عبد الله بن علي بن طاهر عندما زاره ورأى يهوديا يركب في موكب فخم إلى القصر الملكي غضب غضبا شديدا وما زال يسعى في قتله لدى المنصور حتى أقنعه. ولم يقتصر الأمر على اليهود بل حتى على العلماء الذين لهم أصل يهودي ولو تعدد أجدادهم المسلمون، فهؤلاء لا يولون المناصب الشرعية السامية كالقضاء والفتيا والامامة والخطابة مهما علا كعبهم في ميدان العلم، مثل أحمد المنجور ــ أستاذ المنصور ــ الذي لم يكن يطمع قط في غير تولي كراسي التدريس بالقرويين، على ما كان له من شفوف في الدولة، وهكذا فقد قدمه تلميذه يوما للصلاة، فلما أراد أن يدخل المحراب منعه القاضي الحميدي، فقال له السلطان : « دعه فقد قدمه علمه »، فقال الحميدي « إن قدمه علمه فقد أخره نسبه ».

انظر في هذا الصدد.

ــ م. الافراني، **نزهة**، ص 173.

ــ و ع. المدغري، **فتح القدوس**، الباب الثاني.

ــ ومحمد حجي، **الحركة**، 1 : 270 ــ 274.

— H. de Castries, Sources, France, Angleterre et Pays-Bas, 1ères séries. Par exemple, France, 3 : 300, 5 : 128: Angleterre, 1 : 44.

(84) يوم الخميس 14 شعبان سنة 994 هـ يوافق 31 يوليوز 1586 م.

(85) ما بين المعقوفين سقط من « م » وكذلك من **درة الحجال**، 1 : 26.

(86) ما بين المعقوفين سقط من **درة الحجال**، 1 : 26.

والمنصل : السيف.

وكم جاوز الغايات حتى لوانه | أراد الثريا أمَّهَا في التنزُّل
قَمُرٌ الليالي من سناه توقدت | ضياء بنور للخلافة مُشْعَل
زكيٌّ زهيٌّ للسماح سماؤه | جناح لنَسْر النصر في كل حَجْفَلِ
أمام الهدى بحر الندى قَسْوَرُ [87] الردى | إلى المعتفي والفاجر المتضلِّل
بحق الذي أولاك ملكا فنجني | من المِلْك [88] يا قصد الأسير المكبل
وكن يا إمام العدل في عون خائر | أسير كسير ذي جناح مذلل
لقد قرفت أيدي الزمان وريده | ودارت عليه الدائرات كجُلْجُلِ
وأخنى عليه الدهر من كل وجهة | وداست عليه النائبات بأرجل
فعافاك رب العرش يا ملك العُلا | ودمت إماما في علاء مزمَّلِ
ولا زلت حجٌّ المعتفين وكعبة | مطافا لأهل الفضل في كل محفل

فما بلغت ليده إلا بعد تكفل همته العلية بإخراجي، لأنه ـــ أيده الله تعالى ـــ كان قد كتب في شأني لقواد الثغور أن يبحثوا عني، وفي أي موضع مستقري، من بلاد الكفرة ـــ أذلهم الله تعالى ـــ.

فانظر إلى همته العلية، ونجدته الهاشمية.

هكذا هكذا والا فلالا [89].

هذا هو شأنه في خدمته ومحبيه ـــ أبقى الله وجوده، وأدام سعوده ـــ. ولو تتبعت ما فعل بالكفرة من التضييق عليهم بسبب مسألتي لما وسع ذلك هذه العجالة، وقد أخرجني في السابع عشر من رجب سنة خمس وتسعين [90]، واستقام عليه فدائي بما يعادل عشرين ألف أوقية

---

(87) القسور : الأسد، يريد به البطل.
(88) في درة الحجال، 1 : 26 : الملك.
(89) عجز بيت للمتنبي، هذا صدره :
ذي المعالي فليعلون من تعالى
انظر **ديوان المتنبي**، 3 : 254.
وقد ورد في « ج » هكذا :

**هكذا هكذا تكون المعالي | طرق الجد غير طرق المزاح**

**ملاحظة :**

يتكرر ذكر البيت بهذا الشكل في كثير من المصادر المغربية مثل **فهرس** ابن غازي، **ومحاضرات** اليوسي، **وأزهار** المقري.
(90) 17 رجب من سنة 995 هـ توافق 23 يونيو 1587 م.

(ذهبا)، وفرج عني كربتي — فرج الله كربته يوم القيامة —، لما رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من كشف عن أخيه كربة من كرب الدنيا، كشف الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » [91]، والله تعالى في عون العبد المومن ما دام العبد في عون أخيه.

حكي عن الكلاباذي [92] — رحمه الله — أنه قال : رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت والحق — سبحانه تعالى — ناقشني في الحساب، ووقعت في كرب عظيم، وإذا رجل فلاح كان في جواري قد طالبه أرباب الديون بواجب لهم عليه، ولا شيء معه يقضي منه، فأديت عنه ذلك الدين، ثم انصرف وهو يقول : فرج الله عنك كما فرجت عني، فرأيته واقفا بين يدي الله وهو يقول : إلاهي ! إلاهي ! إن عبدك هذا فرج عني كربة من كرب الدنيا، فقال الله عز وجل : إني قد فرجت عنه لشفقتك عليه. صدق رسول الله وصدقت، وبلغت للحضرة العلية — مراكش — في يوم الاثنين من شعبان من عام تاريخه [93]، وقمت بين يديه بقصيدة نونية، مطلعها :

**من العَقيــقِ عقيــق العيــن هتَّــانُ — سَلْ عنه سَلْعاً فما يغنيك نعمــانُ**
**كأنــه عَنْــدَمٌ أو عَنْ دَمٍ قد جَرَى — ماءُ المحاجــر إذ تُجْريــه أجفــانُ**
**أظــلُّ والحـــزنُ كاس كاسر عَسِرُ — والقــلبُ منيتــه الــوَغْسَا وعُسْفَــانُ**
**والجسم في تَلَفٍ والقلب في كَلَفٍ — والنفس في سَرَف والعقل [94] حيرانُ**
**لم يُولَمِ الطرف ان سَحَّتْ سحائبُـهُ — ولا الفــؤاد إذا حلتـــه أحـــزانُ**
**من وجد نجدٍ وقَرْنٍ والقُدَيْدِ [95] ومن — تهامة وإلى الْلحَا [96] جيــران [97]**
**مَنْ لي بظبي عزيــز الجــارذي كرم — غزيــر حُسْنٍ له بالــمسك خِيــلانُ**

---

(91) أخرجه مسلم في **الصحيح**، 8 : 18، والبخاري في **الصحيح**، 3 : 98، عن عبد الله بن عمر، وكلاهما باختلاف يسير في اللفظ.

(92) لعله يقصد محمد بن إبراهيم الكلاباذي البخاري، المتوفى سنة 380 هـ / 990 م، صاحب كتاب **التعرف، لمذهب أهل التصوف**.
انظر ترجمته عند حاجي خليفة، **كشف**، ص 225، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 6 : 184.

(93) يوم الاثنين 8 شعبان 995 هـ توافق 14 يوليوز 1587 م.

(94) عند أ. المقري، **روضة الآس**، ص 240 : القلب.

(95) القديد : عند البكري في **معجم ما استعجم**، بضم أوله على لفظ التصغير، قرية جامعة كثيرة المياه والبساتين، سميت بذلك لتقدد السيول بها، وانظر أيضا **الروض المعطار**، 454.

(96) اللحا : عند البكرى في **معجم ما استعجم**، بكسر أوله، ممدود على وزن فعال، موضع مذكور، محدد في رسم زرود.

(97) ورد البيت عند أ. المقري في **روضة الآس**، ص 240 هكذا :
**من وجد نجد وحزوا والقديد ومن — تهامــة وإلــى للحـــى جيـــران**

مهفهفٍ أدعجٍ، أما النظير فلا ... نظيرَ يشبهُهُ في الحسن كِيوَانُ

ما زِلتَ يا أملي جسرا إلى ألمي ... ما همتُ أو رَنَّحَتْ في البان قِيانُ

ففتك لَحْظِكَ لي باسم ابن ذي يَزَنٍ ... وكيف لا وهُوَ للنسرين صنوان

إن طال وَجْدي فآمالي به قَصُرَتْ ... وان ناي مطلب فالصبر أوطان

شربت راح الهوى من كأس مَبْسِمِهِ ... فها أنامن رحيق الثغر سكران

ريقٌ وخالٌ وخد والعذار به ... خمر ومسك وكافور وريحان

فاعذب وعذِّبْ وجر وارض وصُدَّ وصُلْ ... واهجروته أنت للبدرين خرثان (كذا)

مِلْ أين شئت فما قصدي سواك ولا ... أسلو هواك ولا للقلب سلوان

وعادلٍ رام بالاحسان يخدعني ... فطال ما خدع الانسان إحسان

عدمت نصحك لي ان بالصلاح أتى ... فكيف لي وهو في التحقيق خسران

فرطت يا نفس أطلعت العدو على ... سري أمالك للأسرار كتمان ؟

أعانت النفس أعدائي على تَلَفي ... فهاهم لصروف الدهر أعوان

يا عجبا قدمي عمداً أراق دمي (98) ... وليس لعهود الألف خفران

محضتني النصح إشفاقا على بدني ... ياليت لو كان دون النصح فقدان

فأنت عنديَ كالأسرار في خلدي ... أخص كل الورى في النصح يقظان

من أشرف الناس لم تغل نفوسهم ... وهم أسود لحمل الضيم هصران (كذا)

حسبي بِذكرك بين الناس منقصةً ... فذكر مثلك في الاشراف نقصان

لو كان نصحك حقا ما انفعلت له ... وهبه حقا فما للقلب إذْعانُ

قالوا : صبرتَ عن الأحباب، قلت لهم ... صبرت للوجد أيام وحقبان

قالوا : اسْلُهُمْ، قلت قلبي لا يفارقهم ... قالو : اصطبر، قلت : صبري فيه رَوْغان

وإنني سوف أسلوهم إذا وَلَجَتْ ... سم الخياط ملاقيحٌ وَبُزْلَانُ

وكيف أسلو عن السكان في خَلَدي ... وهُمْ بصبحٍ ووادي النقع سُكَّانُ

من لي بهم وببَانِ الرقمتين وهل ... يبدو الحَجونُ وشِعْبُ الغور والبَانُ

وزمزم والصفا والحِجْرُ مُلْتَزَمٌ ... والبيت والركن والمسعى وعسفان

وهل أرى طيبة يوما ومسجدها ... وهل أمر بربع فيه ألفان

وهل أنوح على باب السلام إذا ... ما جئته بوقار الحمل عصيان

---

98) أخذه من قول الشاعر :

إلى حتفي سعى قدمي ... أرى قدمي أراق دمي

وهان دمي فها ندمي

أعفر الوجه إجلالا وتكرمة … في تربة لجنود الوحي ميدان

وهل أرى الكوكب الدري الذي خضعت … له الكواكب والأملاك أسدان

وهل أحيي (كذا) إلى المختار من مضر … وصاحبيه بقول فيه إعلان

أقول ياسيد الكونين يا أملي … ومن به للحصى والجذع ايمان

اشفع لعان أسير طالما جَمَحَتْ … به خيول الصبا طورا وأزمان

أنت الرسول الأمير السيف بدر هدى … هادٍ له من جنود الله أعوان

هو البشير الذي من نوره ظهرت … عوالم الله ألوان وأكوان

هو النذير السراج النور من شهدت … له بصدق وبالبرهان رهبان

محمد المجتبَى من خلق خالقه … محمد المصطفى للناس أمان

محمد المرتضى في الحشر أنْ حُشرتْ … صُحْفٌ، وعلق للتحقيق ميزان

محمد خير من فاه اللسان به … محمد خير من أَنْماهُ عدنان

صلى عليك الاه العرش ما طلعت … شمس وما ماس في البستان أفنان

لا تترك الصَّبَّ غاوٍ في غوايته … وفي عماه إذا ما ضلَّ عميان

لأن لي شغفا بالنور من مضر … ولي بآل رسول الله اعلان

لا سيما سبطه المنصور من شهدت … له المنابر والتأييد إيوان

هو الامام الهمام العضب بحر ندى … ذو لبدة من أسود الحرب يقظان

هو الحسام عدا العلياء صيقله … أيامه بنواصي الدهر تيجان

أمامُ حلم له الادسات (كذا) قد خلقت … لعدله دان دارين (99) وبغدان

كمسك دارين قد طابت سجيته … أو عنبر الشجر إن عمته أعكان

سهل إذا يمم العافون ساحته … صعب هزبر على الكفار غضبان

ليث عدا أنه من نسل فاطمةٍ … غيث عدا انه بالتبر هَتَّان

سَيْلٌ به راق وجه الأرض وابتسمت … وجيدها فيه ياقوت ومرجان

فكم بيمنته الخيرات قد ضحكت … وكم بكى الرمح والهيجاء نيران

هو الجناحُ لِنَسر النصر إن وقفت … عن ساقها الحرب والمقدام طَغَّان

ان أم عسكره أرضا وحل بها … شَدَّ النواحي وللاسلام بنيان

أبطاله وسجاياه وَمِنَّته … وحِلْمُهُ للورى رفق ورضوان

فبحر جودك لن يخزى مُلَجِّجُهُ … وخائضُ البحر قد يأتيه خزيان

أنقذتني من وثاق الأسر يا أملي … ومن هموم لها في الصدر بنيان

---

(99) دارين : موضع بالبحرين في الخليج العربي، يجلب إليه المسك من الهند وينسب إليها.

لا زلت ترْفُلُ في العلياء في حُلَــلٍ — بهــا من الــنصر والتأيـــد ألـــوان
ما دام ثغـــرك للعافيـــن مبتسمـــــا — وما هَمَى من جزيل البذل هتان (100)

وإنما ذكرتها مع ركاكة معانيها، وسوء ألفاظها ومبانيها، لقيامي بها بين يديه يوم وصولي للحضرة العلية حين خروجي من الأسر، لأن المقصود ذكر مآثره ومفاخره التي تكفلت بإخراجي من ربقة الأسر، لكن قد يتجاوز عنها لانشائها في حال الاسر، وللمقصد الذي ذكرنا، والله الموفق.

وقد ذكرت بنية لي ذات يوم، فقلت :

يا أُمَّ عزحـــان بينـــي عنكـــم — فتقطَّـــرَتْ لفراقكـــم أجفانـــي
أجرت دموعا، بل دماً، بل مهجـــةً — حَلَّتُهَـــا فتراكـــمت أحزانـــي
أجْرِي دمـــوعك للفـــراق وأسْعَـــدِي — فمصيبتي في الأهـل والأوطـــانِ (101)

ومن دأبه ــ أيده الله ــ اشتغالة بحوائج المستضعفين، وقرى الواردين، ومحادثة وزرائه وكتبته، فيما يعود نفعه على رعيته، هذا في يوم السبت أو الإثنين أو الأربعاء، ويحضر لكل من يحضر من حشمه وقواده في هذه الأيام موائد من ألوان الطعام على اختلافها.

وأما يوم الأحد والخميس فيجتمع فيهما بخواصه في رياض المسرة، والبديع (102) الذي أنشأه وشاد بناءه، إلا أنه لا يضبطه وصف الواصفين، ويبهر من حسنه عقول العارفين، على ما أذكره فيما يأتي لما يصلح برعيته، وقد يشتغل بالتوقيع على الرقاع المعدة لقضاء حوائج المسلمين.

---

(100) انظر القصيدة عند أ. المقري، **روضة**، 240 ــ 243.

(101) انظر الأبيات عند أ. المقري، **روضة**، 243.

(102) يعتبر قصر البديع أهم أثر معماري على الاطلاق في العصر السعدي، وقد أفاض المعاصرون له في وصفه وأعجبوا به، يدل على ذلك الصفحات التي خصصها له الفشتالي في **مناهل الصفا**، وابن القاضي في **المنتقى**، وقد امتد بناء قصر البديع طيلة 16 سنة بدون توقف من 986 هـ إلى 1002 هـ / 1578 ــ 1594، وشارك في بنائه صناع من أوربا خصوصا من إيطاليا، لكنه خرب من طرف السلطان العلوي مولاي إسماعيل سنة 1119 هـ / 1710 م، لأسباب وصفها الافراني في نزهة الحادي بأنه يطول شرحها، ولكنه لم يشرح منها ولا واحدا. وهكذا لو قدر لقصر البديع أن يعمر طويلا لكان من أعظم المآثر العمرانية في تاريخ المغرب الحديث، إذ أنه لا يقل روعة عن القصرين المعاصرين :
أ ــ قصر الايسكوريال (Escorial) الذي بناه فيليب الثاني وما زال ماثلا إلى اليوم.
ب ــ قصر Hard Wicke Hall الذي بنته إليزابيت الأولى بأنجلترا وما زال هو الآخر ماثلا إلى اليوم.=

وأما يوم الجمعة فشأنه فيه إذا فرغ من الصلاة، يجلس للنظر في شأن رعيته ولشكاويها والفصل بينها، ورفع ظلمات ظلم الظالم عنها إلى أن يصلي العصر، تارة يكون ذلك عند ضريح والده ـــ رضي الله عنه ـــ وتارة بالمقصورة، وتارة بالبديع المذكور، وقد يستمر به الجلوس في بعض الأيام إلى صلاة المغرب، لا يألو ـــ فيما طوقه الله ـــ جهدا، ولا يلوي عنه عزما وقصدا.

وفي يوم السبت، وما ذكر معه من أيام الديوان، يدخل أيضا عليه أشياخ القبائل والعرب الواردين، والكبراء، فيأخذون مجالسهم بين يديه، وكذلك لمّة من بني عمه الشرفاء، فإذا استقر بالكل المجلس أحضر الطعام، ثم إذا فرغوا منه واستوفوا حوائجهم، دخل إلى منزله، وخرج الناس إلى باب القصر للمسجد الذي هنالك، وجلسوا به إلى أن يحضر وقت الصلاة، فيخرج ويؤم من حضره من خدمته وربما يخص بذلك الوقت كتبته فقط إلى أن يصلي العصر، وبعض الأوقات إلى أن يصلي المغرب، ثم يدخل منزله ويخرج للمسامرة في الأمور المهمة، والحوادث الملمة، إلى أن يغلب النوم على الحاضرين، ويرى أن قد أدركهم التعب، فيقوم، فيدخل منزله. فهو ـــ أيده الله ـــ كثير السهر لأجل مصالحه، حدثني بهذا شيخنا : أبو العباس أحمد بن علي المنجور ـــ قدس الله روحه، وبرد ضريحه ـــ وغير واحد ممن أثق به، فأوقاته ـــ أيده الله تعالى ـــ من ليل أو نهار معمورة، إما بعمل صالح بدني، أو تدبير في مصلحة دينية، وقد يخوضون بين يديه في التاريخ، والآداب، وفوائد الشعر وإنشائه.

ولنرجع إلى ما كنا بصدده.

---

= انظر في هذا الصدد :

ـــ ع. الفشتالي، **مناهل**، ص 167 ـــ 181.

ـــ محمد الافراني، **نزهة**، ص 103 ـــ 114.

ـــ أحمد المقري، **نفح**، 6 : 47 ـــ 56.

ـــ إبراهيم حركات، العمران وفن البناء في العصر السعدي، مجلة **الثقافة المغربية**، العدد السادس، سنة 1972.

ـــ عبد العزيز بن عبد الله، **تاريخ المغرب**، 2 : 13 ـــ 14.

ـــ عبد الهادي التازي، قصر البديع بمراكش، مجلة **البحث العلمي**، العدد 28، يوليوز ـــ دجنبر 1978، ص 163 ـــ 188.

— G. Deverdun, Marrakech, 1 : 392.

— G. Aimel, le Palais d'El-Badi, Arch. ber III. 1918.

# الباب الثالث

## * في عدله في رعيته وقيامه بشريعة جده محمد وسنته

* ورد الشطر الثاني من العنوان في « ج » هكذا :
وقيامه بأوامر شريعة جده ــ صلى الله عليه السلام ــ وسنته.

لا خفاء على كل من حمل عصا التسيار، ورمت به في أقطار البلدان الأسفار، ورأى سير الملوك في العباد، وما عمت البلوى من الظلم في سائر البلاد، أن مولانا ـــ أيده الله ـــ لم يبلغوا في العدل عشره، ولم يسيروا في رعيتهم سيره. هذا وقد رفع أيضا في أقطار ملكه عن رعيته الا مكاس كلها، كأعشار السلع في المراسي والأبواب وغير ذلك من الوظائف السلطانية التي عمت سائر البرايا، وعظمت بها البلايا، كما هو في سائر البلاد.

فمن ذلك أن كل وافد على الاسكندرية يعطي عشر ما بيده وعشر عشره من السلع وكذلك أيضا كل خارج منها [1]، ومثله في مرسى جده وسائر البلاد المشرقية وغيرها، فمن وقف على ذلك يعلم صحة ما قلنا :

---

(1) كان الامكاس (الجمارك) تؤلف موردا هاما للدولة في مصر في عهد الاتراك خلال القرن السادس عشر، فقد فرض على البضائع أن تدفع الرسوم عند الدخول إلى مصر وعند الخروج منها، وكانت هذه الجمارك في الاسكندرية، ورشيد، وأبو قير، ودمياط، وبولاق، وعلى طريق السويس على مسافة ميل من القاهرة، وفيها تدفع الرسوم على التوابل والعقاقير الآتية من مكة والهند وغيرهما.
وكانت واردات كل هذه الجمارك تعين لجهة خاصة، فقد كانت تجمع في القاهرة وتدفع منها راتب الباشا، وحامية القاهرة، والاشغال ذات النفع العام، كالري وبناء الجسور والسدود واصلاحها، والباقي للمدن المقدسة في الحجاز ولضريبة السلطان.
وكانت تقدر في البدء ب 800.000 دوقا ثم خفضت إلى 600.000 دوقا وكان كل جمرك يخول إلى ملتزم، في اطار نظام الالتزام السائد آنذاك في جميع أنحاء الامبراطورية، والجمركي الحقيقي من كانت أعمال الاوروبيين منوطة به، وقد جرت العادة أن يكون يهوديا ويسمى « المعلم ». وانظر نور الدين حاطوم، **عصر النهضة الاوروبية**، ص 443.
ونورد نصا معاصرا يوضح كل ذلك أورده الشعراني في **لواقح الأنوار** ص 202 : « وكثيرا ما كانت =

وبالجملة فالرعية مع مولانا ــ أيده الله ــ في أهنى عيش وأرغده ــ وأبقى الله للمسلمين أيامه، وسدد ألويته وأعلامه ــ وأما الاحكام الشرعية فلم يقع فيها تبديل ولا تغيير كما هو معهود في البلاد المشرقية.

فمن كان له مال حاضر دفعه، ومن لم يكن له مال ذهب في المجلس إلى بعض خدمة القاضي المعتادين للسلف لكل محتاج إليه، فيتسلف منه ما وظف عليه ويعطي زيادة على كل مثقال ربع عشره عن كل يوم مادام في ذمته، ويكتب الدين بزيادته في سجلات القاضي من غير مبالاة بأمر الدين والشرائع أصلا. وخطة القضاء هنالك تكون من جملة الأمكاس بمال عظيم مقدم على العقد يدفع للسلطان وجيبة السنة قبل مرورها [2].

ومن ذلك أيضا ما حدثني به بعض من أثق به بمصر سنة ست وثمانين [3] عن القاضي أبي زيد عبد الرحمن الحنبلي الذي بالصالحية أنه حضرت بين يديه في مجلس حكمه ذات يوم امرأة مع زوجها وثالث معهما، فقال الرجل للعدلين اللذين بين يدي القاضي : أشهدكما أني طلقت زوجتي هذه طلقة واحدة، فلما أراد كتب الطلاق تقدمت المرأة إلى القاضي ودفعت له دينارين وقالت له : يامولاي القاضي، دونك الدينارين واكتب لي صداقي على هذا الثالث، فأجابها القاضي بأن قال لها : أو تحلفي أنه طلقك منذ أشهر سلفت عن تاريخه ؟ فقالت :

---

اليهود والنصارى أصحاب المكوس في تخفيف المظالم عن المسلمين، وأقول في كتابي لهم : أسأل الله للمعلم فلان أن يرضى عنه ويدخله الجنة مع الصديقين والشهداء الصالحين.... ».

(2) كان الفساد مستشريا في القضاء العثماني إلى حد كبير، ويرجع هذا إلى عدة أسباب :

أ ــ كان القضاء من جملة الوظائف التي تباع وتشترى في إطار نظام الالتزام السائد آنذاك في جميع أنحاء الامبراطورية، فكان من الطبيعي أن تسوده الرشوة لتحصيل الأموال التي اشترى بها المنصب.

ب ــ قصر مدة تولي القضاة، فقد كانت لا تتجاوز غالبا سنة واحدة.

ج ــ كان القضاة من أصل رومي، وكانوا يكنون حقدا كبيرا للعرب، ولم تكن الظاهرة خاصة بالقضاء فحسب بل أيضا بالجنود الأتراك، ويورد لنا المؤرخ المعاصر محمد البكري الصديقي صورا عديدة، لهذا الحقد في **التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية** ص 47 (مخطوط المكتبة الوطنية بفيينا رقم Cod. Arab. 925 A. F. 283)، وذلك أثناء ولاية باشا الذي حكم مصر من 994 هـ إلى 999 هـ (1586 م ــ 1591 م)، حيث تمردت طائفة السباهية ــ وهي احدى طوائف الجيش التركي ــ وصبت نقمتها على العرب من أصحاب المناصب وغيرهم، فهاجموا منازلهم وأطلقوا النار عليها، وقد طالبوا السلطات أثناء ثورتهم بمنع أبناء العرب من الانتساب إلى الفرق العسكرية.

انظر عبد الكريم رافق، **بلاد الشام ومصر**، ص 241 ــ 242.

(3) 986 هـ توافق 1678 م.

نعم، أحلف على ذلك، فقدم لها دفترا من الدفاتر التي توضع فيها السجلات، وقال لها : احلفي على هذه الختمة من كتاب الله تعالى، ففعلت، وجعل العدلان يكتبان الطلاق والصداق للثالث والزوج الأول ينادي بأعلى صوته : يا للمسلمين ! هلموا الي فاني ما طلقتها قبل الا في هذه الساعة فقط ! فأمر القاضي باخراجه وضربه، وأبرم عقد نكاحها مع الآخر.

ومثل هذا في البلاد الاعجام كثير مع أن القضاة هنالك لا يحسنون من القضاء الا العمامة والهيئة خاصة، ويكرون من تحت ايديهم لمن يقضي بين الناس في الحضر والبادية.

ولأهل المشرق لا سيما منهم الترك ازدراء بالناس لا يرون العرب شيئا، فمن ذلك ما اتفق لي ذات يوم ببات جامع السلطات حسن [4] بالرميلة [5] من مصر مع بعض الشيب من الترك لما أردت دخول المسجد المذكور، فوافيتهم بالباب ولم أعظم قدرهم كما هي عادة أهل مصر معهم، ازدراءا بهم، فلما رأوا جفوتي، وعدم مبالاتي بهم ونخوتي، قام إلى أحدهم وقال لي : ياكلب، إلى أين تريد ؟ آلمسجد معد لأمثالك ؟ اذهب من هنا ! فما هذا محلك ! فلم ألتفت إلى قوله لغربتي وعدم ناصرى هنالك، فلما رأى ذلك مني ما أمكنه إلا بصق على وجهي وانصرف، وكنت اذ ذاك ذاهبا لأسرد **البخاري** على الشيخ نور الدين على بن أحمد بن علي الأنصاري الشافعي القرافي [6] بالقرافة، أحد تلامذة السيوطي [7]، فلما دخلت عليه ــ حفظه الله تعالى ــ وأنا في هم وغم مما أصابني من الذل في أرض الغربة ولم أجد ناصرا، فهم عني ذلك فاستفهمني عن حالي، فأخبرته القصة، فلما أعلمته بها أخذ الشيخ في تسليتي وزوال حزني وتأنسي إلى أن رجعت عن ذلك الغضب وذكرت له سير ملوكنا فينا وحنوهم، فذكر ما

---

(4) زار المؤرخ المغربي أبو القاسم الزياني هذا المسجد وأعجب به اذ قال عنه : « وبطرف الرميلة التي تلي مسجد السلطان حسن، وهو مسجد لا ثاني له في مصر ولا في غيرها من البلاد، في ضخامة البناء ونباهته وارتفاعه واحكامه واتساع حناياه وطول أعمدته الرخامية وسعة أبوابه كأنها جبال منحوتة.... ». انظر **الترجمانة الكبرى**، ص 211، وكذلك الهاشم 2 من نفس الصفحة، وقد ذكر الاستاذ عبد الكريم الفيلالي انه يتوفر على رسم لهذا المسجد ودراسة كاملة عنه بخزانته عدد 5783 ت.

(5) انظر عن هذه المنطقة فؤاد الماوي، الوضع المالي لولاة مصر، مقال بمجلة **المناهل**، العدد 13 (دجنبر 1978)، ص 357.

(6) انظر ترجمته عند نجم الدين الغزي، **الكواكب السائرة**، 3 : 182.

(7) ترجم جلال الدين السيوطي لنفسه في كتابه **حسن المحاضرة**، 1 : 335 ــ 344، وأ بن القاضي، **درة** 3 : 92 رقم 1018، ونجم الدين الغزي، **الكواكب السائرة**، 1 : 226 ــ 231، وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، 8 : 51 ــ 55، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 4 : 71 ــ 73، وأحمد الشرقاوي، مكتبة الجلال السيوطي، وهو سجل يصنف جميع مؤلفاته التي تأكد من صحة نسبتها إليه، وم. العابد الفاسي، **فهرس**، 73 ــ 75.

أنشدنيه شيخنا العلقمي [8] ــ رحمه الله ــ [9] :

**المـــرء مادام حيـــــا يُستهـــــان به ... ويعظـم الرُّزْءُ فيـه حيـن يُفتقـــدُ** [10]

وبالجملة فالمشارفة من شأنهم الازدراء بالناس غالبا. حكي عن أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي أنه كان من شأنه الاستهزاء والسخرية والاحتقار لكل من يلقى من الشعراء إلى أن ورد عليه بالكوفة ابن المفضل الشاعر، وهو لضعف حاله لابس أطمارا مرقعة، فقصد دار أبي الطيب فوجده بسقيف داره والأدباء والشعراء بين يديه، فدخل عليهم وسلم، فلم يحفلوا به ولا هش له أحد لعدم معرفتهم به، فأثر ذلك في نفسه. قال : فأردت هجاء أبي الطيب ببيت جرير حيث يقول :

**وانك لو رأيت عبيـــــد تَيْـــــم ... وتيمـــا، قلت : أيهـــمُ العبيـــدُ** [11]

فجعلت ذلك نثرا فقلت : أيكم المتنبي ؟ فرفع رأسه وقال لمن حوله : ما أجفى هؤلاء المرقعين ! قال ابن المفضل : فقلت متمثلا :

**لعمري لئـن رقـــعت في أرض غربـــة ... ثيابي لمـــا ضاقت علـــيَّ المآكـــلُ**
**فمـا كنت الا السيـف يأكـل غمـــده ... له حليـــة عن نفسه وَهْـــوَ عاطـــل**

فقال له المتنبي : ما أنت والشعر يا مرقع ! لا تهمس به، فهو لي ولمن حولي.

فقال ابن المفضل :

**كن كمـــا شئت عنـــد نفسك يالا ... شيء قدرا فلست بالمـــــــحسود**
**إنمـــا أنت بيننـــا كظـــــلام ... في ضيـــاء وأنـــحس في سُعـــود**

---

(8) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي ، **درة**، 1 : 203 ــ 204 رقم 281 **لقط الفرائد**، ص 322، ونجم الدين الغزي، **الكواكب السائرة**، 3 : 87 ــ 88 ، وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب** ، 433 ــ 434، وم. العابد الفاسي، **فهرس**، 201 ــ 203.

(9) ما بين المعقوفين سقط من « ز ».

(10) البيت لفخر الدين بهراة، انظر **وفيات الأعيان** 4 : 252.

(11) انظر **ديوان جرير**، ص 165.

فنظر اليه المتنبي وقال : من أنت يا مرقع حتى تجيبني بهذا الجواب ؟ فقال ابن المفضل مرتجلا :

**لئن كان ثوبي فوق قيمته الفَلْسُ** [12] **فلي فيـه نفس دون قيمتها الأنسُ**
**فثـوبك بدر تحت أنـواره دجـى** **وثوبـي ليـل تحت أطمـاره شمسُ**

فقال له المتنبي : نشدتك الله ! آأنت ابن المفضل البصري ؟ فقال له : أجل، فقام إليه، وأقسم هو ومن حوله ان يرفعوا مجلسه فأبى، وعرض عليه المتنبي شيئا فلم يقبله منه.

واتصل الخبر بسيف الدولة فأحضر ابن المفضل وأدناه وأحسن إليه. وأما المتنبي فولد بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة [13]، وتوفي يوم الأربعاء لثلاث بقين وقيل الليلتين بقيتا من شهر رمضان، وقيل لخمس بقين، سنة أربع وخمسين وثلاثمائة [14].

ولا شك ان الهيئات تعظم في أعين الناس وكذلك الدراهم واللباس، ولهذا يقول بعضهم :

**ان الدراهـم في المواطـن كلهـا** **تكسو الرجـال مهابـة وجمـالا**
**فهـي الكـلام لمـن أراد فصاحـة** **وهي السلاح لمـن أراد قتـالا** [15]

ولبعضهم :

**وكـل مُقِـلٍّ حيـن يأتـي لحاجـة** **إلى كل من يلقَى من الناس مذنبا**
**وكـانت بنوعمـي يقولـون مرحبـا** **فلما رأوني مُعْدِماً، مات مرحبا** [16]

ولآخر :

**جروح الليالـي مالهـن طبـيب** **وعيش الفتى بالفقـر ليس يطـيبُ**
**وحسبك أن المـرء في حال فقـره** **تحمقـه الأقـوام وهـو لبـيب**

---

(12) في « ج » : العباس.
(13) 303 هـ توافق 915 م / 916 م.
(14) 354 هـ توافق 965 م.
(15) انظر البيتين عند م. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 48.
(16) انظر البيتين عند ابن حجة الحموى، **ثمرات الأوراق**، 1 : 120، وم. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 48.

ومــن تعتريــه الحادثــات بصرفهــا ... يبت وَهْوَ مغلــوب الفــؤاد سلــيب
ومـا ضرني أن قال أخطأت جاهــل ... اذا قال كل النـاس أنت مصيب [17]

وللعباس بن الأحنف [18] :

يغــدو الفقيــر وكـــل شيء ضده ... والأرض تُغْلِــقُ دونـــه أبوابَهـــا
وتــراه مبغــوضا ولــيس بمــــذنب ... ويــرى العــداوة لا يرى أسبابهـــا
حتــى الكـــلاب اذا رأت ذابِــــزَّةٍ ... خضعت إليـه وحــركت أذنابهــا [19]

وأنشدني شيخنا أبو راشد :

وما مدرك الحاجات من حيث يبتغي ... من النـــاس إلا من أجــاد وشَمَّـــرا
فسر في بلاد الله والتـــمس الغنـــى ... تعش ذا يسار أو تموت فتُعــذرا [20]

ولنرجع إلى ما كنا بصدده.

فمولانا ــ أبقاه الله ــ قد أتقن سير رعيته، وجراها على العدل المقيم، والنهج المستقيم، وان ظهر شيء من مخالفة الشريعة على أحد يؤدب فاعله ويعزر ولا يترك أحدا لذلك. وقد روي في العدل أحاديث كثيرة، فمن ذلك ما روى عنه ــ صلى الله عليه وسلم : « لعمل العادل في رعيته يوما أفضل من عبادة العابد مائة سنة [21] ». وقال مسروق [22] : « لأن أقضي في الحق أحب إلي من أن أغزو سنة في سبيل الله ». ولا فضيلة أعظم من العدل في الملك، كما أنه لا رذيلة فيه أقبح من الجور إلا السائبة، ولهذا قال الفضيل بن عياض : « جور ستين سنة خير من هرج سنة [23] »، وفي ذلك يقول عبد الله بن المبارك [24] :

---

(17) انظر الابيات عند م. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 48.
(18) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 3 : 20 ــ 27، والمصادر بالهامش 319 من الصفحة 20 من نفس المصدر.
(19) انظر الابيات عند م. الابشيهي، نفس المصدر والصفحة.
(20) البيتان للنابغة الجعدي، انظر أحمد الشريشي، **شرح مقامات الحريري**، 1 : 164.
(21) رواه أبو نعيم في **الحلية** عن أبي هريرة باختلاف يسير فياللفظ.
(22) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 8 : 108 والمصادر بالهامش 1.
(23) انظر ابن مرزوق، **المسند**، ص 44.
(24) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 3 : 32 ــ 34، والمصادر بالهامش 362 من
=

ان الجماعــة حبــل الله فاعتصمــوا منــه بعروتــه الوثقــى لمــن دانــا
كم يرفــع الله بالسلطــان معضلــة في ديننــا رحمــة منــه ودنيانــا
لولا الخلافة لم تأمــن لنــا سبــل وكــان أضعفنــا نهبــا لأقوانــا (25)

وأما إقامته للحدود على من وجبت عليه، فلم يبال في ذلك بأحد، ولم يلحقه في حق الله تعالى لومة لائم، فينصف الحق ولو من نفسه وأبنائه وأقاربه ـــ أيده الله ـــ، وخدمة الشرع يمسكون من وجب عليه حق، ويحمل من كل مكان ولو كان ببابه العلية إلى الحضرة الشرعية، فحكم الله جار عليه من قصاص وغيره من الحدود الواجبة الثابتة ـــ جزاه الله عن الرعية والاسلام خيرا ـــ.

وكثيرا ما تعرض لبعض الناس محاكمة معه في أمر من الأمور، مسلما كان أو كافرا، فيعين وكيلا لينوب عنه، ويتحاكم مع بعض من ذكر، فتارة يكون الحق له وتارة عليه، ويوفي طالبه حقه ان كان عليه حتى لا ينقصه من دانقا واحدا. ولو تتبعت هذا ومثله مما هو كثير لطال الكتاب، وخرج عن المقصود إلى الاسهاب، والمقصود انما ذكر مآثره الحسنة، ومفاخره المستحسنة، على سبيل الاجمال لا التفصيل.

والله الموفق بفضله ومنه.

---

= الصفحة 32 من نفس المصدر.
(25) انظر الابيات عند م. بن الأزرق، بدائع السلك، 1 : 129.

# الباب الرابع

## * في تعظيمه الميلاد النبوي
## وأبناء عمه من النسب العلوي

أما الميلاد النبوي، فيشرفه كثيرا، ويعظمه بكثرة الصدقات والصلاة الجزيلة التي لم يسمح بمثلها ملك قط ولا ثبتت له في ديوان، ولقد أحيا فيه أيضا انشاد القصائد الشعرية بين يديه، ويجازي على ذلك لكل من يأتي بشيء من ذلك من الفقهاء، والشعراء، والكتاب وغيرهم، وقد قيدت من ذلك كثيرا ضاع مني في محنتي، وقد ناولني كاتبه، ووزير القلم الأعلى، الناظم الناثر، الأديب الأريب، نخبة الاعلام، وحسنة الليالي والأيام، الكاتب الأعظم أبو فارس عبد العزيز بن محمد بن ابراهيم الفشتالي في يوم الاثنين، الرابع من شهر رمضان المعظم من عام خمسة وتسعين [1]، قصيدته النونية التي مطلعها :

**هُمُ سلبوني الصبرَ والصبرُ من شاني وهم حرموا من لذة الغمض أجفاني**
**وهم أخفروا في مهجتي ذمم الهوى فلم يثنهم عن سفكها حبي الجاني**

---

* ورد العنوان في « م » هكذا :
الباب الرابع : في تعظيم الميلاد النبوي، وأبناء عمه من النسب العلوي، وفي احسانه للشرفاء من أبناء عمه.
وفي « ج » :
في تعظيمه للميلاد النبوي، ولأبناء عمه من أهل النسب العلوي.

**ملاحظة :**

أفاض الفشتالي كثيرا في وصف احتفال المنصور بعيد المولد النبوي، وفي تباري الشعراء بهذه المناسبة (انظر ع. الفشتالي، **مناهل**، ص 221 — 243) كما أبدى أ. المقرى اعجابه بهذه الاحتفالات اذ قال : « ..... وقد احتفل لذلك المولد بأمور يستغرب وقوعها — جازاه الله تعالى عن نيته خيرا — .... ». انظر **نفح الطيب**، 5 : 350.

(1) يوم الاثنين 4 رمضان عام 995 هـ يوافق 8 غشت 1587 م.

لئن أترعوا من قهوة البين أكؤسي … فشوقهم أضحى سميري وندماني
وان غادرتني بالعَراء حمولهم … لَقًى إنَّ قلبي جاهد أثر أظعاني
قف العيس واسأل ربعهم أية مضوا … أللجزع ساروا مُدلِجين أم البان
وهل باكروا بالسفح من جانب اللوى … ملاعب آرام هناك وغزلان
وأين استقلوا : هل بهضب تهامة … أناخوا المطايا أم على كُثُبِ نعمان
وهل سال في بطن المسيل تشوقا … نفوس ترامت للحمى قبل جثمان
واذ زجروها بالعشي فهل ثنى … أزمتها الحادي إلى شِعْبِ بَوَّان
وهل عرسوا في دير عبدون أم سروا … يؤم بهم رهبانهم دير نجران
سروا والدجى صِبْغُ المطارف فانثنى … بأخداجهم شتى صفات وألوان
وأدلج في الأسحار بيض قبابهم … فلحن نجوما في معارج كثبان
لك الله من ركب يرى الأرض خطوة … اذا زمها بُدْناً نواعم أبدان
أرحها مطايا قد تمشّى بها الهوى … تمشي الحُمَيَّا في مفاصل نشوان
ويمم بها الوادي المقدس بالحمى … به الماء صدًا والكلا نبْتُ سَعْدان
وأهد حلول الحجر منه تحية … تفاوح عرفا ذاكي الرَّنْدِ والبان
لقد نفحت من شيح يثرب نفحة … فهاجت مع الأسحار شوقي وأشجاني
وفتت منها الشوق في الغرب مسكة … سحبت بها في أرض دارين أرداني
وأذكرني نجدا وطيب عَرارِه … نسيم الصبا من نحو طيبة حياني
أحن إلى تلك المعاهد أنها … معاهد راحاتي وروحي وريحاني
وأهفو مع الأشواق للوطن الذي … به صح لي أنسي الهنيُّ وسلواني
وأصبو إلى أعلام مكة شائقا … إذا لاح برق من شَمام وثَهلان
أهيل الحمى ديني على الدهر زورة … أحث بها شوقا لكم عزميَ الواني
متى يشتفي جفني القريح بلحظة … تزج بها في نوركم عين انساني
ومن لي بأن يدنو لقاكم تعطفا … ودهري عني دائما عطفه شاني
سقي عهدكم بالخيف عهد تمدهِ … سوافح دمع من شؤوني هتان
وأنعم في شط العقيق أراكةً … بأفيائها ظل المنى والهوى داني
وحيا ربوعا بين مروة والصفا … تحية مشتاق بها الدهر حيران
ربوعا بها تتلو الملائكة العلا … أفانين وحي بين ذكر وقرآن
وأول أرض باكرت عَرَصاتها … وطرزت البطحا سحائب ايمان
وعرَّس فيها للنبوة موكب … هو البحر طام فوق هضب وغيطان
وأدى بها الروح الأمين رسالة … أفادت بها البشرى مدائح عنوان
هنالك فَضٌّ ختمها أشرف الورى … وفخرُ نزار من معد بن عدنان

محمد خير العالمين بأسرها    وسيد أهل الأرض والأنس والجان

ومن بشرت بالبعث من قبل كونه    نوامس كهان وأخبار رهبان

وعلة هذا الكون لولاه ما سمت    سماء ولا غاضت طوافح طوفان

ولا زخرفت من جنة الخلد أربع    تسبح فيها أُدْمُ حور وولدان

ولا طلعت شمس الهدى غِبَّ دُجْيَة    تجَهَّم من دَيْجورها ليلُ كفران

ولا أحدقت بالمذنبين شفاعةٌ    يذود بها عنهم زبانيَ نيران

له معجزات أخرست كل جاحد    وسلت على المرتاب صارم برهان

له انشق قُرص البدر شقين وارتوى    بماء همى من كفه كل ظمآن

وأنطقت الأصنام نطقا تبرأت    إلى الله فيه من زخارف ميان

دعا سرحة عَجْمَا فلبت وأقبلت    تجر ذيول الزهر ما بين أفنان

وضاءت قصور الشام من نُوره الذي    علا كل أفق نازح القطر أو داني

وقد بهًج الأنوا بدعوته التي    كست أوجه الغبراء بهجة نيسان

وإن كتاب الله أعظم آية    بها افتضح المرتاب [2] وابتأس الشاني

وعدَّى على شأو البليغ بيانُه    فهيهات منه سَجْعُ قُسٍّ وسحبان

نبيُّ الهدى من اطلع الحق أنجما    محانورها أسداف إفْكٍ وبهتان

لعزتها ذَلَّ الأكاسرة الألى    هُمُ سلبوا تيجانها آل ساسان

وأحرز للدين الحنيفيِّ بالظُّبى    تراث الملوك الصِّيد من ولد [3] يونان

ونقَّع من سُمْرِ القَنا السم قيصرا    فجرَّعه منه مُجاجَةَ ثعبان

وأضحت ربوع الكفر والشرك [4] بَلْقَعاً    يُناغي الصَّدى فيهنَّ هاتفُ شيطان

وأصبحت السَّمْحَا تروق نَضارةً    ووجه الهدى بادي الصَّباحة للراني

أيا خير أهل الأرض بيتا ومَحْتِداً    وأكرم كل الخلق : عجم وعربان

فمن للقوافي أن تحيط بوصفكم    ولو ساجلتْ سبقا مدائحَ حسان

إليك بعثاها أمانيَّ أجْدَبَتْ    لِتُسْقَى بِمُزْنٍ من أياديك هتان

أجرني إذا أبدى الحساب جرائمي    وأثقلت الأوزار كفةَ ميزاني

فأنت الذي لولا وسائل عزِّه    لما فُتحت أبواب عفو وغفران

عليك سلام الله ما هبت الصبا    وماست على كثبانها مُلْدُ قضبان

وحمَّل في جيب الجنوب تحيةً    يفوح بمسراها شذا كل نُوَّقان

(2) عند أ. المقرى في روضة الآس، ص 122 : الميان، وكذلك في النزهة، ص 153.

(3) عند أ. المقرى في نفح الطيب، 5 : 26 : عهد.

(4) عند أ. المقرى في نفح الطيب، 5 : 26 : الشك

إلـى العمريـن صاحبيـك كليهمـا ... وتلوهمـا في الفضل صهرك عثمـان
وحيـا عليـا عرفهـا وأريجهـا ... ووالي على سبطيـك أوفـر رضوان
إلـيك رسول الله صممـت عزمـة ... إذا أزمعت فالشَّحْطُ والقربُ سيان
وخاطبت مني القلبَ وهو مقـلَّبُ ... علـى جمـرة الأشواق فيك فلباني
فيـا ليت شعـري هل أزمَّ قلائصي ... إلـيك بِداراً أو أقلقـل كيرانـي
وأطوي أديم الأرض نحـوك راحـلا ... نواجي المهارى في صحاصح قيعان
يرنّحها فرط الحنيـن إلـى الحمـى ... إذا غرد الحـادي بهـنَّ وعنانـي
وهل تمْحُوَنْ عني خطايا اقترفتهـا ... خُطاً لي في تلك البقـاع وأوطـان
إذا نَدَّ عن زوارك البأس والغنـى [5] ... فجود ابنك المنصور أحمد أغناني
عمادي الذي أوطا السِّماكَيْنِ أخمصا ... وأوفَى على السبع الطِّباق فأدناني
متـوّج امـلاك الزمـان وان سطـا ... أحـل سيوفـا في معاقـد تيجـان
وقـاري أسود الغاب بالصيـد مثلهـا ... إذا اضطرب الخَطِّيُّ من فوق جدران
هِزَبْـرٌ اذا زار البـلاد زئيـره ... تضاءل في أخياسهـا أُسْدُ خفَّـان
وإن أطلعت غِيـم القَتـام جيـوشُه ... وأرزم في مركومـه رَعْـدُ نيـران
صببن على أرض العُـداة صواعقـا ... أسَلْنَ عليهم بحر خَسْفٍ ورَجْفـان
كتـائبُ لو يَغْلُـونَ رضوى لصدَّعت ... صفاه الجياد الجُرْدُ تعدو وبعِقْبان
عديد الحصى من كل أروع معلـم ... وَكُـلِّ كَمِـيٍّ بالرُّدَيْنِـيِّ طعَّـان
اذا جَنَّ ليل الحرب عنهم طَلَى العدا ... هَدَتْهم إلى أوْداجِها شُهْبُ خُرْصان
من اللاء جَرَّ عن العدا غُصصَ الردى ... وعفَّرْنَ في وجه الثرى وجه بَسْتَانِ [6]

---

(5) عند أ. المقرى في نفح الطيب، 5 : 27 : العنا

(6) يقصد دون سبستيان بن الملك جان الثالث (1557 ــ 1578) والذي ماكاد يتولى عرش البرتغال حتى بدأ يعمل لرد الاعتبار للبرتغاليين الذين منوا بهزائم متتالية اثر الانطلاقة، السعدية، فكانت المحاولة الأولى في سنة 1574، اذ أرسل (دون سبستيان) ابن عمه (دون انطونيو) حاكما على طنجة ثم لحقه على رأس قوات عسكرية للاغارة على المناطق الشمالية، لكن لم يحقق هدفه لصمود القوات المغربية آنذاك، وظل يتحين الفرص إلى حين انهزام المتوكل أمام عمه المعتصم وفراره إلى سوس ومن هناك إلى طنجة احدى قاعد الاحتلال البرتغالي طلبا للنجدة، وقد استغل (دون سبستيان) الفرصة وأتى إلى المغرب على رأس قوات عسكرية كبيرة، فكان أن وقعت معركة وادي المخازن في 30 جمادى الأولى عام 986 هـ الموافق 4 غشت 1578، والتي قتل خلالها (دون سبستيان).
انظر في هذا الصدد :

— H. de Castries, Sources Inédites, 1ère Série, France, 1 : 339.

— Chantal de la Véronne, Sources Inédites, Archives et Bibliothèques d'Espagne, 3 : 394, 489, 528.

وفَتَّحْنَ أقطار البلاد فأصبحت   تُؤَدي الخراج الجَزْلَ أملاك سودان

أمام البرايا من عليٍّ نِجارُه   ومن عِتْرَةٍ سادوا الورى، آل زيدان

دعائِمُ ايمان وأركان سؤدد   ذوو همم قد عرَّست فوق كيوان

هم العلويون الذين وجوههم   بدورٌ إذا ما أحلكت شُهْبُ أزمان

وهم آل بيت شيد الله سمكه   على هضبة العلياء ثابت أركان

وفيهم فشا الذكر الحكيم وصرَّحت   بفضلهم آي الكتاب (7) وفرقان

فروع ابن عم المصطفى ووصيه   فناهيك من فخرين : قُربى وقُربان

ودوحة مجد معشب الروض بالعلا   يجود بأمواه الرسالة ريان

بمجدهم الأعلى الصريح تشرفت   مَعَدٌّ على الغَرْباء عادٍ وقَحطان

أولئك فخرى ان فخرتُ على الورى   ونافس بيتي في الولا بيت سَلْمان (8)

اذا اقتسم المُدَّاحُ فضلَ فخارهم   فقسمي بالمنصور ظاهر رجحان

أمام له في جبهة الدهر ميسم   ومن عزه في مفرق الملك تاجان

سما فوق هامات النجوم بهمة   يحوم بها فوق السموات نسران

واطلع في أفق المعالي خلافة   عليها وشاح من علاه وسِمْطان

إذا ما احتبى فوق الأسِرَّة وارتدى   على كبرياء الملك نخوة سلطان

توسمت لقمان الحِجى وهو ناطق   وشاهدت كسرى العدل في صدر ايوان

وان هزَّهُ حر الثناء تدفقت   أنامله عُرفا تدفق خُلْجان

أيا ناظر الاسلام شِمْ بارق المنى   وباكر لروض في ذَرَا المجد فينان

قضى الله في علياك أن تملك الدنا   وتفتحها ما بين سوس وسودان

وانك تطوي الأرض غير مُدافَع   فمن أرض سودان إلى أرض بَغْدان

وتملأها عدلا يرف لواؤه   على الهرمين أو على رأس غمدان

فكم هنأت أرض العراق بك العلا   ووافت بك البشرى لأطراف عمان

---

(7) عند أ. المقرى في **نفح الطيب**، 5 : 28 : آيات ذكر، وكذلك **النزهة**، 156.

(8) ذكر المقرى في **نفح الطيب**، 5 : 23، عن هذا البيت ما نصه : « وأراد — كما أخبرني — ببيت سلمان القبيلة التي منها لسان الملة والدين ابن الخطيب — رحمه الله تعالى —، أشار إلى ولاء الكتابة للخلافة، كما كان لسان الدين السلماني، رحمه الله تعالى — كذلك، وفيه مع ذلك تورية بسلمان الفارسي — رضي الله عنه وأرضاه —.

وقال عن القصيدة بأكملها بنفس الصفحة والمصدر :

« وقد رأيت أن أسرد هنا هذه القصيدة الفريدة، لبلاغتها التي بذت شعراء **اليتيمة والخريدة**...... ».

وذكر كذلك أن السلطان أحمد المنصور كان يقول :

« ان الفشتالي نفتخر به على ملوك الأرض، ونباري به لسان الدين بن الخطيب » (نفح، 6 : 59).

فلــو شارفت شرق البــلاد سيوفكــم أتــاك استلابــا تاج كسرى وخاقــان
ولـو نشر الأمـلاك دهــرك أصبــحت عيــالا علــى عليــاك أبنــاء مروان
وشايــعك السفــاح يقتــاد طائعــا برايتـــه السوداء أهـــل خراسان
فما المجد الا ما رفــعت سماكــه على عمديْ سُمْرِ الطــوال ومــران
وهاتيك أبكـار القوافــي جَلَوْتُهَــا [9] تُغَازِلُهُـــنَّ الحـــور في دار رضوان
أتــتك أميــر المؤمنيـــن كأنهـــا لطائــم مسك أو خمائـــل بستــان
تعاظمن حسنــا أن يقــال شبيههــا فرائـــد در أو قلائـــد عِقْيــان
فلا زلت للدنيــا تحــوط جهاتهـــا وللديــن تحميــه بمــلك سليمــان
ولا زلت بالـــنصر العزيــــز مؤزرا تقــادلك الأمــلاك في زي عبــدان

[ قوله : سَجْعُ قُسٍّ [10] وسَحْبَان.

أما سحبان [11]، فهو : سحبان بن زفر بن اياس بن عبد شمس الوائلي من وائل باهلة، وكان من البلغاء الفصحاء، وبه يضرب المثل في البيان والفصاحة. يروي أنه دخل على معاوية ـــ رحمه الله ـــ وعنده خطباء القبائل، فلما رأوه خرجوا لعلمهم بالقصور عنه منهم، فقال :

لقد علـم الحــي اليمانــون أننــي اذا قلت : أما بعد، أني خطيبهــا

وفي أخرى أني خطيب.
فقال له معاوية : اخطب !
فقال : احضروا لي عصا !

---

(9) عند أحمد المقرى في **نفح الطيب**، 5 : 29 : جلبتها.

(10) هو : قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك، من بني اياد : أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم في الجاهلية كان أسقف نجران، ويقال :انه أول عربي خطب متوكئا على سيف أو عصا، وأول من قال في كلامه « أما بعد ». وكان يفد على قيصر الروم زائرا، فيكرمه ويعظمه. وهو معدود في المعمرين، طالت حياته وأدركه النبي (ﷺ) قبل النبوة، ورآه في عكاظ، وسئل عنه بعد ذلك، فقال : يحشر أمة وحده.
انظر **البيان والتبيين**، 1 : 27، **والأغاني**، 14 : 40، **وشرح المقامات** للشريشي، 2 : 252، **ومعجم الشعراء** للمرزباني 338، **وعيون الأثر**، 1 : 68، وخزانة البغدادي، 1 : 267.

(11) انظر ترجمته عند الميداني، **مجمع الأمثال**، 1 : 167، وعبد القادر البغدادي، **خزانة الأدب**، 4 : 347، وخير الدين الزركلي، **الأعلام**، 3 : 123، ومحمد عبد المنعم خفاجي، **الحياة الأدبية في عصر بني أمية**، ص 261 ـــ 262.

فقالوا : وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟
قال : ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه.

فأخذها بيده، وتكلم من صلاة الظهر إلى أن كادت صلاة العصر تفوت، ما تنحنح، ولا سعل، ولا توقف، ولا ابتدأ في معنى آخر فخرج منه وقد بقيت بقية، إلى أن قال له معاوية : أنت أخطب العرب طرا.

وطرا لا يستعمل الا حالا.

ومعاوية ـــ رضي الله عنه ـــ توفي ليلة النصف من رجب سنة ستين من الهجرة (12)] :

ـــ وله أيضا ومطلعهما :

أرحهـا فقـد أودى بهـن ذُلـوجُ — ودَكَّت رُبَـى أَكْتَادِهِـنَّ حُدُوجُ
وقد نزعت أخفـا فهـن يد السُّرَى — [ ولاح (13) ] على أعضائهن نُضوجُ
ظَعائـنُ خُوصُ العيـن في فَلَوَاتِهَـا — وفـي فقـرات ظهرهـنَّ دُمـوج
إذا أطلعتهـا لُجَّـةُ الآلِ خِلْتَهـا — سفائنَ خُضْنَ البحـر وهـو مَرِيـجُ
رمين النوى لما انبعثـن بأسهـم — يَرِقُّ لهـا عنـد المـروق خروج
وأرزم ارزام الرعـود هديرهـا — فسد الفجاج الفيح منـه ضجيـج
تحملـن من آرام وجـرَةَ للحمـى — بدورا لهـا بيض القبـاب بروج
اذا زمها نحـو الحجـاز حُدَاتُهـا — أغاربهـن الشوق وهـو لَعـوج
هواهـن ما بيـن الحَجـون مخيـم — وبيـن أثيـلات العقيـق دروج
تسليـن عن كل البقـاع فلـن تُرَى — على غير أكناف البقيع (14) تعوج
ركـائب آلت أن تُهَـدَّمَ أو يُرَى — لها بين هضب الأخشبيـن ولـوج
إذا عم من تسنيـم زمـزم شربهـا — وأطفت لهيب الشوق وهو لجيـج
ولاحت لها أعـلام يثـرب فرتـمت — إليهـا تباري الريـح وهـو نَئِيـج
أنخنا علـى ركب به موكب العـلا — يمـوج وأمـلاك السمـاء تروج
وبحر الهدى من شعبه سال طافحا — فطمَّ على المعمـور منـه خليـج
وصَبَّ عزَالـي الوحـي في عَرصاتـه — ففاضت بهـا أنهارهـا ومـروج

(12) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ». وانظر القصة عند أحمد الهاشمي، جواهر الأدب، 2 : 379 ـــ 380.
(13) ما بين المعقوفين زيادة من « ج ».
(14) عند أ. المقري في روضة الآس، ص 125 : العقيق.

ديـار بهـا مسك النبـوءة صائك ... ونور الهدى الوهاج فيهـا وهيـج
وأرض حوت من جوهر الكون جوهرا ... إلـى أوج أفـلاك السمـاء عروج
وليل بساق العرش وهـو مُحَـجَّبٌ ... عليـه رواق سابـغ ووليـج
محمـد خيـر العالميـن ومـن به ... تقلص ليل الكفـر وهـو دَجـوج
نبي دَجَا أرض الـرشاد فأصبـحت ... وسرب الهـدى في منكبيهـا يروج
ولاح لنـا من نور آيـات صدقـه ... سراج بمشكـاة اليقيـن وهيـج
تنضنض من برهانهـا كل لَهْـذَمٍ ... له في صدور الملحديـن ولـوج
اذا رمت نظم القول فيـه تَهَيَّـبَتْ ... عِجـافُ القوافـي مدحـه فتعـوج
لمولـده اهتـز الوجـود وأشرقت ... قصور بِبُصْرَى [15] أشرفت وبـروج
وأفصح بالشكوى له الجذع صارخا ... كما صرخت غِبَّ الحِلَابِ ضَجوج
وسالت بسلسال المعيـن بَنَانُـهُ ... كمـا درضَرْعٌ حافـل ونفـوج
أيا خيـر من زَمَّ الركـاب مطيهـم ... إليـه وحَثَّ اليعمـلات حجيـج
عليـك سلام الله ما القـنَّ صادحٌ ... وما افتر ثغر البرق وهـو بهيـج
وما ضَمَّخَتْ ضاحي الرُّبى راحة الصبا ... فغيَّرهـا أو نمَّقَتْهـا ثلـوج
ألهفي لِأَحْـدَاثٍ ثنت عنك زورتـي ... وشدت عِقالَ العزم وهـو زعـوج
عَدَتْني، اذا شَطَّتْ بك الدار، سَلْوَتي ... فلم تختلج فالصدر منهـا ضلـوج
[ فما ذقت من شَحْط ازديارك سلوةً ... ولا اختلـجت با........... ] [16]
أأسلو وبين المنحنى من جوانحـي ... حَشاً بلهـيب الشوق فيك نضيـج
ولولا [ رجاء الاذن من ] [17] سبطك الرضى ... طوت بي إلـيك البيـد أنضاءُ عوج
ولولاه ما أبطيت عن أجرع الحمى ... فداربهـا الشوق اللعـوج يهيـج
[ ولا أردت........................ ... ................................................ ] [18]
فأُفْقٌ به نور الخلافـة ساطـع ... وأرض بهـا روض المعالـي أريـج

---

(15) بصرى : من أرض الشام من أعمال دمشق وهي مدينة حوران، وفي شرقي هذه المدينة بحيرة تجتمع فيها مياه دمشق وتسير منها في صحراء ورمال مقدار خمسة عشر فرسخا فتدخل دمشق.
وفي الخبر أن آمنة لما حملت بالنبي ﷺ رأت كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام.
انظر الحميري، **الروض المعطار**، ص 109.

(16) بياض بالأصل. وما بين المعقوفين سقط من **روضة الآس**، ص 127.

(17) ما بين المعقوفين زيادة من « ج ». وقد ورد البيت في **روضة الآس**، 127 هكذا : ولولا الامام المرتضى سبطك الرضى.

(18) بياض بالأصل وما بين المعقوفين سقط من و**روضة الآس**، ص 127.

وربـع به بحـر السماحـة زَاخِـرٌ ... كأن البحـار السبـع منـه خليـج
لدى أوحد الدنيا الذي خضعت له ... طواغيتهـا أروامُهـا وزنـوج
امـام به غالـبت كُلَّ مفاخـر ... وأسكت خصمي الدهر وهو لجوج
لو فوق هام النجـم مجـد موطـدٌ ... ومن عد له في عالـم الأرض زيـج
مهيب رحيب الصدر ان دهم الورى ... وصدر مجال [19] السمر منها حريج
له عزمة تجلو الخطـوب إذا دجت ... ورأي بعقـم المعلـوات نتيـج
عماد الورى المنصور والأوحد الذي ... به غاض بحر الهول وهـو مهيـج
وأدركت الـري الخلافـة بعدمـا ... ذوى برياض المجد منهـا وشيـج
وأنقـذ بالسيـف المُهَنَّـدِ تاجهـا ... على حيـن كادت تقتنيـه عُلـوج
وجـدَّلَ طاغـوت العـدا وجموعـه ... وللنمـل فوق الأرض منهـم دَجيـج
بيوم غدا ثغر الهدى فيـه باسمـا ... وصدر القنـا بالطعـن فيـه بهيـج
وظـل به الشيطـان ينـدب حزبـه ... وقـد خنقتـه غبـره ونشيـج
فتـوح أميـر المؤمنيـن فواتـح ... لها في حيين المجـد منك بُلـوج
فهل راض رضوى الحلم قبلك جامحا ... وهل حملت ليث الهياج [20] سروج
وهل زار أرض الزنـج جيش عرمـوم ... تكَنَّفَ [21] أسْدَ الغاب منه وشيـج
[ بِدُهْم سددن الجو وهي حَنَادِسٌ ... وشُهْبٍ كسا الأرضين منها ثلوج [22] ]
عَلَيْهـن من سَرْدِ الحديـد ملابسٌ ... بِجُـرْدٍ نَمَتْهَـا في العَتَاقَـةِ عُوج
[ اذا صبحت أرض العدا........................ ... ..........................................[23] ]

وقصائد هذا الفن كثيرة جدا، وما كان منها بيدي ضاع من مع مقيداتي في محنتي. ومن دأبه ـــ أيده الله تعالى ـــ في يوم الميلاد النبوي جزل البذل لأهل القصائد حتى إنه ينفق في ذلك اليوم من الأموال ما لا يحصى كثرة، ويعطي كلا على قدره من ثلاثمائة إلى خمس آلاف أوقية (ذهبا)، وقد أنال الفقيه النحوي أبا العباس أحمد الزموري [24] ذات سنة نحوا من

---

(19) بالأصل : بمجالس، وهو تصحيف، والتصويب من روضة الآس : ص 127.
(20) في « ج » : البريج.
(21) في « ج » تكشب.
(22) ما بين المعقوفين سقط من « م ».
(23) بياض بالأصل.
وما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج » وروضة الآس، ص 127.
(24) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، جذوة، 1 : 136 رقم 79، درة، 1 : 154 رقم 178، لقط الفرائد،

خمس آلاف أوقية (ذهبا) أناله جنانا بمراكش وأرض حرث وغير ذلك، وقد ضاع مني من قصائد هذا الوادي، أعني القصائد الميلاديات، كقصائد الفقيه، الناظم الناثر، الصوفي المحب في أهل الله تعالى : أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف الحسني، وكقصائد الفقيه الكاتب، الناظم الناثر : أبي عبد الله محمد بن علي الفشتالي نخبة الاعلام، وحسنة الليالي والأيام، وكقصائد أبي عبد الله محمد بن علي الهوزالي، وأبي العباس أحمد بن يحيى الهوزالي وغير هؤلاء ممن يطول ذكرهم، ولو تتبعناهم واحدا واحدا لخرجنا عن المقصود وطالت هذه العجالة.

---

= ص 327، وأ. المقرى، **نفح** ، 4 : 229 و 7 : 75، وأ. الكلالي، **تنبيه**، ص 17 ــ 18، و ع. الرحمن التمنارتي، **الفوائد**، ص 50، وم. الافراني، **صفوة**، ص 96، وم. القادري، **الاكليل**، ص 7، **التقاط**، 2، **نشر** 1 : 19، وم. الحضيكي، **طبقات**، 1 : 39، وم. الناصري، **الاستقصا**، 5 : 55 ــ 56، وم. بن مخلوف، **شجرة**، 1 : 294 رقم 1115، والعباس بن ابراهيم، **الاعلام**، 2 : 248 ــ 250 رقم 214، وم. الكتاني، **سلوة**، 1 : 270 ــ 271، وم. حجي، **الحركة**، 2 : 146.

# فصـــــل

## في احسانه للشرفاء من أبناء عمه

فمما شاهدته في يوم جمعة من سنة اثنتين وتسعين [1] من مآثره — أيده الله تعالى — وذلك أنه وقف له بالطريق شريف من شرفاء مراكش حين رجع من مسجد الجمعة، وحلف عليه حتى يعطيه شيئا فأعطاه كسوة، وذكر لي أن من عادته مع الرجل اعطاؤه في كل وقت، ويصرف ما يأخذه منه في الخمر ويعود إليه فيسأله فيعطيه لمنزلته من الشرف.

هذا في غير يوم الميلاد، وأما قبل يوم الميلاد بيومين فيعم فيه سائر شرفاء مملكته، وقد تعطاهم أرزاقهم في شعبان، ويستعد للميلاد بأنواع المطاعم، والحلاوات، وأنواع الطيب، والبخور، واظهار الزينة والتأنق في اللباس، وإذا أخذ مجلسه يستدعي حينئذ الناس على ترتيبهم، ويأخذون مجالسهم على طبقاتهم. إذا أخذ الناس مجالسهم قرأ بعض القراء **الكراسة** [2] التي من كلام الولي

---

(1) 992 هـ توافق 1584 / 1585 م.

(2) كانت هذه **الكراسة** تقرأ باستمرار أثناء حفلات ليالي المولد النبي أيام المنصور، وقد أكد هذه الحقيقة أحمد المقرى في **نفح الطيب**، 5 : 350، اذ قال « ... وقد حضرت بمراكش المحروسة سنة عشر وألف قراءة **كراسة** الشيخ في المولد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام بين يدي مولانا السلطان المرحوم أحمد المنصور بالله الحسني رحمه الله تعالى ... ». واليوم تقرأ مولديات أخرى لعلماء مغاربة ومشارقة، ولا يعرف بالضبط متى انتهت عادة قراءة **كراسة** ابن عباد في حفلات المولد النبوي بالمغرب.
أما عن **كراسة** ابن عباد هذه فهي عبارة عن خطبة جمعية مطولة في موضوع المولد الشريف، وتقع ضمن مجموعة خطب في المراسم التي وقف عليها عبد المجيد الزيادي مجموعة في جزء، وقال عنها : « وهي نحو الخمسة عشر خطبة، كل واحدة منها تأليف في موضوعه لا مزيد عليه ». (انظر عبد المجيد الزيادي، **افادة المرتاد، بالتعريف بالشيخ ابن عباد**، مخطوطة المكتبة العامة بالرباط ضمن مجموع، رقم د 471).
وتحتوي **كراسة** ابن عباد على سبع خطب موزعة على المواضيع التالية : خطبة عاشوراء — المولد النبوي — رجب — شعبان — رمضان — ليلة القدر وتفسير سورتها — وداع رمضان.
وتوجد نسخة منها بمكتبة الزاوية الحمزاوية ضمن مجموع تحت رقم 269 وكذلك نسخة أخرى بالمكتبة الملكية بالرباط تحت رقم 2688.

الصالح أبي عبد الله محمد بن عباد ـــ قدس الله روحه، وبرد ضريحه ـــ، ثم بعد ذلك تقرأ الميلاديات بألحان ذكية، وانشاد مقطعات من الشعر بنغمات بابلية، ثم بعد ذلك يقوم على قدميه واحد اثر واحد من فقهاء الحضرة وكتابه ممن له معرفة بالنظم، فيملي قصيدته حتى يفرغوا من ذلك على نحو مراتبهم، فاذا فرغوا دعا بالطعام على اختلاف أنواعه بعد اتحاف الشعراء بالصلات الجزيلة، والخيرات الجميلة، ثم يدعي بالحلاوات ثم بلوز السكر وغيره من الفالوذ ونحوه والكعك وغير ذلك، ويعطي الشعراء كلا على قدره، وهذه السيرة مستمرة من لدن أسلافه ـــ رضي الله عنهم ـــ إلى الآن. وقد زاد عليهم باحياء ذكر القصائد التي لم تكن قبل فيمن مضى من سلفه، وإنما كانت في أيام بني مرين ومن قبلهم، لكن مولانا أولى بهذا من غيره لاشتمال غالب القصائد على مدح النبي ﷺ لأنه أولى الناس به كما تقدم.

ومن عظيم قدر مولانا أنه لا يتخلص لمدحه في الغالب الا بعد مدح النبي ﷺ فهو أحق بها . وأهل لها فلم تك تصلح إلا إليه، ولا تقتصر إلا عليه.

هذا ما أردنا ايراده هنا، والله الموفق.

# الباب الخامس

## * في رعايته لأهل العلم والصلاح ومجابرته لأهل الحلم والفلاح

أما اعتناؤه بالعلماء وأهل الفضل، فشيء ظاهر للعيان، يعلمه الخاصة والأعيان، فيجلهم كثيرا ويعظمهم، ويعلم حقهم بين الناس كما قال الجلال المحلي [ رحمه الله [1] ] :

إنمـــا يعــــرف قدر العلــــم من     سهــــرت عينــــاه في تحصيلــــه

وقبله :

احفظــوا العلــم وصونــوا أهلــه     عن جهــــول حاد عن تبجيلــــه

ولعمري إنه ـــ أبقاه الله ـــ أعلم الناس بقدر العلماء والفضلاء، وشاع هذا وذاع، وامتلأت به الأفواه والاسماع، ولو أوردنا في هذه العجالة ماله من ذلك لطال الكتاب جدا، ولخرج عن قصد الاختصار، فحدث عن البحر ولا حرج. وأما ستره على العلماء على ما يصدر منه من الجفاء الذي لا يمكن لأحد حمله منهم، فضلا عن الملك أمير المؤمنين. فمن ذلك ما حدثت به عن شيخنا أبي العباس أحمد المنجور ـــ قدس الله روحه، وبرد ضريحه ـــ أنه كان عنده ـــ أيده الله ـــ بمراكش لأجل مذاكرة العلم، ثم ان الشيخ أراد القفول إلى فاس المحروسة ولم يرده منه الملك ساعتئذ، واستأذنه فلم يأذن له. أخذ كتبه وحوائجه وما تحصل

---

* ورد العنوان في « م » هكذا :
الباب الخامس : في رعايته لأهل العلم، ومجابرته لأهل الحلم.
وفي « ج » في رعايته حق أهل العلم، ومجاوزته عن هفواتهم بالاغضاء والحلم.

(1) ما بين المعقوفين سقط من « م ».

له من مال الملك وسافر من غير أن يشاوره مرة أخرى ولا أن يستأذنه، فبلغ ذلك مولانا ـــ أيده الله ـــ ولم ينقم عليه شيئا من ذلك، واحتمل جفوته، ولو حصل هذا لغيره من الملوك لوقع منه ما يمكن أن يقع، فانظر لحلمه ـــ أبقاه الله تعالى ـــ وصبره على جفوة العلماء.

ومن ذلك ما اتفق له مع بعض أهل الاذاية من الطلبة، المستحلين للاعراض، وبذلك لهم عن طاعة الله اعراض، وقد بلغه عنهم من ذلك ما يوجب هضمهم، وعقابهم، بل ما يذهب رؤوسهم ورقابهم، فعاملهم باحسان ومنح وأنواع عطايا.

ومثل هذا لو تتبعت ما وقع له منه لوضعت من ذلك ديوانا مثقلا، وقصدنا أن ننتهز الفرصة من بعض مفاخره الحسنة، ومآثره المستحسنة، وما أولاه بما لأبي تمام :

**اقـــدام عمـــرو في سماحـــة حاتـــم في حلم أحنف [2] في ذكاء اياس [3]**

حكي أن هذا البيت لما أنشذه أبو تمام ممدوحه، أعجبه وطرب إليه وكان بمحضر الكندي [4]، فغار لذلك وقال للممدوح : ما في البيت ما يعجب فإنه يشبهك بصعاليك العرب، ومن هو مثلك لا يشبه إلا بمن هو فوقه ! وذلك بمحضر أبي تمام.

فرأى أبو تمام أن الاعتراض وارد عليه، فنظر في كلام العرب جوابا فلم يجده فتذكر قوله تعالى : ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء [5]﴾، فنظر في القرآن في أول سورة البقرة إلى سورة النور، فوجد الجواب في سورة النور، وذلك بما يقوله تعالى : ﴿نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة﴾ الآية [6]. فنظم على البديهة :

**لا تنكـــروا ضربـــي له مَنْ دُونَـــهُ مثـــلا شرودا في النـــدى والبـــاس**
**فالله قد ضرب الأقـــل لنـــوره مثـــلا من المشكـــاة والنبـــراس [7]**

---

(2) هو : الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين، يضرب به المثل في الحلم، ولد بالبصرة، وأدرك النبي ﷺ ولم يره. توفي سنة 72 هـ / 691 م.
انظر خ. الزركلي، **الاعلام**، 1 : 262 ـــ 263 والمصادر بالهامش.

(3) انظر **ديوان أبي تمام**، ص 153.

(4) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 9 : 255 ـــ 256 والمصادر بالهامش 1 من الصفحة 256 من نفس المصدر.

(5) الآية 38 من سورة الانعام.

(6) الآية 35 من سورة النور.

(7) انظر **ديوان أبي تمام**، ص 153.

فأجاد وأعجب الحاضرين اضافته للجواب حتى كاد يظهر الدخان خارجا من فيه خشية الخزي والفضيحة، فقال الكندي بعد خروجه : أظن هذا الفتى لا يعمر لأنه ينحت من قلبه.

وقيل أن كبده أحرقت وأنه ما بقي إلا أياما قلائل ومات ـــ رحمه الله تعالى ـــ. قيل أنه مات سنة احدى وثلاثين ومائتين [8] بالموصل، واسمه حبيب بن أوس [9]. قال أبو محمد بن أبي القاسم الثعالبي الفاسي [10] في كتابه المسمى : **بأنوار التجلي، على ما تضمنته قصيدة الحلي** [11]، ما نصه : « قلت وما ضمنه أبو تمام في بيته من الآية الكريمة لا دليل له فيها، فإنها مصروفة عن ظاهرها »، انتهى. قلت : بل فيه دليل لأنها وان كانت مصروفة عن ظاهرها فوقوعه أدل دليل على الجواز، ولا يضر تأويلها، لأن صرف المجاز الغير المراد، الظاهر إلى الحقيقة المرادة، لا يلزم منه نفي المجاز، فتأمله، والله أعلم.

ومن قصيدة أبي تمام هذه بيت أودع شطره الأول بعضهم في بيت وهو الذي تقدم :

**أعذارَه الساري العَجـــول ترفقـــن ما في وقـــوفك ساعـــةً من باسِ**

فالشطر الأخير لأبي تمام :

**ما في وقـــوفك ساعـــة من باس نقْضِي ذِمَـامَ الأرْبُـــعِ الأدْراس** [12]

وإياس المذكور : هو اياس بن معاوية القاضي [13]، وكان يقول : من لم يعرف عيبه فهو أحمق، توفي سنة اثنتين وعشرين مائة [14] في ضيعة يقال لها عبداس.

---

(8) 231 هـ توافق 845 ـــ 846 م.

(9) انظر رأي ابن خلكان في هذه القصة في **وفيات الاعيان**، 2 : 15 ـــ 16، **واخبار أبي تمام** لأبي بكر الصولي، ص 231 ـــ 232، **والعمدة** لابن رشيق : 1 : 192.

(10) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **جذوة**، 2 : 426 رقم 52د، **درة**، 3 : 64 رقم 984.

(11) توجد منه عدة نسخ منها : نسخة المكتبة الملكية بالرباط رقم 4394، وبالمكتبة العامة هناك نسخة أخرى تحت رقم ق 608، وأخرى كذلك بنفس المكتبة تحت رقم 1968 د، لكن هذه الأخيرة لا تتوفر إلا على النصف الأول. وهناك نسخة أخرى خاصة بفاس.

(12) انظر **ديوان أبي تمام**، ص 152.

(13) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 1 : 247 ـــ 250، والمصادر بالهامش 105 من الصفحة 247 من نفس المصدر.

(14) 222 هـ تقابلها 836 ـــ 837 م.

روي أن المهدي لما أتى البصرة رأى اياس بن معاوية وهو صبي وخلفه أربعة من العلماء، أصحاب الطيالسة، واياس يقدمهم، فقال المهدي : أف لهذه العثانين ! أما كان فيهم شيخ يقدمهم غير هذا الحدث ؟ ثم التفت إليه المهدي وقال : كم سنك ؟ فقال : سني ـــ أطال الله بقاء أمير المؤمنين ـــ سن أسامة بن زيد بن حارثة لما ولاه رسول الله ـــ ﷺ ـــ جيشا فيه أبو بكر وعمر. فقال : تقدم بارك الله فيك. وكان سنه سبع عشرة سنة، وكان يضرب به المثل في الذكاء وحكايته مشهورة ولولا خشية الاطالة لأتينا بشيء منها.

ومن الابداع قول بعضهم :

| | |
|---|---|
| **هاقد بعثت رسولي من كلــــفت به** | **وفي كتابي ما ألقـــى من الــوَصَبِ** |
| **فدع كتابـــي وسل عنـــي لواحظــــه** | **« فالسيف أصدق أنباء من الكتبِ »** |

ومن التوشيح لبعضهم :

| | |
|---|---|
| **يا طلعـــة البـــدر إلا أنـــه بشر** | **أمـــا هواك فلا يبقـــى ولا يذر** |
| **كيـف التخلص من عينيك لي ومتى** | **وفيهما القاتلان : الغُنْـجُ والحَـوَرُ** |
| **وبـــي من السُّقـــم داء لا دواء له** | **ومنك لي الشافيان : القرب والنظر** |
| **وفـــي وصالك ما أبقـــي به رمقـــي** | **لو يسعد المسعدان : الدهر والقدر** |
| **ما غبت الا وغـــاب الأنس أجمعـــه** | **واستوحش المؤنسان : السمع والبصر** |
| **بما تكن ضلوعـــي من هواك ومـــا** | **يعنو له الساجدان : النجم والشجر** |
| **أدرك بقيـــــة نفس ليس مدركهـــــا** | **إذا مضى الهاديان : العين والأثـــر** |

ومنه أيضا لأحمد بن ابراهيم بن عبد الملك بن مطرف [15]، لقي أبا الفرج بن الجَوْزي [16] :

---

(15) وردت ترجمته في **برنامج الرعيني**، ص 154، هكذا : « أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن عبد الملك بن مطرف التميمي، شهرته بالحال التي كان عليها من الصلاحية مغنية عن التعريف به. لقيته غير مرة، وذكر لي عجائب من مجاهداته ومشاهداته، وأجازلي الرواية عنه لجميع ما يحمله، وذكر أنه قرأ **القرآن** بما لقة على أبي العباس الاندرشي، وسمع النصف من **صحيح مسلم** على أبي عبد الله محمد بن مفلح الجندي ... أوجاز له ابن عوف ويونس الشريف وغيرهما. توفي بسبتة عام سبعة وعشرين وستمائة، وجد ذلك بخط بعض أصحابنا، وذكر لي عنه أن لقي أبا الفرج بن الجوزي... ».

(16) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 3 : 140 ـــ 142، والمصادر بالهامش 370 من الصفحة 140.

أمسي وأصبح من تذكارهم قلقا ... يرثى لي المشفقان : الأهل والولد
قد خدّدَ الدمع خدّي من تذكُّرهم ... واعتادني المضعفان : الشوق والكَمَدُ
وغاب عن مقلتي نومي ونافرها ... وخانها المسعدان : الصبر والجلد
لا غرو للدمع أن تجري غواربه ... وتحته الخافقان : القلب والكبد
كأنما مهجتي نضْوٌ بِبَلْقَعَةٍ ... يعتادها الضاريان : الذيب والأسد
لم يبق الا خفي الروح من جسد ... فداؤك الباقيان : الروح والجسد
اني لأحسد في العشاق مصطبرا ... وحسبك القاتلان : العشق والحسد [17]

ومنه :

غنت بعود تناغيه فيسعدها ... فانظر بدائع ما يأتي به الشجر
غنت على فرعه الأطيار شاجعة ... لدنا فلما ذوى غنى به البشر
فما يزال عليه أو به طرب ... يهيجه الأعجمان : الطير والوتر

ولنرجع إلى ما كنا بصدده.

فمن ذلك زيارته لأهل الله الأئمة المشاهير، والعلماء الجماهير، ومحبته فيهم، فغير ما مرة راح لزيارة أهل الله تعالى، كالولي الصالح : دراس بن اسماعيل بن ميمونة [18]. حكى أنه — أيده الله — مرض مرضا شديدا فرأت أمه — رضي الله عنها — شخصا في النوم يقول لها : « زوريه دراسا، فإنما أصابته عين »، فقصت عليه رؤيتها، ثم زاره فعوفي. وقد زار أيضا قبر الولي الصالح أبي الحسن علي بن حرزهم [19]، وكقبر أبي بكر بن العربي [20]، وغير هؤلاء

(17) انظر القصيدة في **برنامج الرعيني**، ص 154 — 155.
(18) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **جذوة**، 1 : 194 — 197 رقم 155، وأحمد بابا، **نيل**، ص 116، وم. الكتاني، **سلوة**، 2 : 175 — 179.
(19) انظر ترجمته عند أ. بن قنفذ، **أنس الفقير**، ص 12 — 13، 16، ويوسف بن الزيات، **التشوف**، ص 147 — 153 رقم 51، وأ. بن القاضي، **جذوة**، 2 : 464 — 466 رقم 508، وأحمد بابا، **نيل**، ص 198، وم. الكتاني، **سلوة**، 3 : 71.
(20) انظر ترجمته عند أحمد بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 4 : 296 — 297 رقم 626، وا. بن فرحون **الديباج**، 2 : 252 — 256 رقم 74، وأ. المقري، **نفح**، 2 : 25 — 43، وأ. بن القاضي، **جذوة**، 1 : 260 — 262 رقم 268، وم. بن مخلوف، **شجرة**، ص 136 رقم 408، وم. الكتاني، **سلوة**، 3 ض 298 وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 7 : 106، وعبد العزيز بن عبد الله، **الموسوعة المغربية**، 2 : 51 — 52.

الذين بمدينة فاس ـــ رحمة الله عليهم ـــ وكان هذا منه حين إقامته بفاس ـــ حرسها الله تعالى ـــ.

وقد راح ـــ أيده الله ـــ لأغمات [21] غير مرة لزيارة أبي عبد الله الهزميري [22]، وأمثاله.

وبمراكش يتعاهد كثيرا زيارة الأولياء بها كزيارة الولي أبي العباس السبتي [23]، وضريح القاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي، وأبي القاسم السُّهَيلي [24]، وغير هؤلاء ممن بحضرته العلية.

وهذا فعله في غيرها من البلدان إن مر بها، ولا يسمع بشيخ يزار إلا يقصد زيارته. وحدثني بعضهم أنه كان يتعاهد كثيرا ضريح الولي الصالح سيدي أبي مَدْيَن [25] حيث كان بتلمسان.

ويؤثر زيارة القبور لطلب الأجر وللاعتبار لما ورد في ذلك أن النبي ـــ ﷺ ـــ كان

---

(21) أغمات : تقع جنوب مراكش على بعد 30 كلم على سفح الأطلس، وقد كانت عبارة عن مدينتين مواجهتين لبعضهما وهما : أغمات ايلان، وأغمات اوريكة، وكان بينهم خصام مستحكم فرق بينهما حتى في دور العبادة، وقد انتهى هذا الخلاف فيما بعد واندثرت أغمات أوريكة وبقيت الأخرى، وذكر المؤرخون بأنها كانت في القرن 16 الميلادي تشتهر بوفرة مياهها.
انظر لسان الدين بن الخطيب، **معيار الاختيار**، ص 78، وصفي الدين البغدادي، **مراصد الاطلاع**، 1 : 98، والعباس بن ابراهيم، **الاعلام**، 1 : 100 ـــ 110.

(22) هو محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الهزميري الأغماتي، فيه وفي أخيه عبد الرحمن ألف الامام ابن تيجلات المراكشي كتابه : **أثمد العينين ونزهة الناظرين، في مناقب الأخوين**. وقد ترجم له العباس بن ابراهيم ترجمة مطولة في **الاعلام**، 4 : 253 ـــ 281 رقم 570، وانظر أيضا أ. بن قنفذ، **أنس الفقير**، ص 66 ـــ 70.

(23) انظر ترجمته عند أ. بن قنفذ، **أنس الفقير**، ص 6 ـــ 9 وقد ترجم له العباس بن ابراهيم ترجمة مطولة في **الاعلام**، 1 : 234 ـــ 325 رقم 87. كما ألف برسمه ابن الموقت كتابه المسمى : **تعطير الانفاس، في التعريف بالشيخ أبي العباس**. (طبع طبعة حجرية بفاس سنة 1336 هـ 1918).

(24) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الاعيان**، 3 : 143 ـــ 144 رقم 371، وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، 4 : 271 ـــ 272، وأ. بن قنفذ، **وفيات**، ص 65، وم. العابد الفاسي، **فهرس**، 225 ـــ 226.

(25) ألف برسمه أ. بن قنفذ كتابه المسمى : **أنس الفقير وعز الحقير في رجال من أهل التصوف : أبي مدين وأصحابه**.
وانظر يوسف بن الزيات، **التشوف**، ص 316 ـــ 325 رقم 162، وأ. بن القاضي، **جذوة**، 2 : 530 رقم 609، وم. بن مريم، **البستان**، ص 108 ـــ 114 وأ. بابا، **نيل**، ص 127، وم. بن مخلوف، شجرة، ص 164، رقم 508، وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، 4 : 303،وخ. الدين الزركلي **الاعلام**، 3 : 244.

يأتي البقيع [26]، ويقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون غدا مؤجلون وأنا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الغَرْقَد [27].

أسأل الله لنا ولكم العافية.

وفي زيارة القبور أحاديث، وهي من فعل السلف قديما وحديثا. ومما قيده أبو المجد مالك ابن المرحل المالقي [28] ليكتب على قبره، ما أنشدنيه شيخنا أبو راشد :

| | |
|---|---|
| زر غريبـــــا بمغـــــرب | نازحـــا مالـــه ولـــي |
| تركـــوه موســـدا | بيـــن ترب وجنـــدل |
| ولتقـــل عنـــد قبـــره | بلسان التذلـــل |
| رحـــم الله عبـــده | مالك بن المرحـــل [29] |

توفي — رحمه الله تعالى — سنة تسع وتسعين وستمائة [30]. ومن ذلك أيضا ما ناولنيه الكاتب الأعظم، والخضم المفخم : أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي في ورقة ما نصه : وقلت لينقش على قبرية ضريح مولانا الامام المهدي [31] أمير المؤمنين — قدس الله روحه — باقتراح أمير المؤمنين — أيده الله — :

---

(26) البقيع : يقصد بقيع الغرقد، وهو مقبرة أهل المدينة.
انظر ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، 2 : 473 — 274.

(27) أخرجه مسلم في **الصحيح**، 3 : 63، عن عائشة.

(28) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **جذوة**، 1 : 327 — 333 رقم 348، ولسان الدين بن الخطيب، الاحاطة، 3 : 303 — 324، وج. السيوطي، **بغية الوعاة**، 2 : 2871 رقم 1960، وم. الكتاني، **سلوة**. 3 : 99 — 101، وأ. المقرى، نفح، 2 : 232، 233، 551، 4، 145، 5 : 245 — 246، 7 : 453، 459، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 6 : 138، وعبد العزيز بن عبد الله، **الموسوعة المغربية**، 2 : 109، وعبد الله كنون، **النبوغ**، 1 : 225 — 226، و**سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب**، العدد 8، ومحمد بن شقرون، **مظاهر الثقافة المغربية** ص 59 — 64، وكذلك كتابه بالفرنسية :
La Vie Intellectuelle, 141 - 146

(29) انظر الابيات في **فهرس ابن غازي**، ص 73.

(30) 699 هـ توافق 1299 / 1300 م.

(31) استغلت المهدوية في المغرب استغلالا سياسيا غير ما مرة، فقامت عليها دولة الموحدين، واستعملها السعديون استعمالا محدودا في بداية أمرهم مع محمد الشيخ، وستظهر من جديد في أواخر الدولة السعدية.

حي ضريحا تغمدته رَخمات — وظللت لحده منها غمامات
واستنشقن نفحة التقديس منه فقد — هبت من الخلد لي منها نُسيمات
لَحْدٌ به كورت شمس الهدى فكست — من أجلها السبعة الأرضين ظُلْمات
يا مهجة غالها غول الردى قنصا — وأثبتت سهمها فيها المنيات
دكت لموتك أطواد العلا صعقا — وارتج من نعيك السبع السموات
قد شيعت نعشك المُزْجَى إلى عدن — من الملائك ألحان وأصوات
كان الثريا معادا تعتليه وقد — أصبحت تحت الثرى تعلوك ذرات
يا رحمة الله عاطيه سُلَافَ رِضًى — تدور منها عليها الدهر كاسات
قضى فوافق في التاريخ منه جلا — دار إمام الهدى المهدى جنات (32)

ومن هذا المعنى ما لأبي بكر محمد بن ولاد من أهل شلطيش (33) من غرب الأندلس، وجد بخطه بعد موته له :

أرجوك يارب في سري وفي علني — إن الرجاء إليك اليوم يحملني
من ذا يؤنسني في القبر منفردا — إن لم تكن يا مولاي تؤنسني
وسوف يضحك خِلٌ قد بكى جزعا — بعدى ويسلو الذي قد كان يندبني
ذنبي عظيم ومنك العفو ذو عظم — فكيف يا رب عن عفو تُخيبني
سميت نفسك رحمانا فقد وثقت — نفسي بأنك يارحمن ترحمني

ولابي بكر بن مُغاور (34) :

أيها الواقف اعتبارا بقبري — استمع فيه قول عظمي الرميم
أودعوني بطن الضريح وخافوا — من ذنوب كلومها بأديمي
قلت : لا تجزعوا عليَّ فإني — حسن الظن بالرؤوف الرحيم
وَدَعُوني بما أكتسبت رهينا — غَلِقَ الرَّهْنُ عن مولًى كريم (35)

---

(32) انظر الابيات عند أ. المقرى، روضة، 150 والافراني، نزهة، 44.
(33) شلطيش : (Saltes) بلدة صغيرة في الأندلس غربي اشبيلية على البحر. انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، 3 : 359.
(34) انظر ترجمته عند صفوان بن ادريس، زاد المسافر، ص 37.
(35) انظر الابيات عند الصفدي في الوافي بالوفيات، 2 : 21، وزاد المسافر ص 37.

ولابي اسحاق بن خفاجة :

خليلـــيّ هل من وقفـــة لتألـــم — علـى جثتـــي أو نظـــرة بترحـــم
خليلي هل بعـــد الـــردى من ثنيـــة — وهل بعد بطـن الأرض دار مخيـم (36)

ومنهـــا :

ومـــاذا عليـــه أن يقـــول مجيبنـــا — ألا عِمْ صباحا أو يقول ألا أسْلَـــمِ
وفـــاء لأشلاءٍ كَرُمْـــنَ علـــى البِلَـــى — فعـــاج عليهـــا من رفـــاتٍ وأعظـــم
يردد طورا أنّةَ الحـــزن عندهـــا — ويـــذرف طورا دمعـــة المترحـــم

ولابي بكر محمد بن ابراهيم القرشي العامري (37) الخطيب النحوى، من أهل شِلْب (38)، وأصله من مدينة باجة (39) له، ورسم أن يكتب على قبره :

لئـــن نُفِّـــذَ القـــدر السابـــق — بموتـــي كمـــا حكـــم الخالـــقُ
فقـــد مات والدنـــا آدم — ومـــات محمـــد الصادق
ومـــات الملـــوك وأشياعهـــم — ولـــم يبـــق من جمعهـــم ناطـــق
فقـــل للـــذى سره مهلكـــي — تأهب فإنك بي لاحـــق (40)

حكى أن ابن الخطيب السلماني لما توفي رؤِيء في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر الله لي بسبب بيتين هما في مشرق الغرفة، فبحث عنهما فوجدا به، وهما :

يا مصطفـــى من قبـــل نشأة آدم — والكـــون لم تفتـــح له أغـــلاق

---

(36) البيتان لا يوجدان في **ديوان ابن خفاجة**، ويوجدان عند الصفدى في **الوافي بالوفيات**، 2 : 20 — 21، بنفس النسبة.

(37) انظر ترجمته عند الصفدى في **الوافي بالوفيات**، 2 : 20، و ج. السيوطي، **بغية الوعاة**، 1 : 17 رقم 23.

(38) شلب : مدينة تقع في أقصى الجنوب الغربي للبرتغال، جنوب باجة.

(39) باجة : Beja، اسمها اللاتيني : Pax Julia، مدينة بالبرتغال تقع على بعد 140 كلم جنوب شرقي لشبونة، وكانت أيام العرب مزدهرة، وينتسب إليها علماء وأدباء معرفون.

(40) انظر الابيات عند الصفدي في **الوافي بالوفيات**، 2 : 20، و ج. السيوطي، **بغية الوعاة**، 1 : 17.

أيـروم مخلـوق ثنـاءك بعدمـا    أثنـى علـى أخـلاقك الخـلاق ؟

وقد خمسها الأستاذ أبو عبد الله محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن جابر الغساني [41]، شيخ أبي عبد الله القوري — قدس الله روحه — وأسكنه من الجنان فسيحه.

يا سائـرا لضريـح خيـر العالـم    ينهـي إليـه مقـام صب هائـم
بالله ناد وقـل مقالـة عالـم    يا مصطفـى من قبـل نشأة آدم
والكون لم تفتح لـه أغلاق
بثناك قد شهدت ملائكـة السمـا    والله قد صلـى عليـك وسلمـا
يمـا مجتبـيً ومعظمـا ومكرمـا    أيـروم مخلـوق ثنـاءك بعدمـا
أثنى علي أخـلاك الخـلاق [42]

توفي ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب السلماني بسجن فاس مخنوقا [43] — رحمه الله تعالى — سنة ست وسبعين وسبعمائة، منسوبا إلى سلمان [44]، وسلمان فخذ من مراد.

ومن هذا المعنى ماروي أن أبا مالك عبد الواحد بن أحمد الونشريسي [45] لما توفي رآه في

---

(41) انظر ترجمتع عند أحمد بن القاضي، **درة**، 2 : 278 — 279 رقم 790، **جذوة**، 1 : 317 — 319 رقم 327، م. بن غازي، **الروض الهتون**، ص 22، وع. بن زيدان، **اتحاف**، 3 : 590، وم.بن مخلوف **شجرة**، ص 251 — 252 رقم 912، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 8 : 10، وعبد العزيز بن عبد الله، **الموسوعة المغربية**، 1 : 57.

(42) انظر أ. المقرى، **أزهار الرياض**، 1 : 319.

(43) كانت حياة ابن الخطيب متقلبة الى حد كبير، إذ تأثرت بتقلبات الأحوال السياسية في كل من فاس وغرناطة، وكانت بداية نهايته في عهد السلطان المريني أحمد بن السلطان أبي سالم، الذي تولى سنة 776 هـ إذ أسرع بالقبض على ابن الخطيب، وعقد مجلسا نوقش فيه هذا الأخير حول الادعاءات المحوكة ضده، وخاصة دعوى الالحاد التي صاغها ضده القاضي النبهاني، لكن هذا المجلس كان في الواقع مجلسا صوريا، إذ أن نتيجة المحاكمة كان متفقا عليها في كل من فاس وغرناطة، وافتى الفقهاء المتعصبون بأعدامه شرعا، وأعيد ابن الخطيب إلى السجن حيث دبر له الوزير المريني سليمان بن داود أمر قتله في السجن مخنوقا في سنة 776 هـ / 1375 م.

(44) سلمان : حي من مراد من عرب اليمن القحطانيين، دخل الأندلس منهم جماعة من الشام.
انظر أ. المقرى، **نفح**، 5 : 22.

(45) انظر ترجمته عند تلميذه أحمد المنجور، **فهرس**، ص 12 رقم 4، وم. بن عسكر، **دوحة**، ص 52 رقم 36، وأحمد بن القاضي، **درة**، 3 : 139 — 140 رقم 1094، **لقط الفرائد**، ص 264، 290، 300، 310، 311، 313، وم. الفشتالي، **لامية**، البيت 165، وأ. بابا، **نيل**، ص 188، وم. العربي الفاسي، **مرآة**، ص 164 — 165، وأ. المقرى، **أزهار الرياض**، 1 : 224 و 336، 3 : 307. نفح .

المنام الولي الصالح الخطيب : أبو شامة بن ابراهيم المشترائي الدكالي [46]، توفي سنة أربع وستين وتسعمائة [47] فقال له : ما فعل الله بك ؟

فأنشأ يقول :

لقد مسني رضوان ربي وفضله ... ولم أر إلّا الخير في وحشة القبر
وأني أسأل الالاه بفضله ... ليحفظني يوم الخروج إلى الحشر
وما بعد ذاك من أمور عسيرة ... كنشر الكتاب والجواز على الجسر
بجاه النبي الهاشمي محمد ... وأصحابه والآل ذي الشرف الغر [48]

توفي أبو مالك عبد الواحد بن أحمد سنة خمس وخمسين وتسعمائة. حدثني شيخنا أبو راشد أن أبا نواس الحسن بن هانىء البصرى، لما مات ريء في المنام فقيل له : يا أبا نواس، ما فعل الله بك ؟ فقال له : لات حين الكناية قل ابن هانىء ! اعلم أن الله غفر لي بسبب أبيات وهي في الوسادة، ففحص عنها فإذا فيها هذه الأبيات في رقعة :

يا رب أن عظمت ذنوبي كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فمن الذي يرجو المسيء المجرم
أدعوك رب، كما أمرت، تضرعا ... فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم
مالي إليك وسيلة إلا الرجا ... وجميل ظني ثم إني مسلم [49]

---

7 : 406، وم. القادري، **نشر**، 1 : 28 و 107، وم. الحضيكي، **طبقات**، 2 : 200 ــ 204، وم. الحجوى، **الفكر السامي**، 4 : 101، وم. الكتاني، **سلوة**، 2 : 146 ــ 148، وم. بن مخلوف، **شجرة**، ص 282 ــ 283 رقم 1086، وم. حجي، **الحركة**، 2 : 350، وعادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر**، ص 107 ــ 108.

C. Brockelmann, Sup. 273.

(46) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **درة**، 2 : 207 رقم 650، **جذوة**، 1 : 248 رقم 243، وأ. المنجور، **فهرس**، ص 12 رقم 5، وم. الحضيكي، **طبقات**، 1 : 156 ــ 157، وم. بن عسكر، **دوحة**، ص 57 رقم 40، وم. الكتاني، **سلوة**، 2 : 131، وم. حجي، **الحركة** 2 : 352.

(47) 964 هـ توافق 1557 م.

(48) انظر الابيات في **فهرس أ. المنجور**، ص 55.

(49) أسندها لراويها أبو بكر الانبارى في **نزهة الالباء، في طبقات الادباء**، ص 68 ــ 69، بالشكل الآتي : « قال أحمد بن يحيى عن محمد بن رافع قال : كان أبو نواس لي صديقا فوقعت بيني وبينه هجرة في آخر عمره، ثم بلغتني وفاته فتضاعف علي الحزن فبينما أنا بين النائم واليقظان إذ أنا به، فقلت : أبا نواس، =

وقيل إنما وجد في الوسادة هذه :

| | |
|---|---|
| تأمـــل في نبـــات الأرض وانظـــــر | إلـــى آثـــار ما صنـــع المليـــك |
| عيــــون من لجيـــــن جاريـــــات | علـــى أطرافهـــا الـــذهب السبيـك |
| علـــى قضب الزمــــرد شاهـــــدات | بأن الله ليس له شريك |

وقيل هذه الأبيات، وكانت في جدار داره :

| | |
|---|---|
| إنـــي رضيت عليـــا قدوة حكمـــا | كمـــا رضيت عتيقـــا صاحب الغـــار |
| وقـــد رضيت أبـــا حفص وسيرتـــه | وما رضيت بقتل الشيخ في الـــدار |
| إن كنت تعلـــم أنـــي لا أحبهـــم | إلا بحـــبك فاحجبنـــي من النـــار |

حكي أن العتبي كان جالسا عند قبر النبي ﷺ فدخل أعرابي للضريح المطهر، وجعل يقول : السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا خير خلق الله، إني سمعت الله تبارك وتعالى يقول : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك، فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول، لوجدوا الله توابا رحيما [50] ». وقد جئتك مستغفرا من ذنبي، مستشفعا بك ربي، وأنشأ يقول :

| | |
|---|---|
| يا خير من دفنت بالقـــاع أعظمـــه | وطـــاب من طيبهن القـــاع والأكـــم |
| نفسي الفـــداء لقبـــر أنت ساكنـــه | فيـــه العفـــاف وفيـــه الجـــود والكـــرم |

---

= فقال : لات حين كنية، فقلت : الحسن بن هانىء، قال : نعم، قلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ــ عز وجل ــ بأبيات قلتها، وهي تحت ثني الوسادة، فأتيت أهله، فلما أحسوا بي أجهشوا بالبكاء، فقلت : هل قال أخي شعرا قبل موته ؟ قالوا : لا نعلم إلا أنه دعا بدواة وقرطاس وكتب بيتا لا ندري ما هو، فقلت : ائذنوا لي أن ادخل، فدخلت إلى مرقده فاذا ثيابه ل تحول بعد، فرفعت وسادة فلم أر شيئا، ثم رفعت أخرى إذا برقعة مكتوب فيها :

| | |
|---|---|
| يا رب ان عظـــمت ذنوبـــي كثـــرة | فلقـــد علـــمت بأن عفـــوك أعظـــم |
| إن كان لا يرجــــــوك إلا محســـن | فبمـــن يلـــوذ، ويستجيـــر المجـــرم |
| أدعـــوك رب، كمـــا أمـــرت، تضرعـــا | فإذا رددت يدي فمـــن ذا يرحـــم |
| مالـــي إلـــيك وسيلـــة إلا الرجـــا | وجميـــل عفـــوك ثم إنـــي مسلـــم |

(50) الآية 64 من سورة النساء.

فنامت عينا العتبي في الحال، فرأى النبي ﷺ في الحال، وقال له : يا عتبي، الحق الأعرابي وقل له : إن الله غفر لك [51]. حدثني بهذه الحكاية صاحبنا الفقيه أبو القاسم بن محمد الوزير الغساني [52]. وبالجملة فالزيارة فيها فكرة للمتفكرين، وعبر للمتعبرين، وهي لزجر النفس من أعظم الأسباب، وما يتذكر الا أولو الألباب.

---

(51) انظر القصة عند الماوري في **الأحكام السلطانية** : 109 ــ 110، وابن مليح السراج، **أنس الساري**، 98 ــ 99.

(52) أبو القاسم بن محمد الوزير الغساني هو أشهر طبيب مغربي في العصر السعدي على الاطلاق، وقد اعترف له بالفضل في هذا الميدان جميع المعاصرين له مثل أحمد بن القاضي في **المنتقى ودرة الحجال**، 3 : 289 رقم 1368، وأحمد المقرى في **روضة الآس**، ص 217 ــ 223.

واحتفظت المكتبات العامة والخاصة بالعديد من كتبه التي تدل كلها على براعته في هذا الميدان مثل :

ــ **حديقة الازهار، في شرح ماهية العشب والعقار**، مخطوطات م. ع بالرباط أرقام 1684 د و 1685 د و 1686 دو وكلها مبتورة، م. م. بالرباط رقم 2994 تام.

ــ **اختصار حديقة الأزهار**، مخطوطات م.ع بالرباط أرقام 760 د، 359 ج، م. م. بالرباط 1063 و 7336.

ــ **تفسير بعض الأعشاب والعقاقير**، مخطوط م. ع بالرباط رقم 1121 د ضمن مجموع، ورقة 140 ــ 154.

ــ **الروض المكنون، في شرح رجز ابن عزرون**، مخطوطات متعددة، أحسنها مخطوط. م. ع. بالرباط رقم 1386 بخط المؤلف.

**ملاحظـــة** :

تمكن الاستاذ محمد المنوني من العثور على تاريخ وفاته عند ميارة في شرحه على المنظومة العاصمية، وهو سنة 1019 هـ. ومن المعلوم أن القادري وضعه في عداد من لم يقف على تعيين زمن وفاتهم من أهل المائة الحادية عشرة.

# الباب السادس

## * في حسن ظنه بالله الكريم
## وقوة رجائه في فضله الجسيم

لاشك أنه لا يتصف بمثل هذه النادرة الجليلة ، والخصلة الجميلة ، إلا النادر من السعداء ، ولا يمكن أن تكون لأحد من المطرودين البعداء ، لأن الوثوق بالله والتوكل عليه ، أمر عظيم وسبب فيما لديه ، فهو ـــ أيده الله ـــ قوي الرجاء في فضل الله ، شديد التوكل في أفعاله كلها على الله ، كثير الخوف منه ، واقف عندما حد له ، فلقد جمع بين الرجاء والخوف كما هو شأن المومن الكامل العالم العامل ، واختلف في أيهما أفضل : هل الرجاء ؟ أم الخوف ؟ والمختار أن الانسان يغلب الخوف حال الصحة ، والرجاء حال المرض والكبر ، ووردت أخبار تدل على فضل الجمع بينهما ، وكذلك آي من **القرآن** العظيم كقوله تعالى : ﴿فلا يأمن مكر الله [1]﴾، و ﴿أنه لا ييأس من رَوْح الله القوم الكافرون﴾ [2] ،وقال تعالى : ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ [3] ، و ﴿وإن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ [4]

وفي **الصحيح** :« لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو علم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد »، رواه مسلم [5] ، وعن أبي سعيد الخدري [6] ـــ رضي الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم ، فإن كانت صالحة قالت : قدموني ! قدموني ! وإن كانت غير صالحة قالت : ياويلها ! أين تذهبون بها ؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الانسان ، ولو سمعه صعق »

---

(1) الآية 99 من سورة الأعراف.
(2) الآية 87 من سورة يوسف.
(3) الآية 106 من سورة آل عمران.
(4) الآية 167 من سورة الأعراف.
(5) أخرجه مسلم في **الصحيح**، 8 : 97، عن أبي هريرة.
(6) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 3 : 138، والمصادر بالهامش 1.

أخرجه البخاري [7] . وعن ابن مسعود [8] ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ : « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك » ، رواه البخاري ، [9] . ومولانا ــ أيده الله ، وسدده ــ اتصف بهما : أي بالخوف والرجاء ، واتفق العقلاء على هذا . واتصف أيضا بحسن الخلق والخلق ، ولقد مدح الله بهما نبيه ﷺ فقال : ﴿وأنك لعلى خلق عظيم﴾ [10]، وقوله تعالى : ﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضُّوا من حولك﴾ [11].
وبالجملة فقد جمع من خوف الله عز وجل ورجائه في شدائده مالم يجمعه غيره ولله در القائل :

| | |
|---|---|
| يا رجائـــي في شدتـــي يا قريب | يا سميـع لمـن دعايـا مجـيب |
| أنت حي مهيمــن صمـــدي | أنت لا والـــد ولا مولـــود |
| أنت نور السمـــا وأنت هداهـــا | أنت في القـلب حاضر لا تغـيب |
| تعست ليلـــة عصيـــتك فيهـــا | كيـف لا أستحيـي وأنت الرقـيب |
| أنت عزي وملجئـــي وغياثـــي | أنت قصدي وقـاصدك لا يخـيب |
| أنت ذخـري وعدتـي ومـــلاذي | ليس للقـــلب في سواك نصيب |
| أنت حي ومـــا سواك محـــال | يا مرادي وسيـــدي يَا جـــبيب |
| أنت أوقفتـــي ببـــابك عبـــدا | داونـي سيـدي فأنت الطبـــيب |
| أنت نور الوجـــود في كل حال | منك فيـــه لوامـــع لا تغـــيب |
| كل كون بدا لسرك يُجلـــــــى | عشقت سره لهـذى كذا القلـــوب |
| نطـقت ألسن العوالـــم جَمْعـــاً | إنك اللـــه واحـــد وقـــريب |
| وجـذبت القلـوب باللطـف جذبـا | فتراهـــا من الغـــرام تطـــيب |

ولبعض المحبين :

| | |
|---|---|
| أضحـى محـبك ساكب العبـرات | يا من مماتـــي في هواه حياتـــي |
| وسقيتـــي من كاس حبك شربـــة | فسكـرت منه وطـاب فيـه مماتـي |
| غنـى بذكـرك يا حبيبـــي منشدي | فطـربت عنـــد حلاوة النغمـــات |

(7) أخرجه البخارى في **الصحيح**، 2 : 87، عن أبي سعيد الخدرى.
(8) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 4 : 280.
(9) أخرجه البخاري في **الصحيح**، 7 : 186 ــ 187 ، عن عبد الله بن مسعود.
(10) الآية 4 من سورة القلم.
(11) الآية 159 من سورة آل عمران.

فتواجدت روحي وطاب تهتكي وتصاعدت من مهجتي زفرات
أقصر عذولي عنك، عذلي إنني قد طاب فيه تمزقي وشتاتي
ولقد جلا قلبي بطيب حديثه حتى صفت في حبه مرآتي
فيكم ومنكم سادتي وبفضلكم قد أشرقت بجمالكم مشكاتي
أسمعتني من قبل جَمْعِ تَكَوُّني بِأَلَسْتُ، قلت : بلى وكل جهاتي
وشهدت في توحيده بكماله وبلطفه في سائر الحالات
وطرقت بابك سيدي من فاقة كم طارق أتحفته بصلات
لبيت لما جاءني منك الندا وسعيت من شوقي على وجناتي
ووقفت في عرفات أوقات المنا ورميت أحشائي على الجمرات
وأتيت في نسكي بكل لطيفة وأزلت ما عندي من الحسرات
وأفاض في قلبي جواهر فضله ولقد ملا من فضله راحاتي
بشراك يا قلبي بما قد نلته بتلاوة الأذكار في الخلوات

ولبعضهم :

إذا شهدت يوم المعاد جوارحي فكيف خلاصي من ظهور قبائحي
اذا قالت العينان : تذكر ساعة نظرت بنا للمنكرات الفضائح
وقال لساني : كم نطقت بباطل وكنت إلى العصيان أول رائح
فإني إلى نار تلظى جحيمها أساق ذليلا خاسرا غير رابح
فان مَنَّ ذو الغفران بالجود والرضى نجوت وإلا كنت رهن فضائح

ولبعضهم :

قم في الدجنة لاتذا بجنابه فعساك تحظى ساعة بخطابه
واسكب دموعك في الظلام بخشية فلعل تسقى من رحيق شرابه
فالقوم قد وقفوا بباب مليكهم طوبى لهم فازوا برفع حجابه
ناداهم طيبوا فقد أسقيتكم كاس المحبة أنتم أولى به
فتمايلوا طربا لطيب حديثه ولذاك باتوا واقفين ببابه
واحسرتي ذهب الزمان ولم أزر تلك القباب وأحتمي بجنابه
ياليت شعري هل أنال مآربي قبل الردى وأعود في محرابه

وتعـود أيـام الـوصال فأنثـني نحـو الضريـح مقبـلا لترابـه
صلـى علـيك الله في ملكوتـه وعلـى جميـع الآل ثم صحابـه

ولبعضهم :

قلب أحب سواك لا نال المنـى وجنت عليه يد الصدود بما جنـى
كيـف التعـوض عن هواك بغيـره ولنـا إلـيك الفقـر لا عنك الغنـى
لاغـرو أن يقضي بحـبك عاشق وجـد الممـات ألـذ شيء يقتنـي
أن لم تمت روحـي جوى وتشوقـا فأنـا المسيء وقـد وجدتك محسنـا
يا من تجلـى في الوجـود لناظـري فوجدتـه من كل شيء أحسنـا
لمـا دعـاه هواك لبـى طائعـا وتصورت كل الجـوارح ألسنـا
قد مسنـي ضر فإن تك راضيـا لي بالضنـى يا حبـذا ذاك الضنـي
صل عاشقا هجر الكرى وجفا الورى ورأى المحبـة دينـهُ فتدينـا

ولبعضهم :

كرر حديث أحبتـي يا مطـرب إن الحـديث عن الأحبـة طيب
أحيـيت أمـوات القلـوب بذكرهـم فأعـد وقـل لا عاش من لا يطـرب
وإذا تهـتك عاشق من شوقـه وبكـى وبـاح بسره لا يعـتب
من ذا يطيـق الصبر عند سماع من أوصاف من لهـم الملاحـة تنسب
طاب السمـاع فكيـف ما وافيتـه تذكارهـم من كل طيب أطـيب
وعلى الوجـود أديـر كاس هواهـم يا أيهـا الظمـآن لم لا تشرب
هم جيرة الـوادي الذيـن بقربهـم تحيـا قلـوب العاشقيـن وتسلب

وللشيخ محيي الدين النووي [12] :

أنظرَ إلى الأطلال كيـف تغيـرت من بعد ساكنهـا وكيـف تنكـرت
سحب البِلَـى أذيالـه برسومهـا فتساقـطت أحجارهـا وتـكسرت
لمـا نظـرت تفكـرا لديارهـم سحت جفونـي عبـرة وتحـدرت

(12) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 9 : 184 — 185، والمصادر بالهامش 1.

لو كنت أعقل ما أفقت من البكـا حسبـي هنـاك ومقلتـي ما أبصرت
نصبت لنا الدنيا زخـارف حسنهـا مكـرا بنـا وخديعـة ما فتـرت
غدارة لم تحـل قط لذائــق إلا تغيـر طعمهـا وتمـررت
خداعـة بجمالهـا إن أقبـلت فجاعـة بزوالهـا إن أدبـرت
وهابـة سلابـة لهباتهـا طلابـة لخلائهـا ما عمـرت
واذا بنت أمـرا لصاحب ثروة نصبت مجانقهـا عليـه فدمـرت

ولبعضهم :

طابت بطـيب وصالكـم أوقاتـي وصفـا بقربكـم نعيـم حياتـي
وعَلَـيَّ في حانـات ذكـر هواكـم طافت بخمـر وصالكـم كاساتـي
فهُـدِيتُ لمـا انصفت وتشعشعت وسعت أشعـة نورهـا في ذاتـي
واستعـذبت لذات عيشي كلهـا وصفت بصفوتهـا جيمـع صفاتـي
فهي التي ما خامرت قبل امـرىء إلا وزالت ظلمـة الشبهـات
فأتـيت حَانتهـا أطـوف ملبيـا وبنورهـا أسعـى إلـى ميقاتـي
فرمت بخمرتهـا صميـم حُشاشتـي فالقـلب منقـلب علـى الجمـرات
نلت المنى بمنـى علـى عرفاتهـم أنكـرت ألْآفِـي علـى عرفـات
قلبـي يشاهدكـم وصفـو سريرتـي تخلـو بكـم بالذكـر في خلواتـي
ما غبتـم عن ناظـري حاشاكـم في سائـر الحركـات والسكنـات
وأنـا الفقيـر المستجيـر بعفوكـم فتعطفـوا بالصفـح عن زلاتـي
يا سادتـي فتحكمـوا ما شئتـم في عبدكـم فالحكـم للسادات

ولرابعة [13] ــ رضي الله عنها ــ :

لك في القلـوب منـازل ومقـام لا العقـل يدركهـا ولا الأفهـام
ولقلبـي المشتـاق فيك صبابـة لا الدهـر يُنْفِذُهـا ولا الأيـام
وسرت إلـى الأرواح منك نسيمـة سكـروا بها الـعشاق فيك وهامـوا

---

(13) انظر ترجمتها عند أحمد بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 2 : 285 رقم 231، وكذلك كتاب عبد الرحمٰن بدوى، **رابعة العدوية شهيدة العشق الالهي**، وفيه ذكر لمصادر ترجمتها. وأيضا أحمد الشريسي شارح المقامات، 2 : 231.

من أصبحت خطرات ذكرك قوته ... وفؤاده مأواك كيف ينام
ومن التجا بجناب عزك ذِلَّةً ... واستمسك بعراك كيف يضام
ما الوجد وجد أن عداك ولا الهوى ... الا هواك ولا الغرام غرام
وإذا خلت منك الخيام وأصبحت ... مأوى سواك فما الخيام خيام

ولبعضهم :

جسمي على حكم الضنى موقوف ... أبدا وطرفي بالبكا مطروف
والقلب حول جمالكم ورضاكم ... يسعى على قدم الصفا ويطوف
فبحسنكم قلبي يهيم صبابة ... وبحبكم أبدا أنا موصوف
وبوصلكم قد عدت من هجرانكم ... فأنا الحزين وقلبي الملهوف
وبكم عرفت، فكيف تنكّر حالتي ... فبحقكم لا يقطع المعروف
مالي سوى أبوابكم ياسادتي ... والقلب من هجرانكم مرجوف
حاشاكم أن تطردوا عبدا لكم ... عن بابكم قد جاء وهو مخوف
يبغي الأمان ومنكم يرجو الرضى ... والستر فهو لديكم مكشوف

ولبعضهم :

قلبي لطول بعادكم يتمزق ... ومدامعي من مقلتي تتدفق
ولهيب أحشائي يفوق على لظى ... فلذاك تلفى (كذا) جمر دمعي تسبق
وترى لها هطلا إذا أبدى الهوى ... خوفا وان سكن الجوى تترفق
والقلب يرعد والمدامع سُحْبُها ... تهمي وأسياف المنايا تُبْرُقُ
وأنا الذي أمسي وأصبح في الهوى ... سكران لكن المدام تشوق
واذا رأى خالي الهوى حالي بكم ... أضحى يقول : جنون هذا مطبق
ويقول لو نام استراح، أفي الهوى ... نوم وسلطان الهوى لا يرفق

ولنرجع إلى ما كنا بصدده.

فمن شدة توكله على الله عز وجل أن مكنه الله من ناصية كل مناوىء له، ومهد له البلاد والعباد. فمن نيته الصالحة، وهمته الزكية وبركته الواضحة، يقول : أنا بالله تعالى لا بغيره، وأموري كلها بيده.

ولمؤلفه في هذا المعنى :

رفعت أموري إلى خالقي جميعا وفوضت حالي إليه
لذاك كفاني ما أتقي من الضيم، حسبي اتكالي عليه

ولابن جابر في مثل هذا المعنى ــ أعني أبا عبد الله محمد بن يحيى المتقدم ذكره ــ :

نظرت إلى الوجود بعين قلبي فلم أر فيه غير الله وحده
فكن بالله وارج الله واعمل للقيا الله تأمن كل شده

وله ومن خطه نقلت :

على قدر نية أهل التوكل يعطيهم الله منه المعونه
فإن صحح العبد إيقانه كفاه المهيمن هم المئونه

وله أيضا :

إذا كان ظني بربي جميلا ولم اتخذ غيره لي وكيلا
أتتني لطائفة بالذى رجوت وكان بأمرى كفيلا

# الباب السابع

## * في نظره في أمر رعيته وأحوالها
## وملاحظته لشؤونها وأفعالها

* ورد الشطر الثاني من العنوان في « ج هكذا :
وملاحظته لجميع شؤونها وأفعالها.

اعلم أنه ــ أيده الله تعالى ــ قد سن في رعيته سنة اهتداء، وانتهج فيها مناهج اقتداء، وذلك كله من فعل عظماء السلاطين المهتدين. فمما سن في ذلك ما قدمناه أنه إذا صلى الجمعة تارة يجلس بمقصورة المسجد وتارة عند ضريح والده ــ قدس الله روحه، وأسكنه من الجنان فسيحه ــ وتارة بقبته الخمسينية التي شادها في بديع أنسه للشكية، فتعرض عليه في المواضع المذكورة القضايا، وترفع له هناك الشكايا، فيقضي فيها بعد له وقسطه، ولا يخرج عنه في حالتي قبضه وبسطه، وربما يعرض عليه شيء منها في أيام الديوان : السبت والاثنين والأربعاء، بل لا بد وأن يعرض عليه منها في كل يوم. ويعين لشأن الرعية من يثق بنصحه لعباد الله المسلمين وفيه شفقة على أمة محمد من الرؤفاء الرحماء، الناصحين الكرماء. فممن عينه لذلك الفقيه الصوفي المحب المفتي الحافظ الزاهد الخير، الورع الدين، الهين اللين، الخاشع الأواه : أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف الحسني ــ أحسن الله إليه، وأسبل نعمه عليه ــ والفقيه الأجل، القاضي الأعدل، قاضي القضاة بالحضرة العلية، من الديار المراكشية : أبو القاسم بن علي الشاطبي، والفقيه الأجل الأكمل، الأتقى الأنقى، الأسعد الأصعد، الأنصح لعباد الله تعالى : أبو الحسن علي بن سليمان التاملي. ومن الفقهاء الكاتب الفقيه الكاتب، الناظم، الناثر، حجة الاعلام، وحسنة الليالي والأيام، أبو فارس عبد العزيز بن محمد بن ابراهيم الفشتالي، والفقيه الكاتب الحافظ، الناظم، الناثر : أبو عبد الله محمد بن علي الفشتالي ــ أعلى الله مقامه، ورفع أقلامه ، والفقيه الكاتب اللوذعي، الفكاهة الحافظ، الناظم الناثر، الأسمى الأسنى : أبو عبد الله محمد بن عمر [1] وغير هؤلاء ممن يطول ذكرهم. ومن وزرائه كالقائد الأعظم، والخضم المفخم،

---

(1) يقصد أبا عبد الله محمد بن عمر بن قاسم الشاوي، الأديب، الناظم الناثر، اللوذعي، قال عنه م. الافراني في **نزهة الحادي** : « ... وكان قديم الصحبة للمعتصم، واغترب معه في بلاد الجزائر مدة مديدة، وستين عديدة، فلما أفضت الخلافة للمنصور سوغه مغارم مسفيوة بمداشرها مكافأة على الهجرة... ».
انظر ترجمته عند م. الافراني، **نزهة**، ص 125، والعباس بن إبراهيم، **الأعلام**، 5 : 180 ــ 182 رقم 653، وعبد الله كنون، **النبوغ**، 2 : 602.

الأسمى الأسنى، الأمجد الأنجد، الأحظى الأرضى، المحسن الأنصح، القائد الأرجح : أبو سالم ابراهيم بن محمد السفياني الروقي صانع إيالته العلية، وناصح دولته الهاشمية، فكم من حسنة نيلت على يده — أيده الله — وكم من محمدة اكتسبت من لدنه — أبقاه الله —. ويعين في كل سنة من يتفقد أحوال رعيته، ومن ينهي أمرها بحضرته، ويأخذ العهد من خواصه وجلاسه على مثل هذه الأمور ألا يخفوا عنه شيئا، جل أو صغر، ولا يغادروه صغيرة ولا كبيرة من أحوال رعيته، وقد يتولى بعض هذا بنفسه فيركب ويشق مراكش ليفحص في ركوبه عن أحوال رعيته، ويتوصل إلى شكيته، وقد شاهدت ذلك، ولم يزل على هذا النحو في كل نفس، فأوقاته بالمصالح معمورة، وسيره في ملوك الأرض مشهورة، وهو أبدا رافع لما يرفع إليه من ظلمات الظلم، ويأمر بالنداء في البلدان يرفع ذلك إليه، وقد نودي بذلك سنة أربع وتسعين (وتسعمائة) في سواحل البحر وأنا في ربقة الأسر وبلغ ذلك للكفرة — أذلهم الله ودمرهم — فبلغ منهم ذلك مبلغا عظيما وشق عليهم كون ملك من ملوك المسلمين يتصف بمثل هذا العدل العظيم، وبمثل هذا القسط الجسيم، ولما أخرجني من الأسر أخبرته بهذا كله وبما وقع منهم — أذلهم الله تعالى ولعنهم —. فحمد الله لذلك وأثنى عليه. وسلك مسلكه في عدله وهديه أولاده المكرمون المعظمون، المهتدون، فمنهم ولي عهده ووصيه على الخلافة من بعده، مولانا أبو عبد الله محمد المامون — أمن الله روعته، وسترعوته — لما ولاه مدينة فاس، لاحظ سيرة والده في كل الانفاس [2]. وقد شوهد من عدله في رعيته، وقيامه بالجيش وأكتاد دولته، ما صيره في الخلفاء كنار في علم.

ومن يشابه أبه فما ظلم [3]

وسيره أعظم من أن تحصى، أو يمكن أن تستقصى، وقد مدحه الناس بقصائد، فمن ذلك ما

---

(2) كان المنصور يولي عناية خاصة للمامون على اعتبار أنه ولي للعهد من جهة وكخليفة لأبيه في فاس من جهة أخرى، لكن سرعان ما ظهر في أواخر عهد المنصور سوء تصرفه تجاه الرعية، وعدم خبرته في تسيير الدولة، ومحاولة استبداده بالسلطة، اذ استغل الأوضاع المضطربة آنذاك والناتجة عن الطاعون المستشرى في المغرب، ومرض المنصور سنة 1010 هـ / 1601 م للخروج على والده (انظر رسالة في الموضوع وجهها المنصور إلى ابنه المامون مؤرخة في جمادى الاولى عام 1011 هـ / ماي 1602 م، أوردها م. الافراني في **نزهة الحادي**، ص 182 — 183) وقد قام المنصور بمحاولات عديدة لا صلاحه، لكن فشلت كل هذه المحاولات الأمر الذي اضطره إلى سجنه.

انظر في هذا الصدد :

ع. الرحمن الفاس، **ذكر دولة الشرفاء**، ص 113، **وزهرة الشماريخ**، ص 98.

H. de Castries, Sources, 1ère série anglaise, 2 : 139.

(3) عجز بيت هذا صدره : بأبه اقتدى عدي في الكرم

لكاتبه أبي العباس أحمد بن محمد الفرديس التغلبي [4] قصيدته التي مطلعها :

اهـدى النسيـم تحيـة المشتـاق ... وأذاع ذكـر الشوق في الآفاق
في طي [5] مسراه وليـنِ هبوبـه ... سِرٌّ يَشِبُّ لواعـج الأشواق
لمـا سرت للـروح منـه رويحـة ... حيت فأحـيت مبتلـى بفـراق

ومنها تخلصا :

هم أتبعـوا بالسيـف كل معانـد ... ضربـا علـى الأذقـان والأعنـاق
هم الحمـو الكفـار كل وقيعـة ... فسقوهـم بالطعـن كاس دهـاق
فعلا على الأديـان ديـن نبينـا [6] ... من بعـد شرك ثابت ونفـاق
شهـد [7] الأنام بليلة سطعت بهـا ... شمس النبـوة تامـة الاشراق
وافتر ثغر الصبح عن ميلاد خيـ ... ـر العالميـن الطـيب الاعـراق
أكـرم بهـا وبيومهـا من ليلـة ... منهـا انـتشار الحـق في الآفاق
وَفَّى الامام المـرتضى المامـون من ... مقدارهـا بالبـذل والانفـاق
وأفـاض اجـلالا وتعظيمـا لهـا ... وأصنـاف نعمـى جوده الدفـاق

ومنهـا :

[ يَبْدُو وَلَوْن المجـد في قَسَماتـه ... أجلـى من الأنـوار في الاشراق[8] ]

ومنهـا :

فالديـن يعلـو كعبـة لمقامـه ... والكفـر في ذل وفـي ارهـاق

---

(4) انظر ترجمته عند أحمد بن القاضي، **درة**، 1 : 103 — 105 رقم 144، وأحمد المقرى، **روضة**، ص 183 — 187 رقم 8، وم الافراني، **صفوة**، ص 108، وم. القادري، **نشر**، 1 : 113، والعباس بن ابراهيم، **الاعلام**، 2 : 282 — 285 رقم 221.

(5) عند أ. المقرى في **روضة الآس**، ص 183 : طيب.

(6) عند أ. بن القاضي في **درة الحجال**، 1 : 104 : محمد.

(7) عند أ. المقرى في **روضة الآس**، ص 183 : سعيد.

(8) ما بين المعقوفين سقط من **درة الحجال**، 1 : 104.

لازلت في عز ونصر ضافيـــــا    حلـل المنـى [9]مرقومـة الأطـواق

وله يمدحـه :

تبـدت فأبـدى الثغـر من لؤلـؤ سِمْطًا    وفـوقت الألحـاظ سهمـا فمـا أخطـا
وحـطت علـى ورد الخـدود سوالفـا    أجـادت بخيـلان لنونتهـا النَّقْطـا
وحـطت قنـاع الحسـن بعـد تمنـع    فمـن أجلـه درع التجلـد قد حطـا
وصدت حيـاء عنـد ذا وتبسمت    وألـقت علـى الخدين انملهـا السبطا
وصالت بذل وامتنـا وعـزة    ونخـوة تيـه جاوز القـدر والفرطـا

ومنهـا :

تميـل بردف يولـم الـخصرَ خصبُـه    فذا يشكر النعمى وذا يشتكى القحطا
تديـر رُضابـا من لماهـا وظلمهـا    ومـن سحـر عينيهـا سُلافـا واسفنطـا

ومنها تخلصا :

بمولـدِه السامـي العوالـم بشرت    وشبت وقـد كانت ذوائبهـا شُمْطَـا
وسرت به الفـردوس ثم تزينـت    وأظهـرت الـرُسْل الكـرام به غَبْطَـا
وأضحـى به الاسلام والديـن ظاهـرا    ووافـى ديـار النصر والعـز مختطـا
بموسمـه المولـى اعتنـى فأقامـه    ووافـاه اجـلالا وأعظمـه قسطـا
امـام الهـدى مامـون آل محمـد    مليك أقـام العدل واجتنب القسطا
له همـة تعلـو الثريـا نزاهـة    وفخر علـى متن السماكيـن قد خَطًّا
وعزمة حزم في الحـوادث إن مضت    تعـود وقـد قَطَّت رقـاب العـدا قطـا
وهمـة عزم في وقـار سكينـة    وفطرة حلـم تنكـر الجهـل والسخطا
ففـي حالتي حرب الزمـان وسلمـه    تريك بوادي حالـه القبض والبسطـا

[ ومنها ختاما :

فدام ودام الـنصر يَعْضُدُ أمـره    وكـان سنـام العز من بعض ما أَمْطا

---

(9) عند أ. بن القاضي، درة، 1 : 105، وأحمد المقرى، روضة، ص 186 : البها

وتــوح تاجــا من سنــا ومهابـــة وطـوق من فخـر الثنــا دُرَراً سِمْطَــا

ولد الفقيه الكاتب المذكور في أوائل شعبان سنة سبع وأربعين وتسعمائة [10] ]. ومما مدحه به كاتبه أبو عثمان سعيد بن أبي القاسم التاملي قصيدته التي مطلعها :

أزور وسترى عندها الشَّعَرُ الوَخْـفُ ولا رُسْلَ إلا ما يشيــر به الطــرفُ
[ طبعنا على حب التواصل في الهوى فكـل تجــن بيننــا بعــده عطـــف
صبرنا ليالــي البعــد علمــا بأنهــا سيخلفهـا من بعدهـا اللثم والــرَّشْفُ
إلى أن تناهى بيننا البعــد أقبـلت بوجه هلال حار في حسنه الوصف
فعانــقت منهـــا أملـــداً عصفت به رياح اشتياقي من جَنَى خده قطف [11] ]

ومنها في مدحه :

عَفيـفُ إِزَارٍ طاهــرُ العــرض ماجــدٌ لكـل مديــح من شذا مدحــه عَرْفُ
لقــد جَرَّدَ المــنصورمنك مُهَنَّـــداً لدين الهدى في حده الجبر والتلف
كساك الاه العـــرش ثوب مهابـــة فأنت وحيــد لا يقاومـــه ألـــف
[ لقــد عز ديــن أنت ناصر حزبــه وذلت رقـاب من فنـاك لهـا الحتــف

وله يمدحه بقصيدة طويلة جدا :

أغالب شوقا سل نحوي ظُبَى الهند فأغمدهـا طَيَّ الــحشا بدل الغمــد
أغــازل غزلان الحمـــى بتغزلـــي وأستعطف الأرداف في معطف البرد [12] ]

لكاتبه أبي فارس عبد العزيز بن محمد بن عبد الله التاملي يمدحه بقصيدة مطلعها :

---

(10) ما بين المعقوفين سقط من « م ».
وشعبان سنة 947 هـ يوافق دجنبر سنة 1540.
(11) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».
(12) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».

تجلت بطاح الأرض في حلل خضر بديعات وَشْي أتقنته يد القَطْرِ
تخالف فيها لون كُلِّ رشيقةٍ مُباينةِ الأشكال من أضْرُبِ النَّوْرِ

ومنها ختاما :

فلا زلت بدرا في سما الملك طالعا تطاوعك الأقدار في النهي والأمر

ومنهم واسطة عقد المجالس، وفارس الفوارس، ولده الواثق بالله : مولانا أبو فارس، ضبط بالعدل أحوال الرعية وأحصى، لما أن ولاه والده السوس الأقصى، وكذلك شوهدت منه السير المرضية، والشهامة الهاشمية، لما أبقاه في الحضرة المراكشية، ولقد مدحه خلق كثير، فممن مدحه خلق كثير، فممن مدحه كاتبه أبو محمد عبد القادر بن أحمد بن أبي القاسم بن صالح الفشتالي اليزيدي [13]، ولد سنة أربع وستين وتسعمائة [14]، فله مما كتب على نجاد سيفه ـــ أبقاه الله تعالى بمنه ـــ :

أتيه وأزري بكل نجاد يروق على حِلْيَة اللابسِ
إذا كنت يوم الوغى مِحْمَلًا لِعَضْبٍ حكى شعلة القابس
على عاتق الملك المرتضى سليل الوصيِّ أبي فارس

وله أيضا ـــ لما عوفي مخدومه من مرض ألم به ـــ :

لما أعاد الله صحتك التي من فقدها فقد الكرى بمحاجر
سرت البشائر في الورى وتسابقت خيل السرور لكل قلب حائر
وبدت رياض المكرمات يوانعا تهتز زهوا كالقضيب الناضر
يا واثقا بالله يا بحر الندى أنت الزمان وضوء عين الناظر
ما نالت الأسقام منك غيرما نال الصقال من الحسام الباتر
فاعجب من الأيام تُسْقِمُهُ وقد تشفي به من كل داء ضائر
ولذلك اعتل النسيم وألْبِسَتْ شمس الأصيل لباس باس ظاهر

---

(13) انظر ترجمته عند أ. الناصرى، **الاستقصا**، 6 : 17، وم. حجي، **الحركة**، 2 : 492.
(14) 964 هـ توافق 1555 / 1556 م
وتوفي اليزيدي حوالي 1030 هـ / 1620 م

فلك السعادة عش هنيئا مسعدا لا تبتئس من حاسد لك ماكر
يا ابن النبي محمد وابن الذي ورث الخلافة كابرا عن كابر
بأكفكم وَكَفَتْ شآبيب الردى وتلاطمت أمواج بَذْلٍ زاخر
خذها إليك وقد تأرج عرفها ما بين مدحك والثناء العاطر
لا زلت في أفق الامارة طالعا بضياء بدر للهداية باهر

وللأديب أبيَ عبد الله محمد بن يعقوب الايسي [15]، الذي ولد في شعبان من عام ستة وستين وتسعمائة [16]، فيه عند ابلاله من مرضه :

وميمون طير قد جرى وَهْوَ سانحُ ببشرى غدا قلبي بها وَهْوَ فارح
بإبْلَالِ خير الناس أصلا ومَحْتِداً وأثبت عقلا والعقول جوامحُ
أبلهم كفا وأنداهم يدا وأشرق وجها والوجوه كوالح
أبو فارس نجل الوصي وهاشم عليه دليل للسماحة واضح
[ من القوم لم ينسب إلى المجد غيرهم لهم شهدت بالسبق قِدَماً أباطح[17] ]
تردَّى ثيابا للضَّنَى وكأنه كسوف على شمس الظهيرة كالح
وباتت جفون للعيون سواهر وكادت تطير من جواها الجوانح

---

(15) هو أبو عبد الله محمد بن يعقوب الأيسي المراكشي (ت قبل سنة 1010 هـ / 1601 م)، قال عنه . م . الافراني في **نزهة الحادي**، ص 168 : « كان صدر الأدباء في وقته بمراكش وغيرها بحيث كان الكتاب يرجعون إليه في عويص المكاتبات، ويترافعون إليه في حل المشكلات والمهمات ».
ووصفه أحمد بابا في **كفاية المحتاج**، ص 65، قائلا : « إني لم ألف بالمغرب أثبت ولا أصدق ولا أعرف بطرق العلم منه ».
وأورد المقرى له في **روضة الآس** مجموعة أشعار. له مؤلفات منها :
— **فهرسة** (انظر. ع. الحي الكتاني، **فهرس الفهارس**، 2 : 472 — 473، وعبد السلام بن سودة، **دليل**، 2 : 213، والمختار السوسي، **سوس العالمة**، ص 187).
— **السكة في المغرب**، مخطوط خاص بسوس.
— تآليف في أحوال اليهود قديما وحديثا (عبد السلام بن سودة، **دليل**، 2 : 447 — 448).
— تقاييد في التراجم (عبد السلام بن سودة، **دليل** ، 1 : 256).
انظر ترجمة محمد بن يعقوب الايسي عند أ. بن القاضي، **درة**، 1 : 210 — 211 رقم 654، وم. الافراني، **نزهة**، ص 168 — 169، **صفوة**، ص 53، وأحمد بابا، كفاية، ص 65، وأ. المقرى، **روضة**، ص 12، 61، 80، 259، 272 — 273 .. وعبد الرحمٰن التمارتي، **الفوائد**، ص 46، وع. الحي الكتاني، **فهرس الفهارس**، 2 : 272 — 273، وم. حجي، **الحركة**، 2 : 396.
16) شعبان عام 966 هـ يوافق ماي — يونيو 1559.
(17) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».

[ فأدبر جيش السقم عنه وأقبلت عساكر بُرْءٍ نحوه وتصافح
وشبت لنا الآمال واستحكم الرجا وقد حصل الشفاء والعيش صالح [18] ]
ولا زال يعلو الجناب ممك تمر على سمع المليك أمادح

[ وأنشدني الأديب المذكور لنفسه يهجو بعض المدرسين :

تقدمت في صدر المحافل رتبة ولو كان عدل لم تفتنا تقدما
تصدرت للتدريس والأمر مشكل ..................................[19] ثانيا ومقدما

ومدائحه كثيرة لا تحصى كثرة.

ولقد احتفل بعض الصناع في عمل مقراض كاغيد وتأنق فيه، واقترح علي بيتين يكتبهما عليه بالذهب، فقلت ارتجالا — في أوائل جمادى الأولى من عام ثمانية وتسعين [20] — :

عانقته كي لا أذوق فراقه كالمجد عانق واثق المنصور (كذا)
واذا توسط حاسد ما بيننا نفْرِيهِ فري لواحظ اليَعْفُورِ [21] ]

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من ذكر من بقي من أولاد مولانا. فمنهم ذو السمت الحسن، والهدى المستحسن، ولده مولانا : أبو الحسن، قام في رعيته مقسطا عادلا، لما أن ولاه — أيده الله — تادلا.

ومنهم نخبة الولدان، مولانا : أبو المعالي زيدان [22]، ظهر على يده عدل هتون، لما أن

---

(18) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».
(19) بياض بالأصل.
(20) جمادى الأولى عام 998 هـ يوافق مارس — ابريل 1589.
(21) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».
(22) هو زيدان بن أحمد المنصور (ت 1037 هـ / 1627 م)، كان كأبيه أشد اعتناء بالعلماء والأدباء بل كان هو نفسه أديبا، من تآليفه **تفسير القرآن** مستوحى من **تفسير ابن عطية والزمخشري** (انظر عبد الرحمن بن زيدان، الاتحاف، 3 : 72)، كما أورد له ابن القاضي في **فهرسه**، الذي أجازه فيه، مجموعة أشعار، وهي كل من بقي لنا من أدب هذا الأمير المغمور.
لكن حظه في الميدان السياسي كان بعيدا أن يكون كحظ أبيه، فقد تولى أول الأمر تادلا حيث أسس القصبة الزيدانية على وادى أم الربيع، ثم عين واليا على مكناس، ففاس، وبعد موت أبيه استطاع بعد صراع دام سنوات أي ينفرد بالحكم واستقر له الوضع نسبيا في سنة 1022 هـ بعد مقتل أخويه أبي فارس سنة

ولاه مكناسة الزيتون [23]، وانما لم نذكر ما مدح به مولانا هاشم لأني ما وقفت على شيء من ذلك. فأجرى أولاده ـــ أيده الله ـــ على العدل في المناهج المبرورة، والمساعي المشكورة، وما ذاك إلا لأن همم الملوك تسرى في أبنائهم، لتدل على أبنائهم، ليصرفو عزائمهم، في حفظ ما قلدوه، وضبط ما قصدوه، فألبابهم الذكية بكل فضلة مشغولة، وأفهامهم الزكية بالسياسة مشغولة. وأعلم أن مولانا ـــ أيده الله ـــ عظم اهتمامه بالخبرة الذين ينقلون إليه أمر عماله وأحوال رعيته [24]، وهذا مما يجب على الملوك الاهتمام به. سئل بعض العلماء : ما الذي أذهب ملك بني مروان ؟ فقال : تحاسد الأكفاء، وانقطاع الأخبار.

أما مخدومنا ـــ أيده الله ـــ فهو آية الله في الأنباء القاصية، والأخبار المتواترة النائية، فكم زرع الأخبار بسببه [ وكم [25] ] حصد الاشرار بسيفه ! حافظ للملك الذي في يده، ولم يؤخر شغل يومه إلى غده، يتفقد أمر عدوه قبل أن تشتد شوكته، وتكثر شكته، ويعالجه قبل أن يعضل داؤه، ويعجز دواؤه، منحه الله العقل الذي هو أحسن حيلة، وعلمه العلم الذي هو أحسن قُنْيَة، قويت سياسته، فكبرت رياسته، وخصاله أكبر من هذا كله ـــ أبقاه الله تعالى بمنه ـــ، وهو محفوظ من أنواع الظلم والغفلة عن رعيته، وما عسى أن أثبته من شِيَمِهِ الحسنة، ومآثره المستحسنة :

**لو أننـــا والخلـــق جمعـــا ألسن نثني عليــه لمـــا قضينـــا الواجبـــا**

حكي أن رجلا أصابته ظلامة في أيام المامون فلم يستطع الوصول إليه ليشكو ظلامته،

---

1017 هـ. انظر ترجمة زيدان بن أحمد المنصور عند قاسم بن القاضي، **تنوير الزمان بقدوم مولانا زيدان**، مخطوط م. م رقم 255، وأ. بن القاضي، **درة**، 1 : 277 ـــ 278 رقم 430، **رائد الفلاح**، الفصل الأخير، وع. الفشتالي، **مناهل**، ص 35 و 102، وأ. المقرى، **نفح**، 2 : 479، **روضة**، ص 62 ـــ 63، وم. الافراني، **نزهة**، ص 190 وما بعدها، وم. القادري، **التقاط**، ص 5 و 16، نشر، 1 : 80 ـــ 81 و 153، والمؤرخ المجهول، **تاريخ الدولة السعدية**، 78 ـــ 83، وعبد الرحمن الفاسي، **زهرة الشماريخ**، ص 98، **ذكر دولة الشرف**، ص 113، وأ. الناصرى، **الاستقصا**، 6 : 69 ـــ 72، وعبد الرحمن بن زيدان، **اتحاف**، 3 : 67 ـــ 62، وخ. الدين الزركلي، **الأعلام**، 3 : 102 ـــ 103 وم. حجي، **الحركة**، 2 : 401 ـــ 402.

ch. A. Julien, l'Histoire de l'Afrique du Nord, p. 218.

(23) ورد في « ز » بعد كلمة « الزيتون » ما يأتي :
( ولقد مدحه كاتبه أبو الحسن علي بن داهيلة بقصيدة نونية مطلعها ). لكنه لم يأت بأية قصيدة.

(24) اشتهر عن المنصور بأنه كان يتوفر على جهاز استخبارات قوى مكنه من مراقبة تحركات العمال والقبائل التي لم يكن مطمئنا إليها وقد ضبطه بحنكة، ومن جملة مظاهر هذا الضبط استخدامه الشفرة في مراسلاته مع القادة والولاة. انظر ع. العزيز الفشتالي، **مناهل**، ص 150 ـــ 161.

(25) ما بين المعقوفين سقط من « م ».

فوقف بباب المأمون وجعل يقول : أنا أحمد النبي الرسول المبعوث، فسمع مقاله بعض خدمه وقال للمامون : إن رجلا بالباب سمعته يقول كذا فأمر بدخوله فدخل وسلم عليه، فقال له المأمون : أنك تقول كذا فقال : نعم، أو لست ممن يحمده يا أمير المؤمنين ؟ فقال له : نعم، فاستظرفه ونظر في أمره ورفع مظلمته.

ولا يرفع الظلم إلا بهندي أو سنان، فيزع الله بالسلطان مالا يزع بالقرآن.

ولأبي اسحاق ابراهيم بن محمد التُّطيلي ـــ نشأ بقرطبة وسكن اشبيلية ـــ يمدح رمحا من قصيدة له :

وأسمرَ أضحـى في شعـاع سِنانِـه ... وإن كان من خفْقِ اللواء لفي ظِلِّ
حوى جرأة الأعراب من سُمْرةِ القنا ... وحاز دهاء الروم من رقة النصل
علا نصلـه للشُّهْبِ فانحـطَّ لدنـه ... إلى القُضْبِ عن فرع يحن إلى الأصل
يقومـه بأس الحديـد إلـى الوغـى ... فَيَعْطِفُهُ لِينُ القضيب إلى الذُّل

ومنها يصف سيفا :

وأبيضَ يحكى الموت فعلا ودقـة ... فلولا شعاع الصقل لم يبد من حمل
يذيب بنـار الصَّقْـلِ كُلَّ مُفَـاضَةٍ ... فما تقع الغربـانُ إلا علـى مُهْـلِ
وقد عَجَمَتْ دُرْدُ النـوائب أصلَـهُ ... فقصت، وما أبدت سوى أثر النمل

ومن آلات العدل : القلم، وله يصفه :

وأعجم الصوت قد ألقت له العرب ... أقلُّ شيء لديه الشعـر والخـطبُ
يُزْهَـى البنـانُ إذا ما شُقَّ مِقْوَلُـهُ ... وَإذْ يَخُطُّ ففي افصاحـه العـجب

وفيه لبعضهم :

ومـا شجـرات نابتـات بفقـرةٍ ... إذا قُطِعَتْ صارت مطايـا الأصابـع
لَهُـنَّ بكـاء العاشقيـن ولونُهُـمْ ... سوى أنهـا يبكيـن سود المدامـع

وفيه أيضا لأبي تمام :

قوم إذا عرفوا عداوة حاسد ... سفكوا الدما بأسنه الاقلام
ولضربة من كاتب ببنانه ... أمضى وأبلغ من رقيق حسام [26]

وفيه أيضا أخذوا للبحترى :

قوم إذا أخذوا الأقلام عن غضب ... ثم استمدُّوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا ... مالم ينالوا بحد المشرفيات [27]

والآخر

نحيف الشوى يعدو على أم رأسه ... يَخِفُّ ويَقْوَى عَدْوُهُ حين يُقْطَعُ
يمجّ ظلاما في نهار لسانُهُ ... ويفهم عمن قال ما ليس يسمع

ولبعضهم، وهو الصنوبري [28] :

قلم من القَصَبِ الضعيف الأجوف ... أمضى من الرمح الطويل الأهيف
ومن النصال إذا بدت لِقِسِيِّها ... ومن المهند ذِي الصِّقال المرهف
وأشدُّ اقداما من الليث الذي ... يكوي القلوب إذا بدا في الموقف

ومما مدح به بين الأمراء، وقد جمع فيه بين السيف والقلم، ولله دره حيث يقول :

يراعك أن أبكيته ضحك العدا (كذا) ... وعضبك أن أضحكته بكت العدا
فشيمة هذا ما اعتدى قط رأسه ... وشيمة هذا قط رأس من اعتدى

ولابن الرومي :

في كفه قلم ناهيك من قلم ... نُبْلًا، وناهيك من كف به اتشحا

---

(26) البيتان لا يوجدان في **ديوان أبي تمام**.
(27) البيتان لا يوجدان في **ديوان البحترى**.
(28) انظر ترجمته عند م. بن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، 1 : 122 — 125، والمصادر بالهامش 48 من الصفحة 122 من نفس المصدر.

يمحــو ويثـبت أرزاق العبــــاد به فما المقادير إلا ما وحى ومحا [29]

قال أبو الحسين بن زرقون الفقيه [30] : قال لي أبي : كنا يوما بسبتة ومعنا أبو الطاهر [31] أخو الأستاذ أبي بكر النحوى [32]، فمر بنا رجل صانع وبيده محبرة آبنوس قد احتفل في عملها، وتأنق في حليها، فأراناها وقال : إن هذه المحبرة أريد أن أقصد بها بعض الكبراء، وأرغب بأن تتموا احتفالي فيها بأن تصنعوا لي بينكم أبيات شعر أدفعها معها، رجاء أن يكون ذلك أنجح لغرضي منها، قال : فأطرقنا نفكر في مطلبه وبادرنا أبو الطاهر فقال :

وافــتك من عُدَدِ العـــلا زنجيــــةٌ في حُلّـــةٍ من حِلْيَـــةٍ تتبختـــرُ
سوداء، صفــراء الحلــيِّ، كأنهـــا ليـــل تطـــرزه نجـــوم تُزْهِـــرُ

فسر الرجل بهما وسأل كتبهما، فكتبا له، وانفصل عنا شاكرا ما كان من اسعافنا، فلم يغب عنا إلا يسيرا وإذا به قد عاد إلينا وبيده قلم نحاس مذهب فقال لنا : هذا مما أعددته للدفع مع هذه المحبرة وأنسيت قبله ذكره لكم فتفضلوا بإكمال الصنيعة بذكره، فبادرنا أيضا أبو الطاهر وقال :

حمــلتْ بأشرفَ من نِجــار حُلِيِّهــا تُخْفيــه أحيانــا وحينــــا يَظْهَــــرُ
خرسانُ إلّا حيـــن يرضع ثديهـــا فتـــراه ينطـــق ما يشاء ويَذْكُــرُ

حكي أن أبا الطاهر حضر يوما مع جماعة من أصحابه وفيهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد بن زرقون المتوفى سنة ست وثمانين وخمسمائة [33]

---

(29) انظر ديوان **ابن الرومي**، 2 : 508 — 509.

(30) انظر ترجمته عند أ. المقرى، **نفح**، 2 : 598. 3 : 446، وابن فرحون، **الديباج**، 2 : 260 رقم 78، وم. بن مخلوف، **شجرة**، 1 : 178 رقم 576، ومحمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين**، 2 : 659.

**ملاحظـــة :**

في كل من **الديباج والشجرة** ورد : أبو الحسن بدل : أبو الحسين بالتصغير.

(31) انظر ترجمته عند أ. المقرى، **نفح**، 4 : 113، 160، 323.

(32) انظر ترجمته عند أ. المقرى، **نفح**، 4 : 113، وعبد العزيز بن عبد الله، **الموسوعة المغربية**، 1 : 28.

(33) بالأصل : احدى وعشرين وسبعمائة، وهو تحريف، ونفس هذا التحريف يوجد عند أ. الونشريسي، **وفيات**، ص 104، وأ. بن القاضي، **درة**، 2 : 107 رقم 547، **ولقط الفرائد**، ص 177، ولعل هذا

متنزهين في بعض الأعوام في عقب شعبان منه، فلما تملأوا من الطعام قال أبو طاهر لابن زرقون : أجزيا أبا عبد الله :

**حمــدت لشعبــان المبــارك شبعــة تُسَهِّلَ عنــدي الجــوع في رمضان**

فقال أبو عبد الله :

**كمــا حمــد الصَّبُّ المتيــــم زورةً تحَمَّــلَ فيهــا الهجــر طول زمــان**

فقال أبو طاهر :

**دعوهــا بشعبانيــة ولــــو أنهــــم دعوهــا بشبعانيــة لشفانــــي** (34)

ويحكي أن أبا الحكم بن غتال، وأبا بكر بن مغاور، وصاحبان لهما دخلوا حمام بيار من عمل شاطبة فصادفوا هواءها باردا فقال ابن مغاور :

**شرقت بحمــــام البــــوار بيــــار فدخانـــــــــــه تعشى به الأبصار**

وقال الآخر :

**بينــــا نروم تنعمـــــا في دفئـــــه يغشاك قرٌّ ما عليـــــــــــه قرار**

وقال أبو بكر بن غتال :

**لو أن لي فيهــا عصا موسى علـــى آياتهــــا ما فر عنــــي الفــــار**

---

حنفد يرجع إلى اختلاط ترجمة الأب مع الابن، ولكن حتى الابن نجد أنه توفي سنة 621 هـ وليس سنة 721 هـ.
أما الأب فانه توفي سنة 586 هـ / 1190 م.
انظر مثلا ابن الابار، **التكملة**، ص 256، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 7 : 10 — 11.

(34) انظر القصة عند أ. المقرى، **نفح**، 4 : 323 — 324 رقم 15.

فقال له ابن مغاور : هذا على أنك ابن غتال، وهو اسم الهر مصغرا باللسان العجمي.

حكي أنه لما ورد أبو علي الحسن بن رشيق [35] القيروان فألفى بها معد بن خيارة إذ أتى من باديته وعليه كساء معلم، وسقط سكين من تحت ابطه كأنها هراوة، فأراد معد استخبار ابن رشيق وكان برأس ابن رشيق شامة من الشيب فقال معد : أجز :

يا صاحب الشامة في رأسه

فقال ابن رشيق :

وشيبه من حر أنفاسه

فقال معد:

بعيد أوطان بكى أهله

فقال ابن رشيق :

وما يقاسيه مِن آفلاسه

فقال معد :

إذا شدا بيتا ترى دمعه

فقال ابن رشيق :

في حمرة المشروب منّ كاسه

فقال معد :

يكاد من حدة أفكاره

فقال ابن رشيق :

تلتهب النار بقرطاسه

أما أبو علي الحسن بن رشيق فولد بالمسيلة [36]، وقيل بالمهدية [37] سنة تسعين وثلاثمائة [38]، وتوفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة [39]. حكى الراوية الفقيه المحدث : أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري السبتي، المتوفى بفاس سنة احدى وعشرين

---

(35) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الاعيان**، 2 : 85 — 89 رقم 165، و ج. السيوطي، **بغية الوعاة**، 1 : 504 رقم 1043، وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، 3 : 297، وم. بن السراج، **الحلل السندسية**، 1 : 278 — 282، وعادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر**، ص 62 — 63.

(36) المسيلة : مدينة الجزائر تقع في الشمال الغربي لها، جنوب مستغانم.

(37) المهدية : مدينة بتونس على الساحل الشرقي بين سوسة شمالا وصفاقس جنوبا.

(38) 390 هـ توافق 999 م / 1000 م.

(39) 463 هـ توافق 1071 م.

وسبعمائة [40] في فهرسته [41]، قال : كنت مع الفقيه الأستاذ أبي القاسم المزياتي [42] تحت ايقاد ثريا جامع القرويين من فاس — عمره الله تعالى بالذكر، وحرسها — بعد صلاة المغرب وإذا برجل قد أقبل وأخبر الاستاذ أبا القاسم بقدوم الاستاذ ابن عبدون [43] المتوفى سنة تسع وأربعين وسبعمائة [44] وأنه بباب المسجد، فقال لنا أبو القاسم : قوموا بنا إلى لقائه، فالتقينا وهو داخل إلى المسجد وسلمنا عليه، فاستقبل الثريا وهي مسرجة، فقال ابن عبدون مرتجلا :

**انظـــر إلـــى نوريـــةٍ نُورهـــا يَصْدَعُ بالـلألاء سجْــفَ الــغسَقْ**

فقال أبو القاسم :

**كأنهـــا في شكلهـــا ربـــوة انتظـــم النَّـــوْرُ بهـــا فاتسق**

ثم اجتمعت صبيحة تلك الليلة مع الأديب البليغ مالك بن المرحل وأعلمته بما وقع من الاستاذين، فقال : لو كنت معهما لقلت :

**أعيذهـــا من سوء ما يُتَّقَـــى من فَجْـأةِ العيـن بربِ الفَلَـقْ [45]**

---

(40) 721 هـ توافق 1321 م.

(41) يوجد جزء من هذه **الفهرسة** في خزانة القرويين بفاس.
وانظر عن ابن رشيد رحلته المسماه : **ملء العيبة، فيما جمع لطول الغيبة، في الرحلة إلى مكة وطيبة**، يوجد منها خمس مجلدات في الايسكوريال باسبانيا تحت الأرقام الآتية : 1680، 1735، 1737، 1739، وكذلك أ. بن القاضي، **درة**، 2 : 96 — 100 رقم 532، **جذوة**، 1 : 289 — 291 رقم 298، وأ. بن فرحون، **الديباج**، 2 : 297 — 298 رقم 102، وم. الكتاني، **سلوة**، 2 : 191، وم. بن مخلوف، **شجرة**، ص 216 رقم 76، وج. السيوطي، **بغية الوعاة**، 1 : 199 — 200 رقم 343، والعباس بن ابراهيم، **الاعلام**، 4 : 242 — 251 رقم 290، وعبد الله كنون، **النبوغ**، ص 206 — 207، سلسلة **ذكريات مشاهير المغرب**، العدد 18، ومحمد بن شقرون، **مظاهر الثقافة المغربية**، ص 89 — 92، وكذلك كتابة بالفرنسية :
La Vie Intellectuelle Marocaine, pp. 186 - 194.

(42) انظر ترجمته عند أ. المقرى، **نفح**، 2 : 584.

(43) الاستاذ ابن عبدون هو أحمد بن قاسم الجذامي، المعروف بابن البغيل الاديب.
انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **درة**، 1 : 133 — 135 رقم 164، **لقط الفرائد**، ص 202، وأ. المقرى، **نفح**، 4 : 154.

(44) 749 هـ توافق 1348 / 1349 م.

(45) انظر القصة عند ابن الخطيب، **الاحاطة**، 3 : 28، وعلي الجزنائي، **جني زهرة الآس**، ص 69.

وقال محمد بن خلف [46] :

**باهـــي بهـــا الاسلام ما أشرقت كاساتها عند مغيب الشفـــق [47]**

ولبعضهم في الثريا :

**تحكـــي الثريـــا الثريـــا في تألُّقِهـــا وقـــد لواهـــا نسيـــم وَهْـــيَ تتقـــد**
**كأنهـــا لذوى الايمـــان أفئـــدة من التـخشع جوف اليل ترتعـــد [48]**

ومما قيل في السراج :

**انظـر إلـى سُرُج في الليـــل مُشْرِقـــةٍ من الزجـاج حواهـــا وهـــي تلتـــهب**
**كأنهـــا ألسن الحيـــات بارزة عند الهجير فما تنفك تضطرب [49]**

ولابن عبدون المذكور :

**أذهبـــنَ من فَرَقِ الفـــراق نفـــوسا ونشـــرن من درر الدمـــوع نفـــيسا**
**فتبعتُهـــا نظـــر الشجـــيِّ فَحَـــدَّقَتْ رقباؤهـــا نحـــوي عيونـــا شوسا**
**وحللن عقـــد الصبـــر اذ ودَّعنَنـــي فحللـــن أفـــلاك الخـــدور شمـــوسا**
**حلتـــه إذ حلتـــه حتـــى خلتـــه عرشا لهـــا وحسبتهـــا بلقـــيسا**
**فَٱزْوَرَّ جانبهـــا وكـــان جوابهـــا لم كنت تهوانـــا صحبتـــا العـــيسا**

ومن المعنى المتقدم ما حكي عن أبي بكر بن ولاد أنه كان له حفيد صغير يتعلم في الكتاب، فتغذى معه ذات يوم الخبز والزيت في بيت وقد خبر منه نبلا وفطنة، فسأله إجازةقوله:

---

(46) هو محمد بن سأحمد بن عمر بن الحسين بن خلف البغدادي (546 هـ / 364 هـ / 1151 م — 1236 م) من أهل بغداد مولدا ووفاة، لازم ابن الجوزي مدة وقرأ عليه كثيرا من تصانيفه، وسمع من غيره ببغداد والموصل ودمشق وغيرها له كتاب في تاريخ البغداديين. انظر خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 6 : 216 والمصادر بالهامش 1.

(47) انظر على الجزنائي، **جني زهرة الآس**، ص 70.

(48) انظر على الجزنائي، المصدر السابق، ص 69.

(49) انظر علي الجزنائي، نفس المصدر والصفحة.

أكلنا الخبز مصبوغا بزيت
فقال الصبي :
غذاء نافعا في وسط بيت
ثم قال ابن ولاد :
فلو شيء يرد الميت حيا
فقال الصبي :
لكان الخبز محيي كل ميت

[ حكى أن رجلا شاعرا كان له عدو، فبينما هو سائر ذات يوم في بعض الطريق وإذ بعدوه، فعلم الشاعر أن عدوه قاتله لا محالة، فقال له : يا هذا، أنا أعلم أن أجلي قد حضر، ولكن سألتك بالله إذا قتلتني أمض إلى داري وقل : ألا أيها البنتان إن أباكما.

فأجابتاه :
قتيل خذا بالتأر ممن أتاكما
ثم تعلقتا بالرجل وحملتاه إلى الحاكم، فاستقره فأقر بقتله، فقتله به (50) ]، قال أبو بكر النحوى (51) دخلنا على محمد بن حماد البربري وهو يتغدى فقال : با أبا بكر خير الغَدَاء بواكره، فما خير العشاء ؟ فقلت : لا أدري، فقال : دخلت على عبيد الله بن سليمان وهو يتغدى، فقال : يا محمد، خير الغَدَاء بواكره، فخير العشاء ماذا ؟ فقلت : لا أدرى، فقال : دخلت على حسن الخادم وهو يتغدى، فقال يا أبا القاسم، خير الغَدَاء بواكره، فخير العشاء ماذا ؟ فقال : كنت بحضرة الرشيد وهو يتغددى، فدخل الأصمعي (52) فقال : يا أصمعي خير الغَدَاءِ بواكره، فخير العشاء ماذا ؟ فقال : بواصره يا أمير المؤمنين، ومعنى بواصره : ما يبصر من الطعام قبل هجوم الليل والظلام.

ولبعضهم :

| | |
|---|---|
| ونديـــــــم مخالـــــــف | لا يشاء الـــــــــذي أشا |
| هو في الصحولـــــــي أخ | وعـــــدو اذا انـــــتشى |

(50) ما بين المعقوفين زيادة من « م ».
وانظر القصة عند م. الابشيهي، **المستطرف**، 1 : 55.
(51) انظر أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 3 : 173.
(52) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 3 : 170 — 176 والمصادر بالهامش 379 من الصفحة 170 من نفس المصدر.

اقترحتُ العشاء يو ما عليه فأدهشا
ساعة ثم قال لي : العَشا يورث العَشا [53]

يعني أكل الطعام بالعشي يورث ضعف البصر [ أكثر من غيره [54] ] وفي المثل : لا هجوع مع الجوع. وعن أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « لا تَدَعُوا العشاء ولو بكف حَشَفٍ فإن تركه مَهْرَمَة [55].

حكى [ أبو البقاء [56] ] صالح بن شريف الرُّنْدِي، كان في السابعة معاصرا لمالك بن المرحل، قال : كان بعض الشعراء يدعي الشعر وأن الغلب له فيه على أبناء جنسه، فقيل له : لو ارتحلت إلى بغداد حتى تناظر الشعراء هنالك، فارتحل إليها، فلما دخل على باب البلد وجد صبيانا يلعبون وبينهم صبي يدعى بالشاعر، قال : فقصده دونهم، وقال له : أأنت شاعر ؟ فقال الصبي : نعم، فقال أنشدني شيئا من الشعر، فقال له الصبي : من شعري أو من شعر الناس ؟ فقال : من شعرك، فقال له الصبي : مما قلته أو مما أقول ؟ فقال له : مما تقول، فقال له الصبي : وأنت أيش ؟ فقال له : شاعر مثلك، فقال له : صدر لي وأعجز، فصدر له :

ليت بين الذين بانوا وبيني

فقال له الصبي : افتح بديهتي بدرهم، فأعطاه درهما، فقال الصبي : فيما تريد القرب أو البعد ؟ فقال له في القرب، فقال الصبي : مثل ما بين حاجبي وعيني

[ ومن نباهة الصبيان ما حكى أن بكر بن وائل وتغلب، وهما قبيلتان من العرب كانت بينهما حروب، وطالت الحرب بينهما حتى سئما من ذلك، فاتخذ مُهَلْهِل بن ربيعة [57] عبدين لنفسه مملوكين، وصار يغير بهما، وبقي على ذلك زمان إلى سئم العبدان ذلك، فاتفقا على أنهما أن خرجا مع سيدهما مهلهل أن يعمدا إليه ويقتلاه، فلما كان في فلاة من الأرض هما

---

(53) الابيات لكشاجم.
وقد ورد عجز البيت الأول محرفا بالأصل على الشكل الآتي : (في شؤوني قد أشا).
انظر أحمد الشريسي، **شرح مقامات الحريري**، 1 : 98.
(54) ما بين المعقوفين سقط من « م ».
(55) أخرجه أبو نعيم في **الحلية** عن أنس باختلاف يسير في اللفظ.
انظر ج. السيوطي، **الجامع الكبير**، 3 : 305.
(56) بالأصل : أبو التقي،ز وهو تصحيف، اذ المترجم هو صالح بن أبي الحسن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف ويكنى بأبي الطبي وأبي البقاء.
(57) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 5 : 9 والمصادر بالهامش 1.

بقتله، ففهم عنهما، فقال لهما : إن كنتما ولا بد فاعلين فبلغا الحي وصيتي، فقالا له : نعم، فأنشدهما :

من مبلغ الحيين أن مهلهلا للـــه دركما ودر أبيكما

فحفظا منه البيت وقتلاه، ورجعا إلى الحي فقيل لهما : ما فعل مهلهل ؟ فقالا لهم : مات ودفناه بموضع كذا، وقد أوصانا بوصية، فقالوا لهما : وما هي ؟ فأنشداهم البيت المذكور، فلم يفهم أحد من أهل الحي معنى البيت، وكانت له بنية صغيرة غائبة، فلما جاءت أنشداها البيت، فقالت والله ما كان أبي رديء الشعر، وانما أراد وقال :

من مبلغ الحيين أن مهلهلا أضحى قتيلا بالفلاة مجدلا
للـــه دركما ودر أبيكما لا يبرح العبدان حتى يقتلا

فأخذ أهل الحي العبدين، فقرروهما، فأقرا بقتله فقتلوهما به [58]. حكي أن البادية قحطت على أيام هشام فقدمت عليه العرب، فهابوا أن يكلموه وكان فيهم درواس بن حبيب وهو ابن ست عشرة سنة، له ذؤابة وعليه شملتان، فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه : ما شاء أحد أن يدخل علي الا دخل حتى الصبيان، فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقا، فقال : يا أمير المؤمنين أن الكلام نشر وطي، وإنه لا يعرف ما في طيه الا بنشره، فإن أذن لي أمير المؤمنين إن أنشره نشرته، فأعجبه كلامه وقال له : أنشره لله درك، فقال : يا أمير المؤمنين، إنه أصابتنا سنون ثلاث، سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة أدقت العظم، وفي أيديكم فضول من مال، فإن كانت لله ففرقوها على عباده، وإن كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم، وإن كانت لهم فتصدقوا بها عليهم فإن الله بجزى المتصدقين، فقال هشام : ما ترك لنا الغلام في واحدة من الثلاث عذرا، فأمر للبوادي بمائة ألف دينار وله بمائة ألف درهم، ثم قال له : أمالك حاجة ؟ قال : مالي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين [59].

وأسرت طيىء غلاما من العرب، فقدم أبوه ليفديه، فاشتطوا عليه، فقال أبوه والذي جعل الفرقدين يمسيان ويصبحان على جبل طيىء ما عندي غير ما بذلته ثم انصرف، وقال : لقد أعطيته كلاما إن كان فيه خير فهمه، فكأنه قال : الزم الفرقدين في هروبك على جبل طيىء،

---

(58) الخبر في **الحماسة**، وعند ابن الأثير، والميداني في **مجمع الأمثال**، **وشرح الرسالة الهزلية** لابن زيدون، وفي شعراء النصرانية للأب شيخو السيوعي، 2 : 171، **والعمدة** لابن رشيق، 1 : 308.
(59) انظر القصة عند م. الابشيهي، **المستطرف**، 1 : 46.

ففهم الابن ما أراد أبوه وفعل ذلك فنجا [60].

ومن غريب الكناية الواردة على سبيل الرمز وهو من الذكاء والفصاحة ما حكي أن رجلا حصل أسيرا في بكر بن وائل وعزموا على غزو قومه فسألهم في رسول يرسله إلى قومه، فقالا : لا ترسله إلا بحضرتنا لئلا تنذرهم وتحذرهم، فجاءوا بعبد أسود، فقال له : أتعقل ما أقول لك ؟ قال : نعم، إني لعاقل، فأشار بيده إلى الليل فقال : ماهذا ؟ قال : الليل ، قال ما أراك الا عاقلا، ثم ملأ كفيه من الرمل، فقال : كم هذا ؟ قال : لا أدري وإنه لكثير، فقال ابلغ قومي التحية، وقل لهم : ليكرموا فلانا، يعني أسيرا كان في أيديهم من بكر بن وائل، فإن قومه لي مكرومون، وقل لهم : ان العَرْفَجَ قد أدْبَى، وشَكَتِ النساء، ومرهم أن يعروا ناقتي الحمراء فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جملي الأصهب بأمارة ما أكلت معهم حيسا واسألوا عن خبري أخي الحارث.

فلما أدى العبد الرسالة إليهم قالوا : لقد جن الرجل، ما نعرف له ناقة حمراء، ثم دعوا بأخيه الحارث فقصوا عليه القصة، فقال : لقد أنذركم. أما قوله : قد أدبى العرفج [61] يريد أن الرجال استَلْأموا [62] ولبسوا السلاح، وأما قوله شكت النساء : اتخذت الشكاء للسفر. وقوله : أعروا الناقة الحمراء أي ارتحلوا [63]، وقوله : حيسا أي أخلاطا من الناس قد عزموا على غزوكم، لان الحيس يجمع التمر والسمن والأقط، فمتثلوا ما قال، وعرفوا فحوى الكلام، وعملوا به، فنجوا [64].

وحكي أن المامون ركب للصيد وهو بالكوفة ومعه سرية من العسكر فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة فأطلق عنان جواده، فأشرف على نهر ماء من بحر الفرات، فإذا هو بجارية عربية، خماسية القد، قاعدة النهد، كأنها القمر ليلة كماله، وبيدها قربة شالتها على كتفها وصعدت من حافة البئر، فانحل وكاؤها فصاحت برفيع صوتها : با أبت، أدرك فاها قد غلبني (فوها لا طاقة لي بفيها، فعجب) [65] المامون من فصاحتها (ورمت الجارية القربة من يدها) [66]، فقال لها المامون :

---

(60) انظر الخبر عند ج. السيوطي، **المزهر**، النوع 39، 1 : 567، والابشيهي، **المستطرف**، 1 : 42.

(61) في كتاب **التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه** للبكرى ص 17 : « أدبي العرفج : قال أبو نصر إِدْبَاءُ العرفج أن يتسق نبته ويتأزر، وإذا اتسق وتأزر أمكن الغزو، والعرفج نبت طيب الريح، أغبر إلى الخضرة، له زهرة صفراء ولا شوك له ».

(62) استلأموا : تدرعوا.

(63) في **أمالي القالي**، 1 : ص 7 : « ارتحلوا عن الدهناء واركبوا الصمان وهو الجمل الأصهب ».

(64) القصة والخبر في أمالي القالي، 1 : 6 ــ 7، **ومحاضرات اليوسي**، 56، ولابشيهي، **المستطرف**، 1 : 42.

(65) ما بين القوسين بياض بالأصل والاكمال من **المستطرف** للأبشيهي، 1 : 53.

(66) الاضافة من الابشيهي، نفس المصدر والصفحة.

جارية من أي العرب أنت ؟ فقالت : أنا من بني كلاب، قال : وما حملك أن تكوني من الكلاب ؟ فقالت والله لست من الكلاب، وإنما أنا من قوم كرام غير لئام يقرون الضيف ويضربون بالسيف، ثم قالت : يا فتى، من أي الناس أنت ؟ فقال : أو عندك علم بالانساب ؟ قالت : نعم، قال لها : أنا من مضر الحمراء قالت : من أي مضر، قال : من أكرمها نسبا، وأعظمها حسبا، وخيرها أما وأبا، ممن تهابه مضر كلها، قالت : أظنك من كنانة، قال : أنا من كنانة، قالت : من أي كنانة قال : من أكرمها مولدا، وأشرفها محتدا، وأطولها في المكرمات يدا، ممن تهابه كناة وتخافه، ( فقالت إذن أنت من قريش، قال : أنا من قريش، قالت : من أي قريش، قال : من أجملها ذكرا، وأعظمها فخرا، ممن تهابه قريش كلها وتخشاه، قالت أنت والله من بني هاشم قال أنا من بني هاشم، قالت : من أي بني هاشم قال من أعلاها منزلة وأشرفها قبيلة [67] )، ممن تهابه بنو هاشم وتخافة، قال : فعند ذلك قبلت الأرض وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين، قال : فعجب المامون وطرب طربا شديدا ثم قال : والله لأتزوجن بهذه الجارية، فتزوجها، وهي والدة ولده العباس. ولنرجع إلى ما كنا بصدده، فأقول : إن تتبع أحواله في رعيته أمر طويل، لا ينضبط ولا يمكن أن يدْخل تحت حصر، فحدث عن البحر ولا حرج، فلست في ذلك بذي سرف، وانسب إليه في سيرته ما شئته من العدل، أو ما شئته من الشرف [68] ].

(67) ورد بالأصل ما يأتي : (قالت : اذن أنت من خير قريش كلها وممن تخافه وتخشاه)، والاكال من الابشيهي، نفس المصدر والصفحة.

(69) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».

# الباب الثامن

## * في حلمه العظيم
## وكرمه الشائع الجسيم

* ورد العنوان في « م » هكذا :
الباب الثامن : في علمه وحلمه وسخائه، وكرمه وبذله المال في طاعة ربه وحسن ثنائه.
وفي « ج » : في طيب نفسه وسخائه، وبذله الأموال في طاعة ربه وكرمه وحسن خيمه وثنائه.

[ أما حلمه، فباب ينفتح فيه المقال، وينفسح فيه العقال، فلو تتبعنا جزئيات هذا الكلي واحدة واحدة لم تسعنا هذه العجالة، ولا بد أن نذكر شيئا منها بعد ذكر ما جاء في الحلم من النظم، وما للناس فيه.

اعلم أن الحلم أشرف الصفات التي اتصف بها العاقل، وقد أمر الله به في كتابه في غير ما آية، وقد حض عليه ﷺ، وسأذكر من ذلك شيئا، ومما قيل في ذلك :

إذا ما طاش حلـــمك عن عدو ... وهـان عليك هجـران الصديـق

فلست إذن أخـا عفـو وصفـح ... ولا لأخ علـى عهـد وثيـق

إذاً زَلّ الرفيـق، وأنت ممـن ... بلا رفـق، بقيـت بلا رفيـق

إذا أنت اتخـذت أخـا جديـدا ... لمـا أنكـرت من خلُـق عتيـق

فمـا تدري لعـلك مستجيـر ... من الـرمضاء فر إلـى الحريـق

فكـم من سالك لطريـق أمـن ... أتـاه ما يُحـاذِرُ في الطريـق [1]

ولبعضهم :

(1) انظر الأبيات عند م. الابشيهي، **المستطرف**، 1 : 193.

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف ... وتاب مما قد جناه واقترف
لقوله : « قل للذين كفروا ... ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » [2]

ولبعضهم :

إذا ذكرت أياديك التي سلفت ... مع قبح فعلي وزلاتي ومجترمي
أكاد أقتل نفسي ثم يُذكرني ... علمي بأنك مجبول على الكرم [3]

ولأبي العلاء [4]، هو أحمد بن سليمان، ولد سنة ثلاث وستين وثلاثمائة [5] بمعرة النعمان [6]، وتوفي في الثالث من شهر ربيع النبوي سنة تسع وأربعين وأربعمائة [7] :

لو اختصرتم من الاحسان زرتكمُ ... والعذب يُهْجر للافراط في الخَصَرِ [8]

ولمحمود الوراق [9] :

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب ... وإن عظمت منه عليَّ الجرائمُ
فما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومِثْلٌ مقاوم

(2) انظر البيتين عند م. الابشيهي، نفس المصدر والصفحة. والبيت الثاني فيه اقتباس من الآية 38 من سورة الانفال.
(3) انظر البيتين عند م. الابشيهي، المصدر السابق، 1 : 193—194.
(4) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 1 : 113—116، رقم 47.
(5) 363 هـ توافق 973 م.
(6) معرة النعمان : مدينة بالشام، من أعمال حمص، بين حلب وحماة.
انظر ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، 5 : 156.
(7) 13 ربيع النبوي سنة 449 هـ يوافق 20 ماي 1057م.
(8) البيت من قصيدته السقطية التي مطلعها :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر ... لعل بالجزع أعوانا على السهر

انظر ديوان أبي العلاء المعري، **سقط الزند**، ص 16.
(9) انظر ترجمته عند م. بن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، 4 : 79—81، والمصادر بالهامش 507 من الصفحة 79 من نفس المصدر.

فأما الذي فوقي فأعرف فضله وأتبع فيه الحق، والحق لازم
وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا تفضلت ان الحلم بالفضل حاكم
وأما الذي دوني فإن قال، صنت عن اجابته عرضي وإن لام لائم (10)

وللخليل (11)، وقيل إنها لعبيد الله بن زياد الحارثي :

لن يبلغ المجد أقوام وإن شرفوا حتى يَذِلُّوا ــ وإن عَزُّوا ــ لِأَقْوامِ
وَيُشْتَموا فترى الألوان كاسفةً لا صفح ذل، ولكن صفح أحلام
وإن دعا الجار لبوا عند دعوته في النائبات بأسراج وإلْجام
مستلئمين لهم عند الوغى زَجَلٌ كأن أسيافهم أُغْرِينَ بِالهَامِ (12)

وكان الشعبي (13) أَوْلَعَ شَيْء بهذا البيت :

ليست الأحلام في حال الرضى إنما الأحلام في حال الغضب (14)

وقيل لما قدم نصر بن منيع بين يدي الخليفة، وكان قد أراد ضرب عنقه، فقال يا أمير المؤمنين، اسمع مني كلمات، فأنشأ يقول :

زعموا بأن الصقر صادف مرة عصفورة قد ساقها التقدير
فتكلم العصفور تحت جناحه والصقر منقض عليه يطير
إني لمثلك لا أتم لقمة ولئن شويت فإنني لحقير

(10) انظر الأبيات عند أبي هلال العسكري، **ديوان المعاني**، 1 : 134، والابشيهي، 1 : 194، وابن مرزوق، **المسند**، 79.

(11) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 2 : 244ـــ248 والمصادر بالهامش 220 من الصفحة 244.

(12) انظر البيتين الأولين عند أبي هلال العسكري، **ديوان المعاني**، 1 : 134، والابشيهي، **المستطرف**، 1 : 194، وم. بن الأزرق، **البدائع** 1 : 430.

(13) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 3 : 12ـــ16، والمصادر بالهامش 317 من الصفحة 12 من نفس المصدر.

(14) البيت لمسكين الدارمي، انظر **وفيات الأعيان**، 3 : 16، والابشيهي، 1 : 192.

فتهـاون الصقـر المُـدِلّ بصيـده    كرمـا فأفـلت ذلك العصفـور [15]

فعفا عنه وخلى سبيله.

حدثني شيخنا أبو راشد أن المنصور غضب يوما على رجل من الكتاب فأمر بضربه فأنشأ يقول :

وانـا الكاتبـون وان أسأنـا    فهبنـا للكـرام الكاتبينـا [16]

فعفا عنه وخلى سبيله :

ولبعضهم :

وجهـلٍ رَدَدْنـاه بفضل حلومنـا    ولـو أننـا شئنـا رددنـاه بالجهـلِ
رَجَحْنـا وقـد خَفَّتْ حلـومٌ كثيـرةٌ    وعدنا على أهل السفاهة بالفضل [17]

وللحريري أبي محمد القاسم بن علي الحريري [18]، ولد سنة ست وأربعين وأربعمائة [19]، وتوفي سنة خمس عشرة وخمسمائة [20] بالبصرة :

أخمـد بحلـمك ما يذكيـه ذو سفـه    من نار غيظه واصفـح ان جنـى جان
فالحلـم أفضل ما ازدان اللبـيب به    والأخـذ بالعفـو أحلـى، ما جنـى جان

ولبعضهم :

---

(15) انظر القصة مع الأبيات عند ابن حجة الحموي، **ثمرات الأوراق**، 1 : 66، والابشيهي، **المستطرف**، 1 : 193.

(16) البيت لأحد كتاب أبي جعفر المنصور العباسي تستعطفه به. انظر عند ابن رشيق، **العمدة**، 1 : 70، والابشيهي، **المستطرف**، 1 : 194.

(17) انظر البيتين عند ابن مرزوق، **المسند**، ص 80 والابشيهي، **المستطرف**، 1 : 194.

(18) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 4 : 63ـ68، والمصادر بالهامش 535 من الصفحة 63 من نفس المصدر.

(19) 446 هـ توافق 1054 م.

(20) 515 هـ توافق 1122 م.

فيا لك من علـم وحلـم طواهمـا     جديدُ البِلَى تحت الصفا والصفائح

ولبعضهم :

العلـــم والحلـــم حلتــا كرم     للمــرء زيــن إذا همـــا اجتمعــا
صنـوان لا يستقيـــم حسنهمـــا     إلا بجمـــع لذا وذاك معـــا
كم من وضيــع سمــا به الحلـــ     م فنـــال العَـــلاء وارتفعـــا
ومــن رفيــع البنـــا أضاعهمـــا     أخمَلَـــــهُ ما أضاع فاتضعـــا

ومن هذا المعنى :

أنـا المـذنب الخطـاء والعفـــو واسع     ولو لم يكن ذنب لما عرف العفو [21]

ومن أشعر ما قيل في الحلم قول كعب بن زهير :
إذا أنت............. إلى آخره [22]

وبعده :

وإذا مضى باغ علـــيك بجهلـــــه     فاقبله بالمعـــروف لا بالمنكــــرِ [23]

---

(21) البيت من بيتين لأبي إسحاق إبراهيم بن أبي محمد بن المبارك اليزيدي، الشاعر والأديب، يستعطف فيهما المامون العباس لخطإ ارتكبه.
والبيت الثاني هو :

سكرت فأبدت مني الكاس بعض ما     كرهت وما ان يستوي السكر والصحو

انظر ع. الرحمان الانباري، **نزهة الألباء**، ص 130، والابشيهي، 1 : 191—192.
(22) البيت هو :

إذا أنت لم تعرض عن الجهــل والخنـــا     أصبت حليما أو أصابك جاهل

انظر **ديوان كعب بن زهير**، ص 257.
مـــلاحظـــة :
ينسب البيت أيضا لأبيه زهير.
(23) انظر البيت عند م. الابشيهي، **المستطرف**، 1 : 195.

ولآخر :

**قل ما بدا لك من صدق ومن كذب حلمي أصم وأذني غير صماء** [24]

قال الأحنف : وجدت الحلم أنصر لي من الرجال [25].

وقيل له : ممن تعلمت الحلم ؟

فقال : من قيس بن عاصم [26]، كنا نختلف إليه في الحلم، كما نختلف إلى الفقهاء في الفقه، وقد حضرت عنده يوما وقد أتوه بأخ له قتل ابنه فجاءوا به مكتوفا، فقال : ذعرتم أخي، أطلقوه ! واحملوا إلى أم ولدي ديته. ثم أنشأ يقول :

**أقول للنفس تأساءً وتعزيةً أحدى يديَّ أصابتني ولم تُرِدِ**
**كلاهما خلَفٌ من فقد صاحبه هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي** [27]

وقيل : الكريم إذا قدر غفر، وإذا رأى زلة ستر [28].

وقيل : ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام [29].

وقال علي ــ كرم الله وجهه ــ : أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة. ولقد جيء إلى المنصور برجل فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه قال : ذنبي أعظم من نقمتك، وعفوك أوسع من ذنبي، ثم قال :

**فهبني مسيئا كالذي قلت ظالما فعفوا جميلا كي يكون لك الفضل**
**فإن لم أكن للعفو منك لسوء ما أتيت به، أهلا فأنت له أهل** [30]

---

(24) انظر البيت عند الابشيهي، نفس المصدر والصفحة.
(25) انظر ابن مرزوق، **المسند**، ص 80.
(26) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 6 : 57، والمصادر بالهامش 1.
(27) انظر البيتين عند المرزوقي، **شرح ديوان الحماسة**، 1 : 207، والقصة عند الابشيهي، 1 : 187—188.
(28) انظر م. الابشيهي، المصدر السابق، 1 : 188.
(29) انظر م. الابشيهي، نفس المصدر والصفحة.
(30) انظر م. الابشيهي، نفس المصدر والصفحة.

فعفا عنه وأمر له بصلة.

وأحضر للهادي رجل من أصحاب عبد الله بن مالك، فوبخه على ذنب فقال : يا أمير المؤمنين، إن إقراري يلزمني ذنبا لم أفعله، ويلحق بي جرما لم أقف عليه، وإنكاري رد عليك، ومعارضة لك، ولكنني أقول :

**فإن كنت تبغـي بالعقـاب تشفيـا　　فلا تزهـدَنْ عنـد التجـاوز في الأجـر**

فقال : لله درك من معتذر بحق أو باطل، ما أمضى لسانك ! وأثبت جنانك ! وعفا عنه وخلى سبيله [31].

وقال رجل لعمرو بن العاص : إن قلت لي كلمة لتسمعن عشرا [32]. فقال له : لكنك لو قلت لي عشرا لن تسمع واحدة.

وسب بعض العلماء رجل، فأعرض عنه، فقال له : إياك أعني، فقال له : عنك أعرض [33].

قال معاوية : من عفا ساد، ومن حلم عظم، ومن تجاوز استمال القلوب.

ومن أعظم مراتب الحلم أن يطلب الستر من الجاني، وهو عروض قول الشاعر :

**إذا مرضتـم أتيناكـم نعودكـمُ　　وتُذنبـون فنأتيكـم فنعتـذرُ [34]**

وليحلم الكريم عن السفيه، ويترك جوابه، لأن ترك الجواب جواب، ولبعضهم في هذا المعنى :

**ومـا شيء أحب إلـى سفيـه　　إذا سب الكريـم من الجـواب**
**متاركـة السفيـه بلا جواب　　أشد على السفيه من السبـاب [35]**

ولبعضهم :

**سكت عن السفيـه فظـن انـي　　عييت عن الجـواب ومـا عييـت**

---

(31) انظر م. الابشيهي، نفس المصدر والصفحة.
(32) انظر ابن مرزوق، المسند، ص 80.
(33) انظر الابشيهي، المصدر السابق، 1 : 187، وابن مرزوق، المسند، ص 80.
(34) انظر الابشيهي، المصدر السابق، 1 : 190.
(35) انظر ابن مرزوق، المسند، ص 80.

وأما ما جاء فيه من كتاب الله العزيز، فما مدح الله به خليله إبراهيم : « إن إبراهيم لحليم أواه مُنِيبٌ » (36)، وقوله تعالى ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ (37)، ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (38)، وفي بعض الكتب المنزلة : « إن العفو زيادة في العمر »، ودليله من كتاب الله تعالى ﴿ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ (39)، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾ (40)، إلى غير ذلك من الآي الواردة في هذا المعنى.

قال بعضهم : الحلم أفضل من العقل، لأن الله سمي به. وأما ما جاء فيه من السنة، فعن ابن عباس (41) ــ رضي الله عنه ــ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ (42) : « إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة » (43).

قال عمر بن عبد العزيز ــ رضي الله عنه ــ : ما قُرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة.

وقال الأحنف : رأيت الحلم أنصر لي من الرجال.

وكانوا إذا عجبوا من حلمه قال : إني لأجد ما تجدون ولكني صبور.

وعنه ﷺ : « وجبت محبتي على من أغضب فحلم » (44)، وعنه ﷺ : « يسّروا ولا تعسّروا، وبَشّروا ولا تنفروا » (45)، وعنه ﷺ : « الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، والخُرْق لا يكون في شيء ألا شَانَهُ » (46)، وعنه ﷺ : « إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه » (47).

---

(36) الآية 75 من سورة هود.
(37) الآية 159 من سورة آل عمران.
(38) الآية 85 من سورة الحجر.
(39) الآية 17 من سورة الرعد.
(40) الآية 22 من سورة النور.
(41) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 3 : 62ــ64، والمصادر بالهامش 338 من الصفحة 62 من نفس المصدر.
(42) انظر ترجمته عند ابن حجر، **الاصابة في تمييز الصحابة**، 1 : 51.
(43) أخرجه مسلم في **الصحيح**، 1 : 36، عن ابن عباس.
(44) أخرجه ابن عساكر في **تاريخ دمشق عن عائشة**. انظر ج. السيوطي **الجامع الصغير** ــ مخطوط غير مرقم.
(45) أخرجه البخاري في **الصحيح**، 1 : 25، عن أنس.
(46) أخرجه مسلم في **الصحيح**، 8 : 22، عن عائشة، باختلاف يسير في اللفظ.
(47) أخرجه مسلم في **الصحيح**، 8 : 22، عن عائشة، والترمذي في **السنن**، 4 : 254 باختلاف يسير في اللفظ.

وقالت الحكماء : بحسن السيرة يظهر المناوىء، وبالحلم عن السفيه يكثر أنصارك عليه. وأما حلمه ــ أيده الله تعالى ــ واحتماله من أهل العلم وغيرهم وما يصدر عنهم فأمر شهير يشهد بعلو قدره، واتصافه بالغاية القصوى من ذلك الجم الغفير. وأما كرمه فأمر شاع وذاع وامتلأت به الأسماع، فاستقصاء غايته أمر عسير لا يمكن وصفه. اعلم أن الكرم خصلة عظيمة، وسجية كريمة، وهي إحدى قواعد المملكة وأساسها، تعنو لها الوجوه، وتذل لها الرقاب، وتخضع لها الجبابرة، ويسترق لها الأحرار، ويستمال بها الأعداء والأشرار، ويستكثر بها الأولياء، وتحقن بها الدماء، ويحسن بها............ (48) وفي الآخرة الأنبياء، وفي بعض الآثار أن الله عَز وجل أوحى إلى موسى عليه السلام : « لا تقتل السامري فإنه سخي ». وقال ﷺ : « أحب عباد الله إلى الله أنفعهم لعباد الله » (49).

وللمتنبي :

| | |
|---|---|
| وكيف أستر ما أوليت من حَسَنٍ | وقد غمرتَ نوالا أيها النالُ |
| لَطَّفْتَ رأيك في بري وتكرمتي | إن الكريم على العلياء يحتال (50) |

قال أرسطوطاليس : الجود إيثار لذة الثناء على لذة المال.

وفي المثل : ما ضاع مال أورث حمدا.

ومن الحكم : لا شيء أحسن من المعروف إلا توابه.

وسئل علي ــ رضي الله عنه ــ عن السخاء فقال : ما كان ابتداء، وأما ما كان عن مسألة فحياء وتكرم.

روى في بعض الآثار : ان يحيى بن زكرياء ــ عليهما السلام ــ لقي إبليس فقال له : يا إبليس، أخبرني بأحب الناس إليك، وأبغض الناس إليك ؟ قال : أحب الناس إلي المؤمن البخيل، وأبغض الناس إلي الفاجر السخي، قال : ولم ؟ قال : لأن المؤمن البخيل قد كفاني بخله، والفاجر السخي أخاف أن يطلع الله عليه في سخائه فيقبله. ثم ولى وهو يقول : لولا أنك يحيى بن زكرياء ما أخبرتك (51).

---

(48) بياض بالأصل.

(49) ورد الحديث عند ج. السيوطي في **الجامع الكبير**، 1 : 44، هكذا : « أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس ».

(50) انظر **ديوان المتنبي**، 3 : 405.

(51) انظر القصة عند ابن يجبش التازي، **تنبيه الهمم**، ص 138.

من جاد بالمال مال الناس قاطبة  إليه فالمال للانسان فتان
من كان للخير مناعا فليس له  على الحقيقة اخوان وأخدانُ

ولا شك أنه، أي الكرم، من خصاله التي خصه الله بها، فكأن الحسين بن مطير الأسدي (52) إياه عني بقوله :

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس  ويوم نعيم فيه للناس أنعم
فيمطر يوم الجود من كفه الندى  ويمطر يوم البؤس من كفه الدم
ولو أن يوم البؤس خلّى عقابه  على الناس لم يصبح على الأرض مجرم
ولو أن يوم الجود خلّى يمينه  على الناس لم يصبح على الأرض مُعدم] (53)

[ وما لبعضهم :

فوجهك بدر في الغياهب مشرق  وكفك في شُهْبِ السنين غمام
فأعجب ببدر لا يزال أمامه  غمام ولا يغشاه منه ظلام
وأعجب من هذا غمام إذا سطا  تلظّى فكان البرق منه حسام (54)

(52) انظر ترجمته عند م. بن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، 1 : 388—389، والمصادر بالهامش 139 من الصفحة 388 من نفس المصدر.

(53) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».

ملاحظة :

أورد بهاء الدين العاملي في **الكشكول**، ج 2، ص 42—43، قصة هذه الأبيات كما يلي :

« دخل أعرابي على النعمان بن المنذر وعنده وجوه العرب فأنشأ يقول :

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس  ويوم نعيم فيه للناس أنعم
فيمطر يوم الجود من كفه الندى  ويمطر يوم البؤس من كفه الدم
فلو أن يوم البؤس فرغ كفه  لبذل الندى لم يبق في الأرض معدم
ولو أن يوم الجود لم يثن كفه  عن البؤس لم يصبح على الأرض مجرم

فأعطاه مائة بكرة وعشرة أفراس، وعشر جوار، على رأس كل جارية كيس مملوءٌ ذهبا ». وانظر أيضا الابشيهي، 1 : 234.

(54) انظر م. الابشيهي، المصدر السابق، 1 : 234.

وما للخطابي [55] :

| | |
|---|---|
| خلـــــــــقٌ مشرق ورأي حسام | ووداد عذب وريـــح جنـــوبُ |
| كل يوم له وكــــــــل أوان | كرم ضاحك ومـــال كئـــيب |

وما لبعضهم :

| | |
|---|---|
| ما إنْ يبالـــي إذا حَلّـــى خلائقـــه | بجـــوده أيّ قُطريـــه حوى العَطَـــلُ |
| كأن أموالـــه والبـــذل يسحقهـــا | نَهْبٌ، تَعَسَّفَـــهُ التبذيـــر أو نَفَـــلُ |

وما لبعضهم :

| | |
|---|---|
| قد أمطـــــرت بنوالهـــــا | كف الأميـــر علـــى الـــورى |
| فالجـــو يمطـــر وَدْقَـــهُ | متصببـــــا متحـــــدّرا |
| فتشابهـــــا وتشاكـــــلا | ما فيهمـــــا من قهقـــــرا |
| فالجـــو يمظـــر أبـــيضا | ويـــداه تمطـــر أصفـــرا |

وما لبعضهم :

| | |
|---|---|
| من قاس جدواك بالغمـــام فمـــا | أنصف في الحكـــم يـــن شكليـــن |
| أنت إذا جدت ضاحك أبـــــدا | وهـــو إذا جاد هامـــل العيـــن [56] |

حكي أن عبد الله بن طاهر [57] دخل على المامون فقال له : امدح ببيت قالته العرب، أو قالته الشعراء، فقال له قول بعضهم :

---

(55) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 2 : 304، والمصادر بالهامش 1.

(56) البيتان للوأواء الدمشقي في سيف الدولة.
انظر **فوات الوفيات**، 3 : 243، **وثمرات الأوراق**، 2 : 246، **ويتيمة الدهر**، 1 : 14.

(57) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 3 : 83ـــ89، والمصادر بالهامش 343 من الصفحة 83 من نفس المصدر.

يجود بالنفس ان ضن الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وما لبعضهم وهو زهير :

تراه إذا ما جئته متهلّلا كأنك تعطيه الذي أنت سائلُهُ
كريم إذا ما جئتَ للعرف طالبا حباك بما تحوي عليه أنامله
ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها، فليتق الله سائله (58)

وما لأبي الحسين علي بن لبال (59) من الجمع والتقسيم :

تكاملت فيك أوصاف خُصصت بها فكلنا لك مسرور ومغتبطُ
فالسن ضاحكة والكف مانحة والصدر متسع والوجه منبسط ] (60)

لا غرو أن ما حواه مولانا من السخاء وطيب النفس والبذل والكرم والحلم والعلم لم يحوه غيره من الملوك الماضية في الأعصار الخالية. عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت : قال

(58) البيت الأول من قصيدة يمدح فيها حصن بن حذيفة بن بدر، مطلعها :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعري أفراس الصبا ورواحله

والبيت المذكور في **المنتقى** هو البيت 35 من القصيدة :
انظر **ديوانه**، ص 68.
والبيت الثاني لا يوجد في الديوان، وهو بيت ضعيف ركيك لا ينبغي أن ينسب إلى شاعرٍ مجيد مثل زهير.
أما البيت الثالث فهو البيت الثاني من بيتين، والبيت الأول هو :

ترى الجند والأعراب يغشون بابه كما وردت ماء الكلاب هوامله

انظر **ديوانه**، ص 72.

(59) هو علي بن أحمد بن علي بن فتح، أبو الحسن بن لبال، (ت 583 هـ / 1187 م)، من بني أمية، قاض أندلسي، من الأدباء الشعراء، من أهل شريش ولي قضاءها، وصنف كتابا في شرح **المقامات الحريرية**.
انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 5 : 61، والمصادر بالهامش 3.

(60) ما بين المعقوفين ورد متأخرا في « م »، وانظر البيتين الأخيرين عند الدميري، **حياة الحيوان الكبرى**، 1 : 197، و**الحلل الموشية**، ص 119.

رسول الله ﷺ : « السخي قريب من الله، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة » (61).

والجاهل السخي أحب إلى الله من العابد البخيل.

وعنه ﷺ أنه قال : « ابن آدم ليس من مالك إلا ثلاث : ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو أعطيت فأمضيت، وما تركت فللوارث » (62).

وفي الخبر أن الله يأخذ بيد الكريم مهما عثر.

وعنه ﷺ : « المؤمن كريم والفاجر لئيم » (63).

وقيل للأحنف : ما الجود ؟ فقال : بذل الندى وكف الأذى.

فهذه صفته — أيده الله تعالى —.

وسئل الخليل عن الجود، فقال : بذل الموجود، وقد عقد هذا بعضهم، فقال :

**ألا فجـــد بحسب الموجـــــود      ان التكلـــف مفـــيت الجـــود**

ولبعضهم :

**لا كلـــف اللـــه نفسا فوق طاقتهـــا      ولا تجـــود يد إلا بمـــا تجـــد**
**فلا تعـــد عِدةً إلا وفـــيت بهـــا      واحـذر خلاف مقـال للـذي تَعِـدُ** (64)

---

(61) أخرجه الترمذي في السنن، 3 : 134، عن أبي هريرة.

(62) أخرجه مسلم في الصحيح، 8 : 211، باختلاف يسير في اللفظ.

(63) أخرجه أبو داود في السنن، 4 : 251، الترمذي في السنن، 3 : 135، وكلاهما عن أبي هريرة باللفظ الآتي :
« المؤمن غر كريم، والفاجر خب لئيم ».

(64) البيتان للفقيمي، انظر محمد الوشاء، الموشي، ص 58.
وقد ورد البيتان هكذا :

**ما كلـــف اللـــه نفسا فوق طاقتهـــا      ولا تجـــود يد إلا بمـــا تجـــد**
**فلا تعـــد عدة إلا وفـــيت بهـــا      ولا تكونـــن مخلافـــا لمـــا تعـــد**

والابشيهي، 1 : 198.

ولبعضهم :

**ليس العطاء من الـــفضول سماحـــة حتى تجود ومــا لديك قليـــل** (65)

فلقد أعطى ــ أيده الله تعالى ــ من أمواله كثيرا، لا يدخل تحت حصر، وعم نواله أنواع البرايا من عربها وعجمها، مسلمها وكافرها، يعطي الآلاف للواحد في الساعة الواحدة، ويتكرر ذلك في الأشخاص من الوافدين عليه دون إقامتهم في مأكولهم ومشروبهم، ولحافات النوم وغير ذلك من أثاث البيوت التي تجرى على الوافدين عليه، ولقد مَنَّ على كثير من عظماء النصارى الذين أسرهم في غزوته العظيمة التي يأتي ذكرها، فأرغم بذلك أنوفهم، واستعبد به ألوفهم، ويعطي ــ أيده الله ــ من عظماء النصارى الذين يباعون بالأموال الطائلة لمن يستحقهم من ضعفاء أسارى المؤمنين المفتقرين إلى ذلك ما لو أثبته في هذه العجالة لأخرجها إلى التطويل، والقصد ذكر المآثر جملة لا تفصيلا، ولو تتبعنا لما وسعني عمري، فأردت انتهاز الفرصة.

ومما قيل في الكرم من مراعاة النظير ما لجمال الدين بن نباتة :

**روت عنك أخبار المعالي محاسنا** (66) **كفت بلسان الحال عن ألسن الحمد**
**فوجهك عن (بِشْرٍ) وكفك عن (عطا) وخلقك عن (سَهْلٍ) ورأيك عن (سَعْد)** (67)

ولبعضهم :

**روت خبـــر المكـــارم راحتـــاه بحسن تخالُــفٍ في الـــفضل سارِ**
**فيمنـــاه روتـــه عن (عطـــاء) ويسراه روتـــــــــه عن (يسار)**

ولبرهان الدين القيراطي :

**أوصافكـــم تجـــرى أحاديثهـــا مجـــرى النجـــوم الزُّهْـــرِ في الأُفْـــقِ**

---

(65) البيت من شواهد النحو في باب حتى.
(66) في **ديوان ابن نباتة**، ص 174 : محاسن على اعتبار أنها فاعل مؤخر، واخبار، مفعول به مقدم، وكلا الوجهين صحيح ولكن رواية الديوان أعرب، وتوجد رواية **المنتقى** عند الابشيهي، 1 : 235.
(67) انظر ديوان ابن نباتة، ص 174.

كما أحاديث الندى عنكم [68] تسندها الركبان من طُرُق

ولبعضهم :

من زار بابك لم تبرح جوارحه تروى أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن (قرة) والكف عن (صلة) والقلب عن (جابر) والسمع عن (حسن) [69]

ولبعضهم :

أصح وأقوى ما سمعناه في الندى من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحَيا عن البحر عن كف الأمير تميم [70]

ومن مراعاة النظير [71] في غير المعنى المتقدم :

زعم الأراك بأن ريقة ثغرها من قهوة مزجت بماء الكوثر
قد صح ما زعم الأراك لأنه يرويه حقا عن (صحاح الجوهر) (ي)

ولبعضهم، وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن الخطيب السلماني ــ رحمه الله ــ : [72].

مضجعي فيك عن (قتادة) يروى وروى عن (أبي الزناد) فؤادي
وكذا الدمع شاعر فيك أضحى من جفوني يهيم في كل وادي [73]

---

(68) ورد صدر البيت الثاني بالأصل هكذا : كم أحاديث في الندى عنكم.
وفيه اختلال في الوزن، والتصويب من **المستطرف**، 1 : 234.
(69) انظر البيتين عند الابشيهي، المصدر السابق، 1 : 235.
(70) البيتان لابن رشيق ف مدح تميم بن المعز الصنهاجي.
انظر **وفيات الأعيان**، 1 : 304.
(71) انظر حول مراعاة النظير، ابن حجة الحموي، **خزانة الأدب**، ص 131ــ134.
(72) ما بين المعقوفين زيادة من « م ».
(73) ورد البيت عند أ. المقري في **النفح**، 6 : 463، هكذا :

وكذا النوم شاعر فيك أمسى من دموعي يهيم في كل وادي

وللكاتب ابن جزي الأندلسي [74] :

**خذ من حديث تولُّهـي وتولُّعـي خبرا (صحيحا) ليس (بالموضوع)**
**يرويه خدي (مسندا) عن أدمعـي عن مقلتي عن قلبي المفجوع [75]**

والنظر [ هنا ] [76] المورى به : خدا.......... إلى آخره، لأن الصحيح في اصطلاح علم الحديث كما قاله الخطابي [77] في **معالم السنن** [78] : اعلموا أن الحديث عند أهله على ثلاثة أقسام : حديث صحيح، وحديث حسن، وحديث سقيم. فالصحيح عندهم ما اتصل سنده وعدلت نقلته. وقال العراقي [79] :

**فالأول المتصل الاسناد بنقل عدل ضابط الفؤاد**
**عن مثله من غير ما شذوذ وعلة قادحة فتوذى**

قال ابن الصلاح [80] : هذا هو الحديث الذي يحكم بصحته بلا خلاف [81]. [ وإنما قيد نفي الخلاف بأهل الحديث، لأن بعض متأخري المعتزلة يشترط العدد في الرواية كالشهادة ] [82]. حكاه الحازمي [83] في **شروط الرواية** [84]. والموضوع في اصطلاحهم هو الخبر المكذوب على النبي ﷺ وهو شر (الحديث) الضعيف [85].

(74) انظر ترجمته عند أ. المقري، **نفح**، 5 : 526 ــ 536، ومصادر ترجمته بالهامش 1 من الصفحة 526 من نفس المصدر.
(75) انظر البيتين عند أ. المقري، **نفح**، 5 : 533.
(76) ما بين المعقوفين زيادة من « م ».
(77) انظر يوسف الكتاني، الامام الخطابي رائد شرح البخاري، مقال بمجلة **دعوة الحق**، العدد 5 السنة 21، غشت / شتنبر 1980، ص 44 ــ 49.
(78) **معالم السنن في شرح سنن أبي داود**، طبع بحلب سنة 1920، وطبع بتحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقي في القاهرة سنة 1948.
(79) ترجم له ترجمة مطولة تلميذه أ. بن حجر، **انباء الغمر بأبناء العمر**، 2 : 275 ــ 279 رقم 19.
(80) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 3 : 243 ــ 245، والمصادر بالهامش 411 من الصفحة 243.
(81) انظر **مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث**، ص 8.
(82) ما بين المعقوفين زيادة من « م ».
(83) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 4 : 294 ــ 295 والمصادر بالهامش 625 من الصفحة 294 من نفس المصدر.
(84) الواقع أن الكتاب اشتهر باسم **شروط الأئمة** وهو مطبوع.
انظر عند حاجي خليفة، **كشف**، 2 : 1047، يوسف سركيس، **معجم المطبوعات العربية**، 735.

المكذوب على النبي ﷺ وهو شر (الحديث) الضعيف [85].

قال العراقي :

## شر الضعيف الخبر الموضوع
## الكذب المختلف المصنوع

وكيف ما كان لم يجيزوا ذكره لمن علم، ما لم يبن أمره.
قال العراقي : ومن الموضوعات : المعدة بيت الداء، والحِمْية [86] رأس الدواء، فهو من كلام بعض الأطباء. قال زكرياء الأنصاري : هو الحارث بن كَلَدَة [87]، طبيب. العراقي ، انتهى.

قال ابن الصلاح [88] : وإنما يعرف كون الحديث موضوعا بإقرار واضعه أو ما يتنزل منزلة إقراره، [ وقد يفهمون الوضع ] [89] من قرينة حال الراوي أو المروي، فقد وضعت أحاديث طويلة يشهد بوضعها ركاكة ألفاظها ومعانيها. والعراقي هذا هو زين الدين عبد الرحيم ابن الحسين العراقي، توفي بالقاهرة سنة ست وثمانمائة [90] ــ رحمه الله، ونفعنا به وبأمثاله ــ، وهو صاحب نظم الألفية التي اختصر فيها كتاب أبي عمرو بن الصلاح. والمسند في اصطلاحهم : ما رفع إلى النبي ﷺ [91]، والمعنعن في اصطلاحهم ما أتى فيه بعن إذا سلم راويه من دُلْسَةٍ [92].

---

(85) انظر **مقدمة ابن الصلاح** في علوم الحديث، ص 47.
(86) الحمية : الاحتماء من أنواع المأكولات والمشروبات.
(87) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 2 : 159، والمصادر بالهامش 1، وصالح مهدي العزاوي، الحارث بن كلدة، مجلة **المورد** العراقية، المجلد السادس، العدد الرابع، سنة 1977، ص 217 ــ 221.
(88) بالأصل العراقي، وهو تصحيف، إذ النص مأخوذ حرفيا من **مقدمة ابن الصلاح** في علوم الحديث، ص 47، كما سبق أن أخذ منه حرفيا ما كتب حول الحديث الصحيح والموضوع.
(89) ما بين المعقوفين إكمال من **مقدمة ابن الصلاح** في علوم الحديث، ص 47.
(90) 806 هـ / توافق 1403 / 1404 م.
(91) عرف ابن الصلاح المسند في **المقدمة**، ص 21، هكذا :
« ذكر أبو عمر بن عبد البر الحافظ أن المسند ما رفع إلى النبي ﷺ وعلى آله وصحبه خاصة ».
(92) انظر **مقدمة ابن الصلاح**، ص 29.

قال العراقي :

وصحَّحـــوا وصل معنعـــن سَلِـــمْ من دُلْسَةٍ راويــه واللقــا عُلِــمْ [93]

ولقد أجاد الكاتب في البيتين ـــ رحمه الله تعالى ـــ، فهما في غاية الحسن [94].

ولبعضهم :

حَلَّتْ عقـــارب صُدْغِـــهِ من خده قمـــرٌ فَجَـــلَّ بهـــا عن التشبيـــهِ
ولقـــد عَهِدْنَـــاهُ يحـــلُّ ببرجهـــا ومـن العجـــائب كيـــف حلت فيـــهِ

ولقد أجاد، فإن العقرب في اصطلاح الفلكية برج من الأبراج التي يحل بها القمر وهي اثنا عشر برجا، أولها : الجدي، الدلو، الجوت، الحَمَل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس.

وفي كل برج منها ثلاثون درجة، وكل برج منها لكل شهر من شهور العجم من يناير إلى آخرها، وستة منها أبدا نظير ستة [95]، وستة من الأبراج [96] شمالية، والستة الباقية جنوبية، ومحل استيفاء الكلام عليها يطلب في محله، والله الموفق.

---

(93) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».
(94) ما بين المعقوفين زيادة من « م ».

ملاحظـــة :

يبدو أن الكلام مبتور، إذ لم يتقدم فيه البيتان اللذان استجادهما، ولا إسم قائلهما الذي نعته بالكاتب. ويوجد بعد البيت المذكور ما يأتي :

وبعضهـــم حكـــى بذا إجماعـــا ومسلـــم لم يشرط اجتماعـــا
لكـــن تعـــاصرا وقيـــل يشتـــرط طول صحابـــة وبعضهـــم شرط

انظر السخاوي، **فتح المغيث**، 1 : 155 ـــ 156.

(95) ورد بعد عبارة (نظير ستة)، ما يأتي : والسابع النظير، ولا معنى لها هنا. إذ من المعلوم أن هناك 12 برجا، ستة منها نظير ستة، كما أكد ذلك ابن القاضي نفسه في **المنتقى**.
(96) بالأصل : الحمل، وهو تصحيف.

ولبعضهم :

سقتنيَ في ليل شبيه بشعرها ... شُبيهة خديها بغير رقيب
فما زلت في ليلين : شعرٍ وظلمةٍ ... وشمسين : من خمر ووجه حبيب [97]

ومنه ما أنشدنيه شيخنا أبو راشد :

ولما رأت عزمي حثيثا على السُّرَى ... وقد رَابَها ماذا لَقِيتُ من البين
أتت بصحاح الجوهري دموعها ... فعارضت من عيني بمختصر العين [98]

وأنشدني لبدر الدين بن مالك، كذا عزاه هو، وقال الصفدي هو لابن التلمساني [99] :

يا ساكنا قلبي المُعَنَّى ... وليس فيه سواك ثاني

---

(97) نسب أبو هلال العسكري في **ديوان المعاني** 1 : 344، البيت الأول لابن أبي طاهر قائلا : « وأخذ ابن أبي طاهر قول مسلم :

**كأن دجاها من قرونك تنشر**

فقال :

سقتني في ليل شبيه بشعرها ... شبيهة خديها بغير رقيب

وأورد أ. المقري في **أزهار الرياض**، 2 : 142، البيت الثاني هكذا :

فأمسيت في ليلين للشعر والدجى ... وشمسين من خمر وخد حبيب

ونسب الحصري في **جمع الجواهر**، ص 228، البيتين معا لابن المعتز، ولم نعثر عليهما في **ديوان ابن المعتز**، وانظر البيتين أيضا عند النواجي في **الحلبة**، ص 158.

(98) البيتان للسان الدين بن الخطيب، وقد ورد البيتان عند أ. المقري في **النفح**، 6 : 464، هكذا :

ولما رأت عزمي حثيثا على السرى ... وقد رابها صبري على موقف البين
أتت بصحاح الجوهري دموعها ... فعارضت من دمعي بمختصر العين

(99) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 3 : 193، والمصادر بالهامش.

**لأي شيء كسرت قلبـــــــــي     ومـــا التقـــى فيـــه ساكنـــان**[100]

[ وقد اعترضهما بعضهم بأن قال فيهما مصادرة عن المطلوب، حيث كسر محل الساكنين، والقياس كسر أحدهما، فتأمله فإنه جيد، والله أعلم ][101].

وأجاب نفسه فقال :

**كسرتـــه وهـــو ذو سكـــون     لم يثنـــه للوجـــود ثان**
**فكـــان كسري له قيـــاسا     لمـــا التقـــى فيـــه ساكنـــان**

وأنشدني جوابا عنهما لغيره :

**كسرتـــه حيـــن قلت قلبـــي     ولـــم تضفـــه إلـــى فلان**
**لا يمـــلك المستهـــام قلبـــا     يا ظالـــم اللفـــظ والمعانـــي**

ولنرجع إلى ما كنا بصدده، فقد جمع ــ أيده الله ــ من صفات الكمال، وخلال الجمال، ما لم يثبته لغيره مقال، وما لم يعقل شوارد عقال.

هكذا هكذا وإلا فلالا

والله الموفق.

---

(100) علق الصفدي على هذين البيتين قائلا : « هذا المعنى فاسد، لأن القلب ظرف لاجتماع الساكنين، فالساكنان غير القلب، ولم يكسر أحد الساكنين كما هو القانون إنما كسر ما اجتمعا فيه، وقد ذكر ذلك لجماعة من الأدباء فاستحسنوه ».
انظر بهاء الدين العاملي، **الكشكول**، ص 493، وابن حجة الحموي، **خزانة الأدب**، ص 139. وأ. المقري، **نفح**، 6 : 244 رقم 57، و 5 : 384.

(101) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».

# الباب التاسع

## * في صبره الجميل
## ومقابلته الاساءة بالاحسان الأثيل

---

* ورد العنوان في « ج » هكذا :
الباب العشر في شدة حيائه، التي هي في صفات ذاته الجليلة وبهائه.

اعلم أنه ـــ أيده الله ـــ أشد الملوك صبرا، وأمدهم خبرا، وأعظمهم خبرا، وأقواهم احتمالا للأذى، وأكثرهم بذلا للندى، حلما منه واحتسابا بالله عز وجل، ولقد حدثني بعض من أثق به عن كثير من صبره واحتماله، ومجازاته السيئة بالحسنة، ولو استقصيت ماله في علمي من ذلك لطال الكتاب، وخرج عن حد الاختصار إلى الاسهاب.

وخصلة الصبر خصلة جليلة، ومنقبة جميلة، ولقد مدحت قرآنا، وسنة، ونظما، وناهيك بشرفها وعظيم منزلتها قوله تعالى : ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب [1]﴾، ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا [2]﴾،[ ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا [3]﴾ ]، ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين [4]﴾. والآي من هذا القبيل كثيرة في القرآن العظيم، كادت ألا تحصى كثرة.

وأما الأحاديث فكثيرة جدا، فمنها ما في مسلم، عنه ـــ ﷺ : « عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له [5] »، وعنه ـــ ﷺ ـــ أنه قال : « ليس الشديد بالصُّرَعَة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الصدمة الأولى [6] »، وسئل ـــ ﷺ ـــ عن الايمان فقال :

(1) الآية من سورة الزمر.
(2) الآية 137 من سورة الاعراف.
(3) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».
والآية هي الآية 24 من سورة السجدة.
(4) الآية 46 من سورة الأنفال.
(5) أخرجه مسلم في **الصحيح**، 8 : 227، باختلاف يسير في اللفظ.
(6) أخرجه البخاري في **الصحيح**، 7 : 99، ومسلم في **الصحيح**، 8 : 30، ومالك في **الموطأ**، ص 252 =

« الصبر والسماحة [7] »، وعن نافع عن ابن عمر [8] ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « انتظار الفرج بالصبر عبادة [9] ».

قال سفيان [10] : بلغنا أن لكل شيء ثمرة وثمرة الصبر : الظفر.

وقال علي : الصبر كفيل بالنجاح.

وقال : إن للمحن غاية فينبغي للعاقل أن يكون كالنائم.

وكان صالح المري [11] يقول في دعائه : اللهم ارزقنا صبرا على طاعتك، وصبرا على معصيتك، وارزقنا صبرا على ما تحب، وصبرا عما تكره، وارزقنا صبرا عند عزائم الأمور.

وروي عن الحسن بن أبي الحسن البصري [12] أنه قال : سب رجل من الصدر الأول رجلا فلم يجبه، وهو يمسح العرق عن وجهه ويتلو : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور [13] »، فقال الحسن : أعقلها والله وفهمها حين ضيعها الجاهلون.

وقال وهب بن منبه : ثلاث من كن فيه فقد أصاب البر : سخاء النفس، والصبر على الأذى، وطيب الكلام، به يستجلب النجح في كل محبوب، ويرجى الظفر لكل مطلوب.

وقال أبو عُبيد [14] : وما اجتمعت العرب على شيء اجتماعها على الأمر بالصبر، وتجنب أخلاق الغدر، والأخذ على الناس بالعذر.

---

= رقم 1638، وكلهم عن أبي هريرة، باللفظ الاتي : « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ».

(7) أخرجه الديلمي في **مسند الفردوس** عن معقل بن يسار باللفظ الآتي : « أفضل الايمان الصبر والسماحة ».
أنظر المتقى الهندي، **منتخب كنز العمال**، 1 : 208.

(8) انظر ترجمته عند ج. الدين الزركلي، **الاعلام**، 8 : 318، والمصادر بالهامش 1.

(9) أخرجه القضاعي في **مسند الشهاب**، عن ابن عمر وابن عباس. انظر ج. السيوطي، **الجامع الكبير**، 1 : 280.

(10) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الاعيان**، 2 : 266، والمصادر بالهامش 386 من الصفحة 266.

(11) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 2 : 494 ــ 495 والمصادر بالهامش 304 من الصفحة 494 من نفس المصدر.

(12) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 2 : 69 ــ 73، والمصادر بالهامش 156 من الصفحة 69 من نفس المصدر.

(13) الآية 43 من سورة الشورى.

(14) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 5 : 87 والمصادر بالهامش.

ولبعضهم :

أرى الصبر محموداً وعنه مذاهب فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهب
هو المهرب المنجي لمن أحدقت به مكاره عصر ليس عنهن مهرب [15]

وعن علي : الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو [16].

وعنه : الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد [17].

وقال عمر لرجل : ان صبرت مضى أمر الله وكنت مأجورا، وإن جزعت مضى أمر الله وكنت مأزورا.

ومما جاء فيه نظما، ما لأبي تمام :

وقال علي في التعزى لأشعث وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوى عزاء وحسبة فتؤجر أو تسلو سلو البهائم
خلقنا رجالا للتجلد والعزا وتلك الغواني للبكا والمآتِم [18]

وللطائي :

الصبر مفتاح كل خير ما أحسن الصبر والتأني [19]

ولبعضهم :

ان في الصبر لفضلا بينا فاحمل النفس عليه تظفر [20]

---

(15) البيتان لابن الرومي .
انظر **ديوانه**، 1 : 229.
(16) انظر ابن مرزوق، **المسند**، ص 103.
(17) ورد الأثر في **المسند** : ص 105، بإضافة : ومن انتزع رأسه لا حياة له.
(18) انظر **ديوان أبي تمام**، ص 282.
(19) انظر **المسند**، ص 106.
(20) انظر المصدر السابق، نفس الصفحة.

ولبعضهم :

| | |
|---|---|
| عليك إذا ضاقت أمورك والتوت | بصبر فإن النصر مفتاح الصبر |
| ولا تشتكي إلا إلى الله وحده | فمن عنده تأتي الفوائد والبشر |

ولبعضهم :

| | |
|---|---|
| أحسن الظن برب عودك | حسنا منه وسوى أَوَدَكْ |
| ان ربا كان يكفيك الذي | كان بالأمس سيكفيك غَدَكْ |

ولبعضهم :

| | |
|---|---|
| الدهر يخنق أحيانا قلادته | فاصبر عليه ولا تجزع ولا تثب |
| حتى يُفرِّجَها في حال مِرَّتِها | فقد تزيد خناقا كل مضطرب [21] |

ولعبد الرحمنْ بن دوست [22].

| | |
|---|---|
| لا تبغ سرك غير قلبك موضعا | فالسر بين مضيع ومباحث |
| وأعد صبرك للنوائب جملة | فالمرء رهن مصائب وحوادث |
| واسمح بمالك في الحقوق فانما | مال البخيل لحادث أو وارث |
| واحرث لنفسك حرث خير انه | لا يحصد المعروف غير الحارث |
| لا ينفع التدبير والحزم امرءا | حتى يعززه القضاء بثالث |

وأنشدني السيد أبو العباس أحمد بن يحيى العلامي العبد السلامي الشريف الحسني [23] :

(21) انظر **ديوان علي بن أبي طالب** ، 17

(22) انظر ترجمته في **وفيات الأعيان**، 1 : 129، **وفوات الوفيات**، ط : 297، وخ الدين الزركلي، **الأعلام**، 1 : 102.

(23) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **درة الحجال**، 1 : 101 — 103 رقم 143، وم. المكلاتي، **تكميل**، بيت 1، وم. القادري، **نشر**، 1 : 33، وم. حجي ، **الحركة**، 2 : 424. =

لا تيـــأسنّ، وان طالت مطالبـــة  إذا استعنت بصبـــر أن ترى فرجـــا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته  ومدمن القـرع للأبـواب أن يلجا (24)

[ وأنشدني :

وإنـــي لأرجـــو الله حتـــى كأننـــي  أرى بجميل الصبر ما الله صانع (25) ]

وأنشدني :

وإنـــي لأدعـــو الله والأمـــر ضيـــق  علـــي فمـــا ينـــفك أن يتفرجـــا
ورب فتـــى ضاقت عليـــه وجوهـــه  أصاب لها في دعـــوة الله مخرجـــا

ولبعضهم :

ليس لمـــــن ليست له حيلـــــة  موجـــودة خيـــر من الصبـــــر (26)

ولبعضهم :

اصبـــــر وإن طالت الليالـــــي  فربمـــــا ساعـــــد الحـــــرون

---

= ملاحظـــة :

العلمي : نسبة إلى جبل العلم الواقع وسط قبيلة بني عروس، بين تطوان وشفشاون، والعبد السلامي، نسبة إلى قطب المتصوفة المغاربة اطلاقا عبد السلام بن مشيش (ت 622 ـ 1225) شيخ أبي الحسن الشاذلي المتصوف المشهور.

(24) البيتان لمحمد بن بشير الخارجي، من شعراء الدولة الأموية، انظر شرح المرزوقي على الحماسة، 3 : 1173 ـ 1175، وابن الأزرق، البدائع، 2 : 518، وابن مرزوق، السند، ص 165.

(25) ما بين المعقوفين زيادة من « م ».
والبيت من قطعة لأعرابي يصف فيها دعوة مستجابة.
انظر ابن عبد ربه القرطبي، العقد الفريد، 3 : 227.

(26) انظر ابن مرزوق، المسند، 106.

وربمـــــا نيــــــل باصطبـــــار ما قيـــل : هيهـــات لا يكـــون [27]

وعن يونس :

خلقــــان لا أرضى فعالهمــــا : تيــه الغنــــى ومذلـــة الفقـــر
فاذا غنـــيت فلا تكـــن بطـــرا، وإذا افتقـــرت فتـــه علـــى الدهـــر
واصبـــر فلـــيست بواجـــد خلقـــا أدنـــى إلـــى فرج من الصبـــر [28]

ولبعضهم :

واذا تصبك مصيبـــة فاصبـــر لهـــا عظمت مصيبـــة مبتلـــى لا يصبـــر

ولابي العتاهية أبي اسحاق اسماعيل، ولد سنة مائة وثلاثين [29]، وتوفي سنة احدى عشرة ومائتين [30] :

اصبـــــر لدهــــر نال منــــــــ ـــــك فهكـــذا مضت الدهـــور
فـــــرج وحـــــزن مـــــرة لا الحـــــزن دام ولا السرور [31]

[ وكان يقال : لا دواء لداء الدهر إلا بصَبِرِ الصبر.
ولمحمود الوراق :

إنـــي رأيت الصبـــر خيـــر معـــول في النائبـــات لمـــن أراد معـــولا
ورأيت أسبـــاب القناعـــة أكـــدت بعرى الفتـــى فجعلتهـــا لي معقـــلا
فإذا نابـــي منـــــزل جاورتـــــه وجعـــلت منـــه غيـــره لي منـــزلا

---

(27) ينسب البيتان إلى علي بن أبي طالب (انظر **الديوان**، 126)، وانظر البيتين أيضا عند العاملي، **الكشكول**، ص 624، وابن الأزرق، **البدائع**، 2 : 521.
والحرون : الصعب الانقياد.
(28) انظر البيتين الأولين عند الراغب الأصبهاني في **المحاضرات**، 2 : 507.
(29) 130 هـ توافق 748 م.
(30) 211 هـ توافق 826 م.
(31) انظر البيتين عند ابن عذاري، **البيان**، 1 : 143.

وإذا غلا شيء علـــــي تركتــــــه فيكون أرخص ما يكون إذا غلا (32)

ولبعضهم :

على قدر فضل المرء تأتي خطوبــه ويحمـد منه الصبـر ممـا يصيبـه
فمـن قل فيمـا يتقيـه اصطبـاره فقـد قل فيما يرتجيه نصيبـه (33) ]

حكي أن بعض الرواة دخل مدينة يقال لها [ ظفار (34) ]، قال : فبينما أطوف في خرابها إذ رأيت مكتوبا على باب قصر خراب :

يا من ألــح عليـه الهَـمُّ والفِكَــرُ وغَيَّـرَتْ حالـه الأيـام والغِيَـرُ
أما سمعت بما قد قيل في مثـل عنـد الاياس فأيـن الله والقـدر
نم للخطـوب إذا أحداثُهـا طرقت فاصبر فقـد فاز أقوام بما صبـروا
فكل ضيـق سيأتـي بعـده سعـة وكـل فوت وشيك بعـده الظفـر

[ وعن ابن عباس — رضي الله عنه — قال : سمعت رسول الله — ﷺ — ...........(35)].

(32) انظر الأبيات عند م. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 71 — 72.
(33) ما بين المعقوفين ورد متأخرا في « م ».
والبيتان الأخيران لابن ظفر.
وقد ورد عجز البيت الأول عند أ. بن خلكان في **وفيات الأعيان**، 4 : 397، هكذا :
ويعرف عند الصبر فيما يصيبه.
وانظر أيضا الابشيهي، 2 : 73.
(34) بالأصل : دفار (بالفاء) وعند الابشيهي، 2 : 76 : دقار (بالقاف)، ولم نجد لهما ذكرا في كتب البلدان. وفي المسند، ص 106، ظفار (بالظاء) وهو الصواب، خاصة إذا علمنا أن المسند هو أحد المصادر الأساسية **للمنتقى**.
وظفار (بفتح الظاء) مدينة باليمن كانت عاصمة لملوك حمير وإليها ينسب الجزع الظفاري، ومنها يجلب اللبان، وهي المذكورة في المثل : من دخل ظفار حمر، أي تكلم الحميرية.
انظر **معجم البلدان، ومعجم ما استعجم، والروض المعطار**، 403.
(35) بياض بالأصل.
وما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».

وأنشدوا لأبي مِحْجَن الثقفي [36] :

عسى فرج يأتي به الله أنه ... له كل يوم في خليقته أمر
عسى ما ترى ألا يدوم وأن ترى ... له فرجا مما ألم به الدهر
إذا اشتد عسر فارج يسرا فإنه ... قضى الله أن العسر يتبعه اليسر [37]

ولبعضهم :

إذا ابتليت فثق بالله وارض به ... إن الذي يكشف البلوى هو الله
واليأس يقطع أحيانا لصاحبه ... لا تيأسن فإن الصانع الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته ... فما ترى حيلة فيما قضى الله [38]

ومما اتفق لي في بحر القلزوم [39] حال صعودي لمكة ــ شرفها الله بمنه ــ في شهر صفر من سنة ست وثمانين [40] ذات ليلة وأنا في أحلى نومة نمتها في المركب، إذ رأيت في المنام شخصا وهو ينشد هذا البيت، وما كنت أحفظه من قبل :

وما الدهر إلا هكذا فاصطبر له ... رزية مال أو فراق حبيب [41]

فانتبهت من حيني وقيدته في جوف الليل، وإذا به أشهر موقعا في ألسنة الناس، ولكن ما كان في حفظي أصلا قبل، وإنما حفظته من منشده إياي في حالة النوم، وأصله [42] للشافعي، وبعده :

---

(36) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 5 : 243، والمصادر بالهامش 2.
(37) انظر البيت الأول عند الدميري، **حياة الحيوان الكبرى**، 1 : 131، والابشيهي، 2 : 80.
(38) انظر الابيات عند الابشيهي، 2 : 76.
(39) ــ القلزوم : اسم اطلقه العرب قديما على البحر الاحمر .
(40) صفر سنة 986 هـ يقابله أبريل ــ ماي 1578 م.
(41) انظر **ديوان علي بن أبي طالب**، 21، ونسبه الابشيهي، 2 : 71، إلى أبي الأسود.
(42) في « م » : وأوله.

وقـد فارق النـاس الأحبـة قبلنـا  وأعيا دواء الموت كل طبـيب [43]

والتأني من الصبر، ومما جاء فيه قوله تعالى : ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه [44]﴾

وقال ــ ﷺ ــ : « من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من الدنيا والآخرة، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الدنيا والآخرة [45] ». وقال ــ ﷺ ــ لعائشة : « عليك بالرفق، فإن الرفق لا يخالط شيئا إلا زانه ولا يفارق شيئا إلا وشانه ».

وأنشدوا :

قد يدرك المتأنـي بعض حاجتـه  وقـد يكون مع المستعجل الزلـل [46]

وقالوا : من تأنى أدرك ما تمنى.

والرفق مفتاح النجاح.

وقال بعض الحكماء : إياك والعجلة فإنها تكنى أم النوائب، لان صاحبها يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن يفكر، ويحمد قبل أن يجرب، ولن تصحب هذه الصفة

---

(43) البيت للمتنبي من قصيدة مطلعها :

**لا يحـزن الله الأميـر فانـي  سآخـذ من حالاتـه بنصيب**

انظر **ديوانه**، 1 : 175.

**ملاحظـة** :

لم نعثر على هذا البيت في **ديوان الشافعي** الذي اعتمدناه.

(44) الآية 114 من سورة طه.

(45) أخرجه ابن حنبل في **مسنده عن عائشة باللفظ الآتي** :

« من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من خير الدنيا والآخرة. انظر ج. السيوطي، **الجامع الكبير**، 3 : 34.

(46) البيت للقطامي.

انظر **ديوانه** ،ص 25.

أحدا إلا صحب الندامة، وجانب السلامة [47]، وفيما ذكرناه كفاية لمن تأمله وتدبره، والله الموفق.

ولنرجع إلى ما كنا بصدده.

فأما صبر مخدومنا — أيده الله — على أوامر الله ونواهيه فشيء شهير لا يفتقر إلى بيان، ولا يحيط به لسان ولا بنان. وأما كفه عن متابعة الهوى فقد حاز من ذلك المنزلة القصوى، التي لم يحزها ملك قبله، وفيما قدمناه من محافظته على الأوامر، واجتنابه للنواهي، ما يدلك على هذا، ولا يتأتى مثله إلا بالصبر على الطاعة والانكفاف عن المعصية، ولا شك أنه لا يصدر هذا إلا من صابر. وأما صبره على مكابدة النظر في أمر الرعية فإنه يفتقر إلى جلد عظيم، وثبات جسيم، فقيامه بأعباء هذه المرتبة، يدل على حيازته شرف المنقبة، وأما صبره — أيده الله — فيما عرض له من الشدائد، فمن ذلك صبره لقتال الكفرة في يوم وادى المخازن يوم غزوته العظيمة التي تقدم ذكرها، حتى كان له على أعداء الله النصر المبين، والفتح المكين، الذي لم يكن لغيره.

حدثني بعض من حضر يومئذ أنه — أيده الله — كان له في ذلك اليوم من إقدامه وثباته كبحر شامخ، أو جبل راسخ، بل قد يمكن انكفاف البحر وتزلزل الجبل ولا يمكن انكفافه عن القتال ولا تزلزله لقوة جلده واقدامه، وعانى في ذلك اليوم من أمر الكفرة مالا يمكن ان بشر معاناة مثله، مع ما عاناه من أمر العرب الذين كانوا معه، لأن جلهم كان منافقا، همهم وعزمهم مع أخيه، الذي أتى بالنصارى، فصار يعاني الفرقتين، ويقاوم الفئتين، إلى أن أتاه النصر الموعود، ورفع ألويته إلاهه المعبود، هذا مع ما اتصل به من موت صنوه أبي مروان مولانا عبد الملك — رحمه الله وقدس روحه، وأسكنه من الجنان فسيحه — عندما قامت الحرب على ساق، والتفت الساق بالساق، وكادت تعظم من العدو الكافر شوكته، وتصل إلى الاسلام شكته، فعند ذلك أوجف عليهم — أيده الله — بخيله ورجله، وانهل من دمائهم أسلحته من سيفه وأسَلِهِ، ثم أحاط بهم إحاطة الهالة بالقمر، والأكمام بالثمر، جيوشا، هزبرا هصورا، فما مر عليهم مثل ما تقدم إلا وكأن لم يكونوا شيئا مذكورا، ولو تتبعت ما في علمي من صبره، وما هو مشهور في مسائله وحكاياته مما تلقيته من لدن نشأته إلى الآن لأتيت بالعجب العجاب، لكن حدث عن البحر ولا حرج، فعجائبه لا تحصى، ومناقبه لا تستقصى، فهمته في كل شيء طالبة للعلو، تواقة للسمو، لا يرضى من الأمور إلا بأعلاها ولا من المفاخر إلا بأحلاها. إذا كبرت النفوس والهمم، تعبت في مرادها أجساد أولى الشيم [48].

---

(47) انظر الابشيهي، 2 : 65.

(48) مقتبس من قول المتنبي :

فقد عانى المعالي من كل وجه واجتهد في تحصيل أسبابها، ولقد عانى ــ أيده الله ــ حسن الخطّ وظفر به بأنواعه المشرقية والمغربية، فقد حكي أنه ذات يوم استدعى من كاتبه أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عيسى [49] بخط مشرقي كتابا، فبعث به إليه صحبة هذين البيتين :

**سقتنـــــي كأس السرور دهاقـــــا    خطـــوط أتتنـــيَ في مُهـــــرق**
**رأت كف أحمد في الغـرب بحـرا    فجـــاءت إليـــه من الـــمشرق**

حدثني بهذه الحكاية بعض فضلاء الطلبة بحمراء مراكش في يوم الأحد لأربع خلون من رجب سنه خمس وتسعين [50]، وأنشدني في اليوم نفسه للفقيه سالم بن منصور الهروي التونسي ــ رحمة الله تعالى عليه ــ وسببهما أنه جاء لباب بعض ملوك بني حفص في وقته، فاستأذن عليه بهما، وهما :

**ببابكـــــم المرفّـــع عبـــد رق    يروم وصالكـــــم أنّى يفـــــوز**
**فإن يكُ ذاك عن اذن كريـــــم    والا فهـــو أمـــر لا يجـــوز**

فأجابه الملك :

**يحيـــط بعلمكـــــم أنّا نشاوى    وقـــد جليت لنـــا بكـــر عجـــوز**
**فإن تك راضيـــا بالفعـــل منـــا    والا فهـــو أمـــر لا يجـــوز [51]**

---

= **وإذا كانت النفـــوس كبـــارا    تعـــبت في مرادهـــا الاجسام**

**انظر ديوانه، 4 : 64.**

(49) هو : محمد بن محمد بن أحمد بن عيسى التملي السوسي، من أبرز الكتاب والشعراء في البلاط السعدي، ألف كتاب **الممدود والمقصور، من سنا أبي العباس المنصور**، الذي يعتبر حاليا مفقودا، ولا نتوفر في الوقت الحاضر إلا على مجموعة من أشعاره توجد في م. م. عدد 5408 ضمن مجموع 12 « صفحة الأولى »، وتكاد تكون المصدر الوحيد لما بقي لنا من آثاره.
وقد نكبه ولي عهد المنصور : المامون، اذ حبسه، واستولى على ماله وأمتعته، ومات هذا الأديب في سجن فاس شرميته عام 990 هـ / 1582 م.

(50) 4 رجب سنة 995 هـ موافق 10 يونيو 1587 م

(51) انظر القصة عند أبي القاسم الزياني، **الروضة السليمانية**، ورقة 24.

حكى أن الفقيه سالما المذكور كان فقيها نحويا، أديبا لغويا، مدمنا للصهباء في أيام شبيبته، ملازما لها في حالي يسرته وعسرته، وهو من أشياخ الامام مغوش [52] ثم تاب عنها، ذكر أنه ذات يوم راح لرياض الملك المذكور الذي بباردو وبات هناك، وأصبح مصطبحا به على صهريج ماء، وكان اليوم غدقا، وجاء الملك إلى الرياض المذكور فوافاه به وهو ثمل فقال :

يا فقيه، ما الذي أشغلك عن نومك، وأبطاك عن قومك ؟ وماذا قلت في يومك ؟ فقال :

**للــــه يوم بالغديـــــر وليلـــــة　　حلف الزمان بمثلها لا يغلــط**
**الطيـــــر يشدو والأرائك تنثـــــي　　والريح يكتب والغمــام ينقــط [53]**

وحكي أنه حمل للامير الحسن الحفصي [54] بزجاجة خمر، فقال له : ما هذا يا فقيه ؟ فأنشأ يقول :

**صفــرا مشعشعــة تجلــو قلائدهـــا　　ترى لها أثـــرا في وجنـــة الساقـــي**
**مضى بهـا ما مضى من عقـل شاربهـا　　وفي الزجاجـــة باق يطــلب الباقـــي**

توفي — رحمه الله — سنة خمس وأربعين وتسعمائة [55]، وطبقته في ذلك الوقت بتونس جماعة عظيمة كأبي عبد الله مغوش، باقعة الدنيا وحافظها وأبي الحسن العروسي، وأبي الحسن الشريف، وأبي محمد بن عبد الله سلطان وأبي عبد الله الرزين، وكان اجتماع هؤلاء على السلطان أبي (محمد الحسن بن محمد بن الحسن بن مسعود بن عثمان، وأبي عبد الله بن

---

(52) انظر ترجمته عند أ. المنجور، **فهرس**، ص 15 رقم 12، وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، 8 : 270 — 271، وابن أبي دينار، **المؤنس**، ص 163، ومحمد بن مخلوف، **شجرة**، ص 273 رقم 1015، وخ. الدين الرزكلي، **الاعلام**، 7 : 285.

(53) سار على نهج ابن الساعاتي في بيتيه :

**له يوم في سيــــوط وليلـــــة　　صرف الزمان بأختهــا لا يغلــط**
**والطير يقرأ والغديــر صحيفـــة　　والريح تكتب والغمامــة تنقــط**

انظر ابن حجة الحموي، **خزانة الأدب**، ص 313، وابن خلكان، **وفيات الاعيان**، 3 : 396.

(54) انظر ترجمته عند ابن أبي دينار، المؤنس، ص 163، ومحمد الباجي المسعودي، **الخلاصة النقية في أمراء افريقية**، ص 84 — 87، والزياني، **الروضة السليمانية**، ورقة 24 والقصة مذكورة هناك.

(55) 945 هـ توافق 1536 — 1539 م.

فارس بن العباس الحفصي ، وذكر أن أبا (محمد) الحسن لما أكمل داره التي بباردو وفرغ من بنياتها قعد للهناء بها مع هؤلاء الجماعة وبات معهم بها ليلته، فقام المنور لا صلاح الشمعة فسقطت وسكت لذلك المطربون، فأزاح عنهم الخجل ببيتين أبو عبد الله سلطان، فقال :

**ما أدهش القوم إلا شمعة سقطت على النمارق حتى ألقت العمدا**
**خرت لوجهك دون الناس ساجدة كما يخر لوجه الله من سجدا**

[وحدثني شيخنا أبو راشد أن أبا فارس المذكور في آباء أبي (محمد) الحسن الحفصي، هو الذي فاتح ابن الحباب [56]، شيخ ابن عرفة، لما دخل عليه بعد غدائه بقوله :

**لقد فاتك الجدي يا بن الحباب وخبز سميذ كثير اللباب**
**ولم يبق منه سوى عظمه فذاك لعمرى طعام** ............................

فقال له ابن الحباب : طعامكم ! كرر ذلك ثلاثا قبل اكمال البيت الثاني بقوله : الكلاب، فسر السلطان بنباهته ووصله.

وسبب رحلة مغوش من تونس هي أنه حضر مع أبي الحسن الزنديوي [57] بدار السلطان أبي (محمد) الحسن في يوم جمعة وجرى الكلام في حديث نبوى فقال فيه أبو الحسن المذكور [58] ] ما ظهر، فعنته مغوش، وقال له : كفرت يا قاضي. فأنف لذلك، ثم اشتغل بمكاتبة الاتراك وحضهم على بعث الرشيد، أعني أخا أبي (محمد) الحسن المذكور، فبعثوا به مع خير الدين، فأخذوا البلاد وملكوها، ثم بعد ذلك مسكوا الرشيد وبعثوه للقسطنطينية على ما هو معهود من غدرهم ودعا لملكهم، فعند ذلك تم سعي الزنديوي إليه، وقال له : إن أردت استقلال الملك فغرب مغوش، فهو رأس الفساد، ولا يتم لك الا بتغريبه، ففعل. وهذا سبب رحلته للمشرق [59]. وهو من أشياخ بعض أشياخنا المصريين

(56) انظر ترجمته عند أ. الونشريسي، **وفيات**، ص 110، **وفهرس الرصاع** ص 164 — 165، وأحمد بن القاضي، **درة**، 2 : 115 — 116 رقم 556، وأ. بابا، **نيل**، ص 239، وم. بن مخلوف، **شجرة**، 1 : 209 — 210 رقم 729.

(57) انظر ترجمته عند أ. المنجور، **فهرس**، ص 15 رقم 12، وم. السراج، **الحلل السندسية**، 3 : 649 « وقد سماه حسين الزنديوي »، و م. بن مخلوف، **شجرة**، ص 273 رقم 1014.

(58) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».

(59) انظر المزيد من الايضاح عند ابن أبي دينار، **المؤنس**، ص 163، وابن أبي الضياف، **الاتحاف**، وأ. بابا، **كفاية**، الزياني، **الروضة السليمانية**، ورقة 24.

لأنهم أخذوا عنه حين قدم عليهم، وحدثني عنه شيخنا أبو عبد الله البحراوي بالعجب مما لا تسعه هذه العجالة.

وأنشدني بعضهم في اليوم نفسه لمجد الدين بن الظهير الارْبِلِي [60] :

قلبي وطرفي ذا يسيل دما، وذا ... دون الورى أنت العليم بقُرْحِهِ
وهما بحسبك شاهدان وإنما ... تعديلُ كلٍّ منهما في جَرْحِهِ
والقلب منزلك القديم فإن تجد ... فيه سواك من الأنام فنحه

أولها :

غش المفند كامن في نصحه ... فأطل وقوفك بالغدير وسفحه
أفدي الذي يغنيه فاتر طرفه ... عن سيفه وقوامه عن رمحه
ظبي يونس بالغرام نِفَارُهُ ... ويَحُلُّ في نهب القلوب بمزحه
ذو وجنة شرقت بماء نعيمها ... كالورد أشرقه نداه برشحه
وكأن طرته وضوء جبينه ... ليل تألق فيه بارق صبحه
يا شاهرا من جفنه عضبا غدا ... ماء المنية باديا في صفحه

قلبي إلى آخره............[61] ]. وهن في غاية السلاسة والسهولة. ومن أحسن السهولة ما لبعضهم :

أليس وعدتني يا قلب أني ... متى ما تبت عن ليلى تتوب
فها أنا تائب عن حب ليلى ... فما لما كلما ذكرت تذوب ؟ !

ومن السهولة ما جاء في الارتجال قول أبي الخطاب السعدي حين أنشد موسى الهادي شعره الذي مدحه به :

---

(60) انظر ترجمته عند م. بن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، 3 : 301 — 310، والمصادر بالهامش 432 من الصفحة 301 من نفس المصدر.

(61) ما بين المعقوفين سقط من « م » و « ج ».
وانظر الأبيات في **فوات الوفيات**، 3 : 303، **والغيث المسجم للصفدي**، 1 : 244 — 245.

يا خير من عَقَدَتْ كفاه حُجْزَتَهُ وخير من قلدته أمرها مضر

فقال له موسى : إِلّا، يا بائس !

فقال واصلا كلامه :

الا النبيء رسول الله، إن له فخرا وأنت بذاك الفخر تفتخر

ففطن لذلك موسى والحاضرون أن البيت مستدرك، ونظروا في الصحيفة فلم يجدوه فضاعف له موسى في صلته [62].

ومن أبيات السهولة قول بعضهم :

قالوا امتنعت من التقبيل قلت لهم : ما كان ذلك من صبري ومن جَلَدي
لكن على ثغره أشفقت من نَفَسِي فكيف يجمع بين النار والبَرَدِ

فأحسن الشعر وأقربه للطبع ما كان سلسا سهلا وكذلك النثر، وما كان بخلاف ذلك فهو ثقيل يشهد له العقد السليم، والطبع المستقيم.

ومن التعقيد اللغوي البارد ما حكي عن ابن زرقاء وكان يرتكب في كلامه اللغة المتعقدة، أكلت أمه طينا واصفر وجهها، فكتب رقعة يطلب لها من الناس الدعاء وطرحها في المسجد، فكان لا يقرأ الرقعة أحد إلا لعنه، ودعا على أمه ألا تعافى، ونصها :

« الحمد لله وحده

صِينَ امرؤ، وروعي امرؤ دعا لا مرأة مُقْسَئِنَّة، أولعت بأكل الطُّرْموث الخبيث، فأصابها منها اسمئلال، أن يهب لها الله اطْرِغْشَاشاً وابْرِغْشَاشاً »، انتهى.

الاسمئلال : ضعف المعدة ومنه يصفر الوجه.

والطرموث : الطير.

والمقسئنة : الهرمة.

ويقال اطرغش وابرغش : إذا بريء.

---

(62) انظر الابيات عند ابن رشيق في **العمدة**، 1 : 190.

ومن هذا المعنى أن رجلا جاء إلى طبيب فقال له : أصلحك الله، إني أكلت من لحوم هذه الجوازل، وطست طسأة، فأصابني وجع بين الوَابِلَة [63] ودَايَة العنق [64]، فلم يزل يَرْبُو وَيَنْمِي حتى خالط الخِلْب والشراسيف، فهل عندك دواء ؟

فقال له : نعم، خذ خربقا وسلفقا وشيرقا، فزقزقه وزهزقه بماء ذوب وأشربه.

فقال الرجل : لم أفهم عنك.
فقال : لم أفهمك إلا ما أفهمتني [65].

ومن ألطف السجع قول البديع الهمذاني [66] من كتاب كتب به إلى ابن فريغون [67] : « كتابي والبحر وإن لم أره، فقد سمعت خبره. والليث وإن لم ألقه، فقد تصورت خلقه. والملك العادل وإن ما لقيته، فقد لقيني صيته. ومن رأى من السيف أثره، فقد عاين أكثره [68] ».

ومن الترصيع [69] قول بعض الخطباء : « الحمد لله عاقد أزمة الأمور بعزائم ذكره،

---

(63) الوابلة : طرف الكتف.
(64) داية العنق : فقاره.
(65) ورد النص عند أبي الفرج عبد الرحمنٰ بن علي بن الجوزي، **في أخبار الحمقى والمغفلين**، ص 127، هكذا :
« ودخل أبو علقمة النحوى على أعين الطبيب، فقال : امتع الله بك، أني أكلت من لحوم هذه الجوازل فطسئت طسأة فأصابني وجع من الوابلة إلى ذات العنق، فلم يزل يربو وينمو حتى خالط الخلب والشراسيف، فهل عندك دواء ؟ قال : نعم، خذ حرقفا وسلقفا وسرقفا فزهزقه وزقزقه واغسله بماء روث واثربه فقال أبو علقمة : لم أفهم عنك هذا، فقال : أفهمتك كما أفهمتني ».
(66) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 1 : 127 ــ 129 والمصادر بالهامش 52 من الصفحة 127 من نفس المصدر.
(67) **في رسائل** بديع الزمان الهمداني، ص 358، الرسالة 131 : وله إلى الأمير أبي الحرث محمد مولى أمير المؤمنين.
وقد اتفقت رواية **اليتيمة**، 4 : 275، مع رواية **المنتقى**، اذ قال : « فصل من كتاب إلى ابن فريغون : كتابي والبحر...... » وأكده الثعالبي مرة أخرى في نفس المصدر في الصفحات الموالية حينما قال : « وأنشدني لنفسه في ابن فريغون :

ألم ترى أني في نهضتي — لقيت المنى والغنى والأميرا
لآل فريغون في المكرمات — يد أولا واعتذار أخيرا »

(68) انظر الرسالة 131 من **رسائل** بديع الزمان الهمداني، ص 358.
(69) انظر عن الترصيع، **خزانة الادب** لابن حجة الحموى، ص 366.

ومحقق وعوده بلوازم شكره ».

ومنه قول أبي الفضل الهمذاني : « إن بعد الكدر صفوا، وبعد المطر صحوا ».

وما لأبي الفتح البُسْتي [70] :

« ليكن اقدامك توكلا، واحجامك تأملا ».

ومنه قول بعضهم :

**ولا عيب فينا اغير أن سماحنا أضربنا والناس من كل جانب**
**فأفنى الردى أرواحنا غير عابث وأفنى الندى أموالنا غير عائب**

واعلم أن الأسجاع في النثر، كالقوافي في الشعر، وحقيقته تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد، وهي عندهم على ثلاثة أضرب : مطرف، ومتواز، وترصيع. ويعرف ذلك بالفاصلتين، إما أن يكون في إحدى القافيتين مثل ما يقابلها من الأخرى في الوزن والتقفيه أم لا ؟ فان كان، فهو الترصيع، وإلا فهو المتوازي. وأحسن السجع ما تساوت قرائنه، ثم ما طالت قرينته الثانية كان أحسن كقول أبي الفضل الميكالي [71] : « لك الأمر المطاع، والشرف اليَفاع، والعرض المصون والمال المضاع ». لأن السجع إذا استوفى أمره في الأولى لطولها ثم جاءت الثانية أقصر منها كثيرا، يكون الكلام كالشيء المبتور، ويبقى السامع كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها، والذوق يشهد بهذا، ويقضي بصحته، قال السَّكّاكي [72]. وفواصل الأسجاع موضوعة على أن تكون مبنية على السكون، أي ساكنة الأعجاز، موقوفا عليهما به لأن

---

(70) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 3 : 376 — 377. والمصادر بالهامش 47 من الصفحة 376 من نفس المصدر.
وكذلك كتاب الدكتور محمد مرسي الخولي : **أبو الفتح البستي**.

(71) بالأصل : (المكيالي) بميم فكاف فياء بعدها ألف فلام فياء نسبة، وهو خطأ صوابه الميكالي، قال ابن الأثر في **اللباب في تهذيب الأنساب** : « الميكالي بكسر الميم وسكون الياء تحتها نقطتان وفتح الكاف وبعد الألف لام، هذه النسبة إلى ميكال بن عبد الواحد بن جبريل إلى آخر نسب..... وهو جد أهل البيت الميكالي بنيسابور، وهم أمراء فضلاء علماء فمنهم........ ».
انظر أيضا حول نفس الموضوع. السيوطي، **لب الألباب**.
وانظر ترجمة أبي الفضل الميكالي عند م. بن شاكر، **فوات الوفيات**، 2 : 428 — 433، والمصادر بالهامش 317 من الصفحة 428 من نفس المصدر.

(72) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الأعلام**، 9 : 294، والمصادر بالهامش 2. والمقصود هنا كتابه : **مفتاح العلوم**.

الغرض أن يزاوج بينهما، ولا يتم ذلك في كل صورة الا بالوقف، وذهب بعضهم الى أنه لا يقال في القرآن أسجاع وإنما يقال فواصل، انتهى. قال أبو بكر الخوارزمي : من روى حوليات زهير، واعتذارات النابغة، وأهاجي الحطيئة، وهاشميات الكميت [73]، ومعاريض جرير، وخمريات أبي نواس، وتشبيهات ابن المعتز، وزهديات أبي العتاهية، ومراثي أبي تمام، ومدائح البحتري، وروضيات الصنوبرى، ولطائف كشاجم [74]، ولم يخرج الشعر فلا أشب الله قرنه ».

قال المتنبي : « الشعر ميدان والشعراء فرسان، فربما وافق [75] الخاطر الخاطر، ووقع الحافر على الحافر، وذلك كواحد من جم، أسو نقطة من يم ». وقد سئل أبو عمرو بن العلاء [76] عن الشاعرين يتفقان في المعنى ويتواردان في اللفظ، فقال : « تلك عقول رجال توافقت ألسنتها ».

ومن التوارد قول مَعْبَد المغني [77] :

**لهفي على فتية ذَل الزمــان لهــم ... فمــا يصيبهـــم إلا بمـــا شاءوا**

وقال أبو نواس :

**دارت على فتية دان الزمـان لهـم ... فمـا يصيبهـم إلا بمـا شاءوا**

وهذا من أبيات يقول فيها :

**دع عنك لومي فإن اللوم اغــراء ... وداوني باللتي كانت هي الــداء**
**صفراء لا تنـزل الأحـزان ساحتهـا ... لو مسهـا حجـر مسته سراء**
**رقت عن المــاء حتـى ما يلائمهـا ... لطافة، وجفـا عن شكلهـا المــاء**
**دارت على فتية دان الزمـان لهـم ... فمـا يصيبهـم إلا بمـا شاءوا**
**لتـلك أبكـي، ولا أبكـي لمنزلـة ... كانت تحل بها هند وأسمـاء [78]**

---

(73) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الأعلام**، 6 : 92 ــ 93 والمصادر بالهامش 1.
(74) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الأعلام**، 8 : 43، والمصادر بالهامش 1.
(75) في « م » : وافي.
(76) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 3 : 466 ــ 470 والمصادر بالهامش 505 من نفس الصفحة 466 من نفس المصدر.
(77) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الأعلام**، 8 : 177 ــ 178 والمصادر بالهامش.
(78) انظر **ديوان أبي نواس**، ص 6.

ومن التوارد ما حكي أن المعتمد على الله أبا القاسم محمد بن عباد كان يوما بمجلس أنسه من قصره فمرت جارية من جواريه بين يديه وعليها ثوب يشف جسمها لرقته من يوم شديد الحر، وكانت ذات جمال فائق، وحسن رائق، فدعاها وأمر بسكب ماء الورد عليها، فلصق الثوب بجسمها، فأعجبه ذلك، فأنشد :

**من لي بساحرة الجفون غريرةٍ تختال بين أسنة وبواتر**

فعجز عن الزيادة، فكتب البيت ودفعه لفتى وقال له : انظر من بالباب من الشعراء يزيد عليه، فخرج الفتى فوجد الشاعر النَّحْلي [79] فدفع له البيت، فزاد عليه بأن قال :

**راقت محاسنها ورقّ أديمها فتكاد تبصر باطنا من ظاهر**
**يندى بماء الورد مسبل شعرها كالطل يسقط من جناب الطائر [80]**

ودفعها إلى الفتى وصار بها إلى المعتمد فأعجبته وأمر بدخوله فقال له : ويحك ! أكنت معنا ؟ فقال له : ألم تسمع : « وأوحى ربك إلى النحل » [81].

ولد المعتمد سنة احدى وثلاثين وأربعمائة [82]، وتوفي في سجن يوسف بن تاشفين بأغمات [83] لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال، وقيل ذي الحجة سنة ثمان وثمانين

---

(79) انظر ترجمته عند أ. المقرى، **نفح**، 3 : 234، 331، 333، 445، 450، 4 : 9.

(80) انظر القصة عند أ. المقرى، **نفح**، 3 : 234، وصلاح خالص، **المعتمد بن عباد**، ص 77، وعلي أدهم، **المعتمد بن عباد**، ص 125.

**ملاحظة :**

ورد بيت المعتمد بن عباد في **ديوانه** والمصادر الأدبية هكذا :

**علقت جائلة الوشاح غريرة تختال بين أسنة وبواتر**

(81) الآية 58 من سورة النحل.

(82) بالأصل احدى وثمانين وأربعمائة، وهو خطأ، و 431 هـ تقابلها 1039 — 1040 م.

(83) أثارت قضية سجن المعتمد بن عباد والقضايا المرتبطة بها نقاشا حادا بين المؤرخين، ويدور النقاش حول ثلاث نقط أساسية.

أولا : حقيقة دور يوسف بن تاشفين بالأندلس وخلفياته ؟

ثانيا : مواجهته العنيفة لملوك الطوائف ؟ =

وأربعمائة [84]. فقال الثعالبي : وهذه هفوة. والطَّلُّ : المطر الخفيف، ومنه : « فإن لم يصبها وابل فطل [85].

حكي أن امرأة تسمى عُلَيَّة [86] ابنة المهدى، أخت ابراهم بن المهدي لم يرقط مثلها

---

ثالثا : معاملته للمعتمد بن عباد ؟

فيما يتعلق بالنقطة الأولى يورد كثير من المؤرخين خاصة منهم الأندلسيين والشرقيين روايات تتعلق برغبة يوسف بن تاشفين بالاستيلاء على الأندلس « للاستمتاع بمباهجها » وبكونه كان يعتقد أنه الأولى بها من غيره، وهنا يجمل بنا أن نرد الأمور إلى نصابها بالملاحظات الآتية :

ــ ان يوسف بن تاشفين لم يذهب إلى الأندلس الا بناء على طلب من ملوك الطوائف ومن ضمنهم المعتمد بن عباد نفسه وذلك بعد استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة سنة 478 هـ ــ 1085 م وهي أول ما استرده الاسبان من مدن الاندلس، وقد كان لسقوطها دوي عظيم ووقع أليم في نفوس سكان الأندلس المسلمين والعالم الاسلامي قاطبة، وقد أدرك المسلمون أن مقامهم بالأندلس بعد سقوط طليطلة معرض لأشد الأخطار، وانه لابد لانقاذ الوضعية من الاستنجاد بالعدوة، فكان موقعة الزلاقة في السنة الموالية (479 هـ ــ 1086 م).

ــ الملاحظة الثانية : بعد انتهاء المعركة لم يذكر المؤرخون أن يوسف عبر عن أي رغبة في الاستيلاء على الأندلس أو على خيراتها، بل حتى أن غنائم الزلاقة تركها لملوك الطوائف وقال قولته المشهورة : « إنما جئت للغزو ».

ــ الملاحظة الثالثة : لم ينته يوسف إلى الحل النهائي الا بعد أن رأى من ملوك الطوائف من انغماس في حياة اللهو وتحالف بعضهم مع المسيحيين، وبعد استشارة الفقهاء وحصوله على فتوى منهم.

ــ أما عن النقطة الثانية فالعذر واضح ألا وهو تعنت ملوك الطوائف في الدخول في طاعته، بل والتجاؤهم إلى المسيحيين ضده، فلم يكن له بد من أن يسلك غير هذا السلوك خاصة وأنه أصبح مبررا شرعا.

ــ وفيما يتعلق بالنقطة الثالثة فإن الانتقادات كانت عنيفة إلى الدرجة التي يقول معها ابن الأثير في الكامل (10 : 65) : « وفعل أمير المسلمين (يقصد يوسف) لهم فعالا لم يسلكها أحد ممن قبله، ولا يفعلها أحد ممن يأتي بعده إلا من رضي لنفسه بهذه الرذيلة ... وأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفسه ولؤم قدره ».

ونذكر هنا أيضا بأن كثيرا من المبالغات تطرح بمناسبة ذكر قصة المعتمد، فنشير بالمناسبة إلى مقر سجنه أغمات، كانت آنذاك من أهم حَواضر المغرب، كما أن سجنه لم يكن مروعا إلى الحد الذي نجده في بعض المصادر، فقد كان بامكانه أن يتصل بمن شاء، وقد وفد عليه بالفعل جل أدباء الأندلس وهو في أغمات، وكانوا يقضون معه الأوقات الطويل، بل أنه استدعى يوما طبيب يوسف الخاص لمعالجة بعض حرمه فلبى طلبه.

(84) ذو الحجة سنة 488 هـ يقابله شهر دجنبر سنة 1095 م

(85) الآية 265 من سورة البقرة.

(86) انظر ترجمتها عند م. بن شاكر، **فوات الوفيات**، 3 : 123 ــ 126، والمصادر بالهامش 371 من الصفحة 123 من نفس المصدر.

في بني العباس وفي بني أمية دينا وعقلا وذكاء وفطنة. وكانت أيام طهرها تقرأ القرآن وتلزم المحراب، فإذا حاضت قالت الأشعار، وكانت تحب الأدب والأدباء وتراسل من تخصه بالأشعار، وتداعب به على صحة وعفاف، وكانت تداعب خادما من خدم الرشيد يقال له طل، فغاب عنها أياما لم تره، فذهبت إلى زيارته وأنشدته :

**يا طل من وَجْدي بِكُمْ يكفي — قد كان ما كُلِّفْتُهُ زمنا**
**أمشي على خَتْفِ إلى حتف — حتى أتيتك زائرا عجلا**

فسمع ذلك الرشيد، فحلف لها ألا تكلم طلا ولا تذكره، فدخل عليها وهي تقرأ في المصحف : « فإن لم يصبها وابل، فما نهى عنه أمير المؤمنين »، ولم تقل : فطل، فضحك، وقبل رأسها وقال لها : ولا كل هذا ! قد وهبت لك طلا، فقلبت اسمه إلى رشأ، وتصحيفه (87) زينبا، فمن قولها :

**وجد الفؤاد بزينبا — وجدا شديدا متعبا**
**ولقد كنيت عن اسمه — قصد الكنى ما أغربا**
**وجعلت زينب سُتْرَةً — وكتمت أمرا معجبا (88)**

وينبغي للشاعر أن يتأنى في مطلع قصيدته، كما لأبي محمد الخازن يهني الصاحب بن عباد بمولود تزيد لأبنته :

**بشرى فقد أنجز الاقبال ما وعدا — وكوكب المجد في أفق العلا صعدا**

فبمثل هذا يستحب أن تصدر مدائح الملوك، لا بمثل ما حكي أن النعمان بن

---

(87) التصحيف : ابدال حرف بآخر، كأن تجعل كلمة سر شرا، أو كما هو الحال هنا حيث صحفت زينب إلى رشأ.

(88) وردت الأبيا عند ابراهيم الحصرى في **زهر الآداب**، 1 : 10، هكذا :

أضحى الفؤاد بزينبا — صبا كئيبا متعبا
فجعلت زينب سترة — وكتمت أمر معجبا

وانظر أيضا الابشيهي، 1 : 42.

المنذر [89] نزل بمرج كثير الشقائق تحت شجرة ظليلة، كثيرة الورق، ملتفة الأغصان، وكان معجبا بالشقائق، وإليه نسبت، فقيل شقائق النعمان، وأمر باحضار الطعام والشراب فأحضر، وقال عدي بن زيد [90] وكان كاتبا له : أتدري ما تقول هذه الشجرة ؟ فقال له : ما تقول ؟ قال :

تقول :

| | |
|---|---|
| رب ركب قد أناخـــوا حولنـــا | يمزجـون الخمـر بالمــاء الــزُّلَال |
| من رآنــــا فليوطــــن نفسه | إنمـا الدنيـا علـى قَرْبَـى زوال |
| مستظــــل الفــــيء تحت بانـــة | وكـذاك الدهـر حال بعــد حال [91] |

فنغص عليه وارتحل من حينه لأنه قصد بذلك موعظته.

وينبغي للشاعر أن لا يذكر ما يتطير منه كما اتفق لابن مقاتل الضرير [92] مع الداعي

---

(89) انظر ترجمته عند خ. الزركلي، **الاعلام**، 9 : 10 والمصادر بالهامش 1.

(90) انظر ترجمته عند خج الدين الزركلي، **الاعلام**، 5 : 9 — 10، والمصادر بالهامش 1.

(91) وردت الأبيات عند المبرد في **الكامل**، 2 : 75، وابن رشيق في **العمدة** : 223، ولويس شيخو اليسوعي في **شعراء النصرانية**، ص 441 — 442، والحسن اليوسي في **المحاضرات**، ص 285، هكذا :

| | |
|---|---|
| من رآنـــا فليحــــدث نفسه | أنــــه موف علـــــى قرن زوال |
| وصروف الدهـــر لا يبقـــى لهـــا | ولمـــا تأتـــي به صم الجبــــال |
| رب ركب قد أنـــا خوا حولنـــا | يمزجـون الخمـر بالمـــاء الـــزلال |
| والأباريــــــق عليـــــه فُدُمٌ | وجيـاد الخيـل تَرْدِي في الجِــلَال |
| عمـــروا الدهـــر بعـــيش حسن | قطعــوا دهرهـــم غيـــر عجـــال |
| ثم أضحـــوا عصف الدهـــر بهـــم | وكـــذاك الدهـــر حال بعـــد حال |

وعند أ. بن خلكان في **وفيات الأعيان**، 1 : 388، هكذا :

| | |
|---|---|
| رب ركب قد أنـــا خوا حولنـــا | يشربـون الخمـر بالمـــاء الـــزلال |
| ثم أضحـــوا لعب الدهـــر بهـــم | وكـــذاك الدهـــر حال بعـــد حال |
| من رآنـــا فليوطـــــن نفسه | إنــــه منهـــا علـــى قرب زوال |

(92) بالأصل : (مقاتل)، وهو تصحيف إذا المترجم هو ابن مقاتل الضرير أحد شعراء الجبال، أما الداعي العلوي فهو الداعي الثائر بطبرستان.
انظر عبد الرحيم بن أحمد العباسي، **معاهد التنصيص**، 4 : 229.

العلوى [93] في يوم المهرجان حيث أنشده :

لا تقــل بشرى ولكــــن بشريـــان غرة الداعـــي ويـــوم المهرجـــان

فتطير به وأمر ببطحه، وضرب خمسون عصا. وقال : اصلاح أدبه أبلغ في توابه .

قال بعضهم : لو عكس البيت وبدل، فقال :

غرة الداعـــي ويـــوم المهرجـــان أي بشرى هي لا بل بشريـــــان

[ وحكي عن ابراهيم بن المهدي [94]، قال : أرسل إلي محمد بن زبيدة في ليلة من ليالي الصيف مقمرة يقول لي : يا عم، إني مشتاق إليك، فاحضر الآن عندنا. فجئته، وقد بسط له على سطح زبيدة، وعنده سليمان بن أبي جعفر وجارية، فقال لها : غنينا شيئا، فقد سررت بعمومتي فغنت.

همُ قتلــوه كي يكونـــوا مكانـــه كما فعـلت يومـا بكسرى مَرَازِبُـــه
بني هاشم كيــف التــواصل بيننــا وعنــد أخيــه سيفـــه ونجائبـــه

فغضب وتطير، وقال لها : ويحك ! ما قصتك ؟ انتهي، وغني ما يسرني ! فغنت :

كلــيب لعمـــرى كان أكثـــر ناصرا وأكثر حزما منك ضُرِّجَ بالـــدم [95]

(93) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 2 : 227، والمصادر بالهامش.
(94) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 1 : 39 ــ 42، والمصادر بالهامش 9 من الصفحة 39 من نفس المصدر.
(95) البيت للنابغة الجعدي، وهو من قطعة مطلعها :

وبلـــغ عقـــالا أن خطـــة داحس بكفيك فاستأخـــر لهـــا أو تقـــدم

انظر أحمد الشريشي، **شرح مقامات الحريري**، 2 : 149، ولويس شيخو اليسوعي، **شعراء النصرانية**، ص 159.

فقال : ويحك ! ما هذا الغناء في هذه الليلة ؟ غني غير هذا ! فغنت :

ما زال يعدو عليهم رَيْبُ دهرهمُ حتى تفانوا وريب الدهر عداء
تبكي فراقهم عيني فأَرَّقها إن التفرق للمشتاق بكاء

قال : فانتهرها، وقال لها : قومي إلى لعنة الله !
فقالت : والله يا مولاي لم يجر على لساني غير هذا، وما ظننت إلا أنك تحبه، ثم إنها قامت [ وكان (96) ] بين يديه قدح بلور كان أبوه يحبه، فأصابه طرف ردائها فانكسر.

قال ابراهيم بن المهدي : فالتفت إلي وقال : يا عم، أرى أن هذا آخر أمرنا، فقلت : كلا ! بل يقيك الله يا أمير المؤمنين، فسمعت هاتفا يهتف : (قضي الأمر الذي فيه تستفتيان (97) )، فقال لي : أسمعت ما سمعت يا عم ؟ فقال : ما سمعت شيئا، وما هذا الا توهم، فإذا الصوت قد علا، فقال : يا عم، اذهب إلى بيتك، فمحال أن يكون بعد هذا اجتماع. فانصرفت، وكان آخر عهدي به (98) ].

وحكي عن المعتصم أنه لما بني قصره وجلس فيه للهناء، دخل عليه الناس ومعهم أبو [ محمد ] اسحاق الموصلي (99)، فأنشده قصيدته الكافية (100) :

---

(96) ما بين القوسين سقط من الأصل، والاكمال من **المستطرف** للأبشيهي، 2 : 96.
(97) الآية 41 من سورة يوسف.
(98) ما بين المعقوفين زيادة من « م ».
وانظر القصة عند الابشيهي، 2 : 95 — 96.
وقد وردت القصة بشكل مغاير عند ابن حجة في **ثمرات الأوراق**، 1 : 117.
(99) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 1 : 202 — 205 والمصادر بالهامش 87 من الصفحة 202 من نفس المصدر.
وقد ترجم له ترجمة مطولة ماجد أحمد العزي في مقدمة **ديوان اسحاق الموصلي**، 7 — 82.
(100) قال ماجد أحد العزي محقق **ديوان اسحاق الموصلي** عن هذه القصيدة في الصفحة 160، ما يلي : « كان قد دخل على المعتصم عند فراغه من بناء قصر له، فأنشده قصيدة لم يصلنا منها شيء سوى هذا البيت، والذي كان مطلعها. وقد أجمعت المصادر التي أوردت البيت على نه كان من سقطات اسحاق، اذ كيف يهنيء ملكا بقصيدة مطلعها هذا البيت وهو من خبر مجالسة الملوك وعرف ما يتطيرون منه ».
وأورد بعد ذلك مصادر تخريج البيت، وهي :
— المرزباني، **الموشح**، ص 462.
— أبو هلال العسكرى، **كتاب الصناعتين**، ص 432.
— الصابي، **الهفوات النادرة**، ص 17.
=

يا دار غَيَّــرَكِ البِلَـــى ومحـــاك    يا ليت شعري ما الـذي أبـلاك [101]

فتطير المعتصم بقوله وأمر بهدم القصر، ومن ذلك ابتداء قصيدة أبي نواس أنشدها في جعفر بن يحيى البرمكي [102] يهنيه بدار جديدة، بناها وجلس فيها للهناء، فقال :

أرْبَعَ البِلَــى ! ان الــخشوع لبــاد    عليك، وإنـي لم أخنك ودادي [103]

فنكس جعفر رأسه والناس ينظر بعظهم إلى بعض حتى ختمها بقوله :

سلام علــى الدنيــا اذا ما فقدتــمُ    بني برمك من رائحيــن وغــاد [104]

وليست الطِّيَرَة من السنة، فقد كان ـــ ﷺ ـــ يحب الفال الحسن ويكره الطيرة، وعنه ـــ ﷺ ـــ : « ليس منا من تَطَيَّرَ أو تُطُيِّرَ له : أو تَكَهَّنَ أو تُكُهِّنَ لَهُ [105] ».

وأنشد المبرد [106] :

لا يعلــم المــرء ليــلا ما يُصَبِّحُــهُ    إلا كواذبَ ما يجــري به الفــــالُ
والفــال والزجــر والكهــان كلهــم    مضللون ودون الغيب أقفــــال [107]

= ـــ القاضي الزبير، **الذخائر والتحف**، ص 16،
ـــ ج. السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص 337،
ـــ الحسيني الحسيني، **أنوار الربيع**، ص 16.
ـــ حسين المرصفي، **الوسيلة الأدبية**، 2 : 52.

(101) انظر البيت في **ديوان اسحاق الموصلي**، ص 160.

(102) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 1 : 328 ـــ 346، والمصادر بالهامش 132 من الصفحة 328.

(103) انظر **ديوان أبي نواس**، ص 471.

(104) انظر القصة عند ابن رشيق في **العمدة**، 1 : 224، وكمال الدين الدميري، **حياة الحيوان الكبرى**، 2 : 98.

(105) أخرجه الطبراني في **المعجم الكبير** عن عمران بن حصين.
انظر ج. السيوطي، **الجامع الكبير**، 2 : 465.

(106) انظر ترجمته عند أ. بن قنفذ، **وفيات**، ص 45، وأ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 4 : 313 ـــ 322 رقم 636، وج. السيوطي، **بغية الوعاة**، 1 : 269 ـــ 271 رقم 503، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 8 : 15.

(107) انظر البيتين عند م. الابشيهي، **المستطرف**، 2 : 95.

وقال لبيد (108) :

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ... ولا زاجرات الطير ما الله صانع (109)

ولآخر :

تعلم أنه لا طير إلا ... على متطير وهو الثُّبورُ
بَلَى شيء يوافق بعض شيء ... أحايينا وباطله كثير (110)

والعرب أكثر ما تتطير بالغراب، ويسمونه حاتما، لأنه يحتم عندهم بالفراق، ويسمونه الأعور على جهة التطير، إذ كان أصح الطير نظرا، وفيه يقول بعضهم :

إذا أما غراب البين صاح فقل له : ... ترفق رماك الله يا طير بالبعد
لأنت على العشاق أقبح منظرا ... وأبشع في الأبصار من رؤية اللحد
تصيح ببين ثم تعثر ماشيا ... وتبرز في ثوب من الحزن مسود
متى صحت صح البين وانقطع الرجا ... كأنك من يوم الفراق على وعد (111)

وأعرض بعضهم عن الغراب وتطير بالابل، لكونها ترحل بالمحبوب، ولقد أجاد بعضهم فقال :

زعموا بأن مطيهم سبب النوى ... والمؤذنات بفرقة الأحباب (112)

ولنرجع إلى ما كنا بصدده : من ذكر محاسنه الحسنة، ومفاخره المستحسنة. فلا شك أنه ـــ أيده الله ـــ أقوى الناس صبرا، واحتمالهم جفوة، حلما منه، واحتسابا لله عز وجل، ولو تتبعنا ذلك لطال الكتاب، وخرج عن حد الاختصار إلى الاسهاب، والله الموفق لا رب غيره، ولا معبود سواه.

---

(108) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 6 : 104، والمصادر بالهامش 1.

(109) انظر **ديوان لبيد**، ص 90.

(110) البيتان لزبان بن منظور الفزاري.
انظر الجاحظ، **البيان والتبيين**، 3 : 155، وابن رشيق، **العمدة**، 2 : 261، والابشيهي، 2 : 95.

(111) الأبيات للمحدث تاج الدين الغراقي العراقي، أنشدها لابي عبد الله محمد بن محمد العبدري الحيحي عندما زاره بالاسكندرية.
انظر **الرحلة المغربية**، ص 112، والابشيهي، 2 : 95.

(112) انظر ابن رشيق، **العمدة**، 2 : 261، **وزهر الآداب**، 1 : 481، والابشيهي، 2 : 95.

# الباب العاشر

## * في شدة حيائه
## الذي هو من صفات ذاته وبهائه

أما الحياء فهو أعظم الخصال المحمودة، [ فقد ورد عن النبي ﷺ : أنه قال « الحياء من الايمان » (1)، وعنه ــ ص ــ « الحياء لا يأتي إلا بخير » (2)، وفي رواية : « الحياء خير كله » (3)، وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « الايمان بضع وسبعون بابا، فأفضلها : قول لا إلهٰ إلا الله، وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الايمان » (4)، وعن أبي سعيد : « كان ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها فإذا رأى شيئا يكرهه عرفناه في وجهه » (5).

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة ] (6)، وحقيقته : خلق يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق كل ذي حق (7). ويقال : القناعة دليل الأمانة، والأمانة دليل الشكر، والشكر

---

(1) أخرجه البخاري في **الصحيح**، 1 : 11، ومسلم في **الصحيح**، 1 : 46، وأبو داود في السنن، 4 : 252، والنسائي في السنن، 8 : 121.

(2) أخرجه البخاري في **الصحيح**، 7 : 100، ومسلم في **الصحيح**، 1 : 47 وكلاهما عن عمران بن حصين.

(3) أخرجه مسلم في **الصحيح**، 1 : 47، وأبو داود في **السنن**، 4 : 252، وكلاهما عن عمران بن حصين.

(4) أخرجه البخاري في **الصحيح**، 1 : 8، ومسلم في **الصحيح**، 1 : 46، وأبو داود في **السنن**، 4 : 219، والنسائي في **السنن**، 8 : 110، وكلهم عن أبي هريرة.

(5) أخرجه البخاري في **الصحيح**، 4 : 167، ومسلم في **الصحيح**، 7 : 78، وكلاهما عن أبي سعيد الخدري.

(6) ما بين المعقوفين سقط من « ج ».

(7) انظر ابن مرزوق، **المسند**، ص 117.

دليل الزيادة، والزيادة دليل بقاء النعمة، والحياء دليل الخير كله.
وفي الحديث : « إذا لم تستح فافعل ما شئت » [8]، وقد عقده بعضهم فقال :

**إذا لم تخش عاقبـــة الليالـــــي ولـــم تستحـــي فافعـــل ما تشاء**
**فلا واللـــه ما في العـــيش خيـــر ولا الدنيـــا إذا ذهب الحيـــاء** [9]

[ولبعضهم :

**إذا لم تصن عرضا ولـم تخش خالقـا وتستحي مخلوقا فما شئت فاصنع** [10]

وللشعراء منظومات كثيرة، فمنها :

**إذا رزق الفتـى وجهـــا وقاحـــا تقــلب في الأمـــور كمـــا يشاء**
**ورب دنيـــــة ما حال بينــــــي وبيـــن ركوبهـــا إلا الحيـــاء** [11]

ولأمية بن أبي الصلت [12] :

**أأطـــلب حاجتـــي أم قد كفانـــي حيـــاؤك ان شيمـــتك الحيـــاء**
**إذا أثنـــى علـــيك المـــرء يومـــا كفـــاه من تعـــرضك الثنـــاء]** [13]

---

(8) أخرجه البخاري في **الصحيح**، 7 : 100، وأبو داود في **السنن**، 4 : 252 وكلاهما عن أبي مسعود.
(9) انظر البيتين عند الراغب الاصبهاني، **محاضرات الأدباء**، 1 : 285، و**المسند**، ص 117، وقد نسبهما للجنيد.
(10) انظر البيت عند الراغب الاصبهاني، **محاضرات الأدباء**، 1 : 285، والابشيهي، 1 : 155، و**المسند**، ص 117 وقد نسبه هذا الأخير لأبي دلف العجلي.
(11) انظر البيتين عند الراغب الاصبهاني، **محاضرات الأدباء**، 1 : 286، والابشيهي، 1 : 155، و**المسند**، ص 117.
(12) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي الاعلام، 1 : 364، والمصادر بالهامش 1.
وانظر كذلك بهجت عبد الغفور الحديثي، مقدمة **ديوان أمية بن أبي الصلت**، وبها دراسة وافية عن شعره ومصادر ترجمته.
(13) ما بين المعقوفين سقط من « م ».
وانظر البيتين في **ديوان أمية ابن أبي الصلت**، ص 333.

ومما قيل في حياء عثمان ـــ رضي الله عنه ـــ :

| | |
|---|---|
| ومن مثل ذي النورين في الجود والتُّقى | ومن ذاله فضل به فاز عثمانُ |
| تطلع في بُرْدَيْ حياءٍ وعفةٍ | فراق كما راق النواظر بستان |
| ومن منه تستحيي ملائكة السما | أبيحت له في حضرة القدس أوطان |
| وزوجه المختار بنتيه فاغتدى | ومن دونه في رفعة القدر كيوان |
| وجهز للاسلام في حال عُسْرَةٍ | جيوشا لها من خير أمواله شان |
| ورَوَّى الورى من بئر رومة [14] جوده | فكلهم من مائها العذب ريان |
| مناقبه زادت على الشهب والحصى | وهل للحصى والشهب عد وحسبان |

وكان عثمان ـــ رضي الله عنه ـــ مهابا عند الناس، يكثر حياؤهم منه، وكذلك عمر الفاروق ـــ رضي الله عنه ـــ، ومما اتفق له بين يدي النبي ﷺ وهو أن رسول الله ﷺ خرج في بعض أسفاره، فلما قفل جاءته جارية سوداء، فقالت : يا رسول الله، إني نذرت ان ردك الله ـــ عز وجل ـــ سالما أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى، فقال لها رسول الله ﷺ : إن كنت نذرت فاضربي، وإلا فلا [15]، (فجعلت تقول :

| | |
|---|---|
| طلع البدر علينا | من ثنية الوداع |
| وجب الشكر علينا | ما دعا لله داع |

فدخل أبو بكر وهي تضرب، ثم دخل عثمان وهي تضرب، ثم دخل عمر وألقت الدف تحتها وقعدت عليه، فقال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان يخاف منك يا عمر، ما رآك في فج إلا سلك فجا غيره. إن هذه كانت تضرب، ودخل هؤلاء وهي تضرب، فلما دخلت أنت

---

(14) بالأصل : (روية)، وهو تصحيف، إذ من المعروف أن عثمان بن عفان جهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيرا وأتم الألف بخمسين فرسا، وأنه اشترى بئر رومة بعشرين ألف درهم، وفي ذلك يقول الشاعر :

| | |
|---|---|
| وقال رسول الله في بئر رومة | أما مشتر يبغي بها الأجر في غد |
| له الجنة العليا بذلك فاشترى | وتجهيز جيش العسرة اذكر وعدد |

انظر **الرياض النضرة**، 2 : 120 ـــ 122، وأ. المقري، **نفح**، 7 : 362.
وجاء في الحديث : من يحفر بئر رومة فله الجنة.

(15) أخرجه الترمذي ف **السنن**، وابن حنبل في **المسند**، 5 : 356، وكلاهما عن بريدة.

ألقت الدف من يدها) [16].

ومن مآثر الحياء ما حكي أن عمر بن عبيد الله بن مَعْمَر بن عثمان [17] اشترى جارية من أبي حلوانة السهمي بمائة ألف درهم، وكان بها مشغوفا، فلما قبض المال ذهبت الجارية لتخرج فتعلق بها وكان اسمها بسباسة، وأنشد :

| | |
|---|---|
| يُذَكِّرُ من بسباسة اليوم حاجة | فأعظم بها من حاجة المتذكِّرِ |
| فلولا قعود الدهر بي عنك لم يكن | يفرقنا شيء سوى الموت فاعذر |
| أبوء بحزن من فراقك موجع | أناجي به قلبا كثير التفكر |
| عليك سلام لا زيارة بيننا | ولا وصل إلا أن يشاء ابن معمر |

فقال ابن معمر : قد شئت، هي لك وثمنها.

حكي أن بعضهم بنى دارا وكتب على بابها ــ والبعض المذكور هو سيف الدولة بن حمدان ــ [18] :

---

(16) ما بين القوسين زيادة تفرد بها رزين.

وقد قال الشيخ محمد ناصر الدين الالباني عن هذه الزيادة : « ... وهذه الزيادة تفرد رزين بذكرها في هذا الحديث، ولا أصل لها في شيء من طرق الحديث فيما نعلم، فقد أخرجه بدونها الترمذي، وكذلك أخرجها أحمد وغيره عن بريدة بإسناد جيد، وله شاهد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده دون هذه الزيادة ودون ما بعدها. أخرجه أبو داود وقد ذكره المصنف بعد هذا.

وقد عرفت من حال رزين في مثال المؤاخذة الثانية.

نعم رويت هذه الزيادة في حديث آخر، لا علاقة لها بهذه القصة بلفظ : « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان والولدان يقلن : طلع البدر علينا.... » رواه أبو الحسن الخلعي في **الفوائد** (59 / 2). إلا أن إسناده معضل لا يصح، وفي معناه نظر... وإنما هو في سلسلة الاحاديث الضعيفة... فمن العجائب أن يستدل به بعض المشايخ على إباحة الدف في مجالس الذكر مع أنه ليس فيه ذكر للدف أصلا ولا هو في الذكر، وإنما هو في اللهو المباح، هذا يوضح الحديث ».

انظر : **نقد نصوص حديثية**، ص 48.

وقد قال الشيخ الالباني عن رزين في نفس المصدر ص 46 ــ 47 : « هو : رزين بن معاوية أبو الحسن العبدري الأندلسي السرقطي المتوفى سنة 535 هـ، صنف **تجريد الصحاح والسنن**، وهو المراد عند نسبة الحديث إليه، وهو غير معروف اليوم، وإنما يعزو إليه المصنف وغيره بواسطة كتاب آخر، مثل **جامع الأصول** لابن الأثير **والمشكاة** وغير ويبدو مما ينقل العلماء عنه أنه وقع في كتابه كثير من الأحاديث والزيادة في المتون مما لا أصل له عند أحد أئمة الحديث فضلا عن كتب الستة... ».

(17) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 5 : 214، والمصادر بالهامش.

(18) انظر ترجمته في المصدر السابق، 5 : 118 والمصادر بالهامش.

**يا قارع الباب أدخل غير محتشم** **فإن قرعك عندي أعظم الشان**
**تصيب بابا لضيفان إذا طرقوا** **فالمال بيني وبين الضيف نصفان**

ونقش على بساطه :

**منزلنا هذا لمن حوله** **نحن سواء فيه والطارق**
**فمن أتانا فيه فلنحتكم** **فيه وفينا يده طالق**
**سوى أهالينا وأولادنا** **فلم يرخص فيهم الخالق** (19)

وأما الضيف، فأول من أضاف الضيف إبراهيم ـ عليه السلام وعلى نبينا ـ، وينبغي للمضيف أن يكون طلق الوجه، كما قال حاتم :

**سل الطارق المُعْتَرَّ يا أم مالك** **إذا ما أتاني بين ناري ومجزري**
**أباسط وجهي انه أول القِرَى** **وأبذل معروفي له دون منكري** (20)

ولآخر :

**الله يعلم أنه ما سرني** **شيء كطارقة الضيوف النزل**
**ما زلت بالترحيب حتى خلتني** **ضيفا له والضيف رب المنزل** (21)

[قد] (22) أخذه من قول الآخر :

**يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا** **نحن الضيوف وأنت رب المنزل** (23)

---

(19) ورد عند الابشيهي، 1 : 182، بيتان فقط على الشكل الآتي :

**منزلنا رحب لمن زاره** **نحن سواء فيه والطارق**
**وكل ما فيه حلال له** **إلا الذي حرمه الخالق**

(20) انظر الابشيهي، 1 : 182.
(21) نسبهما الراغب الأصبهاني في **محاضرات الأدباء**، 2 : 650، إلى دعبل، وانظر الابشيهي، 1 : 182.
(22) ما بين المعقوفين سقط من « ز ».
(23) انظر الابشيهي، نفس المصدر والصفحة.

وللعاصم بن وائل :

**وانا لنقري الضيف [قبل] [24] نزوله ونشبعه بالبشر والوجه ضاحك**

ولبعض البخلاء :

**سرى نحونا يبغي القرى طاويَ الحشا لقد عملت فيه الظنون الكواذبُ**
**فبات [به منا] [25] إلى الصبح شاتم يعدد تطفيل الضيوف وضارب**

وأين هذا من قول الذي يقول :

**قالت : أما ترحل تبغي الغنى قلت : فمن للطارق المعتم ؟**
**قالت : فهل عندك شيء له ؟ قلت : نعم جهد الفتى المعدم**
**فكم وحق الله من ليلة قد أطعم الضيف ولم أطعم ؟**
**إن الغنى بالنفس يا هذه ليس الغنى بالمال والدرهم [26]**

وأما الضيف فمن دأبه أن يكون مساعفا للمضيف، ولا يخالفه في شيء، ولذلك قال بعضهم : لا ينبغي للضيف أن يعترض إن كان ذا حزم وطبع لطيف، فالأمر للانسان في بيته إن شاء أن ينصف أو أن يحيف.

ولبعضهم :

**تعجيل جود المرء أكرومة تنشر عنه أطيب الذكر**
**والحر لا يمطل معروفه، ولا يليق المَطْلُ بالحر [27]**

ومن كرم مولانا أن ابن عمر الكاتب الذي يأتي ذكره ــ إن شاء الله تعالى ــ أنه طلع عليه خمسون قنطارا من عشر الزيت في سنة من السنين، وكتب له هذه الأبيات، فترك له أعشار زيته

(24) في « م » : بعد، وانظر البيت عند الابشيهي، نفس المصدر والصفحة.
(25) ما بين المعقوفين سقط من « م »، وانظر البيتين عند الابشيهي، **المستطرف**، 1 : 184.
(26) انظر الابشيهي، 1 : 184.
(27) انظر قصة قولهما عند محمد الوشاء، **الموشى**، ص 57، والابشيهي، 1 : 198.

ما دام حيا، والأبيات هذه :

أبحر الندى خير الملوك سجية وأكرم من يُدعَى له فوق منبر [28]
فقد سرت في الاسلام أحسن سيرة وخُصِّصْت بالنصر العزيز المؤزر
أمولاي لاحظني بجودك إنني فقير نوال من لدنك موفَّر
فهذا زمان الزيت قد جاء مقبلا ولي رغبة فيه بغير تنكر
فمنها اشتعالي في الدجى وتطيبي ودهن طعامي ثم منها تعطُّري
لأني بليد الطبع أشتاق ريحها ففي الزيت يا مولاي مسكي [29] وعنبري

فالجود والكرم لا ينشآن إلا عن الحياء، ومما قيل فيه ما لجمال الدين بن البدوي [30] مضمنا بيتا :

إذا المرء وافى منزلا منك قاصدا قراك وأمته لديك المسالك
فكن باسما في وجهه متهللا وقل مرحبا أهلا ويوم مبارك
وقدم له ما تستطيع من القرى عجولا ولا تبخل بما هو كاهك
فقد قيل بيتا سالفا متقدما تداوله عمرو وزيد ومالك
(بشاشة وجه المرء خير من القرى فكيف بمن يأتي بها وهو ضاحك)

حكي أن معن بن زائدة [31]، كان من الأجواد، وكان عاملا على العراق [بالبصرة] [32]، فحضر بابه شاعر فأقام مدة يريد الدخول عليه فلم يتهيأ له، فقال لبعض الخدم : إذا دخل الأمير البستان فعرفني. فلما دخل أعلمه بذلك، فكتب الشاعر ونقشه على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، وكان معن جالسا على القناة، فلما رأى الخشبة أخذها وقرأها، فإذا فيها مكتوب :

أيا جود معن ناج معنا بحاجتي فليس إلى معن سواك رسول

---

(28) ورد عجز هذا البيت عند عبد الله كنون في **النبوغ**، ص 602، هكذا : وأفضل سلطان رقى فوق منبر.
(29) عند عبد الله كنون في **النبوغ**، ص 602 : سكري.
(30) انظر الابشيهي، 1 : 182. ولم نقف له على ترجمة.
(31) انظر ترجمة عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 5 : 244 ــ 245، والمصادر بالهامش 732 من الصفحة 244 من نفس المصدر.
(32) ما بين المعقوفين سقط من « م ».

فقال : من الرجل صاحب هذه ؟ فأتى به إليه. فقال : كيف قلت ؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بِدَرٍ. فأخذها وانصرف ووضع معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان في اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط، فنظر فيها ودعا بالرجل، فأمر له بمائة ألف درهم، فلما كان في اليوم الثالث فعل معه مثل ذلك، فتفكر الرجل وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج من البلد هاربا بما معه، فلما كان في اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجده فقال معن : والله لقد ساء ظنه، ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار إلا أعطيته إياه [33].

ومن قول معن :

**دعيني أنهب الأموال حتى ... أعف الأكرمين عن اللئام** [34]

ومعن هذا هو ابن زائدة الشيباني، قتله الخوارج بسجستان [35] في أيام المهدي، وفيه يقول القائل :

**يقولون معن لا زكاة لماله ... فكيف يزكي المال من هو باذله**
**إذا حال حول لم تجد في دياره ... من المال ألا ذكره وحمائله**
**(تراه إذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله)**
**(تعود بسط الكف حتى لَوَ آنه ... أراد انقباضا لم تطعه أنامله)**
**(فلو أن ما في كفه غير نفسه ... لجاد بها فليتق الله سائله)** [36]

وحكي أن مطيع بن إياس [37] الشاعر مدح معنا بقصيدة حسنة ثم أنشدها بين يديه، فلما فرغ من إنشاده أراد معن أن يباسطه فقال : يا مطيع، إن شئت أثبناك وإن شئت مدحناك كما مدحتنا، فاستحيا مطيع من اختيار الثواب وكره اختيار المديح وهو محتاج، فلما خرج أرسل إليه هذين البيتين :

(33) أنظر القصة عند ابن حجة الحموى، **ثمرات الأوراق**، 2 : 13 — 14، والابشيهي، 1 : 161.
(34) انظر البيت عند الابشيهي، 1 : 161، 31.
(35) سجستان : منطقة في وسط آسيا، تتقاسمها إيران وأفغنستان مساحتها 7006 كلم² ، قاعدتها نصر تاباد.
(36) في الشعر تضمين، اذ البيت الثالث لزهير، « أنظر **ديوانه** ص 68 » والرابع والخامس لأبي تمام « انظر **ديوانه** ص 205 » ، وانظر الأبيات عند الابشيهي، 1 : 161.
(37) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 8 : 161 ، والمصادر بالهامش 1 من الصفحة 162 من نفس المصدر.

ثنـــاء من أميـــــر خيــــــر كسب    لصاحب نعمــــــــة وأخـــــــي ثراء
ولكـن الزمـان [بــــرى عظامـــــي] (38)    فمالـــي كالدراهـــم [مـــن دواء] (39)

فلما قرأها معن ضحك وقال : ما مثل الدراهم من دواء، وأمر له بصلة جزيلة ومال كثير.

ولاسحاق بن إبراهيم الموصلي :

وآمرتي بالبخـل قلت لهـــا : اقصري    فلــيس إليـــه ما حيـــيت سبيــــــل
أرى النـاس إخـوان الكريـم ومـــا أرى    بخيـلا له في العالميـــن خليـــل (40)

ولبعضهم :

ذرينـــي واتلافـــي لمالـــي فإننـــــي    أحب من الأخــــلاق ما هو أجمـــل
وإن أحـــق النـــاس باللـــوم شاعـــر    يلوم على البخـل الرجـال ويبخـل (41)

ولبعضهم :

إذا قلت في شيء (نعـــم) فأتمــــه،    فإن (نعم) ديـن علـى الحـــر واجب
وإلا فقـل : لا، تسترح وترح بهـا    لئـلا يقـول النـاس : إنك كاذب (42)

وللطائي حاتم :

وعاذلـــةٍ قامت علـــي تلومنــــــي    كأني إذا أتلــفت مالـــي أضيمهـــا
أعـــاذل ان الجــود ليس بمهلكـــي    ولا ينفـع النـفس الشحيحـــة لُومُهـــا
وتذكـــر أخــــلاق الفتـــى وعظامـــه    مغيَّبَـــةٌ في اللحـــد بال رميمهـــا

---

(38) ما بين المعقوفين سقط من « م ».
(39) ما بين المعقوفين سقط من « م »، وانظر البيتين عند الابشيهي، 2 : 57.
(40) البيتان من قطعة يمدح فيها إسحاق الموصلي هارون الرشيد. انظر **ديوان إسحاق الموصلي**، ص 163.
(41) أنظر البيتين عند الابشيهي، 1 : 171 — 172.
(42) انظر البيتين عند محمد الوشاء، **الموشى**، ص 56، والابشيهي، 1 : 198، وابن الأزرق، بدائع، 1 : 456.

ومن يتدع ما ليس في خِيم نفسه	يدعه ويغلبه على النفس خِيمُها (43)

ولـــه :

وما الجود يفني المال قبل فنائه	ولا البخل في مال البخيل يزيد
فلا تلتمس مالا تعيش بكده	لكل غد رزق يعود جديد (44)

حكي أن رجلا جاء إلى معاوية ــ رضي الله عنه ــ، فقال : سألتك بالرحم التي بيني وبينك الا ما قضيت حاجتي، فقال معاوية : أمن قريش أنت ؟ فقال : لا، قال : فأية رحم بيني وبينك ؟ قال : رحم آدم، قال : رحم مجفوة، والله لأكونن أول من وصلها، ثم قضى حاجته.

وقيل للحسن بن سهل (45) : لا خير في السرف، قال : لا سرف في الخير، فقلب اللفظ واستوفى المعنى.

وحكي أن يزيد بن المُهَلّب (46) حبسه الحجاج في خراج وجب عليه، مقداره مائة ألف درهم، فجمعت له، وجاء الفرزدق يزوره في السجن، فقال للحاجب : استأذن لي عليه، فقال : إنه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه، فقال الفرزدق (47) إنما أتيت متوجها لما هو فيه، ولم آت ممتدحا، فأذن له، فلما أبصره قال :

أبا خالد ضاقت خراسان بعدكم	وقال ذوو الحاجات أين يزيد ؟
فما قطرت بالشرق بعدك قطرة	ولا اخضر بالمَرْوَيْنِ بعدك عود
وما لسرور بعد عزك بهجة	وما إجواد بعد جودك جود (48)

---

(43) لا توجد الأبيات في **ديوان حاتم الطائي**.

(44) لا توجد الأبيات في **ديوان حاتم الطائي**.

(45) أنظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 2 : 120 ــ 123 والمصادر بالهامش 177 من الصفحة 120 من نفس المصدر.

(46) أنظر ترجمته عند أ. بن خلكان **وفيات الأعيان**، 6 : 287 ــ 309 والمصادر بالهامش 816 من الصفحة 287.

(47) أنظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 6 : 86 ــ 100، والمصادر بالهامش 784 من الصفحة 86 من نفس المصدر.

(48) وردت الأبيات في **ديوان الفرزدق**، 1 : 160، **هكذا** :

أبا خالد بادت خراسان بعدكم	وقال ذوو الحاجات أين يزيد ؟
فلا مطر المروان بعدك قطرة	ولا ابتل بالمروين بعدك عود
فما لسرور بعد فقدك بهجة	ولا لجواد بعد جودك جود

وانظر القصة عند الابشيهي، 1 : 182.

فقال يزيد للحاجب : ادفع إليه المائة ألف التي جمعت لنا ودع الحجاج ولحمي يعمل فيه ما شاء، فقال الحاجب للفرزدق : إنما منعتك يا هذا لما ان خفت من دخولك، ثم دفعها إليه، فأخذها وانصرف [49].

ومن الحياء ما حدثني به شيخنا أبو راشد أن السلطان موسى المريني بن [50] أبي عنان لما سقط عن فرسه بالشماعين [51] استحيا من الناس كثيرا لما وقع به، وكان هذا بعد خروجه من صلاة جمعة بالقرويين خلف الولي الصالح الزاهد أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن عباد الرندي المتوفى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة [52]، فأزاح عند الخجل كاتبه أبو السعود [53] فقال :

| | |
|---|---|
| مولاي لا تلم الشقراء إن عثرت | ومن يلمها لعمري فَهْوَ ظالمها |
| وهالها ما اعتراها من مهابتكم | لأجل ذلك لم تثبت قوائمها |
| ولم تزل عادة الفرسان مذ ركبوا | تكبو الجياد ولم تنبو (كذا) عزائمها |
| وفي النبي رسول الله اسوته | أعلى النبيئين مقدارا وخاتمها |

---

(49) انظر القصة عند ابن حجة الحموي، **ثمرات الأوراق**، 1 : 73 — 74.

(50) بالأصل : (أخا)، وهو تصحيف.
انظر **روضة النسرين**، ص 36، وأ. بن القاضي، **جذوة**، 1 : 343 — 344 رقم 362، وأ. الناصري، **الاستقصا**، 4 : 71.

(51) الشماعين : سوق شهير بفاس بين جامع القرويين والضريح الادريسي، كان في الأصل سوقاً يباع فيه الشمع كما يدل عليه اسمه، ثم تحول الاتجار في الشمع إلى باب مولاي إدريس وأصبح سوق الشماعين خاصا ببيع الفواكه الجافة، وفي هذه السنين الأخيرة بدأ يتجول إلى سوق لبيع الثياب.
ويسمى الباب الرئيسي للقرويين باسمه لأنه يقابله.

(52) بالأصل : **(اثنين وتسعين وتسعمائة)**، وهو تصحيف، انظر مثلا أ. بن القاضي، **لقط الفرائد**، ص 226. و792 هـ توافق 1389 / 1390 م.

(53) هناك اختلاف في إسم هذا الكاتب، فابن القاضي في **الدرة**، 3 : 247 رقم 1275، وكذلك **لقط الفرائد**، ص 224، يسميه علي بن مسعود.
أما في **الجذوة** فإن الأصل هو : (المسعود)، لكن المحقق رجح أن يكون علي بن محمد بن سعود الخزاعي، اعتمادا على مصادر معينة ذكرها « انظر **الجذوة**، 2 : 489 رقم 554 هامش 627 ».
وقد اتفقت رواية عبد الحي الكتاني في **التراتيب الادارية**، المقدمة، 1 : 37، مع رواية **المنتقى** في كون اسمه أبي السعود، اعتمادا على ما أورده أحمد بن الخياط الفاسي صاحب **سلسلة الذهب المنقود، في ذكر الاعلام من الأسلاف والجدود**.
ونعتقد أنه من المحتمل أن يكون (أبو السعود) لقباله.
وعلى كل فهو : أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن موسى بن مسعود بن موسى بن أبي غفرة الخزاعي فاسي المولد والوفاة، اشتهر بكتابه : **تخريج الدلالات السمعية** (توجد نسخة جيدة منه بالمكتبة الملكية عدد 1397 وقد نشر بتحقيق الشيخ معاوية التميمي بتونس).

كَبابِــــهِ فرس أبقـــى بسقطتـــــه في جنبــه خدشة تبـــدو مراسمهـــا
حتـــى لصلـــي صلاة جالسا ثبـــتت لنـــا بهـــا سنـــة تحيـــا معالمهـــا
صلـــى الالـــهٰ عليـــه دائمـــا أبـــدا أزكـــى صلاة تحييـــه نواسمهـــا

وأزاح عنه الخجل الشيخ ابن عباد، فقال :

إن الجـــــــواد ما كبـــــــا إلا لمـــــا فيـــــه نبـــــا
ذاك قبـــــــــــول ما به أمامنـــــــــا تقربـــــــا
في يومـــــــه فَلْيَهْنِـــــــه أمـــــــر ونصر وجبـــــا (54)

ويقرب من معنى الحياء ما لبعضهم :

أتتنـــــي تُؤَنِّبُنـــــي بالبكـــــا فأهـــــلا وسهـــــلا لتأنيبهـــــا
تقـــول وفـــي قولهـــا حشمـــة أتبكـــي بعيـــن تراتـــي بهـــا
فقـــلت إذا استـــحسنت غيركـــم أمـــرت الدمـــوع بتأديبهـــا (55)

وأما البخل فهو من قلة الحياء وسقاطة النفس وقلة الهمة، ومما ورد فيه عنه ﷺ أنه قال : « لما خلق الله تعالى جنة عدن قال لها : تكلمي، فقالت : لا إلهٰ إلا الله، فقال لها ثانية : تكلمي، فقالت : حرمت على كل بخيل ومرائي » (56)، [وقال الله تعالى : « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله ـــ الآية » (57)، وعنه ﷺ : « إياكم والشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم » (58)، وقالت أم البنين، أخت عمر بن عبد العزيز : « أف للبخل، لو كان قميصا ما لبسته، أو كان طريقا ما سلكته » (59).

---

(54) توقفت نسخة « ج » في الباب العاشر عند هذا الحد.
(55) الأبيات لأبي بكر بن العربي، وقد وردت عند أ. المقري في أزهار الرياض، 3 : 88، هكذا :

أتتـــي تؤنبنـــي بالبكـــا فأهـــلا بها وبتأنـــيبها
تقـــول وفي نفسهـــا حسرة أتبكـــــــي بعين تراني بها
فقـــلت إذا استـــحسنت غيركم أمـــرت جفـــوني بتعـــذيبها

(56) الحديث غير موجود عند ج. السيوطي في الجامع الكبير، ولا عند أ. ي. ونسنك في المعجم المفهرس.
(57) الآية 37 من سورة النساء.
(58) أخرجه أبو داود في السنن، 2 : 133، عن عبد الله بن عمرو.
(59) انظر الابشيهي، 1 : 171.

قيل : بخلاء العرب أربعة : الحطيئة (60)، وحُمَيد الأرقط، وأبو الأسود الدُّؤلي (61)، وخالد.
أما الحطيئة فمر به إنسان وهو على باب داره، فقال : أنا ضيف، فأشار إلى العصا وقال له : هذه لكعاب الضيفان !
وأما حميد فكان هجاء الضيفان.
وأما أبو الأسود الدؤلي فتصدق على سائل بتمرة فقال له : جعل الله نصيبك من الجنة مثلها.
(وأما خالد بن صفوان فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه : يا عيار، كم تعير وكم تطوف وتطير لأطيلن حبسك، ثم يطرحه في الصندوق ويقفل عليه) (62).
واستأذن بعضهم على صديق له بخيل، فقيل له : هو محموم، فقال لهم : كلوا بين يديه لِيَعْرَقَ (63).]

ولبعضهـــم :

**ولا تقطعن عادة المعروف عن أحد ما دمت تقــــدر فالأيــــام تارات**
**واشكر فضيله صنع الله إذ رجعت إليك لا لك عند الناس حاجــات**

وذم رجل قوما، فقال : وجوههم وأيديهم وقاح بخلاء.
قال الشاعر :

**لو أن لي من جلد وجــهك رقعــة لجعلت منهــا حافــرا للأشهب** (64)

ولآخـــر :

**إذا رزق الفتــى وجهــا وقاحــا تقــلب في الأمــور كمــا يشاء**

---

(60) انظر ترجمته عند م. بن شاكر، **فوات الوفيات**، 1 : 276 ــ 279 والمصادر بالهامش 96 من الصفحة 279 من نفس المصدر.
(61) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 2 : 535 ــ 539 والمصادر بالهامش 313 من الصفحة 535 من نفس المصدر.
(62) ما بين القوسين سقط من الأصل والاكمال من الابشيهي، 1 : 171.
(63) ما بين المعقوفين ورد متأخرا في « م ».
(64) انظر الابشيهي، 1 : 155.

قال رسول الله ﷺ :

« إن مما أدرك الناس من كلام النبوءة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت ».
حكي عن رجل بخيل أنه كان إذا وقع في يده درهم أو دينار يضعه على كفه ويقول : سبحان الله، هذا أجل الأشياء إلى الله، فيه شفاء ووقاء، يا نور عيني ويا ثمرة الفؤاد، كم مدينة دخلتها، وكم يد وقعت فيها فلم يعرفوا قدرك، فداك أبي وأمي هنيئا لك الآن، استقرت بك الدار، واطمأنّ بك القرار، ونجوت من خطر الاسفار، وأيدي التجار، لك البشارة في كيس يغلق، وصندوق يطبق.

ولبعضهم في بخيل :

**لو عبـــر البحـــر بأمواجـــه ... في ليلـــة مظلمـــة بارده**
**وكفـــه مملـــوءة خردلا ... ما سقـط من كفـه واحـده**[65]

[ولبعضهم] :

**يا قائمـــا في داره قاعـــدا ... من غيـــر ما معنـــى ولا فائـــده**
**قد مات أضيـــافك من جوعهـــم ... فاقـــرأ عليهـــم سورة المائـــده**[66]

ولبعضهم :

**وقصائـــد مثـــل الريـــاض وضعتهـــا ... في باخـــل ضاعت به الأحساب**
**فإذا تناشدهـــا الـــرواة وأبصروا الـــ ... ممـــدوح قالـــوا : شاعـــر كذاب**

وللصفي الحلي :

**إني مدحـــتك كي أجيـــد قريحتـــي ... وعلـــمت أن المـــدح فيك يضيـــع**
**لكـــن رأيت الـــمسك عنـــد فساده ... يُدنـــوه من بيت الخـــلا فيضوع**[67]

---

(65) انظر البيتين في المصدر السابق، 1 : 175.

(66) انظر الابشيهي، نفس المصدر والصفحة، وتاج المفرق، 2 : 51، وحياة الحيوان الكبرى، 2 : 282، ومحاضرات اليوسي، 257.

(67) البيتان لا يوجدان في **ديوان صفي الدين الحلي** ولكنهما يوجدان بنفس النسبة عند الحسن اليوسي في **المحاضرات**، ص 218، ويوجدان غير منسوبين لأحد عند الابشيهي، 2 : 6.

ولبعضهم :

خليلي من كعب أعينا أخاكما — على دهره إن الكريم معين
ولا تبخلا بخل ابن قزعة إنه — مخافة أن يُرجى نداه حزين
إذا جئته في حاجة سد بابه — فلم تلقه إلا وأنت كمين (68)

ولابن أبي حازم (69)

وقالوا قد مدحت فتى كريما — فقلت وكيف لي بفتى كريم
بلوت ومر لي خمسون حولا — وحسبك بالمجرب من عليهم
فلا أحد يعد ليوم خير — ولا أحد يعود على عديم (70)

ولأبي زيد العبدي :

ولقد قتلتك بالهجاء فلم تمت — إن الكلاب طويلة الأعمار (71)

والتعريض بالبخل من أذم الهجو.

حكي أنه وقف أحمد بن عبد ربه تحت مطل (كذا) بعض الرؤساء وقد سمع غناء حسنا من جارية، فرش صاحب الجارية من العلية بماء ليطرده عن المحل، فمال إلى مكتب وكتب في لوح وبعث به إلى صاحب الجارية :

يا من يضن بصوت الطائر الغرد — ما كنت أحسب هذا البخل في أحد
لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة — أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تضن على سمع تقلده — صوتا يجول مجال الروح في الجسد
أما النبيذ فإني لست أشربها — ولست آتيك إلا كسرتي في يدي (72)

---

(68) الأبيات لبشار.
انظر أحمد الشريشي، **شرح مقامات الحريري**، 2 : 236، والابشيهي، 1 : 174 — 175.
(69) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 4 : 141، والمصادر بالهامش 2.
(70) انظر الأبيات عند الابشيهي، 1 : 175.
(71) انظر الابشيهي، 2 : 7.
(72) انظر أ. المقري، **نفح**، 7 : 50.

ولصالح اللخمي :

لئن جمع الآفات فالبخل شرها ... وشر من البخل المواعيد والمطل
ولا خير في وعد إذا كان كاذبا ... ولا خير في قول إذا لم يكن فعل [73]

وللحمدوني في شاة سعيد بن أحمد عدة مقاطع، فمنها :

أيا سعيد لنا في شاتك العبر ... جاءت وما ان لها بول ولا بعر
وكيف تبعر شاة عندكم مكثت ... طعامها الأبيضان : الشمس والقمر
لو أنها أبصرت في قوتها علفا ... عنت إليه ودمع العين ينحدر
يا مانعي لذة الدنيا بما رحبت ... إني ليعجبني في وجهك النظر [74]

وله أيضا :

لسعيد شويهة ... سلها الضر والعجف
قد تغنت وأبصرت ... رجلا حاملا علف
بأبي من بكفه ... برء دائي من الدنف
فأتاها مطمعا ... فأتته لتعتلف
فتولى وأقبلت ... تتغنى من الأسف [75]

اعلم أن الهجاء لا يقصد منه إلا الوقوف على ملحه وما فيه من ألفاظ فصيحة ومعان بديعة لا التشفي للأعراض والوقوع فيها، وليس هو دليلا على إساءة المهجو ولا صدق الشاعر فيما رماه به، فما كل مذموم بذميم، وقد يهجي الانسان بهتانا وظلما، أو عبثا، أو إرهابا [76].

قال المتوكل لأبي العيناء [77] : كم تمدح الناس وتذمهم ؟ قال : ما أحسنوا وأساءوا،

(73) انظر الأبشيهي، 1 : 198، المسند لابن مرزوق، 207.
(74) انظر الأبيات عند الحصري، جمع الجواهر، ص 295.
(75) انظر الأبيات عند الحصري، زهر الآداب، 1 : 559، جمع الجواهر، ص 295، وصالح بن شريف الرندي، الوافي في نظم القوافي، ص 176 — 177.
(76) انظر الابشيهي، 2 : 2.
(77) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، وفيات الأعيان، 4 : 343 — 348، والمصادر بالهامش 643 من الصفحة 343 من نفس المصدر.

وقد رضي الله على عبد فمدحه وقال : نعم العبد، إنه أواب، وغضب على آخر، فقال ، مناع للخير، معتد أثيم [78].

ومن العبث بالهجو ما روي أن الحطيئة هَمَّ بهجاء فلم يجد من يستحقه فقال :

أبت شفتاي اليوم الا تكلما بسوء فما أدري لمن أنا قائلُهْ
أرى ليَ وجها قبح الله خلقه فقبح من وجه وقبح حاملُهْ [79]

وعبث بأمه فقال :

تنحي فاجلسي عنا بعيدا أراح الله منك العالمينا
أغربالا إذا استُودِعْتِ سرا وكانونا على المتحدثينا
حياتك ما علمت حياة سوء وموتك قد يسر الصالحينا [80]

وقال رجل : ما أبالي أهجيت أم مدحت ؟ فقال له الأحنف : أرحت نفسك من حيث تعب الكرام، وإنما يخشى الهجو من له عرض يخشى عليه، وأما من لا يخشى عليه فيستوي عنده المدح والذم، ولكن بئس الرجل هو [81]. وقال رجل لأخيه لأبويه : لأهجونك هجاء يدخل معك قبرك، فقال : كيف تهجوني وأبوك أبي وأمك أمي، فقال : أقول :

غلام أتاه اللوم من شطر نفسه ولم يأته من شطر أم ولا أب [82]

ودخل أبو دُلامة [83] على المهدي وعنده إسماعيل بن علي، وعيسى بن موسى [84]، والعباس

---

(78) انظر الابشيهي، 2 : 2.
(79) انظر البيتين عند الكامل في المبرد، 2 : 143 ــ 144، وم. بن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، 1 : 276، **والديوان**، 257، والابشيهي، 2 : 2.
(80) انظر الأبيات عند الراغب الاصبهاني، **محاضرات الأدباء**، 1 : 127، وم. بن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، 1 : 276، **والديوان** 123، والابشيهي، 212.
(81) انظر الابشيهي، 2 : 2.
(82) المصدر السابق، 1 : 32.
(83) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 2 : 320 ــ 327 والمصادر بالهامش 244 من الصفحة 320 من نفس المصدر.
(84) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 5 : 296، والمصادر بالهامش.

ابن محمد [85] وجماعة من بني هاشم، فقال له المهدي : والله لئن لم تهج واحدا ممن هو في هذا البيت لأقطعن لسانك، فنظر إلى القوم وتحير في أمره وجعل ينظر إلى كل واحد فيغمزه بأن عليه رضاه، قال أبو دلامة : فازددت حيرة فما رأيت أسلم من أن أهجو نفسي، فقلت :

ألا أبلـــغ لديك أبـــا دلامـــه فلست من الكـــرام ولا كرامَـــهْ
جمـعت دَمامَـــةً وجمـــعت لؤمـــا كذاك اللـــؤم تتبعـــه الدَّمامَـــهْ
إذا لبس العمامـــة وجـــه قرد وخنزيـــر إذا نزع العمامـــه

فضحك القوم، ولم يبق منهم إلا من أجازه [86].
وهجا بعضهم القمر فقال : يهدم العمر، ويوجب أجرة المنزل، ويشحب الألوان، ويقرض الكتان، ويضل الساري، ويعين السارق، ويفضح العاشق [87].
[ولأبي الجهم أحمد بن يوسف الأنباري ـــ وفاته سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ـــ :

أعاذل ليس البخـــل منـــي سجيـــة ولكـــن رأيت الفقـــر شر سبيـــل
لموت الفتى خير من البخل للفتى وللبخـــل خيـــر من سؤال بخيـــل
لعمـــرك إن كانت لوجـــهك قيمـــة فلا تلق إنسانـــا بوجـــه ذليـــل ][88]

ووضع سهل بن هارون [89] كتابا في مدح البخل وأهداه إلى الحسن بن سهل فوقع على ظهره وقال : قد جعلنا ثوابك عليه ما أمرت به فيه [90].
وكان عمر بن يزيد الأسدي [91] بخيلا جدا، أصابه القولنج في بطنه، فحقنه الطبيب بدهن

---

(85) انظر ترجمته في المصدر السابق، 4 : 38.
(86) وردت الأبيات عند أ. بن خلكان في **وفيات الأعيان**، 2 : 326، هكذا :

ألا أبلـــغ هديت أبـــا دلامـــه فلـــيس من الكـــرام ولا كرامـــه
إذا لبس العمامـــة كان قردا وخنزيـــرا إذا وضع العمامـــه

وانظر أيضا ابن حجة الحموي، **ثمرات الأوراق**، 2 : 103 ـــ 105، والابشيهي، 2 : 4.
(87) انظر الابشيهي، 2 : 4.
(88) ما بين المعقوفين سقط من « م ».
(89) انظر ترجمته عند م. بن شاكر، **فوات الوفيات**، 2 : 84 ـــ 85 والمصادر بالهامش 185 من الصفحة 84.
(90) انظر الابشيهي، 1 : 171.
(91) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 5 : 231، والمصادر بالهامش 2، والابشيهي، 1 : 172.

كثير، فانحل ما في بطنه في الطست، فقال لغلامه : اجمع الدهن الذي نزل في الجفنة وأسرج به.

وأهل مروة موصوفون بالبخل، قيل : كان من عادتهم إذا ترافقوا في سفر، يشتري كل واحد منهم قطعة لحم ويشكها في خيط، ويجمعون اللحم كله في قدر، ويمسك كل منهم طرف خيطه، فإذا انشوى جر كل واحد خيطه وأكل لحمه ويقسمون المرق [92].

وقيل لبخيل : من أشجع الناس ؟ قال : من سمع وقع أضراس الناس على طعامه ولا تنشق مرارته [93].

ولبعضهـــــم :

لو أن دارك أنبـــتت لك واحـــتشت ابـــرا يضيـــق بهـــا فنـــاء المّنــــزل
وأتـــاك يوسف يستعيـــــرك إبـــــرة ليخيـــط قد قمـــيصه لم تفعـــل [94]

وقال دعبل [95] : كنا عند سهل بن هارون فلم نبرح [96] حتى كاد يموت من الجوع، فقال : ويحك يا غلام !

آتنا غَدَاءنا، فأتى بقصعة فيها ديك مطبوخ، فتأمله ثم قال : وأين الرأس ؟ فقال : رميته، فقال : والله إني لأكره من يرمي برجله فكيف برأسه، ويحك ! أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء، ومنه يصدح الديك ولولا صوته ما أريد، وفيه فرقه الذي يتبرك به، وعينه التي يضرب بها المثل، فيقال : شراب كعين الديك، ودماغه عجب لوجع الكلية، ولم ير أهش من عظم رأسه، وهبك ظننت أني لا آكله أما قلت : عنده من يأكله ؟ انظر في أي مكان رميته فائتني به. قال : والله لا أدري أين هو ؟ قال : أنا أعرف أين هو، رميته في بطنك الله حسيبك ! [97].

قيل : من الناس من يبخل بالطعام ويجود بالمال، وبالعكس [98].

---

(92) عند الأبشيهي، 1 : 172.

(93) نفس المصدر والصفحة.

(94) نفس المصدر والصفحة.

(95) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان،** 2 : 266 ــ 270 والمصادر بالهامش 227 من الصفحة 266 من نفس المصدر.

(96) في « ز » : فلن تبرح.

(97) انظر الابشيهي، 1 : 172.

(98) نفس المصدر والصفحة.

وقال بعضهم :

أبو دُلَفٍ (99) يضيع ألف ألف ويضرب بالحسام على الرغيف
أبو دلف لمطبخه قُتار ولكن دونه سل السيوف (100)

نزل على [ابن] أبي حفصة الشاعر رجل فأخلى (كذا) له وكتب إليه :

يا أيها الخارج من بيته وهاربا من شدة الخوف
ضيفك قد جاء بزاد له فارجع وكن ضيفا على الضيف (101)

ومن أهجى ما قيل في البخل بيت جرير في بني تغلب :

والتغلبيُّ إذا تنحنح لِلْقِرَى حك آسْتَهُ وتمثل الأمثالا (102)

[وقول الأخطل في بني كليب] (103) :

---

(99) أبو دلف : هو القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل « ت 226 هـ / 840 م »، من بني عجل بن لجيم، أمير الكرخ وسيد قومه، وأحد الأمراء الأجواد الشجعان الشعراء. قلده الرشيد العباسي أعمال « الجبل » ثم كان من قادة جيش المامون. وأخبار أدبه وشجاعته كثيرة. وللشعراء فيه أماديح وله مؤلفات منها سياسة الملوك، والبزاة والصيد. وهو من العلماء بصناعة الغناء.
وقد مدحه الشاعر العكوك على بن جبلة قائلا :

إنما الدنيا أبو دلف بين مبداه ومختضره
فإذا ولى أبو دلف ولت الدنيا على اثره

انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 4 : 73 — 79، والمصادر بالهامش 538 من الصفحة 73 من نفس المصدر.

(100) انظر البيتين عند الابشيهي، 1 : 172 — 173.

(101) نفس المصدر والصفحة.

(102) البيت من قصيدة مطلعها :

حي الغداة برامة الأطلال رسما تحمل اهله فأحالا

انظر **ديوان جرير**، ص 451.

(103) بالأصل : (وقوله فيهم)، أي أنه كان يقصد هجاء جزير لبني تغلب، وهو خطأ، إذ ان الأمر يتعلق بهجاء الأخطل التغلبي لجرير ولقبيلته بني كليب. =

قوم إذا أكلوا أخفوا كلامهم ... واستوثقوا من رتاج الباب والدار
قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم ... قالوا لأمهم : بولي على النار
فتمسك البول خوفا أن تجود به ... وما تبول لهم إلا بمقدار
والخبز كالعنبر الوردي عندهم ... والقمح سبعون إِرْدَبّاً (104) بدينار

ولبعضهم :

أتانا بخبز له حامض ... كمثل الدراهم في رقته
إذا ما تنفس حول الخِوان ... تطاير في البيت من خفته (105)

وقال الآخر :

تراهم خشية الأضياف خرسا ... يقيمون الصلاة بلا أذانِ (106)

وقال آخر لما بات عند بخيل :

فبتنا كأنا بينهم أهل مَأتم ... على ميت مستودع بطن ملحد
يحدث بعضاً بعضنا بمصابه ... ويأمر بعضا بعضنا بالتجلد (107)

---

= وتجدر الاشارة هنا إلى أن كلا من البيت الأول والرابع لا يوجدان في **ديوان الأخطل التغلبي**، غير أن البيت الأول يوجد منفردا وبدون نسبة عند الراغب الاصبهاني في **محاضرات الأدباء**، 2 : 665.
والقصيدة التي أخذ منها البيتان هي إحدى الأهاجي الشهيرة التي وصم بها الأخطل جريرا، استهلها بالفخر بالخيل التغلبية وهجاء بني كليب، وينهي القصيدة مزريا أشد الازراء بخصمه، مقذعا في هجاء والدته، ناميا إليه الهزال وإليها الفحش والفجور، وعلى العموم فالقصيدة تتكون من 22 بيتا، مطلعها :

**ما زال فينا رباط الخيل معلمة ... وفي كليب رباط الذل والعار**
**النازلين بدار الذل ان نزلوا ... وتستبيح كليب محرم الجار**

أما البيتان الواردان في **المنتقى**، فهما البيتان الخامس والسادس من القصيدة.
انظر **ديوان الأخطل التغلبي**، ص 370.

(104) في « م » : حبة.
(105) نسبهما الراغب الاصبهاني في **محاضرات الأدباء**، 2 : 663، للبسامي، والابشيهي، 1 : 174.
(106) نسبه الراغب الاصبهاني في **محاضرات الأدباء**، 2 : 665، للرقاشي، وانظر الابشيهي، 1 : 174.
(107) انظر الابشيهي، 1 : 174.

ولآخـــر :

وجيـــرة لا ترى في النـــاس مثلهـــمُ إذا يكـــون لهـــم عيـــد وإفطــــار
إن يوقـــدوا يوسعونـــا من دخانهـــم وليس يبلغنا ما تطبـــخ النـــار (108)

ولآخـــر :

لا تعجبـــن لخبــــز زل من يده فالكوكب النحس يسقي الأرض أحيانا (109)

ولبعضهم ينهى عن البذل، وإعجابا لمن يحرض الناس على البخل :

احفــــظ غُرى مالك تحظــــى به ولا تفــرط فيـــه تبقـــى ذليـــل
يا منفـــق المـــال ترفــــق به المــوت أهــون من سؤال البخيــل
واحـــذر علـــى نفسك من زلـــة يرى عزيــز القـــوم فيهـــا ذليـــل

حكي عن أبي محمد المُهَلّبي (110) أنه كان قبل اتصاله بالسلطان في ضنك عيش، فبينما هو في بعض أسفاره مع رفيق له من أهل الحرث إلا أنه من أهل الأدب، إذ أنشده المهلبي :

ألا موت يبـــــاع فأشتريـــــــه فهـــذا العـــيش مالا خيـــر فيـــه
ألا رحـــم المهيمـــن روح عبـــد تصدق بالوفـــاة علـــى أخيـــه

فرثى له رفيقه وأحضر له درهما سد به رمقه، وحفظ البيتين وتفارقا، ثم ترقى المهلبي إلى الوزارة، وأختى الدهر على ذلك الرجل، فبعث برقعة إلى حضرته فيها بيتين :

---

(108) انظر البيتين عند الراغب الاصبهاني، **محاضرات الأدباء**، 2 : 661، والابشيهي، 1 : 174.
(109) انظر المصدر السابق، 1 : 175.
والرواية المشهورة (لخير) عوض (لخبز).
(110) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 2 : 124 ــ 127 والمصادر بالهامس 178 من الصفحة 124 من نفس المصدر.

**ألا قل للوزيــــر فدتـــــه نفسي مقالـــة مُذكِـــرٍ ما قد نسِيــــهِ**
**أتذكــــر إذ تقــــول لضنك عيش « ألا موت يـــاع فأشتريــه » [111]**

فلما قرأها أمر له بسبعمائة درهم، ووقع تحت رقعته : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ــ الآية » [112]. ثم قلده عملا يرتزق منه.

ولعتبة بن كثير :

**النــاس أتبـــاع من دامت له نعـــم والويــل للمــرء إن زلت له القـــدم**
**المـــال زيـــن ومـــن قلت دراهمــــه حي كمـــن مات إلا أنـــه صنـــم**
**لمـــا رأيت أخلائـــي وخالصتـــي الكـل مستتر عني ومحـــتشم [113]**
**أبـدوا جفـاء واعـراضا فقـلت لهـم : أذنـبت ذنبـا ؟ فقالـوا : ذنبك العـدم**

قيل ماتت للهذلي أم ولد فأمر المنصور الربيع [114] أن يعزيه ويقول له : إن أمير المؤمنين موجه إليك جارية نفيسة لها أدب وظرف يسليك بها، وأمر لك معها بفرس وكسوة وصلة، فلم يزل الهذلي يتوقع وعد أمير المؤمنين، فطاف به حتى وصل بيت عاتكة [115]، فقال : أمير المؤمنين، هذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص [116] :

**يا بيت عاتكـــة الـــذي أتعـــزل حذر العـــدا وبــه الفـــؤاد موكـــل**
**إنـــي لأمنـــحك الصدود وإننـــي قسمـــا إلـــيك مع العـــدود لأميـــل**

فكره المنصور [ذكر] بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص : يا بيت إلى آخره.... من غير أن يسأله عنه، فلما رجع المنصور أمر القصيدة على قلبه فإذا فيها :

**وأراك تفعـــل ما تقـــول وبعضهـــــم مذقُ الـلسان يقـول ما لا يفعـل [117]**

---

(111) انظر القصة عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 2 : 124 ــ 125، وم. بن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، 1 : 353. 537، وابن حجة الحموي **ثمرات الأوراق** 2 : 52 ــ 53،والأبشيهي، 2 : 67.

(112) الآية 261 من سورة البقرة.

(113) انظر البشيهي، 2 : 50 ــ 51.

(114) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 2 : 294 ــ 299 والمصادر بالهامش 235 من الصفحة 294.

(115) انظر ترجمتها عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 2 : 297.

(116) انظر ترجمته عند. خ الذين الزركلي، **الأعلام**، 4 : 257، والمصادر بالهامش 1.

فذكر المنصور الوعد الذي كان وعد به الهذلي، فأنجزه له، واعتذر إليه.

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من ذكر حيائه ــ أيده الله تعالى بمنه ــ فهو أشد الناس حياء، يمنعه الحياء من أن يمنع أحدا شيئا إذا سأله إياه، أو عرضت له حاجة، فمن شدة حيائه اتخاذه الوسائط في حوائج الناس حتى إن الواحد من الناس لا يسأله حاجة نفسه بنفسه وإنما يوسط له فيها غيره، ويقول المرة بعد المرة : لا أريد في سؤال الحوائج مني إلا الوسائط، لأن الانسان إذا سألني حاجته فتارة لا يصلح قضاؤها بي ويمنعني الحياء من عدم قضائها فأقضيها وفي قلبي شيء حياء أن نرد صاحبها بدونها، ولكن إذا سألتموني شيئا فليكن بواسطة، لأن الواسطة إن قضيت له ينقلب مسرورا وإلا لم ينقلب خائبا منكسر الخاطر، ويتوقع صاحبها قضاءها على يد غير واسطته الأولى، أو كلاما يقرب من هذا.

وما أولاه بقول أبي السمط (118) :

**له حاجب في كل أمــــر يشينــــــه وليس له عن طالب العــرف حاجب**

كذا حدثني بعض من أثق به من خدمته ــ أيده الله تعالى ــ ولو تتبعت ما له في ذلك من المآثر لطال الكتاب جدا، وذكر هذه المسألة بالخصوص ينبيك عن شيمه العلية، ومآثره المرضية، من غير مزيد تفصيل.

وفي هذا كفاية لمن تأمله وتدبره، وتفهمه وتفكره، والله الموفق للصواب، والفاتح لمنغلق الأبواب، وهو حسبي ونعم الوكيل.

---

(117) انظر القصة عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 2 : 297، وابن حجة الحموي، **خزانة الأدب**، ص 175 ــ 176، والحصري، **زهر الأدب**، 1 : 200 ــ 201، والابشيهي، 1 : 198.

(118) يقصد مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة يزيد « 105 هـ ــ 182 هـ / 723 م ــ 798 م »، شاعر، عالي الطبقة. كان جده أبو حفصة مولى لمروان بن الحكم، أعتقه يوم الدار، ونشأ مروان في العصر الأموي باليمامة حيث منازل أهله وأدرك زمنا من العهد العباسي، فقدم بغداد ومدح المهدي والرشيد ومعن بن زائدة، وجمع من الجوائز والهبات ثروة واسعة، وكان رسم بني العباس أن يعطوه بكل بيت يمدحهم به ألف درهم، وكان يتقرب إلى الرشيد بهجاء العلوية، توفي ببغداد.

ويوجد قبل البيت المذكور في **المنتقى** البيت الآتي :

**فتــى لا يــالي المدلجون بنــوره إلى بابــه ألا أتضيء الكــواكب**

انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 5 : 189 ــ 193، والمصادر بالهامش 716 من الصفحة 189 من نفس المصدر.

**ملاحظـــة :**

لا يوجد البيت المذكور في **المنتقى** ضمن شعره الذي جمعه قحطان التميمي.

# الباب الحادي عشر

## * في بره بوالدته
## واقتداؤه فيه بمآثر جده وسنته

أما البر، فالكلام فيه من وجوه في فضله وحكمه وما ورد فيه كتابا وسنة. أما فضله، فقد ورد أن بر الوالدين يزيد في العمر، وورد أيضا أن النظر إلى الوالدين عبادة، وعن ابن عباس — رضي الله عنهما — أن رسول ﷺ — قال : « ما من ولد بار ينظر إلى والديه نظر رحمة إلا كتب الله له بكل نظرة حجة مبرورة، قالوا : وأن نظر كل يوم مائة نظرة، قال : نعم الله أكبر وأطيب [1] »، وقال : « من قبل بين عيني أمه كان له سترا من النار [2] ».

وأما حكمه، فالوجوب على الأعيان لقوله تعالى : ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا اياه وبالوالدين إحسانا﴾ الآية [3]، ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وبالوالدين إحسانا [4]﴾، والآي في الباب كثيرة من هذا المعنى. وأما السنة فأحاديث كثيرة في الباب أيضا، فمنها ما روي عن عبد الله بن مسعود — رضي الله عنه — قال : سألت النبي — ﷺ — : أي العمل أحب إلى الله عز وجل ؟ قال : الصلاة على وقتها، قال : قلت، ثم أي ؟ قال : بر الوالدين، قلت : ثم أي ؟

---

° ورد في « ج » العنوان هكذا :
الباب الحادي عشر في بره بوالدته.

(1) أخرجه الحاكم في **المستدرك**، وابن النجار في **تاريخ بغداد**، وكلاهما عن ابن عباس.
انظر ج. السيوطي، **الجامع الكبير** 3 : 546.

(2) أخرجه أبو عدي في **الكامل**، والبيهقي في **شعب الايمان**، وابن عساكر في **تاريخ دمشق**، وكلهم عن ابن عباس.
وقال عنه السيوطي : قال أبو عدي : هذا منكر اسنادا ومتنا.
أنظر ج. السيوطي، **الجامع الكبير**، 3 : 165.

(3) الآية 23 من سورة الاسراء.

(4) الآية 36 من سورة النساء.

قال : الجهاد في سبيل الله [5] ، متفق عليه. عن أبي هريرة — رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ — جاءه رجل فقال : يا رسول الله، من أخص الناس بحسن صحابتي ؟ فقال : أمك، قال : ثم من، قال : أمك، قال : ثم من ؟ قال : أبوك [6] » ؛ متفق عليه، وورد من طرق متعددة بألفاظ كذلك.

قال العلماء : فإن لم تكن الأم فالخالة تتنزل منزلتها في البرور لأن لها من البرور ما للأم، وبرور الأم مقدم على برور الأب، ثم الخالة، ثم من البرور : برور الانسان بأصدقاء الوالدين، وقد أجمع العلماء على أن بر الوالدين واجب ولو كانا كافرين، عن ابن المُنْكَدر [7]، عن أبيه، قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله، إن أبي أخذ مالي، فقال له النبي ﷺ فائتني بأبيك، فنزل جبريل — عليه السلام — على النبي — ﷺ —، فقال له : إن الله — عز وجل — يقرئك السلام ويقول لك : إذا جاء الشيخ فسله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه، فلما جاء الشيخ، قال له النبي — ﷺ — : ما بال ابنك يشكوك ؟ أتريد أن تأخذ ماله ؟ فقال له : سله يا رسول الله، هل أنفقه إلا على احدى عماته أو خالاته أو على نفسي، فقال له النبي — ﷺ إيه دعنا من هذا، أخبرني عن شيء قلته في نفسك ما سمعتك أذناك، فقال الشيخ : والله يا رسول الله ما يزال الله يزيد فيك يقينا، لقد قلت في نفسي شيئا ما سمعته أذناي، فقال : قل وأنا أسمع، فقال :

غَذَوْتُك مولودا وصنتك يافعا ... تُعَلُّ بما أجني عليك وتُنْهَلُ
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت ... لسقمك إلا ساهرا أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طُرِقْتَ به دوني فعيني تهمل
تخاف الردى نفسي عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقت مُؤَجَّل
فلما بلغت السن والغاية التي ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذا لم ترع حق مودتي ... فعلت كما الجار المجاور يفعل [8]

قال : فحينئذ أخذ النبي — ﷺ — بتلابيب ابنه وقال له : أنت ومالك لأبيك ! وفي

(5) أخرجه البخاري في **الصحيح**، 1 : 134، ومسلم في **الصحيح**، 1 : 63، وكلاهما عن عبد الله بن مسعود.
(6) أخرجه البخاري في **الصحيح**، 7 : 69، ومسلم في **الصحيح**، 8 : 2، وكلاهما عن أبي هريرة.
(7) انظر ترجمته عند خ الدين الزركلي، **الاعلام**، 7 : 333 والمصادر بالهامش 2.
(8) الأبيات لامية بن أبي الصلت، انظر **ديوانه**، ص. 431.

بعضها : اذهب ! أنت ومالك لأبيك [9].

[ ولبعضهم في سيد المرسلين — ﷺ — :

عندى وفي مذهبي يا جيرة العَلَـمِ ... بأن حبكـمُ عمـدا أبـاح دمـي
وما أتيت إلـى الـوادي لأنظركـم ... وإنما القصد منكم ساكن الخيـم
هل عندكم مثله في الحي يشبهـه ... هل عندكم مثلـه أيضا بذى سلـم
قالـوا : صدقت، سليم الحي شرفنا ... هذا الذي قد سما في حسن وسم (كذا)
ناديت من فرحـي عنـد اللقاطربـا ... قد زال عني الشقا يا سيد الأمـم
روحي ومالي وجسمي كلهم هبـة ... خذهم إليك وفرقهم على الخـدم
يا سعد صف حسن من لا شيء بشبهه ... الشمس أضحت له من جملة الخدم
إنـي إذا ذكـرت أنـوار طلعتـه ... يهزني الشوق من قرني [10] إلى قدمي
صلى عليه الـه العـرش ما طلـعت ... شمس وما سرت الركبان بالعَلَم [11]

ولبعضهم :

هب النسيم على أحبابه تاهـوا [12] ... لما تجلـى وقـد أبـدى محيـاه
ناداهم قد رفعت الحجب دونكـم ... لرؤيتـي فتملـوا عنـد رؤيـاه
والقوم قد طربوا من طيب ما سمعوا ... في سر أسرارهـم نادى أنـا الله
خروا له سجـدا من عُظْـم هيتـه ... فقد صفا عيشهـم ما كان أهنـاه
فيالهـا ساعـة في حضرة حضروا ... والحق يسقيهـمُ من خمـر لقيـاه
كيـف الـوصال وزادي لا يبلغنـي ... ولنحو من شاهـد المحبـوب مولاه
أنا المحب الـذي أهـوى محبتـه ... ولـيس يعجبنـي في الكـون إلّاه
فلا تلمنـي إذا ناديت من طرب ... يا ليلة الوصل عودي عنـد مغنـاه
لقد فنـى جسدي والشوق يقلقنـي ... وطـيب عيش مضى ما كان أهنـاه

(9) رواه الطبراني. وقد قال عنه : لا يروى هذا الحديث بهذا الأسناد والشعر إلا عن محمد بن المنكدر، تفرد به عنه محمد بن خلصة.
وذكر ابن مرزوق في المسند، ص 127، أن القاضي أبا بكر بن العربي ذكره بسنده في الأحكام والقانون وشرح الترمذي.
(10) في « ج » : رأسي.
(11) في « ج » : في الظلم.
(12) في « ز » : تاه.

لما بدا سحرا أنوار حجرته ... على البقيع الذي قد فاح رياه

من لي بذاك الحمى النجدي ألثمه ... وينطفي ما بقلبي عند مثواه

تالله لا أبتغي مولى أشاهده ... سوى الحبيب الذي عاينت معناه

هو النبي الذي كل الورى عشقت ... جماله جل من بالحسن جلّاه

في ليلة جاء جبريل الأمين له ... أسرى به لمقام قد تمناه

موسى الكليم فلم يحظ برؤيته ... والمصطفى قد رآه منه أدناه

ناداه يا سيد الرسل الكرام لقد ... قال الأمين له والنور يغشاه

هذا مقامي فلم أقدر لهيبته ... من هاهنا اعتدى يا من له الجاه

سار الرسول لنحو العرش يقصده ... ناداه ادن حبيبي ثم أدناه

منه إليه وقد طاب المقام له ... ثم انثنى راجعا والحق يرعاه

لقد عجزت وكل الخلق قد عجزت ... عن مدح مولى من الأنوار سوَّاه

صلى عليه إلهي دائما أبدا ... هو النبي ما زلت أهواه

ولبعضهم :

يا غاديا نحو الحبيب عساكا ... تقرا السلام إذا وصلت هناكا

وعساك تجري ذكر مثلي عنده ... فهو الشفاء لدائنا ولداكا

وقل : السلام عليك يا خير الورى ... من شيق طول المدى يهواكا

أنت الذي لولاك ما سرت الصبا ... كلا ولا عرف الهوى لولاكا

لولاك ما غفرت لآدم زلة ... لما التجأ في وقته لحماكا

لولاك ما رفعت ليونس رتبة ... لما نجا من حوته بهداكا

لولاك ما كان ابن عمران ارتقى ... طور الخطاب ونال من نجواكا

ولقد سريت إلى المهيمن ليلة ... والله ما أخذ السرى مسراكا

بالجسم كان سراك لا عن رؤية ... وتحكمت في ملكه عيناكا

وطلبت تخلع نعل رجليك هيبة ... فأتى الندا لا تخلعن نعلاكا

ورقيت تخترق السموات العلى ... متواصلا حتى بلغت مناكا

ناداك جبريل الأمين مخاطبا ... لك بالكرامة عن رضى مولاكا

إن كان آدم صفوة من خلقه ... فقد اصطفاك بحبه وهداكا

أو كان نوح قد نجا بسفينة ... فمن العدا في الغار قد نجاكا

أو كان ابراهيم أعطي خلة ... فقد اجتباك الله اذ ناداكا

أو كان اسماعيل جاء له الفدا ... من ربه، فكما فداه فداكا

| | |
|---|---|
| أو كان موسى للالـــه مناجيـــا | فبليلـــة المعـــراج قد ناجاكـــا |
| أو كان عيسى نال قبـــلك رتبـــة | فمـــراتب المجمـــوع قد أعطاكـــا |
| قد نلت بالمعـــراج كل فضيلـــة | ورأيت جبـــار السمـــا ورآكـــا |
| فعلـيك يا خيـــر الانـــام تحيـــة | تأتـيك بالاقبـــال من مولاكـــا [13] |

ولابن سودون :

| | |
|---|---|
| تطلـــعت البـــدور من الـــغصون | فأسفـر ذاك عن وجـدي الـــمصون |
| ومـــن سود اللواحـــظ خلت بيضا | تصول علـــى الفـــؤاد من الجفـــون |
| ورمت تستـــرا في جنـــح ليـــل | فعاجلنـــي الصبـــاح من الجبيـــن |
| عيونـــي قد رمت بالنـــار قلبـــي | وقلبـــي قد رمـــى بالماعيونـــي |
| فذا من تلك جن وتـــلك من ذا | وقـــد دار الـــتسلسل في جفونـــي |
| ولمـــا أن وشي خدان دمعـــي | كتـــمت الوجـــد في قلبـــي الأميـــن |
| فوجـــدي في فؤادي في السويـــدا | كميـــن في كميـــن في كميـــن |
| أيـــا من أطلقونـــي في هواهـــم | وتيهـــا عن سواهـــم قيدونـــي |
| ويـــا من أوجدونـــي بعض وجـــد | به كل التصبـــر أعـــد مونـــي |
| ويـــا من حللـــوا تحريـــم هجـــرى | ومـــن حل التـــواصل أحرمونـــي |
| عدونـــي أن نأيتـــم بالتدانـــي | وفـــي تسويـــف وعدكـــم دعونـــي |
| فكـــم قد جد وجـــدي يا كرامـــا | بنجـــد هل لكـــم أن تنجدونـــي |
| جزمته برفـــــع كسر حال نصب | يري فقـــري لكـــم كي تسعدونـــي |
| بكـــم قمـــــر له قد حن جذع | فكيـــف إليـــه لا يقـــوى حنينـــي |
| كريـــــم لا يضام له نزيـــــل | شديـــد البـــاس ذو عطـــف وليـــن |
| به عللـــقت أوصالـــي وأرجـــو | يقينـــي في مآلـــي أن يقينـــي |
| يحركنـــي إليـــه سكـــون قلبـــي | فلا تعـــجب لتحـــريك السكـــون |
| فكم أبدى الهوى لذوى التصابـــي | إذا هم ما رسوه من فنـــــون |
| فلـم يبـق التداني لي رسمـا (كـــذا) | سوى رمـــق بتخيـــل الظنـــون |
| لقـد أفنى الهـوى جلـدي وأبقـى | جوى كبـدي وأصدقنـي شجونـي |
| ومالـــــي مخـــلص إلا ملاذي | بجـاه المصطفـى الجـاه المتيـن |
| رسول الله خيـــر الخلـــق من قد | حبـــاه الله بالفتـــح المبيـــن |

(13) انظر القصيدة عند ابن مليح السراج، أنس الساري، 24 — 25.

صلاة الله ما لمعت بروق ... عليه مع الصحابة كل حين
لكم وهب الهوى رقي وأنتم ... به أولى البرايا فاقبلوني
وقد أصبحت من بعض الرعايا ... لديكم يا موالي فارحموني (14)

ولبعضهم :

يا مليح الأجرعين ... فمتى تبدو لعين
لاح في شهر ربيع ... نور خير الثقلين
رأت الام حقيقا ... حملها رؤية عين
قائلا قال : حملت ... خير هذا الثقلين
ورأت أعلام نور ... نشرت بالحرمين
بلغت طولا وعرضا ... شامها والمشرقين
وضعته مثل بدر ... ينجلي في حلتين
ضاحك السن مشيرا ... للسما بالناظرين
خير خلق الله جمعا ... غربها والمشرقين
فاز من صلى عليه ... بالرضى والجنتين
[ مدحه حق علينا ... واجب من دون مين
عليه فاد أب قدر وسع (كذا) ... بمرور الملوين
واذخره لمعاد ... تنج من هول وشين
وافتان عند موت ... وسؤال الملكين (15) ]

يروى أن آمنة أم النبي — ﷺ — رأت في منامه قائلا يقول لها : أنك حملت بخير البرية وسيد العالمين، فإذا ولد فسميه محمدا، فإن اسمه في التوراة حامد، وفي الانجيل أحمد، وعلقي عليه هذه التميمة. قالت : فانتبهت وعند رأسي صحيفة من ذهب مكتوب فيها :

أعيذه بالواحد ... من شر كل حاسد
وكل خلق زائد ... من قائم أو قاعد
على الفساد جاهد ... من نافث أو عاقد

(14) انظر الابيات عند علي بن سودون، **نزهة النفوس**، ورقة 5 — 6.
(15) ما بين المعقوفين سقط من « ز ».

وكـــــــــــــــل جن مارد يأخـــــــــذ بالمـــــــــراصد
فـــي طـــرق المـــوارد

انهاهم عنه بالله الاعلى، وأحوطه عنهم باليد العليا، والكف التي لا ترى، يد الله فوق أيديهم، وحجاب الله دون عاديهم، لا يطورونه ولا يضرونه في مقعد ولا قيام، طول الليالي والأيام.

وهذه الحفيظة قد ظهرت لها كرامات، ووجد الناس لها بركات.

ولبعضهم ــ وهو علي بن مخلوف ــ [16] :

يا كعبة الحسن لولا حسن معنـــاك ... لما سرى في الدجى ركب لمغنـــاك
نعم ولولا سواد الخيال منك لمـــا ... تسارع النوق في البيـــدا للقيـــاك
ترفقـــي بوفـــود قد أتـــوك وهـــم ... شعثا وغبرا يروموا يوم عباك (كـذا)
ارخي نقاب الحيا لا تستريه لقـــد ... هام البريـــة من تكحيـــل عينـــاك
يا ربة الستـــر ميسي في السواد فلا ... تخشي نفـــور البرايـــا من محيـــاك
تمايلي في الحلى، في الركب من طرب ... قد هام فيك ولـــيس الـــقصد إلاك
تيهي دلالا علـــى الـعشاق قاطبـــة ... وهتكـــي كل حجـــاج ونساك
إن كان يرضيك قتل الصب فيك جرى ... يا حبذا كل من في الكـــون يرضاك
يا جنـــة الخلـــد لا زلت مزخرفـــة ... وكـــل من في بقـــاع الأض يهـــواك
بحق حجـــرك والميـــزاب يا أملـــي ... وخـــالك الأسود الزنجـــي وركنـــاك
وبالمقام الـــذي صلـــى الخليـــل به ... وزمـــزم وحطيـــم بغيـــة الحـــاك
وطـــيب عيش قطعنـــا معك في حرم ... وسعينـــا في صفـــاك ثم مرواك
إني وان بعدت عنـــي الديـــار وإن ... شط المـــزار أمَنّـــي العيـــن رؤيـــاك
أواه لوسرت معهـــم لو علـــى بصرى ... فكيـــف لي والـــقضا جار بأمساك
متى على بصرى أسعى إلـــى بلـــد ... ثوى بهـــا خيـــر أبنـــاء وأمـــلاك
يا سيدا قد رقي السبع الطباق إلى ... أن ارتقـــي فوق أمـــلاك وأفـــلاك
وخـــاطب الله جهـــرا ثم عاد إلـــى ... فراشه والدياجـــي ذات أحـــلاك
يا سيـــدي يا رسول الله جئـــتك من ... أقصى البـــلاد بآلامـــي وأضنـــاك
اشفـــع لمـــن قد أتـــى والـذنب أثقلـــه ... عسى يقولـــوا غدا للنـــفس بشراك
يا نفس لا تقنطـــي فاللـــه ذو كرم ... ثقـــي به وارفعـــي في الليـــل يمنـــاك

(16) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، درة، 3 : 249 رقم 1281.

(واستشفعـــــــــي برسول الله ان له — جاها عظيمــا تقــر به عينــاك)[17]
على بن مخلوق لا تخشى الذنوب فقد — جانــبت كل أثيــم القــلب أفــاك
أنــزه الله عن أهــل وعــن ولـــد — وعــن شبيـــه وعـــن ند واشراك
واستجيــر بخيــر الــرسل كلهــم — فهو البشير النذير الشاهد الزاكي [18] ]

ولنرجع إلى ما كنا بصدده، فمما حدثت به عنه ـــ أيده الله تعالى ـــ أنه لم ير الراءون أبر منه بأمه، حتى إنه مع عظيم ملكه وضخامة قدره أطوع الناس إليها، ويأتيها إلى منزلها في كل يوم ويقبل يديها ويفاوضها في أموره ولا ينصرف عنها لموضع إلا برضاها تماما. واتفق على هذا كله من خدمها، ودخل منزلها من النساء، وما كلمته قط في مسألة الا قضاها، أو في مغضوب عليه الا عفا عنه ولو استحق من العقوبة ما لم يوجب العفو عنه إلا أن يكون في حق الله تعالى. وقد صح عندي في جماعة وجبت عليهم العقوبة فلاذوا بجنابها الأعظم. فاستعفته منهم، فعفا عنهم، عملا بقوله ـــ ﷺ ـــ :

« الجنة تحت أقدام الأمهات [19] ».

وبالجملة فبركة دعائها معه في حضره وخلواته وحركاته وسكناته، وبره إياها أعظم من أن أحصيه أو أدخله تحت حصر، ولو كانت الأشجار أقلامي ومدادي البحر، هذا شأنه مع والدته ـــ أيده الله تعالى ـــ.

أما شأنه مع والده ـــ رضي الله عنه ـــ فيفيدك شأنه مع والدته ، هذا وقد كان في حياة والده ـــ رضي الله عنه ـــ صغيرا، وبره بوالديه شهير، فلا نطيل بأكثر مما ذكرناه ـــ نفعه الله بذلك ـــ.

---

(17) ما بين القوسين سقط من « ج ».
وقد ورد عجز البيت في « ز » هكذا :
جاها عظيما تقر لي فيه عيناك
وهو مختل وزنا، والتصويب من « م ».
(18) ما بن المعقوفين ورد متقدما في « ج ».
(19) أخرجه الخطيب في **الجامع**، والقضاعي في **مسند الشهاب**، عن أنس، انظر ج. السيوطي، **الجامع الكبير**، 1 : 41.

# الباب الثاني عشر

## * في عظيم فوائده
## وهي مراعاته لاهل ود والده

* ورد العنوان في « ج » هكذا :
الباب الثاني عشر : في بره بوالده وأهل مودته، واقتداؤه في ذلك بسيرة جده وسنته.

أما فضيلة هذه الخصلة العظيمة، ففي **الصحيح** عن عبد الله بن عمر ــ رضي الله عنهما ــ أن النبي ــ ﷺ ــ قال : أبر البر أن يصل الرجل أهل ودأبيه [1] »، وعن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي [2] ــ رضي الله عنه ــ قال : بينا نحن جلوس عند رسول الله ﷺ اذ جاءه رجل من بني سلمة فقال : يا رسول الله، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم، الصلاة عليهما، الاستغفار لهما، وانفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما [3] ».

ولا شك أن مولانا ــ أيده الله ــ أبر الناس بأهل ودأبيه، فقد كان لوالده خدمة وحشم، فأولادهم الآن هم أهل دولته وساسته، وأهل خاصته في رئاسته، وما ذلك إلا رعاية منه لما ذكرت، بل وفي خدمه الآن كثير من خدمة والده ــ رضي الله عنه ــ أجرى كلا على عادته الأولى وزيادة طلبا لمبرته بذلك، ومن بره به تعاهده قبره في كل جمعة كما قدمنا ذلك قبل ولما روي عنه ــ ﷺ ــ : « أنه جاء إليه رجل فقال : يا رسول الله، هل بقي علي من بر والدي بعد موتهما شيء ؟ قال : نعم، الصلاة لهما، الاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقهما،

---

(1) أخرجه مسلم في **الصحيح**، 8 : 6، عن ابن عمر، والترميذي في **السنن**، 3 : 177.

(2) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 6 : 134، والمصادر بالهامش 2.

(3) أخرجه أبو داود في **السنن**، 4 : 336، وأحمد بن حنبل في **مسنده**، 1 : 498، عن أبي أسيد الساعدي.

وقد قال عنه الشيخ محمد ناصر الدين الالباني في كتابه **نقد نصوص حديثية**، ص 19، : « قلت : اسناده ضعيف، فيه علي بن عبيد الانصاري، قال الذهبي : لا يعرف ».

وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما، ومن حقهما أت تزور قبرهما [4] ». وقال ـ ﷺ ـ : من زار قبر أبويه كل جمعة غفر له وكتب له براءة [5] »، ومن حقهما قضاء دينهما إإذا كان عليهما دين.

ومن بره به قيامه بضريح المكرم واجراؤه عليه الصدقات والأموال الطائلة للقراء عليه ليلا ونهارا، لا يمسكون عن ذلك، ومن لجأ إليه من خائف أو غيره أمن من خوفه، ما لم يكن في حقه الله عز وجل، ومن قيامه بضريحه : اقتراحه على كاتبه الأبيات التي تقدم ذكرها، التي تنقش على قبريته. ومن بره له عدم مضايقة خدمه ومناقشتهم في الحساب، وما يكون لي أن أحصي مآثره الصادرة منه في هذا القبيل التي لا يمكن حصرها ولا استقصاؤها، فحدث عن البحر ولا حرج، ولو تتبعث ما اتصف به من هذا المعنى لطال الكتاب جدا، والقصد ذكر المآثر جملة لا تفصيلا، والله الموفق.

ومما قيل في بر الوالدين لمؤلفه :

| | |
|---|---|
| اعلـــم بـــأن رضـــاك للآباء | معلــوة جلــت عــن الاحصـــاء |
| مقرونـــة جـــاءت بطاعـــة ربنـــا | إن المفـــاز مبـــرة الآبـــاء |
| وإن انقضــوا وتغيبــت أجسامهـــم | في تربــة الأجـداث فــي الظلمـــاء |
| فلأهــل ودهــم كلــه فـــي برهـــم | قد صــح ذا فــي مسنــد الآبـــاء [6] |

وبالجملة فبره لأهل وُدِّ أبيه شهير نفعه الله بذلك بمعمد وآله..

---

(4) أخرجه أبو داود في السنن، 4 : 336، لكنه توقف عند عبارة : واكرام صديقهما.

(5) أخرجه الطبراني في **المعجم الأوسط** باللفظ الآتي :

« من زار قبر أبويه أو واحد منهما في كل جمعة مرة غفر الله له وكتب برا.

انظر الجلال السيوطي، **الجامع الكبير**، 3 : 96.

(6) في « ج » الانباء.

# الباب الثالث عشر

## * في ملاحظته لأهل العلم وذويه وايثاره لمن اتصف به من أوليه

أما العلم في الجملة، ففضله عظيم، ومنصبه جسيم، [ قال تعالى : ﴿شهد الله أنه لا اله الا هو، والملائكة، وأولو العلم﴾ الآية [1]، ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون [2]﴾ ﴿يرفع الله الذين آمنو منكم والذين أوتوا العلم درجات [3]﴾، ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء [4]﴾.

ومن هذا المعنى في كتاب الله كثير.

وجاء في فضله أحاديث كثيرة، فمنها ماروي عن معاوية ــ رضي الله عنه ــ قال : « قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين [5] » ؛ متفق عليه، وروي عن سهل بن سعد الساعدي أن النبي ــ ﷺ ــ قال لعلي : « لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حُمْرِ النَّعَم [6]، وعنه ــ ﷺ ــ : « بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا، فليتبوأ مقعده من النار [7] »، وعنه ــ ﷺ ــ: « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة »، وعنه ــ ﷺ ــ : « ان الملائكة لتضع

(1) الآية 18 من سورة آل عمران.
(2) الآية 9 من سورة الزمر.
(3) الآية 11 من سورة المجادلة.
(4) الآية 28 من سورة فاطر.
(5) اخرجه مسلم في **الصحيح**، 3 : 95، والبخاري في **الصحيح**، 1 : 26، وكلاهما عن معاوية.
(6) اخرجه البخاري في **الصحيح**، 4 : 20، ومسلم في **الصحيح**، 7 : 122، وأبو داود في **السنن**، 3 : 322 باختلاف يسير في اللفظ.
(7) اخرجه ابن حبان في **صحيحه**، انظر ج. السيوطي، **الجامع الكبير**، 2 : 122.

أجنحتها لطالب العلم رغبة له فيما يطلب [8] »، وعنه ـ ﷺ ـ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له [9] » ؛ رواه مسلم.

وأحاديث هذا الباب كثيرة جدا، لا يسعها مؤلف على انفرادها فكيف بهذه العجالة على صغر جرمها.

وللناس في فضله والحض عليه مقطعات وقطع، فمن ذلك ما للاستاذ ابن جابر حيث عقد حديثا، وهو : « أن تكونوا صغار قوم فستكونوا كبار آخرين [10] »، فقال :

أيا طالبي العلم لا تسأموا — من العلم حتى تحوزوا الفخارا
فإنكم إن تكونوا صغارا — لعلكم ستكونوا كبارا

ولبعضهم :

كن عالما وارض بصف النعال — ولا تكن صدرا بغير الكمال
فان تصدرت بلا آلة — صيرت ذاك (الصدر) صف النعال [11]

ولبعضهم :

تعلم إذا ما كنت لست بعالم — فما العلم إلا عند أهل التعلم
تعلم فإن العلم أزين للفتى — من الحلية الحسناء عند التكلم [12]

ولبعضهم :

كن ابن من شئت واكتسب ادبا — يغنيك محموده عن النسب

---

(8) أخرجه أبو داود في السنن، 3 : 317، باللفظ الآتي : « من سلك طريقا يطلب فيه علما، سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم ـ الحديث ».
(9) اخرجه مسلم في **الصحيح**، 5 : 73 عن أبي هريرة.
(10) اخرجه أبو داود في **السنن** باللفظ الآتي : « ... تعلموا فإن تكونوا صغار قوم فعسى أن تكونوا كبار آخرين ».
(11) انظر الابشيهي، **المستطرف**، 1 : 22.
(12) نسبهما الابشيهي في **المستطرف**، 1 : 21، لصالح اللخمي.

إن الفتـــى من يقـــول ها أنذا ... ليس الفتى من يقول كان أبـــي [13]

وللحريري :

لعمـــرك ما الانسان إلا ابـــن يومـــه ... على ما تجلّى يومه لا ابـــن أمسه
ومـا الفخـر بالعظـم الرميـــم وإنمـــا ... فخار الذي يبغي الفخار بنفسه [14]

ولبعضهم :

العلـــم نـــور وهـــدى ... فكـــن بجـــد طالبـــه
واحـــرص عليـــه واعتمـــد ... فيـــه الأمـــور الواجبـــه
مـــن لازم العلـــم عـــلا ... علـــى الأنـــام قاطبـــه

حكي عن القاضي أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسين العثماني قال : « رأيت بمنامي كأني جالس للاشغال وكتبي حولي على عادتي، فإذا خطاب فوق رأسي وقال لي : اكتب، فأخذت القلم وورقة وقلت : ما الذي اكتب ؟ فقال : اكتب :

تعلـم ما استطـعت لقصد وجهـي ... فإن العلـم من سفـــن النجـــاة
ولـيس العلـم في الدنيـا بفخـر ... إذا ما حل في غيـــر الثقَـــات
ومـــن طلب العلـوم لغيـر وجهـي ... بعيـــد أن تراه من الهـــداة [15]

ولبعضهم :

العلـــم زيـــن وتشريـــف لصاحبـــه ... فاطلـب، هديت، فنون العلـم والأدبا
العلـــم كنـــز وذخـــر لا نفـــاد له ... نعم القريـــن إذا ما عاقـــلا صحبـــا
وجامـــع العلـــم مغبـــوط به ابـــدا ... فمـــا يحـــاذر من فَوْتٍ ولا سلبـــا

---

(13) انظر البيتين عند أ. الشريشي، شرح مقامات الحريري، 3 : 34. وينسب البيتان لعلي بن أبي طالب، انظر ديوانه، 19، والابشيهي، 1 : 34.
(14) البيتان في المقامة 25، المعروفة بالكرجية .
(15) انظر فهرس ابن غازي، ص 63، وم. القادري، نشر، 1 : 93.

يا جامع العلم نِعم الذخر تجمعه لا تعدلن به دُرّاً ولا ذهبا

وللشافعي [16] — رضي الله عنه — :

نعم لن تنال العلم إلا بستة، سأنبيك عن أسمائها ببيان :
ذكاء، وحرص، واجتهاد، وبلغة، وهمة أستاذ، وطول زمان [17]

ومما أنشدنيه شيخنا أبو راشد ما للقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني [18] :

ولم أقض حق العلم إن كنت كلما بدا طمع صيرته لي سلَّما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيت ؛ لكن لأُخدما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذِلَّةً إذن فاتباع الجهل قد كان أسلما
فان قلت : جد العلم كاب فإنما كبا حين لم يحرس حماه وأُسْلِمَا
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن اهانوه فهان، ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما [19]

ولبعضهم :

إني رأيت الناس في عصرنا لا يطلبون العلم للعلم
الا مهابة لاصحابه وعدة للظلم والفهم

ولبعضهم :

أيها العالم إياك الزلل واحذر الهفوة فالخطب جَلَلْ

(16) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الاعيان**، 4 : 163 — 169، والمصادر بالهامش 558 من الصفحة 163 من نفس المصدر.
(17) انظر **ديوان الشافعي**، ص 81.
(18) انظر ترجمته عند أ، بن خلكان، **وفيات الاعيان**، 3 : 278 — 281، والمصادر بالهامش 426 من الصفحة 278 من نفس المصدر.
(19) انظر الابيات عند الراغب الاصبهاني، **محاضرات الادباء**، 1 : 24، والابشيهي، 1 : 20، وابن الأزرق، **البدائع**، 2 : 795.

هفـــوة العالـــم مستعظمـــة — إن هفا اصبح في الخلق مثل
وعلـــى زلتـــه عمدتهـــم — فيهـــا يحتـــج من اخطـــا وزل
لا تقـل يستـر علمـــي زلتـــي — بل بهـــا يحصل في العلـم الخلـل
إن تكـــن عنـــدك مستحقـــرة — فهـي عنـد الله والنـاس جبـل
ليس من يتبعـــن العالـــم في — كل مادق من الأمـــر وجـــل
مثـــل من يدفـــع عن جهلـــه — ان اتـــى فاحشة قيـــل جهـــل
انظـــر الأنجـــم مهمـــا سقـــطت — من رآهـــا وهـــي تهـــوى لم يـــل
فإذا الشمس بدت كاسفـــــة — وجـــل الخلـــق لهـــا كل الوجـــل
وتـــرامت نحوهـــا ابصارهـــم — في انزعـــاج واضطـــراب ووجـــل
وسرى النـــقص لهـــم من نقصهـــا — فغـــدت مظلمـــة منهـــا السبـــل
وكـــذا العالـــم في زلتـــه — يفتـــن العالـــم طرا أو يصل
يقتـــدى منـــه بمـــا فيـــه هفـــا — لا بمـــا استـــعصم فيـــه واستقـــل
فهـــو ملـــح الخلـــق ما يصلحـــه — ان بدا فيـــه فساد أو خلـــل [20]

ولأبي القاسم خلق بن يوسف بن فرتون بن الابرش [21]، من أهل شنترين [22]، توفي بقرطبة في ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة [23] :

لو لم تكـــن لِيَ آبـــاء أسود بهـــم — ولـم يثبت رجـال الغرب لي شرفـــا
ولـم أنـل عنـد مَلْكِ الـعصر منزلـة — لكـان في سيبويه الفخر لي وكفـــى
فكيـف علـم ومجـــد قد جمعتهمـــا — وكـل مختلـــف في مثـــل ذا وقفـــا

ولابراهيم بن خلف الهراوي [24] يحض على النحو :

---

(20) الابيات لأبي منصور الدمياطي.
انظر شهاب الدين الخفاجي، **ريحانة الالباء**، ص 81.
(21) انظر ترجمته عند ج. السيوطي، **بغية الوعاة**، 1 : 557 رقم 1171.
(22) شنترين : مدينة بالبرتغال، تسمى حاليا : SANTAREM.
توجد في شمال لشبونة وتبعد عنها بحوالي 78 كلم. قال عنها ياقوت الحموي في **معجم البلدان** : (مدينة متصلة الاعمال بأعمال باجة في غربي الاندلس ثم غربي قرطبة وعلى نهر تاجة، وهي حصينة بينها وبين باجة أربعة أيام، وهي الآن للافرنج، ملكت في سنة 543 هـ)، وانظر محمد الفاسي، **وحي البينة**، ص 121.
(23) ذو القعدة سنة 532 هـ يوافق يوليوز ــ غشت 1138
(24) في « م » : (النهراوي)، وعند الابشيهي، 1 : 23 : (المهداني)، **والابتهاج** للبلغيثي، 1 : 160 : (الهمداني)، والبيتان مثبتان هناك.

النحـــو يبسط من لسان الالكـــــن والمـــرء تعظمــــه إذا لم يلحـــــن
واذا طلـــبت من العلـــوم اجلهـــا فأجلهـــا منهـــا مقيـــم الألسن

ولعلي بن بشار :

رأيت لسان المــرء وَافِـــدَ عقلـــه وعنوانـــه فانظـــر بمـــاذا تعنـــون
ولا تَعْـــدُ اصلاح اللســـان فإنـــه يخبـــر عمـــا عنـــده ويبيـــن
ويعجبنـــي زيـــن الفتـــى وجمالـــه فيسقـط من عيني ساعة يلحـــن [25]

ودخل اعرابي السوق فوجدهم يلحنون فقال : سبحان الله، يلحنون ويربحون [26].

وقال أبو الأسود الدؤلي : إذا اردت إن تعذب عالما فاقرن به جاهلا [27].

وقيل : من لم يتعلم في صغره لم يتقدم في كبره [28].

وقيل : اذا فاتك الادب فالزم الصمت، فهو من اعظم الأدب منزلة.

حكي أن رجلا كان يجلس إلى أبي يوسف القاضي [29] ـــ رحمه الله ـــ فيطيل الصمت، فقال له أبو يوسف : ألا تتكلم ؟ فقل : بلى، متى يفطر الصائم ؟ قال : اذا غابت الشمس، فقال : فان لم تغب إلى نصف الليل ؟ فضحك أبو يوسف وقال : اصبت في صمتك واخطأت أنا في استدعائك، ثم تمثل قائلا :

عجـــبت لازراء العيـــيّ بنـــفسه وصمت الذي قد كان بالقول أعلما
وفي الصمت ستـــر للعيـــي وإنمـــا صحيفة لب المـــرء ان يتكلمـــا [30]

---

(25) انظر الأبيات عند الابشيهي، 1 : 23، **الابتهاج** للبلغيثي، 1 : 160.
(26) انظر **الابتهاج** للبلغيثي، 1 : 16، والابشيهي، 1 : 23.
(27) انظر الابشيهي، 1 : 23.
(28) انظر الابشيهي، 1 : 21.
(29) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الاعيان**، 2 : 378 ـــ 390، والمصادر بالهامش 824 من الصفحة 378 من نفس المصدر.
(30) البيتان لحذيفة الخطفي، جد جرير.
انظر الجاحظ، **البيان والتبيين**، 1 : 243 وانظر القصة في **وفيات الاعيان**، 6 : 383، ومحمد الوشاء، **الموشى**، ص 17.

وكثيرا ما كان ينشدنا شيخنا أبو العباس المنجور :

إذا أعجبتك خصال امرىء فكنها يكن منك ما يعجبك
فليس على المجد والمكرمات إذا جئتها حاجب يحجبك (31)

وأنشدني :

دببت للمجد والساعون قد بلغوا حدَّ النفوس وألقوا دونه الأُزُرَا (32)

وفي الحديث : إن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وأن العلماء ورثة الأنبياء، وأن الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم، فمن أخذه، أخذ بحظ وافر.

فهذه الأحاديث كلها تدل على شرف العلم وعظيم مكانته] (33)، فمن اتصف به أو بوصف حامليه فهو اولى بالاكرام، ولهذا انزلهم ــ ايده الله ــ منازلهم، وراعاهم حقهم، ولما حصل له منه من الحظ الوافر، لا يعرف العلم وقدره إلا من سهرت عيناه في تحصيله وبجل بين اقرانه بتبجيله (34)، وكان يقول ــ ﷺ ــ : « فَلْيَلِني منكم ذوو الاحلام

---

(31) نسبهما الراغب، الاصبهاني في **محاضرات الادباء**، 1 : 310 لأبي العيناء.
وقد ورد البيتان ومعهما بيت ثالث عند أبي هلال العسكري في **ديوان المعاني**، 1 : 107، هكذا :

اذا اعجبتك خصال امرىء فكنه تكن مثل ما يعجبك
فليس على الجود والمكرمات حجاب إذا جئته يحجبك
هو المال إن أنت لم تخترب أباح لك الدهر ما يخربك

(32) ما بين القوسين سقط من « م ».
والبيت من جملة ابيات أوردها أبو تمام في **حماسته** وقال عنها : إنها لرجل من بني أسد ــ سيوردها ابن القاضي كاملة في الصفحات الموالية ــ والابيات هي :

دببت للمجد والساعون قد بلغوا حد النفوس وألقوا الازرا
وكابروا المجد حتى مل أكثرهم وعانق المجد من أوفى ومن صبرا
لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

(33) ما بين المعقوفين سقط من « ج ».
(34) أخذه من قول الجلال المحلى :

=

والنهى [35]، وعن جابر بن عبد الله [36] ــ رضي الله عنهما ــ : إن رسول الله ــ ﷺ ــ كان يجمع بين الرجلين، من قتلى أحد في القبر ثم يقول : أيهم أكثر أخذا للقرآن ؟ فإذا أشير إلى أحدهما قدمه في اللحد [37] »، اخرجه البخاري وغيره، وعنه ــ ﷺ ــ : « إن من اجلال الله اكرام ذي الشيبة، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، واكرام ذي السلطان المقسط [38] »، وعنه ــ ﷺ ــ : « المرء مع من أحب [39] »، وعنه ــ ﷺ ــ : « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام، إذا فقهوا، والارواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف [40] »، واختصاصه ــ أيده الله تعالى ــ بهذه الخصلة العظيمة، التي هي مصاحبة العلماء وتعظيمهم واتخاذهم بطانة يشاورهم في الأمور الشرعية، ويشاركهم في السير المرضية، يرشدك إلى فضله وكماله وعلو عمته وجماله، وما ذاك إلا لما روي عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ ان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان ؟ بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله تعالى [41] »، ومخدومنا ــ أيده الله ــ أبر الناس والأمراء بأهل العلم، استخلصهم لنفسه، وجمعهم من سائر اقطار مملكته لمخاطبته وانسه، إذا سمع بمن له منزلة في العلم اقدمه على حضرته العلية، وإمامته العلوية، ويجري عليهم الجرايات، التي لا يصدر مثلها إلا من مثله، وقد شاهدت من ذلك ما لا يدخل تحت حصر لو تتبعتهم واحدا واحدا ويخرجنا عن المقصود من ذكر مآثره، واستقصاء بعض مفاخره، والله الموفق.

---

= احفظوا العلم وصونوا أهله عن جهول حاد عن تبجيله
انما يعرف قدر العلم من سهرت عيناه في تحصيله

(35) اخرجه مسلم في **الصحيح**، 2 : 30، وأبو داود في **السنن**، 1 : 180، وكلاهما عن أبي مسعود باللفظ الآتي : « ليلني منكم أولو الاحلام والنهى ».

(36) انظر ترجمته عند خ، الدين الزركلي، **الاعلام**، 2 : 93، والمصادر بالهامش 2.

(37) اخرجه البخاري في **الصحيح**، 2 : 94، وأبو داود في **السنن**، 3 : 196، وكلاهما عن جابر بن عبد الله.

(38) اخرجه الطبراني في **المعجم الكبير**، وابن أبي شيبة في **المسند**، وابن المبارك في **الزهد**، انظر ج السيوطي، **الجامع الكبير**، 1 : 474.

(39) اخرجه البخاري في **الصحيح**، 7 : 112، ومسلم في **الصحيح**، 8 : 43. [illegible] في **السنن**، 3 : 281، والرامهرمزي، **المحدث الفاصل**، ص 346، رقم 372 ، وكلهم عن عبد الله.

(40) اخرجه البخاري في **الصحيح**، 4 : 154، ومسلم في **الصحيح**، 8 : 41 ــ 42، وكلاهما عن أبي هريرة.

(41) اخرجه البخاري في **الصحيح**، 8 ــ 121 عن أبي هريرة.

# الباب الرابع عشر

## * فيما يؤثر من العلوم النافعة ويهتم به من فوائدها اللامعة

* انظر **فهرس** أ. المنجور الذي أجاز فيه المنصور، و ع. العزيز الفشتالي، **مناهل**، ص 188 ـــ 191.

اعلم أنه ــ ايده الله تعالى ــ أحب الأشياء إليه : علم الحديث وسماعه، أخذه رواية [1]، [ ودراية [2] ] عن الشيخ العالم العامل الزاهد المحدث : أبو النعيم سيدي رضوان بن عبد الله الجنوي [3] توفي ــ رحمه الله ــ ثالث عشر ربيع النبوي سنة احدى وتسعين وتسعمائة [4]، وولد

---

(1) علم الحديث رواية يقوم على النقل المحرر الدقيق لكل ما اضيف إلى النبي ــ ﷺ ــ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة، ولكل ما اضيف من ذلك إلى الصحابة والتابعين على الرأي المختار.
انظر صبحي الصالح، **علوم الحديث ومصطلحه**، ص 187.

(2) ما بين المعقوفين سقط من « ج ».
وعلم الحديث دراية : مجموعة من المباحث والمسائل يعرف بها حال الراوي والمروي من حيث القبول والرد، ويطلق العلماء على علم الحديث دراية « علم اصول الحديث » ويندرج في اطاره عدة علوم أهمها :
أ ــ علم الجرح والتعديل
ب ــ علم رجال الحديث
ج ــ علم مختلف الحديث
د ــ علم علل الحديث
هـ ــ علم غريب الحديث
و ــ علم ناسخ الحديث ومنسوخه

انظر صبحي الصالح، **علوم الحديث ومصطلحه**، ص 107 ــ 114.

(3) الف برسمه تلميذه أحمد المرابي كتابه المسمى **تحفة الاخوان، ومواهب الامتنان، في مناقب سيدي رضوان**، مخطوط م. ع بالرباط رقم 114 ك، وانظر أيضا ابن القاضي **درة**، 1 : 274 ــ 275، رقم 424، **جذوة**، 1 : 197 رقم 157، **لقط**، ص : 310، وم. العربي الفاسي، **مرآة** ص 209، وم. المهدي الفاسي، **تحفة**، ص 39، وم. القادري، **الاكليل**، 22 ظ، وم. الحضيكي، **طبقات**، 1 : 213 ــ 221،وم. بن مخلوف، **شجرة**، ص 286 رقم 1092، وع الحي الكتاني، **فهرس الفهارس**، 1 : 325 ــ 326، وم، الكتاني، **سلوة**، 2 : 257، والعباس بن ابراهيم، **الاعلام**، 3 : 227 ــ 236 رقم 439، وليفي بروفنسال، **مؤرخو الشرفاء**، ص 71، 166، 179، وم. حجي، **الحركة**، 2 : 359.

(4) 13 ربيع النبوي سنة 991 هـ تقابل 6 أبريل سنة 1584 م.

سنة اثنتي عشر وتسعمائة [5]، ودفن خارج باب الفتوح [6] من فاس ــ كلأها الله تعالى بمنه، قدس الله ضريحه ــ. ورضوان هذا يروي عن أبي زيد عبد الرحمن بن علي بن أحمد القصري، المعروف بسُقَيْن العاصمي السفياني [7]، المتوفى سنة ست وخمسين وتسعمائة ، مولده كان سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة [8]، اخذ العلم عن ابن غازي وعن أبي الفرج الطنجي [9]، وعن أبي عبد الله السخاوي [10] وعن أبي فارس بن فهد [11] وعن الشيخ زكرياء الأنصاري المصري [12] أحد تلامذة ابن حجر، والسخاوي المذكور هو غير السخاوي الذي أجاز لابن غازي، وكلاهما يروي عن ابن حجر، وأخذ أيضا عن القلقشندي [13] وعن القاضي زكرياء، عن شهاب الدين

---

(5) 912 هـ توافق 1506 ــ 1507 م.

(6) باب الفتوح : باب شهير بعدوة الاندلس من فاس، وهو أول باب بني بها، كان في أول الأمر يسمى باب القبلة، ولم يزل على حالته التي بناه ادريس الثاني عليها إلى أن هدمه الأمير المصلح دوناس بن حمامة بن المعز بن عاصبة الصنهاجي، فلما توفي في شوال سنة 452 هـ اقتسم ولداه الفتوح وعجيسة ملك فاس، فكان الفتوح بعدوة الاندلسيين وعجيسة بعدوة القرويين، وحدثت بين الأخوين نفرة وحروب، فبنى فتوح قصبة منيعة بالموضع المعروف بالكذان، وأعاد بناء باب القبلة ونسب إليه فصار يدعى باب الفتوح منذ ذلك التاريخ.
وقد أشار محمد الكتاني في **سلوة الانفاس** (2 : 163) في ترجمة البناد إلى أن قبره موجود عند قوس باب الفتوح الأول الذي سد عن يسار الخارج منه، فالظاهر أن هذا الباب هو الباب الزناتي الذي حل محل باب القبلة الادريسي، أما باب فتوح الكبير فهو من عمل الموحدين.
وتجدر الاشارة إلى أنه فتح في السنين الأخيرة بابان جديدان عن يسار الخارج من باب الفتوح، احدهما يسامت شارع الفخارين، والثاني مجاور لقصبة تمدرت. فهذان البابان فتحا حديثا ولا علاقة لهما بباب القبلة الادريسي، ولا بباب الفتوح الزناتي.

(7) انظر ترجمته عند أحمد المنجور، **فهرس**، ص 59، وابن القاضي ، **درة**، 3 : 96 ــ 97، رقم 1022، **لقط الفرائد**، 301، وأبابا، **كفاية**، ص 51، وم. بن مخلوف ، **شجرة**، ص 279 رقم 1047 وم. الحجوي، **الفكر السامي** ، 4 : 102، وع. الحي الكتاني، **فهرس الفهارس**، 2 : 333 ــ 334، وم. حجي، **الحركة**، 2 : 349.

(8) 973 هـ توافق 1565 ــ 1566 م

(9) أبو الفرج الطنجي هو محمد بن محمد بن موسى الطنجي خطيب جامع الاندلس بفاس والمتوفى سنة 889 هجرية. انظر **فهرس ابن غازي**، 121 ــ 122، **وفهرس المنجور**، 11، **وفهرس الفهارس**، 1 : 112.

(10) انظر ترجمته عند أ. المنجور، **فهرس**، ص 22، وم بن مخلوف، **شجرة** 1 : 255 رقم 926، **وفهرس ابن غازي**، 168 ــ 169.

(11) انظر ترجمته عند نجم الدين الغزي، **الكواكب السائرة**، 1 : 238 ــ 239، وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، 8 : 100 ــ 102.

(12) ترجم له ترجمة مطولة نجم الدين الغزي في **الكواكب السائرة**، 1 : 196 ــ 207، وم. العابد الفاسي، **فهرس القرويين**، 1 : 77، 145 ــ 146.

(13) انظر ترجمته عند نجم الدين الغزي، **الكواكب السائرة**، 1 : 108، وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، 8 : 104 ــ 105، وعبد الحي الكتاني، **فهرس الفهارس**، 2 : 214 ــ 216.

أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المتوفى سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة، وقد أجازه أيضا شيخنا أبو العباس المنجور في أشياء من العلم وألبسه خرقة التصوف وسلسل له الأحاديث المسلسلات [14]، كالمسلسل بالأولية وغيره من المسلسلات، وقد أمر ـــ أيده الله ـــ بنسخة من البخاري [15] عملت لخزانته العلمية، وقد ضمن قائده أبو الحسن الشيظمي تاريخها في بيت من أبيات فقال :

| | |
|---|---|
| للـــــــه منهـــــــا درة قد بدت | في غايــة الاحكـــــام والاحتفـــــال |
| نسخـــة من فاق الـــــورى همـــــة | وخصةُ الله بارث المعـــــــــــال |
| واكـــتسب المأثـــــور فخـــــرا به | والــــــبس الـــــرواة برد الجمـــــال |
| للملك المـــنصور محيـــي الهـــدى | ابـــن رسول الله وفـــــر الكمـــــال |
| جادت بها الأيــــــامِ في طالــــــع | افــــاد عين الديـــن أوفى اكتحـــال |
| متـــــى تشا تاريـــــخ اتحافـــــه | بالملك قل : آل النبـــي خيـــر آل |

وكحديثي : المصافحة والتشبيك، كحديث الوضوء وغير ذلك، وفهرسة شيخنا التي ذكر فيها كل ما أجازه فيه وعدد فيها مشيخته، كانت بيدي وضاعت مني في محنتي، وله أجازات كثيرة، وحدثت أنه أجازه الشيخ أبو عبد الله محمد البكري من الديار المصرية بالكتب [16]، وقد أجازه غيره منها [17] ومن غيرها، وقد كنت تكفلت باجازات من المشرق عن الشيوخ الذين هنالك فعاقني الحال بالمحنة المتقدم ذكرها.

[ ولا شك أن علم الحديث أشرف العلوم لأن شرف العلم بشرف معلومه، ومعلومه هو

---

(14) المسلسل من الاحاديث ما تتابع رجال اسناده على صفة فيهم، كأن يتفقوا في الأسم أو في الصفة أو في النسبة أو فعل من الافعال، يصدر عنهم في حال التحديث مثل أن يكونوا جميعهم مدنيين أو مكيين أو فقهاء أو نحاة، وكأن يشبكوا باليد حالة الرواية عن رسول الله، وكأن يتابعوا على صفة في الرواية، كالتحديث بسمعت أو بأخبرنا فلان والله، وما ضاهى ذلك، وخير المسلسلات ما دل على اللقى والاتصال لما فيه من مزيد الضبط والتوثيق.
انظر عبد الحفيظ الفاسي، **الآيات البينات في شرح وتخريج الاحاديث المسلسلات**، واحمد الشرقاوي، **مكتبة الجلال السيوطي**، ص 318، رقم 617، وصبحي الصالح، **علوم الحديث ومصطلحه**، ص 249 ـــ 253.

(15) وقف أ. المقري على هذه النسخة وبها اجازة رضوان الجنوي للمنصور.
انظر، **روضة الآس**، ص 35.

(16) انظر نص الاجازة عن ع. العزيز الفشتالي، **مناهل**، ص 192 ـــ 196.

(17) واجازه من مصر أيضا بدر الدين القرافي، انظر نص الاجازة عند ع. العزيز الفشتالي، **مناهل**، 192 ـــ 196.

كلام سيد الأولين والآخرين، وأفعاله وتقريراته، وسكوته أفضل شيء يتمسك به لأنه المبين عن الله والمرشد للخير، عن ابن عباس قال : « سمعت علي بن أبي طالب يقول : خرج علينا رسول الله ــ ﷺ ــ فقال : « اللهم ارحم خلفائي، قلنا : يا رسول الله، من خلفاؤك ؟ قال : الذين يروون أحاديثي وسنتي ويعلمونها الناس [18] »، وعنه ــ ﷺ ــ قال : نَضَّرَ الله امرءا سمع منا حديثا فبلغه غيره، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه [19] ». « ثلاث لا يغل عليهم قلب امرىء مسلم : اخلاص العمل لله، ومناصحته للامر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم [20] »، وعنه ــ ﷺ ــ أنه عهد في حجة الوداع فقال : « عليكم بالقرآن، وسترجعون إلى أقوام سيبلغون الحديث عني، فمن عقل شيئا فليحدث به، ومن قال علي ما لم أقل، فليتبوأ بيته ــ أو مقعده ــ من النار [21] ».

وأحق ما يشتغل به طالب الحديث أولا علم الحديث المتكفل ببيان اصطلاحات أهليه، **كألفية** عبد الرحيم بن الحسين العراقي التي اختصر فيها **كتاب ابن الصلاح**، أو **ككتاب ابن الصلاح** المذكور، أو **الالماع** [22] لعياض.

ثم بعد ذلك يشتغل بحفظ الحديث من **الصحيحين والموطأ**، لأن ارفع الصحيح ما اتفق عليه البخاري ومسلم وهو المراد بقولهم : متفق عليه، ثم ما انفرد به البخاري، ثم ما انفرد به مسلم، ثم ما حوى شرطهما معا، ثم ما حوى شرط البخاري فقط، ثم ما حوى شرط مسلم فقط. قال ابن الصلاح : ليس لأحد في هذه الاعصار تصحيح حديث، وقال يحيى القطان [23] : ذلك ممكن.

ثم بعد هذا كله يشتغل بأحاديث السنن، ثم بالمستدركات [24]، **كالمستدرك** للحاكم

---

(18) اخرجه الرامهرمزي في **المحدث الفاصل**، 163 رقم 2، وانظر أيضا القاضي عياض، **الالماع**، 17.

(19) اخرجه أبو دواود في **السنن**، 3 : 322، والترمذي في **السنن**، 3 : 372، وكلاهما عن زيد بن ثابت باختلاف يسير في اللفظ.

(20) اخرجه الشافعي في **مسنده** باختلاف يسير في اللفظ.
انظر الساعاتي، **بدائع المنن**، 1 : 14.

(21) رواه الرامهرمزي في **المحدث الفاصل**، 172 رقم 15، كما رواه ابن حنبل في **مسنده**، والطبراني في **المعجم الكبير** باختلاف يسير في اللفظ، ورجاله ثقات.
انظر مجمع الزوائد، 1 : 144.

(22) اسم الكتاب الكامل : **الالماع، في ضبط الرواية وتقييد السماع**، وقط طبع بمصر بتحقيق الاستاذ أحمد صقر سنة 1970.

(23) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 9 : 181، والمصادر بالهامش 1.

(24) المستدركات : جمع مستدرك، وهو ما استدرك، فيه ما فات المؤلف على شرطه.
انظر صبحي الصالح، **علوم الحديث ومصطلحه**، ص 124.

ابن البيع [25]، ثم بالمستخرجات [26]، كمستخرج أبي عَوانة [27] وغيره، يقدم الحفظ أولا والرواية، ثم التفهم ثانيا والدراية، وقد رتب شيخنا أبو العباس المنجور قراءة مولانا لكتب الحديث في حال مذاكرته إياه في **فهرسته**.

ومما كتب به أهل بغداد للبخاري :

**المسلمون بخير ما بقيت لهم          وليس بعدك خير حين تفتقد**

قال ابن عدي [28] : سمعت الحسن بن الحسين أبا علي البزاز البخاري يقول : ولد محمد ابن اسماعيل بن ابراهم بن المغيرة بن بردزبة البخاري يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة [29].

وقال ابن عدي أيضا : سمعت الحسن بن الحسين يقول : توفي محمد بن اسماعيل ليلة السبت عند صلاة العشاء ليلة الفطر، ودفن يوم الفطر بعد صلاة الظهر يوم السبت مستهل شوال من شهور سنة ست وخمسين ومائتين [30]. عاش اثنتين وستين سنة إلا ثلاثة عشر يوما ــ رحمه الله ونفعنا به ــ.

وأما مسلم فيكنى أبا الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري رحل إلى العراق والحجاز والشام ومصر، وسمع من يحيى بن يحيى النيسابوري [31]، وقتيبة بن سعيد [32]، واسحاق بن ابراهيم [33]، وجماعة من غير هؤلاء، توفي مسلم عشية يوم الأحد ودفن يوم الاثنين

---

(25) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الاعيان**، 4 : 280 ــ 281، والمصادر بالهامش 615 من صفحة 280 من نفس المصدر .

(26) موضوع المستخرج كما قال العراقي ــ : أن يأتي المصنف إلى الكتاب فيخرج احاديثه بأسانيد لنفسه من غير طريق صاحب الكتاب، فيجتمع معه أو من فوقه.
انظر صبحي الصالح، **علوم الحديث ومصطلحه**، ص 125.

(27) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الاعيان**، 6 : 393 ــ 394 والمصادر بالهامش 826 من الصفحة 393.

(28) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي ، **الاعلام**، 4: 239، والمصادر بالهامش 1.

(29) 13 شوال سنة 194 هـ يوافق 20 يوليوز سنة 810 م.

(30) فاتح شوال سنة 256 هـ يوافق فاتح شتمبر سنة 870 م.

(31) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 9 : 223، والمصادر بالهامش 2.

(32) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 6 : 27 و المصادر بالهامش 2.

(33) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الاعيان**، 1 : 199 ــ 201، والمصادر بالهامش 35 من الصفحة 199 من نفس المصدر.

لخمس بقين من رجب سنة احدى وستين ومائتين، فبين وفاتيهما أربعة أعوام وعشرة اشهر إلا خمسة أيام، اعني البخاري ومسلما.

وأما الترمذي [34] والنسائي [35] وأبو داود [36] وهما فقد أشار إلى وفاة الجميع أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الونشريسي بما انشدنيه شيخنا أبو راشد عنه له :

**إذا رمت الحديث فلذ بخمس — تكن مثل المشافه في الحياة**
**تعطر درعه مارض نسج — بنور للمحدث والوفاة**

ومن مفاخر المغرب عياض بن موسى اليحصبي [37]، صاحب **المشارق** [38]، وفيه يقول تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الشهرزوري المعروف بابن الصلاح لنفسه في هذا الكتاب، وكان لا يغب عن مطالعته والاستفادة منه بعد تعوده لاسماع الحديث في الدار الأشرفية بدمشق والمنشأة لذلك بأمر الملك الأشرف [39] من بني أيوب :

**مشارق أنوار تبدت بسبتة — وذا عجب كون المشارق بالغرب**

---

(34) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الاعيان**، 4 : 278، و المصادر بالهامش 613 من نفس الصفحة والمصدر.

(35) انظر ترجمته عند أ. خلكان، **وفيات الاعيان**، 1 : 77 — 78، والمصادر بالهامش 29 من الصفحة 77.

(36) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الاعيان**، 2: 404 — 405، والمصادر بالهامش 272 من الصفحة 404 من نفس المصدر.

(37) يكاد يكون القاضي عياض أشهر الاعلام في تاريخ المغرب العلمي على الاطلاق، فقد طارت شهرته في عصره وبعد عصره بالمغرب والمشرق على السواء، وكتب الذيوع لمؤلفاته، ورزق بعضها — **كالشفا** — من الحظوة وحسن القبول والتلقي لدى الخواص والعوام ما لم يرزقه مؤلف مغربي آخر، آية ذلك هذه النسخ الخطية — **من الشفا** — التي تزخر بها الخزائن في كل مكان. وان من الاعلام من تسمو بسببهم أوطانهم وتذكر بفضلهم بلدانهم، وهذه حال قاضينا عياض الذي قيل فيه : « لولا عياض لما ذكر المغرب ».

(38) اسم الكاتب الكامل : **مشارق الانوار، على صحيح الآثار**، ويهتم فيه بالتنبيه على مواضع الاوهام والتصحيفات في **الموطأ والصحيحين**، فضلا عن تفسير الغريب، وضبط الألفاظ وأسماء الرجال. وقد نشر الكتاب في المطبعة السلطانية بفاس الجديد عام 1328 هـ في جزئين.
وانظر تحليلا للكتاب عند الدكتورة عائشة بنت الشاطىء، **مشارق الأنوار على صحاح الآثار**، مقال بمجلة **المناهل**، العدد 19، دجنبر 1980 ، ص 57 — 154.

(39) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 8 : 280، والمصادر بالهامش.

**ومرعـى خصيب في جديب ربوعهـا ألا فاعجبوا للخصب من منزلة الجدب** [40]

جوابــه :

**وهـل زيـن الأرجـاء إلا رجالهـا والا فلا فضل لترب علـى ترب** [41]

ومؤلف صلة السمط [42] :

**كأنـي مذ وافـى كتـاب عيـاض انـزه طرفـي في مريـع ريـاض**
**فاجنـي به الأزهـار يانعـة الجنـى واكـرع منـه في لذيـذ حيـاض** [43]

ولابي عمر بن الوزان المالقي [44] :

---

((40) البيت الأول لابن الصلاح كما ذكر المؤلف، وأما البيت الثاني فهو للخطيب أبي عبد الله بن رشيد الفهري ذيل به البيت السابق. أنظر **أزهار الرياض**، 4 : 343.

(41) انظر أ. المقرى، **أزهار**، 4 : 344.

(42) مؤلف **صلة السمط** هو محمد بن علي بن محمد بن علي بن عمر أبو عبد الله، المصري التوزري ويقال له : ابن الشباط (618 هجرية — 681 هـ)، (1221 م — 1282 م).

واسم الكتاب الكامل هو : **صلة السمط، وسمة المرط، في شرح سمط الندي، في الفخر المحمدي**، في ثلاثة أسفار، وهو كتاب في الأدب والتاريخ، جعله شرحا لتخميس « **القصيدة الشقراطيسية** » في السيرة.

ويوجد السفر الأول مخطوطا بالخزانة الملكية بالرباط رقم 8042، كما يوجد السفر الثاني منه مخطوطا بالمكتبة العامة بالرباط تحت رقم 264 ق، ويتكون من 358 صفحة من الحجم الكبير، وهناك نسخة أيضا للسفر الثاني بنفس المكتبة تحت رقم 110 ق مكون من 240 صفحة من الحجم الكبير، ويوجد السفر الثالث مخطوطا بنفس المكتبة كذلك تحت رقم 110 — 3 ق. كما توجد نسخة مخطوطة للكتاب المكتبة الوطنية بتونس تحت رقم 3208.

والكتاب يحتوي على معلومات قيمة عن فتح المغرب.

ـ انظر ترجمته عند أبي سالم العياشي، **الرحلة العياشية**، 2 : 253 وم. بن مخلوف، **شجرة**، 191 رقم 642، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 7 : 172 — 173.

ـ وانظر حول القصيدة الشقراطيسية، حاجي خليفة، **كشف الظنون**، 2 : 1339 — 1340، والعبدري، **الرحلة**، ص 44، وقد نشرها الاستاذ عبد الله كنون كاملة في مجلة **المناهل**، العدد 18، يوليو 1980، ص 13 — 31.

(43) انظر البيتين عند أ. المقري، **أزهار الرياض**، 4 : 347. وقد انشدهما المؤلف نفسه لتلميذه أبي عبد الله محمد بن أحمد بن حيان.

(44) انظر ترجمته عند أ. المقري، **أزهار**، 2 : 380.

ظلموا عياضا وهو يحلم عنهم     والظلم بين العالمين قديم
جعلوا مكان الراء عينا في اسمه     كي يكتموه وإنه معلوم
لولاه ما فاحت أباطح سبتة     والروض حول فنائها معدوم (45)

ولابي محمد محارب بن محمد بن محارب (46) من أهل وادي آش (47) :

غدا سَلِسَ القياد فما يُرَاضُ     وعَمَّ جميع لِمَّتِهِ البياضُ
واضحى القلب لا تُصْبِيهِ هندٌ     ولا سلمى ولا الحَدَقُ المِراض
ولا يشجيه طيب نسيم نجدٍ     ولا يُسْلِيهِ بالزهر الرياض
وان غنى الحمام بغصن أيك     فمن عض الزمان به عضاض
[ وقائلة : أتكرع في ثماد     وقد لاحت لرائدها حياض (48) ]
إلى كم ذا تقول لكل خطب     مقالة من الم به المخاض
وتقبض انقباض العي حتى     اضربك السكون والانقباض
ووجد بني عياض بالمعالي     مدى الدنيا حديث مستفاض
اذا قُصدوا أثاروا الجود بحرا     وسالوا بالمكارم ثم فاضوا
فقلت لها : ومن منهم عياذي     فقالت ذاك سيدهم عياض
إمام زانه علم وحلم     له بالخطة العُلْيا انتهاض
يقارض من أساء بحسن صبر     وأمر الدين والدنيا قراض
ففي الآداب جدول ماء مزن     وفي الآراء بحر لا يخاض
ويبرم ما يروم فليس يخشى     على أمر وأبرمه انتقاض
يهيم بكل معلوة وفضل     كما قد هام بالعليا مُضاض
ومَنْ تَعْلَقْ حِبالَ بني عياض     يداه فلا يضام ولا يُهاضُ (49)

(45) انظر الابيات عند أ. المقري، **أزهار**، 5 : 81.
(46) انظر ترجمته عند المقري. أ، **أزهار الرياض**، 5 : 82، **والتكملة**، ص 736 رقم 1859.
(47) وادي آش (أو وادي الآشات Guadix) : احدى المدن الاندلسية تقع على نهر ينحدر من جبل (شلير) عند السفح الشمالي لجبل الثلج (سييرا نقادا) قريبا من غرناطة على بعد 53 كيلومترا إلى الشمال الشرقي منها.
(48) ما بين المعقوفين سقط من الأصل والاكمال من **أزهار الرياض**، 5 : 83.
(49) انظر القصيدة عند أ. المقري، **ازهار الرياض**، 5 : 83.

قوله في البيت الأول : وعم جميع لمته البياض :

هي فوق الوفرة إلى المنكبين من شعر الرأس، والعامة تقول هي اللحية، وما ينشد من قوله : وفاضت دموعي على لمتي، فهو خطأ صراح.

حكي أن الأمير أبا عنان سمع منشدا ينشد ما تقدم، فقال لمن كان معه: « قال رسول الله ــ ﷺ ــ : من سعادة المرء خفة لحيته [50] »].

ذكر أن معاوية بن أبي سفيان كان جالسا إذ مر به رجل طويل اللحية ؟ فقال عمرو بن العاص : أنا سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : « اعتبروا عقل الرجل في ثلاث : في طول لحيته، وكنيته، ونقش خاتمه [51] »، فلما اتاه الرجل قال له معاوية : أما لحيتك فلسنا نسأل عنها، فما نقش خاتمك ؟ قال : « وتفقد الطير، فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ؟ [52] » قال : فما كنيتك ؟ قال : أبو الكوكب الدري، فقال معاوية : كمل الرجل [53]. وكان ــ ﷺ ــ يأخذ من لحيته من طولها وعرضها بالسوية، وروي عن عبد الله بن عمر ــ رضي الله عنه أنه كان يقبض على لحيته ويأخذ منها ما زاد على قبضته. وقال الحسن بن المثنى [54]، إذا رأيت الرجل له لحية طويلة فاعلم أن في عقله شيئا.

ذكر أن فلانا بن أحمد قال : رأيت رسول الله ــ ﷺ ــ في المنام، فقلت : يا نبي الله،

---

(50) ما بين المعقوفين سقط من « ج ».
والحديث اخرجه الطبراني في **المعجم الكبير**، وأبو عدي في **الكامل**، وكلاهما عن ابن عباس.
انظر **فيض القدير** المناوي، 6 : 14 رقم 7251.
وقد ذكر عنه المناوي عند شرحه للحديث : « بحاء مهملة وتحتية فمثناة فوقية على ما درجوا عليه لكن في **تاريخ الخطيب** عن بعضهم أنه تصحيف وانما هو لحييه بتحتيتين أي خفتهما بكثرة ذكر الله، ثم قال الخطيب لا يصح لحيته ولا لحييه، انتهى.
وجرى على رواية لحييه بتحتيتين الخطابي وابن السكيت وغيرهم، فالمراد خفة شعرها لأن لحية الرجل زينة له ومن ثم كانت عائشة تقسم فتقول : والذي زين الرجال باللحى، والزينة إذا كانت تامة وافدة ربما أعجب المرء بنفسه، والاعجاب مهلك كما جاء في الخبر، وفي خبر : شرما أعطى المسلم قلب سوء في صورة حسنة فإذا نظر لغزارة لحيته أعجب بها والاعجاب هلاك، فكانت خفتها بسبب ازارئه بها فكان فوزا وهي السعادة، ففي الخبر دلالة على أن خير الأمور في التزين الوسط وترك المبالغة ... ».
(51) الحديث غير موجود عند ج. السيوطي في **الجامع الكبير**، ولا عند أ. ي. ونسنك في **المعجم المفهرس**.
وقد أورده أحمد الشريشي في **شرح مقامات الحريري**، 1 : 44، اثناء استعراضه للقصة.
(52) الآية 20 من سورة النمل.
(53) انظر القصة في محاضرات اليوسي، ص 252.
(54) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 2 : 201، والمصادر بالهامش 1.

اشتهي لحية كبيرة، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ : « لحيتك جيدة، وأنت تحتاج إلى عقل تام [55] ». وعن أبي العيناء ــ رحمه الله ــ قال : حدثني بعض أصحابنا قال : كان المامون جالسا بين ندمائه ببغداد مشرفا على دجلة وكانوا يتذاكرون أخبار الناس، فقال المامون : ما طالت لحية انسان قط إلا ونقص من عقله بمقدار ما طال من لحيته، وما رأيت عاقلا قط طويل اللحية، فقال بعض جلسائه : ولا مرد على أمير المؤمنين، قد يكون في طِوال اللِّحَى أيضا عقلاء، قال : فبينما هم يتذاكرون إذ اقبل رجل كبير اللحية حسن الهيئة، حسن الثياب، فقال المامون ما تقولون في هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : هذا رجل عاقل، وقال آخرون : هذا يجب أن يكون قاضيا، فقال المامون لبعض الخدم : علي بالرجل، فلم يلبث أن اصعد إليه وأوقف الرجل بين يديه فسلم الرجل فأجاد السلام، قال : فاجلسه المامون واستنطقه فاحسن المنطق، فقال له المامون : ما اسمك ؟ قال : أبو حمدونة، قال : فما كنيتك ؟ قال : أبو علوية، فضحك المامون، وأقبل على جلسائه فغمزهم عليه ثم قال له : ما صنعتك ؟ فقال : أنا فقيه أجيد الشرح في المسائل، قال له المامون، نسألك عن مسألة، فقال له الرجل : سل عما بداك ؟ فقال المامون : ما تقول في رجل اشترى من رجل شاة، فلما تسلمها المشتري ومضى خرجت من استها بعرة، ففقأت عين الرجل، على من تكون الدية ؟ قال : فنكث باصبعه في الأرض طويلا ثم قال : تجب على البائع دون المشتري، قال المامون : ولم ؟ قال لأنه لما باعها لم يشترط في استها منجنيقا، قال فضحك المامون حتى استلقى على قفاه، وضحك من حضر من الندماء وانشأ المامون يقول :

| | |
|---|---|
| ما أحـــــد طالت له لحيــــــة | فزادت اللحيــــــة في هيئتــــه |
| إلا ومـــــا ينــــقص من عقلــــه | أكثــر ممــا زيــد في لحيتــه [56] |

ولآخر :

| | |
|---|---|
| إذا عظـــمت للفتــــى لحيــــة | فطـــالت وصارت إلــــى سرتــــه |
| فنـــقصان عقـــل الفتــى عندنــــا | بمقـــــدار ما زاد في لحيتـــــه |

(55) الحديث غير موجود عند ج. السيوطي في **الجامع الكبير**، ولا عند أ. ي. ونسنك في **المعجم المفهرس**. وقد اورده احمد الشريشي في **شرح مقامات الحريري**، : 44، اثناء استعراضه للقصة.

(56) انظر القصة عند احمد الشريشي، **شرح مقامات الحريري**، 1 : 44 ــ 45، و**محاضرات اليوسي**، 251.

[ ولأبي الفضل عياض يمدحه — ﷺ — ورتبها على سور القرآن وهي [57].

في كل (فاتحة) للقول معتبرة — حق الثناء على المبعوث (بالبقرة)
في (آل عمران) قد ما شاع مبحثه — رجالهم و (النساء) استوضحوا خبره
قد مد للناس من نعماه (مائدة) — عمت فليست على (الانعام) مقتصره
(اعراف) رحماه ما حل الرجاء بها — الا و (أنفال) ذاك الجود مبتدره
به توسل اذ نادى (بتوبته) — في البحر (يونس) والظلماء معتكره
(هود) و (يوسف) كم خوف به أمنا — ولن يروع صوت (الرعد) من ذكره
مضمون دعوة (ابراهيم) كان وفي — بيت الاله وفي (الحجر) التمس أثره
ذو أمة كَدَوِيٍّ (النحل) ذكرهم — في كل قطر فسبحان الذي فطره
(بكهف) رحماه قد لاذ الورى وبه — بشرى ابن (مريم) في الانجيل مشتهره
سماه طه وحض (الأنبياء) على — (حج) المكان الذي من اجله عمره
(قد افلح) الناس بالنور الذي شهدوا — من نور (فرقانه) لما جلا غرره
اكابر (الشعراء) اللسن قد خرسوا — (كالنمل) اذ سمعت آذانهم سوره
وحسبه (قصص) للعنكبوت أتى — اذ حاك نسجا بباب الغار قد ستره
في (الروم) قد شاع ما أمره وبه — (لقمان) وفق للدر الذي نثره
كم (سجدة) في طلى (الاحزاب) قد سجدت — سيوفه فأراهم ربه عبره
(سبا)هم (فاطر) السبع العلا كرما — لمن (بياسين) بين الرسل قد شهره
في الحرب قد (صفت) الاملاك تنصره — (فصاد) جمع الا عادي هازما (زمره)
(لغافر) الذنب في تفصيله سور — قد (فصلت) لمعان غير مختصرة
(شوراه) ان تهجر الدنيا (فزخرفها) — مثل (الدخان) فيعشي عين من نظره
عزت (شريعته) البيضاء حين اتى — (أحقاف) بدو وجند الله قد نصره
فجاء بعد (القتال) (الفتح) متصلا — واصبحت (حجرات) الدين منتصره
(بقاف) و(الذاريات) الله اقسم في — ان الذي قاله حق كما ذكره
في (الطور) ابصر موسى (نجم) سؤدده — والافق قد شق إجلالا له (قمره)
أسرى فنال من (الرحمان) (واقعة) — في القرب ثبت فيه ربه بصره

---

(57) علق أ. المقري على نسبة هذه القصيدة لأبي الفضل عياض بما يأتي : « .... وكثير من الناس ينسبها للقاضي الشهير عالم المغرب أبي الفضل عياض، وكنت أنا في أول الاشتغال ممن يعتقد صحة تلك النسبة، حتى وقفت على **شرح البديعية** الموصوفة لرفيقه أبي جعفر، فإذا هي منسوبة للناظم ابن جابر ». انظر **نفح الطيب**، 5 : 323 — 324، **وأزهار الرياض**، 4 : 253 — 254.

اراه اشياء لا يقوى (الحديد) لها ... وفي (مجادلة) الكفار قد نصره

في (الحشر) يوم (امتحان) الخلق يقبل في ... (صف) من الرسل كل تابع اثره

كف (يسبح لله) الحصاة بها ... فاقبل (اذا جاءك) الحق الذي قدره

قد ابصرت عنده الدنيا (تغابنها) ... نالت (طلاقا) ولم يصرف لها نظره

(تحريمه) الحب للدنيا ورغبته ... عن زهرة (الملك) حق عند من ذكره

في (نون) قد حقت الامداح فيه بما ... اثنى به الله اذ ابدى لنا سيره

بجاهه سال (نوح) في سفينته ... سفن النجاة وموج البحر قد غمره

وقالت (الجن) جاء الحق فاتبعوا ... (مزملا) تابعا للحق لن يذره

(مدثرا) شافعا يوم القيامة هل ... (اتى) نبي له هذا العلا ذخره

في (المرسلات) من الكتب انجلى (نبأ) ... عن بعثه سائر الاخبار قد سطره

الطافه (النازعات) الضيم في زمن ... يوم به (عبس) العاصي لما ذعره

اذ (كورت) شمس ذاك اليوم و (انفطرت) ... سماؤه ودعت (ويل) به الفجره

وللسماء (انشقاق) و (البروج) خلت ... من (طارق) الشهب والافلاك منتثره

(فسبح) اسم الذي في الخلق شفعه ... وهل (اتاك حديث) الحوض اذ نهره

(كالفجر) في (البلد) المحروس غرته ... و(الشمس) من نوره الوضاح مستتره

و (الليل) مثل (الضحى) اذا لاح في (الم ... نشرح لك) القول في أخباره العطره

ولو دعا (التين والزيتون) لابتدرا ... إليه في الحين (واقرا) تستبن خبره

في (ليلة القدر) كم قد حاز من شرف ... في الفخر (لم يكن) الانسان قد قدره

كم (زلزت) بالجياد (العاديات) له ... أرض (بقارعة) التخويف منتشره

له (تكاثُرُ) آيات قد اشتهرت ... في كل (عصر) (فويل) للذي كفره

(الم تر) الشمس تصديقا له حبست ... على (قريش)، وجاء الروح إذ امره

(أريت) أن اله العرش كرمه ... (بكوثر) مرسل في حوضه نهره

و(الكافرون) (اذا جاء) الورى طردوا ... عن حوضه فلقد (تبت يدا) الكفره

(اخلاص) امداحه شغلي، فكم (فلق) ... للصبح اسمعت فيه (الناس) مفتخره

ازكى الصلاة على الهادي وعترته ... وصبحه، وخصوصا منهم العشره

صديقهم عمر الفاروق احزمهم ... عثمان ثم علي مهلك الكفره

سعد سعيد زبير طلحة وأبو ... عبيدة وابن عوف عاشر العشره

وحمزة ثم عباس وآلهما ... وجعفر وعقيل سادة خيره (58)

---

(58) سقط هذا البيت من الأصل، والاكمال من النفح، 7 : 326، وأزهار الرياض، 4 :258.

| | |
|---|---|
| اولئك النـاس آل المصطفى وكفـى | وصحبـه المقتـدون السادة البـرره (59) |
| وفـي خديجـة والزهـرا ومـا ولـدت | ازكى مديحـي سأهـدي دائمـا درره |
| عن كل أزواجـه أرضى وأوثـر من | اضحت براءتها في الذكـر منتشره |
| اقسمت لا زلت اهديهم شذا مدحـي | كالـروض ينشـر من اكمامـه زهـره |

وحدثني شيخنا أبو العباس أحمد بن علي المنجور، أن عياضا لما جيء به مغلولا من سبتة إلى مراكش (60)

---

(59) سقط هذا البيت من الأصل، والاكال من **النفح**، 7: 326، و**أزهار الرياض**، 4 : 258.

(60) يناقض هذا الخبر ما أورده أبو عبد الله محمد بن القاضي عياض في كتابه **التعريف**، ص 98، اذ قال : « وله ــ رضي الله عنه ــ ما قاله ببلد داي عند توجهه لحضرة سيدنا أمير المؤمنين، أنشدنيه غير واحد ممن كان معه حين صنعه وأخذه عنه غير أنه ضاع لي منها بيت واحد.

| | |
|---|---|
| اقمريـة الادواح بالله طارحـي | أخـا شجـن بالنـوح أو بغنـاء |

الى آخر الابيات ........ ».

وما ذكره أحمد المقري في **أزهار الرياض**، 4 : 267، نقلا عن ابن رشيد، أنه قال هذه الابيات حين ولي القضاء بمدينة داي ببلاد تادلة سنة واحد وأربعين وخمسمائة.

**ملاحظة :**

يدخل هذا في إطار موقف القاضي عياض من النظام الموحدي نتيجة علاقاته السابقة مع النظام المرابطي، وهو موقف يرتكز على أسس دينية سياسية.

أ ــ مبررات موقفه الايجابي تجاه المرابطين :

1 ــ طابع الزهد والتقشف والبساطة التي كان يتسم بها النظام المرابطي، وهي صفات كانت بدون شك تجعل القاضي عياض السني يرتاح إليها كثيرا.

2 ــ دور الفقهاء والعلماء في تسيير دواليب الدولة إذ كان الأمراء يستشيرونهم باستمرار.

3 ــ قوة السلطة المرابطية نتيجة توحيدها لاقطار المغرب العربي والاعمال الجهادية التي قامت بها ضد البرغواطيين وضد المسيحيين بالاندلس.

ب ــ مبررات موقفه السلبي تجاه الموحدين :

من أهم مبررات موقفه تجاه الموحدين هو إن ما كان يدعيه الموحدون ويبثونه بين الناس (عصمة الامام، العلم بالغيبيات) كان لا يستقيم مع منطق العقيدة السنية التي ترفض عصمة أحد من الناس غير الأنبياء، كما أنها ترفض العلم بالغيب مما تكنه ضمائر الناس وما يخفيه الغد.

ومن هنا أيضا نفهم موقف القاضي عياض بوضوح من كتاب **الاحياء** للغزالي (الذي تتلمذ عليه مهدي الدعوة الموحدية ابن تومرت، إن عن طريق كتبه أو عن طريق الاتصال به مباشرة !) والذي خصص قسما من كتابه (لعلوم المكاشفة) وأشار إلى ذلك صراحة في كتابه **الشفا**.

فلما كانوا في اثناء الطريق في وادي يقال له داي [61]، فسمع قمرية تسجع فقال عياض عند سماعها :

---

= **الأحداث التاريخية :**

كان عبد المومن بن علي قد غزا سبتة ودافعه عنها القاضي عياض تأييدا منه للمرابطين، ولما قتل زعيمهم تاشفين بن علي وفتحت تلمسان وفاس واستفحل أمر عبد المومن بن علي بايعه أهل سبتة، وبادر القاضي عياض إلى لقاء عبد المومن فاجتمع به بمدينة سلا حين كان ذاهبا لفتح مراكش فأجزل صلته (**التعريف** لأبن القاضي عياض، ص 12)، وولي علي بن يوسف التينملي وساكن الموحدون أهل سبتة في ديارهم واطمأنوا إليهم، فلما انتفض المغرب على عبد المومن بسبب قيام محمد بن هود وما نشأ عن ذلك من الفتن والاضطرابات (**الحلل الموشية**، ص 146) انتفض أهل سبتة أيضا (وكان قيامهم عليهم برأي قاضيهم عياض، فقتلوا من بها من الموحدين وعمالهم وأحرقوهم بالنار، وركب عياض البحر إلى ابن غانية بالبيعة، وطلب منه واليا، فأرسل معه الصحراوي فدخلها وأقام بها أياما، فلما سمع برغواطة بخروج عبد المومن إليهم كتبوا إلى الصحراوي وإلى سبتة يستنصرون به، فأتاهم، فبايعوه واجتمعوا عليه وقاتلوا عبد المومن وهزموه، ثم كانت الكرة عليهم وهزمهم وقتلهم وسباهم، فهرب الصحراوي وراسل عبد المومن يطلب منه الامان، فأمنه وأتاه وبايعه وحسنت طاعته، فلما رأى ذلك أهل سبتة سقط في أيديهم وندموا على صنعهم وكتبوا بيعتهم إلى عبد المومن، وأتى بها أشياخ المدينة وطلبتها تائبين، فعفا عنهم وعن القاضي عياض...) (**القرطاس**، 191) وولاه القضاء بتادلا (ابن خلدون، 6 : 230، الناصري، 2 : 115) ثم دخل مراكش، ويقول ابنه في **التعريف**، ص 13 : (أمره — أي عبد المومن — بلزوم مجلسه، وأظهر تقريبه ومحبته، وكان يسأله فيستحسن جوانبه، فأقام على تلك الحال، ومنزلته تزداد عنده كل يوم سموا ورفعة إلى أن خرج — أدام الله تأييده — إلى غزوة دكالة، وخرج صحبته، فمرض بعد مسير مرحلة، فأذن له في الرجوع، فرجع إلى الحضرة فأقام بها مريضا نحوا من ثمانية أيام، ثم مات — عفا الله عنه — ليلة الجمعة — نصف الليل — التاسعة من جمادى الآخرة من عام أربعة وأربعين وخمسمائة ودفن بها في باب أيلان داخل السور... »
غير أن قضية وفاته ظلت غامضة ومثار كثير من التساؤلات، هل كانت وفاته عادية ؟ أم كانت بتدبير من النظام الموحدي.
فبحض الروايات الموحدية تزعم أن الغزالي بلغه رأي عياض في كتبه، فدعا عليه، فمات فجأة في الحمام يوم الدعاء عليه (**طبقات الشعراني**، 1 : 15)، وأخرى تقول أن المهدي هو الذي أمر بقتله بعد أن ادعى عليه أهل بلده بأنه يهودي، لأنه كان لا يخرج يوم السبت... فقتله المهدي لأجل دعوة الغزالي.
وبطبيعة الحال فهذه روايات لا تستقيم مع منطق التاريخ خاصة إذا علمنا أن الامام الغزالي توفي سنة 505 هـ في حين بقي القاضي عياض حيا الى غاية 544 هـ؟
ونختم القول برواية تتسم ببعض الحذر وهي رواية النباهي في **تاريخ قضاة الأندلس**، ص 95، اذ قال : « ... ومنهم كان القاضيان أبو بكر بن عبد الله بن العربي وأبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، فجرت عليهما محن وأصابتهما فتن، ومات كل واحد مغربا عن وطنه، محمولا عليه من سلطانه، وقال بعضهم : سم ابن العربي، وخنق اليحصبي... ».

**(61) داي : هو الاسم القديم لتادلا نظرا لمناخها غير الصحي والامراض العديدة التي كانت منتشرة بالمنقة، وقد =**

| | |
|---|---|
| أُقُمْرِيَّـــــةَ الأدواح بالله طارحــــــي | أخـــا شجـــن بالنـــوح أو بغنـــاءِ |
| فقـــد أرقتنـــي من هَدِيـــلِكِ رَنَّـــةٌ | تُهيِّـــجُ من بَرْحَـــي ومـــن بُرَحائـــي |
| لعـــلك مثلـــي يا حمـــام فإنننـــي | غريب بداي قد بَلِـــــــيتُ بداء |
| فكـــم من فلاة بيـــن داي وسبتـــةٍ | وخَــرْقٍ بعيـــد الخافقيـــن قَوَاءِ |
| تصفـــق فيهـــا للريـــاح لواقـــحٌ | كمـــا ضعضعتنـــي زفـــرة الصعـــداء |
| يُذكرنـــي سحُ [62] الميـــاه بأرضهـــا | دموعـــا أريـــقت يوم بنت ورائـــي |
| ويعجبنـــي في سهلهـــا وحزونهـــا | خمائـــــــل أشجـــــار ترف رواء |
| لعـــل الـــذي كان التفـــرق حكمـــه | وسيجمع منا الشمـل بعـد تنـاءِ [63] |

= عبر عند ذلك الحسن اليوسي في المحاضرات 142، عندما كان بمراكش قائلا :

| | |
|---|---|
| **ألا ليت شعـــري هل أبيتـــن ليلـــة** | **بسهب الشنيـــن أو بسهب بنـــي ورا** |
| **وهـــل تعبـــرن نهـــر العبيـــد ركائبـــي** | **وهـــل تتركـــن دايـــا وأواءهـــا ورا** |

وقال أيضا في الصفحة 143 :

« ونهر العبيد هو وادي العبيد المعروف، ومدينة داي هي المعروفة اليوم بالصومعة في تادلا، وإنما قال أدواؤها أي امراضها لانها كثيرة الأمراض والوخم.

ومن غريب ما اتفق لي في هذا البلد أني مررت به حين سافرت إلى ناحية مراكش في طلب العلم، فأصابتني الحمى منه، وذلك أول حمى أصابتني في عمري، ثم بقيت في تلك النواحي عدة سنين. فلما رجعت به أصابتني أيضا وكأنها كانت تنتظرني، ولذا كان من جملة التمني إن اترك هذه البلدة وامراضها ورائي بالمجاوزة إلى وطني ».

انظر أيضا م. حجي، **الحركة**، 2 : 504.

ولعل لصفتها هذه دورا في وفاة القاضي عياض، إذا أنه سوف يتوفى في سنة 544 هـ أي بعد سنة واحدة فقط من توليه قضاء تادلا.

(62) سح المياه : صب المياه الغزير المتتابع

(63) ورد في « ز » و « م » فقط البيتان الآتيان :

| | |
|---|---|
| **اقمريـــــــــة الادواح بالله طربي** | **أخـــا شجـــن بالنـــوح أو ببكـــاء** |
| **فكـم من فجـــاج بين داي وسبتـــة** | **وخـــرقٍ بعيـــد الخافـــقين سواء** |

وقد وردت الابيات في « ج » باستثناء البيت الأخير الذي ورد هكذا :

| | |
|---|---|
| **يذكـــر في سح الميـــاه بأرضهـــا** | **سيجمع منا الشمـــل بعـــد تنـــاء** |

وهو تصفيح، والتصويب من التعريف **بالقاضي عياض** لابي عبد الله محمد، ص 98 ــ 99، **وأزهار الرياض**، 267 ــ 268.

وانشدنيها أيضا الكاتب الأعظم أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي في يوم السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة عام ستة وتسعين [64] بباب اغمات بالمحلة المنصورية ..... [65] خروج مولانا إليها.

وعياض — رحمه الله تعالى — استقر اجداده في القديم بجهة بسطة [66] من بلاد الأندلس، ثم انتقلوا عنها إلى سبتة وانتماؤهم في يحصب، وبالأندلس طلب العلم بعد أن أخذ بسبتة عن مشيختها، وولي القضاء بغرناطة، توفي — رحمه الله تعالى — سنة أربع وأربعين وخمسمائة [67]، ودفن بمراكش المحروسة — رحمه الله —.

ومما نسب لابي الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم السلفي الاصبهاني [68] نزيل الاسكندرية، زمانه سنة سبع وعشرين وخمسمائة [69]، له :

**خير الاصاحب دفتر نادمته ... فوجدته نعم النديم المقتنى**
**يسلي همومي ثم أودع صدره ... سري فلا اخشى النميمة بيننا**
**فإذا سمحت به أضعت ذمامه ... سفها، وذلك عندنا بئس الثنا [70] ]**

ولابي محمد جعفر بن أحمد السراج اللغوي البغدادي [71] يمدح أهل الحديث :

**لله در عصابة ... يسعون في طلب الفوائد**
**يدعون اصحاب الحديث بهم حلت المشاهد**

---

(64) يوم السبت 22 ذي الحجة عام 996 هـ يوافق 23 نونبر 1588 م.
(65) بياض بالأصل.
(66) بسطة : تسمى حاليا (BAZA) وكان اسمها أيام الرومان (BASTI) وهي من اخريات المدن التي استرجعها الاسبان في ناحية وادي آش وذلك سنة 1489، ولا تزال بها إلى الآن آثار عربية وهي تبعد عن مدينة وادي آش بحوالي 48 كيلو مترا شرقا.
انظر محمد الفاسي، من **وحي البينة**،ص 110.
(67) 544 هـ توافق 1149 /1150 م.
(68) أنظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**،1 : 105 — 107، والمصادر بالهامش 44 من الصفحة 105 من نفس المصدر.
(69) 527 هـ توافق 1132 /1133 م.
(70) ما بين المعقوفين ورد متأخرا في « ج ».
(71) أنظر ترجمته عند أ.بن خلكان، **وفيات الأعيان**،1 : 357 — 358 رقم 135، و ج. السيوطي ،**بغية الوعاة**، 1 : 385 رقم 1000، وخ. الدين الزركلي، **الاعلام**،2 : 115.

طورا تراهـــــــم بالصعيـــــــــد وتـــارة في ثغـــر آمـــد
هم يبتغـــون من العلـــــو م بكـــــــل ارض كل شارد
فهـــم النجـــوم المقتــــدى بهـــم إلـــى سبـــل المقـــاصد [72]

ولبعضهم :

أرع الحديث وعظـم أهلـه أبـدا واعلـم بأن لهـم فيـه ولايـات
ان كنت تطلبـه قم فائت صاحبـه فالعلم يا سيـدي يوتى ولا يأتي [73]

ولآخر يحث على الرحلة في طلب الحديث :

علـم الحـديث فضيلـة تحصيلهـا بالسعـي والتطـواف في الامصار
فإذا اردت حصولهـا بأجـازة فقـد استعضت الصفـر بالدينـار [74]

وللشريف الدمياطي [75] :

علـم الحـديث له فضل ومنقبـة نال العـلاء به من كان مقتنيـا
ما جـازه كامـل الا ونقّصَـهُ أو حازه عاطـل إلا به خليـا [76]

ولابي الحسن الشيرازي [77] :

عليك بأصحـاب الحـديث فإنهـم على منهـج للديـن مازال مَعْلَمـا
ومـا النـور إلا في الحـديث واهلـه اذا ما دجا الليـل البهيـم وأظلمـا

---

(72) أنظر الأبيات عند ابن مرزوق،**المسند**، ص 152 ــ 153.
(53) أنظر البيتين في المصدر السابق، ص 153.
(74) أنظر البيتين عند أبي عبد الله العبدري، الرحلة المغربية، ص 111، وابن مرزوق،**المسند** ،ص 153.
(75) أنظر ترجمته عند م. بن شاكر الكتبي،**فوات الوفيات**،2 : 409 ــ 411 ، والمصادر بالهامش 308 من الصفحة 409 من نفس المصدر.
(76) أنظر البيتين عند أبي عبد الله العبدري، **الرحلة المغربية** ص 137، وابن مرزوق، **المسند**، ص 153. وقد أنشدهما الشريف الدمياطي نفسه للرحالة المغربي محمد العبدي عندما زاره بالقاهرة.
(77) يقصد ابن القصار. أنظر ترجمته عند م. بن مخلوف،**شجرة**92، وم. العابد الفاسي،**فهرس القرويين**،1 : 439 ــ 441.

واعلى المزايا من إلى السنن اعتزى	واخزى البرايا من إلى البدع انتمى
ومن ترك الآثار ضلل سعيه	وهل ترك الآثار من كان مسلما [78]

ولابي المظفر بن ابراهيم الكبيري يمدح البخاري :

صحيح البخاري واظب على	تحفظه واروه في المشاهد
فذاك المجرب درياقه	لدفع سموم افاعي الشدائد [79]

ولابي أمية اسماعيل بن عفير :

يا طالب الجمع بين الفقه والاثر	لقد طمحت إلى مرقى ذوي الأثر
ان شئت دون صريح انت ما خضه	ففي البخاري تلفى زبدة الخبر
بحر العلوم ولكن من صحائفه	اصدافه والمعاني فيه كالدرر
سهل المآخذ لا يحتاج ناظره	فيما افاد إلى استمداد دي نظر
شأن التألف اذا اربى مداه على (كذا)	ما طولت في وجير اللفظ مختصر
في أول الباب منه شرح آخره	واصرف نهاك إليه صرف مختبر
فلست تحرز كرعا في موارده	الا رويت ولم تشتق إلى الصَّدَرِ
يا حبذاه نجيا أن خلوت به	ناجيت بالفكر منه سيد البشر
لم يضطرب فيه استاذ ولا انحرفت	منه عبارة تأويل لمعتبر
جَرى الاله ابن اسماعيل جامعه	جزاء ماض على الآثار مقتصر [80]

حكى الدارقطني [81] أن زوجة ابن رواحة [82]. رأته على بطن سريته، فعاتبته فانكر، فالتمست منه القرآن لأن الجنب لا يقرأ، فقال هذه الابيات :

---

(78) انظر الأبيات في **فهرس** يحيى السراج ، ص 17 ، **ومسند** ابن مرزوق، ص 154.
(79) انظر البيتين عند ابن مرزوق ، **المسند** ، ص 154، وحمدون بن عبد الرحمان السلمي، **نفحة المسك الداري** ، الملزمة 15 صفحة 7.
(80) انظر الأبيات عند ابن مرزوق، **المسند** ، ص 154 .
(81) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان ، **وفيات الأعيان**، 3 : 297 ــ 299 والمصادر بالهامش 434 من الصفحة 297 من نفس المصدر .
(82) يقصد عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري (ت. 8 هجرية / 629م) من الخزرج ، صحابي ، يعد من الأمراء والشعراء، الراجزين، كان يكتب في الجاهلية، وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وكان =

شهـــــدت بأن وعـــــــد الله حق　　وأن النــــــار مثـــوى الكافرينــــــا
وأن العـــــرش فوق المـــــاء طاف　　وفـــوق العـــرش رب العالمينــــا
وتحملـــــــه ملائكــــــــة شداد　　ملائكـــــة الالـــــه مقربينــــــا

فقالت : آمنت بالله وكذب بصري، فأعلم النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بذلك، فضحك حتى بدت نواجذه .

وقيل أنشدها :

شهـــــدت بإذن الله أن محمـــــــدا　　رسول الـذي فوق السمـوات من عل
وان أبـــا يحيـــى ويحيـــى كلاهمــا　　له عمــــل من ربـــه متقبــــــل

وقيل انشدها:

وفينـــا رسول الله يتلـــو كتابــــه　　كما انشق مشهور من الصبح ساطع
اتى بالهـدى بعــد العمــى فقلوبنــا　　به موقنـــــات ان ما قال واقــــع
يـــبيت يجافــي جنبـــه عن فراشه　　كما استثقلت بالمشركين المضاجع (83)

قال بعضهم : الأول ليس لابن رواحة، وهو شهد إلى آخره.....

حكى المبرد عن اسحاق بن المفضل الهاشمي، قال : كانت لي جارية وكنت شديد الوجد بها، وكنت أهاب ابنة عمي فيها، فبينما أنا ذات ليلة على السرير، اذ عرض لي ذكرها فنزلت من اعلى السرير أريدها اذ ضربتني في طريقي عرقب، فرجعت إلى السرير مسرعا وأنا أتأوه، فانتبهت ابنة عمي وسألتني عن حالي فعرفتها أن عقربا لذغتني فقالت : أعلى السرير لدغتك العقرب ؟ فقلت : لا، قالت : فاصدقني الخبر، فأعلمتها، فضحكت، وأنشدت :

وداري إذا نـــــام سكانـــهـــــا　　تقيـــم الحـــدود بهـــا العقـــرب
إذا رام ذوو الحاجــــــة غفلــــــة　　فـــإن عقاربهــــا ترقــــــب

= أحد النقباء الاثنى عشر ، وشهد بدرا وأحد والخندق والحديبية. واستخلفه النبي ﷺ على المدينة في احدى غزواته .
انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 4 : 217، والمصادر بالهامش 2.

(83) انظر القصة عند الحصري، **جمع الجواهر**، ص 31، والصفدي ، **الغيث المسجم**، 1 : 78.

ثم دعت جواريها وقالت : عزمت عليكن ان قتلتن عقربا بقية هذه السنة [84].

وفي كل رمضان يختم بين يديه **صحيح البخاري** لأنه أول مصنف صنف في الصحيح، ورجح على سائر الكتب المصنفة فيه، وبعده في رتبة الصحة : **صحيح** مسلم بن الحجاج، وبعض المغاربة مع أبي علي النيسابوري فضلوا كتاب مسلم على البخاري، لو نفعهم تفضيلهم ، ولم يعما **الصحيح**، اعني : البخاري ومسلما. وقال ابن الأَخْرَم [85] : ما فاتهما منه إلا القليل، ورد هذا بقوله البخاري، احفظ من الصحيح مائة ألف حديث، ولعله أرادها مكررة، واماما في **صحيحه** من ذلك، فأربعة آلاف حديث غير مكررة، والمكرر فوق ثلاثة آلاف حديث بمائتين واثنين وسبعين حديثا على ما هو معهود عند اهل هذا الشأن، وفضائل هذا الكتاب شاعت قديما وحديثا بين الناس في المشرق والمغرب ــ نفع الله مولانا بنيته في ذلك ــ، وكثيرا ما تقرأ بين يديه كتب الحديث والتاريخ والسير والفقه وغير ذلك من أنواع العلوم، عاكف منكب على هذا وهو دأبه في كل وقت غير الأوقات التي ترجع إلى قيامه بشؤون رعيته وما يجب عليه من حقوق نسوته كما هي السنة ــ زاده الله حرصا على الطاعات، وعلى القيام بمعالم الطيبات ــ، ولقد حدثني بعض من اثق به أنه ــ ايده الله ــ في شهري رجب وشعبان يعتكف على تلاوة القرآن وأنواع العبادات.

وجاء فيما ورد في ذلك من الثواب : « وليصلها برمضان المعظم » ــ عامله الله بأحسن مما يعامل به ــ.

ولمحمد بن صالح بن أحمد الكناني الخطيب [86]، أصله من الاندلس واستوطن بجاية، كان عالي الرواية، عالما بالنحو والأدب واللغة، له :

**جعلت كتاب ربي لي بضاعة ... فكيف أخاف فقرا أو أضاعهْ**
**وأعددت القناعة رأس مالي ... وهل شيء أعز من القناعهْ**

حكي عن الاستاذ أبي سعيد بن لب [87] شيخ الخطابة والفتوى بغرناطة [88]، توفي

(84) انظر القصة عند الصفدي، **الغيث المسجم**، 2 : 3.
(85) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 8 : 17.
(86) انظر ترجمته عند أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص 104، والبيتان مثبتان مع الترجمة .
(87) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **درة**، 3 : 265 ــ 268 رقم 1317 **لقط**. ص 220، والمؤلف المجهول، **طبقات المالكية**، ص 425.
(88) غرناطة : اختلفت آراء الباحثين في أصل هذه التسمية، فيرى البعض أن اسم غرناطة يرجع إلى عهد =

سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة (89)، أنه لما انقطع إلى الله تعالى وتحير أمره في أي شيء يلزم به نفسه من أنواع العبادة، فرأى قائلا ينشده هذا البيت :

**اذا الاحبـــاب فاتهـــم التلاقـــي فمـــا صلـــة بأفضل من كتـــاب**

وبعده :

**وان ورد الكتـــاب علـــى صديـــق فحـــــق واجب رد الجـــــواب**

ففهم عن الله أنه أراد منه تلاوة القرآن ــ رحمة الله عليه ــ، وما عسى أن أذكر من مآثره ــ أيده الله تعالى بمنه ــ، والله الموفق.

---

= الرومان وأنه مشتق من الكلمة الرومانية (اللاتينية) Granata ، ومعناها الرمانة، وأنها سميت كذلك لجمالها وكثرة حدائق الرمان التي كانت تحيط بها (العلامة زيبولد في Ency. de l'Islam تحت كلمته (Grenade). وهذا ما يقرره الجغرافيون العرب إذ يقولون : إن معنى غرناطة الرمانة بلسان عجم الأندلس، سمي البلد بذلك لحسنه (انظر معجم ياقوت تحت كلمة غرناطة)، ويرى المستشرق الاسباني (سيمونيت) في ذلك رأيا آخر، إذ يقول أن المرجح أن الاسم يرجع إلى عهد القوط، وأنه مزيج من كلمة «ناطة»، وهم اسم قرية قديمة كانت تقع على مقربة من البيرة و «غار» والمقطع الذي أضافه إليها المسلمون فصارت غرناطة، أو سماها البربر كذلك عند نزولهم بها وهو اسم لاحدى قبائلهم .
انظــر :

— Simonet : Descripcion de Reino de Granada, Granada, 1872, pp. 40 — 41.

وهي تقع في وادي عميق، تمتد من المنحدر الشمالي الغربي لجبال سيرانيفادا، ويحدها من الجنوب نهر شنيل رافد الوادي الكبير، ويخترق رافده المدينة في الوسط، وإلى يمينه يقع حي «البيازين» وتقع قصبة الحمراء في الناحية الأخرى .

وقد سقطت غرناطة بالتسليم في يد الملكين الكاثوليكيين : فرناندو، وايزابيلا في 2 ربيع الأول عام 897 هـ الموافق 2 يناير 1492، وهي خاتمة الفتوح التي توجت فتوح الاسترداد (La Reconquista) لذلك تحظى غرناطة بمنزلة خاصة في نفوس الاسبان، وكذا في التاريخ الاسباني، فهي المرقد الأبدي لفاتحيها الكاثولكيين، ولهذا حباها ملوك الاسبان برعايتهم وفي مقدمتهم الامبراطور شرلكان الذي أسس جامعتها الشهيرة .

وغرناطة اليوم ولاية ومدينة، فهي تشمل مساحة قدرها 5000 ميل مربع يحدها البحر من الجنوب ومن الشمال ولاية قرطبة وولاية جيان، ومن الشرق ولايتا المرية ومرسية، ومن الغرب ولاية مالقة، وتخترقها جبال سيرانيفادا، ويرويها كل من نهر الوادي الكبير ورافده نهر شنيل، وجوها حار ولا سيما في الوديان المنخفضة وباردة في التلال وتربتها خصبة جدا ولا سيما في الغرب والجنوب، ويبلغ سكان الولاية 1.500.000 نسمة، تقريبا، ويتبعها من المدن وادي آش، واشكر، وشلو بانية، واجيجر، وبسطة، ومترايل، والحامة، وستنافيه، ولوشة، وحصن اللوز، ومونتي فريو، والمنكب، وأرجية، وغرناطة المدينة اليوم تنقسم إلى ثلاثة أقسام هي :

انتكيرويلا، وغرناطة، والبيازين، وهي مدينة زراعية صناعية، يبلغ عدد سكانها اليوم 150.000 نسمة، وتمتاز بكثرة منشآتها العلمية والفنية. وقد تأسست جامعتها عام 1531 في عصر الامبراطور شرلكان وبارك المشروع البابا كليمنت السابع، وأصدر مرسوما بإنشاء الجامعة .

(89) 782 هـ توافق 1380 / 1381 م.

# الباب الخامس عشر :

## * في طهارة مجالسه العظيمة
## مما هو مذموم من الغيبة والنميمة

أما هما فمحرمان بإجماع الأمة، قال الله تعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضا » [1]، و «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» [2]. وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » [3]، وعن أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عرج بي ربي ــ عز وجل ــ مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخدشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم » [4]، وعنه ﷺ : « إن الغيبة لتفسد الايمان كما يفسد الصَّبِر العسل » [5]، وفي **الصحيح** : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » [6]، متفق عليه، وعنه ﷺ : « من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة » [7]، وعنه ﷺ :

---

* يحمل هذا الباب في « م » رقم 14، وهو خطأ واضح، إذا انه كرر رقم 14 مرتين، مرة في الباب السابق والمرة الثانية في هذا الباب، ونتج عن ذلك أن الأبواب اللاحقة في « م » ستحمل أرقاما ليست هي أرقامها الحقيقية، وهكذا فالباب 15 مثلا سيكون هو الباب 16، والباب 16 سيكون هو الباب 17 وهكذا.....

(1) الآية 12 من سورة الحجرات.

(2) الآية 18 من سورة ق.

(3) أخرجه البخاري في **الصحيح**، 7 : 104، ومسلم في **الصحيح**، 1 : 49، وكلاهما عن أبي هريرة.

(4) أخرجه أبو داود في **السنن**، 4 : 269 ــ 270، عن أنس بن مالك.

(5) أخرجه الديلمي في **مسند الفردوس** باللفظ الآتي : « الحسد يفسد الايمان كما يفسد الصبر العسل ». انظر المتقى الهندي، **منتخب كنز العمال**، 1 : 266.

(6) أخرجه البخاري في **الصحيح**، 1 : 8، ومسلم في **الصحيح**، 1 : 48.

(7) أخرجه البخاري في الصحيح، 7 : 184، عن سهل بن سعد.

« إذا قلت في أخيك ما فيه مما يكره فقد اغتبته، وإن قلت ما ليس فيه فذلك البهتان » [8].

وقال عدي بن حاتم [9] : الغيبة مرعى اللئام، ولهذا قال بعضهم :

احـذر الغيبـة فهـي الـ ... فسق لا رخصة فيـه
إنمـا المغتـاب كالـ ... آكـل من لحـم أخيـه [10]

وقيل : أول من اغتاب إبليس اغتاب آدم.

قال محمد بن حرب [11] : أول من عمل الصابون سليمان، وأول من عمل السويق ذو القرنين، وأول من عمل [الحيس] [12] يوسف، وأول من خبز الجرادق نمروذ، وأول من كتب في القراطيس الحجاج، وهو أول من بنى المدائن في الاسلام.

ولمحمود الوراق :

تحـر من الطُّـرْق أوسطهـا ... وعـد عن المـوضع المشتبـه
وسمـعك ضن عن سمـاع القبيـح ... كصون اللسـان عن القـول به
فإنك عنـد استمـاع القبيـح ... شريك لقائلـه فانتبـه [13]

فمجالس مخدومنا مطهرة — والحمد لله — من هذه النقيصة الذميمة، والخصلة اللئيمة، حتى أنه — أيده الله — من شيمته ألا يقبل غيبة في أحد من خلق الله تعالى.

وأما النميمة فقد جاء في ذمها مالا يحصى كثرة من الآي والأحاديث.

قال تعالى : « ولا تطع كل حلاف مهين » [14]، « هماز مشاء بنميم — الآية » [15].

---

(8) أخرجه باختلاف يسير في اللفظ : مسلم في **الصحيح**، 8 : 21، وأبو داود في **السنن**، 4 : 269 ومالك في **الموطأ**، ص 698 رقم 1808، والترمذي في **السنن**، 3 : 126، وكلهم عن أبي هريرة.

(9) انظر ترجمته عند خ، الدين الزركلي، **الاعلام**، 5 : 8، والمصادر بالهامش 2.

(10) انظر البيتين عند ابن مرزوق، **المسند**، ص 172.

(11) عند الابشيهي في **المستطرف**، 1 : 83، محمد بن حزم.

(12) بالأصل القراطيس والتصويب من المصدر السابق، نفس الصفحة.

(13) انظر الأبيات في **المسند**، 172.

(14) الآية 10 من سورة القلم.

(15) الآية 11 من سورة القلم.

[والهماز : المغتاب، الذي يأكل لحوم الناس، الطاعن فيهم.
وقال الحسن البصري ــ رضي الله عنه ــ : هو الذي يغمز بأخيه في المجلس وهو من اللمزة [16].

وقال علي والحسن البصري ــ رضي الله عنهما ــ : العتل الفاحش : السيء الخلق.

قال ابن العباس : العتل الفاحش : الشديد المنافق.

وقال الكلبي : الشديد في كفره.

وقيل : الشديد الخصومة.

والزنيم : هو الذي لا يعرف من أبوه ؟

قال الشاعر :

**زنيــــم ليس يعــــرف من أبـــوه بغــــيّ الأم ذو حسب لئيــــم** [17]

وفي **الصحيحين** ــ البخاري ومسلم : « لا يدخل الجنة نمام » [18].
وينبغي لكل من حملت نميمة إليه وقيل له : قال فيك فلان كذا الا يصدق من نم إليه، لأن النمام فاسق وهو مردود الخبر، وأن ينهاه عن ذلك وينصحه ويقبح فعله ويبغضه في الله فإنه بغيض عند الله، والبغض في الله واجب، وإن لا يظن بالمنقول عن السوء (كذا) لقوله تعالى : « اجتنبوا كثيرا من الظن » [19]، روي أن النبي ﷺ قال : ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله، قال : من شراركم المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون العيوب [20].

وأما السعاية للسلطان فهي الخصلة المهلكة، والفعلة الحالقة، لأنها تجمع الخصال الذميمة، من الغيبة والنميمة، وتزيد بالتغرير بالنفوس والأموال، وخلاء المنازل وتبديد الشمل والأحوال، وتسلب العزيز عزه وتحط المكين من مكانته، فليتق الله ربه رجل ساعدته الأيام أن يصغي لساع أو يستمع لنمام [21].

---

(16) **المستطرف**، 1 : 84.
(17) **المستطرف**، 1 : 84.
(18) أخرجه البخاري في **الصحيح**، 7 : 86، ومسلم في **الصحيح**، 1 : 71، بلفظ قتات عوض نمام.
(19) الآية 12 من سورة الحجرات.
(20) أخرجه أحمد بن حنبل في **مسنده**، 6 : 459، عن أسماء بنت يزيد.
(21) **المستطرف**، 1 : 84 ــ 85.

ولصالح بن عبد القدوس (22) :

| | |
|---|---|
| قل للــذي لست أدري من تلونــــه | أنـاصح أم علــى غشٍّ يداجينـــي |
| إنـي لأكثـر ممـا سمتنــي عجبـا | يد تشج وأخـــرى منك تأسونـــي |
| تغتابنــي عنــد أقــوام وتمدحنـــي | في آخريــن وكـــل منك يأتينـــي |
| (هـــذا شيئـــان قد نافــيت بينهمـا | فاكفف لسانك عن ستمي وتزييني) (23) |

وكان الفضل بن سهل (24) يبغض السعاية، وإذا أتاه ساع قال له : إن صدقناك أبغضناك، وإن كذبناك عاقبناك، وإن استقلتنا أقلناك.

| | |
|---|---|
| من نم في النـاس لم تومن عقاربـــه | على الصديق ولـم تؤمـن أفاعيـــه |
| كالسيـل بالليـــل لا يدري به أحـــد | من أيـن جاء ولا من أيـن يأتيـــه |
| الويـل للعهـد منـــه كيــف ينـــقضه | والويـل للود منه كيـف يفنيـــه] (25) |

« ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » (26)، وعنه ﷺ : « لا يدخل الجنة نمام » (27)؛ متفق عليه، وعن ابن عباس ـــ رضي الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، بلى، إنه كبير، اما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من البول » (28) ؛ متفق عليه.

---

(22) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 2 : 492 ـــ 493 رقم 303، وم. بن شاكر، **فوات الوفيات**، 2 : 116 ـــ 117 رقم 197.

(23) ما بين القوسين سقط من « م »، وقد ورد الشطر الأول من البيت هكذا : (هذا شيئان شتي منهما) وهو تحريف، والتصويب من **المستطرف**، 1 : 85. وانظر أيضا الراغب الاصبهاني، **محاضرات الأدباء**، 1 : 291، والاسحاقي، **لطائف أخبار الأول**، مخطوط غير مرقم.

(24) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 4 : 41 ـــ 44، والمصادر بالهامش 529 من الصفحة 41 من نفس المصدر.
وانظر القولة في **المستطرف**، 1 : 85.

(25) ما بين المعقوفين سقط من « ز »، وانظر الأبيات الأخيرة في **المستطرف**، 1 : 85. وقد نسب الراغب الاصبهاني البيت الأول لابراهيم بن المهدي، انظر **محاضرات الأدباء**، 2 : 399.

(26) الآية 18 من سورة ق.

(27) أخرجه البخاري في **الصحيح**، 7 : 86، ومسلم في **الصحيح**، 1 : 71، بلفظ قتات عوض نمام.

(28) أخرجه البخاري في **الصحيح**، 2 : 103، ومسلم في **الصحيح**، 1 : 166 وكلهم عن ابن عباس.

والنميمة هي الافساد بالقول بين الناس، وشي للاسكندر واش فقال له : إن شئت قبلناك على صاحبك بشرط أن نقبله عليك، وإن شئت أقلناك فقال له : أقلني، قال : أقلناك على أن تكف عن الشر يكف عنك الشر.

قال الزاهد أبو بكر بن الوليد [29] : من العجب الذي لا عجب بعده أن الرجل يشهد عندك في تافه فلا تقبله حتى تسأل عنه، هل هو من أهل الثقة والعدالة والأمانة أم لا ؟ ثم ينم لك بحديث فيه هلاك وفساد فتقبله، وفي المثل السائر : من أطاع الواشي ضيع الصديق.

ومولانا — أيده الله — لم يقبل نميمة في أحد من خدمته قط، ويقول : اعلم واحق أن ذلك من الحسد.

ولبعضهم :

**بنو الدنيا يجهل عظموها وجلت عندهم وهي الحقيرَهْ**
**يهارش بعضهم بعضا عليها مهارشة الكلاب على العقيره [30]**

ومما جاء في النمام والكذاب ما لمحمود بن مروان بن أبي الجنوب [31]، وقيل إن هذين البيتين لمنصور بن تميم، المتوفى سنة ست وخمسين وثلاثمائة [32] :

**لي حيلة فيمن ينم وليس في الكذاب حيلة**
**من كان يخلق ما يقول فحيلتي فيه قليلة [33]**

---

(29) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 4 : 262 — 265 رقم 605، وأ. بن فرحون، **الديباج المذهب**، 2 : 244 — 248، رقم 43، وابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، 3 : 162 وأ. المقري، **نفح**، 2 : 85 — 90 رقم 46، **أزهار الرياض**، 3 : 162.

(30) البيتان لابن السادة. انظر أ. الشريشي، **شرح مقامات الحريري**، 1 : 36.

(31) في **المستطرف** : ابن أبي الجنود (بالدال بدل الباء).

(32) 356 هـ توافق 966 م / 967 م.

(33) تسبهما أ. بن خلكان في **وفيات الأعيان**، 6 : 172 — 173، إلى أبي عبد الله محمد بن منيع. وانظر أيضا أ. المقري، **أزهار الرياض**، 1 : 14، و **المستطرف**، 2 : 8، والمسند، 177.

ولبعضهم :

لا تقبلـــن نميمـــة من قائـــل ... وتحفظـــن من الـــذي انباكهـــا
إن الـــذي أهـــدى إلـــيك نميمـــة ... سينـم عنك بمثلهـــا قد حاكهـــا [34]

ومما قيل في الصدق :

علـــيك بالصدق ولـــو أنـــه ... أحـــرقك الصدق بنـــار الوعيـــد
وابغ رضى الله فأغبـــى [35] الـــورى ... من أسخـط المولـــى وأرضى العبيـــد

ولبعضهم :

لا يكـــذب المـــرء إلا من مهانتـــه ... أو فعلـــه السوء أو من قلـــة الأدب
لمص جيفـــة كلب خيـــر رائحـــة ... من كذبة المرء في جد وفي لعب [36]

ولصالح بن عبد القدوس :

من يخبـــرك بشتـــم عن أخ ... فهـــو الشاتـــم لا من شتـــمك
ذاك شيء لم يواجـــــهك به ... إنما اللـــوم علـــى من أعلـــمك [37]

ولآخـــر :

إن يعلموا الخيـر أخفوه وإن علمـــوا ... شرا أذاعوا، وإن لم يعلموا كذبوا [38]

---

(34) المسند، 177.

(35) في « م » : فاعيا، وانظر البيتين في **المستطرف**، 2 : 7.

(36) **المستطرف**، 2 : 9.
وقد وردت كلمة (لبعض) بدل (لمص).

(37) **المستطرف**، 1 : 86.

(38) انظر البيت عند م، الوشاء، **الموشى**، ص 11، و**المستطرف**، 1 : 86.

ولآخـــــر :

**إن يسمعوا ريبة طاروا بهـا فرحـا، منى، وما سمعوا من صالح دفنوا** [39]

وقال الحسن : ستر ما عانيت أحسن من إشاعة ما ظننت [40]، وقال عبد الرحمن بن عوف [41] — رضي الله عنه — : من سمع بفاحشة فأفشاها فهو الذي أتاها.

سئل كعب الأحبار عن السلطان فقال : ظل الله في أرضه من ناصحه اهتدى، ومن غشه ضل.

وأما الغيبة والنميمة في الكفار وأهل الشرك إذا كان لهم قرب من الملك فلا تحرم لأنهم قد يدسون في السلطان شيئا لا يصلح بالمسلمين فيطمئن لقولهم، فيفسد الاسلام بذلك، بل يجب عليه أن يتحفظ منهم جهده ولا يجعل لأحد من أهل الحرب من نفسه موطنا. ولا يتركهم يطيلون الاقامة في أرضه لئلا يطلعوا على غرات المسلمين وعوراتهم.

ومن هذا المعنى ما حكي عن أبي بكر الطرطوشي — رحمه الله — مع بعض ملوك عصره، وقد أعمل يهوديا، بل أوزره، وكان اليهودي يسعى في إذاية المسلمين حتى بلغ به حاله إلى إذاية الشيخ، فدخل على الملك في صورة الغضب، فوجد اليهودي جالسا، فأنشده الشيخ :

**يا ملكـا طاعتـه لازمـه وحبـه مفتـرض واجب**
**إن الـذي شرفت من أجلـه يزعـم هذا انـه كاذب**

ثم قال له : سله عن مصداق ما أقول، فاشتد غضب الأمير على اليهودي وأمر بسجنه وضربه حتى مات [42].

ومثل هذه الحكاية حدثني بها شيخنا أبو راشد أن السلطان أبا محمد عبد الحق بن أبي سعيد المريني استوزر يهوديا، ثم انه ذات يوم أمسك امرأة من أهل « البيت » وأخذ في

---

(39) **المستطرف**، 1 : 86.
(40) نفس المصدر والصفحة.
(41) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 4 : 95. وانظر الأثر في **المستطرف**، 1 : 86.
(42) وردت القصة بشكل مغاير عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 4 : 262 — 263، وابن الأزرق، **بدائع السلك**، 2 : 553، وتتفق رواية **المنتقى** مع رواية **المستطرف**، 1 : 91، والمسند، ص 253.

ضربها بين يديه وهي تقول : أنا في كفالة جدي رسول الله ﷺ فلم يكف عنها، ويقول لها : ادعيه ليخلصك من يدي، فبلغ ذلك لخطيب القرويين أبي فارس عبد العزيز الورياغلي (43)، فاشتد غضبه وثار من حينه مع العامة سنة تسع وستين وثمانمائة على السلطان، فخلعه وبايعوا لمزوار الشرفاء بها محمد بن علي بن عمران الجوطي (44).

لكن هذا لا يحل فعله وإن صدر من أبي فارس المذكور، لأن الشيخ الولي الزاهد الناسك : أبا العباس أحمد زروق (45) ترك الصلاة خلفه لهذا، ويقول : عبد العزيز الغندور ــ أي الشجاع ــ لا تجوز الصلاة خلفه. توفي أبو العباس سيدي أحمد زروق سنة تسع وتسعين وثمانمائة (46)، وقد أقام في الخلافة الشريف الحفيد مدة، ثم عادت لربها، وحكاية هذا مشهورة فلا نطيل بذكرها. والخطيب أبو فارس هو : أبو فارس عبد العزيز بن موسى الورياغلي صاعقة الأرض، توفي سنة ثمانين وثمانمائة (47).

---

(43) انظر ترجمته عند أ. بن القاضي، **درة**، 3 : 127 ــ 128 رقم 1070، **جذوة**، 1 : 452 رقم 459، **لقط**، ص 266.

(44) قام آخر ملوك المرينيين عبد الحق بن أبي سعيد المريني بمذبحة رهيبة ضد الوطاسيين، وأسند الوزارة إلى اليهوديين : هارون وشاويل انتقاما من أهل فاس الذين تأكد انحرافهم عنه، فساءت سيرة اليهوديين وكثر تعسفهما، ومصادرتهما لأموال تجار المسلمين، وانتهى الأمر بثورة شعبية قضت على حياة اليهوديين وعبد الحق جميعا (869 هـ / 1465 م)، وبويع الشريف الادريسي محمد بن علي بن عمران الجوطي، لكن إمارة الأدارسة لم تدم طويلا إذ سرعان ما قام محمد الشيخ الوطاسي الناجي من المذبحة يدعو لنفسه في أصيلا ثم في فاس، فكانت له ولابنه من بعده السلطة، وقد قامت في العصر الوطاسي حملات عنيفة ضد اليهود قام بها على الخصوص الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي في مطلع القرن العاشر / السادس عشر الميلادي، والذي استنكر سيطرة اليهود على الاقتصاد وما خولهم من شفوف ودالة على رجال السلطة، وقد ألف في ذلك كتابه المسمى : **ما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار**، وظلت بعض أفكار المغيلي يتردد صداها في المغرب طوال العهد السعدي فكان أبو القاسم بن خجو في الريف، وعبد الله بن علي بن طاهر الحسني في تافيلالت وغيرهما من العلماء الذين يرون رأي المغيلي.
انظر **تاريخ الجنابي**، ص 510، **الاستقصا**، 4 : 99، والعباس بن إبراهيم، الاعلام، 8 : 41 ــ 44، وم. حجي، **الحركة**، 1 : 268 ــ 270.

(45) انظر ترجمته في **فهرسه**، مخطوط م. ع، بالرباط عدد 3185 ك ضمن مجموع (من الصفحة 57 إلى الصفحة 96)، وعند م. بن عسكر، **دوحة**، ص 48 ــ 51 رقم 33، وأ. ابن القاضي، **جذوة**، 1 : 128 ــ 131 رقم 66، **درة**، 1 : 90 ــ 91 رقم 126، وشمس الدين السخاوي، **الضوء**، 1 : 222، وأبابا، **نيل**، ص 84، وم. بن مريم، **البستان**، ص 45 ــ 50، وعبد الله كنون، **النبوغ**، 1 : 207 ــ 208، سلسلة ذكريات مشاهير المغرب، العدد 23، ومحمد بن شقرون، **مظاهر الثقافة المغربية**، ص 75 ــ 77 وكذلك كتابه بالفرنسية :

— La vie intellectuelle marocaine, PP. 373-384.

(46) 899 هـ توافق 1493 / 1494 م.

(47) 880 هـ توافق 1475 / 1476 م.

واليهودية في القديم كانت في حِمْيَر قبل الاسلام، وكانت اليهودية أيضا في بني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة، والنصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة، وكانت المجوسية في تميم، وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الجزيرة. قيل : أول من غير الحنيفية عمرو بن لُحَيّ أبو خزاعة [48]، وهو أنه رحل إلى الشام فرأى العماليق تعبد الأصنام، فأعجبه ذلك فقال : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها ؟ قالوا : هذه أصنام نستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا فقال : أعطوني منها صنما أسير به إلى أرض العرب فيعبدوه، فأعطوه صنما يقال له : هبل، فقدم به مكة، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه [49].

واعلمْ أن النميمة تفسد الدول وتخرب الملك، وتفسد القلوب، ومن استقرى هذا علمه، فإذا كانت مفسدة للبواطن فأحرى الظواهر لأنها توابع لها، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(48) انظر ترجمته عند خ. الدين الزركلي، **الاعلام**، 5 : 257.
(49) **المستطرف**، 2 : 88.

# الباب السادس عشر :

## * في اقالته العثرات
## وعفوه وصفحه عن أكابر السيئات

---

* يحمل هذا الباب رقم 15 في « م »، وهو خطأ واضح، وذلك نتيجة للملاحظة السابقة أي تكراره رقم 14 بمرتين.
وقد سقط الباب بأتمه من « ج »، إذ يوجد بعد الباب الخامس عشر مباشرة بياض بمقدار 4/3 الصفحة وكتب فيها : « ها هنا سقط في النسخة المنسوخ عنها ».

أما فضيلة هذه المنقبة العظيمة فمعلومة عند كل أحد. قال الله تعالى : « ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة » [1]، وفي **الصحيح** عنه ﷺ انه قال : لا يستر عبد عبدا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة » [2]، ولبعض الحكماء : من ستر عورة أخيه ستر الله عورته.

اما مخدومنا أيده الله تعالى فهو الحظ الناس وأشدهم حياء وأرعاهم لذوي البيوتات وأشدهم اقالة بذوي العثرات، وهو متصف بهذا ظاهر للعيان، ويعلمه الخصوص والأعيان، ومن هذا المعنى أن بعض الناس وشي به عنده، وقيل عنه أنه مشتغل بأمور لا تليق في جانب السلطان — أبقى الله وجوده، وأدام سعوده — فاشتد خوفه لذلك وكان ببلاد الكفرة، فاجتمعت به حال اسري وذكر لي من أمره وخوفه من المخدوم — أيده الله تعالى ما هزه اهتزاز الورَق، وأذاب أكباده من الفَرَق، فأمنت روعته، وأسكنت غرته، وأعلمته بما لمولانا من الفضل والحلم والاغضاء والتجاوز عن الزلات، وعدم مؤاخذته بالسيئات، وانه ممن لا يقبل الغيبة والنميمة في أحد، فسكن حينئذ خوفه، وذهب حزونه وأرقه، فكاتبت مولانا — أيده الله — من بلاد العدو في شأن الرجل، فأمن روعته، وستر عورته، وعامله — أبقاه الله — بعد وصوله إليه بمعاملة جميلة، وراعاه أحسن مراعاة وقضى حوائجه كلها، والرجل المذكور هو الواسطة بيني وبين النصارى في خلاصي من ربقة

---

(1) الآية **19** من سورة النور.
(2) أخرجه مسلم في **الصحيح**، 8 : 21، عن أبي هريرة.

الاسر بمال المخدوم ـــ أيده الله تعالى ـــ.

فها أنا حسنة من حسناته، وما أنا في حسناته إلا واحد من جم، أو نقطة من يم، فانظر إلى عظمة هذا الملك ـــ أعلى الله مقامه، وجعل أعيادا لياليه وأيامه ـــ. ومن هذا النمط : قضية أبي عبد الله محمد بن أبي زيد عبد الرحمان سقين شيخ شيخه رضوان بن عبد الله الجنوي المتقدم ذكره، كان قد ولاه خطة النظارة على مال الأحباس بمراكش المحروسة وبقي في الخطة المذكورة أعواما، ثم أن قاضي الجماعة أبا القاسم بن علي الشاطبي أعلم المخدوم ـــ أيده الله ـــ بأمور توجب عزله من عدم قيامه بالأحباس وانه أضاع الأموال وبددها في غير وجهها وقد ترتب في ذمته منها ما ينيف على الخمسين ألفا. فلما علم بذلك ووقف على صحته، لم يحاسب الرجل حياء منه لكونه ابن شيخ شيخه، فتجاوز عند وأبقاه على ديوان الرماة، لأنه كان بيده قبل ولم يواجهه بقبيح ولا جعل السبيل لا حد عليه بمحاسبته أو غيرها إلى الآن ـــ أبقى الله وجوده للمسلمين بمحمد وآله ـــ.

ومن هذا المعنى كثير لو تتبعته واحدا واحدا لطال الديوان، والمقصور انتهاز الفرصة من مآثره الجميلة، ومفاخره الجليلة، وما منعه من مثل ما تقدم، أي المؤاخذة، إلا الحياء والستر على الناس ـــ عامله الله بكل جميل بأعضائه وستره على رعيته ـــ.

هكذا هكذا والا فلالا

فانظر إلى هذه المنقبة العظيمة، والخصلة الكريمة، التي اختارها الله إليه، وجعلها مقصورة عليه.

# الباب السابع عشر :

## * في قبوله المعذرة
## وعفوه بعد المقدرة

---

* يحمل هذا الباب رقم 15 في « م » وهو خطأ واضح وذلك نتيجة الملاحظة السابقة، أي تكراره الرقم 14 مرتين. وفي « ج » يحمل الباب رقم 18 وهو خطأ واضح كذلك ويرجع هذا، بالنسبة لنسخة « ج »، إلى البياض الموجود مباشرة بعد الباب الخامس عشر، إذ يبدو أن الناسخ لم يستطع أن يحدد بالضبط عدد المفقود من الأبواب، فقدرها ببابين عوض باب واحد.

أما هذه الخصلة العظيمة فقد روي فيها فضل عظيم، فمن ذلك ما روي عنه ﷺ انه قال : « من اعتذر إليه أخوه المسلم فليقبل معذرته ما لم يعلم كذبه » [1]، والآثار في الباب كثيرة، وعنه ﷺ : « ألا أنبئكم بشراركم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله، قال : من لا يقيل عثرة، ولا يقبل معذرة، ألا أنبئكم بشر من ذلكم ؟ قالوا : بلى، قال : من يبغض الناس ويبغضونه » [2].

وقال علي ــ رضي الله عنه ــ « الصحبة اقالة العثرة، ومسامحة العشرة، والمواساة في العسرة ».

وللبحتري [3] :

**اقبل معاذير من يأتيك معتذرا ... أبر فيما أتى من ذاك أو فجرا**
**فقد اطاعك من يرضيك ظاهره ... وقد أحبك من يعصيك مستترا**

ولبعضهم :

**وما كنت أخشى أن تُرى لىَ زلةٌ ... ولكنْ قضاء الله ما عنه مهربُ**
**إطا اعتذر الجاني محا العذر ذنبه ... وكل امرىء لا يقبل العذر مذنب [4]**

---

(1) أخرجه الطبراني في **المعجم الكبير**، والبيهقي في **شعب الايمان** باللفظ الآتي :
« من اعتذر إليه أخوه بمعذرة فلم يقبلها منه كان عليه من الخطيئة مثل صاحب مكس ».
انظر الجلال السيوطي، **الجامع الكبير**، 3 : 31.

(2) أخرجه الطبراني في **المعجم الكبير** عن ابن عباس باختلاف يسير في اللفظ.
انظر ج. السيوطي، **الجامع الكبير**، 1 : 622.

(3) انظر **ديوان البحتري**، 2 / 1105 (بتحقيق كامل الصيرفي)، بزيادة بيت، وينسبان كذلك للشافعي، انظر **ديوانه**، 44 ــ 45، ونسبا في **ديوان الصبابة** لابن حجلة المغربي، ص 136، **وتزيين الأسواق** لداوود الأنطاكي، ص 208، لابن المعتز.

(4) انظر البيتين في **المسند**، ص 196.

وكان يقول : من وفق لحسن الاعتذار خرج من الذنب.

ومن حسن الاعتذار ما وقع لرجل مع المامون، ذكر أنه قال ليحيى بن أكثم [5] يوما : سر بنا نتفرج، فسار، فبينما هو بالطريق وإذا بمقصبة خرج منها رجل بغتة للمامون يتظلم له، فنفرت دابته فألقته على الأرض صريعا، فأمر بضرب ذلك الرجل، فقال : يا أمير المومنين، امهل علي حتى أكلمك وافعل ما بدا لك، فقال : قل وأوجز، فقال : يا أمير المومنين، ان المضطر يركب العصب من [ الأمور ] [6] وهو عالم بركوبه، ويتجاوز حد الأدب وهو كاره لتجاوزه، ولو أحسنت الأيام مطالبتي لأحسنت مطالبتك، ولأنت علي رد ما لم تفعل أقدر على رد ما قد فعلت، قال : فبكى المامون وقال : بالله أعد علي ما قلت، فأعاده، فالتفت المامون إلى يحيى [ وقال ] [7] : اما تنظر إلى مخاطبة هذا الرجل في أصغريه، والنبي ﷺ يقول : « المرء بأصغريه : قلبه ولسانه » [8] والله لا وقعت له إلا وأنا قائم على قدمي، فوقع له، وأمر له بصلة جزيلة، واعتذر إليه، فلما هم المامون بالانصراف قال : الرجل : يا أمير المومنين، بيتان حضرا، ثم أنشده :

ما جاد بالوفـر إلا وهـو معتـذر ... ولا عفـا قط إلا وهـو مقتـدر
وكلمـا قصدوه زاد نائلـه ... كالنـار يؤخذ منهـا وهـي تستعـر

ومن ذلك أيضا ما قيل : ان بعض الحكماء لزم باب كسرى في حاجة دهرا، فلم يصل إليه، فكتب أربعة أسطر في رقعة ودفعها للحاجب، فكان السطر الأول : الضرورة والأمل اقدماني عليك، والسطر الثاني : العديم لا يكون معه صبر عن مطالبة، والثالث : الانصراف من غير فائدة شماتة الأعداء، والرابع : إما نعم مثمرة، وإما لا مريحة. فلما قرأها كسرى وقع له في كل سطر بألف دينار [9].

---

(5) انظر ترجمته عند أ. بن خلكان، **وفيات الأعيان**، 6 : 147 — 165، والمصادر بالهامش 793 من الصفحة 147 من نفس المصدر.

(6) ما بين العقوفين سقط من « ز ».

(7) ما بين المعقوفين سقط من « ز ».

(8) لا يوجد الحديث في المصادر الحديثة الواردة عند الجلال السيوطي في **الجامع الكبير**، ولا عند أ. ي. ونسنك في المعجم المفهرس، غير انه يوجد عند الابشيهي في **المستطرف**، 2 : 56. ويبدو من خلال ذلك أن ابن القاضي أخذ الحديث أثناء أخذه للقصة من المصدر السابق. وعلى كل فالقول يوجد عند الميداني في **الأمثال**، 2 : 250، وهو قول الشاعر :

وإنما المرء بأصغريـه ... كل امـرىء رهـن بما لديـه

(9) **المستطرف**، 2 : 57.

ولمحمود الوراق :

أراني إذا ما زدت مالا ورغبة وخيرا إلى خير تدبرت في الشر
فكيف بشكر الله إذ كنت إنما أقوم مقام الشكر لله بالكفر
بأي اعتذار أو بأية حجة يقول الذي يدري من الأمر ما أدري
إذا كان وجه العذر ليس بواضح فإن اطراح العذر خير من العذر (10)

ولبعضهم في الاعتراف لله تعالى :

أيا رب قد أحسنت بدءا وعودة إليَّ فلم ينهض بإحسانك الشكر
فمن كان ذا عذر لديك وحجة فعذريَ إقراري بأن ليس لي عذر (11)

وللنابغة :

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً وليس وراء الله للمرء مهربُ
فلست بمستبق أخاً لَا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ أيُّ الرجال المُهَذَّبُ ؟ (12)

اعلم انه — أيده الله — لين الجانب، قليل العتاب، أسرع الناس قبولا للمعاذر وإقامة الحجج للجاني، وقد قدمنا ما هو عليه من الحياء، ولا شك ان الحياء والحشمة يمنعان المتصف بهما من استقصاء الزلات، وعدم اقالة العثرات، فحدث عن البحر ولا حرج، فهو الغيث إن استمطر، والليث إن استنصر، إن استقيل أقال، وإن استنيل أنال، فهو لرعيته رحمة ولمن ناواه وبال.

---

(10) المسند، ص 195.

(11) البيتان أيضا لمحمود الوراق.
انظر م. بن شاكر، **فوات الوفيات**، 4 : 81، والمسند، 196.

(12) البيتان من قصيدة يعتذر فيها النابغة للنعمان بن المنذر، مطلعها :

أرسما جديدا من سعاد تجنب عفت روضة الأجداد منها فيثقب

والبيتان المذكوران هما :
البيت 18 من القصيدة، والبيت 24 من نفس القصيدة انظر **ديوان النابغة**، ص 76 — 78.

ملاحظة :

رواية الديوان (مذهب) عوض (مهرب).

تمَّ الجزء الأوَّل ويليه الجزء الثاني.